جايمس بار

سادة الصحراء

الصراع الأميركي–البريطاني على الشرق الأوسط

أواسط القرن العشرين

'كتابٌ مدهش'
The Times

ترجمة
رائد الحكيم



جايمس بار

سادة الصحراء

الصراع الأميركي–البريطاني على الشرق الأوسط

أواسط القرن العشرين

'كتابٌ مدهش'
The Times

ترجمة
رائد الحكيم



سادة الصحراء

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- خط في الرمال: بريطانيا وفرنسا والصراع الذي شكّل الشرق الأوسط
- الصحراء تشتعل: لورانس العرب وأسرار الحرب البريطانية في الجزيرة العربية

جايمس بار

سادة الصحراء

الصراع الأميركي–البريطاني على الشرق الأوسط أواسط القرن العشرين

ترجمة
رائد الحكيم

مراجعة وتدقيق
ناصر عبد الحميد



James Barr, Lords of the Desert: Britain's Stuggle with America to Dominate the Middle East,Simon & Schuster UK Ltd, 2018

الطبعة العربية

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٠

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢٠

ISBN-978-614-425-559-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٢٠٣٣ - ٦١١٤
هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على



@DarAlSaqi



دار الساقي



Dar Al Saqi

إلى آنا

مقدّمة

"آه إينوك، عزيزي إينوك! قال لي ذات مرة شيئاً لم أفهمه أبداً"، قال أنطوني إيدن معترفاً بعد انتقاله إلى التقاعد. كان رئيس الوزراء البريطاني السابق يتذّكر محادثة كان قد أجراها مع إينوك باول في أواخر الأربعينيات. كان حزب المحافظين حينذاك لجهة المعارضة. كان إيدن، الذي كان يُعتبر على نطاق واسع في تلك المرحلة أفضل وزير للخارجية عرفته بريطانيا على الإطلاق، ينقر دماغ زميله الذكي على نحو هائل، بالكلام على سياسة الإسكان أثناء استعداده لإلقاء خطاب.

قال باول: ''لقد أخبرتك بكل ما أعرفه عن السكن، ويمكنك الإدلاء بخطابك وفقاً لذلك''. وتابع: ''هل يمكنني التحدث معك عن أمر تعلم كل شيء عنه في حين لا أعرف أنا شيئاً عنه؟ أريد أن أقول لك أن أعظم أعدائنا في الشرق الأوسط هم الأميركيون''.

قال إيدن مفتكراً بعد كلّ تلك السنوات: ''أتعرف، لم يكن لدي أي فكرة عمّا قصده، لكنني أدرك ذلك الآن''.

بدا باول بنظرته الباردة معتوهاً بعض الشيء، وقد عزّز هذا الانطباع النبوءة المحرِّضة التي أدلى بها في وقت لاحق عن الهجرة. لكن بالنسبة إلى هذا، على الأقلّ، ليس هناك من شكّ حول صحّة ما قاله إينوك. لقد أمضى باول السنوات المحورية للحرب في الشرق. وشهد على مؤتمر الدار البيضاء المشحون بين تشرشل وروزفلت عام 1943، الذي اعترف خلاله قائد الأركان التابع للرئيس: ''هناك الكثير من المشاعر المعادية لبريطانيا من جهتنا''. ولم يكن الرجل الوحيد الذي كان ينظر إلى بريطانيا والولايات المتحدة كمتنافستين في المنطقة. فقد كتب خصمه السياسي ريتشارد كروسمان أن الأميركيين يمثّلون ''أكبر خطر على الحكم البريطاني في الشرق الأوسط اليوم''، بعد زيارة إلى فلسطين في 1946. لم يقتصر هذا الشعور على البريطانيين فقط. فبعد ذلك بعامين، جاسوس أميركا كيم روزفلت الذي كان قد خدم أيضاً في القاهرة خلال الحرب تذكّر ''عندما كان الممثّلون البريطانيون الموجودون في الموقع يتحدّون تعليمات لندن ويبذلون كلّ ما في وسعهم للحدّ من أعداد الأميركيين المعارضين لهم... والأميركيون الموجودون على الساحة الذين كانوا ينفّذون كلّ أعمالهم بدافع الرغبة في 'القضاء على البريطانيين'''. ولدى إجرائه جولة أخرى في المنطقة بعد الحرب، تأكّد له أن ''الأميركيين والبريطانيين في الشرق الأوسط لا يتّفقون جيداً مع بعضهم بعضاً''.

لكنّ كلّ ذلك صار من التاريخ. فخلال الحرب الباردة حاولت بريطانيا والولايات المتحدة ألّا تلفتا الانتباه إلى خلافاتهما، وحتى يومنا، لا تزال الحكومة البريطانية تحتفظ بما قيمته أكثر من مئة مليون من الملفات عن حليفها تفضّل ألّا ترفع السرية عنها. من الواضح أنه من الأفضل تجنب إلقاء الكثير من الضوء وتبديد السحر. إن هذه السياسة السرية والتحالفات الأنجلو–أميركية في الخليج عام 1991، والعراق بعد ذلك في 2003، قد ساعدت في إخفاء حقيقة كانت ذات يوم معروفة لدى الجميع: منذ 1942، حتى خروج بريطانيا من الخليج في 1971، كانت بريطانيا والولايات المتحدة متنافستين ثابتتين في الشرق الأوسط، ومتنافستين صريحتين في أحيان كثيرة. كما سيُظهر هذا الكتاب، شكّل الجهد الأنجلو–أميركي المشترك للإطاحة برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدّق في 1953 – الذي غالباً ما يُعرض كدليل على التواطؤ الأنجلو–أميركي – الاستثناء وليس القاعدة.

***

إنه فصل رائع من قصّة طويلة، إذ لطالما شكّل الشرق الأوسط ساحة لصراع القوى العظمى. ففي النصف الأول من القرن العشرين، كانت بريطانيا وفرنسا القوى العظمى حينذاك. وفي منتصف الحرب العالمية الأولى، قسّمتا الأراضي العربية العثمانية بينهما بعد فوزهما بالحرب، ثم قسّمتاها إلى انتدابات حكمتاها خلال الجزء الأكبر من الأعوام الثلاثين. غادر الفرنسيون في 1946، بعد أن طردهم القوميون اللبنانيون والسوريون بمساعدة سرية من البريطانيين. إن أي شعور بريطاني بالنصر لم يكن ليدوم طويلاً، إذ كانت تستتبعه منافسة جديدة مع الولايات المتحدة.

كان الدافع الأساسي وراء رغبة بريطانيا في السيطرة على الشرق الأوسط إستراتيجياً في المقام الأول: بالسيطرة على حزام من الأراضي يمتدّ من مصر إلى إيران، يمكنها التحكّم في الطريق التي تصل أوروبا بالهند. مع ذلك، عندما جعل استقلال الهند في 1947 هذه الحجّة غير مبرّرة، كان قد استبدل بتبرير آخر: النفط. كانت هيمنة الشركات البريطانية على إنتاج النفط في الشرق الأوسط قد صارت مصدراً حيوياً لعائدات المملكة، وحسّنت رصيد المدفوعات لدى بريطانيا الذي كان يعاني من ضعف دائم، ومنحت البلاد القدرة على الدفاع عن نفسها في حال نشوب حرب مع روسيا السوفياتية. إن الاعتقاد بأن النفط كان، على حدّ قول أحد الوزراء، "مورداً تبذيرياً" سينفد بحلول نهاية القرن – إن لم يستبدل بالطاقة الذرية (التي كان أناس كثيرون في ذلك الوقت يتوقّعون استخدامها لتشغيل السيارات) – حفّز التفكير على المدى القصير، وغذّى أملاً واحداً على وجه

الخصوص: إمكانية أن يقاوم البريطانيون الضغوط القومية المتزايدة لمدة تفوق مدةَ تدفّق النفط من الأرض.

كان للنفط والأرباح الضخمة التي ولَّدها تأثير في كلّ ما حدث تقريباً بعد 1947 في هذه القصة، فقد كان سبباً دائماً للتوتّر بين واشنطن ولندن. مقارنة مع الحكومة البريطانية التي كانت تمتلك القسم الأكبر من شركة النفط الأكبر العاملة في المنطقة، والتي امتلكت عبرها حصّة في شركة أخرى، بدت الولايات المتحدة أقلّ تنظيماً بكثير. فغالباً ما كان هنالك تضارب بين أهداف حكومتها وصناعتها النفطية. ما إن أدرك الأميركيون الحجم الكامل للاحتياطات النفطية الإقليمية المفترضة، حتى اكتسب امتياز المضاربة الذي فازت به شركة "أرامكو" الأميركية للبحث عن النفط في المملكة العربية السعودية أهمية إستراتيجية جديدة.

في حين قاد التفكير القصير المدى البريطانيين إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة بعدائية، كان الهمّ الأساسي للأميركيين تجارياً في المقام الأول، ما جعلهم أكثر واقعية ومرونة. تعرّضت "أرامكو" للضغط من السعوديين بدءاً من أواخر الأربعينيات، ولكن لإمكانية اعتمادها على دعم حكومة الولايات المتحدة، وافقت على تقسيم أرباحها بمعدّل 50% مع الملك السعودي. لم يؤدِّ ذلك فقط إلى ارتفاع مفاجئ في كمية المال الذي صار بإمكان السعوديين إنفاقه لدعم طموحاتهم الإقليمية الخاصة، لكنه أرسى أيضاً لسابقة رفض المنافسون البريطانيون للشركة الأميركية اتّباعها. أثار هذا الخطأ في التقدير سلسلة من الأحداث بدءاً من تأميم إيران الشركات الإنكليزية–الإيرانية، الذي جرّد بريطانيا للمرة الأولى من تلك الأصول الإمبراطورية الجوهرية ومن نفوذها، ودفع بهذه القوة التي كانت في يوم ما عظيمة قبل أن تُجرّد من كلّ شيء إلى المحاربة حتى الرمق الأخير تجنّباً للسقوط.

حرّض الأميركيون عن قصد هذه العملية، وهي حقيقة كان إيدن – رغم ادعائه في وقت لاحق جهله بها – يعرفها جيّداً في ذلك الوقت. بعد ستّة أشهر من "معركة العلمين" الحاسمة – في وقت كان فيه البريطانيون لا يزالون يحكمون فلسطين مباشرة ويحتلّون نصف بلاد فارس، ويهمسون في آذان ملوك مصر والأردن والعراق – كتب وزير الخارجية مذكّرة يقرّ فيها بالمنحى الصعب جداً الذي اتّخذته العلاقات الإنكليزية–الأميركية في الشرق الأوسط. وقد لخّص فيها وصفاً للخطر الذي يتهدّد موقع بريطانيا في المنطقة على أنه "نهضة قومية مهمة... لقوتين متناحرتين: العروبة والصهيونية"، أثارها "خبراء الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة". أوحى استخدام إيدن عبارة "النهضة" بأن البريطانيين قد سبق وخبروا الاثنتين. الجديد في الأمر – ونذير السوء في نظر وزير الخارجية – كان نجاح الصهاينة حالياً في تملّق الولايات المتحدة للحصول على دعمها. وفي الوقت

المناسب، سيعمد القائد القومي العربي البارز في تلك الحقبة، عدوّ إيدن، جمال عبد الناصر، إلى المثل.

كان البريطانيون يعتزمون الاعتماد على الأميركيين لمواجهة هذين التهديدين. كانوا يأملون في إحباط الطموحات الصهيونية عن طريق إقناع حكومة الولايات المتحدة بالاعتراف بموقفهم المتميّز في فلسطين. وإذا نجحوا أيضاً في إقناع واشنطن بدعم اقتصاد نظام ما بعد الحرب في المنطقة التي كانوا يحلمون بها، قالوا إنهم قد يطيلون هيمنتهم على الشرق الأوسط ككلّ.

اليوم يبدو واضحاً أن هذه الإستراتيجية كانت غير صحيحة، لكن في 1945 لم يكن يتمتّع البريطانيون بالقدرة على استباق الأمور. كانوا يتوقعون أن يغرق نظراؤهم في حالة العزلة التي كانوا يشهدونها ما قبل الحرب، تماماً كما فعلوا بعد الحرب العالمية الأولى. عندما لم يحدث هذا، وجد البريطانيون أنفسهم في مواجهة منافس ضخم: الحليف نفسه الذي افترضوا أنه سيكون أقرب صديق إليهم. ها هي قصة نضالهم.

القسم الأول

البحث عن المتاعب 1941–1948

1

بداية النهاية

وقف ونستون تشرشل وسط قصر مانشن في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942 مُحاطاً بكلّ من رئيس بلديّة لندن ورئيس أساقفة كانتربري، ليعلن الأخبار السارّة: "لقد حقّقت بريطانيا أخيراً انتصاراً حاسماً في الشرق الأوسط". شعر رئيس الوزراء بحقّ أنّ الحرب وصلت إلى نقطة تحوّل، لكنّه كان حريصاً على ألّا تشجع كلماته على التقاعس. فواصل كلامه محذّراً: "إنّها ليست النهاية"، قبل تحويل العبارة التي اشتهر بها خطابه. "إنّها ليست حتّى بداية النهاية. لكنّها قد تكون نهاية البداية".[1]

[1] إنه مثال جيد على الطباق. إن الاقتباسات جميعها مأخوذة من خطاب تشرشل:

''Great Design'' in Africa', *The Times*, 11 November 1942.

مهما كانت أهمّية هذه اللحظة، لا شكّ أنّها كانت مُرتقبة منذ مدة طويلة. فالأخبار كانت سيّئة لثلاث سنوات كاملة دون انقطاع. قال تشرشل: ''خلال حروبنا، كانت الأحداث معاكسة جدّاً، لكنّ النتائج النهائيّة كانت مرضية حتّى الآن''، وفكّر ملياً قبل أن يذكّر جمهوره: ''في الحرب الأخيرة، كنّا في القمّة حتّى النهاية تقريباً''. ثمّ اقتبس قولاً لرئيس وزراء يوناني سابق لاحظ ذات مرة أنّ بريطانيا قد فازت بمعركة واحدة، الأخيرة. وقال لإثارة الضحك: ''يبدو أنّ ذلك بدأ في وقت سابق لأوانه هذه المرّة''. لم يعكس صوته شعوراً بالمرح بقدر تعبيره عن الارتياح.

كان تعبير ''معاكسة جداً'' خطأ بريطانيّاً بنوع خاصّ عند استخدامه وصف حرب كانت تشهد كارثة تلو أخرى. بعد النرويج ودنكيرك في 1940، واليونان وكريت في 1941، لم تخفَ على أحد حقيقة أنّ 1942 كان أيضاً كارثيّاً حتّى الآن. في شباط/ فبراير، كانت البارجتان الألمانيّتان Scharnhorst وGneisenau قد دخلتا عبر مضيق دوفر دون أيّ معارضة. وبعد بضعة أيّام، استسلمت سنغافورة وأسَر اليابانيّون نحو خمسة وثمانين ألف جنديّ من القوّات البريطانيّة، ولاقى العدد الأكبر منهم حتفهم. وصف تشرشل الحامية القويّة في ميناء طبرق البالغ عديدها ثلاثة وثلاثين ألف جنديّ أنّها محور للمقاومة البريطانيّة ضدّ هتلر. لكن في حزيران/ يونيو، وبينما كان في

واشنطن للتشاور مع فرانكلين روزفلت، استسلم هو أيضاً. لن ينسى كيف مرّر له الرئيس بوقاحة ورقة زهريّة تنقل إليه الأخبار، قبل أن يسأله بلطف هل كان هناك أيّ شيء يمكنه فعله للمساعدة. كتب تشرشل في مذكّراته: ''إنّ الهزيمة شيء، أمّا العار، فشيء آخر''.[2]

2 Churchill, *The Second World War*, Vol. IV, p. 344.

عاد رئيس الوزراء المُحاصر من واشنطن إلى لندن لمواجهة الانتقادات التي ترى أنّ إستراتيجيّته كانت فاشلة، وكذلك الدعوات للاستقالة من منصبه وزيراً للدفاع. كانت تلك الإستراتيجيّة الخطوة الأولى في مسار إقصائه نهائيّاً. كان رجلاً ''يفوز بنقاش تلو الآخر ويخسر معركة تلو الأخرى''، كما صرّح أحد المتشكّكين خلال مناقشة برلمانيّة حول إدارته الحرب. رغم نجاح تشرشل بسهولة في التصويت على الثقة الذي أعقب ذلك، وتوجّهه بوقت قصير إلى مصر للاطّلاع على الوضع بنفسه، كان من الصعب إنكار صحّة ما آل إليه منتقدوه، ليس أقلّه عندما اتّضح أنّ الهجوم على ميناء دييب شكّل فشلاً ذريعاً في آب/ أغسطس ذاك.[3]

3 HC Deb, 2 July 1942, Vol. 381, c. 528. كان المتحدث أنورين بيفان

في قصر مانشن، صار أخيراً لدى تشرشل ما يواجه منتقديه به. أعلن مهلّلاً: ''صارت لدينا تجربة جديدة. تجربة النصر، نصر رائع ومؤكّد''. في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر، شنّت قوة بريطانية في غالبيّتها هجوماً على الألمان في العلمين. وبعد بضعة أيام، بعد انتهاء انتخابات منتصف الولاية، نزلت قوّات الولايات المتّحدة عند الطرف الآخر من شمال أفريقيا. وأعلن رئيس الوزراء أنّ الجيش الألمانيّ، الذي يتراجع الآن بتهوّر لتجنّب الوقوع بين قبضة الأميركيّين والبريطانيّين، ''قد تعرّض لتدمير كبير كقوّة مقاتلة''.

إن كان تشرشل قد بدا في النصف الأول من خطابه متفائلاً بعض الشيء، فإنّه في النصف الثاني اتّخذ موقفاً ملؤه التحدي، فهو كان على علم بما سيحدث لاحقاً. لأنه كان وزيراً خلال الحرب السابقة، كان يعلم من تجربته الشخصيّة أنّ احتمال نهاية الحرب الحاليّة – بغضّ النظر عن الوقت الذي سيتطلّبه تحقيق النصر النهائيّ – سيثير مرّة أخرى نقاشاً بين بريطانيا والولايات المتحدة حول هيكليّة السلام.

كانت هناك مؤشّرات على أن التاريخ يعيد نفسه. فمن الجانب الآخر الآمن للمحيط الأطلسيّ، كان روزفلت يجادل بأنّه لا يوجد مكان لإمبراطوريّة في عالم ما بعد الحرب، تماماً كما فعل سلفه وودرو ويلسون خلال الحرب الأخيرة وبعدها، الذي عارضه البريطانيّون على طول الطريق.

عندما أعلن سكرتير تشرشل الخاصّ، خلال الهدنة في 1918، أنّه ممتنّ جدّاً للمساهمة الأميركيّة في النصر، لدرجة أنّه أراد تقبيل العمّ سام "على خدّيه"، ردّ تشرشل قائلاً: "لكن ليس على الأربعة".[4]

[4] Hassall, *Edwin Marsh*, p. 484.

بحلول تشرين الثاني/ نوفمبر 1942، بدا من المرجّح أن تشرشل تخوّف، في حال عرض عليه العمّ سام خدّيه الآخرين، من أن يكون من الصّعب عليه الرفض. قبل مرور عام، بعد أن تحالفت بريطانيا مع ستالين عقب غزو هتلر الاتّحاد السوفياتيّ، كان قد تلقّى من روزفلت دعوة لحضور اجتماع من الجهة المقابلة لنيوفاوندلاند: عبر المحيط، وهو شبه متأمّل أن يعلن الرئيس الحرب حينذاك هناك. كان ليُصاب بخيبة أمل. بدلاً من ذلك، وخلال مأدبة عشاء في 9 آب/ أغسطس 1941، طلب منه روزفلت الذي كان يتساءل عن الصفقة السرّية التي قد يكون عقدها البريطانيّون مع الروس، التزامَ إعلان مشترك يحترم مبادئ تقرير المصير والتجارة الحرّة لـ"جميع الشعوب". كان تشرشل يعرف أنّه سيترتّب على كلتا الفكرتين تداعيات مشؤومة على بريطانيا وإمبراطوريّتها، لكنّه لم يجرؤ على إزعاج الرجل الذي كان يعقد عليه آماله بالنّصر. فسارع ومستشاروه إلى صياغة الإعلان الذي أدخل عليه روزفلت تعديلات كبيرة، لكنّ تشرشل تمكّن من تخفيفها إلى حدّ ما عن طريق حذف إشارة الرئيس إلى "التمييز" التجاريّ – هو هجوم على نظام التعريفات المفروض في أنحاء الإمبراطوريّة البريطانيّة كافّة، المعروف باسم "التفضيل الإمبراطوريّ" – ما تسبب في ترك الشركات الأميركيّة تحاول بيع السلع في هذه السوق الهائلة متكبّدة أضراراً كبيرة. إنّما لم يكن لديه خيار آخر سوى الموافقة على ما سيُعرف بـ"ميثاق الأطلسي"، وكان من الواضح أنّ القضايا التي تطرّق إليها لن تختفي، خاصّة عندما باشرت الولايات المتّحدة وضع مشروع قانون لمجهود الحرب البريطانيّ، ثمّ انضمّت بنفسها – بعد بيرل هاربُر – إلى المعركة.

كان تشرشل يعلم أنّه لن يستطيع كسب الحرب منفرداً، ولذا حاول منذ البداية "جرّ الأميركيّين" إليها. بعد أن تمكّن من ذلك، اضطرّ إلى مواجهة عواقب نجاح تلك الإستراتيجيّة. لم يشعر إلّا بعد مدة قصيرة من ذلك، أثناء وجوده في قصر مانشن، بعد الفوز بمعركة العلمين، أنّه صار قويّاً بما فيه الكفاية ليشنّ عمليّة دفاع قويّة عن الإمبراطوريّة ضدّ الهجوم الأميركيّ المرتقب. رغم اعترافه بسهولة أنّ الأسلحة والمعدّات الأميركيّة هي التي مكّنت أخيراً من خوض معركة على قدم مساواة مع الألمان في العلمين، فإنّه أكّد أنّه "تمّ خوض (المعركة) بالكامل تقريباً برجال من دم بريطانيّ".

وقال إنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة شكّلت لعام المقاومة الوحيدة في وجه هتلر، وإنّه لم يكن لديه أيّ نيّة لقبول تفكّكها الآن. وأصرّ على أنّ بريطانيا لم تكن تحارب "من أجل الربح أو التوسّع"، داحضاً الاتّهامات التي كانت تُشاع بانتظام – ليس من العدو فقط –، كما أنّ الوقت قد حان لتوضيح أمر آخر. صرّح قائلاً: "علينا التمسّك بما لدينا. لم أصبح رئيس وزراء الملك لأعمل على تصفية الإمبراطوريّة البريطانيّة... إنّني فخور بكوني عضواً في هذا الكومنولث الواسع وفي تجمع الأمم والمجتمعات المنضوية تحت المملكة البريطانيّة القديمة وحولها، التي لولاها، لكانت القضيّة الحقّة اختفت عن وجه الأرض. ها نحن هنا، وسنبقى صخرة خلاص صلبة وسط هذا العالم المتداعي". غالباً ما يُفترض أنّ هذه التصريحات كانت موجّهة إلى روزفلت. لكنّ تشرشل كان في الحقيقة يستهدف أميركيّاً آخر.

***

قبل تسعة أسابيع، عندما كان النصر الذي أعلنه تشرشل أمراً بعيد المنال وغير مؤكّد، هبطت قاذفة أميركيّة من أربعة محرّكات في مطار القاهرة تقلّ على متنها راكباً مهمّاً. ما إن توقّفت، حتّى فُتح الباب الجانبيّ المبطّن ليكشف عن رجل كبير مألوف المظهر، ويرتدي بدلة مجعّدة ويعتمر خوذة صغيرة. رفع يده قليلاً ليسلّم على الحشد الصغير الذي التفّ ليحيّيه.

بفضل التغطية الصحافيّة الضخمة للانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة قبل عامين، تمّ التعرّف فوراً إلى ويندل س. ويلكي: لقد كان المرشّح الجمهوريّ، الحصان الأسود من إلوود في ولاية إنديانا، صاحب الصّوت الجهوريّ واليد الزلزاليّة في المصافحة، الذي تحدّى روزفلت لمنصب الرئاسة لكنّه خسر. صار الآن مبعوثاً خاصّاً من الرجل نفسه الذي هزمه، وقد جاء إلى مصر في رحلة بحريّة مسافتها 31 ألف ميل حول العالم.

كان من المفترض أن تكون هذه الرحلة تجربة تدريبيّة لويلكي، وكان لذلك تداعيات مأساويّة على بريطانيا. إذ عندما انطلق السياسيّ الأميركيّ من الساحل الشرقيّ في نهاية آب/ أغسطس 1942، كان من المؤيّدين الأميركيّين الأكثر نفوذاً لبريطانيا. لكن عند وصوله إلى الساحل الغربيّ، بعد تسعة وأربعين يوماً، صار أحد نقّادها الأكثر صراحة. من الواضح بعد مرور الوقت أنّ ويلكي ساعد على تحفيز بداية النهاية للإمبراطوريّة البريطانيّة في الشرق الأوسط.

بعد أن اتخذ بعض الوضعيات لالتقاط صور فوتوغرافيّة له بجانب طائرته، غادر ويلكي إلى السفارة الأميركيّة حيث أطلعه السفير على الوضع الهشّ. كانت عشرة أسابيع قد مرّت منذ استيلاء

الجنرال الألمانيّ إرفين رومل على طبرق ومطاردته البريطانيّين إلى دفاعاتهم التي أُعدّت في العلمين، على بعد 75 ميلاً غرب الإسكندريّة. حتّى تلك اللحظة، تمكّنت القاهرة من البقاء بمنأى عن قسوة الصراع. لكنّ جوّ الهدوء السائد نُسف في 1 تموز/ يوليو. ففي اليوم الذي أُطلق عليه اسم "أربعاء الرّماد"، أحرقت السفارة البريطانيّة والقيادة العسكريّة ملفّاتهما بطريقة غير ملائمة، ما أدّى إلى تناثر شظايا متفحّمة من المعلومات السرّية ونشر الذعر عبر أرجاء المدينة.

بعدها بوقت قصير، ظهر تشرشل في القاهرة. بعد أن نجح في الحصول على الثقة من البرلمان، سافر إلى مصر ليتمكّن من زيارة الجبهة، وطرْد الجنرال الذي يستلم القيادة، والإصرار على تنفيذ أمره بالقتال حتّى الرجل الأخير إذا لزم الأمر. رغم ذلك، كان السفير الأميركيّ "غير متفائل بالنسبة إلى المستقبل"، كما تذكّر ويلكي الذي ألقى اللوم على "خداع البريطانيّين".[5]

[5] Willkie, *One World*, p. 4; *FRUS*, 1942, Vol. IV, p.72, Kirk to Hull, 16 February 1942.

كان هذا التفسير غير مكتمل، لأن الألمان فككوا الشفرة التي كان يستخدمها الملحق العسكري الأميركي الذي كان يبرق تقارير عن خطط بريطانيا إلى واشنطن. (TNA, FO 1093/238, Stockholm to FO, 13 August 1942)

ازداد الوضع العسكريّ الهشّ سوءاً بسبب سوء العلاقات بين البريطانيّين والمصريّين. فقد اجتاح البريطانيّون مصر في 1882 من أجل الاستيلاء على قناة السويس وحماية الطريق إلى الهند، ولم يغادروا قطّ منذ ذلك الحين. "نحن لا نحكم مصر"، هذا ما صرّح به أوّل قنصل عامّ بريطانيّ في البلاد، "نحن نحكم حكّام مصر فقط". لم يفهم عامّة الناس هذا التفصيل. سمح البريطانيّون ببقاء مصر جزءاً من الإمبراطوريّة العثمانيّة يديرها خديويّ أعلن إجلاله للسلطان العثمانيّ، وقد دام هذا الترتيب إلى حين إعلان العثمانيّين الحرب على بريطانيا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914. في ذلك الوقت، رفض البريطانيّون الخديويّ ونصّبوا عمّه سلطاناً، وأعلنوا مصر سلطة وصاية. استمرّ ذلك حتّى 1922، عندما نصّب السلطان نفسه ملكاً وأعلن استقلال البلاد.[6]

[6] Mangold, *What the British Did*, p. 6.

لكنّ كلفة استقلال مصر كانت باهظة لدرجة أنّه فقد معناه. فللحصول على حرّيتهم، اضطرّ المصريّون إلى الإذعان لمعاهدة تمنح بريطانيا الحقّ في وضع عشرة آلاف جنديّ على طول قناة السويس وجعلها مسؤولة عن الدفاع عن البلاد في حال التعرّض لأيّ هجوم، وقد زرع هذا الترتيب بذور أزمة السويس في 1956. أدّى اندلاع الحرب في 1939 إلى إعادة استقدام مئات الآلاف من قوّات الإمبراطوريّة البريطانيّة إلى مصر، يرافقهم تضخّم كبير ونقص في الموادّ الغذائيّة. وكان من

شأن التدابير الكثيرة التي فُرضت للدفاع عن البلاد أن تسبّبت في صدام لا نهاية له بين المصريّين والبريطانيّين.

أمّا الرجل الذي كان محور هذه المشكلة، والذي قابله ويلكي بعد تكليفه من السفير الأميركيّ، فكان السفير البريطانيّ في مصر حينذاك، السير مايلز لامبسون. كان هذا المتسلّط الذي يبلغ طوله نحو مترين، والذي كان يعتقد منذ مدة طويلة أنّه ينبغي بكلّ بساطة ضمّ مصر إلى الإمبراطوريّة البريطانيّة، يعمل خارج المكتب في المبنى رقم 10 في شارع شريعة طلمبات في المدينة، المعروف باختصار بـ"الرقم 10". سرعان ما أدرك ويلكي السبب. رغم أنّ لامبسون كان ظاهريّاً أبرزَ ديبلوماسيّ في مصر، لكنّه "حاكمها الفعليّ في ما يتعلّق بالأهداف العمليّة كافّة".[7]

[7] Willkie, *One World*, p. 16.

ما أثار إعجاب لامبسون الطريقة التي سمح فيها الملك فاروق، ملك مصر، بتغذية مشاعر التأييد لدول المحور في بلاده. قبل ستّة أشهر، في 4 شباط/ فبراير 1942، حاول دون جدوى أن يضع حدّاً لهذا الوضع المزعج، ما تسبّب في حادثة ساهمت في زيادة الوضع سوءاً. فعقب استقالة رئيس الوزراء المصريّ آنذاك، وجّه السفير إنذاراً إلى فاروق ليطلب من سياسيّ أكثر التزاماً أن يتولّى المسؤوليّة، أو أن يتنازل عن العرش. عندما رفض الملك، في السادسة من مساء ذلك اليوم، الإذعان لهذا الطلب، زار نائب القنصل البريطانيّ الفظّ المقرّ الملكيّ، قصر عابدين، برفقة عدد من الجنود والدبّابات ورسالة استقالة قدّمها إلى فاروق للتوقيع عليها.

تراجع فاروق، واعترف لامبسون في يوميّاته بعد انتهاء أمسية طويلة بأنّه "لم يكن ليستمتع أكثر" بالمواجهة، لكنّ التأثير الشافي لِما صار يُعرف باسم "حادثة قصر عابدين" كان سريعاً. في اليوم التالي، قال: "ما زلنا نواجه حقيقة أنّ لدينا شخصاً بغيضاً على العرش، وفي حال ساءت الأمور معنا قد يطعننا في الظهر". كانت علاقته بالملك مجرّد هراء.[8]

[8] Evans, ed., *The Killearn Diaries*, pp. 215, 218, 4, 5 February 1942.

التقى ويلكي لامبسون وفاروق، ثمّ توجّه إلى الجبهة لمقابلة الجنرال مونتغمري الذي كان قد تولّى المسؤوليّة للتوّ. وبالنظر إلى وجهة نظر السفير الأميركيّ بشأن البراعة العسكريّة البريطانيّة، كانت توقّعات ويلكي متدنّية، لكنّه وجد أنّ شخصيّة مونتغمري "السحريّة العلميّة، القويّة والقريبة من التعصّب" أكثر إثارة للإعجاب. بتحريض من الجنرال البريطاني الذي صدّ هجوماً شنّه رومل قبل ستّة أيّام، صرّح للمراسلين الذين كانوا يرافقونه بأنّهم كانوا يشاهدون "نقطة التحوّل للحرب".[9]

9 Willkie, *One World*, p. 5; TNA, PRE M 4/27/1; ‘Willkie at the Front’, *Collier’s Magazine*, 24 October 1942.

بالنسبة إلى ويلكي، كان السؤال الملحّ هو معرفة ما الذي سيحدث باعتقاد البريطانيّين بعد فوزهم بالحرب. بين القاهرة والجبهة، ناقش هذا السؤال مع مجموعة من المسؤولين البريطانيّين على العشاء في الإسكندريّة. وكتب لاحقاً: ”حاولتُ الحصول على رأي هؤلاء الرجال... بالنسبة إلى نظرتهم إلى المستقبل، خاصّة مستقبل النظام الاستعماريّ وعلاقاتنا المشتركة مع شعوب الشرق المتعددة“. لكنّ أجوبتهم شوّشته. ”ما وجدته هو روديارد كِبلينغ الذي لم تمسّه حتّى ليبراليّة سيسيل رودس... وهؤلاء الرجال الذين ينفّذون سياسات صُنعت في لندن لم يكن لديهم أيّ علم بأنّ العالم يتغيّر... معظمهم كان قد قرأ عن ميثاق الأطلسيّ. لم يخطر لأيّ منهم احتمال تأثير ذلك في حياتهم المهنيّة أو تفكيرهم“. كان الأمر تماماً كما كان يخشاه، ولم يكن لديه شكّ في أنّ رئيس الوزراء البريطاني كان مسؤولاً عن ذلك.[10]

10 Willkie, *One World*, pp. 14–15.

***

كان ويلكي مشكّكاً بشأن ونستون تشرشل منذ أوّل لقاء له مع رئيس الوزراء البريطاني في أوائل 1941، قبل عشرة أشهر من دخول الولايات المتّحدة الحرب. كانت هزيمته على يد روزفلت حديثة العهد، لكنّ طموحاته الرئاسيّة لم تتأثر بذلك. فقد ذكّر نفسه أنّه في النهاية حصل على أصوات أكثر من أيّ مرشّح جمهوري سابق. كان ليكون رئيساً الآن لولا وجود ستمئة ألف ناخب موزّعين في عشر ولايات. رغم أنّه كان يأمل بالفعل في الترشّح مرّة أخرى في 1944، كان دخيلاً لا يتمتّع بأيّ مركز سياسيّ. لذا، كان بحاجة إلى إيجاد وسائل أخرى للبقاء على مرأى من الناس. ولهذا السبب، قرّر في كانون الثاني/ يناير 1941 إرسال مساعدات عسكريّة إلى بريطانيا، وكانت تلك قضيّته التالية.

بذلك، تورّط ويلكي في أعظم جدال سياسيّ كانت تشهده الولايات المتحدة في تلك المرحلة. عندما كانت الانعزاليّة في أوجّها خلال ثلاثينيات القرن العشرين، أُرغم روزفلت نتيجة الضّغط الشعبيّ على إقرار سلسلة من قوانين الحياد التي تهدف إلى جعل احتمال تورّط أميركا في حرب عالميّة أخرى أقلّ احتمالاً. منعت القوانين الإدارة من بيع الأسلحة، أو إقراض الأموال للدول الأجنبيّة المتحاربة. بعد اندلاع الحرب، تمكّن روزفلت من إقناع الكونغرس بتخفيف القيود، والسماح بشراء الأسلحة نقداً وشحنها، لكنّه لم يتمكّن من إلغاء حقّ النقض على القروض. بحلول نهاية 1940،

صارت هذه مشكلة ملحّة. فحذّر تشرشل الرئيس في رسالة يقول له فيها: ”قريباً جدّاً، سنصبح عاجزين عن الدفع نقداً كلفة الشحن وغيره من الإمدادات“.[11]

[11] Churchill, *The Second World War*, Vol. II, p. 500.
كانت رسالة تشرشل مؤرخة في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1940.

في حين رأى تشرشل المحيط الأطلسيّ الرابط الذي يوحّد بريطانيا وأميركا، رآه كلّ من ويلكي وروزفلت خندقاً مائيّاً مفيداً إلى حدّ ما. كانا يعلمان أنّه كلّما صمدت بريطانيا مدة أطول، تأخّرت أميركا في الدخول في الصّراع، هذا إن كانت ستشارك فيه على الإطلاق. لذا، أثارت رسالة تشرشل قلقَ روزفلت: في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1940، أعلن الرئيس بلاده ”ترسانة الديموقراطيّة“، واقترح حلّاً على الكونغرس. بموجب ”قانون الإعارة والاستئجار“، ستقرض الولايات المتّحدة بريطانيا المعدّات التي تحتاجها للقتال، ليس مقابل الحصول على مدفوعات بل لقاء إعادة العتاد أو استبدال معدّات مماثلة به في نهاية الحرب. أعرب ويلكي عن تأييده هذا الإجراء في منتصف الشهر التالي، وأعلن ذهابه إلى لندن للتشاور. قال محذّراً: ”سيسعى المهادنون والانعزاليّون وأصدقاء بريطانيا المتملّقون إلى تخريب البرنامج من وراء ستارة المعارضة لهذا المشروع“.[12]

[12] Neal, *Dark Horse*, pp. 187–8.

روزفلت، الذي يحاول دائماً التوفيق بين الآراء، وافق تماماً على مهمّة ويلكي. لم يكن تمرير ”قانون الإعارة والاستئجار“ عبر الكونغرس أمراً منتهياً، نظراً إلى انتشار الانعزاليّة على نطاق واسع وتقاطعها مع خطوط الأحزاب. كان الرئيس حريصاً على إظهار مشاركة بعض الجمهوريّين وجهة نظره. كما أراد من منافسه القديم إيصال رسالة مشجِّعة إلى تشرشل. كان رئيس الوزراء يسعى إلى الحصول على طمأنة منذ أواخر كانون الأول/ ديسمبر، لكن حتّى وقت قريب كان روزفلت متردّداً إزاء منحها له.

يعكس هذا التأخير حقيقة غير مريحة. فعدا الأسباب السياسيّة لصمت روزفلت، هناك أيضاً أسباب شخصيّة. سلوك تشرشل خلال مأدبة عشاء في 1918 (حيث ”تصرّف كشخص نتن... وبفوقيّة“ على حدّ قول روزفلت)، وعدد من المقالات العدائيّة التي كتبها بعد ذلك عن الصفقة الجديدة في الثلاثينيّات، تركت انطباعاً لدى الرئيس بأنّ رئيس الوزراء لم يكن يحبّه. واضطرّ مستشاره الذكيّ والموثوق به هاري هوبكنز إلى إجراء زيارة إلى لندن لإقناعه بأنّ الوضع لم يكن كذلك. وأخيراً، في 20 كانون الثاني/ يناير، كتب روزفلت رسالة أعطاها لويلكي كي يسلّمها لتشرشل، وقد تضمّنت بضعة أبيات للونغفيلو، رأى أنها تنطبق ”على الشباب بقدر ما تنطبق علينا“:

أبحري يا سفينة الولاية
أبحرْ أيّها الاتّحاد القويّ والمذهل
إنّ البشرية بمخاوفها كافّة
وآمالها العتيدة كافّة
تحبس أنفاسها وهي متعلّقة بمصيرك.

في 26 كانون الثاني/ يناير 1941، سافر ويلكي إلى لندن، وسلّم الرسالة أثناء تناوله طعام الغداء مع رئيس الوزراء في اليوم التالي.

هذا هو التطمين الذي كان تشرشل بانتظاره. وفي ردّ على روزفلت في اليوم التالي، كتب أنّه "متأثّر للغاية" برسالة الرئيس، وأنّها "دلالة على علاقاتنا الوديّة التي بنيناها عن طريق التلغراف، ولكن أيضاً بالتخاطر في ظلّ كلّ الضغوطات".[13]

13 Beschloss, *Kennedy and Roosevelt*, p. 200; Winston Churchill, *The Second World War*, Vol. III, p. 23.

***

بالنسبة إلى تشرشل، الذي كان يحاول جذب الولايات المتّحدة إلى الحرب، شكّل ظهور ويلكي في لندن في خضمّ القصف الذي تعرّضت له المدينة (The Blitz) فرصة رائعة. كانت والدته جيني نيويوركيّة، وكان يرى أنّ هناك صلة بين بريطانيا وأميركا. تغافل عن موجات هجرة الأيرلنديّين واليهود والأوروبيّين الشرقيّين التي حوّلت الولايات المتّحدة في السنوات الأخيرة، ليؤكّد أن لا شيء "سيثيرهم (الأميركيّون) مثل القتال في إنكلترا"، وأنّ "النضال البطوليّ لبريطانيا" يمثّل "أفضل فرصة لإحضارهم". مع أخذ ذلك بالاعتبار، تذكّر في وقت لاحق أنّه منذ وصول ويلكي، "كنّا قد أجرينا كلّ الترتيبات اللازمة، بمساعدة العدوّ، للسماح له برؤية كلّ ما يريده في لندن عن بُعد". وقد تتبّعته الصّحافة الأميركيّة أينما ذهب. "فيني، فيدي، ويلكي"، كتبت إحدى الصحف عن زيارته.[14]

14 Gilbert, *Churchill and America*, p. 41; Meacham, *Franklin and Winston*, p. 51; Churchill, *The Second World War*, Vol. III, p. 23; 'Willkie in Air Raid, Forgets his Tin Hat', *The Republic*, 28 Januar 1941.

بعد أن أمضى أسبوعاً في لندن، نُقل ويلكي ليلة السبت إلى الرّيف للإقامة في تشيكرز مع تشرشل الذي أخبره بطريقة مسرحيّة أنّه سيكون أكثر أماناً هناك. استمتع رئيس الوزراء بالترفيه عن الضيوف الأجانب، لأنه على الأقل كانت الاعتمادات الحكوميّة ستتكفّل بالفاتورة المخصّصة

للضيافة، وأمضى الرجلان ثماني ساعات ممتعة معاً. قال ويلكي عن مضيفه: ”إنّه الشخص الأكثر براعة في النقاش وتبادل الأفكار. يمكنه أن يضرب. يمكنه أن يأخذ، وأن يقدّر ويعترف بضرباتك“.[15] ذكر ويلكي لاحقاً أنّهم شربوا نخب دافعي الضرائب البريطانيّين الذين كانوا يدفعون بدلاً من تشرشل بسبب معاناته من ضائقة ماليّة، قائلاً إنّهم شربوا الكثير، وإنّه شرب أكثر من رئيس الوزراء الذي كانت قدرته على شرب الكحول أسطوريّة. ورغم وجود قاسم مشترك واحد بينهما – كلاهما غيّر معسكره في سياق سعيه إلى السلطة – لم يكن لدى الرجلين الكثير من الأمور المشتركة. فهما ينتميان إلى جيلين مختلفين – أُطلقت النار على تشرشل على الحدود الشماليّة الغربيّة للهند قبل أن يبلغ ويلكي خمس سنوات – وكان تصوّر رئيس الوزراء الرومانسيّ لروابط الدم بين بريطانيا والولايات المتحدة ليبدو غريباً على ابن المهاجرين الألمان إلى إنديانا. ما من شكّ في أنّ ويلكي يكره الإمبريالية. لا نعلم ما الذي فعله تشرشل بوجهة نظر ويلكي حول العرق والإمبراطوريّة. فرئيس الوزراء لم يسجّل سوى ”حديث طويل جدّاً مع هذا الرجل القويّ والقدير للغاية“.[16]

[15] TNA, PRE M 4/26/6, memorandum, 6 June 1941.

[16] Churchill, *The Second World War*, Vol. III, p. 23.

بعد العودة إلى لندن، أشاد ويلكي علناً بـ”الشجاعة الجريئة“ لرئيس الوزراء و”قيادته الملهمة“، ولكنّه كان ينتقده في المجالس الخاصّة. في حين كان واضحاً أنّ الشعب البريطاني يؤيّد تشرشل بالكامل، كشفت المحادثة التي جرت في وقت متأخّر من الليل في تشيكرز أنّ رئيس الوزراء ليس لديه أدنى شك في عظمته وأهمّيته، أهمّيته القصوى كونه الرجل الأعظم في الإمبراطوريّة البريطانيّة. وشعر ويلكي أنّه لم يكن يستمع للنصيحة. خلال مأدبة عشاء يوم الخميس التالي، اعترف ويلكي أنّه في حين قد يكون رئيس الوزراء الرجل المناسب للبلاد في تلك اللحظة، ”لم يكن مدركاً أنّ السيّد تشرشل سيكون قائداً قيّماً لهذه الدرجة، عند حلول ما بعد الحرب، والتعديلات الاقتصاديّة، وعمليّة إعادة الإعمار الضروريّة. كان بإمكان تشرشل أن يتكلّم كشيطان وأن يكتب كملاك“، كما أخبر نائب الرئيس هنري والاس لدى عودته إلى واشنطن، لكنّه كان ”واثقاً جدّاً بنفسه“. كان واضحاً، كما اعتقد والاس، أنّ ويلكي ”لم يكن يثق بتشرشل“.[17]

[17] Neal, *Dark Horse*, pp. 196–7; Meacham, *Franklin and Winston*, p. 75.

في حين لم يكن هناك منفعة سياسيّة من إعلان هذه الشكوك، استمرّ ويلكي في خطّته. بعد أن تمّ تكريمه لعشرة أيّام في بريطانيا، استدعاه وزير الخارجية الأميركيّ للعودة إلى وطنه من أجل

الإدلاء بشهادته حول تجربته في مجلس الشيوخ. عندما عاد إلى مطار لاغوارديا بعد أربعة أيّام، طمأن فوراً المراسلين الصحافيّين الذين كانوا في انتظاره أنّ "ما تريده بريطانيا منّا ليس الرجال، بل الموادّ والعتاد". وفي ذلك اليوم نفسه، بثّ تشرشل بعد اطّلاعه على حساسيّات النقاش الأميركيّ تصريحاً إذاعيّاً، اقتبس فيه من رسالة روزفلت وردّ عليها. على غرار ويلكي، لم يشر إلى الحاجة إلى قوّة بشريّة أميركيّة للمساعدة في خوض الحرب. لكنّه دمدم قائلاً: "أعطونا الأدوات وسننهي المهمّة". 18

18 'Willkie, Home, Sees Peace for Us in Help to Britain', *New York Times*, 10 February 1941; 'Mr Churchill on Next Phase of War', *The Times*, 10 February 1941.

في 11 شباط/ فبراير في واشنطن، واجه ويلكي أمام "لجنة العلاقات الخارجية" في مجلس الشيوخ أحد الرجال الذي فاز عليهم في الانتخابات في العام السابق. عندما سأله آرثر فاندنبرغ، وهو انعزاليّ بارز، هل اقتراحه تأمين مدمّرات بريطانيا لحماية قوافلها لن يزعج الولايات المتحدة في الحرب، قال ويلكي: "إنّ احتمالات خروج أميركا من الحرب مرتبطة بمساعدة بريطانيا". بعد موافقته على إجراء تشرشل، أضاف حجّة إضافية مهمّة للتدخّل الأميركيّ: "إذا كانت المساعدة الأميركيّة فعّالة، يمكن للولايات المتّحدة أن تسيطر على ما سيحدث بعد ذلك، وتؤثّر في نوع السلام الذي سيتمّ تحديده في النهاية". بعد يوم من ذلك، عقب جلسة الاستماع – التي دعا خلالها أحد زملاء فاندنبرغ ويلكي بـ"السيّد الرئيس" سهواً – صوّتت اللجنة بحسم لمصلحة "قانون الإعارة والاستئجار"، وأقرّ مجلس الشيوخ مشروع القانون في الشهر التالي. وستشكّل الاستخدامات التي أتبعتها بريطانيا بهذا القانون عقدة تنافس قويّة ستستمرّ بعد ذلك إلى ما لا نهاية. 19

19 'Verbatim Testimony of Wendell Willkie in Answer to Questions Put to Him by Senators', *New York Times*, 12 February 1941.

رغم أن ويلكي لم يشارك مباشرة في الجهود التي بذلها روزفلت لإلزام تشرشل "ميثاق الأطلسي" في آب/ أغسطس ذاك، كان الميثاق تعبيراً عن رغبة ويلكي في أن تحدّد الولايات المتّحدة إطار السلام. لم يقابل ويلكي تشرشل مرّة أخرى إلى أن أجرى رئيس الوزراء زيارة مستعجلة إلى واشنطن بعد أن أعلن روزفلت الحرب عقب الهجوم على بيرل هاربُر. ربّما لم يحبّ ويلكي تشرشل، لكنّه لم يكرهه لدرجة أنّه لم يرغب في الظهور برفقته. نظراً إلى ما جرى في 1944، تجنّب ويلكي فرصة التقاط صورة معه كان من شأنها تعزيزه كرئيس مرتقب، وطلب الاجتماع به.

***

كان متوقّعاً أن يكون اللقاء بين تشرشل وحليفه الخصم السياسيّ الرئيسيّ لروزفلت حسّاساً. فعندما اكتشف الرئيس في وقت سابق من ذلك العام أنّ ويلكي كان يحاول إنشاء قناة تواصل مباشرة مع تشرشل، غضب وطلب من سفيره في لندن أن يحبط هذه المحاولة. قال روزفلت: "أعتقد أنّه على رئيس الوزراء الحفاظ على علاقات ودّية مع السيّد ويلكي، ولكنّ التواصل المباشر معه أشبه بسيف ذي حدّين". [20]

[20] Neal, *Dark Horse*, pp. 208–9.

كان تشرشل حريصاً جدّاً على مقابلة ويلكي. وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى واشنطن في عيد الميلاد، كان من الواضح أنّ الجمهوريّين البارزين يفضّلون ويلكي على أيّ مرشّح محتمل آخر لعام 1944؛ وقد أظهر استطلاع أجراه "معهد غالوب" أنّ الناخبين الأميركيّين كانوا يرونه الرجل الأكثر احتمالاً لخلافة روزفلت الذي كان في حالة تراجع واضحة. مُدركاً أنّ العلاقات بين الرئيس وويلكي كانت متوتّرة، وهو غير راغب في الكشف عن توقّعه انسحاب الرئيس، قرّر تشرشل تجنب التطرّق إلى القضيّة مع روزفلت. بدلاً من ذلك، ومن دون حرج، حاول الاتّصال بـويلكي من بالم بيتش، حيث كان يستريح لبضعة أيّام، من أجل الترتيب لاجتماع سرّي. لكنّ مشغّل الهاتف ارتكب خطأ، إذ وصله بروزفلت بدلاً من ذلك.

"أنا سعيد جدّاً بالتحدّث إليك"، قال تشرشل قبل أن يسأل هل الرجل الذي يعتقد أنّه كان ويلكي قد ينضمّ إليه في قطاره، في جزء من رحلة عودته إلى واشنطن.[21]

[21] Churchill, *The Second World War*, Vol. III, p. 617.

ردّ عليه الصوت: "مع مَن تعتقد أنك تتحدّث؟"

"مع السيّد ويندِل ويلكي، أليس كذلك؟"

"لا"، جاء الجواب. "أنت تتحدّث مع الرئيس".

"مَن؟" سأل تشرشل وهو لا يصدّق أذنيه.

"أنت تتحدّث معي، فرانكلين روزفلت"، جاء الردّ.

بعد حديث قصير، أنهى تشرشل المحادثة.

سأله تشرشل: "أفترض أنك لا تمانع في رغبتي في التحدّث إلى ويندل ويلكي؟"، "لا"، ردّ روزفلت.

لم يقتنع تشرشل بجواب روزفلت. وبعد ضبطه في محاولة للتواصل مع منافس مضيفه سرّاً لم يكن لديه أيّ رغبة في إحراج نفسه أكثر. فرفض، دون تفسير السبب، إعطاء ويلكي الصّورة التي أرادها، مُصِرّاً على اجتماعهما داخل البيت الأبيض في مجلس خاصّ. كان ويلكي، على غرار الكثير من السياسيّين، غضوباً أكثر ممّا يدّعيه، فقفز إلى الاستنتاج الخطأ. اعتقد أنّ رفض رئيس الوزراء كان مؤشّراً على أنّ الأخير شطبه سياسيّاً، فاستشاط غيظاً. ساورته الشكوك إزاء تشرشل في أوّل لقاء معه، وأخذ حذره في اللقاء الثاني، ولم ينقص الأمر سوى مواجهة واحدة بعد، خلال 1942، لتحطيم علاقتهما دائماً.

***

كشفت زيارة عيد الميلاد عن نقاط توتّر مهمّة أخرى بين روزفلت وتشرشل، إذ كان الأخير قد بدأ التراجع عن "ميثاق الأطلسي"، معتبراً إيّاه "بيانَ حرب بسيطاً وقاسياً وجاهزاً" له صلة بالدول التي احتلّتها ألمانيا بدلاً من "المناطق والشعوب التي تدين بالولاء للتاج البريطانيّ". عندما استعاد الرئيس، أثناء محادثاتهما التي جرت خلال عيد الميلاد، مسألة التمييز التجاريّ المهمّة التي نجح تشرشل في إخراجها من "ميثاق الأطلسي"، رفض رئيس الوزراء مناقشتها. واتّفق الرجلان على الاختلاف حول الهند لتجنّب جدال ساخن.[22]

[22] 'Mr Churchill on a Symbolic Meeting', *The Times*, 25 August 1941; HC Deb, 9 September 1941, Vol. 374, c. 69.

نتيجة تراجع تشرشل، في أوائل 1942، راح روزفلت يصدّ أسئلة الصّحافة حول أهمّية وإطار الميثاق. ووراء الكواليس، حذّر الرئيسُ روزفلت تشرشل أنه لن يمنح بريطانيا مساعدات إعارة واستئجار قبل أن تتخلّى الحكومة البريطانيّة عن النهج الإمبرياليّ. وكشف سقوط سنغافورة في شباط/ فبراير عن وجود توتّرات بين بريطانيا ومستعمراتها استغلّها روزفلت لإرغام رئيس الوزراء المحاصَر على التنازل. وفي اليوم نفسه الذي تمّ فيه التوقيع على الاتفاقيّة – التي ألزمت بريطانيا وأميركا "القضاء على جميع صور المعاملة التمييزيّة في التجارة الدوليّة وتخفيض التعريفات الجمركيّة وغيرها من الحواجز التجاريّة" –، أدلى روزفلت بتصريح إذاعيّ أكّد فيه أنّ "ميثاق الأطلسي" لا ينطبق على البلدان المجاورة لهذا المحيط فقط، إنّما على أنحاء العالم كافّة. كانت تلك هي الرسالة الأساسيّة التي سينتقدها أعضاء إدارته بشدّة طوال الصيف.[23]

[23] *FRUS*, 1944, Vol. III, p. 62, Hull to Roosevelt, 30 September 1944.

في تمّوز/ يوليو 1942، طلب روزفلت من ويلكي تنفيذ مهمّة خارجيّة أخرى بدءاً من الشرق الأوسط. كانت دوافعه لذلك مختلطة. أراد من ويلكي إعلان عزم أميركا كسب الحرب، وتشكيل سلام طويل الأمد في حقبة ما بعد الإمبرياليّة. إنّما كان يناسبه أيضاً خروج منافسه القديم الجذّاب من الطريق في المدة التي تسبق انتخابات منتصف الولاية المقرّر إجراؤها في تشرين الثاني/ نوفمبر. كان الديموقراطيّون منقسمين. وكان روزفلت يأمل أن تكشف هذه المهمّة الجديدة مرّة أخرى عن انقسام الجمهوريّين أيضاً.

كان العرض بمنزلة هِبة من السماء لويلكي. بحلول منتصف 1942، كان مقتنعاً أنّ نفوذ روزفلت قد انتهى. لو كان باستطاعته الفوز في الانتخابات التمهيديّة للحزب الجمهوريّ للمرّة الثانية، لفاز حتماً في 1944. استمالت هذه المهمّة غرائزه فلسفيّاً وسياسيّاً، فمن شأنها منحه منصّة للتعبير عن رأيه وتغطية صحافيّة مستمرّة لستة أسابيع، ومواد لازمة لوضع كتاب من شأنه تحسين أوراق اعتماده كرجل دولة عالميّ.

2

النظام الإمبرياليّ القديم

"كانت القاهرة... مفترق الطرق وسط العالم الحرّ، وأشبه بمحطة قطارات كلابام في الحرب"، هذا ما قاله مستذكراً رجلاً مقيماً هناك لحظة وصول ويندِل ويلكي في المرحلة الأولى من رحلته حول العالم. "لا يمكن لأحد أن يأتي من أميركا أو بريطانيا إلى الهند أو الشرق الأقصى، أو إلى روسيا، دون المرور عبرها". كانت تلك أبعد مدينة قصدها ويلكي من الولايات المتحدة، وقد أعطته لمحة أولى عن القذارة المزعجة التي سيشهدها في جميع أنحاء الشرق الأوسط، والتي ذكّرته على نحو مزعج بأقاصي الجنوب. يذكر أحد السكّان الآخرين من تلك الفترة: "المقعدون، المشوّهون، مرض العيون، تضخّم الغدّة الدرقيّة، البتر، القمل، الذباب. في الشوارع، يمكنك أن ترى خيولاً مقطّعة إرباً بسبب السائقين اللّامبالين، أو رجالاً سوداً قذرين علق الذباب كالضمّاد على جروحهم".[24]

[24] Fielding, *One Man in His Time*, p. 27; Cooper, *Cairo in the War*, p. 82.

سيكون لهذه التجربة تأثير عميق في ويلكي الذي حمّل البريطانيّين مسؤوليّة الوضع. ولامَ البريطانيّون بدورهم المصريّين. فقد زعموا، وفقاً لويلكي، أنّ "العرب يفضّلون في الحقيقة أن يموتوا شباباً"، وأنّ "دينهم يمنعهم من تجميع رأس المال الذي يحتاجون إليه لإجراء التحسينات اللازمة لطريقة عيشهم". لا شكّ أن القَدَريّة العربيّة شكّلت عقبة، لكن بالنسبة إلى البريطانيّين كانت المشكلة الكبرى هي – نتيجة علاقتهم المعذّبة مع مصر – تجنب المصريين مواجهة أيّ تدخّل منهم في السياسة الداخليّة، الأمر الذي كان ليخفّف وطأة هذه المشكلات.

لم يقبل ويلكي هذه الأعذار. وأقنعه لقاء أجراه عند ذهابه إلى لبنان أنّ هذه المشكلات لم تُحلّ لأنّه تمّ تحويل طاقات المسؤولين البريطانيّين والفرنسيّين الذين قابلهم إلى أماكن أخرى. منذ اللحظة التي التقى فيها شارل ديغول في بيروت، كان واضحاً أنّ تحسين وضع الشعبيْن اللبنانيّ والسوريّ لم يكن حافز الزعيم الفرنسيّ الحرّ. وسط غرفة كان "في كلّ زاوية وعلى كلّ جدار فيها تماثيل نصفيّة وتماثيل وصور لنابليون"، وصف ديغول "نضاله في الوقت الراهن مع البريطانيّين حول من سيسيطر على سوريا ولبنان: هو أم هم".[25]

25 Willkie, *One World*, p. 27; 'One World', *Life*, 26 April 1943, Willkie, *One World*, p. 21.

كان الديكور النابليونيّ مناسباً تماماً لأنّ النضال كان شبه محصور بـ"الوقت الراهن". في الواقع، كان الفرنسيّون يتنافسون مع البريطانيّين للسيطرة على هذا الجزء من العالم منذ نهاية القرن الثامن عشر. في محاولة وضع حدّ لهذا التنافس الذي يسمّم تحالفهما في الحرب العظمى، وافقت القوّتان سرّاً على تقسيم الشرق الأوسط بينهما. لكنّ اتفاقيّة سايكس–بيكو في 1916 أدّت إلى تفاقم المشكلة عندما حدّدت لاحقاً أطر تسوية ما بعد الحرب، وحوّلت المنافِستيْن القديمتيْن إلى جارتيْن غير سعيدتيْن تلقيان اللوم بعضهما على بعض. استولى الفرنسيّون على سوريا بعد أربع سنوات، وفصلوا لبنان عنها لتشكيل جسر ذي رأس مسيحيّ، وأمضوا معظم النصف الثاني من عشرينيّات القرن العشرين يقاتلون تمرّداً باتوا على قناعة أنّه كان مدعوماً من البريطانيّين. كانت الكراهية قويّة لدرجة أنّه عند سقوط فرنسا في 1940 لم تقف الإدارة الفرنسيّة في بيروت إلى جانب بريطانيا بل إلى جانب فيشي. وعندما سمحت إدارة فيشي لألمانيا بعد ذلك باستخدام سوريا كقاعدة لإثارة المشكلات في العراق عام 1941، غزت القوّات البريطانيّة والفرنسيّة الحرّة سوريا ولبنان وتولّت السيطرة عليهما.

في محاولة لكسب الدعم المحلّي، قبل مدة وجيزة من الغزو، وعدَ الفرنسيّون الأحرار بأنّهم سيجعلون سوريا ولبنان بلديْن "حرّيْن ومستقلّيْن". لكن فور تمركزه في بيروت، تراجع ديغول عن وعده. رغم أنه كان يروق له في بعض الأحيان التصرّف كما لو كان يجسّد فرنسا بشخصه، عندما سأله ويلكي متى ستتخلّى فرنسا عن ولايتها، حاول المراوغة. أجابه: "أنا أمسكها أمانة في يدي. لا يمكنني إنهاء هذا الانتداب أو السماح لأيّ شخص آخر بذلك. لا يمكن فعل ذلك إلّا عندما يصبح هناك حكومة في فرنسا". [26]

26 SHAT, 4H 314, Proclamation du Général Catroux, faite au nom du Général de Gaulle, chef des Français Libres, 8 June 1941; 'One World', *Life*, 26 April 1943.

حينذاك، كانت العلاقات متناحرة بين الفرنسيّين والبريطانيّين حول قضيّة الاستقلال اللبنانيّ والسوريّ. فقد كفلَ البريطانيّون وعدَ فرنسا الحرّة، وكانوا يتعرّضون للضغط من القوميّين اللبنانيّين والسوريّين لمحاسبة ديغول. في ذلك اليوم نفسه، التقى ويلكي الرجل البريطانيّ الذي جاء إلى بيروت عازماً على فعل ذلك. كان السير لويس سبيرز رفيقاً قديماً لتشرشل، دافعَ عن ديغول إلى أن أدرك استحالة التوفيق بين المصالح البريطانيّة والفرنسيّة في الشرق الأوسط. اعترف سبيرز سرّاً: "لقد خلقت وحش فرانكنشتاين. هل يمكنني خنقه أم هو الذي سيخنقني؟". [27]

27 Mott-Radclyffe, *Foreign Body in the Eye*, p. 109.

بعد أن التقى المشاركيْن الرئيسيّيْن في الصّراع الإنكليزيّ–الفرنسيّ حول بلاد الشام، ذهب جنوباً إلى فلسطين التي كانت حينذاك خاضعة للسيطرة البريطانيّة. في القدس، أجرى جولة في المدينة القديمة برفقة الرجل الذي كان يحكم البلاد، المفوّض البريطانيّ السامي، السير هارولد ماكمايكل. وبينما كان الرجلان يشقّان طريقهما وسط الأطفال البائسين والنحيلين الذين كانوا يلعبون في الشوارع القذرة، راح ويلكي يستمع مدهوشاً لماكمايكل، من دون سخرية على ما يبدو، وهو يشرح له: ”هنا كان مركز المسيحيّة، وبمعنى مجازيّ الجوهر الأساسيّ لكلّ الأمور التي نحارب من أجلها“. وجدَ السياسيّ الأميركيّ نفسه عاجزاً عن الكلام للحظة. ثمّ أجاب: ”هناك شيء واحد فقط يمكنني التفكير فيه للردّ، وهذا أمر سمعته في إنديانا. ها أنا في الأرض التي وُلد فيها المسيح، وأطلب من المسيح أن أعود إلى الأرض التي وُلدتُ فيها“.[28]

28 TNA, FO 1093/238, Menzies (SIS) to Loxley, 17 November 1942.

حينذاك، كانت التوتّرات قد بدأت تتصاعد في فلسطين. قبل ذلك بخمس وعشرين سنة تماماً، على أمل خلق ما عُرف بـ”دولة يهوديّة عازلة“ لحراسة الممرّات الشرقيّة إلى قناة السويس وإبقاء الفرنسيّين على مسافة منها، أصدرت الحكومة البريطانيّة أثناءها ”وعد بلفور“ الذي سُمّي تيمّناً بوزير الخارجيّة آنذاك، آرثر بلفور. وتعهّد هذا الوعد دعمَ قيام وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين شرط ألّا يمسّ الحقوق المدنيّة والدينيّة للمجتمعات غير اليهوديّة هناك. وقد ساعد ذلك بريطانيا على ضمان التفويض لحكم فلسطين في 1920. [29]

29 TNA, FO 608/107/2, ‘The strategic importance of Syria to the British Empire’, 9 December 1918.

خُيّل إلى البريطانيّين أنهم سيحصدون امتنان اليهود لقاء هذه المناورة، وتقدير السكّان العرب للمكاسب الاقتصاديّة التي أمّنتها العاصمة اليهوديّة. لكن اتّضح أنّ كلتا الأمنيتيْن تنمّ عن سذاجة. ”إنّ مشكلة فلسطين“، كما أقرّ جنرال بريطانيّ، هي ”مشابهة لمشكلة أيرلندا، أي هناك شعبان يعيشان في بلد صغير ويكرهان بعضهما بعضاً بشدّة“. بعد أن تسبّبت الهجرة اليهوديّة المتصاعدة في نشوب انتفاضة عربيّة سنة 1936، لجأ البريطانيّون أوّلاً إلى التقسيم، وبعد ذلك، عندما أثارت هذه الفكرة امتعاضاً كبيراً، اشترت سلاماً غير مستقرّ بـ”كتاب أبيض“ وضعته أوائل 1939، وكان مثيراً جدّاً للجدل، إذ نصّ على الحدّ من عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين إلى نحو خمسة عشر ألفاً سنوياً على مدى السنوات الخمس المقبلة. بعد اندلاع الحرب، تمّ تبرير هذه السياسة بوصفها ضروريّة

لضمان الاستقرار في فلسطين، وإبعاد المحرّضين الألمان عن الانتداب. لكن، في الوقت الذي كانت تتزايد فيه الأدلة على الفظائع التي ارتكبها النازيّون بحقّ اليهود، كانت القيود المتشدّدة التي فرضتها بريطانيا على الهجرة تغذّي الدّعم اليهوديّ في الشرق الأوسط والولايات المتحدة. في فلسطين، شُوهدت موجة من الهجمات الإرهابيّة من المتطرّفين اليهود في وقت سابق من ذلك العام. وكان ذلك نذيراً لما سيأتي لاحقاً.[30]

30 Segev, *One Palestine Complete*, p. 147.

سواء أحبّ البريطانيّون ذلك أم لا، باتت قضيّة فلسطين بحاجة إلى حلّ سريع. في أواخر ذلك الصّيف، التقى ويلكي امرأة اعتقدت أنّ لديها الحلّ. كانت هنرييتا سولد في الثمانين، أصلها من بالتيمور، وهاجرت إلى فلسطين مطلع القرن العشرين. في أوائل ذلك الصيف، أنشأت مع عدد من الأشخاص حزباً سياسيّاً معتدلاً شجّع اليهود على تكوين صداقات شخصيّة مع العرب كخطوة أولى نحو إقامة دولة يهوديّة–عربيّة ثنائيّة. بعد أن أقنعته سولد بأنّ ”حسن النيّة والصدق“ قد يحلّان المسألة العربيّة اليهوديّة، استغلّ ويلكي أيضاً الفرصة ليسألها عمّا كان يعيق ذلك. ”سألتُها هل كانت تعتقد أنّ قوى أجنبيّة معيّنة تتعمّد إثارة المشكلات بين اليهود والعرب من أجل الحفاظ على سيطرتها“.

”أقول لك، بأسف عميق، إنّها الحقيقة“، أجابت سولد.[31]

31 Willkie, *One World*, pp. 23–4.

***

بعد قضائه أربعاً وعشرين ساعة فقط في فلسطين، طار ويلكي إلى العراق التي كانت خاضعة لحكم السلالة الهاشميّة المدعومة من بريطانيا منذ 1921. بينما كان الملك آنذاك لا يبلغ سوى سبع سنوات، تناول العشاء في الليلة الأولى على انفراد مع الوصيّ السلِس والمكائديّ عبد الإله، قبل تكريمه مع زملائه في الليلة التالية من رئيس الوزراء المؤيّد للبريطانيّين، نوري السعيد، الذي سيلعب دوراً محوريّاً في الأحداث اللاحقة. كان نوري من أوائل القوميّين العرب، وهو ضابط سابق في الجيش العثمانيّ انضمّ للقتال دفاعاً عن جدّ الملك الحالي، فيصل، إلى جانب لورانس العرب، ثمّ ساعد فيصل على تنصيب نفسه أوّلَ ملك للعراق الحديث. ولأنّه كان يؤمن بشدّة بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة، جاء في إحدى المرّات إلى البرلمان وهو يلوّح بقنبلة يدويّة في حال تسبّب له خصومه في المتاعب. خلال حفل العشاء، أثار الطرف الأميركيّ الدهشة عندما سأل طاقم طائرة

ويلكي هل من الممكن رؤية عروض لفتيات الرقص المشهورات في المدينة. تذكّر رجل العلاقات العامّة الخاصّ بويلكي ما حدث بعد ذلك. "تمّ تمثيل ما لا يقلّ عن ثمانية من أفضل بيوت الدّعارة في المدينة. قدّمت سيّدة كلّ بيت فتياتها، واحدة تلو أخرى، وأدّينَ رقصات صغيرة، ولوّحنَ بأيديهنّ للزبائن الذين تعرّفوا إليهنّ، ثمّ انصرفنَ".[32]

[32] Cowles, *Mike Looks Back*, p. 78.

رغم سمعة بغداد المترفة، كان الصبيّ الملك ومستشاروه يعيشون بترف أقلّ بكثير من الملك فاروق في القاهرة؛ تذكّر أحد الزائرين للقصر الملكيّ "الكثير من الطلاء البنّي"، وقال في نفسه إنّ سجّاد فاروق كان أفضل. على غرار مصر، كانت العراق مستقلّة نظريّاً، لكن في الواقع، كان البريطانيّون هم الذين يحرّكون الخيوط. فمعاهدة 1930 التي مرّرها نوري على البرلمان العراقيّ منحت بريطانيا قاعدتيْن. تقع "الشيبة" خارج البصرة، أما "الحبّانية"، فتقع غرب بغداد وكان فيها كنيسة وسينما ومركز تجسس على الاتصالات. "كأنها مدينة بونة الهندية تماماً"، لحظ زائر بريطانيّ. في بغداد، كان السفير وزمرة من المستشارين البريطانيّين هم الذين يتحكّمون بعمليّة صنع القرار. تباهى "سي"، رئيس جهاز المخابرات البريطانيّ، بأنّ منظّمته علمت بنتيجة اجتماع عُقد في القصر في غضون نصف ساعة. كانت بريطانيا تملك القسم الأكبر من شركة "نفط العراق" التي كان يسيطر على إدراتها موظّفون بريطانيّون. إنّ "غياب الثقة المتبادلة، والكراهية" بين موظّفي الشركة العرب والأكراد والآشوريّين والتركمان والأرمن ضمنَ غياب "أيّ مشكلة عمّالية".[33]

[33] MEC, Slade-Baker Papers, diary, 22 October 1954; Harvey, ed., *The War Diaries of Oliver Harvey*, p. 319, 4 November 1943; TNA, FO 1093/373, Menzies (SIS) to Sargent, 19 February 1948.

في ذلك الوقت، كان النفط ينتج خمس الدخل القوميّ للعراق لكنّه لم يكد يغيّر ملامح البلاد. فتسعة عشر من أصل عشرين عراقيّاً كانوا أمّيين. وكان العمر المتوقّع عند الولادة ثلاثين بسبب ارتفاع معدّل وفيّات الرضّع. أصبحت المشكلة الأساسيّة مألوفة لدى ويلكي. فكما الحال في مصر وسوريا، كانت العراق بمعظمها ملكاً لمجموعة صغيرة من ملّاك الأراضي الأثرياء. كتب: "لقد التقيتُ عدداً منهم، ووجدتُ أنّهم غير مهتمّين إلى حدّ كبير بأيّ حركة سياسيّة، إلّا في حال كانت تهدّد استمراريّة موقعهم الخاصّ".[34]

[34] Crum, *Behind the Silken Curtain*, p. 154; Willkie, *One World*, p. 19.

قبل أن يتوجّه ويلكي إلى موسكو، ثمّ إلى الصين، قادته آخر محطّة في رحلته عبر الشرق الأوسط شرقاً فوق الجبال التي شكّلت الحدود الشرقيّة للعالم العربيّ، إلى العاصمة الإيرانيّة، طهران. هناك التقى حاكم البلاد، الشاه محمد رضا بهلوي، البالغ اثنين وعشرين عاماً، الذي أتمّ دراسته في سويسرا وكان متزوّجاً في تلك المرحلة بشقيقة الملك فاروق. تناول الرجلان الغداء في الهواء الطلق، في الذكرى الأولى لارتقاء الشاه إلى العرش. بالنسبة إلى الأخير، لم يكن هناك مناسبة للاحتفال. فقبل عام، أُرغم والده على الخروج بعد اجتياح البريطانيّين والسوفيات لتأمين طريق للإمدادات عبر البلاد في أعقاب غزو هتلر لروسيا، وقسّموا البلاد إلى مناطق نفوذ. كان للحكومة البريطانيّة مصلحة ماليّة ضخمة في جنوب البلاد عبر حصّتها في شركة النفط التي كانت تملك الامتياز: "الشركة الإنكليزيّة–الفارسيّة". رأى بعض الأميركيّين أنّهم سيكونون سعيدين للغاية في حال تمكّنوا من تمديد تقسيم البلاد مع السوفيات إلى أجل غير مسمّى. ليس مستغرباً أن يكره الشاه البريطانيّين. قبل توجّهه إلى موسكو، أخذ ويلكي الشابّ في رحلة في طائرته؛ كانت تلك المرّة الأولى التي يحلّق فيها الشاه في الجوّ.

***

سيمضي ويلكي تسعة عشر يوماً من مهمّته التي دامت أربعة وأربعين يوماً في الجوّ. منحَتْه الساعات الطويلة التي قضاها في الجوّ فرصة للتأمّل في أسباب ما شاهده وسمعه. في الوقت الذي وصل فيه إلى طهران، كان قد اتّخذ قراره. إنّ "الحجاب، والطربوش، والمرض، والقذارة، وقلّة التعليم والتنمية الصناعيّة الحديثة، وتعسُّف الحكومة"، التي شهدها في جميع أنحاء الشرق الأوسط، كانت أعراض الفشل الناجم عن "تركيبة القوى ضمن مجتمعهم، والمصالح الذاتيّة للنفوذ الأجنبيّ". [35]

35 Willkie, *One World*, p. 30.

شعرَ ويلكي بالقلق من أن يؤدّي ارتهان الدول الاستعماريّة للولايات المتحدة إلى اعتباره ورفاقه من مواطني الشرق الأوسط متواطئين في وضع لا يمكن لهم في الواقع السيطرة عليه. وذكر لاحقاً أنّه سُئل "مراراً وتكراراً" هل تنوي أميركا "دعم نظام يتحكم الأجانب عبره في سياستنا، إنّما بلباقة، والهيمنة على حياتنا من قبل الأجانب، وإنْ بطريقة غير مباشرة، لأنّنا صرنا نقاطاً إستراتيجيّة على الطرقات العسكريّة والتجاريّة للعالم". كانت إجابته دائماً: "لا". بعد أيّام من ذلك، تبين أن ونستون تشرشل هو مَن أشار عليه ليصرّح بذلك.[36]

[36] Willkie, *One World*, p. 30.

***

بدأ الفصل الثالث والأخير من العلاقة المشحونة بين ويلكي وتشرشل عندما دعا ويلكي، الذي مارس عليه جوزيف ستالين ضغوطاً شديدة لحظة وصوله إلى موسكو، إلى فتح جبهة ثانية في أوروبا الغربيّة من أجل رفع الضّغط عن الروس في أقرب وقت. بذلك، أعاد فتح قضيّة كان تشرشل يأمل أن يكون قد دفنها للتوّ.

بعد زيارته الطارئة إلى القاهرة ذلك الصيف، ذهب رئيس الوزراء البريطانيّ سرّاً إلى موسكو لمقابلة ستالين. في محاولة لإقناع الزعيم السوفياتيّ بالتوقّف عن الدّعوة لفتح جبهة ثانية، أخبره أنّه تمّ التخطيط لهجوم كبير في أوروبا عام 1943، وأنّ الحكومتيْن البريطانيّة والأميركيّة اتّفقتا على أنّ أيّ إجراء مُسبَق لتحويل الألمان عن الجبهة الشرقيّة سيتسبّب في كارثة. كانت دعوة ويلكي غير مُجدية إلى حدّ كبير، لأنّها أحبطت جهود تشرشل في إقناع ستالين بوجود توافق إنكليزيّ–أميركيّ حول هذه المسألة.

بعد أن احتلّ تدخّل ويلكي العناوين الرئيسيّة، طُرح على تشرشل سؤال مُشين في البرلمان. سأله نائب من حزبه: "هل ستقنع جميع الأشخاص الذين لديهم إمكانيّة الوصول إلى المعلومات الداخليّة بالحاجة إلى ممارسة قدر أكبر من ضبط النفس حتّى الآن إزاء أيّ بيانات عامّة أو تنبؤات منشورة حول إمكانات فتح الجبهة الثانية؟" وافق رئيس الوزراء فوراً على أنّ مثل هذه التعليقات غير مرغوب فيها. كان يُفترض به أن يتوقّف عند هذا الحدّ. لكن، في محاولة خرقاء لصبّ الزيت على النار، أخذ يُطمئن زميله قائلاً إنّ الملاحظات تستند إلى "استدلالات، وليس... معلومات داخليّة". وقف النائب ليلقي خطابه، وقال ممازحاً: "هل سينقل صديقي الشريف هذا الكلام إلى السيّد ويندِل ويلكي؟"[37]

[37] HC Deb, 29 September 1942, Vol. 383, c. 667.

تلقفّت الصّحافة هذه المحادثة. بالنسبة إلى ويلكي الذي كان منزعجاً جدّاً لمنع البريطانيّين له من زيارة الهند، ولمراقبتهم كلّ ما قاله، طفح الكيل. وقد عزّز اختيار تشرشل الضّعيف للكلمات افتراض ويلكي أنّ الزعيم البريطانيّ يعتقد أنّه من غير المرجّح أن يخلف روزفلت، وأنّه لم يكن هناك في النتيجة أيّ ضرر في التقليل من شأنه. ردّ ويلكي الذي كان قد وصل حينذاك إلى الصّين بهجوم مباشر وعلنيّ على الإمبرياليّة البريطانيّة. قال: "ولّى زمن الاستعمار. نحن نعتقد أنّ هذه

الحرب يجب أن تعني نهاية سيطرة أمم على أمم أخرى". اقتطعت الرقابة البريطانيّة العبارة الأولى.[38]

[38] TNA, PRE M 4/27/1, 'Note of What Mr Wendell Willkie said to Mr AJ Toynbee at Mr TW Lamont's House in New York on the 27th October 1942'; Neal, *Dark Horse*, p. 251.

عاد ويلكي إلى دياره في 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1942، أي قبل ثلاثة أسابيع من انتخابات منتصف الولاية. والتقى روزفلت في اليوم التالي. حذّر الرئيس أنّه ليس بحوزته "تقرير لطيف"، وقال له إنّ الحكم البريطانيّ في الشرق الأوسط يثير الاستياء، وإنّ بروباغاندا "دول المحور" تستغلّ ذلك. بصفتها حليفة لبريطانيا، تعرّضت الولايات المتحدة للأذيّة لارتباطها بها. كان روزفلت، على حدّ قول ويلكي، بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد لمنح شعوب الشرق الأوسط "شعوراً غير موجود لديهم بأنّنا لسنا ملتزمين إدامة الإمبرياليّة البريطانيّة في هذه المنطقة إلى أجل غير مسمّى، بل تأسيس الحرّيتيْن السياسيّة والاقتصادية".[39]

[39] Neal, *Dark Horse*, p. 260.

بعد أسبوعيْن، بثّ ويلكي "تقريراً إلى الناس" مدّتُه نصف ساعة توسّع فيه حول هذا الموضوع. وصفَ فيه أسفاره ومحادثاته مع أشخاص التقاهم، وصرّح بأنّ الإرث الطويل الأمد للولايات المتحدة في ممارسة الأعمال الخيريّة في الخارج يعني أنّ العالم ينظر إليها بـ"مزيج من الاحترام والأمل". مع ذلك، تابع قائلاً إنّ هذا "الخزّان الهائل للنيات الحسنة تجاه الشعب الأميركيّ صار مهدّداً الآن بسبب فشل الولايات المتحدة في تحديد أهداف واضحة للحرب. إلى جانب منح حلفائنا في آسيا وشرق أوروبا ما يقاتلون به، علينا منحهم ضمانة لما نقاتل من أجله".[40]

[40] TNA, PRE M 4/27/1, US Office of War Information, Willkie's Report to the people, 26 October 1942.

كان الجواب عن هذا السؤال الخطابيّ هو "الحرّية"، لكنّ ويلكي قال إنّ الولايات المتحدة تجنّبت حتّى الآن مواجهة تداعيات ذلك الهدف. صرّح: "في أفريقيا والشرق الأوسط، وعبر جميع أنحاء العالم العربيّ، كما في الصّين والشرق الأقصى، تعني الحرّية القضاء المنهجيّ، إنّما المنظّم، على النظام الاستعماريّ". وتابع: "إنّ حكم شعب من شعوب أخرى ليس حرّية، ولا يجب علينا أن نحارب من أجل الحفاظ عليه".

رغم نفي ويلكي مهاجمته بريطانيا، دعا خلال بثّه إلى المقارنة المستمرّة والسلبيّة بين الولايات المتحدة وحليفتها عبر الأطلسي. كان الناس حول العالم يدركون، كما قال، أنّ أميركا "لا تحارب من

أجل الربح، أو الغنائم، أو الأرض، أو السلطة الانتدابيّة على حياة أو حكومات أشخاص آخرين". أحبّوا "أعمالنا" لأنّ "مؤسّسة الأعمال الأميركيّة، بخلاف مؤسّسات معظم الدول الصناعيّة، لا تؤدّي بالضرورة إلى سيطرة سياسيّة أو إمبرياليّة". في 1940، فاز ويلكي باثنين وعشرين مليون صوت. بعد مرور عامين على هزيمته، فتح نحو ستة وثلاثين مليون أميركيّ – نحو ربع مجموع السكان – المذياع للاستماع له.

لكن مع اقتراب موعد انتخابات منتصف الولاية، بدأ ويلكي يُبدي اهتماماً متزايداً بقسم فرعيّ من الناخبين: اليهود. في 1942، كان نحو خمسة ملايين يهوديّ يعيشون في الولايات المتحدة. وكانت ولايات إلينوي وميشيغان ونيوجيرسي ونيويورك وأوهايو، حيث كاد ويلكي أن يجاري روزفلت في انتخابات 1940 وسيحتاجها أيضاً لتأمين الفوز في 1944، تضمّ جميعها عدداً كبيراً من السكّان اليهود. أتاحت الذكرى السنويّة الخامسة والعشرون لإعلان بلفور، التي حلّت عشيّة انتخابات نصف الولاية، فرصة لويلكي للتوجّه إليهم. كما أنّ إمضاءه نهار جمعة بكامله في فلسطين قبل سبعة أسابيع جعله يشعر بأنه مؤهّل لفعل ذلك.[41]

[41] TNA, FO 371/61856. Official US figures estimated the Jewish population in 1941 at 4,893,748.

بعد أن انتهى من "قانون الإعارة والاستئجار"، تعمّد ويلكي مرّة أخرى إثارة الجدل. فالإدراك المتزايد لجهود النازيّين المنتظمة لإبادة يهود أوروبا الشرقية منح الرؤية، التي أرساها وعد بلفور لقيام وطن يهوديّ، أهمّية ساحرة. في وقت سابق من ذلك العام، نشرت مجلة *Life* الأسبوعيّة الأميركيّة مقالة عن "مذبحة منهجية" بحق اليهود البولنديّين، ودعمت مزاعمها بسلسلة من الصّور القاتمة. ثمّ نُشرت أخبار غرق سفينة اسمها Struma. كانت هذه السفينة غير الصالحة للإبحار والمكتظّة باللاجئين اليهود الفارّين من رومانيا أو من مواجهة مصير مماثل قد أمضت ثمانية أسابيع راسية قبالة إسطنبول بعد أن رفضت الحكومة البريطانيّة دخولها إلى فلسطين. بعد خروجها من الميناء، قد تكون Struma اصطدمت بلغم أو أصيبت بطوربيد في البحر الأسود. مات جميع ركّابها البالغ عددهم 769 باستثناء شخص واحد.[42]

[42] ‘On Red Prisoners and Poles’, *Life*, 23 February 1942.

استغلّ المتطرّفون داخل الحركة الصهيونيّة في الولايات المتحدة الغضب الناتج عن كارثة Struma. كانوا يُعرَفون بالتنقيحيّين، ويشنّون الحملات منذ أكثر من عشرين سنة من أجل إقامة دولة يهوديّة مستقلّة تمتدّ إلى شرقي الأردن. منذ بداية الحرب، كانوا يمارسون ضغطاً لتخفيف قيود

الهجرة المفروضة من الحكومة البريطانيّة، وإنشاء جيش يهوديّ للمشاركة ظاهريّاً في المجهود الحربيّ للحلفاء، إنّما في النهاية لدفع مخطّطهم التوسّعي قدماً. إلى حين غرق Struma، لم يحرزوا سوى القليل من التقدّم. لكنّهم بدؤوا بعد ذلك يستميلون دعماً سياسيّاً كبيراً.

أظهر مؤتمر الأميركيّين الصهاينة في نيويورك، الذي انعقد في أيار/ مايو، قبل مدة قصيرة من انطلاق ويلكي في رحلته، أنّ الرأي العام تأرجح لمصلحة التنقيحيّين. بعد نقاش لخمسة أيّام في فندق "آرت ديكو بالتيمور" في المدينة، أصدر المندوبون بياناً تاريخيّاً. أدان البيان الذي عُرف بـ"إعلان بالتيمور" القيود التي تفرضها الحكومة البريطانيّة على الهجرة بوصفها "قاسية ولا يمكن الدفاع عنها"، ودعا إلى نقل مسؤوليّة سياسة الهجرة إلى اليهود في فلسطين، كمقدّمة لإنشاء "كومنولث يهوديّ مندمج في تركيبة العالم الديموقراطيّ الجديد"... بعبارة أخرى: إنشاء دولة يهوديّة مستقلّة. كما دعم البيان دعوة التنقيحيّين لإنشاء جيش يهوديّ.[43]

43 Oren, *Power, Faith and Fantasy*, p. 444.

مراعاة للمشكلات التي سيتسبّب فيها حتماً أيّ تدخّل من تشرشل تجنّب روزفلت حتّى ذلك الحين الحديث عن فلسطين. لكنّ فعل ذلك صار أكثر صعوبة. فالصهاينة قد بدؤوا تمويل سلسلة من الإعلانات الغاضبة على صفحات كاملة في الصّحف داعين إيّاه إلى التحرّك. وكان الجمهوريّان اللذان اختارهما للانضمام إلى حكومته قد خرقا الصفوف، وعبّرا علناً عن دعمهما حركة "الجيش اليهوديّ". كذلك فعلت زوجة روزفلت، إليانور، في محاولة لمواجهتهم.

بما أنّ خيار الصّمت لم يعد مطروحاً، أصدرت الإدارة بياناً بمناسبة ذكرى "بلفور". لكنّه كان اعترافاً متحفّظاً تغاضى عن المسألتيْن الكبيرتيْن المرتبطتيْن بالدولة اليهوديّة وحدود الهجرة اللتيْن سرعان ما تحوّلتا إلى قضايا سياسيّة ساخنة. كان الأمر مضرّاً أكثر منه نافعاً. لم يكن ويلكي مرهوناً بالاعتبارات الديبلوماسيّة التي كانت تعيق روزفلت، ولذا تمكّن من استغلال الذكرى السنويّة بالكامل. عشيّة انتخابات نصف الولاية، أصدر بياناً يستعيد مطالب التنقيحيّين. قال فيه إنّ "برنامج هتلر لإبادة الشعب اليهوديّ" يعني أنه يجب فتح "أبواب فلسطين لليهود المشرّدين في أوروبا الشرقيّة والوسطى الذين نجوا من الحرب". ثمّ أورد أنّه يفترض باليهود – لا البريطانيّين – التحكّم بالأعداد، وأنّ "إقامة وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين وفاءً بالوعد الوارد في 'إعلان بلفور' يجب أن يجد مكانه الصحيح في النظام العالميّ المستقبليّ الجديد".[44]

44 'Palestine Project Pushed by Senator', *New York Times*, 2 November 1942.

في لندن، تجادل تشرشل ووزير الخارجيّة، أنطوني إيدن، حول ما يجب فعله حيال ويلكي. واقترح إيدن، الذي أزعجه البثّ الإذاعيّ لويلكي، أنّ أفضل طريقة لإسكاته هي دعوته للعودة إلى بريطانيا، حيث يمكن تكميمه عبر الرقابة. لكنّ تشرشل لم يوافق. بقيت علاقته مع روزفلت حسّاسة، وكان لا يزال غاضباً من مكالمته الهاتفيّة بمناسبة عيد الميلاد، ولذا لم يرغب في إعطاء الرئيس أسباباً أخرى للاعتقاد أنّه كان بانتظار أن يخلفه ويلكي، رغم أنّه كان كذلك فعلاً. فأجاب إيدن: ''يعتمد نظامي الكامل على الصّداقة مع روزفلت. لا يجب أن نبدو على عجلة من أمرنا''[45].

[45] TNA, PRE M 4/27/1, minute by Churchill, 5 November 1942.

إنّ نجاح خصوم ويلكي الانعزاليّين في انتخابات منتصف الولاية في تشرين الثاني/ نوفمبر، والانتصار الذي تحقّق في العلمين بعد أسبوع، سرعان ما شجّعا تشرشل على اتّباع منهج أكثر صراحة. لم يكن لدى ويلكي، وفق اعتقاد رئيس الوزراء، أيّ فرصة للفوز بالترشيح عام 1944، ولذا قرّر أن يعبّر بوضوح عن رفضه المحاولات الأميركيّة لإسقاط الإمبراطوريّة البريطانيّة دون قتال.

في الولايات المتحدة، قدّر ويلكي صواباً أنّ خطاب تشرشل في القصر الرئاسيّ – مع إنكاره الشديد أنّ بريطانيا تقاتل ''من أجل الربح أو التوسّع'' – كان توبيخاً موجّهاً إليه مباشرة. ففي خطاب ألقاه بعد ستّة أيّام، زعمَ المرشّح الرئاسيّ السابق أنّ العالم ''صُدم'' إزاء دفاع تشرشل عن ''النظام الإمبرياليّ القديم''. عندما وردت تصريحاته في صحافة لندن، تلقّى زيارة من السفير البريطانيّ لدى واشنطن، وجرى شجار بين الرجليْن. فبعد أن اتّهمه السفير بأنه ''غامض وتشهيريّ''، ردّ بأنّه تعرّض لـ''ضربات قاسية'' من تشرشل، وقال إنّ لديه انطباعاً أن رئيس الوزراء ''يعلّق أهمّية، أقلّ من أيّ وقت مضى، على مجاراة الرأي العام الأميركيّ'' كونه بدأ يعتقد أنّه يفوز في الحرب. كما اتهّمه السفير بمحاولته، ببثّه الإذاعيّ، ''تشويه النظام الاستعماريّ بأكمله''، وتساءل هل خطر له أنّه سيكون ''مُهيناً ومُستفِزّاً للغاية للفكر البريطانيّ''. في حال كان الأمر كذلك، بات واضحاً أنّ ويلكي لم يعد يبالي. نقل السفير أنّ الأميركيّين ردّوا بقولهم: ''إننا نقدّم عرضاً سيّئاً، وكلّما أسرَعْنا في الخروج، كان ذلك أفضل''.[46]

[46] ‘Old Imperialistic Order’, *The Times*, 18 November 1942; TNA, PRE M 4/27/1, Halifax to Eden and Churchill, 19 November 1942.

قد لا يكون هناك ملخّص أفضل للفكر والسياسة الأميركيّة تجاه بريطانيا في الشرق الأوسط من السنوات التي تلت.

3

البحث عن المتاعب

عكست دعوة ويلكي إلى فتح "أبواب فلسطين" أمام اللاجئين اليهود تنامي قوّة الصهاينة في الولايات المتحدة. وعندما استتبعها وصول الأميركيين شمال غرب أفريقيا، والنّصر البريطاني في العلمين، أثار ذلك نشوة في فلسطين، وحالة واسعة من الإلحاح انتشرت عبر الشرق الأوسط، سرعان ما زعزعت استقراره.

حتّى قبل أن أوصى تشرشل من قصرمانشن بتوخّي الحذر، في فلسطين، كان ديفيد بن غوريون، الصهيونيّ البارز، يراهن على ترقّب الانتهاء الوشيك للحرب. فحثَّ الشعب اليهوديّ على تنظيم صفوفه استعداداً لانعقاد مؤتمر سلام ستُطرح خلاله حتماً القضيّة الفلسطينيّة.

كان بن غوريون رئيس "الوكالة اليهوديّة" التي مثّلت السكّان اليهود في فلسطين في تعاملها مع البريطانيّين، وقد شعرَ منذ مدة طويلة أنّه يجب على الصهاينة أن يكونوا أكثر إلحاحاً في مطالبهم. كان في أميركا عندما غرقت سفينة Struma، ورأى المنحى الذي تتّخذه الأمور، فشجّع الصهاينة الأميركيّين على عقد "مؤتمر بالتيمور" الذي أثبت بعد ذلك التغيير الشاسع في أوساط الرأي العام اليهوديّ الذي صار مؤيّداً للتحريفيّين. بعد عودته إلى الولاية، حثَّ زملاءه في السلطة التنفيذيّة لـ"الوكالة اليهوديّة" على قبول "إعلان بالتيمور". رغم أنّه سبق لهم أن رفضوا هذه الخطوة لأنّهم كانوا يكرهون التحريفيّين، كان تحوُّل الرأي العام اليهوديّ لمصلحة هؤلاء واضحاً جدّاً، لدرجة أنّهم أذعنوا لمطلب بن غوريون في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو اليوم نفسه الذي تحدّث فيه تشرشل من قصر مانشن.

بعد أسبوعين، صرّح بن غوريون بأنّ "إعلان بالتيمور" سيشكّل "المطلب الأساسيّ" للوكالة في مؤتمر السلام. وقال إنّه بغية تحقيق هذه الغاية ستمارس الوكالة ضغطاً من أجل إنشاء جيش يهوديّ، وتعزيز قدرة فلسطين على استيعاب "حشود كبيرة من اليهود". أدّى هذا الطرح إلى إثارة غضب العرب والبريطانيّين، لكنّ بن غوريون لم يكترث للأمر. أقرّ لاحقاً بـ"حدوث اضطرابات"، وبأنّ "الأسابيع والأشهر التي ستعقب انهيار نظام هتلر ستشكّل مرحلة من غياب اليقين في أوروبا، وأكثر

من ذلك في فلسطين، ويجب علينا استغلال هذه المرحلة من أجل وضع بريطانيا وأميركا أمام الأمر الواقع".47

47 JTA, ‘Biltmore Declaration Will Be Principal Zionist Demand at Peace Conference’, 27 November 1942; TNA, CAB 66/37/46, Casey, ‘Palestine’, 21 April 1943.

سارع العرب إلى الردّ على اقتراح بن غوريون. وبعد أيّام، كشف رئيس الوزراء العراقيّ، نوري السعيد، النّقاب عن مخطّط خاصّ به أطلق عليه اسم "الهلال الخصيب". دعا فيه الحلفاء إلى إعادة توحيد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، وخصّ اليهود بحكم ذاتيّ فقط في فلسطين. سترتبط هذه الأمّة لاحقاً بالعراق لتكوين جامعة عربيّة، وستتمكّن الدول العربيّة الأخرى من الانضمام إليها لاحقاً. كما ادّعى أنّ ذلك يشكّل "الحلّ العادل الوحيد... والأمل الوحيد لضمان سلام دائم".48

48 Rathmell, *Secret War in the Middle East*, p. 12.

لطالما شجّع البريطانيّون، بدءاً من لورانس العرب وهلمّ جرّاً، أحلام الوحدة العربيّة، بصفتها وسيلة جزئيّة للتعويض عن حقيقة أنّ الأرض التي استحوذ عليها الهاشميّون بعد الحرب السابقة – شرق الأردن والعراق – كانت أصغر بكثير من الإمبراطوريّة التي وعدهم بها البريطانيّون من أجل ضمان مساعدتهم في مواجهة العثمانيّين خلال الحرب. مرّة أخرى اصطفّ المسؤولون البريطانيّون في القاهرة وراء مخطّط حليفهم القديم نوري السعيد. كانوا يخشون من أن تثير إعلانات بن غوريون ردود فعل عربيّة في فلسطين، وتزعزع استقرار المنطقة برمّتها. بالنسبة إليهم، شكّل مخطّط "الهلال الخصيب" وسيلة لتعزيز موقع اليهود المعتدلين الذين لا يثقون ببن غوريون، ولمصالحة العرب مع الوجود الدائم لليهود، ومن ثمّ لتمديد دور بريطانيا في الشرق الأوسط لمدة طويلة بعد انتهاء الحرب.

أمّا الرجل الذي أخذ على عاتقه مسؤوليّة تحويل هذه الفكرة إلى واقع، فكان اللورد موين. كان موين، الرجل الهادئ والمتواضع والخفيف الظلّ، ذو الشّعر الرماديّ الداكن والعينين الفيروزيّتين، صديقاً قديماً آخر لتشرشل، وأيضاً مليونيراً يتمتّع بسجلّ حربيّ متميّز، فقد تخلّى عن مسيرته المهنية في السلك السياسيّ ليشبع حبّه للمغامرة في ثلاثينيّات القرن الماضي. سجّل أحد معاصريه أنّه "كان لديه شغف بالبحر، وبالبعثات الطويلة إلى الأماكن النائية. كان يجمع اليخوت والأسماك والقرود والنساء". تذكّر وزير الخارجيّة البريطانيّ أنطوني إيدن جانباً أقلّ تفاهة للمغامر شهده خلال الحرب العظمى. فقد كان موين، على حدّ قوله، أحد هؤلاء الرجال الذين يستطيعون تدريب أنفسهم على ألا يتأثّروا بالخطر، والذين لا يفتقرون إلى الذكاء ولا الخيال. لهذا السبب بالضبط، أدخل تشرشل

صديقه القديم مرّة أخرى إلى الحكومة عام 1940، ثمّ أرسله إلى القاهرة في آب/ أغسطس 1942 ليكون نائباً للمسؤول البريطانيّ الأعلى في الشرق الأوسط، وزير الخارجيّة. كانت مهمّة موين الحقيقيّة تقضي بالحرص، في حال أحرز رومل اختراقاً، على تنفيذ البريطانيّين أمر رئيس الوزراء بالقتال حتّى سقوط آخر رجل.[49]

[49] Rhodes, James, *Chips: the diaries of Sir Henry Channon*, p. 396, 7 November 1944; Eden, *Another World*, pp. 132–3.

نجا موين من هذه النهاية القاتلة بفضل النصر الحاسم في العلمين. باختصار، شعرَ أنّه "في موقع لا يتناسب حتماً مع كفاءاته"، لكنّ هذا الإحساس لم يدم طويلاً. فبعد أن شغل منصب وزير المستعمرات في حكومة تشرشل في لندن، صار مُلمّاً جدّاً بقضيّة فلسطين، وكان مسروراً لأنّ النصر سيقضي على التوتّرات التي طال أمدها، والتي سبق لوجود رومل على مقربة من فلسطين أن خفّف من حدتها. في سلسلة من الرسائل الموجّهة إلى صديق، عبّر عن "مخاوف خطيرة بالنسبة إلى المستقبل"، حيث "تتلاشى المخاوف من دول المحور وتنتعش العداوات". ثبتَ أنّ نذير الشؤم هذا مبرَّر بالكامل، لأنّ موين سيُقتل في النهاية على يد المتطرّفين الصهاينة.[50]

[50] CAC, Amery Papers 2/2/19, Moyne to Amery, 16 February and 21 January 1943.

***

سرعان ما أدرك موين أنّ تحويل خطّة "الهلال الخصيب" – أو سوريا الكبرى كما كان يسمّيها البريطانيّون في أحيان كثيرة – من حلم إلى واقع لم يكن مهمّة سهلة. فعدا توقّعه التعرّض لمواجهة من بن غوريون، لم يكن العالم العربيّ موحّداً، في أي حال من الأحوال، وراء مخطّط نوري. وسرعان ما اكتشف أنّ ارتباط الخطّة بالهاشميّين أثار قلق رجل واحد على وجه الخصوص. فما إن أعلنها نوري، حتّى تلقّى دعوة من ابن سعود، الملك السعوديّ، كي يأتي لزيارته. وكان من المقرّر أن يلتقي الملك في ميناء جدّة على البحر الأحمر في نهاية 1942.

لطالما رأى ابن سعود في أسياد نوري الهاشميّين منافسيه الرئيسيّين. فبعد أن استولى على مدينة الرياض – حيث ألقى، كما تقول الأساطير، رأس حاكم المدينة المقطوع وسط الحشود التي كانت في انتظاره – طرد الحاكم الهاشميّ الشريف حسين خارج مدينة مكّة المكرّمة في 1924. لكن بفضل البريطانيّين، كان فيصل، ابن حسين، قد صار في تلك المدة ملكاً للعراق، بينما كان شقيقه عبد الله أميراً على شرق الأردن. ما يعنيه ذلك أنّ ابن سعود كان محاطاً في شبه الجزيرة العربيّة بجاريْن،

وكان مدركاً رغبتهما في الثأر لإسقاط والدهما، وبأنّهما سيشكّلان خطراً أكبر إذا ما تمكّنا، وفق تصوّر نوري السعيد، من الاتّحاد معاً.

في 1933، منح الملك حقوقاً حصريّة للتنقيب عن النفط داخل مملكته لشركة أميركيّة هي California Arabian Standard Oil Company (CASOC)، لكنّ الشركة لم تنقّب عن النفط حتّى 1938. وقد أدّى اندلاع الحرب في العام التالي إلى تعطيل سوق النفط السعوديّة الحديثة العهد، والأهمّ من ذلك موسم الحجّ الذي كان لا يزال يؤمّن لابن سعود القسم الأكبر من دخله، ما أدّى إلى إغراق المملكة في أزمة ماليّة. كما زاد الجفافُ الطينَ بلّة.

خوفاً من أن يستغلّ منافسوه الهاشميّون ضعفه، اعتمد ابن سعود على البريطانيّين وعلى شركة النفط للحصول على الأموال. كانت الشركة تخشى أن يحاول البريطانيّون، الذين ساعدوه في الحرب السابقة، الحصول على تعويض مقابل دعمهم. لذا وعدت بتقديم دفعة مسبقة بقيمة ثلاثة ملايين دولار مقابل العائدات المستقبليّة في أوائل 1941، قبل أن تطلب من الحكومة الأميركيّة التعويض. عندما رفض روزفلت ذلك – على أساس أنّ المملكة العربيّة السعوديّة تبدو "بعيدة قليلاً بالنسبة إلينا" – تمّ التوصّل إلى حلّ وسط، فحوّلت الحكومة البريطانيّة الأموال الأميركيّة التي كانت قد اقترضتها، ومساعدات الإعارة والاستئجار، إلى ابن سعود. في 1942، حوّل البريطانيّون ثلاثة ملايين جنيه إسترليني بهذه الطريقة.[51]

51 *FRUS*, 1941, Vol. III, p. 643, Roosevelt to Jones, 18 July 1941; Anderson, *Aramco, the United States, and Saudi Arabia*, p. 33.

إن كان موين يأمل أن يكون لهذا المال تأثير في ردّ فعل ابن سعود على مخطط "الهلال الخصيب"، كان سيُصاب حتماً بخيبة أمل. تذكّرَ لاحقاً: "تناوَلْنا في سياق حديثنا موضوعات كثيرة"، قبل أن يصل الحديث إلى المسألة التي استُدعي من مسافة 600 ميل لمناقشتها. تحدّث أمير الحرب بصوت خافت، واستغل اللقاء لتسجيل عدائه لمخطّط نوري. لم يكن الملك يرفض فكرة توطيد العلاقات الاقتصاديّة بين جيرانه العرب الشماليّين، لكن عندما أثار موين إمكانيّة تشكيل اتّحاد عربيّ لتوحيدهم، "لم يُبدِ أيّ تشجيع لهذه الفكرة".

***

أكّد اجتماع جدّة شكوك موين حول الحاجة إلى اتّباع نهج متدرّج أكثر وغير مؤذٍ. قد لا تكون مصادفةً تقديمُ حليف بريطانيّ آخر، هو الصهيوني البارز والمعتدل يهوذا ماغنيس، اقتراحاً مماثلاً

في الشهر التالي. في مقالة كتبها في المجلّة الأميركيّة *Foreign Affairs*، اقترح ماغنيس، الذي كان رئيساً للجامعة العبريّة في القدس، إقامة دولة ثنائيّة وطنيّة داخل اتّحاد عربيّ واسع مماثل للاتّحاد الذي وصفه نوري السعيد. وبما أنّ الأمر كان "دقيقاً ومعقّداً"، اقترح أن تكون الخطوة الأولى اتّحاداً اقتصاديّاً. قال إنّ "إحدى الوسائل لتشكيل هذا الاتّحاد الاقتصاديّ المرغوب فيه للغاية قد تكون تطوير مركز التموين في الشرق الأوسط ليحقّق أقصى فوائده".[52]

52 Magnes, 'Toward Peace in Palestine', p. 248.

من الناحية النظريّة، يبدو مركز التموين في الشرق الأوسط وكالة إنكليزيّة–أميركيّة مشتركة، لكنّه من الناحية العمليّة يخضع لهيمنة بريطانيّة. تأسّس هذا المركز في 1941 بعد أن أدّت الحرب إلى إغلاق منطقة البحر المتوسّط في وجه الملاحة التجاريّة، فاضطرّت الأخيرة إلى الالتفاف حول الخليج للوصول إلى مصر. في تلك المدة، كانت السفن تعاني من نقص في الوقود، وكان الشرق الأوسط يستورد حينذاك خمسة ملايين طن من الغذاء كلّ عام، ولذا كانت مهمّة المركز تقضي بتأمين المؤن باستمرار للسكّان المحلّيين والجيوش المتمركزة هناك، باستخدام أقلّ قدر ممكن من الشحن. عندما أدرك المسؤولون بسرعة أنّ أفضل طريقة لذلك هي زيادة الاكتفاء الذاتيّ في المنطقة، حرّروا رخصة تسمح لمنظّمتهم بالتدخّل. وسرعان ما وضعوا حصص استيراد وإعادة توزيع مساعدات الإعارة والاستئجار الأميركيّة على بلدان المنطقة؛ بحلول 1943، كان المركز يسيطر على جميع وسائل النقل الداخليّة، ويقدّم النصائح في مجال التقنيّات الزراعيّة والريّ والصناعة. حتّى أنّه كان يدير وحدة مكافحة الجراد التي حصلت على الحقّ في التجوّل عبر الشرق الأوسط، لأنّه، على حدّ القول الشهير لمديرها، "تصير المشكلات السياسيّة هائلة إذا انتشر الجراد". في حين كان ماغنيس يؤيّد علناً استخدام المركز، كان موين يدافع في المجالس المغلقة عن التوسيع نفسه لصلاحيّاته إلى ما بعد نهاية الحرب. سيشكّل المركز الوكالة التنفيذيّة لمجلس اقتصاديّ في الشرق الأوسط يضمّ ممثّلين عن دول المنطقة ومندوبين من الولايات المتحدة وبريطانيا بطبيعة الحال، وستقضي مهمّتهم بإدارة عمليّة التحوّل السريعة من الحرب إلى السلام.[53]

53 Thomas, *The Diplomatic Game*, p. 10.

كانت المشاركة الأميركيّة حاسمة في نجاح هذه الخطّة. بدءاً من معركة العلمين، باشر البريطانيّون في محاولة إقناع نظرائهم الأميركيّين أنّ مركز التموين في الشرق الأوسط كان الحلّ للمشكلات التي رصدها ويلكي. وقد اقترحت مجلة *The Economist* الأسبوعيّة البريطانيّة، التي

اطّلعت على الموضوع عبر مدير المركز، أنّ "وضع صيغة معدّلة لمركز التموين في الشرق الأوسط تمثّل الأمم المتحدة يمكن أن يوفّر رأس المال والآلات والخبراء والمستشارين والاختصاصيين التربويّين الضروريّين، لرفع مستويات المعيشة في الشرق الأوسط، ووضع حدّ لأزمات الفقر المتكرّرة، وأنّه لا يمكن في النهاية سوى تحقيق تعاون سياسيّ محدود وأمل صغير للمنطقة، وسط الصراع على النفوذ السائد بين القوى العظمى". لم يكن موين وزملاؤه ليقرّوا بسبب حرصهم على الحفاظ على المركز إلّا في الجلسات المغلقة. تشكّل سيطرة بريطانيا على هذه البيروقراطيّة الغامضة والفعّالة "إحدى أكثر الوسائل الواعدة لإحكام سيطرتنا على المبادرة العامّة في الشرق الأوسط".54

54 'Supply Centre', *The Economist*, 13 March 1943; TNA, CAB 66/9/2, Middle East War Council, conclusions, 19 May 1943.

***

كان يتمّ تشكيل إستراتيجيّة بريطانيّة طويلة المدى، ومُقدَّر لها النجاح... هذا في حال لم يسيطر الصهاينة على المبادرة أوّلاً. بحلول نيسان/ أبريل 1943، كان لدى البريطانيّين ما يكفي من المعلومات السرّية لإقناعهم بأنّ الصهاينة سيستخدمون القوّة للحصول على ما يريدون. فقد كانت وكالة بن غوريون اليهوديّة تخصّص 15% من ميزانيّتها السنوية لـ"الأمن الداخليّ"، وهذا يعني، على حدّ اعتقادهم، تسليح "الهاجاناه"، وهي منظّمة شبه عسكريّة وغير قانونيّة قوامها ثمانون ألف جنديّ، بأسلحة كانت تشتري جزءاً منها من الفرنسيّين في سوريا سرّاً، وتؤمّن الجزء الآخر بسرقة منظّمة وواسعة النطاق من القوّات البريطانية المتمركزة في فلسطين. ففي شهر واحد فقط، اختفت ستمئة بندقية وعشرون رشّاشاً وذخائر وثلاثة أطنان من المتفجّرات من المستودعات البريطانيّة في الولاية. سمح أحد المُخبِرين للبريطانيّين بالتنّصت على اجتماع تحدّث فيه رئيس "الهاجاناه". قال: "كلّنا نعلم أنّ المشكلة الصهيونية ستُحلّ يوماً بقوّة السلاح. لا يمكن حلّها أبداً بالحوار السياسيّ، بل بالقتال فقط".55

55 *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 772, Pinkerton to Hull, 17 April 1943; TNA,CAB 66/37/46, Casey, 'Palestine', 21 April 1943.

بعد الاطّلاع على تقرير استخباراتيّ يشير إلى أنّ "الهاجاناه" تعمل على حلّ خلافاتها مع جماعات إرهابيّة يهوديّة متطرّفة، قرّر رئيس موين، الوزير ريتشارد كيسي، أنّ الوقت قد حان لتحذير لندن. في نيسان/ أبريل 1943، حذّر الحكومة البريطانيّة من أنّ فلسطين "تتّجه نحو أخطر

ظاهرة تفشٍّ للفوضى والعنف سبق لها أن شهدتها حتّى الآن... فور انتهاء الحرب في أوروبا، أو ربّما قبل بضعة أشهر على ذلك". كان هناك اختلافات في الرأي حول ما يمكن أن يؤدّي إلى تجدّد العنف، على حدّ تعبيره، "لكن ما من شكّ حول حتميّة اندلاع الثورة، إلّا في حال أمكن تجنّبها ببعض الإجراءات الحكوميّة البريطانيّة".[56]

56 TNA, CAB 66/37/46, Casey, 'Palestine', 21 April 1943.

من وجهة نظره الخاصّة، كان كيسي يرى أنّ السبب الأكثر احتمالاً للحرب هو المحاولة الصهيونيّة لاستغلال سياسة "الأمر الواقع" التي استخدمها بن غوريون، وطرح فكرة لاستباقها. في رأيه، صُمّمت حملة العلاقات العامّة الصهيونيّة الصاخبة لكسب تأييد الرأي العامّ في الولايات المتحدة وبريطانيا، أو على الأقلّ لتقسيمه، كي يتعّين على حكومتي الدولتيْن الرضوخ في نهاية المطاف عندما يهاجم الصهاينة. لإعاقة هذه الإستراتيجيّة، اقترح كيسي على الحكومتيْن البريطانيّة والأميريكيّة التصريح علانيّة، وفي أقرب وقت ممكن، برفضهما التساهل مع أيّ "تغييرات قسريّة" لإدارة فلسطين، وعلى الأخصّ "إقامة دولة يهوديّة قسريّاً".[57]

57 TNA, CAB 66/37/46, Casey, 'Palestine', 21 April 1943.

لم يكن هناك أيّ ضمانة لرغبة أيّ من الحكومتيْن في إصدار مثل هذا البيان، فقد بذلتا كلّ ما في وسعهما للتطرّق إلى الموضوع بأقلّ قدر ممكن. في محاولة لوضع حدّ لهذا الصمت، كان كيسي وزملاؤه قد قرّروا التركيز على الأميركيّين أوّلاً وقبل كلّ شيء، باستخدام نهج مُلتوٍ ومُراوغ.

أدرك البريطانيّون أنّ الأميركيّين سيُولون اهتماماً للمعلومات الاستخباريّة السرّية التي حصلوا عليها من أحد عملائهم، أكثر من التحذيرات الصّارخة من لندن، فقرّروا تزويد جاسوس أميركيّ في القاهرة بالمعلومات. ظهرَ العقيد هارولد هوسكينز من مكتب الخدمات الإستراتيجيّة في العاصمة المصريّة في نهاية 1942، وكُلّف نصَّ تقييم للتطوّرات السياسيّة في الشرق الأوسط، وإنشاء قاعدة لمنظّمته في المنطقة. لم يرغب البريطانيّون أبداً في قدومه، لكن بعد محاولتهم الفاشلة في منعه من ذلك، أدركوا أنّه بإمكانهم الاستفادة من خدماته. فقد كان هوسكينز يتمتّع بعلاقات جيّدة جدّاً، منها صداقته مع الرئيس روزفلت والرقم الثاني في وزارة الخارجية، سومنر ويلز. كان ابن مبشّريْن أميركيّيْن أتيا إلى سوريا، فكان يتحدّث العربيّة بطلاقة، كما لم يكن صديقاً للتنقيحيّين.

نظراً إلى الجهد الذي بذله البريطانيّون لمنع هوسكينز من القدوم كان السماح له بدخول عالم القاهرة السرّي مدعاة للصّدمة. ففي غضون أربعة أيّام من وصوله، عرّفه كيسي إلى رؤساء جهاز

المخابرات والعمليّات الإقليميّة التابعة لوحدة العمليّات العسكريّة الخاصّة، والممثّلين المحلّيين لمديريّة الحرب السياسيّة ووزارة الإعلام. ثمّ أقلّه كيسي إلى بيروت على متن طائرته.

كانت نتيجة هذه الجهود أن أبلغ هوسكينز ويلز، في 20 نيسان/ أبريل 1943، بتعابير تستنسخ التحذير الذي وجّهه كيسي إلى لندن، بـ"احتمال اندلاع القتال مجدّداً في فلسطين". وليلفت انتباه روزفلت، حذّر من أنّ الصراع العربيّ–اليهوديّ المتجدّد في فلسطين أثار تداعيات مهمّة بالنسبة إلى الولايات المتحدة: محلّياً لأنّه قد يؤدّي إلى مذبحة لليهود المقيمين في الدول العربيّة المجاورة، وعسكرياً لأنّه قد يزعزع استقرار شمال أفريقيا العربيّة، ما سيهدّد أمن قوات أيزنهاور التي كانت متمركزة هناك استعداداً لغزو أوروبا.

ثمّ اقترح هوسكينز أنّ أفضل طريقة لتجنّب العنف، على المدى القصير، هي إصدار الحلفاء بياناً واعداً بـ"تجنب اتّخاذ أيّ قرارات نهائيّة" بشأن فلسطين إلّا بعد انتهاء الحرب، "شرط التشاور الكامل مع كلّ من العرب واليهود". أمّا على المدى الأطول، فاقترح حلّاً هو خليط من مخطّطات يهودا ماغنيس ونوري السعيد: دولة يهوديّة–عربيّة ثنائيّة في إطار اتحّاد أشمل لدول المشرق. كانت توصيات هوسكينز تحمل بصمات بريطانيّة في جميع طيّاتها.[58]

58 *FRUS*, 1943, Vol. IV, pp. 781–85, Hull to Roosevelt, 7 May 1943.
مُرفق بملخّص عن تقرير المقدم هارولد ب. هوسكينز عن الشرق الأدنى.

بعد بضعة أيام، التقى كيسي مسؤوليه الكبار وأكّدوا خطّتهم لتأمين استمرارية مركز التموين في الشرق الأوسط، مفضّلين إتمام ذلك بالتنسيق مع حكومة الولايات المتحدة، بعد نهاية الحرب. لم يُدعَ الأميركيون إلى هذا المؤتمر السرّي لكنهم كانوا على علم بانعقاده. بعد ذلك مباشرة، استوقف السفير الأميركي في القاهرة كيسي. نقل الوزير المقيم: "سألني عمّا تمت مناقشته. بحكم الظروف، لم أتمكن من إطلاعه سوى على العموميات".[59]

59 TNA, CAB 66/39/2, Casey, ‘British Policy in the Middle East’, 12 July 1943.

***

ساهم غموض ريتشارد كيسي في تعزيز الشكوك الأميركيّة حول النشاط البريطانيّ في الشرق الأوسط. وكانت هذه الشكوك تتفاقم منذ اللحظة الأولى التي أدرك فيها الأميركيّون أنّ البريطانيّين يستخدمون مساعدات الإعارة والاستئجار لتعزيز موقعهم في المنطقة على حساب أميركا. في كانون الثاني/ يناير 1943، بعد مدة وجيزة على تصريح ابن سعود بأنّه في حين أن "أميركا قادرة

على توفير كلّ شيء تقريباً... إذا أردنا أيّ شيء نلجأ إلى البريطانيّين ويحرص ملك إنكلترا على حصولنا عليه"، قرّر السفير الأميركيّ لدى القاهرة أنّ الوقت قد حان لمعرفة ما كان يخطّط له مركز التموين في الشرق الأوسط. بعد زيارته جدّة، ذكر أنّ الولايات المتحدة "فقدت الكثير من هَيبتها في نظر السعوديّين الذين باتوا يشعرون أكثر فأكثر بأنّ البريطانيّين هم أصدقاؤهم الوحيدون عند الضيق". 60

60 Davis, 'Keeping the Americans in Line?', p. 107; *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 856, Kirk to Hull, 18 January 1943.

بينما كان الديبلوماسيّون الأميركيّون متخوّفين على مكانتهم، كان رجال النفط الأميركيّون أكثر قلقاً بشأن المال. فقد تخوّف المديرون التنفيذيّون والمالكون لشركة CASOC من أن يلغي الملك امتياز الشركة ويمنحه للبريطانيّين في حال لم يستطع أن يدفع لهم. وفي شباط/ فبراير، عرض رئيس الشركة ومُساهِماه خطّة على إدارة روزفلت مفادها أنّه إن غطّت حكومة الولايات المتحدة ديون المملكة السعوديّة لبريطانيا، تمنح الشركة الحكومة نفطاً بقيمة موازية.

راقت هذه الفكرة فوراً لوزير الداخليّة هارولد آيكس الذي كان بحكم مزاولته في الوقت نفسه لمنصب مدير النفط خلال الحرب مسؤولاً عن جمع موارد النفط الأميركيّة. كان آيكس أبويّاً يمارس ما يبشّر به – متزوّج بامرأة أصغر منه بأربعين سنة – ولذا لطالما نادى بضرورة حذو حكومة الولايات المتحدة حذو بريطانيا في الحصول على حصص إستراتيجيّة في شركات ذات امتيازات نفطيّة أجنبيّة، لأنّ النفط كان مورداً محدوداً، ولأنّ إنتاج النفط في الولايات المتحدة سيبدأ بالتداعي قريباً. شكّل اقتراح CASOC خطوة مهمة وفقاً لتوجّهه الفلسفيّ الخاصّ.

أثناء تناوله الغداء مع روزفلت في 16 شباط/ فبراير، حذّر آيكس الرئيس من أنّ البريطانيّين الذين "لم يفوّتوا أيّ فرصة للدخول إلى حيث يوجد نفط"، كانوا "يحاولون شقّ طريقهم إلى" السعودية... "ربّما أكبر وأغنى حقل نفطيّ في العالم". كانت قائمة روزفلت قد تضمّنت بالفعل طلباً لتوسيع مساعدات الإعارة والاستئجار المباشرة لتشمل السعوديّة من أجل منع الوسطاء البريطانيّين من الاستفادة من صرف المساعدات الأميركيّة، وبعد الغداء وقّع الرئيس عليه فوراً. ثمّ أعلن بعد يومين: "أرى أنّ الدفاع عن السعودية أمرٌ حيويّ لحماية الولايات المتحدة". هذا هو التفكير الذي عزّز العلاقة الأميركيّة مع السعوديّين منذ ذلك الحين. 61

61 Yergin, *The Prize*, p. 397; Davis, 'Keeping the Americans in Line?', p. 111.

مع تمركُز القوّات الأميركيّة الآن في شمال أفريقيا، بدأ روزفلت يعير فجأة اهتماماً أكبر بسياسات العالم العربيّ. في نهاية آذار/ مارس، أرسل مبعوثاً آخر إلى المنطقة. كان باتريك هيرلي الجمهوريّ وزيراً للحرب لدى هوفر قبل أن يصبح مؤيّداً متحمّساً للصفقة الجديدة. منذ بداية الحرب، كان قد أجرى عدداً من المهمّات الديبلوماسيّة لروزفلت. بحكم ذلك، سيصير هيرلي الممثّل الشخصيّ للرئيس في الشرق الأوسط، ويسير على خطى ويلكي. أمضى ذاك الربيع يومين في فلسطين، وعشرة أيّام في لبنان وسوريا، ثمّ سافر إلى بغداد وطهران. وفي أوائل أيار/ مايو، نقل انطباعاته إلى الرئيس من القاهرة.

كان هيرلي مبغضا للإنكليز، لكن اعتُمد تقريره في واشنطن بظاهره لأنّه يعزّز الشكوك القائمة. خلال أسفاره، سمعَ العديد من الناس يقولون إنّ المسؤولين البريطانيّين كانوا يشجّعون فكرة أنّ الأميركيّين يصرّون على إقامة دولة يهوديّة ذات سيادة في فلسطين؛ إنّه ’’خطّ ترويجي‘‘، كما أشار، ’’ومفيد بصورة واضحة للمكانة البريطانيّة لدى العرب‘‘. وسمعَ شائعة أخرى مفادها أنّ تشرشل، خلال جلسة خاصّة في آخر زيارة له إلى القاهرة، قال إنّه يؤيّد قيام دولة يهوديّة، وإنّ روزفلت لن يقبل ’’أقلّ من ذلك‘‘. استنتج هيرلي أنّ البريطانيّين ما عادوا قادرين على تسوية هذه القضيّة التي تزداد سوءاً. وعلى غرار هوسكينز الذي كان تقريره الخاصّ قد وصل إلى روزفلت، اعتقد أنّ الوقت قد حان لتدخُّل الولايات المتحدة.[62]

[62] *FRUS*, 1943, Vol. IV, pp. 778–80, Hurley to Roosevelt, 5 May 1943.

***

سرعان ما تسنّى لروزفلت طرح المسألة وجهاً لوجه مع تشرشل الذي وصل إلى الولايات المتحدة في 11 أيار/ مايو 1943، لحضور ما سيتّضح أنّه مؤتمر سيّئ بشأن الإستراتيجيّة المستقبليّة. بعد أسبوع، عندما كان الرجلان يتناولان الإفطار في المنتجع الرئاسيّ في شانغريلا، وجدا أنّ الصهاينة دفعوا ثمن إعلان كبير آخر في صحيفة *New York Times*، كُتب فيه: ”أيّها السيّد تشرشل، أسقِط الانتداب!“ منح ذلك روزفلت فرصة التطرّق إلى الموضوع. كما أنّه أرسل تقرير هيرلي إلى تشرشل. نُقل عن رئيس الوزراء قوله إنّ تصريحاته ”جعلتني أفرك عيني من الدهشة“.[63]

[63] Medoff, *Militant Zionism in America*, p. 90; O’Sullivan, *FDR and the End of Empire*, p. 86.

فضّل روزفلت أن يُدلي ببيانه وفقاً لما اقترحه هوسكينز، إنّما كان لدى رئيس الوزراء فكرة بديلة. بتشجيع من رئيس ”المنظّمة الصهيونيّة“ حاييم وايزمان، الذي حاول التوصّل إلى اتّفاق مع الهاشميّين حول فلسطين بعد نهاية الحرب العظمى، اعتقد تشرشل لمدة طويلة أنّ ابن سعود – الذي يرى فيه ”أعظم عربيّ على قيد الحياة“ – قد يكون قادراً على التوصّل إلى صفقة كبيرة مع الصهاينة.64

64 Dockter, *Churchill and the Islamic World*, pp. 235–6.

كانت هذه الفكرة فانتازيا مبسّطة جدّاً، لكنّها صارت أكثر جاذبية عندما تلقّى الرئيس، في أواخر أيار/ مايو، رسالة مقلقة من الملك السعوديّ نفسه. اتّضح أنّ هذه الرسالة تضمّنت شكوى مريرة إزاء تأثير البروباغاندا الصهيونيّة في الولايات المتحدة، الذي وصلت أخباره بوضوح إلى الرياض. قال الملك إنّه حتّى لو نجحت هذه الحملة في إقناع الحلفاء بتحويل فلسطين إلى اليهود، فإنّها لن تحلّ ”المشكلة اليهوديّة“، لأنّ البلاد لم تكن كبيرة بما فيه الكفاية. ودعا روزفلت إلى المساعدة على وضع حدّ لتدفّق اللاجئين اليهود إلى فلسطين بإيجاد أماكن أخرى لهم للذهاب إليها، وحظر بيع الأراضي في فلسطين لليهود. استناداً إلى ملاحظات هيرلي، وحقيقة أنّ البريطانيّين كانوا يعرفون قبل أيّ شخص آخر أنّ ابن سعود كان يراسل الرئيس، لا بدّ أنّ روزفلت شكّك في أنّهم هم الذين ألهموا الملك لمراسلته. وقد عزّزت الأنباء حول إصرار البريطانيّين على ضرورة استمرار تقديم مساعدات الإعارة والاستئجار عبر مركز التموين في الشرق الأوسط الانطباع لدى واشنطن بأنّهم كانوا يعرقلون الأمور عمداً.65

65 *FRUS*, 1943, Vol. IV, pp. 773–5, King Abdul Aziz Ibn Saud to Roosevelt.

استغرقت رسالة ابن سعود شهراً لتصل إلى واشنطن، وأثارت لدى وصولها شعوراً بالقلق. ردّ روزفلت عليها فوراً، طالباً من الملك المحافظة على الهدوء قبل أن ينقل إليه فكرة تشرشل. واقترح الرئيس أنّ توصُّل ”العرب واليهود المعنيّين“ إلى ”تفاهم وديّ“ حول فلسطين قبل نهاية الحرب ”أمرٌ مرحّب به جدّاً“. ثمّ طمأن الملك أنّه ”لا ينبغي التوصُّل إلى أيّ قرار من شأنه تغيير الوضع الأساسي لفلسطين من دون التشاور الكامل مع العرب واليهود كافّة“.66

66 *FRUS*, 1943, Vol. IV, pp. 786–7, Hull to Kirk, 26 May 1943, enclosing Roosevelt to King Ibn Saud.

سيتّضح أن ردّ روزفلت شكّل ضمانة مهمّة، لكنّه لم يغير شيئاً لأنه وصل إلى ابن سعود بعد فوات الأوان. رغم أنّ الملك قد وعدَ في نيسان/ أبريل بتجنب التصريح علناً بأيّ شيء من شأنه

إحراج الرئيس، فإنّه غيّر رأيه منذ ذلك الوقت. ففي 31 أيار/ مايو 1943، نشرت مجلة *Life* قصّة عن ابن سعود بعد مقابلة أجرتها مع الملك. رسمت القصّة صورة متعاطفة تضمّنت تصريحاً منه يرفض فيه مطالبة الصهاينة بفلسطين، ويدعو مرّة أخرى إلى حظر بيع الأراضي لليهود. ونُقل عن ابن سعود قوله: "في حال اضطرّ اليهود إلى البحث عن مكان للعيش فيه، فإنّ أوروبا وأميركا وغيرها من الأراضي أكبر وأكثر خصوبة من فلسطين، وأكثر ملاءمة لرفاهيّتهم ومصالحهم".[67]

[67] 'The King of Arabia', by Noel Busch, *Life*, 31 May 1943.

سافر هيرلي لرؤية ابن سعود في محاولة لاستيضاح ما تسبّب في تغيير توجُّه الملك. فوجد أنّ الملك كان قلِقاً على نحو خاصّ حول حقيقة أنّ البريطانيّين يستخدمون مساعدات الإعارة والاستئجار لتحسين منشآتهم النفطيّة في إيران والعراق، في حين نفَتْ شركة CASOC المتمركزة على ساحل الخليج إمكانيّة وجود استثمارات مماثلة. قرع التقرير جرس الإنذار في واشنطن، لأنّه أوضح أنّ قضيّتيْن منفصلتيْن – مستقبل الامتياز النفطيّ الأميركيّ في السعوديّة والنزاع العربيّ–اليهوديّ في فلسطين – صارتا الآن، على الأقلّ في ذهن ابن سعود، متشابكتيْن. لدى عودته إلى القاهرة، أوصى هيرلي روزفلت بأنّه بغية ضمان الاستثمار في الامتياز النفطيّ والاستغناء بالكامل عن مساعدات الإعارة والاستئجار، على الحكومة الأميركيّة أن تبادر إلى إنشاء احتياطيّ نفطيّ عسكريّ في السعوديّة، وإلى الحصول على حصّة مباشرة في CASOC. من شأن الاستثمار الأميركيّ تمكين الشركة من زيادة الإنتاج، وتوليد العائدات لابن سعود، والأهمّ من ذلك الحدّ من اعتماد الملك غير المرغوب فيه على البريطانيّين.

كان لآيكس توجُّه مماثل لهيرلي في التفكير منذ اجتماعه على مائدة الغداء مع روزفلت في شباط/ فبراير. وقد بدأ يحثّ الرئيس على دعم إنشاء مؤسّسة لمحميّات البترول تملكها الدولة، لا تشتري نفط CASOC فحسب بل حصّة وازنة في الشركة نفسها. وكما أخبر روزفلت، كان هدفه "مواجهة أنشطة معيّنة تمارسها قوّة أجنبيّة، وتشكّل في الوقت الحاضر تهديداً للمصالح الأميركيّة بالنسبة إلى احتياطات النفط العربيّة". وافق روزفلت الذي كان يعلم بالضّبط ما هي القوّة التي يلمّح إليها آيكس. يظهر استعداد كلا الرجلين لاتّخاذ مثل هذه الخطوة غير المسبوقة والخارجة عن المألوف مدى خطورة التهديد البريطانيّ في رأيهما.[68]

[68] Randall, 'Harold Ickes and United States Foreign Petroleum Policy Planning', p. 375.

في الوقت نفسه، كان الأميركيّون يعملون على إلزام الحكومة البريطانيّة بياناً علنيّاً حول فلسطين، من شأنه منع المسؤولين البريطانيّين من الادّعاء بأنّ الولايات المتحدة تسعى إلى إقامة دولة يهوديّة، ومن ثمّ التخفيف من روع ابن سعود. في 11 حزيران/ يونيو، التقى روزفلت بوايزمان شخصيّاً، وأخبره أنّه خلال الزيارة الأخيرة لرئيس الوزراء "حمل تشرشل على الموافقة على فكرة جَمع اليهود والعرب"؛ كانت تلك فكرة وايزمان في المقام الأوّل. وكان سومنر ويلز، الابن المدلّل لروزفلت، حاضراً أيضاً في هذا الاجتماع. باقتراح من ويلز، وافق روزفلت ووايزمان على إرسال هارولد هوسكينز إلى الرياض لاستيضاح نيّات ابن سعود.[69]

69 *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 793, Memorandum by Weizmann, 12 June 1943.

***

مرّ أكثر من شهر قبل أن يلبّي البريطانيّون الطلب الأميركيّ بإصدار بيان مشترك، ويعود ذلك أساساً إلى عدم رغبة تشرشل أو إيدن في إصدار أيّ بيان. كان تشرشل، الصهيونيّ منذ زيارته الأولى إلى فلسطين عام 1921، يكره القيود المفروضة على الهجرة وبيع الأراضي التي فرضها "الكتاب الأبيض" الصّادر عام 1939، وكان يخشى أن يؤدّي أيّ إعلان عن فلسطين إلى لفت الانتباه إلى عجزه عن التخلّي عنها. في حين كان إيدن، الذي تعلّم العربيّة والفارسيّة في أكسفورد والذي كان مؤيّداً غريزيّاً للعرب، قلِقاً من أن يخلق ذلك ببساطة وثيقة أخرى مثيرة للنزاع يمكن لكلّ جانب تحليلها على هواه، ثمّ استخدامها من المعسكريْن ضدّ البريطانيّين. رغم اعترافه بأنّهم "يشهدون على ظهور العوارض الأولى إنّما المتسارعة لانبعاث قوميّ كبير في الشرق الأوسط لدى قوّتيْن متنافستيْن، العروبة والصهيونيّة"، فإنّه رأى البروباغاندا الصهيونيّة في الولايات المتحدة مسؤولة عن تأجيج المشكلة. في رأيه، كان يُفترض بروزفلت التعامل معهم، بدءاً من الأعضاء المُوالين للصهيونيّة في حكومته، بمَن فيهم هنري ستيمسون، السكرتير الحربيّ.[70]

70 TNA, CAB 66/36/50, Eden, 'Palestine', 10 May 1943.

يبدو أنّ كيسي هو مَن غيّر رأي كلّ من تشرشل وإيدن. ففي زيارة من القاهرة إلى لندن للحصول على موافقة مجلس الوزراء على إستراتيجيّات جديدة لفلسطين والشرق الأوسط، انضمّ إلى مجلس الوزراء لمناقشة مسألة فلسطين في 2 تموز/ يوليو. كان من المُلحّ جدّاً حينذاك بلورة توجُّه فكريّ جديد إزاء هذه المسألة، بغية استبدال السياسات المثيرة للجدل التي وضعها "الكتاب الأبيض" عام 1939، وكان من المقرّر أن ينتهي في غضون تسعة أشهر. في ذلك الاجتماع، عرض سلسلة من

المقترحات التي توصّل إليها لمحاولة الحفاظ على السلام في البلاد، في حين وضعت لجنة فرعيّة جديدة تابعة لمجلس الوزراء سياسة جديدة للانتداب. وحثَّ مرة أخرى على إصدار بيان مشترك مع الأميركيّين.

بينما أحسّ تشرشل أنّ الوقت ”ليس مناسباً للإدلاء بتصريحات حول سياسة طويلة الأجل“، أكّد كيسي أنّه إجراء مؤقّت. دعم إيدن الاقتراح، على أساس أنّ البيان قد يثبّط عزيمة التنقيحيّين في السعي إلى إحداث تغيير عنيف، بينما كانت الحكومة البريطانيّة تتلمّس طريقها نحو إرساء سياسة جديدة بشأن فلسطين. بعد أن رضخ تشرشل، وقال إنه سيوافق على ”إعلان مُسكِّن“ شرط ألّا تناقش المسألة علانيّة بعد الآن إلى أن تتحوّل الحرب أكثر لمصلحة الحلفاء، وافق مجلس الوزراء على الاستجابة للانفتاح الأميركيّ. تطلّب الأمر عقد اجتماع وزاريّ آخر في 14 تموز/ يوليو كي يناقش تشرشل وزملاؤه إستراتيجيّة بريطانيّة شرق أوسطيّة أوسع.[71]

71 TNA, CAB 195/2, meeting of 2 July 1943.

”إنّ فرصتنا الوحيدة لإثبات تأثيرنا في مرحلة ما بعد الحرب هي في الجانب الاقتصاديّ“، هذا ما أعلنه كيسي عند افتتاحه النقاش في 14 تموز/ يوليو، قبل أن يشرح هدف مركز التموين في الشرق الأوسط والمجلس الاقتصاديّ للشرق الأوسط. فالمركز سيمكّن من تقديم إرشادات الخبراء والمساعدة الماديّة التي ”من المحتمل أن يُرحّب بها أكثر من الوصاية السياسيّة“، في حين سيساعد المجلس على دمج الشرق الأوسط في أيّ ”تدابير للسلع النقديّة العالميّة التي قد يتمّ تبنّيها في التسوية السلميّة“.[72]

72 TNA, CAB 195/2, meeting of 14 July 1943.

كانت هذه نقطة غامضة إنّما مهمّة للغاية لحاكمَيْ دولة تكبّدت ديوناً كبيرة من أجل خوض الحرب. وكانت المفاجأة كبيرة لأولئك الذين قالوا إنّ الإمبراطوريّة دافعت عن نفسها، عندما اكتشفوا أنّ الدفاع عن دول كمصر كان باهظ الثمن؛ بحلول نهاية ذلك العام، كانت بريطانيا مدينة لمصر وحدها بأكثر من ربع مليار جنيه كلفة السلع التي اشترتها القوّات البريطانيّة من المصريّين ولم تدفع ثمنها بعد. وبإطالة المراقبة على العملة وتقديم التوجيه، كان البريطانيّون يأملون في احتكار تجارة ما بعد الحرب مع دول كمصر من أجل تسديد ما يترتب عليها. وتابع كيسي قائلاً إنّه لو استطاع البريطانيّون حملَ الأميركيّين على شراء أسهم مركز التموين في الشرق الأوسط الذي تسيطر عليه

بريطانيا والمجلس الاقتصاديّ، ستكون بريطانيا قادرة على تشجيع دائنيها على الشّراء منها. لكنّه لم يفصح عن سبب رفض الأميركيّين ذلك.

طرح كيسي أيضاً مسألة النفط. فقد أراد التوصّل إلى تفاهم مع واشنطن لتجنّب المزيد من الاحتكاك حول هذه القضيّة. لكنّ تشرشل لم يكن مقتنعاً. وافقَ على مضض على مراجعة سياسته تجاه فلسطين، إذ كان الحلفاء قد غزوا صقلية للتوّ، ورأى أنّ حرب الشرق الأوسط قد انتهت. سأل خلال المناقشة: ''لماذا نطرح هذه الأسئلة الكبيرة؟ في مرحلة السلام، سنعرف ما هي قيمة كلّ منّا. نحن لا نحتاج إلى مساعدة من الولايات المتحدة في هذا المجال، ومن غير المحتمل أن نرى الكثير منهم هناك من الآن فصاعداً''.[73]

[73] TNA, CAB 195/2, meeting of 14 July 1943.

كان من المقرّر صدور بيان فلسطين من جانبَي المحيط الأطلسي في 27 تموز/ يوليو، لكنّه لم يصدر. بعد أن أعطى وزير خارجيّة الولايات المتحدة، كورديل هال، الضّوء الأخضر لإعلانه، يبدو أنّ حماسته خفّت، ربّما لأنّ البريطانيين أجروا في هذه الأثناء بعض الإضافات على الإعلان ليشمل تحذيراً أكثر وضوحاً من غياب الاستعداد لدى أيّ من الحكومتيْن لتحمُّل استخدام الصهاينة القوّة. أحال هال القضيّة على وزير الحرب هنري ستيمسون، على أساس أنّه كان ضابطاً في الجيش على غرار هوسكينز الذي كان أوّل من حذّر من احتمال اندلاع العنف في فلسطين. لعلّه كان يعرف ما يعنيه، لأنّ ستيمسون أيّد الصهاينة علناً. في 30 تموز/ يوليو، ذكرت صحيفة *New York Times* أنّ البيان كان وشيكاً. وفي 5 آب/ أغسطس، اتّصل ستيمسون بهال ليخبره أنّ الوضع في فلسطين أقلّ خطورة ممّا كان متوقّعاً، ما منح هول الذريعة التي كان يحتاجها للتخلّي عن البيان. وقد ذكر السفير البريطانيّ بعد ذلك أنّه تعرّض للاضطهاد نتيجة الضغط الصهيونيّ.

اتّضح أنّ أكثر من ستّة أشهر من العمل الدؤوب لكيسي، لربط الأميركيّين بالسياسة البريطانيّة تجاه فلسطين، كانت بلا جدوى. وفي القاهرة، كان هارولد هوسكينز على وشك أن يثبت أنّ افتراض تشرشل المتساهل بأنّ المصلحة الأميركيّة في الشرق الأوسط على وشك التلاشي لم يكن ليكون أكثر خطأ.

4

نظرات مُغرية

كثيراً ما قيل أنّه إمّا الله وإمّا الذهب ما جلب الأميركيّين لأوّل مرّة إلى الشرق الأوسط. فأوائل الزوّار الأميركيّين إلى المنطقة كانوا في الغالب إمّا مبشّرين وإمّا تجّاراً، وقد جاؤوا بعد أن صار السفر عبر البحر الأبيض المتوسّط آمناً في نهاية المطاف، عقب الانتصار النهائيّ على القراصنة خلال الحروب البربريّة في 1815. قايضَ رجال الأعمال الأوائل الرّوم بالتّين التركيّ والأفيون، ثمّ بعد نهاية الحرب الأهليّة قايضوا فائض الأسلحة والمعدّات بمجموعة واسعة من السلع الأساسيّة التي تشمل عرق السوس والتبغ. كان النّفط أيضاً مهمّاً. في 1879، تباهى القنصل الأميركيّ في القسطنطينيّة بأنّ المصابيح المُحيطة بالمقبرة النبويّة في المدينة المنوّرة تستخدم البارافين الآتي من ولاية بنسلفانيا. عندما آن الأوان لإرسال الجاسوس الأميركيّ هارولد هوسكينز في مهمّته إلى السعوديّة، في منتصف 1943، كان السبب الرئيسيّ لأهمّية الشرق الأوسط أنّ النفط بدأ حينذاك في التدفّق في الاتّجاه المعاكس.[74]

[74] Field, ‘Trade, Skills and Sympathy’, p. 6.

كان فرانكلين، والد هوسكينز، أحد المبشّرين. انطلاقاً من المعتقدات الألفيّة أو الشعور بالذنب تجاه مناهضة اليهوديّة من قبل المسيحيّة، كانت مهمّتهم الأساسيّة تقضي بمساعدة اليهود على استعادة دولتهم القديمة، إسرائيل، لكنّ الأمر انتهى بالعديد منهم بالعمل في أوساط السكّان الأرمن والعلويّين في الإمبراطوريّة العثمانيّة. كان عملاً بطيئاً جداً، فقد تمّ تعميد أوّل علويّ تحوّل إلى البروتستانتيّة في 1860، ومرّت أربع سنوات قبل أن يليه شخص آخر.

كان التعليم مفتاحاً أساسيّاً لإستراتيجيّة المبشّرين. وكانت أشهر المدارس التي أنشأها الأميركيّون هي الكلّية السوريّة البروتستانتيّة في بيروت التي كان فرانكلين هوسكينز مدرّساً فيها. أُعيد تسميتها بالجامعة الأميركيّة في بيروت، بحلول 1940، وكانت تضمّ ألفي طالب، ما يعني أنّ الأميركيّين تغلّبوا على الفرنسيّين بوصفهم الجهة الأهمّ في تأمين التعليم في المنطقة. عزّزت هذه الجامعة، إلى جانب الجامعة الأميركيّة في القاهرة التي تأسّست بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، سمعة

الأميركيّين كمُحسنين شرفاء. بعد سنوات قليلة، كتب سياسيّ بريطانيّ أنّ هاتيْن المؤسّستيْن "ساهمتا في تعزيز المصالح الأميركيّة في الشرق الأوسط أكثر من كلّ الديبلوماسيّين والجيوش البريطانيّين مجتمعة". 75

75 Crossman, *Palestine Mission*, p. 181.

بينما كان الله من أحضر فرانكلين إلى الشرق الأوسط، كان الذهب هو الذي جذب ابنه هارولد إلى هناك في مهمّة لمقابلة ابن سعود صيفَ 1943. رغم أنّ صلاحيّته الظاهريّة كانت تقضي بمعرفة إن كان ابن سعود مستعدّاً للقاء الزعيم الصهيونيّ حاييم وايزمان، بحلول الوقت الذي انطلق فيه إلى الرياض، صارت مهمّته تشكّل فعليّاً غطاءً لمهمّة أكثر أهمّية وحساسيّة، مهمّة كان الأميركيّون حريصين على إبقائها سرّاً كي لا يتمكّن البريطانيّون من كشفها. في الواقع من الممكن أن يكون هذا هو السبب الحقيقيّ لمهمّة هوسكينز طوال الوقت.

***

في اللحظة التي سمع فيها وزير خارجيّة روزفلت، كورديل هال، بفكرة هارولد آيكس عن شراء حصّة مسيطرة في شركة CASOC التي كانت تملك الامتياز في السعوديّة، أدرك أنّ الإدارة ستحتاج أوّلاً إلى رشوة ابن سعود. رغم غياب أيّ شيء، على ما يبدو، في الاتّفاقات بين الشركة والملك التي تمنع الحكومة الأميركيّة من فعل ما اقترحه آيكس، رأى هول أنّه على الشركة إبلاغ الملك، أقلّه من باب المجاملة. فضلاً عن ذلك كان الملك يستمتع بإخبار الأميركيّين أنّ أحد الأسباب التي دفعته إلى منحهم الامتياز "وجودكم على مسافة بعيدة جدّاً"، فلم يعرف أحد تماماً كيف سيتفاعل مع اقتراح سيؤدّي حتماً إلى زيادة التدخّل الأميركيّ في بلاده. لذا اقترح هال إرسال "ممثّل خاصّ" إلى الشرق الأوسط للتشاور مع السفراء الأميركيّين في القاهرة وجدّة، على أن يتحدّث هؤلاء الرجال معاً إلى ابن سعود. 76

76 Hart, *Saudi Arabia and the United States*, p. 38; *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 931, Hull to Roosevelt, 6 July 1943.

في اليوم التالي على عرض هال هذه الخطة على روزفلت، طلب الأخير من هوسكينز "التوجّه فوراً إلى السعوديّة". كما أوصاه، بشيء من الدراميّة، بالتركيز حصراً على التأكّد ممّا إذا كان ابن سعود سيجتمع بوايزمان أم لا. ولكن إن كان هذا هو كلّ ما كان يتوقّع من هوسكينز فعله، فإنه مسعىً بلا جدوى. فعندما طُرح هذا السؤال تحديداً على السفير الأميركيّ في السعودية قبل ثمانية

أسابيع فقط، أبلغ وزارة الخارجيّة بوجود "احتمال ضئيل" أن يلتقي ابن سعود مع وايزمان. وقد تأكّد هذا لاحقاً في مقابلة في مجلّة *Life*، نشرت تعليقات الملك إلى مبعوث الرئيس باتريك هيرلي. كان إيدن بذاته مرتبكاً إزاء مهمّة هوسكينز. فهو لا يشارك تشرشل حماسته إزاء خطّة وايزمان، ويعرف – كما يعرف الأميركيّون – أنّه من غير المعقول أن يوافق الملك على هذا الأمر. مع ذلك، يبدو أنّه لم يشتبه في شيء.[77]

[77] *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 796, Hull to Hoskins, 7 July 1943.

كانت المهمّة لتكون منطقيّة حصراً لو كان لدى هوسكينز هدف سرّي إضافيّ. لا شكّ أنّه لحظة وصوله إلى القاهرة تصرّف تماماً وفقاً لما توخّاه "الممثّل الخاصّ" هال، إذ كشف عن خطّة CASOC للسفير الأميركيّ. وما لم يتوقّعه أحد في واشنطن هو ردّ فعل السفير الذي أصيب بالذعر. فقد أخبره السعوديّون مراراً وتكراراً أنّ سبب اختيارهم الشركة، في المقام الأوّل، شعورهم بأنّه ليس لدى الأميركيّين، على عكس البريطانيّين، جدول أعمال سياسيّ خفيّ. وحذّر السفير الأميركيّ واشنطن من أنّ "تدخُّل الحكومة الأميركيّة سيُلصق بنا التهمة نفسها".[78]

[78] *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 936, Kirk to Hull, 27 July 1943.

لم يكن الديبلوماسيّ الرجل الوحيد الذي أثار الشكوك حول الخطّة. فكذلك فعل رئيسا شركتي Texaco وSoCal، المساهمان في CASOC، عندما أطلعهما آيكس على السرّ في واشنطن في بداية آب/ أغسطس.

أدرك هال أنّ الصفقة لن تكون بالأمر السهل، وأمرَ هوسكينز ألا يقول كلمة أخرى عن المخطّط. لم يكن واثقاً من امتثال مبعوثه لهذه التعليمات، وكان قلقاً من إمكانية أن يتنصت البريطانيون على اتّصالاته، ولذا حذّره وزير الخارجية من إرسال تفاصيل محادثته مع الملك عبر التلغراف، وأن يرسل بدلاً من ذلك تقريره المكتوب في الحقيبة الديبلوماسيّة إلى واشنطن. ظلّ مخطّط آيكس لشراء CASOC متعثّراً حتّى تشرين الأول/ أكتوبر، عندما تسرّبت تفاصيله إلى الصّحافة، ما أجبر الديبلوماسيّين الأميركيّين في السعوديّة على إطلاع الملك على الخطّة. رغم أنّ ابن سعود لم يُبدِ انزعاجاً إزاء هذه الفكرة، أثارت الأخبار في الولايات المتحدة قلق عدد من شركات النفط المستقلّة الصغيرة التي كانت تخشى ظهور منافس مدعوم من الحكومة. وقد أرغم ضغطهم آيكس على التراجع عن خطّته، ثمّ التخلّي عنها.

***

بعد أيّام من لقاء هوسكينز مع ابن سعود، واكتشافه أنّه لم يكن لدى الملك أيّ رغبة في رؤية وايزمان، وصل فريق أميركيّ آخر إلى القاهرة. كان أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة، كما كانوا يُعرفون، يجرون جولة حول العالم للتحقيق حول مسار الحرب. في 18 آب/ أغسطس، تناولوا العشاء مع السفير البريطانيّ مايلز لامبسون ونظيره الأميركيّ.

كان اثنان من الوفد، جيمس ميد ورالف بروستر، يعتزمان المغادرة في الصباح التالي لقضاء يوم في فلسطين. اشتكى السفير البريطاني من أنّه "سرعان ما اتّضح... أنّهما كانا يجهلان على نحو ذريع كلّ شيء عن قضيّة فلسطين". تسبّبت هذه الرحلة الجانبيّة السريعة في كسر إحدى القواعد الذهبيّة لبروستر. "لا أعتقد أنّ يوماً واحداً كافياً لتكوّن فكرة عن البلاد. وإذا قضيتَ أكثر من يوم أو يومين هناك، فمن المحتمل أن تصبح مواطناً متحيّزاً"، كما قال لأحد الزملاء الأميركيّين ذات مرة. وأضاف: "لكنّ يومين كفيلان بجعلك خبيراً حقيقيّاً".[79]

[79] Killearn, diaries, 18 August 1943; Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 212.

ظهر كيسي قبل نهاية العشاء ليُطلع الرجلين أكثر على الاستعدادات الصهيونيّة للقتال من أجل الاستقلال، لكنّه لم يكن وارداً أن يُبدي أيّ من السيناتورين اهتماماً، لأنّهما كانا يزوران المنطقة لسبب مختلف. فالرجلان كانا مرشّحي هاري س. ترومان، عضو مجلس الشيوخ الذي كان يصنع لنفسه اسماً للحدّ من الهدر الذي كان يُفسد المجهود الحربيّ. وقد طلب ترومان منهما التحقيق في "الأنشطة الإداريّة للولايات المتحدة في الميادين الخارجيّة"، وتوزيع الإمدادات الأميركيّة في الخارج. بعبارة أخرى: التحقيق في كيفيّة استخدام البريطانيّين مساعدات الإعارة والاستئجار. رغم إنكار روزفلت لاحقاً أيّ تورّط، كانت مهمّة أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة تنفيذ خدعة روزفلتيّة بامتياز، من شأنها إثارة قضايا صعبة لم يرغب الرئيس في مواجهة تشرشل حولها، وخلق عاصفة سياسيّة سيتوجّب عليه، بعد ذلك، الردّ عليها.

عاد أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة إلى واشنطن في أواخر أيلول/ سبتمبر 1943 لتقديم التقرير إلى زملائهم. في مؤتمر صحافيّ عُقد بعد وقت قصير من عودتهما، أعلن بروستر وميد أنّ النشاطيْن الدبلوماسيّ والاقتصاديّ البريطانيّ يفوقان نشاط الأميركيّين، وحذّرا من أنّ البريطانيّين كانوا يبنون منشآت نفطيّة ومهابط جويّة باستخدام أموال الإعارة والاستئجار. في غضون ذلك، صرّح بروستر أنّ الولايات المتحدة تمتلك ربع الاحتياطات النفطيّة المعروفة في العالم، لكنّها كانت تؤمّن ثلثي الوقود اللازم لخوض الحرب. وقال: "في حال استمرّ ذلك، ومع احتمال خوضنا حرباً

أخرى في غضون عشر أو خمس عشرة سنة، فقد نضطرّ إلى حمل مغرفة من التنك لنشحذ النفط".[80]

[80] ‘US Post-War Policy’, *The Times*, 1 October 1943.

قد لا يكون يوم واحد في الولاية كافياً لكي يفهم بروستر بعمق الصّراع العربيّ–اليهوديّ المتأجّج، لكنّه كان مدركاً تماماً للسياسة الداخليّة في أميركا. كان النفط مسألة حسّاسة في بلاده، لأنّ الساحل الشرقيّ كان يواجه في تلك اللحظة نقصاً حاداً في الوقود. في الأسبوع التالي، سأل الصحافيّون روزفلت هل تتعمّد بريطانيا تجنُّب تزويد الحلفاء بالنفط من أجل الحفاظ على احتياطاتها الخاصّة لاستخدامها في المستقبل. فأوضح الرئيس أنّ استخدام الشحن بالسفن لنقل النفط الأميركيّ عبر المحيط الأطلسيّ فعّال أكثر بكثير من نقل النفط الشرق–أوسطيّ من الخليج الفارسيّ عبر الخليج، ونقله شمالاً إلى أوروبا.

لم يقنع تفسير روزفلت أعضاء مجلس الشيوخ. فأصدروا بياناً يدعون فيه البريطانيّين إلى سحب هيمنتهم على إمدادات النفط، وعرضوا استنتاجاتهم على زملائهم في جلسة سرّية لمجلس الشيوخ. أدّى التسريب الانتقائيّ لِما قالوه إلى عاصفة سياسيّة ورّطت روزفلت، ثمّ تشرشل. في 28 تشرين الأول/ أكتوبر، قرّر السيناتور ريتشارد روسيل، رئيس مجموعة الشيوخ الخمسة، التصريح بآرائه علناً، فقال أمام مجلس الشيوخ: "عدتُ إلى الوطن يراودني شعور بالاحترام الشديد الذي كان أقرب إلى الحسد إزاء كفاءة البريطانيّين في الإدارة". وبينما كان البريطانيّون يتوخّون "سياسة خارجيّة واضحة في ما يتعلّق بكلّ ركن من أركان الكرة الأرضيّة"، كان الأميركيّون الذين التقاهم غير منظّمين ومحدودي الرؤية وساذجين. إن استعداد الولايات المتّحدة للسماح للبريطانيين بشراء النيات الحسنة على المستوى الدولي، مستعينين بمساعدات الإعارة والاستئجار، وتوفير حصة الأسد من النفط، يجب أن يتوقفا. وقال: "مع فتح منطقة البحر الأبيض المتوسّط، والازدياد الكبير في عمليات بناء السفن، لم يعد هناك من سبب وجيه لعدم التخفيف من استخدام مخزوناتنا النفطيّة، والاستفادة من تلك الموجودة في مناطق أخرى".[81]

[81] Congressional Record – Senate, 28 October 1943, p. 8864.

بعد أسبوع، قدّمت لجنة ترومان اقتراحاً. إن لم يكن باستطاعة البريطانيّين شراء البترول الأميركيّ، وإن لم يكن لديهم وسائل الشحن اللازمة لنقله من حقول النفط التي يسيطرون عليها، يجب على حكومة الولايات المتحدة النظر في طلب نقل "ملكيّة ما يعادل قيمة الاحتياطات النفطيّة

الأجنبيّة، أو الضمانات البريطانيّة للشركات التي تملك حقّ الحصول على هذه الاحتياطات''. كان هذا اقتراحاً نارياً، وقد أثار ردّاً لاذعاً. أطلعت الحكومة البريطانيّة الصّحافة على أنّه بغية تنفيذ ما اقترحته لجنة ترومان، ستحتاج إلى استخدام مساعدات الإعارة والاستئجار لتطوير مصافيها في عبادان حتّى تتمكن من إنتاج المزيد من وقود الطائرات، وبناء خطّ أنابيب آخر من العراق إلى البحر المتوسّط.[82]

[82] ‘American Resources after the War’, *The Times*, 6 November 1943.

في وزارة الخارجيّة، بدت علامات الذعر على وجه هال. وفي اليوم الذي تمّ الإبلاغ فيه بفشل خطّة الحكومة للسيطرة على شركة CASOC، في الصّحافة، كتب رسالة غاضبة إلى آيكس، محذّراً فيها من أنّ أحداث الأسابيع القليلة الماضية ستؤدّي إلى تقويض ثقة السعوديّين بالحكومة البريطانيّة وCASOC. وأبلغ آيكس أنّ البريطانيين قد بدؤوا محاولة استغلال هذا الفشل الذريع. فقد اكتشف المسؤولون الأميركيّون أنّ السفير البريطانيّ في السعودية كان يحاول خفية الحصول على نسخة من اتّفاقية امتياز CASOC، لتتمكّن حكومته من تقديم عرض أفضل للملك، وفق افتراض هال. وطلب من زميله ابتكار فكرة جديدة في الحال لتطوير منشآت النفط الأميركيّة في الشرق الأوسط. ثمّ أنهى رسالته بالقول: ''نعتقد أنّ الانتقادات اللاذعة ستتفاقم في حال وُسّعت منشآت البترول البريطانيّة في الشرق الأوسط... بمعدّات أميركيّة، لأن ذلك سيعيق تطوير المؤسّسات الأميركيّة، ويهدّد ممتلكاتها، ثمّ يجعل هذا البلد مرتهناً بالنفط البريطانيّ في المستقبل''.[83]

[83] *FRUS*, 1943, Vol. IV, p. 942, Hull to Ickes, 13 November 1943.

***

كان آيك يعلم جيّداً أنّه بالنسبة إلى طلب هال، القولُ أسهل من الفعل. إن كان هناك من أمر قد انجلى خلال الأشهر القليلة الماضية، فهو الامتياز الأساسيّ الذي يتمتّع به البريطانيّون في المسائل المتعلّقة بالنفط. إنّ امتلاك الحكومة البريطانيّة نسبة كبيرة من شركات النفط في البلاد كفلَ تطابق مصالحها مع مصالح صناعة النفط على نحو كبير. على نقيض ذلك، في الولايات المتحدة، حيث لم يكن للحكومة أيّ أسهم في أيّ شركة للنفط، إلى جانب وجود مشكلة إضافيّة هي وجود صناعة محلّية كبيرة للنفط، كانت الحكومة والصّناعة على خلاف. فقد أرادت حكومة الولايات المتحدة الحفاظ على مخزونات النفط المحلّية، في حين كانت شركات النفط المحلّية تبغي الإنتاج. وكما أثبتت ردود الفعل على اقتراحه شراء CASOC، إنّ هؤلاء المنتجين المحلّيين سيتصدّون لأيّ

محاولة من جانب الحكومة لمساعدة الشركات الكبرى على استثمار حقول النفط الأجنبيّة، لأنّهم يخشون أن تؤدّي تخمة النفط إلى خفض سعر السوق.

كان البديل للتدخّل الحكوميّ هو الاستثمار الخاصّ، ولكن في حالة CASOC، لم يكن ذلك سهلاً. فقد مُنعت الشركتان اللتان كانتا المصدر الأكثر احتمالاً لرأس المال، Jersey Standard وSocony، من الاستثمار في السعوديّة، لأنّهما كانتا تملكان حصصاً صغيرة في شركة "نفط العراق" المنافسة. في 1928، وقّعوا صفقة مع المساهمين الآخرين في شركة IPC عُرفت باسم "اتفاقيّة الخطّ الأحمر" التي تمنع كلاًّ منهم من الاستثمار في معظم حقول النفط الأخرى في الشرق الأوسط، في حال اعترض أيّ من المساهمين الآخرين على ذلك. وبما أنّ إحدى هذه الشركات كانت "النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة" التي تمتلك فيها الحكومة البريطانيّة حصّة مسيطرة، كان البريطانيون يتمتّعون فعليّاً بحق النقض على الاستثمار الأميركيّ الخاصّ في CASOC، ما دام اتّفاق الخطّ الأحمر ساري المفعول.

بات واضحاً أنّه من مصلحة الولايات المتحدة التخلّي عن "الخطّ الأحمر"، وفي أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 1943، كتب خبير الشؤون الخارجيّة في الخارجيّة الأميركيّة، والاس موراي، أنّ الوقت قد حان للضّغط على البريطانيّين لإلغاء الاتّفاق الذي مضى عليه خمسة عشر عاماً. كانت "الخارجيّة" على تواصل معهم أخيراً، فاقترحت إجراء محادثات حول مستقبل الشرق الأوسط، على أمل كسب الدعم الأميركيّ لمركز التموين في الشرق الأوسط، وإنشاء مجلس اقتصاديّ جديد فيه يشكّل محور إستراتيجيّتها لإدامة النفوذ البريطانيّ في المنطقة. مقابل ذلك طالب الأميركيّون بإجراء محادثات حول النفط في الشّرق الأوسط.

عندما راوغت بريطانيا بشأن نطاق ومستوى المحادثات، بادرت حكومة الولايات المتحدة إلى الانتقام. كشف آيكس أوّلاً عمّا وصفه بـ"ضربة خاطفة"، وهو اقتراح جديد لتمويل مؤسّسة احتياطات النفط لخطّ أنابيب ممتدّ من السعوديّة إلى ساحل البحر المتوسّط، من شأنه السماح للشركة العربيّة–الأميركيّة، أو "أرامكو"، وهو الاسم الديبلوماسيّ الجديد لشركة CASOC، بالتنافس مباشرة مع شركة "نفط العراق" التي كانت تهيمن عليها بريطانيا، والتي كانت تنقل النفط أيضاً إلى البحر المتوسّط. ثمّ في 11 شباط/ فبراير 1944 (قبل الاتّفاق على النطاق الدقيق للمحادثات)، ذكرت *New York Times* أنّ الحكومة البريطانيّة كانت سترسل وفداً إلى واشنطن لإجراء محادثات حول السُبل المثلى لتطوير نفط الشرق الأوسط. تابعت "الخارجيّة" الضّغط. في البداية، هدّدت بالإفصاح علناً عن أنّ "اتّفاق الخطّ الأحمر" ينتهك الفقرة الواردة في "ميثاق الأطلسيّ" التي

التزم فيها تشرشل، سعياً إلى تسهيل ''إمكانية... الوصول، على قدم المساواة... إلى الموادّ الخام في العالم''. ثمّ، عندما فشل ذلك في التأثير في البريطانيّين، هدّد بالتصريح أنّ الرئيس والوفد الأميركيّ بقيادة كورديل هال سيفتتحون المؤتمر، وقد أوضح هذا الخيار أنّ الأميركيّين يتوقّعون أن تكون الإجراءات حاسمة وملزِمة. كتب السكرتير الخاصّ لإيدن: ''إنّ روزفلت يزجّنا في مؤتمر حول النفط في الشرق الأوسط، بطريقة شنيعة بعض الشيء. لن نسمح لأيّ شخص أن يمسّنا في هذا الجزء من العالم... حتّى أصدقاؤنا''.84

84 Harvey, ed., *The War Diaries of Oliver Harvey*, p. 332, 19 February 1944.

طالب السفير البريطانيّ في واشنطن بعقد اجتماع مع روزفلت، أُجري في 18 شباط/ فبراير. أراد الرئيس تهدئة المخاوف البريطانيّة، فأطلعه على خريطة تقريبيّة رسمَها للشرق الأوسط. قال إنّ نفط إيران يخصّ بريطانيا. وقد كانت بريطانيا والولايات المتحدة تتشاركان النفط العراقيّ والكويتيّ. وكان النفط السعودي ملكاً لأميركا.85

85 Yergin, *The Prize*, p. 401.

لم يُطمئن تقرير هذا الاجتماع تشرشل. كان لا يزال تحت تأثير الاستخفاف الذي أظهره روزفلت تجاهه في مؤتمر طهران مع ستالين في أواخر 1943، ولذا أبرق للرئيس مباشرة لتكون بداية خلاف استمرّ أسبوعين بين الرجليْن.

بإلقاء تشرشل اللوم على أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة، أشار إلى ''التخوّف في بعض الأوساط هنا إزاء رغبة الولايات المتحدة في حرماننا ممتلكاتنا النفطيّة في الشرق الأوسط''، وقد ساهم التهديد الذي يحمل في طياته تلميحاً عن تورّط روزفلت وهال في مؤتمر نفطيّ شرق أوسطيّ في تعزيز هذا الخوف. وحذّر من أنّه في حال مشاركة روزفلت، ''ستشكّل المسألة برمّتها أولويّة كبيرة لدى البرلمان. سيسود شعور بأننا تعرّضنا للاحتيال''. عندما ردّ روزفلت بالمثل، كاشفاً عن قلقه ''إزاء الإشاعات حول رغبة البريطانيّين في التمسّك باحتياطات السعوديّة''، ورافضاً اقتراح تشرشل بإجراء محادثات فنّية، عارض رئيس الوزراء الأمر مهدّداً بخطر ''ظهور تفاوت كبير'' في الاستعداد لإنزال النورماندي، في حال أدلى الأميركيّون بإعلانهم رغم ذلك. مرّ أسبوع قبل أن يجيب روزفلت، ليبلغ تشرشل: ''لا تغرينا حقول نفطكم في العراق أو إيران''، لكن لا يمكن تأجيل هذا المؤتمر أكثر. أجاب تشرشل، الذي سَرّه التزام روزفلت، بإعطاء الرئيس الأميركيّ ''ضمانات قصوى بأنّنا لا نفكّر في محاولة التفوّق على مصالحك أو ممتلكاتك في السعوديّة''.86

86 *FRUS*, 1944, Vol. III, pp. 100–1, Churchill to Roosevelt, 20 February 1944.

بعد يومين من ذلك، أكّدت الحكومة البريطانيّة أنّها مستعدّة لإرسال وفد إلى واشنطن لإجراء محادثات تمهيديّة. في المقابل، وافقت الخارجيّة الأميركيّة على إرسال خبيرها في الشرق الأوسط، والاس موراي، إلى لندن، للتباحث في مستقبل الشرق الأوسط في الوقت نفسه.[87]

[87] *FRUS*, 1944, Vol. III, pp. 101–3, Roosevelt to Churchill, 22 February 1944, Churchill to Roosevelt, 24 February 1944, Roosevelt to Churchill, 3 March 1944, Churchill to Roosevelt, 4 March 1944.

بحلول نهاية شباط/ فبراير 1944، بدا لوهلة أنّ الحكومتيْن قادرتان على إيجاد حلّ لخلافاتهما حول الشرق الأوسط. فقد كان البريطانيّون يأملون في الموافقة الأميركيّة على خططهم الخاصّة بمركز التموين في الشرق الأوسط. وتوقّع الأميركيّون التوصّل إلى اتّفاق حول النفط، من شأنه أن يخفّف مخاوفهم حول سعي البريطانيّين إلى استغلال موقعهم المتميّز في السعوديّة. كانت الهدنة بين لندن وواشنطن هشّة. لكن، في الشرق الأوسط، كان ممثّلوهم هناك قد وضعوا مخطّطات أخرى.

5

صعب المراس للغاية

بينما كان تشرشل وروزفلت يتبادلان الاتّهامات حول طموحات كلٍّ منهما في الشرق الأوسط، عاد اللورد موين إلى مصر في شباط/ فبراير 1944 بصفته وزير بريطانيا الجديد المقيم في الشرق الأوسط.

كان موين قد أمضى الأشهر الستّة الأخيرة في بريطانيا عضواً في لجنة مجلس الوزراء المكلّفة من تشرشل وضعَ إستراتيجيّة طويلة الأجل لقضيّة فلسطين التي تسبّبت بدلاً من ذلك في إحداث فوضى. أوصت اللجنة مرّة أخرى بالتقسيم، لكنّ رفض تشرشل الغريزيّ للفكرة، وشكوك إيدن حول إمكانيّة تطبيق خطّة سوريا الكبرى الأوسع التي كان من المفترض أن تسترضي العرب بالنسبة إلى تقسيم فلسطين، حملا الحكومة على الإقرار بضرورة العمل أكثر على التفاصيل، قبل أن يكون من الممكن اتّباع السياسة الجديدة علناً. عاد موين إلى القاهرة في فصل الربيع مُوكلاً مهمّة لا يُحسد عليها، هي محاولة العمل سرّاً على تطوير مشروع حصل على موافقة مبدئيّة من مجلس الوزراء، لكنّه كان يفتقر عمليّاً إلى تأييد تشرشل أو إيدن.[88]

[88] Wagner, ‘Britain and the Jewish Underground’, p. 65.

لزيادة الأمور صعوبة على موين، ستحتاج كلتا السياستيْن إلى الدعم الأميركيّ لتحقيق النجاح، ولكنّ الأمور لم تكن متناغمة أيضاً على هذا المستوى. فأثناء غياب موين الذي كان في لندن، وصل ممثّل جديد للولايات المتحدة إلى القاهرة، لكن السفير البريطانيّ مايلز لامبسون، الذي مُنح حديثاً لقب اللورد كيليرن تقديراً لجهوده، سرعان ما شعر إزاءه بكره عميق. عُيّن جيمس لانديس مديراً للعمليّات الاقتصاديّة في الشرق الأوسط لدى الولايات المتحدة، عقب انتقادات أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة لانعدام التنظيم الأميركيّ. اتّهمه كيليرن باتّخاذ ‟موقف استبدادي ومتغطرس إزاء المصريّين‟، وهو نشاط سبق له أن احتكر ممارسته في السابق. واعترف أنّ المدير الجديد للعمليّات الاقتصاديّة ‟صعب المراس للغاية‟، وقدّم إلى موين تعريفاً سريعاً عن خصمه الجديد.[89]

[89] TNA, FO 921/229, Killearn to Peterson, 18 February 1944; Killearn to Moyne, 29 March 1944.

لا شكّ أنّ تعيين لانديس كان مثيراً للجدل. كان الأخير ابن مبشّر نزق، وشغل منصب عميد كلّية الحقوق في جامعة هارفرد، وكان رجلاً مفعماً بالنشاط ومدمناً على العمل يُكثر من تناول الكحول، وكان انعدام حبّه لذاته يدفعه باستمرار إلى إثبات نفسه. على الجانب الآخر من الصفقة الجديدة، رأى ويلكي أنّه صنع اسمه عبر صياغة قوانين قاسية للسوق الماليّة في أعقاب انهيار وول ستريت، ثمّ عملَ مفوّضاً، وبعدها رئيس لجنة بورصة الأوراق الماليّة في النصف الثاني من الثلاثينيّات. ولتأكيد هذه النقطة، قدّم في إحدى المرّات إلى رئيس مجلس إدارة بورصة نيويورك المُتباهي وجبة غداء كلفتُها 45 سنتاً جلبه من الكافيتيريا إلى مكتبه. بعد أن وجد نفسه محاصراً في وظيفة مسدودة الأفق في زمن الحرب، وفي حين كان يسعى للتخلّص من زواج تعمّد إفشاله، اغتنم فوراً فرصة العمل في الخارج عندما عرضها عليه روزفلت في كانون الأول/ سبتمبر 1943. كتب إلى عميد كلّية الحقوق في جامعة هارفرد بعد أن أُعلن تعيينه: ’’سامحْني على الفرار مجدّداً، لكنّني أعتقد بصدق أنّ هناك مهمّة في انتظاري، وقد أقدّم بعض المساهمات لخدمة مستقبلنا العامّ‘‘.[90]

90 Ritchie, *James M. Landis*, p. 121.

عندما اتّجه لانديس إلى القاهرة، كان هناك خطر في أن يكون ’’المستقبل العامّ‘‘ قاتماً. كانت إدارة روزفلت تشعر بقلق مُتزايد إزاء التحدّي الاقتصاديّ الذي سيشكّله السلام. فقد استوعب المجهود الحربيّ 60% من الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة. بتحقيق النصر، سيتداعى هذا الطلب، ما سيهدّد ببطالة جماعيّة. كان الحلّ لهذه المشكلة إخراج الدولة نفسها من المتاعب. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتّى أدرك لانديس فور وصوله إلى مصر أنّ مثل هذه الإستراتيجيّة الاقتصاديّة ستضع الأميركيّين في مسار تصادمي مع حلفائهم البريطانيّين، لأنّ أكبر عقبة أمام نجاح التصدير الأميركيّ في المنطقة كانت المنظمة التي صبّ فيها البريطانيّون آمالهم في إنعاش اقتصادهم ونفوذهم بعد الحرب، وهي مركز التموين في الشرق الأوسط.

قال لانديس في وقت لاحق: ’’حشرتُ أنفي في الأمر‘‘. كلّما نظر أكثر، بدا له أنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة تشبه واحدة من الشركات القابضة الكبرى التي حاولت إدارة روزفلت تفكيكها في ثلاثينيّات القرن الماضي. كانت إحدى طرق استغلال مركز الشرق الأوسط للتموين، من أجل تأمين استمراريّة نفوذهم في المنطقة، هي عرقلة المصدّرين الأميركيّين. بحجّة التقصير في الشحن، حدّد المركز – من بين الكثير من الأمور الأخرى – استيراد الآلات والأدوات اليدويّة. لم تؤدِّ هذه القيود إلى منع فرص التصدير لدى المصنّعين الأميركيّين فحسب، بل جعلت المنطقة أكثر اعتماداً على

الواردات المصنّعة ممّا كانت لتكون عليه. أكّد المركز، باستخدامه مرّة أخرى للشحن تبريراً له، أنّ الواردات التي سمح بدخولها إلى المنطقة تأتي أساساً من بريطانيا وليس من أميركا البعيدة. هذا ما يوضح سبب ارتداء ابن سعود جوارب إنكليزيّة.[91]

[91] Ritchie, *James M. Landis*, pp. 124–5.

بالنسبة إلى لانديس، لم يشكّل الإطار التجاريّ الذي وضعه البريطانيون على الولايات المتحدة تحدّياً اقتصاديّاً فقط، بل أخلاقيّاً أيضاً. وأشار إلى أنّ بلداً كفلسطين كدّس فائضاً في تجارة الدولار (خصوصاً بتصدير البرتقال إلى الولايات المتحدة)، لكنّ قدرة سكّانه على "إنفاق تلك الدولارات على البضائع الأميركيّة الفاخرة كانت مكبّلة بالقيود على العملة التي فرضها البريطانيّون"، والتي كان لها تأثير في كلّ بلدان منطقة الإسترليني، تلك الدول التي كانت تستخدم أو تربط عملاتها بالجنيه الإسترليني وكانت فلسطين جزءاً منها. وقال إنّه بإمكان الأميركيّين الإذعان لهذا أو التكلّم بصراحة، وكان من الواضح تماماً أنه يفضّل الخيار الثاني. فالرضوخ يجعل الولايات المتحدة متواطئة مع نظام خفض فيه البريطانيّون عن قصد مستويات المعيشة في دول منطقة الإسترليني من أجل حماية اقتصادهم الإمبرياليّ برمّته.

أدرك لانديس أنّه لن يتمكّن من حلّ هذه المشكلة أثناء وجوده في القاهرة. كانت تلك مسألة سياسيّة رفيعة المستوى لا يمكن تسويتها إلّا عن طريق المحادثات المباشرة بين كبار المسؤولين البريطانيّين والأميركيّين. وبما أنّ السفير الأميركيّ بدا أكثر اهتماماً بالعمل على "التوطيد المتجانس للنيات الحسنة بحفلات الشاي والكوكتيلات ومآدب العشاء والاحتفالات"، قرّر لانديس معالجة الأمر بنفسه. فسافر عائداً إلى واشنطن حيث صرّح بأنّ الوقت حان للولايات المتحدة لإعادة النظر في أسس السياسة الاقتصاديّة في منطقة الشرق الأوسط في بريطانيا، لأنّ حجّة التقصير في الشحن والإمدادت التي كانت سبب وجود مركز التموين "لم تعد مقبولة". لكنّه تلمّس رغبة ما داخل الحكومة لمثل هذه المواجهة خلال الاستعداد لإنزال النورماندي، واضطرّ إلى العودة إلى مصر خالي الوفاض.[92]

[92] Landis, 'Anglo-American Co-operation', pp. 69, 67.

يتذكّر أحد زملاء لانديس "إصراره، رغم جهود الجميع، على اعتبار البريطانيّين عدوّهم الرئيسيّ وليس الألمان". ولدى عودته إلى القاهرة، ارتأى أنّ أفضل رهان له هو العمل على جعل مركز التموين في الشرق الأوسط يفقد موظفيه. ورغم النموّ المطّرد لعدد الموظّفين الذي بلغ

الخمسين، ورغم كونه ممثّلاً عن الولايات المتحدة في المركز، لم يعمل هناك سوى ثلاثة عشر موظّفاً من الخمسين. أمّا الباقون، فكان نصفهم يعمل مع البريطانيّين على الحرب الاقتصاديّة ضدّ ألمانيا، بينما كان الآخرون – بعضهم من رجال مكتب الخدمات الإستراتيجيّة المتخفّين – يعملون في الترويج للتجارة الأميركيّة. كان هؤلاء الأكثر كفاءة، كما لاحظ البريطانيّون، وكانت حماستهم واضحة. وقال المدير العامّ للسكّة الحديديّة المصريّة إنّهم كانوا يغضبون عليه بسبب تفاصيل خطط المشتريات الحاليّة والمستقبليّة الخاصّة بالسكّة. كما كانوا ماهرين في العثور على مقاعد لرجال الأعمال المصريّين في الرحلات الجويّة إلى الولايات المتحدة، في حين كان هناك نقصٌ في المقاعد على الطائرات. "كانوا قد أرسلوا وكيلاً محلّياً لآلات النسيج إلى الولايات المتحدة مع أولويّة عالية، وعرضوا الشيء نفسه بالنسبة إلى المدير المصريّ لأحد مصانع المنسوجات القطنيّة المحلّية الرئيسيّة"، كما نقل كيليرن مذعوراً في منتصف آذار/ مارس.[93]

[93] Roosevelt, *Countercoup*, pp. 35–6; TNA, FO 921/229, Killearn to Peterson, 16 March 1944.

بينما أدرك كيليرن حقيقة أنّ لانديس وزملاءه هدّدوا الإستراتيجيّة البريطانيّة بمحاولة احتكار سوق الشرق الأوسط، كان موين راضياً أكثر عن الوضع، ربّما لأنّ الأميركيّين الذين عمل معهم خلال الحرب السابقة كانوا – في نظره – غير مرِنين، وغير منظّمين جيّداً. شعرَ أنّه "بإمكاننا الاعتماد، على نحو معقول، على خبرتنا الأكبر، وعلاقاتنا المتميّزة، وحسن النيّة، والنفوذ الذي اعتقد أننا سنستمرّ في التمتّع به إلى حين انجلاء الأمور".[94]

[94] TNA, FO 921/229, Moyne to FO, 29 March 1944.

أعمى هذا الافتراض موين عمّا كان يحدث في الواقع. فعندما التقى لانديس للتباحث في مسألة نقص العاملين الأميركيّين في مركز التموين في الشرق الأوسط، بادر الأميركيّ الذي كان متردداً بوضوح إزاء مواجهة نظيره البريطانيّ مباشرة إلى إلقاء اللوم على وزارة الخارجيّة لحرمانه الموظّفين الذين يحتاجهم لدعم المركز. وقال بانزعاج إنّه ما لم يحصل على المزيد من الموظّفين، فسيكون مُلزَماً وضع حدّ للمشاركة الأميركيّة في المشروع. اقتنع موين بذلك، فأيّد طلب لانديس في برقيّة أرسلها إلى لندن.

أتاحت المحادثات الإنكليزيّة–الأميركيّة حول الشرق الأوسط، التي استمرّت طويلاً وافتُتحتْ في اليوم التالي في لندن في 11 نيسان/ أبريل 1944، الفرصة أمام البريطانيّين لإثارة هذه القضيّة. بعد تلقّيه رسالة موين، أثار رئيس قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجيّة، موريس بيترسون، هذه

المسألة بحذر مع معارضه والاس موراي في 18 نيسان/ أبريل. كان قد سمع أنّ ”لدى السيّد لانديس مَيلاً إلى تغيير صفة المشاركة الأميركيّة في مركز التموين في الشرق الأوسط إلى مجرّد صفة تواصل“، على حدّ قوله، ”سيشكّل ذلك تطوّراً يُرثى له“.[95]

[95] IOR, R/15/1/377, ‘Conversations with Mr Wallace Murray Regarding the Middle East’.

كان موراي سيّئ السمعة بسبب مزاجه النّاري، في حين أنّ اعتراضه المفتوح على السياسة البريطانيّة في الشرق الأوسط أقنع مسؤولاً بريطانيّاً بأنّه ”يكره شجاعتنا... سياسته مجرّد إحباط لسياستنا“. لكن قبل مغادرته إلى لندن في ذلك الربيع، قيل له ألّا يقوم بأي شيء من شأنه إثارة المشكلات قبل الإنزال المُرتقب في النورماندي، فالتزم مؤقّتاً أفضل سلوك له. أجاب بغموض عن استفسار بيترسون حول موقف بلاده تجاه مركز التموين، بالقول إنّ ”وجهات النظر الأميركيّة تتبع الخطّ نفسه“. ثمّ أضاف تحذيراً مهمّاً، قائلاً إنّه في حين كان المركز ”مفيداً في الحرب... يجب ألّا نسعى إلى إدامة الحواجز والقيود المفروضة على النظام في ما بعد الحرب“. استند البريطانيون إلى موقف موراي الأكثر إيجابيّة لخداع أنفسهم حول أنّ ”تطوير مركز مستقلّ للخدمات الاجتماعيّة في الشرق الأوسط، عبر مركز التموين، صار الآن سياسة إنكليزيّة–أميركيّة متّفقاً عليها“. بعد ستّة أسابيع فقط من ذلك – بعد أن فشلت القوى العاملة الأميركيّة في دعم عمل المركز – انجلت الحقيقة مع موين. فقد كتب يقول: ”لانديس... يستغلّ كلّ فرصة ممكنة من موقعه لدفع مصالح التجارة الأميركيّة إلى الأمام. إنّ التعاون الأميركيّ في مركز التموين في الشرق الأوسط هو في الواقع مجرّد ادّعاء“.[96]

[96] TNA, CAB 110/185, ‘Note for Discussion: Future Regional Economic Organisation in the M.E.’, 26 May 1944; CAB 195/2, meeting of 14 July 1944; CAC, Amery Papers 2/2/19, Moyne to Amery, 19 June 1944.

***

بحلول ذلك الوقت، كانت الأحداث في السعوديّة قد أقنعت الأميركيّين بسوء نيّة نظرائهم البريطانيّين. لم ينسَ الأميركيّون محاولة السفير البريطانيّ ستانلي جوردان، في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، إبرام نسخة عن اتفاقيّة امتياز ”أرامكو“، وها هم يراقبون الآن المبعوث البريطانيّ بمزيج من الاهتمام والقلق. كان جوردان ديبلوماسيّاً محترفاً خدمَ في جدّة في عشرينيّات القرن العشرين. وكان متشدّداً إلى حدّ ما، وفوجئ لدى عودته إلى الميناء بعد غياب عقد ونصف عندما اكتشف أنّ وضع السعوديّ العاديّ لم يتغيّر على الإطلاق. الشيء الوحيد الذي تغيّر هو عدد

القصور التي شيّدتها العائلة الحاكمة في تلك الفترة. أبلغ لندن بأنّ "الرشوة والفساد تعمّ المكان". لم يكن الاعتماد على الإعانة البريطانيّة يشجّع الجهود الرامية إلى معالجة المشكلة.[97]

97 Hinds, ‘Anglo-American Relations in Saudi Arabia’, p. 136.

بعد أن دفعت الشركة مبلغ 5.4 مليون جنيه إسترليني في 1943، اقتنعت وزارة الخارجيّة بعض الشيء بأنّ الوقت قد حان لتقليص المبلغ الذي تدفعه إلى ابن سعود، لأسباب ليس أقلّها استعادة مصدر العائدات الرئيسيّ للملك، وهو الحَجّ، عافيَتَه. وبما أنّه كان من المفترض أن يعوّض الدعم الماليّ عن خسارة الملك للعائدات أثناء الحرب، اتّخذ البريطانيّون في أوائل 1944 خطوة حجب التعرفة المدفوعة من الحجّاج التي كانوا يمنحوها عادةً للملك، على أساس استردادهم بعض أموال المساعدات التي قدّموها العام الماضي. نقل السعوديّون أخبار هذه المبادرة إلى السفارة الأميركيّة، ووصفوا هذا الإجراء بالعمل العدائيّ. تخوّف الأميركيّون الذين عانوا طويلاً من الاعتماد المتزايد لابن سعود على البريطانيّين من أن يستخدم البريطانيّون تهديد سحب إعاناتهم لإكراه الملك على الطاعة. وقد ساهم اكتشافهم بعد مدة وجيزة أنّ جوردان نظّم على ما يبدو عمليّة إقالة أحد مستشاري ابن سعود المؤيّدين لأميركا في زيادة قلقهم.

خلال محادثات لندن في نيسان/ أبريل 1944، أثار بيترسون قضيّة السعوديّة في اليوم الثاني، قبل أن يتمكّن معارضه الأميركيّ والاس موراي من فعل ذلك. عندما علّق موراي بالقول إنّ ابن سعود كان منزعجاً من احتجاز البريطانيّين أمواله، غيّر بيترسون الحديث وقال إنّ الملك طلب من ستانلي جوردن إن كان بإمكانه أن يوصي بمستشار مالي مسلم سنّي. كان ذلك خبراً مفاجئاً لموراي الذي رأى فوراً أنّ أي شخص يشغل هذا الدور سيكون له تأثير كبير، وأنّه في حال كان الملك يبحث فعليّاً عن رجل مسلم، سيجد البريطانيّون أنّ ذلك أسهل بكثير من أن توفّر حكومته مرشّحاً مناسباً.

وتساءل الأميركيّون هل الملك دقيق إلى هذا الحدّ، مُشيرين إلى أنّ جوردان اقترح تعيين مسلم ليضعهم في وضع حرج. من واشنطن، أصرّ وزير الخارجيّة، كورديل هال، على أنّ أيّ مستشار من هذا النوع يجب أن يكون أميركيّاً، ليعكس "المصالح الاقتصاديّة الأميركيّة المتراكمة في السعوديّة"، لكنّه أقرّ بأنّ قائد البعثة العسكريّة، الذي طُرح أيضاً، قد يكون ضابطاً بريطانيّاً، في محاولة لإرضاء وزارة الخارجيّة. لكنّ بيترسون رفض التراجع. وفي ردّه على هال، أكّد أنّه على الخبير الماليّ أن يكون مسلماً لأنّ خزانة الملك موجودة في مكّة، وهي مدينة لا يُسمَح لغير المسلم بالدخول إليها.[98]

98 *FRUS*, 1944, Vol. V, p. 697, Hull to Winant, 1 May 1944.

أثار هذا الردّ مشاحنة غاضبة بين واشنطن ولندن. وكان انهيار الثقة كبيراً لدرجة أنّه عندما أجاب هال، بيترسون، أصر على أن زيارة جوردان ونظيره الأميركيّ ابن سعود معاً، واقتراحهما عليه مستشاراً عسكريّاً بريطانيّاً أبيض ومستشاراً ماليّاً أميركيّاً، وانتظار ردّ الملك. وهدّد بأن يرسل ممثّله الخاصّ لرؤية ابن سعود بمفرده في حال لم يوافق البريطانيّون على هذا الاقتراح. أثار التحذير ردّاً غاضباً من بيترسون الذي شكّك في تأكيد هال أنّ المصالح الاقتصاديّة الأميركيّة تفوق مصالح بريطانيا في السعوديّة، بملاحظته أنّ إيرادات الحجّ كانت أكبر بكثير من عائدات النفط، وأنّها ستبقى كذلك في المستقبل المنظور.

كان الحليفان على خلاف. رغم توصُّل لاندس وموين في القاهرة إلى اتّفاق على تقاسم حكومتيهما أعباء الإعانة في السنوات المقبلة، فإنّ الخلاف حول إعانات العام الحالي يعني أنّ الدفع لم يتمّ بعد. حينذاك، كان الأميركيّون يتلقّون دعوات يائسة أكثر فأكثر للحصول على المال من السعوديّين. لكنّ البريطانيّين رفضوا التزحزح. وكانوا يعلمون من السفير السعوديّ في لندن أنّ العديد من مستشاري الملك، بمن فيهم وزير الماليّة، يضخّمون عادة مشكلات البلاد من أجل تعبئة جيوبهم الخاصّة. حينذاك، كان غياب ثقتهم بالأميركيّين كبيراً لدرجة شعروا فيها أنّهم لا يستطيعون مشاركة هذه المعلومات مع واشنطن، لأنّهم كانوا يخشون من الكشف عن مصدرها، ومن ثم إفراغه.

عندما أثبت موين ولاندز أنّهما غير قادرين على الخروج من المأزق، عاد لانديس مرّة أخرى إلى واشنطن لإجراء مباحثات. في نهاية تموز/ يوليو، قرّر هال التصرّف من جانب واحد. في وقت سابق من ذلك العام، ألمح إلى أنّ حكومته على استعداد لتوريد عشرة ملايين ريال من الفضّة من أجل إبقاء السعوديّين مؤتمنين. وأكّد الآن أنّ الولايات المتحدة ستفعل ذلك. وفقاً للحسابات الأميركيّة كانت المبالغ المستخدمة لإبقاء الملك سعيداً لا تساوي شيئاً مقارنة بالأرباح التي قد تتراكم في نهاية المطاف من امتياز النفط، ما داموا يستمرّون بالتمسّك به. بفعلهم ذلك، قضوا على آمال البريطانيّين في فرض بعض الانضباط الماليّ في السعوديّة، حيث لا تزال عائدات شركة "أرامكو" تمرّ عبر الحساب المصرفيّ الخاصّ لوزير الماليّة في نيويورك. تنهّد موين قائلاً إنّها "حالة أخرى من الحالات المتكررة التي واجهناها في الشرق الأوسط، حيث تقضي فكرة التعاون الأميركيّة المحلّية بأن نعطي كلّ شيء ويأخذوا (هم) كلّ شيء".[99]

99 TNA, FO 921/192, Moyne to FO, 5 July 1944.

في 1 أيلول/ سبتمبر 1944، استقرّ وزير أميركيّ جديد في جدّة. كان بيل إيدي، على غرار هارولد هوسكينز، ابن مبشّريْن أتيا إلى لبنان. كان الرجلان في الحقيقة أبناء عمومة. قبل الحرب، كان معلّماً في الجامعة الأميركيّة في القاهرة حيث ترجم قواعد كرة السلّة إلى العربيّة. وأُدخل، على غرار هوسكينز، إلى مكتب الخدمات الإستراتيجيّة. سيشير لاحقاً إلى اللحظة التي وصل فيها إلى جدّة كبداية لـ"الغزو الأميركيّ للشرق الأدنى".[100]

[100] Vitalis, *America's Kingdom*, p. 79.

كان إيدي قويّاً بقدر لانديس، وسرعان ما صار واضحاً لستانلي جوردان أنّ نظيره الأميركيّ الجديد جديّ. أوضح الدبلوماسيّ الأميركيّ أنّه في المستقبل لن تسمح حكومته للبريطانيّين بتقييد المبالغ التي ستدفعها الولايات المتحدة لابن سعود. تراجع جوردان عقب ذلك. وكتب إلى إيدن بعد لقائه الأوّل مع إيدي، متحجّجاً أنّ الوقت قد حان للبريطانيّين لإخراج أنفسهم من أيّ التزام ماليّ ثابت إزاء السعوديّين. علّق قائلاً: "إنّ موقف شريك صغير يُجرّ في أعقاب الأميركيّين... أمرٌ مشين جدّاً بحقّ حكومة صاحب الجلالة في حال وافقتْ عليه، وإنّ ميزات مشاركة الإعانة مع واشنطن قليلة أو معدومة". وافقه موين الرأي من القاهرة. كتب في غضون أسبوعيْن من تعيين إيدي: "أظهرت المحادثات مع العقيد إيدي بوضوح أنّ المفهوم الأميركيّ حول ما يجب منحه للسعوديّة يتجاوز كلّ ما كان يدور في ذهننا". كانت هذه إشارة مبكرة إلى كيفيّة تفوّق الأميركيّين على البريطانيّين ماليّاً في السنوات المقبلة.[101]

[101] TNA, FO 921/192, Jordan to Eden, 6 September 1944; Moyne, minute, 13 September 1944.

***

غادر لانديس واشنطن للعودة إلى القاهرة في خريف ذلك العام مصمّماً على إنهاء أعمال مركز التموين في الشرق الأوسط. أصرّ الأميركيّون على أنّ "ميثاق الأطلسي" بالتأكيد، الذي هو الاتّفاق الأصليّ لمساعدات الإعارة والاستئجار، ألزم بريطانيا وضع حدّ للتمييز التجاريّ. بعد ذلك، في "مؤتمر بريتون وودز" في ذلك الصيف، قبِلَ البريطانيّون نظاماً يتوخّى التجارة الحرّة المتعدّدة الأطراف. كان كلّ هذا يتناقض مع القيود التي واصل مركز الشرق الأوسط فرضها. في طريقه إلى مصر، توقّف لانديس في لندن، وأخبر المسؤولين البريطانيّين أنّ هدفه الرئيسيّ كان "قطع الشريط الأحمر" الذي يمنع المصدّرين الأميركيّين من البيع في الشرق الأوسط. وفي حين كان على استعداد لقبول ضوابط الصرف الجارية التي كانت تحدّ من قيمة الجنيه الإسترليني التي يمكن

استبدالها بالدولار، اقترح إزالة القيود على استيراد جميع السلع باستثناء مجموعة مختارة من السلع الأساسيّة التي تعاني من نقص في المعروض. في الواقع، "ستقتصر الرقابة على برنامج حمولة الشحن الذي يتعيّن على المصدّرين التزامه". وعرضَ حجّة بريطانيّة أخرى مفادُها أنّ القيود كانت ضروريّة لمنع التضخّم في ما بعد الحرب، مُطمئناً البريطانيّين أنّه "في ظلّ وضع الشحن الحاليّ، قد تعني هذه المقترحات الجديدة ارتفاعاً صغيراً في الواردات إلى الشرق الأوسط".[102]

102 TNA, CAB 110/185, minutes of meeting, 10 October 1944.

كان السؤال: أيّ نوع من الواردات؟ هذا ما أزعج البريطانيّين، وكان مصدر قلق مشروعاً. ورغم أنّ مركز التموين في الشرق الأوسط ساهم في تحسين الاكتفاء الذاتيّ في المنطقة، على نحو كبير، فإنّ الواردات من السلع الأساسيّة كانت لا تزال ضروريّة. تساءل المسؤولون البريطانيّون عمّا سيحدث عندما يدرك المستوردون الأميركيّون أنّ "200 جهاز راديو كانوا يشكّلون 'عرضاً أفضل' من مساحة الشحن الموازية من الحبوب أو النترات". ما الذي كان سيردع المستوردين المصريّين عن إنفاق حصصهم من الدولار بالكامل على السلع الكماليّة؟[103]

103 'Talks in Cairo', *Daily Express*, 27 October 1944. 'Talks in Cairo', *Daily Express*, 27 October 1944.

في البداية، شعرَ البريطانيّون أنّ الفجوة ليست كبيرة بين موقعهم وموقع لانديس. لكن سرعان ما اتّسعت هذه الفجوة لتتحوّل إلى شرخ عميق عندما عمّم البريطانيّون قائمة تضمّ ما يقارب مئة سلعة مستوردة متفاوتة للغاية – من موادّ كيميائيّة صناعيّة وزراعيّة محدّدة إلى فئات كاملة من المنتجات المصنّعة، بما في ذلك "الشاحنات" و"سيّارات الركاب" و"الأثاث" – أرادوا من مركز التموين في الشرق الأوسط مواصلة تنظيمها. أمّا العناصر الواردة في القائمة التي أثارت خلافاً فوريّاً، فكانت الإطارات والأنابيب الداخليّة. أراد البريطانيّون، الذين كانت مزارعهم المطّاطية لا تزال بين أيدي اليابانيّين، منعَ الأميركيّين – الذين أسّسوا صناعة كبيرة للمطّاط الصناعيّ – من اقتحام سوق الشرق الأوسط حيث يمكن تغيير مجموعة من أربعة إطارات جديدة بقيمة ثلاثة آلاف دولار. عندما رفض لانديس دخول اللعبة، لم يكن بإمكان البريطانيّين فعل أيّ شيء حيال ذلك. بحلول الوقت الذي غادر فيه العاصمة البريطانيّة، كان قد وُضع اتّفاق لتخفيف ضوابط الاستيراد.[104]

104 TNA, CAB 110/185, minutes of a meeting on 11 October 1944; 'List of Commodities for which MES C recommendations should continue in the Middle East', n.d.

كانموين، الذي يتصارع مع بعثة اقتصاديّة خاصّة أرسلتها الخارجيّة الأميركيّة للتحقيق في الضوابط المفروضة من مركز التموين في الشرق الأوسط، سعيداً لظهور لانديس في القاهرة مجدّداً في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر. بعد تناولهما الغداء في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، عرضَ على نظيره إيصاله إلى المنزل لكنّ المسؤول الأميركيّ رفض. لدى عودته إلى مقرّ إقامته، تعرّض موين إلى إطلاق نار أودى به، على يد اثنين من القتلة اليهود كانا ينتظرانه.

لم يعِش موين ليشهد الحكم الصادر عن بعثة وزارة الخارجيّة، الذي ربط مصير المركز باستنتاجاتها حول أنّ البحار أصبحت الآن آمنة بما فيه الكفاية لجعل ضوابط الاستيراد غير ضروريّة، وأنّه في حين أنّ التعاون الإنكليزيّ–الأميركيّ كان حقيقيّاً بما فيه الكفاية، "لم يتحوّل مركز التموين في أيّ وقت من الأوقات إلى مشروع مشترك حقيقيّ". كما أنّه لم يشهد الهجوم غير المبطّن على السياسة البريطانيّة الذي شنّه نظيره الأميركيّ في كانون الأول/ ديسمبر ذاك، ممّا اتّضح أنّه خطاب توفيقيّ، قبيل استقالته في الشهر التالي. أعلن لانديس: "السلام، بالنسبة إليّ، رؤية بحار حرّة، وسماء حرّة، وتجارة حرّة، وحرّية في تطوير الأفكار". وتابع: "ليس السلام النزعة التجاريّة، أو الإعانات غير الاقتصاديّة أو السياسيّة، أو القوميّة الضيّقة، أو التفضيلات الجماعيّة، أو المفهوم الفاشستيّ لعِرق له الحقّ بالسيطرة على غيره".[105]

[105] Wilmington, *The Middle East Supply Centre*, p. 165; Ritchie, *James M. Landis*, p. 127.

رغم أنّ جهود موين لتشجيع الوحدة العربيّة ستؤدّي إلى إنشاء جامعة الدول العربيّة، فإنّ مركز التموين في الشرق الأوسط، الذي كان يأمل النظراء البريطانيّون منه إطالة الهيمنة البريطانيّة على المنطقة، حُلّ في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1945. حينذاك، كانت طموحات بريطانيا قد صارت مجرّد ذكريات بعيدة.

6

المسألة اليهوديّة

لم يعش ويندل ويليكي ليشهد، ناهيك عن أن ينافس في، الانتخابات الرئاسيّة عام 1944 التي جرت في اليوم التالي على مقتل اللورد موين في القاهرة. فالرجل الذي كاد أن ينتصر على روزفلت في تشرين الثاني/ نوفمبر ذاك، توفيّ في الشهر السابق جرّاء نوبة قلبيّة عن عمر ناهز الثانية والخمسين، بعد أن فشل في الفوز بترشيح الحزب الجمهوريّ في الصّيف. وبعكس ما كان يفترضه قبل سنتيْن – حساباته التي قادته إلى الشرق الأوسط في المقام الأوّل – أظهرت الانتخابات أنّ روزفلت "لم يصل إلى النهاية بعد". ففي 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، هزم الرئيس خصمه، توماس ديوي، بأغلبيّة ساحقة.

تحت ضغط من الصهاينة نتيجة فشلهم في تحقيق المزيد من المكاسب للّاجئين اليهود، تخطّى روزفلت كلّ ما فعله في السابق لكسب أصوات اليهود خلال الحملة الانتخابيّة. فقبل ثلاثة أسابيع من الاستفتاء، أعلن أنّه يفضّل "فتح فلسطين للهجرة اليهوديّة غير المقيّدة". وبعد ذلك بيوم واحد، أعلن أنّه يعرف "كم عملَ الشعب اليهودي وصلّى من أجل تحويل فلسطين إلى كومنولث يهوديّ حرّ وديموقراطيّ". وتابع قائلاً في حال إعادة انتخابه: "سأساعد على تحقيق ذلك".[106]

106 O'Sullivan, *FDR and the End of Empire*, p. 120; TNA, FO 141/1001, Clayton, memorandum, 14 November 1944.

***

بينما ساعدت مثل هذه التصريحات روزفلت على تحقيق الفوز الرابع على التوالي، فإنّها عرّضت علاقته بابن سعود للخطر، في وقت كانت فيه إدارته بحاجة إلى دعم الملك من أجل تطوير مشروعيْن حيويّيْن: أحدهما خطّ الأنابيب العابر للجزيرة العربيّة الذي طرحه هارولد آيكس في وقت سابق من ذلك العام، والآخر قاعدة جويّة على هضبة الحجر الجيريّ في الظهران شرقي السعوديّة.

كما أثبتت رحلة ويلكي الجويّة، كانت تلك بداية حقبة جديدة من الطيران الدوليّ الطويل المدى. رغم التفوّق التكنولوجيّ الذي كان يتمتّع به الأميركيّون، إذ كانوا يطوّرون ويبنون قاذفات للقنابل، بينما كانوا يشجّعون البريطانيّين على صناعة طائرات مقاتلة، كان البريطانيّون يستفيدون من المزيد من حقّ الهبوط، خاصّة في الشرق الأوسط حيث كان الطريق الرئيسيّ بين القاهرة وكراتشي يمرّ عبر الحبّانية وعبادان والبحرين. وسيمكّن إنشاء مدرّج في الظهران – المكان الوحيد شمال السعوديّة حيث يمكن للجيولوجيا تحمّل الطائرات الثقيلة – الأميركيّين من تجاوز هذه المراكز البريطانية، وشَقّ طريق شرق أوسطيّة جديدة تتمتّع بميزة خاصّة كونها أقصر بمئتي ميل. وبما أنّ ضبّاط القوّات الجوّية البريطانيّة شُوهدوا أخيراً يستكشفون الموقع، علمَ الأميركيّون أنّ عليهم التحرّك بسرعة.

لهذه الأسباب المباشرة فقط، كان الرئيس بحاجة إلى إصلاح الحواجز مع ابن سعود. لكّنه اعتقد، على ما يبدو، أنّ الاجتماع قد يحقّق أموراً أكبر بكثير. فلو تمكّن من استدراج موافقة الملك على وجود اليهود في فلسطين، قد يجد حلاًّ نهائيّاً للتوتّر الذي خلقته السياسة الداخليّة لبلاده. قبل أشهر، كتبَ إلى ابن سعود مُعرِباً عن خيبة أمله لأنهما لم يلتقيا أبداً. في شباط/ فبراير 1945، أُتيحت الفرصة لتحقيق ذلك عندما كان الرئيس عائداً إلى بلاده عبر القاهرة من قمّة يالطا حيث التقى تشرشل وستالين للتباحث حول نهاية الحرب والترتيبات الخاصّة بأوروبا في سياق عمليّة السلام. كان روزفلت يأمل في التوصّل إلى استمالة الملك، مستخدماً ثقله الشخصي في الاجتماع. كان يسعى مجدّداً إلى تحقيق توافُق في الآراء.

في 12 شباط/ فبراير، استقلّ ابن سعود مدمّرة أميركيّة في جدّة. بعد يومين، على ضفاف بحيرة بيتر عند قناة السويس، التقى روزفلت للمرّة الأولى والوحيدة. عندما قارن ابن سعود عمرهما وعجزهما، أعطاه الرئيس ذو الشعر الرماديّ مقعده المتحرّك الإضافيّ، ثمّ سأله عن كيفيّة إيجاد حلّ لقضيّة فلسطين. أعاد الملك تأكيد معارضته الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين. قال: "إنّ العرب سيختارون الموت بدلاً من تقديم أراضيهم إلى اليهود".[107]

107 *FRUS*, 1945, Vol. VIII, p. 2, memorandum of conversation between Ibn Saud and Roosevelt, 14 February 1945.

قال روزفلت بعد ذلك: "تحدَّثْنا لثلاث ساعات، وتجادلتُ مع الصّديق القديم بشدّة وإصرار، لكنّه كان متمسّكاً برأيه. لم أتوصّل معه إلى أيّ حلّ".[108]

108 Brands, *Inside the Cold War*, p. 166.

***

أثار روزفلت الامتعاض عندما صرّح، لدى عودته، إلى الكونغرس: "فهمتُ المشكلة برمّتها، المشكلة الإسلاميّة، المشكلة اليهوديّة، بالتحدّث مع ابن سعود خمس دقائق، أكثر ممّا قد تعلّمته من تبادُل نحو عشرين أو ثلاثين رسالة". لكن حتّى ذلك الحين، كانت النتائج الأهمّ للمحادثة هو المَحضر اللاذع الذي نتج عنها. فقد كشف التقرير الذي كتبه وترجمه السفير الأميركيّ، بيل إيدي، أنّ روزفلت، في سياق الجهود التي بذلها للتفوّق على ابن سعود، اقترح بولندا – وليس فلسطين – كحيّز ممكن "من أجل إعادة توطين العديد من اليهود الذين لا مأوى لهم"، وأنّه بصفته "رئيساً تنفيذيّاً لحكومة الولايات المتحدة" لن يُقدِم على أيّ شيء لمساعدة اليهود ضدّ العرب، ويعتقد أنّ إرسال بعثة عربيّة إلى الولايات المتحدة سيكون "فكرة جيّدة، لأنّ العديد من الناس في أميركا كانوا 'مضلَّلين'". 109

109 *FRUS*, 1945, Vol. VIII, p. 2, memorandum of conversation between Ibn Saud and Roosevelt, 14 February 1945.

بعد ثلاثة أسابيع، حاول ابن سعود تأكيد انتصاره بالسعي إلى استخراج ما قاله الرئيس خلال الاجتماع كتابياً. في 10 آذار/ مارس، كتبَ رسالة مُسهَبة إلى روزفلت أوضح فيها معارضته المطالبة الصهيونيّة بفلسطين، وطلب من الرئيس منع اليهود من ترسيخ موقعهم في الولاية أكثر من ذلك. فور وصول رسالة الملك إلى واشنطن، استُرجع محضر اجتماع بحيرة بيتر من ملفّات "الخارجيّة"، وفي 5 نيسان/ أبريل، ردّ روزفلت على ابن سعود. ذكَّرَ الملك في رسالته بالوعد المتواضع الذي قطعه عليه في أيار/ مايو 1943، ألا يتّخذ أيّ قرار بشأن فلسطين "من دون التشاور الكامل مع كلّ من العرب واليهود". وتابع قائلاً إنّ هذه السياسة لم تتغيّر فحسب، بل كان سعيداً بتجديد الضمانة التي قدّمها إليه خلال اجتماعهما. كما قال إنّه بصفته رئيساً "لن يتّخذ أيّ إجراء... يكون مُعادياً للعرب". لم يكن هذا ما قاله، كما أثبته المحضر، لكنّ روزفلت لن يضطرّ أبداً إلى التدقيق في هذا الاختلاف، فقد مات بعد مرور أسبوع. 110

110 'Texts of Letters Exchanged by Ibn Saud and Roosevelt', *New York Times*, 19 October 1945.

كان الرجل المُلزَم استلام زمام الأمور من حيث تركَها روزفلت فجأة هو رفيق الأخير ونائبه منذ اثني عشر أسبوعاً، هاري ترومان. في حين كان روزفلت قائداً طبيعيّاً، كان ترومان الصّديق المثاليّ: رجلٌ جدّي ومسؤول يُعنى بالتفاصيل، ويُوحي أنّه على اطّلاع على مخاوف الأميركيّين العاديّين. كان ترومان مزارعاً سابقاً ورجل أعمال فاشلاً قبل أن يُنتخَب في مجلس الشيوخ، وقد

اشتهر اسمه رئيساً لـ"لجنة التحقيق في المجهود الحربيّ"، اللجنة التي أثارت الغضب في لندن نهاية 1943 باقتراحها تحويل الحكومة البريطانيّة حصصها في حقول النفط الأجنبيّة إلى حكومة الولايات المتحدة. وقد جعلت منه "لجنة ترومان"، كما بات معروفاً، بطلَ دافعي الضرائب ضدّ التزوير، والتبذير، والبيروقراطيّين، والسياسيّين البدينين، ورجال الأعمال الكبار، وأباطرة النقابات.

طوال ولايته الأولى، كان ترومان يدرك تماماً حقيقة أنّ روزفلت كان قد انتُخب وليس هو. قال ترومان عندما سُئل مرّة أخرى عن كيفيّة شعوره أن يكون رئيساً: "أشعر أنّني أحاول أن أحلّ مكان شخص آخر". بينما كان يتلمّس طريقه لإتمام وظيفته، اتّبع سياسة روزفلت الملتبسة تجاه فلسطين. وردّاً على سؤال حول القضيّة، من المنافس الهاشميّ لابن سعود وجاره، عبد الله من شرق الأردن، وقّع على رسالة صاغتها "الخارجيّة" تتمسّك فيها بما نصّه الرئيس روزفلت حول "عدم اتّخاذ قرار... دون الاطّلاع الكامل على الأمور". لكن هذا يتناقض مع البيان الصهيونيّ المؤيّد للصهيونيّة الذي أصرّ عليه وروزفلت، وسرعان ما قرّر أنه غير قابل للاستمرار. مع نهاية الحرب في أوروبا في أيار/ مايو من ذلك العام، انجلت في نهاية المطاف أزمة اللاجئين على حقيقتها. فقد كان هناك نحو ربع مليون "نازح" بحاجة إلى العثور على ديار لهم. وبالنسبة إلى 138 ألفاً منهم تقريباً، الذين كانوا من اليهود، كان الصهاينة مُصرّين على أن تكون تلك الديار هي فلسطين.[111]

[111] Crum, *Behind the Silken Curtain*, p. 16; *FRUS*, 1945 Vol. VIII, p. 707, Truman to Abdullah, 17 May 1945.

كانت هذه القضيّة مهمّة لأنّه منذ اللحظة التي أدلى فيها ترومان بقسم اليمين، كان يعلم أنّ أوّل اختبار انتخابيّ له سيكون لرئاسة بلديّة نيويورك في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1945. كانت نيويورك تضمّ أكبر عدد من السكّان اليهود في أيّ مدينة في البلاد. كان يوجد في نيويورك أربعة أضعاف عدد اليهود الموجودين في فلسطين. وعلى عكس حزبه الذي اختار مرشّحاً ذا جذور أيرلنديّة، كان منافس الجمهوريّين يهوديّاً أيضاً.

جعلت تلك الانتخابات ترومان حسّاساً على نحو خاصّ إزاء مصلحة اليهود الأميركيّين في قضيّة فلسطين. صرّح أمام مجموعة من الديبلوماسيّين الأميركيّين الذين يكرهون هذه الحقيقة: "أنا آسف، أيّها السادة، لكن يجب أن ألبّي طلب مئات الآلاف من الأشخاص الذين يسعون بجدية إلى إنجاح الصهيونيّة. ليس لديّ مئات الآلاف من العرب بين ناخبيّ". وكي يثبت للصهاينة أنّه سيتّخذ إجراءات في حزيران/ يونيو، طلب من ممثّل الولايات المتحدة في اللجنة الحكوميّة الدوليّة المعنيّة باللاجئين، إيرل هاريسون، الذهاب إلى المنطقة التي تحتلها أميركا في أوروبا للتحقيق في الأمر.

لكنّه لم ينتظر تقرير هاريسون. وفي مؤتمر عقدَه في منتصف آب/ أغسطس، قال ردّاً على سؤال دُسّ مع أحد المراسلين، إنّ هدفه هو ''السماح لأكبر عدد ممكن من اليهود بالدخول إلى فلسطين والحفاظ على السلم الأهليّ''. وكان من الأمور الجوهريّة لإنجاح هذه الخطّة قبول كلّ من البريطانيّين والعرب، بما أنّ ترومان لم يكن يرغب في إرسال نصف مليون جنديّ أميركيّ إلى فلسطين للحفاظ على السلام.[112]

112 Ovendale, 'The Palestine Policy of the British Labour Government', p. 413; Ottolenghi, 'Harry Truman's Recognition of Israel', p. 969.

بعد ثمانية أيّام، أبلغ هاريسون بالظروف المروّعة التي وجدها في المنطقة الأميركيّة، حيث كان الناجون اليهود من الهولوكوست، الذين لا يزالون يعيشون محاصرين في معسكرات الاعتقال، يرتدون ملابس النوم الخاصّة بالمخيّمات أو الزيّ الألمانيّ، لأنّه لم يكن لديهم أيّ مكان آخر يذهبون إليه. ولأنّه أدرك أنّ فصل الشتاء سيسبّب العديد من الوفيّات، سلّط الضوء على اقتراح ''مقنع'' قدّمته ''الوكالة اليهوديّة''. قضى الأخير بإصدار الحكومة البريطانيّة مئة ألف تأشيرة هجرة إضافيّة لتمكين ''الإخلاء السريع لجميع اليهود الموجودين في ألمانيا والنمسا غير القادرين على العودة إلى ديارهم، ويرغبون في ذلك، باتّجاه فلسطين''.[113]

113 تقرير إيرل ج. هاريسون عن ''مهمته في أوروبا للتحقيق في ظروف واحتياجات الأشخاص النازحين في البلدان المحرَّرة في أوروبا الغربية ومنطقة القيادة العليا للقوات المتحالفة (SHAEF) في ألمانيا - مع الإشارة على نحو خاص إلى اللاجئين اليهود - الذين قد يكونون بلا جنسية أو غير قابلين للإعادة إلى الوطن''، دون تاريخ.

استمال هذا العدد الكبير والصحيح بلا كسور ترومان. وبعد أسبوع، أحال التقرير على رئيس الوزراء البريطانيّ الجديد، كليمنت أتلي، في رسالة يحثّه فيها على الموافقة على دخول مئة ألف لاجئ يهوديّ إلى فلسطين. كما سمح، لحرصه الشديد على الانتخابات الرئاسيّة المقبلة، لسيناتور ديموقراطيّ سابق صار عضواً في اللوبي الصهيونيّ، غي جيليت، بالكشف عمّا طلبه من أتلي سرّاً.

لم تساهم هذه المناورة على الإطلاق في تحسين علاقة ترومان مع أتلي، التي بدأت على نحو سيّئ. فبعد تولّيه منصب رئيس الوزراء، وجد أتلي رسالة من الرئيس لا تترك أيّ شكّ حول افتراض ترومان بأنّ تشرشل سيفوز. وأشار استعداد ترومان إلى السماح لجيليت بنشر الرسالة أنهّ يرى موافقة أتلي على مطلبه أمراً بديهياً. كان الافتراض مبالَغاً فيه لكنّه لم يكن خارجاً تماماً عن المعقول. فأتلي كان رجلاً هادئاً ومتواضعاً، وقد يكون ترومان أخطأ باعتبار هذه الصّفات علامة ضعف. كما أنّه لم يفهم كيف يمكن لطلبه أن يكون مثيراً للجدل. في نهاية المطاف، على غرار حزب الديموقراطيّين في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، فاز حزب العمل البريطانيّ في انتخابات هذا

الصّيف بفضل برنامج مؤيّد للصهيونيّة. وكما أشار هاريسون في تقريره، صرّح السياسيّ العمّالي هيو دالتون، الذي صار الآن مستشار وزير الماليّة في حكومة أتلي، علناً، أنّ ''الفظائع التي لا توصف، والتي ارتُكبت بحقّ اليهود'' في أوروبا المحتلّة جعلت حظر دخول أيّ يهوديّ يرغب في الذهاب إلى فلسطين، أمراً ''خاطئاً من الناحية الأخلاقيّة وغير مبرّر سياسيّاً''.

ما لم يسمح به أيّ من ترومان أو هاريسون هو حقيقة أنّ عضواً رئيسيّاً في الحكومة الجديدة قد غيّر رأيه بعد ذلك. ''كليم''، قال وزير الخارجيّة الجديد إرنست بيفن، لأتلي ذات يوم عن فلسطين، ''وفقاً للفتيان في المكتب، يبدو أنّنا أسأنا فهم الأمور. علينا إعادة التفكير فيها''.[114]

114 Harris, *Attlee*, p. 390.

استغرقت رسالة ترومان أحد عشر يوماً للوصول إلى أتلي، وفي غضون ذلك، كان بيفن يراجع سياسة الشرق الأوسط البريطانيّة. كان بيفن الذي عمل في بداية حياته مزارعاً قد تسبّب لمدة وجيزة في الذّعر في ''الخارجية'' عندما تبيّن أنّه يأكل الطعام بسكّينه. لكنّ هذا الخوف تبدّد عندما اتّضح أنّه مدافع باسل عن مصالح البلاد. كان هذا المُنتقِد لـ''ميثاق الأطلسي'' منذ البداية، والمُناهِض العنيد للشيوعية، يعتقد أنّ الوجود البريطانيّ المستمرّ في الشرق الأوسط سيضمن استمراريّة العلاقات الدوليّة للبلاد، ويمنع توسّع النفوذ السوفياتيّ جنوباً باتّجاه أفريقيا وأبعد من ذلك. وبينما كانت المعارضة تزداد في مصر ضدّ استمرار وجود القوّات البريطانيّة، كان بيفن يأمل في نقل القاعدة العسكريّة البريطانيّة من إحدى ضفّتي قناة السويس إلى الضفّة الأخرى. قضت خطّته بالتفاوض على انسحاب من مصر من شأنه تحسين سمعة بريطانيا في العالم العربيّ، على نحو كافٍ، للسماح بإجراء اتّفاق مع اليهود يمنح بريطانيا حقّاً مستمرّاً بتركيز قوّاتها في فلسطين. وفي انتظار التوصّل إلى اتّفاق مماثل، ستسمح الحكومة بمستوى محدود من الهجرة إلى فلسطين. بموجب النصيحة العسكريّة حول الحاجة إلى عدد أقلّ بكثير من القوّات البريطانيّة للتعامل مع ''مشكلة محلّية مع اليهود في فلسطين'' من مواجهة ''اضطرابات واسعة النطاق بين العرب في جميع أنحاء الشرق''، أملَ الوزراء في ما هو ضروريّ ''لتهدئة المشاعر اليهوديّة''، إنّما ليس لدرجة إثارة جلبة في أوساط العرب.[115]

115 Cohen, ‘The Genesis of the Anglo-American Committee on Palestine’, p. 190.

ربّما كان من الممكن فعل هذه المراوغة المدروسة بدقّة لو أنّ بريطانيا كانت تتحرّك وسط الفراغ. ففوراً انزعجت من طلب ترومان من أتلي قبول عدد كبير من اللاجئين اليهود إلى فلسطين.

وعندما أخبر وزير خارجيّة ترومان جيمس بيرنز، بعد أربعة أيّام من تسليم الرسالة، بيفن، أنّ الرئيس ينوي اعتماد استنتاجات هاريسون في ذلك المساء بالذات، هدّد وزير الخارجيّة بالمطالبة علناً بمراقبة الجنود الأميركيّين للوضع الذي قد يتسبّب فيه تدخُّل ترومان. ردّد أتلي هذا محذّراً الرئيس من أنّ سياسته قد ”تُشعِل الشرق الأوسط بأكمله“، وتُلحِق ”ضرراً فادحاً“ بالعلاقات عبر الأطلسي.[116]

[116] *FRUS*, 1945, Vol. VIII, pp. 737–40, Truman to Attlee, 31 August 1945, and Attlee to Truman, 14 and 16 September 1945.

تراجع ترومان، إذ أثار طلبه معارضة على جبهتيْن أخريَيْن. في بلده، كانت إدارته تعارضه. وبتحريض من وزارة الخارجيّة التي كانت تخشى من أن يدمّر العلاقات مع السعوديّين، حذّرته وزارة الحرب من أنّ خطط التسريح ذات الأهمّية القصوى التي وضعها ستؤجَّل إلى أجل غير مسمّى إذا استمرّ بدعمه الهجرة اليهوديّة. كان ذلك مرتبطاً بالحاجة إلى المزيد من القوّات الأميركيّة في ألمانيا، في حال أُعيد نشر القوّات البريطانيّة المتمركزة هناك في الشرق الأوسط لإخماد ردود الفعل العربيّة. في الخارج، وصلت أخبار دعمه الهجرة اليهوديّة الواسعة النطاق إلى فلسطين، إلى بغداد والقاهرة، بفضل غي جيليت. هناك، صرّح الأمين العامّ لجامعة الدول العربيّة بأنّ إصرار الرئيس على السماح لمئة ألف يهوديّ بدخول الولاية يتعارض مع تعهُّد روزفلت لابن سعود في شباط/ فبراير من ذلك العام ”عدم تأييد الولايات المتحدة إطلاقاً لقتال الصهاينة ضدّ العرب بشأن فلسطين“.[117]

[117] ‘Palestine ”Pledge“ denied by Truman’, *New York Times*, 27 September 1945.

هذا التلميح الأوّل إلى ما تبادله روزفلت وابن سعود في اجتماع شباط/ فبراير عند بحيرة بيتر أثار فوراً اهتمام الصحافيّين. وعندما سُئل ترومان في مؤتمر: هل قال روزفلت ذلك بالفعل، أجاب ترومان فوراً بـ”لا“ ناشفة، وهذا الأمر لم يكن صحيحاً. ولتوريط نفسه أكثر، راح يدّعي أنّه ”اطّلع على سجلّات المؤتمرات الخارجيّة بعناية شديدة، ولم يجد أيّ التزام من هذا القبيل“، ثمّ قال إنّه ”نظراً إلى غياب أيّ سجل رسميّ، أو سجل آخر لقطع سلفه في البيت الأبيض أيّ تعهّد مماثل“، لن يشعر أنّه ملتزم أيّ تفاهم من هذا القبيل. بدا الأمر برمّته مُريباً للغاية.[118]

[118] ‘Palestine ”Pledge“ denied by Truman’, *New York Times*, 27 September 1945.

أثار أداء ترومان غضب ابن سعود ومستشاريه الذين كانوا يستمعون للأخبار الإذاعيّة. بعد سماع تقارير حول ما قاله الرئيس، أطلعوا السفير الأميركيّ، بيل إيدي، أنّ الملك سيطلب من ترومان

توضيحاً. كانوا يعلمون – وكذلك إيدي – أنّ محضر اجتماع الملك مع روزفلت يتناقض بوضوح مع ما قاله الرئيس للتوّ. في رسالة إلى ترومان، هدّد ابن سعود بنشره. أثار هذا التهديد قلق الإدارة لأنّ تقرير الاجتماع كان أشبه بالمتفجّرات.

لن يثبت ذلك كذب الرئيس فقط، ولكن كما لاحظ أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجيّة، إنّ نشر آراء روزفلت الصريحة "سيكون له عواقب مؤسفة على هذا البلد وفي الخارج".[119]

119 *FRUS*, 1945, Vol. VIII, p. 764, Henderson, memorandum, 10 October 1945.

في محاولة يائسة لمنع ابن سعود من تنفيذ تهديده قبل الانتخابات، كتب ترومان رسالة غاضبة إلى الملك، يقول فيها إنّ ملاحظاته نُقلت على نحو غير دقيق، كما قال إنّه على استعداد لنشر رسالة روزفلت في 5 نيسان/ أبريل، ولكن ليس المحضر الأصليّ للاجتماع، لأنّ إصداره "الآن... لن يخدم المصلحة المشتركة لبلديْنا". بعد موافقة ابن سعود على هذا الاقتراح، نُشرت الرسالة في 18 تشرين الأول/ أكتوبر. في اليوم نفسه، حاول ترومان استعادة المبادرة ترقُّباً للانتخابات، تعبيراً عن أمله أن يوافق أتلي على اقتراحه.[120]

120 *FRUS*, 1945, Vol. VIII, p. 769–70, Byrnes to Eddy, 13 October 1945,
مُرفق برسالة من ترومان إلى ابن سعود.

أدرك البريطانيّون أنّ ترومان كان يعتمد الآن على ردّ إيجابي من أتلي، وحاولوا فوراً استغلال ضعف الرئيس. كان بيفن، الذي يتعرّض إلى الضّغط لوضع سياسة الحكومة الجديدة بشأن فلسطين، يسعى إلى إنشاء لجنة تحقيق بريطانيّة مشتركة. كان مدركاً لهدفه الإستراتيجيّ الأوسع في الحفاظ على قاعدة بريطانيّة في فلسطين، ولذا كان يسعى إلى إرغام الأميركيّين على إيجاد حلّ دائم لتمكين بريطانيا من البقاء هناك. لم يكن هناك متّسع من الوقت. رغم ذلك، وفي ظلّ غياب سياسة جديدة بشأن فلسطين، كانت الحكومة تسمح باستمرار باستخدام تصاريح الهجرة المتبقّية من نظام "الكتاب الأبيض" التي كانت ستنفد قريباً. في غضون ذلك، ذكرت "وكالة المخابرات العسكريّة" أنّ المجموعتيْن الإرهابيّتيْن الرئيسيّتيْن في فلسطين، عصابتَي "شتيرن" و"الإرغون"، وضعتا نفسيهما تحت تصرّف "الهاجاناه" لتنفيذ هجوم مشترك على البريطانيّين. في اليوم التالي لعقد مؤتمر ترومان الصّحافي، ذهب السفير البريطاني لرؤية بيرنز ومعه مذكّرة تلخّص اقتراح بيفن، الذي يرغب وزير الخارجية، على حدّ قوله، في إعلانه في 25 تشرين الأول/ أكتوبر. قال وزير الخارجيّة مغمغماً: "سيتمّ ذلك يوم الخميس المقبل". الأهمّ من ذلك أنّ الموعد يقع قبل اثني عشر يوماً من الانتخابات البلديّة في نيويورك.[121]

121 TNA, KV, 3/443–2, extract from CX report No. 54, 17 October 1945; *FRUS*, 1945, Vol. VIII, p. 777, memorandum of a conversation between Byrnes and Halifax, 19 October 1945.

خلال الأسبوعيْن المقبليْن، تباحث بيفن وبيرنز هل ستشمل مهمّة اللجنة توصية خاصّة بفلسطين. شعرَ بيفن أنّ ذلك سيحول دون النظر في خيارات آمنة بديلة؛ وأصرّ بيرنز الذي كان مهتمّاً بانتخابات نيويورك على الأمر. خوفاً من أن يستبق بيفن الأمور ويعلن ذلك قبل إجراء الاستفتاء، سحب بيرنز عرضه بالالتحاق باللجنة. في اليوم التالي للانتخابات، رفض ترومان قرار وزير خارجيّته، وكان الثمن الذي دفعه، جرّاء ذلك، جعل فلسطين محور تحقيقات اللجنة. لكنّه سبق له أيضاً أن وافق على التوصية بأن تحقّق اللجنة أيضاً في إمكانيّة ذهاب اللاجئين إلى بلدان أخرى.

لم تكن شروط التوصية مطابقة لما أراده بيفن، لكنّه لم يكن في وضع يسمح له بالمجادلة. وفي ليلة 31 تشرين الأول/ أكتوبر، أسفرت سلسلة من 150 هجوماً منسّقاً على شبكة السكك الحديديّة في جميع أنحاء فلسطين عن مقتل أربعة أشخاص، وأثبتت دقّة معلومات المخابرات. كانت تلك بداية عهد جديد أكثر عنفاً في الولاية. فضلاً عن ذلك كان أتلي قد وصل بعد ذلك إلى العاصمة الأميركيّة للمطالبة بقرض بقيمة 75.3 مليار دولار من الولايات المتحدة، من شأنه تمكين حكومة حزب العمل من تمويل دولة الرعاية التي كانت تطمح إليها. فرضت الحكومة الأميركيّة شروطاً صارمة، بما في ذلك حرّية تحويل الجنيه الإسترليني إلى الدولار بحلول صيف 1947. قال بيفن متذمّراً خلال اجتماع لمجلس الوزراء: ”نحن بين أيدي شيلوك“. وأوضح أنّه لن يبذل المزيد من الجهود لإعادة كتابة تفويض اللجنة، لأنّه لا يرغب في ”جعل علاقاتنا السياسيّة بالولايات المتحدة أكثر سوءاً“. وفي النهاية، حصل على ما أراد. فقد قُوبل بالهتافات إعلانه في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر أمام مجلس العموم بموافقة الولايات المتحدة على دعوته للانضمام إلى اللجنة.[122]

122 TNA, CAB 195/3 part 2, meeting of 13 November 1945.

***

التقى الأعضاء الاثنا عشر في لجنة التحقيق في واشنطن في كانون الثاني/ يناير 1946. كان الحزب البريطانيّ يتمتّع بتمثيل رتيب: ثلاثة أعضاء في البرلمان، وقاضٍ، والخبير الاقتصاديّ في بنك ميدلاند، وخبير في النّزاعات الصناعيّة. أمّا نظراؤهم الأميركيّون، فكانوا أكثر تنوّعاً. وبما أنّه لم يجرؤ أيّ عضو في الكونغرس على المشاركة بسبب الخوف من معارضة اللوبي الصهيونيّ، ضمّ وفدهم قاضياً من تكساس، ورئيساً سابقاً لوزارة الخارجيّة، ومحرّراً صحافيّاً، والمفوّض السابق لشؤون اللاجئين لدى عصبة الأمم المتحدة، ومحامياً ناجحاً من كاليفورنيا. وقال ريتشارد

كروسمان وهو أحد النواب البريطانيّين: "كان لدينا سمة واحدة مشتركة هي جهلنا التامّ بالموضوع". [123]

[123] MEC, Crossman Papers, 'The Palestine Report', speech to RIIA, 13 June 1946.

بعد جلسات الاستماع في واشنطن، حيث كان ألبرت أينشتاين أحد الشهود، التي شعر خلالها المندوبون البريطانيّون بأنهم أشبه بمتّهمين في محاكمة استعراضيّة، ثمّ في لندن، حيث أدرك الأميركيّون أنّهم كانوا عرضة للمراقبة، انقسمت اللجنة وانتشرت عبر أوروبا القارّية. صُدم جميع أعضائها جرّاء ما رأوه. وعندما عاودوا الاجتماع في فيينا، عبّروا عن صدمتهم إزاء انتشار مناهضة الساميّة. بصقَ بوّاب في فندق ألمانيّ على المحامي الكاليفورني بارتلي كرام (مشهور أكثر بكروم وليس كرام، Bartley Crum) صارخاً: "يجب قتلهم جميعاً! لا نريد أيّاً منهم!" وقال ضابط بريطانيّ ذو وجه أحمر اللون إلى كرام وكروسمان: "من المؤسف جدّاً أنّ هذه الحرب لم تدم شهرين أو ثلاثة إضافيّين. لكانوا تخلّصوا منهم جميعاً بحلول ذلك الوقت. وما كان لدينا مشكلة". أمّا قصص الناجين الذين التقوهم، فلم تكن أقلّ روعاً. فقد عاد بعضهم إلى ديارهم – كما كان يعتقد روزفلت – ليجدوا أنّه قُضي على كلّ عضو من مجتمعهم. بعدها، لجأ بعضهم إلى الانتحار. ظهّر أحد الشباب صورة لصفّه المدرسيّ. من أصل ثلاثة وثلاثين طفلاً، لم ينجُ سوى العشرة الذين ذهبوا إلى فلسطين. كانت العبرة من تلك القصّة واضحة. [124]

[124] Crum, *Behind the Silken Curtain*, p. 130.

انتقلت اللجنة، عبر القاهرة، إلى فلسطين. قال القاضي الأميركيّ لدى نزوله من القطار في اللدّ، بجنوب البلاد: "إنّها تكساس!" فقد ذكّر المشهد كرام بكاليفورنيا. كانت بدايات الربيع، وكان اليهود الذين التقوهم سعيدين وبصحّة جيّدة. من الواضح أنّ العرب كانوا في وضع أفضل بكثير من أبناء عمومتهم المصريّين. عمَّ السلام مدة قصيرة. فباستثناء غارة على مستودع للأسلحة، لم تحدث هجمات كبيرة أثناء وجود اللجنة في فلسطين، لأنّ "الهاجاناه" و"الإرغون" وقوّة "شتيرن" قرّرت أنّه من مصلحتها تجنب حدوثها. بدت مظاهر الأمن المشدّدة التي نظّمها البريطانيّون أشبه بتمثيليّة مسرحيّة للأميركيّين. [125]

[125] Crossman, *Palestine Mission*, p. 126.

على ما يبدو، عزّز الأمن المشدّد الذي لا جدوى له اقتناع كرام المتزايد بأنّ المشكلة ليست الوجود اليهوديّ بل البريطانيّ. كان المحامي صديقاً لويلكي، وكان يعيد قراءة نسخته من مذكّرات

الأخير حول مهمّته عام 1942، *One World* [عالم واحد]، التي استشهد فيها ويلكي بهنرييتا سولد، مُلمِّحاً إلى أنّ البريطانيّين هم سبب التوتّر. في واشنطن، قال أينشتاين الشيء نفسه بالضّبط: إنّ مشكلات فلسطين قد "افتعلها" البريطانيّون. وأضاف المنظّر الفيزيائيّ بإصرار أنّه في حال وجود "حكومة نزيهة حقّاً تُعنى فعلاً بالشعب هناك، وتعمل على جمع العرب واليهود معاً"، "لن يكون هناك ما نخشاه" بعدها. ولّد قضاء كرام ثلاثة أسابيع في فلسطين قناعة بأنّ الصهيونيّة ستكون مفيدة للعرب أيضاً. كان متأكّداً من أنّ إخراج البريطانيّين – الذين عرقل تحالفهم مع مالكي الأراضي تقدُّم دول الشرق الأوسط – سيكفل "الحرّية والتقدّم".[126]

[126] Crum, *Behind the Silken Curtain*, pp. 25, 9.

في أحد الأيّام، احتسى كرام وعضو أميركيّ آخر في اللجنة كأساً في فندق ريجنسي، وهو البار الموجود في الطابق السفليّ من فندق الملك داوود، حيث كانوا يقيمون أثناء وجودهم في القدس، وقد كان يأوي أيضاً في طابقه الأعلى الإدارة البريطانيّة. اعترف زميل كرام قائلاً: "شعرتُ برغبة في أن أجثو على ركبتيّ أمام هؤلاء الناس. لطالما كنتُ فخوراً بأجدادي الذين حوّلوا الغابة البكر إلى مزارع. لكنّ هؤلاء الناس يُخرجون محاصيل من الصّخور!" خلال الجلسات، ركّز الصهاينة جاهدين على هذا المنطلق. قال حاييم وايزمان: "إنّ القوارب المخرومة التي يأتي اللاجئون إلى فلسطين على متنها هي سفينة Mayflower الخاصّة بهم. إنّها Mayflower الخاصّة بجيل بكامله". اعتقد كروسمان أنّه يمكن للتاريخ تفسير الكثير من الأمور. ففي حين تعاطف الأميركيّون مع الصهاينة بصفتهم روّاداً، كانت النزعة العربيّة لغالبية زملائه البريطانيّين ناتجة عن "خوفنا الوطنيّ العميق... الغزو من فاتح أجنبيّ". في نهاية آذار/ مارس 1946، ذهبت اللجنة إلى لوزان في سويسرا لكتابة تقريرها. واستأنفت "الإرغون" الأعمال العدائيّة بهجوم مدوٍّ آخر على شبكة السكك الحديديّة في 3 نيسان/ أبريل.[127]

[127] Crum, *Behind the Silken Curtain*, pp. 213, 170; Crossman, *Palestine Mission*, p. 42.

حينذاك، كانت أعصاب أعضاء اللجنة قد أُنهكت. شعرَ الأميركيّون أنّ بيفن تفوّق على ترومان. وتحت الضّغط المستمرّ من واشنطن، كانوا مصمّمين على الاكتفاء بدعم مطلب رئيسهم بشأن الهجرة وتجنيب بلادهم التورط أكثر. أزعج هذا الموقف نظراءهم البريطانيّين، لأنّه كان يعني أنّ الإدارة في فلسطين يجب أن تتعامل وحدها مع العنف الذي كان سيتسبّب فيه حتماً وصول مئة ألف مهاجر يهوديّ.

من ناحية أخرى، علمَ أعضاء اللجنة البريطانيّة أنّ بيفن كان يريد الإجماع؛ خشيَ كروسمان من أن يقود الخلاف حكومة الولايات المتحدة إلى سحب القرض بقيمة مليارات الدولارات. كما أنّهم استمعوا لأدلّة عبر الكاميرا من جنود بريطانيّين كبار في السنّ، قالوا لهم إنّ فرضض تسوية مُوالية للعرب ستكون أكثر كلفة بكثير من تسوية مؤيّدة لليهود. كان هذا مناقضاً لما قاله الجيش قبل بضعة أشهر، ولكنّه كان معقولاً تماماً؛ الجنازة التي أقيمت لاثنين من اليهود اللذين قُتلا خلال هجوم، والتي جرت أثناء إقامتهما في فلسطين، اجتذبتْ نحو ستين ألف شخص في صفوف المعزّين.

عندما بدا أنّ اللجنة قد تضطرّ إلى إصدار تقريرين، أو ثلاثة تقارير متضاربة، بادر أعضاء اللجنة البريطانيّين، بدافع الخوف من انقسام مفتوح مع الأميركيّين، إلى تقديم تنازلات. مقابل قبولهم الاقتراح بالسماح لمئة ألف يهوديّ بالدخول إلى فلسطين، وافق الأميركيّون على ضرورة أن يتضمّن التقرير بياناً مفصّلاً عن الإرهاب اليهوديّ، وتوصية باستئناف "الوكالة اليهوديّة" التعاون مع السلطات البريطانيّة، حتّى يتم التوصل إلى "قمع الإرهاب نهائيّاً". لم يتمكّن أعضاء اللجنة مجتمعين، الذين أعاقهم إدراكهم بأنّهم سيثيرون اضطرابات عنيفة في حال أيّدوا التقسيم، إلّا أن يُوصوا بضرورة استمرار الانتداب، في انتظار تدخُّل الأمم المتحدة. فقد أخفقوا في التوصّل إلى الحلّ الدائم الذي طُلب منهم العثور عليه.[128]

128 TNA, CAB 129/9, Report by the Anglo-American Committee of Inquiry, 20 April 1946.

في لندن، كان تأثير التقرير سيّئاً للغاية. ورغم دفاع بيفن عن اقتراحه عندما نُوقش في مجلس الوزراء، اعترف بنفسه بأنّه سيكون من المستحيل تنفيذه من دون دعم أميركيّ، وهذا ما أراد اقتراحه الآن. كانت الكلفة المحتملة للاستمرار بإدارة الولاية وحدها هائلة. وقدّر المستشار – الذي كان ذات يوم مؤيّداً متحمّساً للصهيونية – تلك الكلفة بمئة مليون جنيه إسترليني مُسبقاً، وما بين خمسة وعشرة ملايين جنيه إسترليني سنويّاً لاحقاً، في وقت كانت الحكومة فيه تجهد للحدّ من النفقات العسكريّة. كان حكمه: "لا يمكننا التفكير في ذلك". وافقه أتلي الرأي قائلاً إنّ اللجنة "تجاهلت مسؤوليّة الجميع باستثناء مسؤوليّتنا". وفيما كان يؤيّد جهود بيفن لدفع الولايات المتحدة إلى التصريح بكمّية الأعباء الماليّة التي تنوي تحمّلها، من الواضح أنّه لم يتوقّع نجاح وزير الخارجيّة. قال للحكومة: "الحقيقة أنّ الولايات المتحدة تسعى إلى تحقيق مصالحها على حسابنا".[129]

129 TNA, CAB 195/4, meeting of 29 April 1946.

كان تشاؤم أتلي مبنيّاً على أسس متينة. فعندما نُشر التقرير من جانبَي المحيط الأطلسي في 30 نيسان/ أبريل 1946، استغلّ ترومان موافقته على اقتراح الهجرة الخاصّ به. صرّح قائلاً: "يجب نقل هؤلاء الأشخاص البائسين بواسطة أكبر عمليّة شحن". لكنّه رفض التعامل مع التوصيات الأخرى التي كان البريطانيّون قد أصرّوا عليها، إضافة إلى قوله إنّها طرحت أسئلة تتطلّب "دراسة متأنّية".[130]

130 'Text of President Truman's Statement on Report by Committee on Palestine', *New York Times*, 1 May 1946.

جرّاء امتعاضه من انتقائيّة ترومان، لفت أتلي انتباه مجلس العموم في 1 أيار/ مايو إلى الجزء من التقرير الذي تجاهله الرئيس، ورفض قبول دخول هذا الكمّ من المهاجرين إلى حين تفكيك الجيوش غير القانونيّة وتسليم أسلحتها. أضاف قائلاً إنّ لـ"الوكالة اليهوديّة" دوراً مهمّاً في هذه العمليّة.[131]

131 'Government Studying the Palestine Report', *The Times*, 2 May 1946.

***

أُنشئت "الوكالة اليهوديّة" أساساً لتمثيل مصالح السكّان اليهود في فلسطين لدى سلطات الانتداب البريطانيّ. ولكن بحلول أيار/ مايو 1946 كانت قد تجاوزت دورها الاستشاريّ إلى حدّ كبير، وكانت تتصرّف على نحو مقلق بصفتها حكومة مؤقّتة، مع هيئة تشريعيّة مُنتخَبَة ومجلس وإدارات تنفيذيّة وجيش شبه سرّي خاصّ بها. صرّح رئيس الإدارة البريطانيّة في فلسطين، لدى مثوله أمام لجنة التحقيق، بأنّها "دولة داخل دولة" تعمل من أحد المقرّات التابعة للباوهاوس في جادّة جورج الخامس. وقال مسؤول كبير آخر لـكروسمان إنّ الوكالة تمكّنت من فضح وثائق بريطانيّة سرّية بعد يوم على صدورها.[132]

132 Rose, *'A Senseless Squalid War'*, p. 93.

في المقابل، كان البريطانيون يتجسّسون على الوكالة. وبحلول نهاية 1945، أثبتوا أنها كانت متواطئة بصورة ناشطة مع الإرهابيين. وأظهرت البرقيات التي تم اعتراضها ومصادرهم داخل المنظمة أن السلطة التنفيذية للوكالة قد وافقت على هجمات سكة الحديد في 31 تشرين الأول/ أكتوبر، واستجابت إيجابياً للمبادرة التي تقدمت بها "الإرغون" وعصابة "شتيرن"، والتي نقلتها وكالة الاستخبارات البريطانية، وتوصّلت إلى التنسيق مع كلتا المجموعتين لـ"تعيين مهمات لهما في ظلّ قيادتنا". وجد البريطانيّون أنّ رفض قائد الوكالة، ديفيد بن غوريون، إدانة العنف المتصاعد في

الولاية، أمرٌ فيه الكثير من الدلالات. في شهادته أمام لجنة التحقيق، لم يؤيّد بن غوريون سوى رفض وايزمان الهجمات الأخيرة. والتزم الخطاب القائل إنّ أيّ جهد تقوم به الوكالة لمنع الإرهاب سيكون "عديم الجدوى بسبب السياسة التي تنتهجها حكومة صاحب الجلالة"، والتي حمّلها مسؤوليّة "الوضع المأساويّ الذي نشأ في البلد". 133

133 'Sabotage and Violence in Palestine', *The Times*, 25 July 1946; Crossman, *Palestine Mission*, p. 139, 11 March 1946; MEC, Crossman Papers, Singleton, 'Public Security', 9 April 1946.

طوال ستّة أشهر، كان المفوّض البريطانيّ الأعلى في فلسطين يطلب من رئيسه، وزير المستعمرات جورج هال، سلطة تقديريّة لاتّخاذ إجراءات ضدّ الوكالة و"الهاجاناه"، ولكن في كلّ مرة كان يُواجَه طلبه بالرفض. ساهمت سلسلة الهجمات التي أعقبت مغادرة اللجنة الإنكليزيّة–الأميركيّة في تعزيز قضيّته. وفي 23 نيسان/ بريل 1946، هاجمت "الإرغون" مركز الشرطة في رمات غان، ما أسفر عن مقتل شرطيّ، لكنّها خسرت اثنين من مقاتليها: أحدهما قُتل وقُبض على الثاني الذي كان مصاباً بجروح بالغة. وكي لا يُتفوَّق عليها، هاجمت "شتيرن" موقف سيّارات الفرقة الجويّة السادسة في تلّ أبيب بعد يومين من ذلك، عند حلول الظلام، ما أسفر عن مقتل سبعة جنود، اثنان منهم كانا نائمين داخل خيمة. في الليلة التالية، انتقم أعضاء المليشيات، وارتكبوا الفظائع في البلدتيْن المجاورتيْن، فخرّبوا المنازل وضربوا اليهود الذين صادفوهم. كان يمكن للأعمال الانتقاميّة أن تكون أسوأ لو لم يَبْلُغ كبار الضبّاط أخبارٌ حول ما خُطّط له، فركّزوا قوّاتاً أخرى في الثكنات. في زيارة إلى لندن في منتصف أيار/ مايو، حذّر الجنرال المسؤول عن القوّات البريطانيّة في فلسطين من أنّ رجاله كانوا على وشك الانهيار، وأنّه في حال وقوع المزيد من الهجمات الإرهابيّة قد يكون من المستحيل كبح جماحهم.

جاءت الضربة الأخيرة في 18 حزيران/ يونيو. فبعد أن حُكم على اثنين من أعضاء "الإرغون" بالإعدام بسبب ضلوعهما في الهجوم، اختطف "الإرغون" خمسة ضبّاط بريطانيّين بينما كانوا يتناولون طعام الغداء في ناديهم في تلّ أبيب. واختُطف ضابط سادس بعد ذلك بمدة وجيزة في القدس في شارع جورج الخامس، الشارع نفسه الذي يقع فيه مقرّ "الوكالة اليهوديّة". كان المصير المحتمل للرهائن الستّة واضحاً. صرّحت "الإرغون" بأنّه في حال لم تُخفَّف أحكام الإعدام من البريطانيّين، "سنردّ على المشانق بالمشانق". 134

134 Hoffman, *Anonymous Soldiers*, p. 267.

بعد أن طالب المفوّض السامي مرّة أخرى بمنحه سلطة تقديريّة، أجرى وزير المستعمرات جورج هال مقابلة مع رئيس ''الوكالة اليهوديّة''، بن غوريون، الذي كان موجوداً في لندن في ذلك الوقت. رغم نفي الزعيم اليهوديّ أيّ ارتباط مع ''شتيرن'' و''الإرغون''، تهرّب من الجواب عندما سأله هال عن علاقة الوكالة بـ''الهاجاناه''. أقنع أخيراً نقلُ هال هذه المحادثة، في اليوم التالي أمام مجلس الوزراء، زملاءه بمنح المفوّض السامي السلطة لتنفيذ غارة على الوكالة. وقال الرئيس الجديد للموظّفين العامّين للإمبراطوريّة، برنارد مونتغمري، الذي أُعجب ويلكي بـ''شخصيّته التعصّبية بعض الشيء'' قبل ذلك بأربعة أعوام، بنبرة أكثر حديّة بعد تعيينه بعد بضعة أيّام: ''بما أنّ اليهود يوجّهون إلينا تحدّياً مباشراً، يجب أن يُهزَموا تماماً وكلياً، ويُقضى على منظّماتهم غير القانونيّة نهائيّاً''. 135

135 Cesarani, *Major Farran's Hat*, p. 39.

شنّ البريطانيّون ''عملية أغاثا'' فجر السبت 29 حزيران/ يونيو، فاقتحموا ''الوكالة اليهوديّة''، ومنازل مديريها التنفيذيّين وأعضاء معروفين في ''الهاجاناه'' ونخبة من وحدة الكوماندوز الخاصّة بها المعروفة بـ''البلماح''. فرغوا حمولة ثلاث شاحنات من الوثائق من الوكالة، ونفّذوا عمليّات اعتقال لنحو ثلاثة آلاف شخص، بمن فيهم ما يقارب نصف قوّات ''البلماح''. أسفرت عمليّات التفتيش المتزامنة في المستوطنات اليهوديّة عن مصادرة بضع مئات من البنادق، وما يقارب نصف مليون من الذخائر، وآلاف القنابل اليدويّة وقذائف الهاون. صاح الجنود البريطانيّون المتورّطون في هذه الحملات عند تعرّضهم للتهكّم من المستوطنين اليهود: ''ما نحتاج إليه هو غرف الغاز''. وجد اليهود الذين عادوا إلى المباني المدمّرة صلباناً معقوفة، وكتابات مرسومة على جدرانهم، منها: ''الموت لليهود''. وقد اعترف تقرير الفرقة الجويّة السادسة بأنّ العملية ''أفقدَتْنا ما تبقّى لنا من أصدقاء بين اليهود''، لكنّها أملتْ أن يكون الانقسام مؤقّتاً فقط. في الواقع، اتّضح أنّه سيكون نهائيّاً. 136

136 Hoffman, *Anonymous Soldiers*, pp. 282–3.

أدّى انتقاد ترومان السريع للغارة إلى إلقاء مسؤوليّة تبرير ما فعله على كاهل أتلي. فالعمليّة تمّت في لحظة حرجة، إذ كان من المقرّر أن يناقش الكونغرس، في غضون أيّام، هل ينبغي منح القرض البريطانيّ، وكان من المتوقّع أن يحسم التصويت بفارق ضئيل جداً. إزاء توقعات الصّحف حول أنّ بعض الممثّلين قد يتأثّرون بسلوك بريطانيا في فلسطين، أُرغم أتلي على الردّ. فبعد أن واجه

الانتقادات خلال نقاش جرى في وقت متأخّر من الليل بشأن سير العمليّة، قرّر رئيس الوزراء الإقرار بـ"وجود أدلّة لدينا – سأقدّم البراهين في الوقت المناسب – لوجود علاقة وثيقة للغاية بين 'الوكالة اليهوديّة' و'الهاجاناه'. لدينا أيضاً دليل على العلاقة الوثيقة بين 'الهاجاناه' و'الإرغون'".137

137 'Firm British Action in Palestine', *The Times*, 2 July 1946. 'Firm British Action in Palestine', *The Times*, 2 July 1946.

ترتّب على إقرار أتلي نتيجة مروّعة وغير مقصودة. فإثر قلقه حيال ما اكتشفه البريطانيّون تحديداً، واعتقاداً منه أنّه قد يكون من الممكن تدمير الأدلّة، أمرَ رئيس "الهاجاناه"، قائد "الإرغون"، مناحم بيغن، بتفجير فندق الملك داوود الذي كان يضمّ مقرّاً للبريطانيّين، وحيث كان من المفترض أنّه تم تحليل الملفّات التي تم الاستيلاء عليها في 29 حزيران/ يونيو. كان بيغن – الذي سيصبح رئيس وزراء إسرائيل – يخطّط لمثل هذه العمليّة منذ أشهر. في 22 تموز/ يوليو، تمكّن سبعة أعضاء من "الإرغون"، متنكّرين في زيّ باعة حليب عرب، من خرق أمن الفندق. نقلوا مضخّات اللبن التي كانت تحوي ربع طن من الموادّ الشديدة الانفجار داخل فندق ريجنسي، وهو ملهى ليليّ في الطابق السفليّ حيث جلس بارتليه كرام وزميله قبل أربعة أشهر وراحا يمتدحان روح اليهود الرياديّة، ثمّ أطلقا النار للخروج من الفندق، وهربا في سيّارة كانت مركونة عند المنعطف. أدّى انفجار قنبلة ثانية أصغر حجماً قبالة الفندق، عند الجهة الأخرى من الشارع، إلى تحويل انتباه قوّات الأمن التي وصلت إلى المكان، وقد تمّ، وفق "الإرغون"، تجاهل التحذيرات الهاتفيّة. انفجرت القنبلة الرئيسيّة الساعة 37.12 بعد الظهر. وقال أحد الشهود: "في البداية، حدث انفجار كبير. ثمّ بدا أنّ الزاوية الجنوبيّة الغربيّة للفندق بدأت تنتفخ، ثمّ انهارت مُحدثةً صوت هدير كبيراً، وتصاعد عمود ضخم من الدخان البنّي والرماديّ اللون. قُتل واحد وتسعون شخصاً، وأصيب ثلاثة وثلاثون آخرون بجروح. أبلغت صحيفة *New York Times*، في صباح اليوم التالي، قرّاءها بـ"قصف فندق تملكه شركة نيويورك".138

138 'Jerusalem Bomb Kills 41 in Attack on British Offices', 'Bombed Hotel Property of New York Corporation', *New York Times*, 23 July 1946.

كاد الانفجار أن يصيب رئيس الإدارة البريطانيّة في فلسطين، كبير الوزراء. كتب إلى كروسمان بعد أسبوعين:

> فقدتُ نحو مئة من أفضل ضبّاطي وأصدقائي القدامى. أعيش في فلسطين منذ أحد عشر عاماً. كان هؤلاء الناس يعنون الكثير لي، ليس الضبّاط البريطانيّين فقط، بل أيضاً الفلسطينيّين الأوفياء، ومن بينهم العديد من

اليهود. كان الشرطيّ الخاصّ المرافق لي رفيقي وصديقي الدائم لعشرين شهراً، وسائقي الأرمنيّ الخاصّ، والعديد من الأشخاص المتواضعين من هذا النوع، في عداد القتلى. ساعدتُ في استخراج جثثهم المتعفّنة النتنة، وحضرتُ نحو أربع عشرة جنازة في ثلاثة أيّام.[139]

139 MEC, Crossman Papers, Shaw to Crossman, 2 August 1946.

قال وزير المستعمرات جورج هال لزملائه في اليوم التالي للتفجير: ''نسبة كبيرة من العاملين لديّ ماتوا، أو فُقدوا، أو جُرحوا''. لقد أنزلت ''الإرغون'' بالإدارة البريطانيّة ضربة قاضية. بعد ذلك، ركّزوا على القضاء على أيّ إمكانيّة لمبادرة إنكليزيّة–أميركيّة، ومعها نسف آمال البريطانيّين بالتشبّث بفلسطين.[140]

140 TNA, CAB 195/4, meeting of 23 July 1946.

7

الصراع من أجل فلسطين

في 29 تموز/ يوليو 1946، بعد أسبوع من تفجير فندق الملك داوود، وجّهت جماعة أُطلق عليها اسم "الرابطة الأميركيّة لفلسطين الحرّة" تحدّياً مباشراً إلى ترومان في رسالة مفتوحة نُشرت في صحيفة *New York Post*. لحظت الرسالة مرور سنة منذ طلب الرئيس من أتلي السّماح لمئة ألف يهوديّ بالدخول إلى فلسطين من دون نتيجة.

> ينتظر مليون ونصف مليون عبريّ، الموجودون في أوروبا، داخل غيتوهات غارقة بالدماء، وفي مخيّمات النازحين، وعلى الطرق السريعة، وفي الموانئ البحرية. إنّهم ينتظرون إشارة من الولايات المتحدة، منكم يا سيادة الرئيس، أنّه لن يتم التخلّي عنهم، بل سيُمنحون الحقّ الأساسيّ في العيش بكرامة وحرّية.[141]

[141] TNA, CO 537/1738, *New York Post*, 29 July 1946.

إنّ التحدّي الذي وجّهته الرابطة، التي أسّسها رجل يطلق على نفسه بيتر بيرجسون، عائد جزئيّاً إلى تلمُّسها فرصة لاستغلال الوضع. حينذاك كانت رئاسة ترومان في ورطة. فمعدّلات البطالة كانت ترتفع والأجور تتقلّص، وكانت عمليّة التسريح تشهد تأخُّراً. مع اقتراب موعد انتخابات منتصف الولاية الذي كان بعد ثلاثة أشهر فقط، غربل أخصام ترومان الجمهوريّون رسالتهم واحتفظوا بكلمتين فقط نُشرتا على ملصقاتهم: "هل اكتفيتَ؟"

راهنت الرسالة الاستفزازيّة المفتوحة للرابطة على وجهة نظر تزداد انتشاراً ومفادُها أنّ ترومان كان يفتقر الديناميّة. فقد أشارت إلى أنّه منذ صدور تقرير اللجنة الإنكليزيّة–الأميركيّة في نيسان/ أبريل، لم يحقّق الرئيس أيّ تقدّم في مطالبته بالموافقة على دخول مئة ألف يهوديّ إلى الولاية. وأوضح أتلي أنّه لن ينفّذ توصيات اللجنة إلّا إذا نُزع سلاح الجماعات اليهوديّة السرّية العاملة في فلسطين. عقب ذلك، وبعد إصرار إتلي، وافق ترومان على مناقشة الأسئلة التي طرحها التقرير أوّلاً، وحلّها من لجنة من الخبراء البريطانيّين والأميركيّين.

عُرفت التوصية التي سُمّيت تيمّناً بالزعماء البريطانيّين والأميركيّين لهؤلاء الخبراء باقتراح موريسون–غرادي. أوصى هذا الاقتراح بأن تكون الأمم المتحدة هي الوصيّة على دولة اتّحادية تتألّف من مقاطعات عربيّة ويهوديّة، ولكنّه تعرّض إلى ضربة قاضية عندما سرب الخبر موظّفو غرادي، الذين لم يعجبهم الاقتراح، إلى *New York Times*. في 26 تموز/ يوليو، ذكرت الصحيفة أنّ الخطّة "ستمنح صلاحيّات قويّة لحكومة مركزيّة تسيطر عليها بريطانيا، تاركة القليل من الحكم الذاتيّ للمقاطعتيْن العربيّة والصهيونيّة المنفصلتيْن"، وذكرتْ في اليوم التالي أنّها تضمّنت منحة قدرها خمسون مليون دولار للعرب لضمان استمراريّة دولتهم. صدرَ إعلان "الرابطة الأميركيّة" في *New York Times* بعد يومين من ذلك.[142]

[142] 'Divided Palestine is urged by Anglo-US Cabinet Body, delaying entry of 100,000', *New York Times*, 26 July 1946.

كان هناك سبب حاسم آخر وراء القرار الذي اتّخذته "الرابطة الأميركيّة من أجل فلسطين الحرّة" بالتدخّل في هذه اللحظة بالذات. فبعد يوم من تفجير فندق الملك داوود، أصدر ترومان بياناً صريحاً دعا فيه "كلّ زعيم يهوديّ مسؤول" إلى الانضمام إليه في "إدانة القتل الوحشيّ للبشر". كما حذّر من أنّ الغضب "قد يؤخّر" الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين. كان لدى الرابطة أسباب وجيهة للقلق من النتائج العكسيّة التي ستترتّب على الاعتداء، والرغبة في تغيير الموضوع، لأنّها كانت تشكّل جبهة لـ"الإرغون"، المجموعة الإرهابيّة وراء التفجير. كان بيتر بيرجسون اسماً مستعاراً، فالاسم الحقيقيّ لمنظّم الرابطة هو هيلِل كوك.[143]

[143] 'Statement by Mr Truman', *The Times*, 24 July 1946.

***

كان كوك، ابن شقيق الحاخام الأكبر في فلسطين، قد انضمّ إلى "الإرغون" في الثلاثينيات، ثمّ جاء إلى الولايات المتحدة في 1940. كان سبب ذلك بسيطاً. على غرار بن غوريون، قرّر أنّ البلاد أساسيّة في تحقيق الطموحات الصهيونيّة، ويعود ذلك إلى سكّانها اليهود البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة من جهة، ومن جهة أخرى إلى التأثير الذي تمارسه الحكومة الأميركيّة في البريطانيّين كونها ملاذهم الأخير. بعد أن قرّر أنّ الصهاينة الأميركيّين فشلوا في الترويج للمصالح اليهوديّة بالزخم الكافي، شرعَ في سلسلة من الحملات التي تروّج لقضيّة واحدة، وقد صُمّمت لكسب الدعم الأميركيّ للصهيونية عبر تبنّي قضايا لا يمكن لأحد معارضتها بسهولة. كان الرجل وراء فكرة

إنشاء جيش يهوديّ، ثمّ لجنة طوارئ لإنقاذ يهود أوروبا، وأخيراً "الرابطة الأميركيّة من أجل فلسطين الحرّة" التي كان ينوي أن يساندها في تحويل فلسطين إلى دولة يهوديّة مستقلّة. كان هدف الرابطة الذي عكس تصاعد المواقف بين الصهاينة في الولايات المتحدة وفلسطين تحريك التعاطف والأموال لدعم "الإرغون"، بمقارنة صراع الصهاينة ضدّ البريطانيّين بحرب الأميركيّين من أجل الاستقلال قبل 150 عاماً. وورد في إعلان آخر دفعت ثمنه الرابطة: "إنّنا كدولة وُلدت من الثورة ضدّ النموذج نفسه من الاستبداد البريطانيّ، نعلم أنّه بغضّ النظر عن مدى جدّية ومرارة النضال، أنّ دايفد العبريّ هو الذي سيهزم غولياث البريطاني". فضَّل كوك كلمة "عبريّ" على "يهوديّ" لاعتقاده أنّها تتجنّب إثارة النعرات المُناهضة للساميّة، وتلقى أصداء لدى الأميركيّين البروتستانت الذين يرون أنّه من واجبهم مساعدة إسرائيل على استعادة أرض الميعاد.[144]

144 TNA, CO 537/1738, press advertisement, 2 July 1946.

كمنت عبقريّة كوك في قدرته على جذب تأييد كبير لكلّ من هذه الحملات. فبغية الضّغط على إدارة روزفلت، أقنع غي جيليت في نهاية 1943 بتقديم مشروع قرار يدعو الحكومة الأميركيّة إلى إنشاء وكالة خاصّة لمساعدة اللاجئين اليهود. كان جيليت الطويل القامة والأبيض الشعر والأنيق الملبس رجل الدولة الأكبر سنّاً، وطريدة مُغرية. حاول هذا الانعزاليّ المتزوّج بامرأة يهوديّة أن يسجّل اسمه للمشاركة في القتال من أجل البور ضدّ البريطانيّين في جنوب أفريقيا في شبابه، وكان عضواً في لجنة العلاقات الخارجيّة في مجلس الشيوخ. عندما جذب اقتراحه دعماً واسعاً – من ترومان وغيره – أُرغم روزفلت على تأسيس مجلس لاجئي الحرب في أوائل 1944. بعد أن خسر جيليت مقعده في ولاية أيوا في الانتخابات، في وقت لاحق من ذلك العام، قبلَ دعوة كوك ليكون رئيس "الرابطة الأميركيّة من أجل فلسطين الحرّة". ولهذا السبب، أعطى ترومان تفاصيل طلبه لأتلي في أيلول/ سبتمبر1945، وشجّعه على نشر الأخبار.

عندما تأسّست لجنة التحقيق الإنكليزيّة–الأميركيّة في أواخر ذلك العام، اشتبهت "الرابطة الأميركيّة" في كونها خدعة، وأنشأت هيئة ظلّ للدعوة إلى إنهاء الانتداب البريطانيّ وإنشاء دولة فلسطينيّة مستقلّة. بعدها، فوّضت جيليت على نحو استعراضيّ الذهاب إلى فلسطين "لضمان اتّفاق بين السكّان العبريّين وغير العبريّين الذين فُصلوا بصورة شكليّة من المكتب الاستعماريّ البريطانيّ".[145]

145 TNA, FO 371/52595, Halifax to Foreign Office, 6 March 1946.

لم يكن مستغرباً أنّ آخر ما أراده البريطانيّون هو وجود جيليت في فلسطين في الوقت نفسه لوجود اللجنة، وفي ربيع 1946، أحبطوا محاولته للقدوم إليها. ولم يتمكّن من التسلّل إلى البلاد، حيث هبط في 27 حزيران/ يوليو، إلّا بعد التفجير الفوضويّ لفندق الملك داوود، الذي ألقى السيناتور السابق مسؤوليّته على "اليد نفسها التي تنصّ السياسة البريطانيّة في فلسطين". فور وصوله إلى القدس حاملاً حقيبته في يده، ذهب مباشرة لاستطلاع ما ارتكبته "الإرغون"، ثمّ عاد إلى فندقه على متن شاحنة كانت تُستخدم لنقل الحطام بعيداً عن موقع التفجير.[146]

146 'Gillette Blames Policy', *New York Times*, 24 July 1946.

وصل جيليت في اليوم التالي على كشف الصّحف عن التفاصيل التي سُرّبت عن خطّة موريسون–غرادي لإقامة دولة فيدراليّة في فلسطين. شعرَ بالقلق من أن يستغلّ البريطانيّون التعاطف في أعقاب التفجير لفرض الخطّة بغضّ النظر عن الرأي الأميركيّ، ولذا أراد أن يبذل قصارى جهده لنسف المبادرة التي عرضت على اليهود دولة أصغر حتّى من خطّة التقسيم الأصليّة التي تم التباحث فيها عام 1937. ورغم اعتراض البريطانيّين على وجوده، تمكّن بعد أيّام قليلة من وصوله من تأمين اجتماع له مع المفوّض السامي الذي من الواضح أنّه لم يكن قادراً على مقاومة الفرصة لتوبيخه. لكنّ هذا الاجتماع ساهم في تعزيز مصداقيّة جيليت. بعد ذلك، أرسل الأميركيّ برقيّة إلى ترومان أعلن فيها أنّ "اقتراح دولة فيدراليّة في فلسطين سيؤدّي إلى تحويل هذه الأمّة من دولة مستقلّة خاضعة لانتداب مؤقّت إلى مقاطعة تابعة للإمبراطوريّة البريطانيّة".[147]

147 Barr, *A Line in The Sand*, p. 329.

صار بإمكان "الرابطة الأميركيّة" إعلان النصر عندما ظهرَ بعد أيّام رفضُ ترومان اقتراح موريسون–غرادي، ولكن في الواقع كان الرئيس قد اتّخذ قراره. ففي 30 تموز/ يوليو، أي اليوم التالي على ظهور الرسالة الاستفزازيّة للرابطة في *New York Post*، عقدَ اجتماعاً لمجلس الوزراء أعلن فيه تخلّيه عن المبادرة. وفي إشارة إلى رزمة البرقيّات السميكة التي وفدت من الصّهاينة وتهاجم اقتراح موريسون–غرادي، قال: "يسوع المسيح بذاته لم يتمكّن من إرضائهم عندما كان هنا على الأرض، فكيف يمكن لأيّ شخص أن يتوقّع أن أكون أوفر حظّاً؟".[148]

148 Oren, *Power, Faith and Fantasy*, p. 488.

***

إنّ زيارة جيليت لأسبوعين زوّدته بالكثير من الذخائر التي يمكنه استخدامها لدى عودته إلى الولايات المتحدة. رغم رفض البريطانيّين طلبه مقابلة الإرهابيّين اليهود المحكومين الموجودين في السجن، والمراقبة الشديدة التي منعته من مقابلة قادة "الإرغون"، رأى في ميناء حيفا السفن التي يستخدمها البريطانيّون لترحيل المهاجرين غير الشرعيّين إلى قبرص. كتبَ خبراً صحافيّاً واصفاً إيّاها بـ"سفن العبيد": "لم أعتقد أنّ السفن الأفريقيّة التي قرأتُ عنها في طفولتي كانت لتتكرّر في القرن العشرين". 149

149 Medoff, *Militant Zionism in America*, p. 152.

لدى عودته إلى دياره، توجّه جيليت إلى فرع الساحل الغربيّ للرابطة في لوس أنجلوس، وتحدّث عبر الإذاعة في شيكاغو، ونظّم المزيد من الاجتماعات العامّة في فيلادلفيا ونيويورك. عكست زيارة جيليت إلى لوس أنجلوس نجاح كوك في التماس الدّعم من عالم الاستعراض. وفي أيلول/ سبتمبر 1946، استغلّ كوك هذه العلاقات لدى عرض "الرابطة الأميركيّة" مسرحيّة جديدة في برودواي. كانت المسرحيّة بعنوان *A Flag is Born*، ومن تأليف بن هكت وتلحين كورت ويل، وكانت مدعومة من اللجنة الراعية التي شملت إليانور روزفلت وليونارد بيرنشتاين وعمدة نيويورك (أثارت طموحاتهم الانتخابيّة قلق ترومان في الخريف الماضي). تروي المسرحيّة قصّة ثلاثة من الناجين من معسكرات الاعتقال – زوجان مسنّان وشابّ اسمه دايفيد، لعب دوره ممثّل شاب واعد يُدعى مارلون براندو – يحاولون الوصول إلى فلسطين. عندما يموت الزوجان يفكّر دايفيد في الانتحار، وحينذاك يظهر ثلاثة جنود على خشبة المسرح يمثّلون "الإرغون" و"الهاجاناه" و"شتيرن". يقول له الجنود: "نحن نتكلّم... لغة السلاح"، ويعدونه بـ"انتزاع وطننا من المخالب البريطانيّة كما فعل الأميركيّون ذات يوم... تعالَ يا دايفيد وحاربْ من أجل فلسطين". اعترف هيشت أنّ المسرحيّة كانت "بروباغاندا واضحة ووقحة لعِرق جعلوه يشعر بأنّه حُرم حقوقه". استمرّت المسرحية أربعة عشر أسبوعاً في نيويورك قبل أن تجول عبر سلسلة من المدن الأميركيّة التي تضمّ أعداداً كبيرة من السكّان اليهود. 150

150 Hoffman, *Anonymous* Soldiers, p. 323; ‘Two Plays to Hold Premieres Tonight’, *New York Times*, 5 September 1946.

في ظلّ غياب أيّ إشارة على عقد صفقة بين ترومان وأتلي قريباً، كان الغرض من المسرحيّة جمع الأموال لنقل اللاجئين اليهود بصورة غير قانونيّة إلى فلسطين؛ جمعت نحو أربعمئة ألف دولار أميركيّ لهذه القضيّة. خُصّصت بعض هذه الأموال لشراء سفينة أُطلق عليها اسم SS Ben

Hecht، وقد انطلقت باتّجاه فرنسا في أواخر كانون الأول/ ديسمبر. أشار الكتيّب التذكاريّ للمسرحيّة، الذي وصلت نسخة عنه إلى جهاز الأمن البريطانيّ، إلى أنّ أرباح شبّاك التذاكر اشترتْ شيئاً آخر. فإلى جانب الغلاف الذي يشبّه الروّاد اليهود في فلسطين بالثوّار الأميركيّين في 1776، صُوِّر شعار ''الإرغون'': قبضة مشدودة تحمل بندقيّة فوق خريطة لفلسطين وشرق الأردن.[151]

151 TNA, CO 537/1738, MI5 to Trafford-Smith, 4 October 1946.

وكما خطّط كوك، ساعدت مسرحيّة *A Flag is Born* على إبقاء فلسطين على جدول الأعمال خلال الحملة الانتخابيّة لمنتصف الولاية في 1946. عندما وصلت معلومات إلى الديموقراطيّين حول أنّ الحاكم الجمهوريّ لولاية نيويورك، توماس ديوي، سيعلن دعمه الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين في 6 تشرين الأول/ أكتوبر، أصابهم الذعر. فرغم أنّ ديوي كان فقط يكرّر حديثاً أجراه قبل ثلاث سنوات، ظلّ المنافس الأكثر ترجيحاً لترومان في الانتخابات الرئاسيّة لعام 1948، وقد حثّ أحد مستشاري ترومان الرئيس على المزايدة عليه. في 4 تشرين الأول/ أكتوبر – عشيّة يوم كيبور وقبل يومين من تصريح ديوي المخطّط له – فعل ترومان ذلك، داعياً إلى إنشاء ''دولة يهوديّة قابلة للحياة''. بعد يومين من ذلك، رفع ديوي الرهان مطالباً بدخول ''مئات الآلاف'' إلى فلسطين. بعد سقوط ديوي المدوّي، ادّعى ترومان أنّ توقيت إعلانه الخاصّ لم يكن له أيّ علاقة بالتصويت. بعد بضعة أشهر، كشف بيفن أنّ ''الخارجيّة'' قالت له إنّه لا شكّ في أنّ الرئيس كان يحاول التفوّق على منافسه. أثار وزير الخارجيّة البريطانيّ الهتافات في مجلس العموم – وتوبيخاً من ترومان – عندما أوضح أنّه ''لن يستطيع تسوية الأمور على مستوى السياسة الدوليّة إذا كانت مشكلته مرتبطة بالانتخابات المحلّية''.[152]

152 Ottolenghi, ‘Harry Truman’s Recognition of Israel’, p. 970; ‘The Palestine Outlook: Mr Bevin on U.S. ”Pressure“’, *The Times*, 26 February 1947.

***

إنّ أحد الأسباب وراء سرعة غضب بيفن أنّه بحلول بداية 1947 كان واضحاً أنّ إستراتيجيّته للحفاظ على النفوذ البريطانيّ في الشرق الأوسط بدأت تتكشف بسرعة. وكان وزير الخارجيّة يأمل أن تؤدّي المحادثات الناجحة مع المصريّين إلى إثارة النيات الحسنة في العالم العربيّ، ما سيمكّنه من إغلاق قاعدة السويس ونقلها إلى الجانب الشرقيّ من قناة السويس فور توصّله إلى تسوية ملائمة في فلسطين. لكنّ المحادثات مع الحكومة المصريّة التي طالبت بها مصر انهارت في كانون

الثاني/ يناير بعد خلاف حول الوضع المستقبليّ للسودان، في حين أرادت بريطانيا الاستمرار في إدارتها. وكانت الفكرة القائلة إنّ اليهود سيتحمّلون وجوداً طويل الأجل لبريطانيا في فلسطين تبدو متفائلة جدّاً أيضاً.

بعد محاولة اتّباع نهج أكثر تساهلاً في أعقاب تفجير فندق الملك داوود، ثمّ التخلّي عنه عندما استأنفت "الإرغون" حملتها الدمويّة في خريف 1946، تم الضغط على أتلي من كبير المستشارين العسكريّين، مونتغمري، للموافقة على اتّخاذ "تدابير أقوى" في اجتماع وزاريّ في منتصف كانون الثاني/ يناير 1947. في 24 كانون الثاني/ يناير، أُثبت ما يعنيه هذا بالضّبط، عندما صدّق المفوّض السامي على حكم بالإعدام، صدرَ في وقت سابق من ذلك الشهر، على الرجل الجريح الذي أُلقي القبض عليه خلال الهجوم الذي نفّذته الشرطة في رمات غان في الصّيف الماضي. كان من المفترض شنق دوف غرانر بسبب ضلوعه في الهجوم، في غضون أربعة أيّام.[153]

[153] TNA, CAB 195/5, meeting of 15 January 1947.

كان غرانر رجلاً غير عاديّ ليستخدمه البريطانيون كعبرة لمن يعتبر، لأنّه انضمّ إلى الجيش البريطانيّ وقاتل من أجله في الحرب. استجابت "الإرغون" فوراً وبفعّالية بخطف قاضٍ بريطانيّ يُدعى رالف ويندهام بينما كان في قاعة المحكمة في تلّ أبيب يستمع لقضيّة "مملّة بعض الشيء". وإزاء حتميّة قتل ويندهام إذا ما شرعوا في شنق غرانر، استسلمت السلطات البريطانيّة. علّق المفوّض السامي حكم الإعدام، الأمر الذي منح غرانر مزيداً من الوقت للنظر في تقديم استئناف إلى مجلس الملكة الخاصّ في لندن، وهو أمر رفضه المُدان حتّى الآن. ثم هدّد سرّاً رئيس بلديّة تلّ أبيب وكبار الأعضاء التنفيذيّين في "الوكالة اليهوديّة" بأنّه ستُفرَض الأحكام العرفيّة إذا لم يبذلوا قصارى جهدهم لضمان إطلاق سراح القاضي. أفرجت "الإرغون" عن ويندهام سليماً في الليلة نفسها.[154]

[154] Rose, *‘A Senseless, Squalid War’*, p. 135.

في حين كان غرانر ينتظر داخل زنزانة الإدانة، سارعت الحكومة في لندن إلى وضع خطّة جديدة. قال بيفن لمجلس الوزراء في شباط/ فبراير الماضي: "لا يزال يتعيّن علينا إيجاد وسيلة للإمساك بالشرق الأوسط"، طارحَا اقتراحاً آخر بغية تحقيق هذا الهدف. لكنّ فكرته – مفادُها أنّ على بريطانيا أن تسعى الآن إلى حكم فلسطين ثنائيّة القوميّة لخمس سنوات أخرى كأمينة للأمم المتحدة – قُوبلت بالرفض الفوريّ من بن غوريون. وقد أدّت بداية فصل شتاء قاسٍ في بريطانيا، والنقص في الفحم، إلى تفاقم الشعور بالأزمة. بعد أسبوع عاد بيفن إلى مقرّ الحكومة في لندن

ليُوصي الأخيرة بإحالة القضيّة برمّتها على الأمم المتحدة. وأعلن في البرلمان في 18 شباط/ فبراير أنه لا ''إمكانية لحلّ هذا النزاع بأيّ تسوية يجري التفاوض حولها بين الطرفين''، وأنّ الانتداب لا يمنح بريطانيا أيّ حقّ بفرض تسوية تعسّفية، ولذلك المسار الوحيد المُتاح أمام الحكومة هو ''إخضاع القضية لحكم الأمم المتحدة''. ستحدّد بريطانيا المشكلة لكنّها لن تقدّم حلّاً. شكّلت الأمم المتحدة لجنة خاصّة معنيّة بفلسطين ستتوجّه إلى القدس في منتصف أيار/ مايو مع تعليمات بالإبلاغ عن النتائج التي ستتوصّل إليها قبل انعقاد الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في الخريف.[155]

155 HC Deb, 18 February 1947, Vol. 433, cc. 988–9.

***

شكّل إعلان بيفن، وإنْ متأخّراً، بداية النهاية لحكم بريطانيا في فلسطين. لكنّ هذا لم يكن ما قصده وزير الخارجيّة في ذلك الوقت. اعتقد أنّ اليهود لن يصدّقوه عندما قال إنّه سيُحيل المسألة على الأمم المتحدة، ولذا نفّذ ما هدّد به في محاولة لإعادتهم إلى طاولة المفاوضات. وكما قال لمجلس الوزراء، بشيء من الارتياح، في 15 شباط/ فبراير، إنّه منذ إعلانه بدأ الصهاينة "يلاحقوننا" ساعين إلى إيجاد حلّ مؤقّت، لأنّهم أرادوا تجنّب حالة غياب اليقين التي ستتسبّب فيها حتماً مشاركة الأمم المتحدة. وأعرب عن أمله في أن يؤدّي هذا الشعور بغياب اليقين إلى إثارة رغبة الصهاينة في التوصّل إلى تسوية.[156]

156 TNA, CAB 195/5, meeting of 14 February 1947.

بعد أيّام، أوضح الوزير الاستعماري تكتيكات الحكومة أكثر. فقد شرح أمام البرلمان أنّ بريطانيا ''لن تذهب إلى الأمم المتحدة لتسليم الانتداب. نحن ذاهبون إلى الأمم المتحدة لتحديد المشكلة وطلب المشورة بشأن كيفيّة إدارة الانتداب. في حال لم يكن بالإمكان إدارة الولاية بوضعها الحاليّ، نسأل عن كيفيّة تعديلها''. فهمت ''الإرغون'' طبعاً مضمون رسالته. وبعد أربعة أيام، قصفوا نادي الضبّاط البريطانيّين في القدس، قبالة مركز ''الوكالة اليهوديّة''، وداخل المنطقة التي يُفترَض أن تكون آمنة والتي وسّعها الجيش البريطانيّ بعد تفجير فندق الملك داوود. لاقى ثلاثة عشر شخصاً حتفهم، في حين أُصيب ستة عشر آخرون بجروح.[157]

157 HC Deb, 25 February 1947, Vol. 433, c. 2007.

أظهر موقع التفجير الأخير أنّ البريطانيين كانوا يخسرون المعركة. صار الإرهاب الآن خارج نطاق السيطرة. وكذلك الهجرة غير الشرعيّة. بفضل جمع التبرّعات من بعض المنظّمات، على

غرار رابطة كوك الأميركيّة، بدأ المهاجرون اليهود بالتوافد إلى فلسطين في سفن أكبر وأسرع. بحلول نهاية 1946، رصدت المخابرات البريطانيّة عشرين سفينة كانت على استعداد لنقل اللاجئين من المرافئ الأوروبيّة، وذكرَ تقييم لاحق أنّه على الأرجح يُعَدّ ما يقارب عشرين سفينة أخرى للرحلة نفسها.[158]

[158] TNA, FO 1093/420, 'Proposals for action to deter ships' masters and crews from engaging in illegal Jewish immigration traffic', 19 December 1946.

خلال الحرب، كان البريطانيّون قادرين على الصّعود والاستيلاء على أيّ سفينة يريدونها. ولكن في زمن السلم، كان القانون البحريّ الدوليّ سائداً، ما يعني أنّه كان بإمكانهم قيادة السفن داخل المياه الإقليميّة الفلسطينيّة فقط. في 1947، امتدّت الأخيرة على بعد ثلاثة أميال فقط من الشاطئ، وهي مسافة يمكن لسفينة تبلغ سرعتها عشرين ميلاً قطعها خلال تسع دقائق فقط. نتيجة ذلك، أصبحت البحريّة الملَكيّة التي كانت مسؤولة عن دوريّات على طول الساحل أشبه بحارس المرمى الذي يحاول صدّ ضربة جزاء.

بعد أن صرّح الوزير الاستعماريّ بأنّ الوقت حان "لتجريب وسائل أخرى" للدفاع عن الساحل الفلسطينيّ، اقترحت المخابرات البريطانيّة مجموعة من الإجراءات لردع المهاجرين عن الإبحار في المقام الأوّل. في شباط/ فبراير، وافق بيفن على تدمير السفن التي أُعِدّت لنقل المهاجرين اليهود إلى فلسطين، في الميناء، وتلويث مياه السفن والإمدادات الغذائيّة، وعلى حملة ترويج للإشاعات "لبثّ الذعر في صفوف البحّارة المحتملين" بإسناد مهمة مهاجمة السفن بهذه الطريقة إلى "بعض المنظّمات العربيّة السرّية النافذة". تعرّضت خمس سفن لهجوم بهذه الطريقة.[159]

[159] TNA, CAB 195/5 meeting of 19 December 1946; TNA, FO 1093/420, 'Proposals for action to deter ships' masters and crews from engaging in illegal Jewish immigration traffic', 19 December 1946, 'C' to Hayter, 19 December 1946.

رغم الصّعاب، تمكّنت البحريّة الملَكية من إيقاف عدد من السفن الأخرى قبل وصولها إلى فلسطين. كانت إحداها Ben Hecht، السفينة التي دفعت كلفتها مسرحيّة *A Flag is Born*. في آذار/ مارس، تم اعتراضها قبالة فلسطين رافعة علم الهندوراس ومُدّعية بصورة لا منطقيّة أنّها متّجهة إلى تشيلي. اعتُقل ركّابها في قبرص، وسُجن طاقمها. بدلاً من مواجهة المحاكمة، رُحِّلوا في نهاية المطاف بعد أن ساعدت "الرابطة الأميركيّة" ما سيُعرف لاحقاً بنقابة مشغّلي السفن في واشنطن.

في غضون ذلك، تأرجحت السياسة البريطانيّة. فبعد الهجوم على نادي الضبّاط البريطانيّين، فرض المفوّض السامي القانون العرفيّ في جميع أنحاء البلاد. كانت "الإرغون" على قناعة بأنّ هدف بريطانيا هو إثبات سيطرتها على فلسطين من أجل إقناع الأمم المتحدة بضرورة الاعتراف بها رسمياً حاكمة للبلاد، ولذا بادرت بالانتقام. بعد نحو ثلاثين هجوماً، قُتل فيها ثلاثة أشخاص آخرين وأصيب العشرات بجروح، أجرى المفوّض السامي انعطافاً بعد أسبوعيْن فقط. رغم الانزعاج في لندن إزاء الإشارات التي قد ترسلها هذه الخطوة، فإنّ الحكومة أدركت بسرعة أنّ الانعطاف هو المسار الصحيح. لكنّ قانون الأحكام العرفيّة يعزل اليهود أنفسهم الذين لولاهم لم يكن لديهم أيّ فرصة لهزم الانتفاضة. فالمشكلة لم تقضِ، كما لاحظ أتلي، بإزالة حالة الطوارئ، ولكن بفرضها في المقام الأوّل، الأمر الذي "لم يتنبّه إليه الناس فوراً".[160]

160 TNA, CAB 195/5, meeting of 20 March 1947.

من المفارقة أنّ إنهاء قانون الأحكام العرفيّة قاد البريطانيّين إلى اتّخاذ الخطوات الأكثر قساوة حتّى الآن، مع استئناف المسار القانونيّ المدنيّ. نتيجة لذلك، ودون سابق إنذار، شُنق دوف غرانر في 16 نيسان/ أبريل في سجن عكّا. قالت "الرابطة الأميركيّة من أجل فلسطين الحرّة" في إعلان نشرته في الأسبوع نفسه: "إنّها لَجريمة قتل دنيئة"، داعية القرّاء إلى "بناء صرح تذكاريّ لدوف غرانر" بالتبرّع لـ"الحملة من أجل حرّية فلسطين". "سيسمح مبلغ سبعة ملايين وخمسمئة ألف دولار أميركيّ، إن استُخدم في الأماكن الصحيحة، بالفوز في المعركة من أجل فلسطين... لن يعتمد هذا الانتصار على الصدَقة، أو المديح الصّحافي في الصحافة العالميّة. سيفوز به العبرانيّون الذين قاتلوا بدمائهم وشجاعتهم... ودولاراتكم". "غزا المحتجّون القنصليّة البريطانيّة في نيويورك، وخلال تجمّع مانهاتن، لقّب حاخام – كان معارضاً لـ"الإرغون" – غرانر بـ'ناثان هيل جديد'".[161]

161 TNA, CO 537/2314, 'Build Dov Gruner's Memorial'; Medoff, *Militant Zionism in America*, p. 176.

بعد نشر إعلان محرِّض آخر كتبه بن هكت يشيد فيه بإنجازات "الإرهابيّين في فلسطين"، بادر البريطانيّون إلى الاحتجاج. فاتصّل السكرتير الدائم في "الخارجيّة" بالسفير الأميركيّ، وعلى ما يبدو توسّل إلى الحكومة الأميركيّة التوقّف عن الادّعاء أنّه لا يمكن فعل أيّ شيء لوقف ما آلت إليه الأمور من تحريض. تصدّرت شكوى بريطانيا *New York Times*، الأمر الذي منح هكت دعاية أكبر. رغم إصدار ترومان دعوة في حزيران/ يونيو يحثّ فيها المواطنين الأميركيّين على "الامتناع... عن تسهيل، أو الانخراط في أيّ نشاطات من شأنها إثارة المزيد من النعرات لدى سكّان

فلسطين''، صرّحت ''الرابطة الأميركيّة'' أنها ستتجاهل دعوته، واعترفت الحكومة الأميركيّة أنّها لن تستطيع فعل أيّ شيء. رغم أنّها فرضت رقابة على فيلم ترويجيّ أنتجته ''الإرغون''، فإنّها لم تستطع وضع حدّ للإعلانات الصحافيّة، ولن تنزع الصفة الخيريّة عن بعض الجماعات، كـ''الرابطة الأميركيّة''، التي تعفيها من دفع الضرائب، خوفاً من إثارة الفوضى.[162]

162 TNA, CO 537/2314, FO to Washington, 22 May 1947; 'Halt in Palestine Agitation Here Requested by Truman', *New York Times*, 6 June 1947.

ساهم هذا الجمود في تمكين مواصلة جمع التبرّعات. في الواقع، كان كبار المسؤولين في نيويورك يساعدون الجماعات على جمع الأموال. وأبلغت امرأة عملتْ في قسم الدعوات العامّة في المدينة ديبلوماسيّاً بريطانيّاً أنّ ''الموظّفين الرفيعي المستوى'' يلجؤون في أحيان كثيرة إلى ''تكييف القوانين، لتمكين الجماعات اليهوديّة من الحصول على المزيد من الأيّام لجمع الأموال، وكذلك حجز التواريخ مُسبقاً للمجموعات المميّزة''. في ذا برونكس، ضغط جامعو التبرّعات الصهاينة على السكّان للحصول على تبرّعات لشراء الأسلحة، ووضعوا الصلبان المعقوفة على أبواب أولئك الذين يرفضون ذلك. ''إنّ الإرغون... حصلت على معظم دعمها الماليّ من هذا البلد''، وفقاً لاعتراف ضابط في ''وكالة المخابرات المركزيّة''، في 1948. [163]

163 TNA, CO 967/103, Robey to Bromley, 9 September 1947; Eveland, *Ropes of Sand*, p. 32; Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 194.

بعد أن ألحقوا ضرراً كبيراً بسمعتهم في الولايات المتحدة نتيجة إعدام دوف غرانر، أبعد البريطانيّون فوراً بعدها ما تبقّى لديهم من مناصرين أميركيّين. ففي 12 تموز/ يوليو 1947، انطلقت سفينة تحمل اسم Exodus من مرسيليا إلى فلسطين. كانت هذه السفينة في الماضي باخرة ترفيهيّة أبحرت ذات مرّة على طول خليج تشيسابيك، فاشترتها ''الهاجاناه'' وحدّثت محرّكها لتمنحها الإمكانيّة القصوى لتجاوز الدوريّات الساحليّة البريطانيّة. كان على متنها أكثر من 4500 راكب، بمن في ذلك عدد غير متناسب من النساء الحوامل، والأمّهات مع الأطفال الصّغار والمُسنّين والمرضى. اختيروا عمداً من ''الهاجاناه'' التي كانت تعرف مُسبقاً مدى الغضب الذي ستثيره معاملتهم عندما يحاول البريطانيّون صدّهم، وهذا ما حدث بالضبط.

بعد أن رفضت لندن منح المخرّبين التابعين للاستخبارات البريطانيّة الذين كانوا على متن يخت مُجارٍ لـ Exodus إذناً بتفجير السفينة، في 17 تموز/ يوليو، صدمت مدمّرتان بريطانيّتان الباخرة بينما كانت لا تزال وسط المياه الدوليّة. بينما كان القبطان يذيع تعليقاً متواصلاً إلى المتعاطفين

الموجودين على الشاطئ، صعد البحّارة البريطانيّون إلى السفينة من أجل السيطرة عليها، فقتلوا ضابط السفينة الأميركيّ واثنين من الركّاب في هذه العمليّة، ثمّ سحب المخرّبون السفينة التي كانت تتّجه الآن إلى الميناء. وبما أنّه لم يعد هناك أيّ مكان في معسكر الاعتقال في قبرص حيث كان البريطانيّون يأوون في السابق مهاجرين غير شرعيّين، قرّرت الحكومة البريطانيّة اللجوء إلى الممارسة القديمة المتمثّلة بـ"الإعادة القسريّة"، أو العودة إلى الجذور. فأنزل الجنود المسلّحون البريطانيّون الركّاب في حيفا، وعملوا على تحميلهم في ثلاث سفن كانت تنتظر لإعادتهم إلى فرنسا. وفقاً لمراسل صحافيّ أميركيّ، "بدا الأمر كأنّهم خرجوا للتوّ من معركة كبيرة".[164]

164 '3 Slain on Zionist Vessel as Refugees fight British', *New York Times*, 19 July 1947.

حتّى ذلك الحين، كانت اللجنة الخاصّة التابعة للأمم المتحدة موجودة في فلسطين. بعد تلقّيها إبلاغاً من "الهاجاناه" و"الوكالة اليهوديّة"، وصل رئيسها وزميل له إلى رصيف الميناء في الوقت المناسب ليشهدوا على هذه الحادثة. كان لمشهد الأمّهات والأطفال الذين أُنزِلوا عنوة خارج السفينة تأثير عميق في كلا الرجليْن، ما عزّز لديهما الانطباع بأنّ البريطانيّين خرجوا تماماً عن الطريق السليم.

بحلول ذلك الوقت، كان أعضاء اللجنة موجودين في فلسطين منذ شهر. عندما وصلوا، كان قد انتشر في الصّحف خبر فضيحة غير عاديّة: اتُّهم جنديّ بريطانيّ يُدعى روي فران بقتل تلميذ وجده يعلّق إعلانات لعصابة "شتيرن". وكان البريطانيّون قد حكموا للتوّ بالإعدام على ثلاثة أعضاء آخرين في "الإرغون". عندما طالب المفوّضون بالعفو عنهم، طلب منهم البريطانيّون تجنب التدخّل. نُفّذت عمليّات الإعدام الثلاث في 29 تموز/ يوليو فوراً بعد مغادرة اللجنة.

انتقمت "الإرغون" مرّة أخرى بالطريقة نفسها. فكما فعلت مع القاضي ويندهام، اختطفت بعد التأكّد من أحكام الإعدام رقيبيْن بريطانيّيْن يعملان في المخابرات العسكريّة عندما كانا مجتمعيْن مع زميل لهما. لكن على عكس ما حدث مع ويندهام، لم يُطلَق سراح أيّ رجل. بدلاً من ذلك، في اليوم الذي تلى الإعدام، أصدرت المجموعة إبلاغاً يستخدم المصطلحات القانونيّة البريطانيّة على نحو ساخر، تعلن فيه اتّهامهما بالدخول غير المشروع إلى البلاد والحيازة غير المشروعة للأسلحة الناريّة، وإعدامهما. في اليوم التالي، اكتُشفت جثّتا الرقيبيْن معلّقتين في بستان من شجر الكينا، وقد عُلّق قرار "حكمهم" في جلدهم. نشرت صحيفة *Daily Express* صورة لهذا المشهد على صفحتها الأولى تحت عنوان: "بريطانيّون على حبل المشنقة: الصّورة التي ستصدم العالم". اتّضح

أنّ هذا التوقّع لم يتحقّق. فبينما ساهم نقل التقارير الصحافيّة لجرائم القتل في إثارة أعمال شغب مُناهضة للساميّة في أكثر من اثنتي عشرة بلدة ومدينة في بريطانيا هذا الصّيف، تصدّرت الصحف في الولايات المتحدة أنباء الانتقام البريطانيّ بدلاً من المصير المروّع للرجليْن اللذين أمضيا قرابة أسبوعيْن مسجونيْن تحت الأرض قبل أن يُعدما.

في غضون ذلك، وصلت السفن الثلاث التي تقلّ ركاب Exodus إلى فرنسا. ولم يقبل سوى واحد وثلاثين من الأشخاص الذين كانوا على متنها دعوة من الفرنسيّين للنزول. وتجاهل الباقون تهديد بريطانيا بشحنهم إلى ألمانيا إذا لم يفعلوا ذلك. غادرت السفن الثلاث فرنسا في 23 آب/ أغسطس متّجهة إلى هامبورغ. هناك، استخدم ألف جنديّ بريطانيّ خراطيم المياه والهراوات والغاز المُسيّل للدموع لإنزال الركّاب من السفن، في حين بُثّتْ موسيقا صاخبة عبر مكبّر للصّوت في محاولة لحجب صرخات الاحتجاج.

أكّدت المشاهد العنيفة ما سبق أن قرّره معظم أعضاء اللجنة الخاصّة التابعة للأمم المتحدة، وهو وضع حدّ للانتداب في أقرب وقت، وتقسيم فلسطين إلى دولتيْن منفصلتيْن: عربيّة ويهوديّة، بعد مرحلة انتقاليّة. لكن قبل أن تتمكّن الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة من مناقشة هذا الاقتراح، تصرّفت الحكومة البريطانيّة بتسرّع.

رأى أتلي أنّ اقتراح اللجنة لم يكن عادلاً للعرب، وغير قابل للتطبيق، وشعرَ زميله هيو دالتون بالقلق إزاء أعمال الشغب المُناهضة للساميّة، التي شُوهدت في ذلك الصيف. من الواضح أنّه لم يكن لدى الولايات المتحدة رغبة في ضمان التوصّل إلى تسوية، وبات واضحاً أنّ فلسطين عديمة الفائدة كقاعدة لها. في مقرّ الأمم المتحدة، في 26 أيلول/ سبتمبر 1947، أعلن وزير المستعمرات أنّه في حال مضت الأمم المتحدة قدماً في اقتراح لا يتمتّع بدعم عربيّ ويهوديّ، ستنسحب بريطانيا من فلسطين من جانب واحد في أيار/ مايو المقبل تاركة وراءها "نوعاً من السلطة البديلة" لتنفيذ القرار. لم يكن هناك رغبة لدى الحكومة في أن تكون المسؤولة عن إمساك زمام الأمور خلال عمليّة ستكون حتماً دمويّة.[165]

165 'British Statement to UN on Palestine', *The Times*, 27 September 1947.

نُوقش اقتراح التقسيم الذي كان بحاجة إلى غالبية الثلثيْن لاعتماده كقرار، وذلك في تشرين الثاني/ نوفمبر، في الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في نيويورك. حينذاك، كان الصهاينة قد وافقوا على أنّها

نتيجة جيّدة يمكنهم الحصول عليها في الوقت الراهن. لكنّ التصويت لمصلحة التقسيم لم يكن في أيّ حال من الأحوال نتيجة مؤكّدة.

ما إن بدأ النقاش، وعندما صار واضحاً أنّ قرار التقسيم لم يحصل على الغالبية الكافية لضمان تمرير القرار، بادرَ رجلٌ إلى التحرّك. كان برنارد باروخ، السفير الأميركيّ في لجنة الطاقة الذرّية التابعة للأمم المتحدة، وكان سمساراً في البورصة، طويل القامة ومهيباً وثريّاً للغاية، اشترى فعليّاً دوره الديبلوماسيّ بالمساعدة في تمويل المرشّحين الديموقراطيّين المتنافسين للرئاسة منذ وودرو ويلسون. كان بحقّ ساحراً ماليّاً. وهو من ابتكر خطّة "الدفع والتحميل" التي مكّنت روزفلت من مساعدة تشرشل قبل مساعدات الإعارة والاستئجار، والذي دعا إلى تطوير صناعة المطّاط الصناعيّ التي تسبّبت في اصطدام كبير بين البريطانيّين والأميركيّين في الشرق الأوسط.

لم يكن دعمُ باروخ لـ"الإرغون" عبر "الرابطة الأميركيّة لفلسطين الحرّة" ذائعاً بالقدر نفسه. ففي الوقت الذي باشر فيه الآخرون الانفصال عن الرابطة بسبب إعلاناتها المثيرة للجدل، قصد باروخ كاتب تلك الإعلانات، بن هكت، وقال للكاتب المسرحيّ: "أنا أؤيّدك. اعتبرْني أحد مقاتليك اليهود الذين يحملون بنادقهم الطويلة وسط العشب العالي".[166]

166 Hecht, *A Child of the Century*, p. 612.

قرابة 26 تشرين الثاني/ نوفمبر، بينما كان يجري التباحث في قرار التقسيم، زار باروخ السفير الفرنسيّ لدى الأمم المتحدة، وحذّره من أنّ فشل فرنسا في دعم القرار سيعرّض الأموال، التي كانت الولايات المتحدة تنوي استخدامها لتمويل إعادة إعمار البلاد، للخطر. كان الفرنسيّون متردّدين، ولذا فعل الضّغط فعله. وفي 29 تشرين الثاني/ نوفمبر، صوّتت فرنسا لمصلحة التقسيم. كذلك فعلت جاراتها، بلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا، ونتيجة لذلك اعتُمد اقتراح التقسيم بفارق ضيّق.

بعد ذلك، اعترف ترومان بأنّه تعرّض "لضغط مستمرّ" من "عدد قليل من القادة الصهاينة المتطرّفين" الذين اقترحوا "الضّغط على الدول ذات السيادة للحصول على أصوات مؤيّدة في الجمعيّة العامّة". لكنّه نفى استسلامه لهذه الضغوط أو محاولته إجبار دول أخرى قبل التصويت. "لم أوافق أبداً على ممارسة فرض الأقوياء لإرادتهم على الضّعفاء"، على حدّ ادعائه. لكنّ نشاط باروخ يتناقض مع ادّعائه. فإمّا أنّ الرئيس كان يكذب، وإما أنّه لم يكن على علم بما كان يخطّط له سفيره الخاصّ.[167]

167 Truman, *Memoirs*, Vol. II, pp. 168–9.

***

أثار قرار بريطانيا المُفاجئ، غسلَ يديها من المشكلة والعنف المتصاعد في فلسطين، قلقَ الحكومة الأميركيّة. نتيجة تخوّفه من أن يجذب اندلاع الحرب القوّات السوفياتيّة إلى الشرق الأوسط تحت رعاية الأمم المتحدة، وجّه وزير الخارجية الجديد جورج مارشال في 20 آذار/ مارس 1948، نداءً أخيراً إلى البريطانيّين للبقاء، قائلاً إنّ الولايات المتحدة ستدعم الآن السيطرة البريطانيّة المستمرّة بصفتها أمينة للأمم المتحدة.

كانت نيّة مارشال محاولة منع السوفيات من كسب نفوذ في فلسطين، لكنّ بيفن الذي كان لا يزال غاضباً إزاء تحوّل هذه القضية إلى لعبة كرة قدم في السياسة الأميركيّة، لم يتأثّر إزاء ذلك. فقد قال لزملائه في الحكومة بعد يوميْن إنّ الأميركيّين "يرون الآن ما كان ينبغي رؤيته قبل أن يدعموا التقسيم... ذلك هو نتيجة السماح للضرورات الانتخابيّة الأميركيّة بالتأثير في السياسة الخارجيّة للولايات المتحدة". وقال إنّه يتوقّع الآن أن يخلق اليهود دولة، وأن يحتلّ جارهم عبد الله ملك الأردن تلك الأجزاء من فلسطين التي لم يتمكّن الصهاينة من السيطرة عليها. كما قال لزملائه في اليوم الذي غسلوا فيه أيديهم من المشكلة: "لا أعتقد أنّه ينبغي لنا استخدام القوّات البريطانية للتحقّق من تطوّر الأحداث وفق هذا المسار"، مُضيفاً: "الطبيعة قد تقسّم فلسطين".[168]

168 TNA, CAB 195/6, meeting of 22 March 1948.

وصلت بريطانيا إلى فلسطين عام 1917 واعدة بـ"نظام جديد". بعد ثلاثة عقود، في 14 أيار/ مايو 1948، نفذّوا تهديدهم وغادروا. بدأت الحرب العربيّة–الإسرائيليّة الأولى في اليوم التالي. أعلن الإسرائيليّون دولتهم التي اعترف بها ترومان فوراً. واستولى الملك عبد الله على الأرض في الضفّة الغربيّة التي كان يطمع فيها، في حين حاولت مصر وسوريا والعراق دفع اليهود باتّجاه البحر، وفشلت فشلاً ذريعاً في ذلك. عندما سادت الهدنة أخيراً، بعد نحو عام، كانت إسرائيل والأردن هما الرابحتيْن. أمّا الخاسرون، فكانوا الفلسطينيّين الذين تشتّتوا في أنحاء الدّنيا الأربع.

القسم الثاني

تنازلات مهمّة 1947 - 1953

8

كلّ الآمال في سلّة واحدة

في أوائل 1947، عندما أدرك إرنست بيفن أنّ إستراتيجيّته الشرق–أوسطية كانت تتداعى من حوله، بدأ يُولي اهتماماً بإمكانات رجل آخر تعود علاقته بالبريطانيّين إلى أكثر من ثلاثين سنة.

بدأت علاقة بريطانيا بعبد الله، ملك الأردن، على نحو مشؤوم. ففي شباط/ فبراير 1914، بينما كان مارّاً بالقاهرة، سأل عبد الله البريطانيّين هل بإمكانهم تزويد عائلته، الهاشميّين، بالأسلحة، ليتمكّنوا من خوض الثورة ضدّ الأتراك. لكن في تلك المرحلة، كان البريطانيّون ما زالوا يناورون مع الألمان لكسب صداقة الأتراك، فأجابوه بالنفي.

عندما انحازت تركيا لاحقاً إلى ألمانيا بعد اندلاع الحرب العالميّة الأولى، ودعا سلطانها المسلمين في جميع أنحاء الإمبراطوريّة البريطانيّة إلى التمرّد على أسيادهم، أعاد البريطانيّون النظر في عرض عبد الله. وقد حملتهم مكانة الهاشميّين على وجه الخصوص – كان والد عبد الله، الشريف حسين، حاكم مكّة، وكان وأتباعه يتحدّرون مباشرة من نسل محمد – إلى التساؤل هل الثورة في قلب العالم الإسلاميّ تساعد على تقويض دعوة السلطان إلى الجهاد. بعد أن قطعوا على الشريف حسين وعداً سخيّاً، تعمّدوا إبقاءه ملتبساً، بمنحه إمبراطوريّة ما بعد الحرب التي تشمل شبه الجزيرة العربيّة والأراضي الممتدّة إلى شمال الحدود السوريّة الحديثة مع تركيا، انتفض الشريف على العثمانيّين في 1916. رغم التقلّبات التي شهدها هذا التحالف، فإنّه ظلّ قائماً منذ ذلك الحين.

سيلعب عبد الله مجرّد دور صغير في الثورة. وقد وصفه توماس إدوارد لورانس بأنّه شخص غير موثوق به إلى حدّ كبير، ولذا همّشه البريطانيّون لمصلحة شقيقه الأصغر فيصل. ولم يأخذه البريطانيّون على محمل الجدّ إلّا بعد انتهاء الحرب. عندما أخرج الفرنسيّون فيصل من سوريا، وانتقل عبد الله مهدّداً إلى المنطقة الشرقيّة من ولاية بريطانيا الجديدة في فلسطين، باتّجاه المنطقة التي خسرها شقيقه للتوّ، نصّبه تشرشل – الذي كان مسؤولاً عن ولايات بريطانيا الجديدة في الشرق الأوسط – فوراً أميراً على شرق الأردن لتفادي خطر نشوب صراع مع الفرنسيّين. في البداية، كان ذلك ترتيباً مؤقتاً، لكن استمرّ عبد الله في حكم شرق الأردن للسنوات الخمس والعشرين القادمة. نيابة

عنه، أنشأ البريطانيّون وموّلوا فيلقاً عربيّاً – قوّة قوامُها اثنا عشر ألف جنديّ بريطانيّ – جعلت منه الحاكم الأقوى في المنطقة.

لكن لا المملكة ولا الجيش صرفا انتباه عبد الله عن مسعاه الأساسيّ. فبحلول الوقت الذي حصلت فيه الأردن على استقلالها في آذار/ مارس 1946، وشارف الحكم الفرنسيّ في بلاد الشام على نهايته، كان يتباحث سرّاً مع "الوكالة اليهوديّة" حول موضوع الاستيلاء على سوريا، وسيتحدّث علناً عن مطامعه. فقد صرّح لصحيفة مصريّة في ذلك الصيف: "لا وجود لسوريا كبيرة أو صغيرة، هناك بلد واحد يحدّه البحر من الغرب وتركيا من الشمال والعراق من الشرق والحجاز من الجنوب، هو سوريا". كان من الواضح تماماً أنّه يرغب في أن يكون حاكماً عليها.[169]

[169] Seale, *The Struggle for Syria*, p. 13.

***

في حين أنّ إيدن لم يُولِ اهتماماً كبيراً لفكرة "سوريا الكبرى" التي دافع عنها اللورد موين خلال الحرب، بحلول أوائل 1947، لم يعد بإمكان بيفن السماح لنفسه باتّخاذ هذا الخيار. فبينما كانت إستراتيجيّته الشرق–أوسطيّة تتفكّك من حوله، كان الميل إلى دعم الملك عبد الله يتزايد. وكما لاحظ تشرشل ذات مرة، كان الملك الجديد الحاكم العربيّ الوحيد الذي كان مخلصاً للبريطانيّين طوال الحرب.

في الأردن، كان المستشار البريطانيّ الأكثر موثوقية لدى عبد الله هناك هو السفير البريطاني أليك كيركبرايد الذي قاتل إلى جانب لورانس خلال الثورة العربيّة، والذي كان الملك يعرفه منذ أكثر من ربع قرن. عندما بدأ كيركبرايد يتحجّج في نهاية 1946 بأنّ دولة الأردن الجديدة ستحتاج إلى استيعاب الأجزاء العربيّة من فلسطين لتضمن استمراريّتها، أولى بيفن اهتماماً بذلك. وفي كانون الثاني/ يناير 1947، قبل وقت قصير من إعلانه إحالة قضيّة فلسطين على الأمم المتحدة، أخبر وزير الخارجيّة زملاءه خلال اجتماع لمجلس الوزراء أنّه ما دامت فلسطين العربيّة لن تكون قادرة على الاستمرار بمفردها، فإن الحكومة البريطانيّة قد "تدرس إمكانيّة انصهارها مع الدول العربيّة الأخرى". منذ ذلك الحين، ستدعم الحكومة البريطانيّة ضمنيّاً طموحات الملك الواسعة. وكما ورد على لسان كيركبرايد في رسالة موجّهة إلى لندن: "إنّ بريطانيا تضع كلّ آمالها في سلّة واحدة، إذ ليس هناك أيّ جهة أخرى لتعوّل آمالها عليها".[170]

[170] TNA, CAB 195/5, meeting of 22 January 1947; Pappé, ‘Sir Alec Kirkbride and the Anglo-Transjordanian Alliance’, p. 127.

***

رغم أنّه كان مفترضاً أن هذه المناقشات قد أُجريت سرّاً في غضون أيّام من اقتراح بيفن على مجلس الوزراء، بُوشر بالضّغط على إدارة ترومان من الأمير سعود، نجل ابن سعود، لتصدّ الأنشطة البريطانيّة "المُعادية". أثناء زيارة إلى واشنطن، لم يحصل سعود على اهتمام كبير من وزير الخارجيّة آنذاك، جيمس بيرنز، الذي قال إنّه لم يعثر على أيّ دليل يثبت مزاعم الأمير. لكن عندما استقال بيرنز بعد أيّام وخلَفه جورج مارشال، عاود ابن سعود المحاولة. في شباط/ فبراير، ادّعى الملك أنّه بات على علم بأنّ البريطانيّين يخطّطون لمساعدة عبد الله للسيطرة على سوريا. كانت وجهة نظر مارشال أقلّ تفاؤلاً من سلفه. ففي 14 شباط/ فبراير، وفي ضوء "الدلائل الواضحة" للتقارير الصحافيّة والمخابراتية التي تشير إلى أنّ شيئاً ما كان "يعدّ في ما يتعلّق بمشروع سوريا الكبرى"، والإشاعات التي تفيد بأنّ الخطّة كانت من وحي أو تشجيع الدبلوماسيّين البريطانيّين أو الجواسيس، قرّر أنّ الوقت حان لطلب توضيح من الحكومة البريطانيّة لموقفها.[171]

171 *FRUS*, 1947, Vol. V, p. 741, Marshall to Gallman, 14 February 1947.

كان الردّ البريطانيّ غير ملزِم. رغم أنّ رئيس إدارة الشرق الأدنى في "الخارجية" نفى قطعاً أنّ الدبلوماسيّين أو الوكلاء البريطانيّين كانوا يساعدون أو يحرّضون عبد الله عند لقائه المسؤولين الأميركيّين، من الواضح أنهم لم يقتنعوا. في تقريرهم عن الاجتماع، وضعوا علامات اقتباس حول ادّعائه أنّ وزارته قد ذكّرت "كلّ مسؤول بريطانيّ في الشرق الأوسط يمكن لوزارة الخارجيّة أن تفكّر فيه" بموقف الحكومة الملتبس أنّها "ليست مع ولا ضدّ سوريا الكبرى". مارشال أيضاً لم يتأثّر، وأذنَ لمبعوثيه في لندن بإخبار البريطانيّين بكبح لجام عبد الله بسبب الاضطراب الذي كانت تثيره الشائعات في العالم العربيّ.

مع ذلك، حتّى في ظلّ هذه الضغوط الإضافيّة، رفض البريطانيّون معارضة مشروع عبد الله. وازداد الامتعاض عندما وقّع الملك الأردنيّ في نيسان/ أبريل معاهدة تحالف وأخوّة مع العراق، ثمّ أصدر "ورقة بيضاء" مؤلّفة من ثلاثمئة صفحة تؤكّد أنّ حملته لتوحيد الأردن وفلسطين وسوريا "لا تتوخّى تحقيق مطامع شخصيّة، إنّما تحقيق الطموح العربيّ القوميّ". كان هدف عبد الله المباشر بسيطاً: التأثير في الأجندة السياسيّة الداخليّة في سوريا حيث ستُجرى الانتخابات في 4 حزيران/ يونيو.[172]

172 *FRUS*, 1947, Vol. V, p. 742, Gallman to Marshall, 17 February 1947; p. 744, Marshall to Gallman, 3 March 1947; p. 746, Editorial Note.

***

ما أثار قلق مارشال الشديد هو إمكانيّة تهديد عبد الله ورُعاته البريطانيّين مشروعاً مهماً كان لا يزال على المحكّ، هو إنشاء خطّ أنابيب لنقل النفط من السعوديّة إلى ساحل البحر المتوسّط، الذي أُطلق عليه "تابلاين". وُلد هذا المشروع من محاولة حكومة الولايات المتّحدة الفاشلة تأميم شركة "أرامكو" في 1944، وقد صُمّم منذ البداية لحثّ البريطانيّين على الموافقة على إجراء محادثات حول سوق النفط، ولم يحقّق الأميركيّون تقدّماً فعليّاً في المشروع إلّا في المدة الأخيرة. في آذار/ مارس 1947، وبمساعدة من وزارة الخارجيّة، تمكّنت "أرامكو" أخيراً من تفكيك "اتفاقيّة الخطّ الأحمر"، وسمحت للمساهمين الأميركيّين في شركة "نفط العراق" بالمنافسة عبر استثمار مئتي مليون دولار في خطّ الأنابيب الذي يبلغ طوله ألف ميل. بعد جدل كبير، وافقت الشركة على طريق تمتدّ من السعوديّة، عبر الأردن وسوريا، وصولاً إلى لبنان. كما وافقت على دفع حقوق سنويّة لكلّ من الحكومتين الأردنيّة واللبنانيّة مقابل الأوراق الضروريّة. لم يتبقَّ سوى كسب موافقة الحكومة السوريّة.

سيوفّر "تابلاين" على "أرامكو" ملايين الدولارات التي كانت تنفقها على ناقلات النفط وقناة السويس. لكنّه كان أيضاً ذا أهمّية إستراتيجيّة كبيرة لحكومة الولايات المتحدة. فبجعل النفط السعوديّ أرخص من الأميركيّ في أوروبا، سيضمن الأنبوب تموين السعوديّين انتعاش أوروبا الاقتصاديّ، فيما يتسنّى للولايات المتّحدة المحافظة على مخزونها المحليّ من النفط في حال نشوب حرب مع الاتّحاد السوفياتيّ. كان للمشروع مزايا أخرى. فبتمكين "أرامكو" من زيادة إنتاجها ثمّ السماح لابن سعود بكسب المزيد من المال، سيساعد الأنبوب على ترميم العلاقة التي تضرّرت جرّاء تصريحات ترومان الصهيونيّة. من شأن الإيرادات تعزيز موقع ابن سعود ليس بصفته حاكماً لبلاده فقط، بل في البلدان التي سيمرّ عبرها خطّ الأنابيب، والتي صارت جميعها مستفيدة من نجاح المشروع. أخيراً كان يتميّز المشروع بترابط دائريّ ممتع. فمن شأن شراء أوروبا النفط السعوديّ إدرار الأرباح على "أرامكو"، أي على مالكيها الأميركيّين وعائدات الضرائب على الحكومة الأميركيّة. هكذا، سيساعد خطّ الأنابيب الولايات المتّحدة على استرداد المليارات التي كانت على وشك إنفاقها في "خطّة مارشال" التي كشف عنها وزير الخارجيّة في هارفرد، في 5 حزيران/ يونيو 1947.

كان مارشال يتخوّف أساساً من محاولة العراقيّين إحباط ”تابلاين“. إذ كان يدرك أنّ المزايا التجاريّة والسياسيّة التي يحملها للولايات المتحدة تشكّل على ما يبدو تهديدات من وجهة نظر بغداد. فإلى جانب حاجته إلى الفولاذ – كانت مخزوناته قليلة في ذلك الحين – الذي يحتاجه العراقيّون لبناء خطّ أنابيب جديد خاصّ بهم، وتمكين ”أرامكو“، فور استكماله، من التنافس مع ”نفط العراق“ على حصّتها في السوق في أوروبا، سيساهم أيضاً في توسيع النفوذين السعوديّ والأميركيّ، ليطاول جزءاً من العالم كان يراه الهاشميّون معتركهم الخاصّ. هكذا، عندما اكتشف وزير الخارجيّة بعد أسبوع واحد فقط من خطابه في جامعة هارفرد أنّ عبد الله ذهب إلى بغداد لإجراء محادثات، طلب من سفيره في العراق محاولة استنباط المزيد من المعلومات من الملك الزائر. وعندما أفاد السفير حينذاك أنّ عبد الله يؤكّد أنّ غايته ”إعادة توحيد سوريا مع العراق في دولة واحدة“، يبدو أنّ مارشال قرّر أنّ الوقت قد حان للقضاء على حلم الملك الأردنيّ.[173]

173 *FRUS*, 1947, Vol. V, pp. 748–9, Marshall to Baghdad Embassy, 12 June 1947; p. 749, note 3.

***

كان الرجل الذي سيلعب دوراً أساسيّاً في المحاولة الأميركيّة لإفساد خطّة عبد الله شابّاً أميركيّاً هادئاً يُدعى كيم روزفلت، وقد وصل إلى القاهرة برفقة زوجته بولي في أيار/ مايو 1947، وأُرسل في مهمّة لكتابة سلسلة من المقالات لمجلة *Harper's Magazine*. كان روزفلت الأنيق والممتلئ والجديّ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً، خرّيج مدرسة نيو إنغلند الخاصّة الصارمة وجامعة هارفرد. كان حفيد الرئيس الراحل ثيودور روزفلت ونسيب فرانكلين (الذي دعاه إلى غداء الميلاد برفقة تشرشل في البيت الأبيض خلال زيارة رئيس الوزراء المربكة في نهاية 1941) جذّاباً وحسن الطلعة. كان ”مهذّباً ومعسول اللسان... ومتعلّماً جدّاً أكثر منه مثقّفاً، ولطيفاً، وغير مدّعٍ كمضيف وكضيف“، كما تذكّرت كيم فيلبي التي التقته في واشنطن، و”كان آخر شخص تتوقّع أن يكون منغمساً إلى هذا الحدّ في الحيل القذرة“.[174]

174 Wilford, *America's Great Game*, p. 114.

ولأنّ روزفلت لم يكن صحافيّاً بل جاسوساً، منحه تفويضه من المجلّة بعض التغطية الهشّة لعمله لـ”مجموعة المخابرات الأميركيّة المركزيّة“، سلَف ”وكالة المخابرات المركزيّة“، وخلَف ”مكتب الخدمات الإستراتيجية“، حيث حصل على وظيفة بعد تخرّجه في الجامعة. زار القاهرة للمرّة الأولى بصفته ضابطاً في ”مكتب الخدمات الإستراتيجيّة“ في كانون الثاني/ يناير 1944. هناك، أمّنت له

مشاركته في البعثة الاقتصاديّة لجيمس لانديس غطاء لجمع المعلومات الاستخباريّة في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

رغم أنّ روزفلت كان يتحدّر من عائلة موالية للإنكليز، فإنّ تجربته الخاصّة في العمل مع البريطانيّين في الحرب تركته خائباً. تذكّر ”أوقاتاً كان فيها الممثّلون البريطانيّون الموجودون في الميدان يتحدّون تعليمات لندن ويبذلون كلّ ما في وسعهم لتقويض الأميركيّين المواجهين لهم... وكانت أفعال الأميركيّين الموجودين على الساحة خاضعة للرغبة في ’إفشال بريطانيا‘“، فاستنتج أنّ ”الأميركيّين والبريطانيّين في الشرق الأوسط يتعاملون مع بعضهم على نحو سيّئ إلى حدّ ما“. في وقت لاحق، شرح بإيجاز السبب: ”أيّ سلطة تأمل في توسيع سيطرتها على القارّات تعلّمت أنّ السيطرة على الشرق الأوسط خطوة أساسيّة. وأيّ سلطة تحاول مقاومة التوسّع القارّي من دولة أخرى أدركت بدورها ضرورة حماية الشرق الأوسط بأيّ ثمن“. هذا هو التفكير الذي حثّ روزفلت على العودة إلى القاهرة فور تسريحه، وحفّزه على بذل كلّ ما في وسعه لتقويض خطّة سوريا الكبرى المدعومة من بريطانيا. فقرّر أنّ أفضل طريقة لذلك هي استغلال التوتّرات القائمة بين الفرعين العراقيّ والأردنيّ للأسرة الهاشميّة، اللذين يرغب كلّ منهما أن يكون حاكماً على الدولة الموحّدة الجديدة.[175]

175 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, pp. 249, 6, 9.

في الوقت نفسه تقريباً الذي طلب فيه جورج مارشال من سفيره في العراق الحصول على مزيد من المعلومات، انتقل آل روزفلت من القاهرة إلى بيروت، ومن هناك زاروا بغداد. سرعان ما فتح اسم العائلة الأبواب في وجه كيم، وعكس الدور الدقيق الذي كان يلعبه. لذلك، عندما تمكّن من الحصول على مقابلة مع عمّ الملك، الوصيّ على العرش – ”شابّ لطيف وهادئ، وله شارب رفيع ولكنة بريطانيّة متعالية“ – صرّح له بأنّ الأميركيّين لا يحبّذون ما يفعله عبد الله. كتب إلى أمّه: ”ليست مهمّة صحافيّة بالضبط، لكن يبدو أنّ لا أحد يكترث لذلك“.[176]

176 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 101; Wilford, *America's Great Game*, p. 79.

بعد بغداد، ذهب روزفلت إلى عمان حيث التقى الملك عبد الله. طوّق الملك محاوره بذراعه، لكنّ اجتماعهما لم يجرِ على ما يرام. كتب الجاسوس الأميركيّ في وقت لاحق: ”لم يقبل التحدّث معي عن السياسة العربيّة، ربّما لأنّه سمع أنّني معارض لطموحاته بشأن ’سوريا الكبرى‘، وكانت تساوره شكوك حول تودّدي لعدوّه القديم، ابن سعود“.[177]

177 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 119.

غير أنّ المقابلة الأخرى التي أجراها كانت أفضل بكثير. فأثناء وجود روزفلت في عمان، التقى أيضاً كبير مستشاري عبد الله، أليك كيركبرايد. في حين التزم الملك المراوغ الصّمت، وقع كيركبرايد في فخّ أسلوب روزفلت غير المهدِّد، وأفصح عن أكثر ممّا كان ينبغي له فعله. أوضح لروزفلت، الذي كان يصغره بعشرين سنة، أنّ "عبد الله جيّد. إنّه غير منتظم بعض الشيء طبعاً، لكنّه في الصميم زميل موثوق به. وهؤلاء العرب بحاجة إلى ملك، كما تعلم".[178]

178 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 122.

لعلّ روزفلت أدرك أنّه كان على وشك الوصول إلى الذهب. فقبل أيّام في لندن، وردّاً على الضغوط الأميركيّة، أنكر وزير بريطانيّ مرّة أخرى تأييد الحكومة البريطانيّة فكرة "سوريا الكبرى"، وصرّح بأنّ موقف المسؤولين المحلّيين، على غرار كيركبرايد، "حياديّ تماماً". ترك روزفلت كيركبرايد يواصل حديثه، فتابع المسؤول البريطانيّ المخضرم:

> إنّ فكرة إنشاء جمهوريّتين منفصلتين، سوريّة ولبنانيّة، تنطوي على الكثير من الهراء. كانت كلّ هذه البلدان بلداً واحداً، سوريا ولبنان وشرق الأردن وما نسمّيه أيضاً فلسطين. كان كلّ ذلك يشكّل سوريا. لم تُقسّم إلّا بعد مؤتمر فرساي للسلام. كانت مملكة واحدة للمنطقة بأكملها، قادرة على مواجهة الغزو السوفياتيّ، في حين أنّ أربع دول منفصلة كانت لتعجز عن ذلك. عبد الله هو الرجل المناسب ليترأسها.[179]

179 HC Deb, 14 July 1947, Vol. 440, c. 9; Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 122.

"عبد الله هو الرجل المناسب ليترأسها". لقد حصل روزفلت أخيراً على مبتغاه: تصريح من مسؤول بريطانيّ يمكن لحكومته استخدامه لدحض ادّعاءات البريطانيّين حياديّتهم إزاء خطّة "سوريا الكبرى"، ولتأليب عبد الله والملك العراقيّ على بعضهما بعضاً بإثباته أنّ البريطانيّين يفضّلون في سرّهم ملك الأردن على أنسبائه العراقيّين.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يحين الوقت لاستخدامه. في أعقاب الانتخابات السوريّة في تموز/ يوليو 1947، في 11 آب/ أغسطس، دعا الملك عبد الله علناً إلى مؤتمر حول "سوريا الكبرى" لتشكيل جبهة موحّدة ضدّ الصهاينة في فلسطين. ووجّه سرّاً رسالة إلى الرئيس السوريّ شكري القوتلي يضغط فيها عليه لدعم هذه المبادرة، ويقترح دستوراً سوريّاً جديداً. كان القوتلي عميلاً للملك السعوديّ منذ وقت طويل، فمرّر رسالة عبد الله إلى رئيسه لتنبيهه إلى ما كان يجري.

حتّى ذلك الأوان، كان ابن سعود يشعر بأمان أكبر. فبعد وقت قصير من الانتخابات السوريّة، منح موافقته النهائيّة على مشروع "تابلاين" لاعتقاده أنّ تهديد سوريا الكبرى قد ولّى. لكنّه شعر

بالقلق إزاء تجديد عبد الله تأييده الخطّة، وإزاء الشائعات حول تخطيط الملك الأردنيّ لاستخدام فيلقه العربيّ من أجل تحقيق ذلك.

بينما كان الديبلوماسيّون الأميركيّون يحاولون طمأنة الملك أنّه من غير المعقول أن يسمح البريطانيون لعبد الله باتّخاذ إجراء عدوانيّ، سافر روزفلت إلى السعوديّة لالتقاء الملك لثلاثة أيّام في قصره في الرّياض: حصنٌ مبنيّ من الطين المخبوز له أبراج ذات شرفات. كتب في وقت لاحق: ''يتمتّع بموهبة مذهلة تجعلك تشعر أنّك عضو في عائلته مباشرة، رغم اضطرار المترجم إلى ترجمة كلّ كلمة يتبادلونها''. في هذه الأثناء، زارت زوجته بُولي حريمَ الملك. قالت لها إحدى الملكات: ''أعتقد أنّه من الجميل أن يكون لديك زوج لكِ وحدك''.[180]

180 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 75.

من الواضح أن ابن سعود كان قلقاً بشأن ''سوريا الكبرى''. لكنّ تحليله كان أدقّ مّما توقعه روزفلت. قال الملك إنّ ''سوريا الكبرى'' بحدّ ذاتها ليست مشكلة كبيرة – لا شكّ أنّها ''مرغوبة ومحتومة''، على حدّ اعتقاده – فالقضيّة الأساسيّة هي بالأحرى عبد الله. شرح المترجم أنّ ''جلالة الملك يقول إنّ هذا المخطّط لا يستند إلى العقل أو التاريخ. إنّها نزوات طموح رجل واحد. يقول جلالته إنّ عبد الله مهووس ومُصاب بجنون العظمة... لا يمكنني ترجمتها، لكنّ جلالته يقول إنّ هناك كلمات مرادفة لذلك في الإنكليزيّة''.

''ميغالومانياك؟'' اقترح روزفلت.

قال ابن سعود: ''يبدو التعبير جيّداً. أريد تسجيله''.[181]

181 Roosevelt, *Arabs, Oil and History*, p. 127.

انتهت الأزمة في أيلول/ سبتمبر 1947. بغية دفع مخطّطه لإنشاء ''سوريا الكبرى'' قدُماً حاول عبد الله تقسيم العائلة المالكة العراقيّة بعرض عرش فلسطين وشرق الأردن على الوصيّ، عبد الإله. ثمّ فجأة، في منتصف أيلول/ سبتمبر، فصلَ وصيّ العرش العراقيّ نفسه علانيّة عن خطّة عبد الله، وأعلن أنّ العراق سيكون محايداً بشأن تشكيل ''سوريا الكبرى''. رغم رتابته، كان لهذا التصريح أهمّية سياسيّة هائلة، لأنّها كانت المرة الأولى التي يختلف فيها الوصيّ علانيّة مع عبد الله. بعد عشرة أيّام، تحت تأثير الضّغط الذي مارسه كيركبرايد، أعلن عبد الله أنّه ''لا يرغب في خوض الجدل بشأن سوريا الكبرى''.[182]

182 *FRUS*, 1947, Vol. V, p. 759, Editorial Note.

سيلمّح روزفلت لاحقاً إلى الدور الذي لعبه في تغيير قرار وصيّ العرش. عندما استعرض الحادثة في مقالة لمجلّة *Harper's Magazine* نُشرت بعد أشهر، عزا انهيار خطّة ''سوريا الكبرى'' إلى ''الممثّلين الأميركيّين'' الذين ''قيّموا الوضع على نحو صحيح منذ البداية''. وقال، مُستعيداً ما قاله له ابن سعود، إنّ الفكرة التي يدعو إليها عبد الله تتمتّع بـ''دعم واسع في أوساط العرب''، لكنّ مرسلها لم يكن يتمتّع بذلك: ''إنّ فكرة ترؤس عبد الله مثل هذه الدولة كانت مدعاة للضّحك لدى معظم العرب''، على حدّ ادعائه. على غرار ما فعله لورانس قبل ثلاثة عقود، صوّر الملك على أنّه جذاب لكنّه غير جدير بالثقة وغير جدّي. كتب أنّه ''شخصيّة سياسيّة'' أشبه بـ''بدعة موقّرة''، ورغم ذلك، يشعر بعض المسؤولين البريطانيّين إزاءه بـ''المودّة''. وقد أكّد ''الموقف الثابت الذي اتّخذته الولايات المتحدة'' أنّه ''مفيد في إحباط التطوّرات التي قد تضرّ المصالح العربيّة والبريطانيّة والأميركيّة''. في حين كان مفترضاً منذ مدة طويلة أن تكون الولايات المتّحدة وبريطانيا توقّفتا عن التجسّس على بعضهما بعضاً خلال الحرب العالميّة الثانية، أظهرت هذه الحادثة أنّ الأمر لم يكن كذلك من الجانب الأميركيّ.[183]

183 Roosevelt, 'Triple Play for the Middle East', p. 366.

نُشرت مقالة روزفلت في نيسان/ أبريل 1948. بعد أن أحبط الأميركيّون طموحاته، اضطرّ عبد الله إلى الاكتفاء بضمّ الضفّة الغربيّة بعد انسحاب بريطانيا من فلسطين في أيار/ مايو. كان ذلك بمنزلة عزاء لبيفن، لأنّه منح الأردن فرصة أكبر للبقاء. لكنّ الدولة الصغيرة لم تكن تمثّل سوى جزء صغير جداً من العالم الأوسع الذي أملَ ''ملكُه الصغير'' ذات مرّة حكمَه.

***

لم يكن يعني تداعي الطموح الكبير للملك عبد الله أنّ مغامرة خطّ الأنابيب قد انتهت. فتَحْت تأثير الضّغط الذي مارسته شركة "أرامكو"، حصل القوتلي في غضون ذلك على موافقة الحكومة السوريّة على "تابلاين"، لكنّ الاتّفاق كان لا يزال بحاجة إلى تصديق برلمانيّ. لم يحدث ذلك إلّا في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، عندما صوّتت حكومة الولايات المتّحدة لمصلحة تقسيم فلسطين في الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة. تسبّب هذا التّصويت الأميركيّ – واعتراف ترومان الفوريّ بإسرائيل في أيار/ مايو 1948 رغم معارضة جورج مارشال – في غضب عربيّ عارم. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، في دمشق، اقتحم حشدٌ من ألفي شخص السّفارة الأميركيّة، بينما تعرّض موقع "تابلاين" في الأردن للهجوم.

خلال الانتخابات السوريّة في 1947، أنفقت ”أرامكو“ والحكومة الأميركيّة الأموال في محاولة لضمان انتخاب مرشّحين مقرّبين منهما. نفّذت الشركة، التي كانت تخضع حينذاك إلى ضغوط كبيرة من السعوديّين لتحسين الامتيازات التي تدفعها لهم، ”أعمالاً عدوانيّة داخل سوريا“، بما في ذلك ”إنفاق مبالغ كبيرة في الأماكن المناسبة“ بغية الحصول على الموافقة. ولزيادة الضّغط على السوريّين، باشرت أيضاً إعادة النظر في توجيه خطّ الأنابيب على طول طريق أكثر تكلفة تمتدّ جنوباً باتّجاه مصر، لكنّ هذا التكتيك قد أُحبط عندما وافق أعضاء الجامعة العربيّة في أوائل 1948، وبإجماع قلّ نظيره، على ألّا يخصّص أيّ منهم أيّ امتياز نفطيّ جديد إلى أن ينجلي الوضع في فلسطين. وارتدّت محاولات الرشوة من ”أرامكو“ عكسيّاً. فقد أفاد ديبلوماسيّون بريطانيّون بأنّ الشائعات حول عرض المال على البرلمانيّين انتشرت لدرجة أنّ ”أولئك الذين لم يتقاضوا أجورهم أثاروا المشكلات“. في غضون ذلك، بات التصديق على المشروع أبعد من أيّ وقت.[184]

[184] Little, 'Pipeline Politics', p. 273; TNA, FO 371/75528, Syria, Political Summary for the Months of January and February 1949, n.d.

لم يكن الأميركيّون الوحيدين الذين أغضبهم فشلُ السوريّين في التّصديق على صفقة ”تابلاين“. كذلك فعل اللبنانيّون الذين كانوا سيحقّقون مكاسب كبيرة جرّاء استكمال خطّ الأنابيب. وقد يكون رئيس الأمن العامّ اللبنانيّ، فريد شهاب، هو الذي عرّف في إحدى المرّات، في 1948، أحد أعضاء مركز ”وكالة المخابرات المركزيّة“ في بيروت، ستيفن ميد، إلى عقيد طموح ومنمّق في الجيش السوريّ يُدعى حسني الزعيم كان يبحث عن مساعدة للإطاحة بحكومة بلده. بعد مقابلته الزعيم، للمرّة الأولى في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1948، عاد ميد إلى واشنطن وقال إنّ العقيد كان من طراز ”ديكتاتورات جمهوريّات الموز“. قال له العقيد، خلال أحد اجتماعاته، إنّ هناك ”طريقة واحدة فقط لوضع الشعب السوريّ على طريق التقدّم والديموقراطيّة“، ثمّ ضرب مكتبه بالسّوط مُضيفاً: ”بالسّوط“. عندما أجّل القوتلي مجدّداً التصديق، عقب الاحتجاجات المتزايدة ضدّ ”تابلاين“، بدا الزعيم الرجل المناسب لخرق الطريق المسدود.[185]

[185] Little, 'Cold War and Covert Action', p. 55; Wilford, *America's Great Game*, p. 101.

كان مايلز كوبلاند رئيس مركز ”المخابرات المركزيّة“ في دمشق، ورئيس ميد. اعترف هذا الرجل البارع في اختلاق القصص الطويلة، بـ”شعره الكثيف الرمليّ اللون... وعينيه اللتين تلمعان إثارة“، أنّه انجذب إلى العمل لدى ”المخابرات المركزيّة“ لأنّه يؤمّن له ”إمكانيّة الانخراط في بعض الأعمال التجسّسيّة بحجّة خدمة المصلحة الوطنيّة“. وقرّر، هو وميد، أنّه بغية تجريد إدارة

القوتلي من شرعيّتها وتبرير الانقلاب، ينبغي لهما أن ينظّما مخطّطاً يوحي بأنّ الحكومة لم تعد قادرة على حماية الديبلوماسيّين الأجانب. بنشر شائعات مفادها أنّ كوبلاند كان يحتفظ بوثائق سرّية في المنزل، أغرى الرجلان ضبّاطاً من المخابرات السوريّة بمحاولة تطويق الفيلّا التي بدت غير مأهولة، في حين كانا في الواقع يترصّدانهم. عندما نقلت *New York Times* خبر إطلاق النّار الذي أعقب الاقتحام، وصفت كوبلاند بـ"القنّاص الماهر".[186]

186 Wilford, *America's Great Game*, p. 72; 'US Attaché Fights Off Gunmen', *New York Times*, 10 March 1949.

بعد ذلك بوقت قصير، أملى الزعيم أوامر على كبار ضبّاط الجيش لإلقاء القبض على الرئيس والاستيلاء على نقاط رئيسيّة حول دمشق، وحبس أمناء السرّ الذين كتبوا الأوامر داخل خزانة، وانطلق للاستيلاء على السلطة في عمليّة شبه خالية من الدّماء، في 30 آذار/ مارس 1949. حصل الأميركيّون على ما أرادوه بعد أربعة أيّام، عندما أدان الزعيم حالة "الفوضى والنّهب" التي دفعته إلى الإطاحة بالحكومة، ثمّ أعلن أنّه سيصدّق على صفقة "تابلاين" بنفسه. رغم الإطاحة به وقتله بعد 136 يوماً، لم يعرقل ذلك المشروع. بعد ستّ سنوات من تصميمه، استُكمل خطّ الأنابيب في أيلول/ سبتمبر 1950 وباشر ضخّ النفط بعد ثلاثة أشهر.

إنّ مشروع "تابلاين"، الذي كان وليد المنافسة مع البريطانيّين، منحَ الشرق الأوسط أهمّية إستراتيجيّة للولايات المتّحدة، كما أشرك الأميركيّين في السياسة الداخليّة للبلدان التي يمرّ عبرها الخطّ لدرجة لم يسبق لهم أن شهدوها من قبل. سيترتّب عليه أيضاً نتيجة أخرى. فبرفع كمّية النفط الذي تستطيع "أرامكو" إنتاجها في السعوديّة بنسبة كبيرة جدّاً، وُعِد ابن سعود بتحقيق ثروة طائلة من المشروع. لذا، ولتحقيق أعلى مستوى ممكن من الأرباح، اتّخذ خطوة من شأنها التسبّب في تقويض العلاقة بين بريطانيا والولايات المتّحدة.

9

استكشاف المناطق البرّية

في 25 كانون الثاني/ يناير 1948، تلقّى ابن سعود برقيّة من زعيم قرية نائية في جنوب مملكته أثارت في نفسه "غضباً شديداً". قبل ثلاثة أيّام، ظهرَ رجلٌ إنكليزيّ يُدعى ويلفريد ثيسيجر دون سابق إنذار، في مستوطنة الطين التي تقع على بعد ثلاثمئة ميل جنوب غرب الرّياض. "مَن هو هذا الرجل؟" سأل الملك، قبل أن يأمر زعيم القرية بزجّ ثيسيجر في السّجن. إذ كان الظهور المفاجئ للمستكشف بمنزلة تذكير غير مرحّب به بأنّ الحدود الجنوبيّة لمملكته غير محدّدة، وغير آمنة، وموضع نزاع. وقد بات لهذا الأمر أهمّية خاصّة مع احتمال وجود نفط في الجوار.[187]

187 MEC, Philby Papers, 2/3/2/6, Philby to Mrs Astley, 27 January 1948.

بغية الوصول إلى القرية، كان على ثيسيجر عبور أربعمئة ميل من الصّحراء. كان لهذه المنطقة البرّية المعروفة باسم الربع الخالي سمعة مروّعة. كانت رمالها منجرفة بشكل تلال يصل ارتفاعها إلى سبعمئة قدم، وكانت القبائل المتناحرة تتقاتل على الآبار القليلة والمراعي الهزيلة الموجودة فيها. قال الناس الذين كانوا يعيشون على أطرافها إنّ "الله نفسه لم يكن موجوداً هناك". كانت تشكّل حاجزاً هائلاً، إن لم يكن حدوداً رسميّة، بين السعوديّة والمشيخات الساحليّة الموجودة عند القرن الجنوبيّ والساحل الجنوبيّ لشبه الجزيرة العربيّة اللذين كانا محميّتين بريطانيّتين.[188]

188 Morton, *Buraimi*, p. 19.

في تلك الحقبة، حدّد رسّامو الخرائط حدود مشيخات السواحل بخطوط منقّطة تتلاشى عند توغّلهم داخل "الربع الخالي" الذي كان يمتدّ بشكل توسّعي ليملأ مساحة فارغة كبيرة على الخريطة. في 1913، حدّد الأتراك العثمانيّون والبريطانيّون مناطق نفوذهم الخاصّة في النصف الجنوبيّ من شبه الجزيرة العربيّة، لكن لم يُصدَّق أبداً على "اتفاقيّة الخطّ الأزرق" التي سُمّيت تيمّناً بلون القلم الذي استُخدم في كتابتها. وعندما انتهت الحرب وتفكّكت الإمبراطوريّة العثمانيّة، رفض ابن سعود على نحو مفاجئ الاعتراف بها. تذرع بأنّ الولاءات القبَليّة هي التي تُؤخذ في الحسبان، وادّعى أنّ أسرته

جاءت أصلاً من المنطقة المُتنازَع عليها، فأرسل ضبّاطه لإثبات ادّعائه. منذ ذلك الحين، استند في إثبات استحقاقه هذه المنطقة إلى استعداد رجال القبائل الذين التقاهم ضبّاطه للإشادة به.

لم تردعه الرمال الصحراويّة المتحرّكة، ولا تغيير الولاءات البشريّة، ولا شيوخ ساحل الخليج وسلطان مسقط وعمان عبر الصحراء، من منح تنازلات لشركات النفط للبحث عن النفط داخل الأراضي التي كانوا يدّعون أنها ملكٌ لهم. لقد منح الملك ''أرامكو'' حقوقاً حصريّة للتنقيب عن النفط في ''الجزء الشرقيّ من مملكتنا العربيّة السعوديّة، ضمن حدودها''، بينما اشترى المنافسان الأكبر للشركة، الخاضعان للسيطرة البريطانيّة، وهما شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة و''نفط العراق''، امتيازات في قطر وعُمان المجاورتين، وفي المشيخات الموجودة على طول ساحل الخليج التي استندت جميعها إلى الحدود نفسها التي لم تُحدَّد بعد. منذ 1945، كان الجيولوجيّون في ''أرامكو'' واثقين بوجود نفط تحت منطقة الربع الخالي. وفي غياب تسوية إقليميّة، ستؤدّي هذه النشاطات الاستكشافيّة للشركات المتنافسة عاجلاً أم آجلاً إلى خلق صراع بينهم وبين أنصارهم الأميركيّين والبريطانيّين. في أعقاب ظهور ثيسيجر في مملكته بداية 1948، سيتّخذ الملك خطوة سرّعت إمكانيّة نشوب الصراع.[189]

[189] Morton, *Buraimi*, p. 15.

***

ليس واضحاً في ما إذا كان طلَبُ ويلفريد من ثيسيجر إجراء مسح للأطراف الجنوبيّة للربع الخالي، بعد وقت قصير من اطّلاع البريطانيّين على ترجيح "أرامكو" وجود نفط هناك، وليد المصادفة. لكن، بعد أن نقل السفير البريطانيّ في جدّة ترجيحات الولايات المتحدة إلى لندن في كانون الثاني/ يناير 1945، قرّرت الحكومة البريطانيّة تنظيم "استطلاع صيفيّ للجراد في منطقة جنوب الربع الخالي". وبحلول نيسان/ أبريل، كانت "وحدة مكافحة الجراد في الشرق الأوسط" قد عيّنت ثيسيجر لهذه الرحلة.[190]

[190] IOR, R/15/1/238 Ambassador Cairo to Political Resident Bushire, 1 April 1945.

أقرّ ثيسيجر في وقت لاحق: ''لم أكن مهتمّاً فعليّاً بالجراد''. لكنّه كان حريصاً على عبور الربع الخالي، وكانت ''وحدة مكافحة الجراد''، وهي من بقايا مركز التموين في الشرق الأوسط، أفضل طريقة لذلك، لأنّ ضبّاطها – على عكس الديبلوماسيّين الأوروبيّين – كانوا يتمتّعون بحرّية مطلقة

من ابن سعود. سواء أكان هناك سبب سرّي إضافيّ لهذه الرحلة أم لا، ستمنح مهمّة مكافحة الجراد ثيسيجر فرصة للاطّلاع أكثر على الولاءات الحقيقيّة لقبائل الصحراء الفارغة.[191]

191 Thesiger, *Arabian Sands*, p. 41.

في ذلك الوقت، كان ثيسيجر معروفاً بأنّه شخص يهوى المخاطر. وُلد في الحبشة عام 1910، التي عاد إليها مراراً وتكراراً، بعد أن تابع دراسته في إيتون وأكسفورد، بحثاً عن المغامرة ولعبور سلطنة محرّمة في شمال شرق البلاد. بعد خمس سنوات من الخدمة السياسيّة في السودان – قتل خلالها سبعين أسداً واكتسب خبرة واسعة في السفر عبر الصحراء – خدم في قوّة الميليشيا التي حرّرت الحبشة من الإيطاليّين. ثمّ انضمّ إلى قسم العمليّات الخاصّة، ثمّ إلى الجهاز الجويّ الخاصّ، قبل أن يدعوه هايل سيلاسي، الذي كان قد حضر حفل تتويجه في 1930، إلى أديس أبابا ليكون مستشاراً سياسيّاً له. وعندما بدأ يتضايق من وظيفته – كان لديه "نفور من طبقة الموظّفين"، على حدّ قول أحد المعاصرين – اتّصل به رئيس "مكافحة الجراد".[192]

192 TNA, FO 371/68777, Burrows to Trott, draft, 20 February 1948.

لم تتطلّب التعليمات الخاصّة بتلك المهمّة الأولى، في تشرين الأول/ أكتوبر 1945، من ثيسيجر التوغّل داخل الصّحراء الرمليّة. لكن خلال هذه الحملة، سمع عن غزوة للبدو كانت قد عبرت الربع الخالي من الخليج الفارسي. بعد عام، عاد مصمّماً على تكرار الإنجاز الذي حقّقه هؤلاء المُغيرون، إنّما في الاتّجاه المعاكس. وبما أنّ طوله كان يقارب 188 سنتمتراً، وكان الحقد على المسيحيّين قويّاً في ذلك الجزء من العالم، قال له مرشدوه إنّه من الأفضل التظاهر بأنّه سوريّ، كونه كان يعرف جنوب سوريا مذ كان يعمل في قسم العمليّات الخاصّة.

تزامن عبور ثيسيجر الربع الخالي خلال شتاء 1946–1947 مع تزايد التوتّر حول موقع الحدود السعوديّة. ومع حرص "أرامكو" على التحقّق من إمكانيّة وجود النفط جنوب شبه جزيرة قطر، كان حاكم شرق المملكة التابع لابن سعود، ابن جلوي، يحاول تأكيد ادّعاء أنّ سيّده أحقّ بالمنطقة المُتنازَع عليها، بإرسال الضبّاط هناك، في حين حاول الملك إثارة المتاعب لمنافسه المرجّح، الشيخ شخبوط، حاكم أبو ظبي القريبة، وذلك بتشجيع حاكم دبي على مهاجمة قبيلة شخبوط. صُودف أنّ مركز هذا الصّراع، وهو واحة ليوا التي تقع جنوب غرب أبو ظبي، كان المكان الذي يبحث عنه ثيسيجر. لكن عند وصوله إليه، بعد رحلة عبور 450 ميلاً استغرقت ثلاثة أسابيع، أدرك مرشدوه البدو أنّ الآثار الواسعة التي خلّفوها وراءهم ستشي بهم جميعاً. قال أحد رجال القبائل مذعوراً:

''سيصل الخبر إلى ضبّاط ابن سعود، وسيعتقلوننا جميعاً ويأخذوننا إلى ابن جلوي. ليحفظنا الله من ذلك، فأنا أعرف ابن جلوي''. كان البدو يعلمون أنّ تنكّر ثيسيجر بالزيّ السوريّ سينكشف في حال تعرّضوا للتدقيق، ولذا أرغموا المُستكشِف على التوجّه شرقاً، ثمّ جنوباً، والعودة عبر المناطق العمانية النائية إلى ساحل المحيط الهنديّ.[193]

[193] Thesiger, *Arabian Sands*, p. 156.

لدى عودته إلى لندن، أطلع ثيسيجر وزارة الخارجيّة وشركة ''نفط العراق'' على ما شاهده، وراح يقوّض مطالبة السعوديّين بالمنطقة الواقعة جنوب قطر. في محاضرة ألقاها في ''الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة'' في تشرين الأول/ أكتوبر 1947، تغاضى عن ذكر وجود الضبّاط السعوديّين الذين أرغموه على العودة قبل إكمال رحلته. وبدلاً من ذلك، لحظَ أنّ أبناء واحة ليوا كانوا يتاجرون مع أبو ظبي، وأنّ القبيلة الوحيدة التي كانت تجوب الربع الخالي كانت مرتبطة بمستوطنات البريمي وإبري الموجودة ضمن ما يُعرف حاليّاً بعُمان، وكذلك أبو ظبي، وليس في المراكز القريبة للنفوذ السعوديّ، أي الرياض والهفوف. كان لمعلوماته أهمّية كبيرة، وبعد إلقائه محاضرته بوقت قصير، اتّصلت به ''أرامكو'' التي سألت هل يرغب في العمل من أجلهم. سيدّعي ثيسيجر باستمرار أنّه رفض عرض الشركة. وفي غضون أيّام من إلقاء المحاضرة، كان يشقّ طريقه عائداً إلى الجزيرة العربيّة مرّة أخرى، على أمل أن يتمكّن هذه المرّة من اجتياز معبر يقع أكثر لجهة غرب منطقة الربع الخالي.

عندما سعى ثيسيجر سابقاً إلى الحصول على إذن لإجراء هذه الرحلة، رفض ابن سعود منحه إيّاه. لذا قرّر هذه المرّة، ببساطة، ألا يطلبه منه. كتب في وقت لاحق: ''يجب أن أتحدّى الملك، ولكنّني كنتُ أتمنّى أن أجد ماء في بئر ما عند الجانب الآخر من الرّمال، وأن ألوذ بعدها بالفرار دون أن يلحظني أحد''. بدلاً من التمسّك بهذه الخطّة، عندما عبر ثيسيجر الرّمال ووصل إلى البئر التي كان يبحث عنها، لم يسارع للعودة إلى الصّحراء، بل واصل طريقه إلى قرية سُليل التي أبلغ زعيمها ابن سعود بظهوره.[194]

[194] Thesiger, *Arabian Sands*, p. 203.

لولا وجود المستشار البريطانيّ الوحيد لابن سعود، الموظّف الحكوميّ المارق سان جون فيلبي، عند تسلّم الملك لبرقيّة الزعيم، لانتهى ثيسيجر في السجن السعوديّ. لكن فيلبي، الذي عبر الربع الخالي بنفسه خلال ثلاثينيّات القرن العشرين، كان يعرف بخطّة ثيسيجر منذ البداية، وكان على

استعداد لتغطيته. فأوضح أنّ ثيسيجر كان يعمل لمصلحة مهمّة مكافحة الجراد (مع أنّه لم يعد كذلك في الواقع)، وافترض أن يكون ابن بلده قد نفد من الماء أو الطعام واضطرّ إلى البحث عن بئر قريبة.

في البداية، لم يكن هناك رغبة لدى ابن سعود في مسامحة ثيسيجر ومرشديه البدو على تعدّيهم على منطقته. قال غاضباً: ”لم يكن لهم الحقّ في القدوم دون إذن، وإذا تغاضينا عن الإساءة التي ارتكبوها، سنشجّع غيرهم على الحذو حذوهم“. لكنّه تراجع عن موقفه في وقت لاحق من ذلك المساء، وترك ثيسيجر يتابع طريقه للمرّة الثانية.[195]

195 MEC, Philby Papers, 2/3/2/6, Philby to Mrs Astley, 27 January 1948.

وصل ثيسيجر مرّة أخرى إلى ليوا. في الشهر الحادي عشر منذ رحلته الأخيرة، كانت القبيلة المحلّية قد طردت ضبّاط ابن سعود، وبفضل الهدنة التي أُبرمت بين دبي وأبو ظبي، تمكّن هذه المرّة من الذهاب إلى أبو ظبي.

***

كان لهذه الحادثة، رغم كونها عابرة، تأثير عميق في الملك، فقد ولّدت لديه انطباعاً بأنّ خصومه المدعومين من بريطانيا كانوا يحاولون التقدّم عليه خلسة، وسرعان ما بادر إلى التحرّك من أجل فعل شيء حيال ذلك. عندما ظهر ثيسيجر في سُلَيل، كان السعوديّون في صدد إعادة التفاوض على اتّفاقهم مع ”أرامكو“. في العقد الأصليّ، منح الملك الشركة حقوقاً حصريّة لستّين عاماً مقابل الحصول على أرباح قدرها اثنان وعشرون سنتاً للبرميل. لكنّ الملك بدأ حينذاك يشعر بالندم الشديد على وضعه هذه الشروط، وقد ساهم خرقُ ثيسيجر في تعزيز شعوره المُزعج بأنّهم لم يفعلوا شيئاً لتحفيز ”أرامكو“ على العمل أسرع. وعند نهاية المفاوضات، أجبر السعوديّون ”أرامكو“ على زيادة الامتيازات التي كانت تدفعها إلى ثلاثة وثلاثين سنتاً للبرميل، وتقديم تنازلات أكثر أهمّية ستتسبّب في ردود فعل واسعة النطاق.

هذا الاتفاق المعدّل الذي صُدّق عليه في نيسان/ أبريل 1948 فرض أيضاً على ”أرامكو“ التخلّي عن أجزاء كبيرة من الأراضي التي لم تكن تريدها، وذلك كلّ ثلاث سنوات. كانت الشركة الآن في سباق مع الوقت للعثور على النفط في أيّ مكان آخر ضمن ملكيّاتها المحوّلة، وستحثّ عمليّة البحث شركات النفط المتنافسة التي تملك امتيازات في الجوار على ممارسة نشاط مماثل. وكما الحال دائماً، كان الدافع الرئيسيّ للملك المال. لكن بإضافته هذا الشرط، كان يأمل، في نهاية المطاف، في

جعل شركة النفط ومساهميها الأميركيّين وحكومة الولايات المتّحدة التي فرضت ضرائب على أرباح ”أرامكو“ حلفاء له عندما وصل الخلاف حول الحدود إلى ذروته.

***

بينما كان السعوديّون يضعون اللمسات الأخيرة على الشروط الجديدة التي سيفرضونها على ”أرامكو“، تابع ثيسيجر رحلته. بعد أن وصل إلى أبو ظبي، التقى الشيخ شخبوط قبل عبوره مسافة مئة ميل إلى الداخل لمقابلة شقيق الشيخ زايد في واحة البريمي، هذا المكان الذي سيكتسب أهمّية إستراتيجيّة كبيرة جدّاً في السنوات المقبلة. تقع هذه الواحة عند قاعدة قرن الجزيرة العربيّة، وعلى مسافة متساوية من سواحل الخليج والمحيط الهنديّ. ولم تكن توفّر نقطة مراقبة طبيعيّة مطلّة على مشيخات الخليج فقط، لكنّها كانت تسيطر أيضاً على الطريق المؤدّية إلى سلطنة عمان لجهة الجنوب الشرقيّ التي استخدمها ثيسيجر قبل عام للهرب من ضبّاط ابن سعود. في النتيجة، كان أيّ شخص يحكم الواحة قادراً على السيطرة على جنوب شرق شبه الجزيرة.

لم تكن البريمي حوضاً صحراويّاً كالذي تُصوّره الكتب، بل مجموعة من بساتين النخيل التي تغذّيها الينابيع التي كانت تنبع في المنطقة المحيطة بها. كانت البساتين وحركة المرور التي تشهدها تموّل تسع قرى. كان شقيق شخبوط يسكن في إحدى القرى الستّ التي كانت تابعة لأبو ظبي. أمّا القرى الثلاث الباقية – بما فيها البريمي نفسها –، فكانت خاضعة اسميّاً لسلطنة مسقط. وفي قرية أخرى من قرى أبو ظبي، كان يعيش ممثّل ”نفط العراق“، وهو رجل بريطانيّ يُدعى ريتشارد بيرد.

من وجهة نظر تهكّمية، يمكن اعتبار السبب الرئيسيّ لمنح شركة IPC امتيازات أبو ظبي وعمان، هو في المقام الأوّل حرمان منافسيها الأميركيّين إياها. لكن، بعد أن اعتمدت في الماضي نهجاً مُريحاً للتنقيب عن النفط، بدأت الشركة تسارع لمجاراة الأمور، لأنّها أدركت أنّ ”أرامكو“ صعّدت نشاطها في جنوب شرق الجزيرة. الغريب أنّ العقبة الكبرى التي واجهتها كان الرجل الذي منحها الامتياز في المقام الأوّل، سلطان مسقط. إذ لم يرغب الأخير، الذي كان نفوذه في المناطق العمانيّة ضعيفاً، في وضع سلطته على المحكّ عبر إثارة الحساسيّات المحلّية، ولذلك لم يرغب في فرض عقوبات على النشاطات التنقيبيّة للشركة التي كانت تتطلّب موافقة القبائل المحلّية.

لتجاوز السلطان، كان ريتشارد بيرد يحاول في البريمي التفاوضَ على إمكانيّة الوصول إلى المناطق الداخليّة برفقة الرجلين اللذين عرّف عنهما كحرّاس له، شيخ محلّي والرجل الذي كان يتمتّع

بنفوذ حقيقيّ في المناطق الداخليّة، إمام عمان الذي كان منافساً للسلطان. كان لدى كلّ من الشيخ والإمام شكوك قويّة حول دوافع بيرد، إذ كانا متخوّفين من أن يؤدّي النفوذ الكبير لبريطانيا إلى وضع حدّ لتجارة العبيد المُربحة التي كان اقتصاد واحة البريمي لا يزال يعتمد عليها. قال بيرد متذمّراً: ''ولوج عمان مشكلة حسّاسة للغاية. لم يسبق لأيّ عروس أن شعرت بهذا الكمّ من الخجل لدى تقدّم الطرف الآخر إليها''. كانت عمليّة الإغراء في مرحلة حرجة، ولذا شكّل ظهور ثيسيجر في الخامس من نيسان/ أبريل 1948 وإعلانه خطّته لدخول هذه المنطقة الحسّاسة للغاية، ''بهدف الحصول على عيّنة من الماعز البرّي'' المعروف محلّياً بـ''الطهر''، تطوّراً غير مرغوب فيه على الإطلاق. عندما رسم بيرد رأس هذا الحيوان بالتفصيل قائلاً إنّه قد يكون منتفخاً أكثر محلّياً، غيّر ثيسيجر نبرته وقال إنّ النباتات والحيوانات الموجودة داخل عمان كانت مثيرة للاهتمام.[196]

196 IOR, R/25/599, Bird to Jackson, 17 April 1948; MEC, Paxton Papers, Bird to Lermitte, 13 June 1948, 'Note on Mr Thesiger'.

إنّ غريزة بيرد الأوّلية دفعته إلى التشكيك في ادّعاءات ثيسيجر. لاحظَ رجل النفط البريطانيّ أمراً طريفاً هو أنّه رغم أنّ المُستكشِف يقلّد البدو إلى حدّ استخدام رأس خنجره لإخراج قضيبه عندما كان بحاجة إلى التبوّل، ووصفَ ''السيّارة'' بأنها اختراع شيطاني، قَبِلَ عرضه بنقله بالسيّارة ''دون تردّد''. لكنّه سرعان ما اضطرّ إلى مراجعة موقفه. فقد كان لا يزال يتعيّن عليه زيارة منطقة كان ثيسيجر قد مرّ بها قبل عام ورأى فيها على حدّ قوله نفطاً يطفو على السّطح في أماكن عدّة. وقد أكّد ذلك الشائعات التي تواردت إلى مسامع بيرد، والتي لم يتمكّن حتّى الآن من التحقّق منها. أقرّ بأنّ ''ثيسيجر يعرف حتماً أين يمكن العثور على النفط''.[197]

197 IOR, R 15/2/599, Bird to Jackson, 17 April 1948.

عندما أخبر ثيسيجر بيرد لاحقاً أنّ القبائل التي تسكن المنطقة نفسها كانت موالية لابن سعود، أثار شكوك بيرد. فقد أدرك أنّ مثل هذه المعلومات ستساعد ''أرامكو'' والسعوديّين، لذا تساءل هل يعمل ثيسيجر لهم. فسأله بخبث هل وافق على العمل لدى الشركة الأميركيّة عندما اتّصلت به في لندن. قال لاحقاً: ''لقد كانت أشبه بطلقة رصاص وسط العتمة''. مع ذلك، أصاب بيرد هدفه. فقد قال ثيسيجر الذي أذهلته المعلومات التي كانت بحوزة بيرد أنّه رفض العرض، ما جعله يقرّ للوهلة الأولى بحقيقة العرض. وتابع قائلاً إنّه يعرف أنّ الأميركيين كانوا موجودين في أراضٍ تابعة لأبو ظبي. عقب هذه المحادثة، حذّر بيرد رئيسه من أنّ خصومهم تواصلوا مع ثيسيجر، وأوصى بضرورة مسارعة IPC أو الحكومة البريطانيّة إلى تجنيد خدماته.[198]

198 MEC, Paxton Papers, Bird to Lermitte, 13 June 1948, 'Note on Mr Thesiger'.

قال ثيسيجر في وقت لاحق: "كنتُ أكره جميع شركات النفط خوفاً من التغييرات وتفكّك المجتمع الذي ستتسبّب فيه حتماً". ولكن عندما تحدّث بعدها عن رحلاته، قال إنّه كان يتقاضى راتباً من IPC بصفته "وكيلاً متقدماً لاستكشاف المناطق البرّية". عندما تحدّث في "الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة" مرّة أخرى في تشرين الأول/ أكتوبر1948، قدّم وصفاً مفصّلاً لليوا التي "لم يسبق لرجل أوروبيّ أن رآها بعد". وقال عن أبنائها إنّهم "جميعهم يدينون بالولاء لشيوخ أبو فلاح من أبو ظبي". لكنّ ثيسيجر حرصَ على تجنب الإدلاء بشيء مرتبط بولاء القبائل المحلّية الأخرى لابن سعود الذي كان سفيره في لندن يجلس في الصفّ الأماميّ.199

199 Thesiger, *Arabian Sands*, p. 272; Morton, *Buraimi*, p. 48; Thesiger, 'A Further Journey Across the Empty Quarter', p. 40.

للمرّة الثانية، غادر ثيسيجر فوراً إلى أبو ظبي. كان نمط حملاته الاستكشافيّة المقبلة يتلاءم بدقّة مع أولويّات شركة "نفط العراق". وكان الهدف الفعليّ للرحلة التي أجراها لاصطياد دجاج الحبارى عبر ليوا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1948 هو البحث عن أدلّة على التدخل الأميركيّ المتزايد في المنطقة. وفي كانون الثاني/ يناير 1949، غامر جنوباً باتّجاه المناطق العمانيّة، حيث سبق له أن رصد آثاراً للنفط، وحيث أبدت القبائل مظاهر ولاء للسعوديّين. في مرحلة ما، قبل شروعه في هذه الرحلة، تلقّى بعض التدريبات من شركة النفط حول ما ينبغي البحث عنه. كانت تلك هي الرحلة التي رصد خلالها تلّتين: السلخ ومظمار. في مقالته التالية، التي نُشرت في **مجلة الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة**، أتى سريعاً على ذكرهما لكنّه لم يتحدّث مفصّلاً عن أهمّيتهما إلّا في كتابه الذي أصدره بعد وقت طويل. "كانت كلتاهما على شكل قبّة، وقد ظننتُ آسفاً أنّ تركيبتهما كانت من النوع المرتبط بالنفط، وفق الجيولوجيّين". كان أسفه مخادعاً تماماً.200

200 Morton, *Buraimi*, p. 48; Thesiger, 'A Further Journey Across the Empty Quarter', p. 39; Thesiger, *Arabian Sands*, p. 314.

***

وصل ثيسيجر مرّة أخرى إلى البريمي لتقصّي الأخبار عن الأزمة. كانت تصدر على مدى أشهر تقارير عن نشاط أميركيّ متزايد في المنطقة. وفي آذار/ مارس، أفادت IPC في قطر أنّ "أرامكو" تنشئ طرقات ونقاطاً استدلاليّة في المناطق الموجودة ضمن الملكيّة الممنوحة لها. بعد أسبوعين، وصلت أخبار من الشارقة مفادها أنّ طائرة تابعة لـ"أرامكو" شرعت في مسح الأراضي التي تقع

على حدود امتياز الشركة في عمان. ثمّ في 3 نيسان/ أبريل 1949 – قبل ثلاثة أيّام من وصول ثيسيجر إلى البريمي – رُصدت قافلة من السيّارات الأميركيّة الصّنع المجهّزة للسير على الطرق الوعرة تقلّ ستّة أميركيّين وسائقيهم العرب وحرّاساً، على الطريق الممتدّة بين دبي وأبو ظبي. رغم تصريح الأميركيّين بأنّهم يتوجّهون إلى دبي، في الوقت الذي وصل فيه الممثّل المحلّي عن "نفط العراق" للتحقيق، كانوا قد اختفوا؛ زاد هذا التصرّف الشكوك البريطانيّة حول تنقيب "أرامكو" عن النفط في المنطقة التي تقع في أقاصي شرق الأراضي التي كانت سعوديّة بلا منازع. بعد بضعة أيّام، أفاد بيرد أنّ مسؤولاً في شركة نفط أميركيّة اعترف له بأنّ شركته تتمتّع بدعم من وزارة الخارجيّة. ورأى بيرد أنّ الحكومة الأميركيّة تشجّع عن قصد الصّراع بين الشركات البريطانيّة والأميركيّة، فهي تراهن على أنّ اعتماد بريطانيا على الأموال الأميركيّة سيجعل الحكومة البريطانيّة متردّدة إزاء التعرّض إلى خطر المواجهة.

التزمت الحكومة البريطانيّة الصّمت بشأن مسألة الحدود حتّى الآن، وكان ذلك عائداً بصورة أساسيّة إلى الاختلافات بين الإدارات الحكوميّة في ما إذا كان ينبغي لها التطرّق إلى المسألة مع ابن سعود المُقعد أم لا، لأنّهم كانوا غير متأكّدين إن كانت مملكته ستدوم من بعده. لكنّ الشكوى الرسميّة التي تقدّم بها الشيخ شخبوط، في أعقاب صدور شائعات أخرى مفادها أنّ "أرامكو" كانت تمسح المنطقة التي تقع غرب ليوا، أرغمت الحكومة البريطانيّة على التدخّل. بعد أن سافر مسؤولو IPC إلى هناك، وحدّدوا موقع الشركة المنافسة في 21 نيسان/ أبريل، أجرى المسؤول السياسيّ البريطانيّ في أبو ظبي وممثّل IPC رحلة في السيّارة عبر الصّحراء لتسليم الفريق رسالة تطالبه بالانسحاب، وقد سلمها في اليوم التالي. اعترف علماء الجيولوجيا في "أرامكو" الذين التقوهم في موقع المخيّم أنّ خرائطهم تظهر أنّهم كانوا داخل أراضٍ تابعة لأبو ظبي. أوضح أحدهم قائلاً: "نذهب حيث يأخذنا حرّاسنا السعوديّون".[201]

[201] Morton, *Buraimi*, p. 76.

لم يكن من المستغرب أن يشكّك ريتشارد بيرد في صحّة ذلك، وخمّن أنّ الحرّاس لم يرافقوا الفريق لحمايته فقط، بل لممارسة بعض التهديدات عليه. بعد أن سمع من أحد العرب المُقيمين في البريمي عن تداول شائعات حول نيات السعوديّين السيطرة على الواحة قبل ظهور "أرامكو" على أطراف ليوا وعلى الطريق بين دبي وأبو ظبي، ذكرَ أنّ شيوخاً محلّيين في البريمي يعتقدون أنّ لدى ابن سعود مخطّطات لعمان، وأضاف: "وأنا كذلك".[202]

[202] MEC, Paxton Papers, Bird to Lermitte, 28 April 1949.

في لندن، قبلت ''الخارجيّة'' حجّة بيرد، وسرعان ما قدّرت تداعياتها. في حال تمكّن ابن سعود من إثبات وجوده في البريمي بين مشيخات الخليج وسلطنة مسقط، سيكون قادراً على منع ''نفط العراق'' من استخدام الواحة لإجراء استكشافات في أيّ من امتيازات أبو ظبي أو عمان. وقد تنبّأ بيرد بما سيحدث بعد ذلك. فبمجرّد إخراجه البريطانيّين من الواحة، ''ستتمكّن مجموعة من الأميركيّين، برعاية ابن سعود، من الدخول إلى مناطق لا يمكننا اختراقها أبداً... لا أعتقد أنّ القبائل ستلحق الضّرر بهم بسبب خوفها من ابن سعود''.[203]

203 IOR, R/15/2/465, FO to Bahrain, 7 May 1949; MEC, Paxton Papers, Bird to Longrigg, 10 April 1949.

سارعَ بيرد إلى مسقط على أمل أن تكون الأخبار عن تدخّل ''أرامكو'' قد أقنعت السلطان أخيراً بالتحرّك، لكنّه أُصيب بخيبة أمل. فقد رفض السلطان التوقيع على رسائل إلى شيوخ واحة البريمي يأذن لهم فيها بالتعامل مباشرة مع بيرد، ربّما لأنه لم يرغب في اختبار ولائهم. عندما عاد بيرد إلى البريمي، وحاول رغم ذلك رشوتهم لقبول سيادة السلطان، رفضوا ذلك. عندما طُلب من ثيسيجر إبداء رأيه، قال إنّه ''من غير المرجّح أن يفرض السلطان الحاليّ سلطته على المنطقة غير الآمنة في شرق أو جنوب البريمي... فهو ضعيف للغاية، ولا يحافظ على علاقات مباشرة كافية مع رجال القبائل''.[204]

204 IOR, R/15/2/549, memorandum, 4 May 1949.

حتّى ذلك الحين، كانت صحّة ابن سعود تتدهور بوضوح، وبدأت تظهر عليه علامات خرَف الشيخوخة. وعندما أُسقط العقيد حسني الزعيم وقُتل في آب/ أغسطس من ذلك العام في سوريا، وبعدما أعاد خليفته طرح مسألة الاتّحاد مع العراق، اعتقد الملك أنّ البريطانيّين كانوا يحرّضون الدول المجاورة على إزاحته. ردّاً على ذلك، في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1949، فعلَ بالضّبط ما كان يتوقّعه البريطانيّون، وطالبَ رسميّاً بقاعدة شبه الجزيرة القطريّة وواحة ليوا ومنطقة البريمي. رفضَ البريطانيّون طلبه بعد شهر.

على عكس ما صرّح به ثيسيجر علناً بشأن ولاءات القبائل المحلّية، أخبر الحكومة البريطانيّة سرّاً أنّ الحقائق لا تدعم قضيّتها. عندما رفضت الحكومة البريطانيّة المطالب السعوديّة، كان ثيسيجر على ساحل الخليج يستعدّ لتنفيذ اختراق آخر لسلطنة عمان. هذه المرّة كان يأمل في زيارة الجبل الأخضر المطلّ قبالة المناطق النائية للساحل. لكنّه كاد أن يتراجع عندما أرسل إمام عمان قوّة قوامُها مئة شخص لمحاولة قتله. كما أبلغ إدوارد هندرسون، وهو عضو آخر في شركة IPC في دبي،

عندما عاد أخيراً إلى الساحل، أن إيجاده وسيلة للهرب يشكّل إثباتاً، في حال كان هناك حاجة إليه، على أنّ ”السلطان لا يملك أيّ نفوذ على الإطلاق غرب الجبال“.[205]

205 MEC, Paxton Papers, Henderson to Lermitte, 20 March 1950.

عملَ هندرسون مع ثيسيجر في قسم العمليّات الخاصّة خلال الحرب، وكان يحترم رفيقه القديم الذي كانت خبرته سيّئة في عمليّات شركته. اختتم حديثه قائلاً: ”إنّ مواجهة ثيسيجر بحدّ ذاته هذا الكمّ من الصّعوبات في أرض الإمام وعجزه عن الوصول إلى مناطق معيّنة دليل على التعصّب المطلق لهذا الحاكم والصّعوبة التي سنواجهها“. لن تنقّب IPC عن النفط في الداخل العمانيّ في المستقبل المنظور. وكان خطر الاستغلال المحتمل لابن سعود لهذا الوضع غير المستقرّ يعني أنّ البريمي في خطر.

بغية سدّ الفجوة، اقترح ثيسيجر دعم زيد، شقيق الشيخ شخبوط، وتشجيعه على السيطرة على المنطقة التي تقع جنوب شرق البريمي. لكنّها بدت إستراتيجيّة جريئة للغاية لمسؤول بريطانيا الأعلى في الخليج، الذي أوصى، كما الحال دائماً، بتوخّي الحذر. فاقترح: ”من مصلحتنا السماح باستمرار الوضع القائم في الوقت الحاضر رغم طابعه الوهميّ... من الخطير جدّاً إحداث أيّ تغيير“. كان الإمام، على غرار ابن سعود، يتقدّم في العمر، وتصل باستمرار تقارير عن وفاته. كان هناك فرصة أن يتمكّن السلطان من الاستفادة من موت منافسيه لفرض سلطته على القبائل. في الواقع، لن يموت ابن سعود إلّا في 1953، في حين بقيَ الإمام على قيد الحياة حتّى 1954. لذا كان تجنب فعل أي شيء هو الخيار الأبسط. وعندما قبلت الحكومة النصائح الحذرة لموظّفيها في الخليج، كان كلّ ما في وسعها فعله هو الانتظار والأمل.[206]

206 IOR, R/15/6/250, Hay to Bevin, 25 April 1950.

10

مناصفة

رغم أنّ إعادة التفاوض السعوديّ على شروط امتياز "أرامكو" أثارت سباقاً على المطالبة بالربع الخالي، فإنّ ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بالتغيير الإضافيّ الذي اتّفقوا عليه مع الشركة في نهاية 1950، وكان له تداعيات أكبر على البريطانيّين، ليس في جنوب شرق الجزيرة العربيّة فقط، إنما في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

كان المال، كما الحال دائماً، هو القضيّة الأساسيّة لابن سعود الذي كان يعاني من نقص في السيولة، وقد بلغ عدد أفراد عائلته حينذاك نحو ألف شخص. رغم أنّه بالاتّفاق المعدّل في نيسان/ أبريل 1948 تمكّن من رفع حقوقه إلى النصف، أي إلى ثلاثة وثلاثين سنتاً للبرميل، فإنّه سرعان ما وجد سبباً للتأسّف على هذه الصفقة. فبعد أن سلّمت "أرامكو" – تحت ضغوط الخارجيّة الأميركيّة لمنح شركات النفط الأميركيّة المستقلّة حصّة من الصفقات في الشرق الأوسط – حصّتها من حقوق الاستكشاف إلى المنطقة المحايدة بين السعوديّة والكويت، وذلك بداية 1949، تمكّن السعوديّون من إعادة بيع هذا الإيجار لشركة أميركيّة أخرى كانت مستعدّة لدفع حقوق تُعادِل خمسة وخمسين سنتاً للبرميل. على إثر عمليّة البيع هذه، تمنّى ابن سعود أنّه ابتزّ "أرامكو" للحصول على المزيد.

تفاقم سخطُ السعوديّين عندما خفّضت "أرامكو" إنتاجها. بعد أن رافق إنتاج النفط العالميّ الطلب في 1949، مارسَ مديرو مشروع "مارشال" الضّغط على الشركة لخفض الإنتاج بغية خفض أسعارها. وبعدها تراجع الطلب، عندما دفعت الأزمة الماليّة التي شهدها ذلك العام الحكومة البريطانيّة إلى اتّخاذ إجراءات تمييزيّة بحقّ المنتجين الأميركيّين، عن طريق عرقلة مُستوردي النفط الذين كانوا يشترون النفط بالدولار. جرّاء هذه الضغوطات، خفضت "أرامكو" إنتاجها، وأرجأت خططها التوسّعية. وبما أنّ اتفاقيّة الامتياز ربطت الحقوق بالإنتاج، يعني انخفاض الإنتاج عائدات أقلّ على السعوديّين. لذلك، رأت وزارة الخارجيّة أنّ التأثير المشترك لهذه التحرّكات التي تتّخذها "أرامكو" قد يؤدّي إلى خفض دخل السعوديّة بمقدار 25 مليون دولار، أو بنسبة الربع.

أصاب هذا التداعي الكارثيّ للإيرادات ابن سعود في اللحظة التي بدا فيها أنّ منافسيه الرئيسيّين في العراق – الذين كانت مبيعاتهم بالجنيهات الأستراليّة ترتفع دون هوادة – ينفضون الغبار مجدّداً عن خطّة "سوريا الكبرى"، وكان البريطانيّون يرفضون مطالبته بواحة البريمي. كان على قناعة بأنّ هذه الأمور لم تكن وليدة المصادفة، وبأنّ البريطانيّين كانوا يحاولون تطويقه، فطلب من "أرامكو" هل باستطاعته اقتراض ستة ملايين دولار منها، ثمّ سارع إلى تحويل الأموال إلى سوريا في كانون الثاني/ يناير 1950، على أمل القضاء على الوحدة مع العراق. جاءت العلامات الأولى لأزمة ماليّة سعوديّة أخرى بعد أيّام عندما طلب وزير الماليّة سلفة مقابل تسديد مستحقّات كان من المقرّر أن يتقضاها في نهاية شباط/ فبراير. في اليوم نفسه الذي أودعت فيه "أرامكو" الأموال، أرسل أحد أبناء الملك مبعوثاً لمعرفة متى يمكن لسيّده أن يتوقّع الحصول على نصيبه، في حين كان أمناء الصناديق لا يزالون يحتسبون المال.

تجنّباً للاحتكاك مع السعوديّين وافقت "أرامكو" على كلّ طلب. لكنّ المديرين التنفيذيّين للشركة كانوا ممتعضين من الوجهة التي رصد لها ابن سعود القرض الذي بلغت قيمته ستة ملايين دولار، لأنّ الشكوك حول الامتياز تعني أنّهم لن يستطيعوا صرف المال إلى أجل غير مسمّى. في أوائل 1950، طلبوا المساعدة من الحكومة الأميركيّة، وكان ذلك يتعلّق في البداية بمسألة غير عاديّة نسبيّاً. فقد كانت National Geographic على وشك إعادة إصدار خريطتها لأفريقيا والشرق الأوسط التي أعطت قطر حينذاك مشيخات الخليج وحدود عُمان التي تمّ تمريرها بطريقة ما عبر الربع الخالي. إزاء رفض رسّام الخرائط الخضوع لضغوط الشركة، طلبت "أرامكو" من "الخارجيّة" إن كان بإمكانها إبقاء "هذه المناطق المُتنازَع عليها" من دون لون. تقدّم طبعة الخريطة، الصّادرة في آذار/ مارس 1950، دليلاً دامغاً على موافقة "الخارجيّة" على تقديم المساعدة. رغم شملها، عقب حملات ثيسيجر، المزيد من التفاصيل بالنسبة إلى تضاريس الربع الخالي، فإنّ الخطوط المنقّطة التي تشير إلى الحدود والتي كانت موجودة في الطبعة السابقة اختفت.[207]

207 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 11, Funkhouser, memorandum of conversation, 10 January 1950.

كانت إدارة ترومان متردّدة إزاء التورّط أكثر. وكان ديبلوماسيّوها في جدّة متشكّكين للغاية إزاء مطالبة السعوديّين بالبريمي، لأسباب ليس أقلّها أنّ الحاكم، ابن جلوي نفسه، اعترف سرّاً بأنّه لا أساس لها من الصحّة. فقد رأى أنّ النزاع الحدوديّ يشكّل تشتيتاً للانتباه عن أولويّته الرئيسيّة، وهي

إقناع السعوديّين بتجديد "اتفاقيّة قاعدة الظهران" التي انتهت صلاحيّتها خلال 1949. مقابل ذلك – ولممارسة الضّغط على البريطانيّين دون شكّ – أراد ابن سعود عقدَ تحالف عسكريّ رسميّ. لم ترغب واشنطن في تقديم هذا، لأنّها كانت تعلم أنّها ستكافح للحصول على موافقة الكونغرس في مواجهة الشكوك العامّة حول "التحالفات المتشابكة"، والمعارضة المحتملة للوبي إسرائيل. لكنّها في المقابل لم تكن تريد أن تفقد "أرامكو" امتيازها.

حاول الرئيس ترومان تهدئة السعوديّين وشراء الوقت عن طريق إجراء مسح شامل للمتطلّبات العسكريّة للبلاد. وإذ أدرك أنّ الملك كان يمارس ضغوطاً على "أرامكو" لأنّه كان متخوّفاً من المخطّطات البريطانيّة، نقلت إليه إدارته أيضاً وعداً من لندن بأنّ الحكومة البريطانيّة ستستخدم نفوذها لمنع "استخدام القوّة من بلد شرق أوسطيّ ضدّ بلد آخر". لكنّ هذا كان أقلّ بكثير ممّا كان يبتغيه ابن سعود. صرّح مرّة بأنّ "البريطانيّين شعبُ 'لكن'. يدلون بتصريحات ويمنحونك ضمانات، لكنّها دائماً تنتهي بـ'لكن'". في شباط/ فبراير 1950، قدّم السعوديّون طلباً صعباً آخر إلى "أرامكو" هو أن تصدر الشركة فاتورة الحماية لمشروع "تابلاين" الذي شارف على الانتهاء. نظراً إلى أنّ خط الأنابيب كان موازياً للحدود العراقيّة، تنبّه السفير الأميركيّ فوراً إلى ما يحاول السعوديّون فعله: "تحميل 'أرامكو' التكلفة الكاملة لحماية الطرقات الشماليّة للمملكة من التهديد الهاشميّ المبالغ فيه على أطرافها".[208]

208 *FRUS*, 1949, Vol. VI, p. 1624, Editorial Note; 1950, Vol. V, p. 1147, Childs, memorandum of conversation, 23 March 1950; 1950, Vol. V, p. 25, Note 2.

كونها عاجزة عن منح السعوديّين ما يبتغون، ارتأت "الخارجيّة" أنّ ممارسة بعض الديبلوماسيّة الشخصيّة كانت في محلّها. وفي منتصف آذار/ مارس، انطلق مساعد وزيرة الخارجيّة الأميركيّة، المسؤول عن الشرق الأوسط، جورج ماكغي، إلى لقاء ابن سعود في الرّياض، حاملاً رسالة شخصيّة من ترومان إلى الملك، يقول فيها إنّه يأمل بشدّة استمرار "علاقات الصّداقة". رغم أنّه لم يكن يتجاوز الثمانية والثلاثين، كان ماكغي مطّلعاً تماماً على الموضوع ورهاناته. فقد تدرّب على الجيولوجيا، وصَنع ثروة ضخمة في قطاع النفط لدرجة أنّه أصبح بإمكانه العمل لمصلحة المصلحة العامّة في "الخارجيّة". كان حماه، إفيريت ديغولر، جيولوجيّ النفط الرائد بين أبناء جيله، وأوّل رجل يقدّر مدى ضخامة احتياطات النفط في السعوديّة.[209]

209 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 1128, Truman to Ibn Saud, n.d.

ذكر ماكغي لاحقاً: ”أملي الأساسيّ إرساء أساس سليم للعلاقات الأميركيّة–السعوديّة لمساعدة ’أرامكو‘ على الحفاظ على مكانتها: الشركة الوحيدة المطوِّرة للنفط السعوديّ“. خلال المحادثات التمهيديّة التي أجراها مع مستشاري ابن سعود لدى وصوله إلى الرياض، رفض الدعوة للانخراط في النزاع الحدوديّ في الربع الخالي، وعبّر عن تعاطفه مع مخاوفهم من الهاشميّين. بعد ثلاثة أيّام، تناول العشاء مع ابن سعود الذي رفّه عنه بإخباره قصّة استيلائه على الرياض في 1902 برفقة أربعين مناصراً له.[210]

[210] McGhee, *Envoy to the Middle World*, p. 186.

لم تبدأ مساومات الملك العجوز مع مستشاريه إلّا بعد أن بات مُقعداً في السّرير. كان ماكغي مُصرّاً على عجز حكومته عن الانخراط في التحالف. وبدلاً من ذلك اقترح معاهدة صداقة، ولإضفاء نكهة على ذلك العرض المخيّب، عرض تقديم قرض وخبرة فنّية بموجب ”برنامج النقطة الرابعة للمساعدة“ الذي كشف عنه ترومان في العام السابق. كما ربط بحكمة احتمالَ وجود أسلحة – هذا ما أراده ابن سعود فعليّاً – بالتجديد السعوديّ للاتفاقيّة الأساسيّة.

غادر ماكغي الرّياض مع الانطباع بأنّه حصل على اتّفاق ملَكيّ حول مقترحاته لكنّه لم يخفّف الضّغط على ”أرامكو“ كثيراً. ذلك أنّ الشؤون الضريبيّة للشركة خضعت للتمحيص الدّقيق من الرجل المسؤول عن خزانة ابن سعود في مكّة، عبد الله سليمان.[211]

[211] Grafftey-Smith, *Bright Levant*, p. 267.

كان سليمان يحاول أن يفهم تأثير التغيير الغامض في علاقة ”أرامكو“ التجاريّة مع مساهميها، الذي جعل شركة النفط مربحة أكثر، وقادرة تالياً على دفع المزيد من الضرائب في الولايات المتّحدة حيث كان مقرّها. كشف هذا التحقيق عن حقيقة مدهشة لدرجة أنّها دفعت وزير الماليّة إلى إعادة ملء كأسه: في 1949، فاقت الضّرائب التي أُرغمت ”أرامكو“ على دفعها للحكومة الأميركيّة الضّرائب الفعليّة التي دفعتها للرّياض.[212]

[212] *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 52, Acheson to US Embassy, Saudi Arabia, 1 June 1950; p. 56, Childs to Acheson, 13 June 1950.

ظهرَ ابتكار حديث في فنزويلا أضاء الطريق أمام السعوديّين. فقد سنّت حكومة أميركا الجنوبيّة للتوّ قانوناً يفرض على جميع أرباح شركات النفط رسوماً بنسبة 50%. لو طبقت السعوديّة قانون المناصفة هذا على ”أرامكو“ في 1949، لتمكّنت من انتزاع ثلاثة وثلاثين مليون دولار إضافيّة من الشركة.

صار احتمال فرض ضريبة مماثلة أكثر جاذبيّة بعد أن كشف خبير في الضرائب الأميركيّة، استخدمه السعوديّون، عن الشكّ الوحيد الذي كان لا يزال قائماً بالنسبة إلى ضريبة المناصفة هذه. فقد تمكّن هذا الرجل من التأكيد لعبد الله أنّ رفع الضرائب لن يضرّ قدرة "أرامكو" على الاستثمار في عمليّاتها السعوديّة، إذ يمكن للشركة، بموجب القانون الأميركيّ الحاليّ، التعويض عن هذه الفاتورة الضريبيّة الأجنبيّة الجديدة بديونها الضريبيّة المحلّية. فما دام السعوديّون يفرضون على "أرامكو" ضرائب لا تفوق ما تدين به الشركة للحكومة الأميركيّة، فإنّ دافع الضرائب الأميركيّ هو الذي سيعاني وليس هم أو الشركة. في أيّار/ مايو 1950، أخبر سليمانُ بيل إيدي – الوزير الأميركيّ السّابق في جدة الذي كان يعمل حينذاك لدى "أرامكو" – أنّ حكومته تعتزم "الحصول على حصّة أكبر من أرباح 'أرامكو'".[213]

213 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 52, Acheson to US Embassy, Saudi Arabia, 1 June 1950.

نتيجة إدمان سليمان الكحول، لم يكن المسؤولون في "أرامكو" متأكّدين من مدى جدّيته، وعرضوا في البداية تأجيل تسديد القرض السوريّ الذي تبلغ قيمته ستة ملايين دولار، والذي كان من المقرّر أن يباشر السعوديّون به في آب/ أغسطس. عندما تبيّن أنّ وزير الماليّة لم يكن يناور، أدركوا أنّ نفوذهم محدود للغاية. فحتّى لو حسمت الشركة كلّ الدّيون التي يدين لها السعوديّون بها، كان المبلغ يساوي نصف ما يجنيه السعوديّون سنويّاً في حال طبّقوا القانون الفنزويليّ. في حزيران/ يونيو، وجّه عبد الله سليمان إنذاراً نهائيّاً إلى "أرامكو"، داعياً إيّاها إلى المساهمة بما لا يقلّ عن عشرة ملايين دولار سنويّاً في صندوق للرّعاية الاجتماعيّة، وتكبّد تكاليف البنية التحتيّة الجديدة، والموافقة على الدفع المؤجّل لجميع الفواتير حتّى كانون الثاني/ يناير من العام التالي. بما أنّه لا يمكن تعويض أيّ من هذه التكاليف مقابل ضريبة الشركة الأميركيّة، كان الهدف من هذا الطلب جعل المناصفة الخيار البديل. في تمّوز/ يوليو، أبلغ رئيس "أرامكو" السفير الأميركي في السعوديّة أنّه لا يمكنه الذهاب أبعد من ذلك، فتقديم المزيد من التنازلات "عدا كونه سيحثّ الحكومة السعوديّة على تقديم المزيد من المطالب هو أمر غير حكيم من الناحية الماليّة". في الشهر التالي، أذنَ مجلس إدارة "أرامكو" لموظّفيها بإعادة التفاوض على اتفاقيّة 1933 بموجب المناصفة. بفعلها ذلك، كانت تطوّع في الواقع دافعي الضرائب الأميركيّين لتمويل نمط حياة العائلة المالكة السعوديّة.[214]

214 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 63, Childs to Acheson, 25 July 1950.

مع أنّها كانت أخباراً سيّئة لدافعي الضرائب في الولايات المتحدة، فإنّها شكّلت أخباراً سارّة لماكغي. رغم رفض الرئيس طلبه في وقت سابق من ذلك العام، بالحصول على مليار جنيه من المساعدات لدعم بلدان الشرق الأوسط وجنوب آسيا التي كان مسؤولاً عنها، كان يرى أنّ الأهمّية الإستراتيجيّة للسعوديّة تتزايد. ونتيجة اندلاع الحرب الكوريّة في نهاية حزيران/ يونيو، بدا نشوب حرب مع روسيا السوفياتيّة أكثر احتمالاً. وفقاً لهذا السيناريو ستكتسب "الظهران" أهمّية كبيرة لأنّها كانت القاعدة الجويّة الوحيدة التي تضع القاذفات الأميركيّة ضمن دائرة القصف من جنوب روسيا الصناعيّ. لقد اتّضح أنّ الإعانة المقنّعة للسعوديّين كانت مسألة ملحّة.

كان هناك سبب آخر لرضى ماكغي عن هذه النتيجة. فقد شعر أنّها سترغم البريطانيّين الذين كانوا يقاومون ضغوطاً مماثلة من الحكومة الإيرانيّة، لزيادة الحقوق التي كانت تدفعها شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة، على تقديم عرض مماثل. كان مسؤولو "الخارجيّة" قلقين إزاء تأثّر دول الشرق الأوسط بالشيوعيّة، وكانوا يخشون من تداعيات التعطيل الذي قد يحدث في حال خسرت "أرامكو" أو تخلّت عن الامتياز السعوديّ. لكنّ هناك طريقة أخرى لتعريض السعوديّين للشيوعيّة، وذلك في حال رضخت إيران المجاورة للتأثير السوفياتيّ؛ يتسبّب العناد البريطانيّ في تفاقم هذا الخطر، في رأي واشنطن. تذكّر ماكغي في وقت لاحق: "ما إن صار واضحاً أنّ 'أرامكو' ستقدّم تنازلات كبيرة إلى السعوديّة، علمتُ أنّه علينا تحذير البريطانيّين لتحصل شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة على فرصة لتحسين عرضها لإيران".[215]

215 McGhee, *Envoy to the Middle World*, pp. 320–21.

***

حتّى ذلك الحين، كانت كبرى شركات النفط العاملة في الشرق الأوسط، وهي "النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة"، قد قزّمت "أرامكو". لكن عندما تأسّست قبل ثلاثين عاماً، كانت الشركة المحدثة قد دخلت مؤخراً إلى سوق يهيمن عليها منافسون مترسّخون، وكانت بحاجة إلى المزيد من العملاء ورؤوس الأموال. تحقّق هذا الهدف في 1914، عندما أعلن وينستون تشرشل، الذي كان في ذلك الوقت رئيس البحريّة، أنّ حكومة جلالة الملك ستموّل الاثنتين، باستثمار بقيمة مليونَي جنيه إسترليني، وعقدٍ مدّتُه عشرون عاماً لتزويد البحريّة بوقود مخفَّض الأسعار. بتحفيز من سيّد البحريّة السابق على "فعل أسوأ ما في وسعنا لإحكام سيطرتنا... ولإبقائها على الدوام شركة بريطانيّة بالكامل"، اشترت الحكومة البريطانيّة غالبيّة أسهم الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، واحتلت

مقعديْن في مجلسها الإداريّ. كانت النتيجة عصيّة على الوصف. فقد كانت الشركة، وفق اعتراف إرنست بيفن، "حكوميّة فعلاً"، لكنّه شعر أنّه لا يملك أيّ سلطة أو نفوذ... لفعل أيّ شيء على الإطلاق". [216]

216 Yergin, *The Prize*, p. 159; TNA, CAB 195/4, meeting of 3 June 1946; Louis, *The British Empire in the Middle East*, p. 56.

وصف تشرشل، ذات مرّة، الامتياز الإنكليزيّ–الإيرانيّ بأنّه "مكافأة من أرض الأحلام تفوق بكثير أفضل آمالنا". حتّى عندما توصّل الإيرانيّون إلى النتيجة نفسها، وفرضوا إعادة التفاوض على الصّفقة في 1933، كانت النتيجة في أيّ حال أفضل للشركة، إذ إنّها أطالت حقوقها لستّين سنة، وحفرت في الصّخر معدلات الضرائب التي يمكن للإيرانيّين فرضها على الشركة حتّى 1963. كانت مراجعة هذا الاتّفاق "آخر شيء ترغب فيه الشركة"، ففي 1948، صرّح رئيس مجلس إدارة الشركة الغلاسكويي البغيض، السير ويليام فرايزر، بأنّه "لا يمكن لأيّ امتياز جديد أن يكون مناسباً... بقدر ذاك الموجود حاليّاً". في النتيجة، شكّل سحب قانون المناصفة الفينيزويليّ إلى طاولة المفاوضات في العام التالي تطوّراً غير مرغوب فيه مطلقاً. [217]

217 Churchill, *The World Crisis 1911–14*, p. 132; Abdelrehim, 'Oil Nationalisation and Managerial Disclosure', p. 126.

بالنسبة إلى كلّ من الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة والحكومة البريطانيّة، كانت المخاطر التي تنطوي عليها مفاوضات 1949 ضخمة، لأنّ الحرب حوّلت المشروع إلى شركة ضخمة. في حين كانت "أرامكو" تنتج نصف مليون برميل نفط في اليوم، كانت الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة تدرّ أرباحاً بمقدار النصف تقريباً. كان يُعالَج ما يقارب ثلاثة أرباع هذا الإنتاج في المصفاة في عبادان على قناة شطّ العرب. بعد التوسّع الهائل الذي شُوهد في زمن الحرب، صار المصنع أكبر مصفاة في العالم و"أهمّ استثمار منفرد ما وراء البحار" لبريطانيا. وصفه أحد الشباب الإيرانيّين بـ"المذهل". كان "مجمّعاً شاسعاً ينفث اللهب ويتصاعد منه الدخان"، مصنوعاً من خزّانات وأنابيب ومداخن رفيعة عالية تبدو كأنّها تتمايل وسط السراب، وكانت قدرته تفوق بأربع مرّات قدرة منافسه لدى "أرامكو" الذي يقع في الخليج في رأس تنورة. كانت تفوح منه رائحة الكبريت والكيروسين في حين كان يقطّر النفط الخام ويحوله إلى نفوذ بريطانيّ. [218]

218 Marsh, 'HMG, AIOC and the Anglo-Iranian Oil Crisis', p. 147; Hardy, *The Poisoned Well*, p. 109.

لم تزوّد مصفاة عبادان الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة بالوسائل اللازمة لخوض حرب أخرى فقط، بل ولّدت أيضاً أرباحاً ماليّة كان هناك حاجة ماسّة إليها، وصلت قيمتُها إلى مئة مليون جنيه إسترليني سنويّاً بالعملة الأجنبيّة، وذلك نتيجة مبيعات النفط بالجنيه الإسترليني، ودفعت مبالغ ضخمة للحكومة البريطانيّة على شكل ضرائب وأرباح. بكلفة نحو خمسة شلنات للطن الواحد، كان المصنع يحوّل النفط الخام الإيرانيّ إلى سلعة كانت تُباع في أوروبا بسعر يفوق هذه الكلفة بعشرين مرّة. ثمّ فرضت الحكومة البريطانيّة ضريبة على أرباح الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، في حين كانت تحصل على حصّة من الأرباح كونها تملك غالبيّة الأسهم، وفرضت ضريبة على الأرباح التي تدفعها الشركة لمساهميها البريطانيّين الآخرين. خلال السنوات الثلاث الممتدّة من 1948 حتّى 1950، جنَت الحكومة البريطانيّة نحو 116 مليون جنيه إسترليني.[219]

219 Abdelrehim, 'Oil Nationalisation and Managerial Disclosure', pp. 117–21, 126.

لم يشمل هذا المبلغ الضّخم حتّى الضّريبة التي كانت تتقاضاها الحكومة البريطانيّة على أرباح أكثر من خمسين شركة تابعة للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة. وقد أعفى مجلس التجارة البريطانيّ الشركة من ضرورة دمج هذه الأرباح في تقريرها السنويّ، لأن فعل ذلك – هذا ما أصر عليه مديرو الشركة –سيكون "مضلّلاً".[220]

220 Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 37.

كان استخدام كلمة "الكشف" ليكون أكثر دقّة. ذلك أنّ الشركات التابعة كانت تشارك في نشاطات التوزيع والتسويق، أي نشاطات مرحلة ما بعد الإنتاج، التي كانت تشكّل حتّى ذلك الحين الحيّز الأكثر ربحاً في عمليّات شركات النفط. بالسماح للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة بتحييد التقارير الماليّة للشركات التابعة لها، كانت الحكومة البريطانيّة تتواطأ فعليّاً في حجب الحقائق. وكانت الشركة تُعيد استثمار معظم الأموال التي كانت تحصل عليها من استخراج النفط الخام الإيرانيّ، وتكريره في عبادان، في شركات تسويق فرعيّة تحقّق أرباحاً لم يكن لدى الإيرانيّين أيّ مطالبات في شأنها. وكما أقرّ وزير الوقود والطاقة البريطانيّ سرّاً، إنّ "الفُرس لا يجنون أبداً القدر الذي نجنيه".[221]

221 TNA, CAB 195/9, meeting of 23 April 1951: Philip Noel Baker made the remark. Elm, in *Oil, Power and Principle*, p. 102.

تشير التقديرات إلى أن الأصول الإيرانية لشركة AIOC تمثل 10% من إجمالي أصول الشركة التي تبلغ 286 مليون جنيه إسترليني.

كانت تساور ''الفُرس'' شكوك حول حقيقة الأمر. لذا، قبل تجديد شروط الصّفقة، عيّنوا أستاذ قانون فرنسيّاً يُدعى جيلبرت غيدل لمراجعة اتفاقيّة الامتياز الحاليّة وإلقاء نظرة فاحصة على عمليّات الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة. عدا اكتشاف غيدل وجود خلل في أساس الصفقة الحاليّة، ولفجوة شاسعة ومتنامية بين ما حقّقته كلّ من الحكومتين البريطانيّة والإيرانيّة من هذا الترتيب، كُشف النقاب عن أرباح الشركات التابعة للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، وهو السرّ الذي بذلت الشركة، بتواطؤ من الحكومة البريطانيّة، قصارى جهدها لإخفائه.

استخدم وزير الماليّة الإيرانيّ تقرير غيدل ليتحجّج بأنّ بلاده تستأهل حقوقاً بقيمة جنيه إسترليني للطن الواحد. لكنّ الرئيس البغيض للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، فرايزر، ردّ على حججه بتقديم عرض نهائيّ بنسبة 6/12، كان أقلّ من ثلثي القيمة التي طالب بها وزير الماليّة. تحجّج فرايزر بوقاحة بأنّ السبب الرئيسيّ لعجز إيران عن الحذو مثل فنزويلا والمطالبة بنصف أرباح شركته أنّ الشركات التابعة للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة تمارس نشاطها خارج البلاد. فأشار الإيرانيّون إلى أنّه من دون نفطهم لن يكون لدى الشركات الفرعيّة ما تبيعه.

تطلّب الأمر تدخُّل الشاه الإيرانيّ لكسر الجمود. فبعد أن أصدر تعليماته إلى وزرائه الذين لم يرحّبوا بقبول عرض فرايزر، وُقّعت ''الاتفاقيّة التكميليّة''، وفق الوصف الذي أعطته الشركة للصفقة، في 17 تمّوز/ يوليو 1949. وكان المسؤولون التنفيذيّون في الشركة يأملون في حصول الشاه على موافقة المجلس الإيرانيّ على تلك الترتيبات، قبل أن تُحَلّ في نهاية الشهر.

غير أنّ التصديق لم يحدث. فالاتفاقيّة التكميليّة لم تتطابق مع صفقة المناصفة التي طلبها الإيرانيّون، ولم تتطرّق إلى طلبهم الحصول على جزء من أرباح الشركات التابعة للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة. عندما أعلنت الشركة، في الوقت نفسه، وبحماقة، تحقيقها ربحاً غير مسبوق، كان بديهيّاً ألّا يؤثر ذلك في وزير الماليّة. ولإعاقة فرص التصديق على الصّفقة في البرلمان، كُشف عن تقرير غيدل علناً. ثمّ تحدّث النوّاب المعارضون في المجلس خلال الأيّام الأخيرة للدورة لمنع التصديق على الاتفاقيّة.

أنفق البريطانيّون الكثير من الأموال لضمان انتخاب مجلس جديد متعاطف معهم في أوائل 1950. لكن اتّضح أنّ اعتقادهم أنّ غالبيته المؤيّدة لبريطانيا ستصدق بسرعة على ''الاتفاقيّة التكميليّة'' كان خطأً. في الانتخابات، فاز ائتلاف جديد يطلق على نفسه اسم ''الجبهة الوطنيّة''، وكان معارضاً للاتّفاق الإنكليزيّ–الإيرانيّ، بثمانية مقاعد. وألقت الجبهة، بقيادة وزير ماليّة سابق يُدعى محمّد مصدق، اللوم على التدخّل الأجنبيّ في مشكلات إيران الكثيرة، ووعدت بتغيير جذريّ.

نجح مصدق وزملاؤه في إرغام المجلس على إحالة "التكميليّة" على لجنة برلمانيّة للمزيد من التدقيق، ثمّ تمكّنوا من ضمان ستّة من أصل ثمانية عشر مقعداً في اللجنة. وأصبح مصدق رئيسها.

أقال الشاه رئيس وزرائه ووزير الماليّة وعيّن جنرالاً هزيلاً لديه ثقة مفرطة بنفسه يُدعى علي رَزم آرا رئيساً جديداً للوزراء. كان رَزم آرا واثقاً أنّه باستطاعته الحصول على موافقة المجلس على "الاتفاقيّة التكميليّة" في حال قدّمت الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة بعض التنازلات. بتشجيع أميركيّ، طالب الشركة بالمزيد من الشفافيّة، كما طالبها بخصّ الإيرانيّين بالمعاملة نفسها التي تخصّصها للزبون المفضّل للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة: البحريّة الملَكيّة.

كان رَزم آرا يتمتّع بدعم بريطانيّ وأميركيّ متحفّظ، ولذا كان من المفترض أن يتوقّع ردّاً متعاطفاً. لو أنّه حظيَ بردّ إيجابيّ واحد في تلك المرحلة، لتغيّر التاريخ. لكنّ المديرين الإنكليز والإيرانيّين رفضوا مقترحاته كافة، فآخر شيء كانوا يريدونه أن يداعب ضوء الشّمس دفاتر الشركة، لأنّ الإيرانيّين قد يكتشفون حينذاك ما تحقّقه شركات التسويق التابعة لهم فعليّاً. وقد لقيت مواقفهم دعماً من الحكومة البريطانيّة التي شهدت تقلّص غالبيتها إلى شخصيّات منفردة في انتخابات شباط/ فبراير تلك، وكانت ستفقد الكثير من عائداتها في حال أُعيد تحديد الامتياز لمصلحة الإيرانيّين. في محادثات مع السفير الأميركيّ لدى لندن في آب/ أغسطس 1950، دافع بيفن عن الاتفاقيّة التكميليّة بوصفها "سخيّة"، ورفض إعطاء أيّ ضمانات بسبب "مَيل الإيرانيّين إلى المطالبة دائماً بالمزيد".[222]

222 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 580, Douglas to Acheson, 12 August 1950.

***

نتيجة قلقه إزاء عواقب استمرار العناد البريطانيّ، زار مساعد وزيرة الخارجيّة جورج ماكغي، في أيلول/ سبتمبر، لندن، في محاولة لإقناع نظرائه البريطانيّين بالموافقة على طلبات رَزم آرا، لكنّه لم يتوصّل إلى أيّ نتيجة. ورغم وجود مؤشّرات كثيرة على أنّ حزب "توده" المدعوم من الشيوعيّين يحقّق تقدّماً في إيران، اعتقد البريطانيّون أنّ التوقّعات الأميركيّة بالانهيار الوشيك لإيران واستيلاء موسكو عليها أمرٌ مبالغ فيه. حتّى عندما حذّرهم ماكغي من أنّ "أرامكو" كانت على وشك تقديم امتياز إلى السعوديّين "كبير جداً... لدرجة أنّه من غير المحتمل أن يصدّق الإيرانيّون على... الاتفاقيّة التكميليّة"، لم يتزحزح البريطانيّون. كما لم يكن ردّ فعل الشركة أفضل. ذكر لاحقاً: "أخبرني مجلس الإدارة، في الواقع، أنّه يفترض بي الاهتمام بشؤوني الخاصّة. كانوا يعرفون عن

إيران أكثر ممّا كنا نعرفه". قال له المديرون الإنكليز والإيرانيّون: "إذا أعطيتَ الإيرانيّين إنشاً، سيأخذون مِيلاً".[223]

223 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 580, Douglas to Acheson, 12 August 1950.

فليكنْ ذلك، قال ماكغي لنفسه. بعد أن حاول إنقاذ البريطانيّين من أنفسهم، عاد إلى دياره، واستدعى كبار المسؤولين التنفيذيّين في "أرامكو" والسّفير الأميركيّ في السعوديّة لمقابلته في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر. قبل يومين، كان السعوديّون قد رفعوا الرّهان، بفرض ضريبة دَخلٍ استهدفت "أرامكو"؛ قال ماكغي لرجال النفط إنّه يفضّل "التكيّف مع المستجدّات". اتّفق ممثّلو "أرامكو" على قدرتهم على دفع المزيد، فقد اجتذبتهم صفقة المناصفة الضريبيّة، "إذ لن يترتّب عليها أيّ نفقات إضافيّة للشركة". عندما قال ماكغي إنّه لا يستطيع استباق ردّ وزارة الخزانة على هذا الترتيب، صار من الواضح أنّه سبق للشركة أن أدت واجبها. فقد أخبره نائب رئيس "أرامكو"، جيمس تيري دوس، أنّ مسؤولي "الماليّة" الذين سبق أن اتّصل بهم لم يبدوا "قلقين، بصورة خاصّة"، بشأن هذه المسألة. لا بدّ أنّ هذه الأخبار سرّت ماكغي، فقد كان على وشك الحصول على الدعم المقنّع للسعوديّين الذي كان يرغب فيه من دون الحاجة إلى الحصول على موافقة الكونغرس أوّلاً.[224]

224 *FRUS*, 1950, Vol. V, pp. 106–9, Funkhouser, memorandum of conversation, 6 November 1950.

لم تدم مفاوضات "أرامكو" مع الحكومة السعوديّة التي تزامنت مع افتتاح مشروع "تابلاين" سوى شهر واحد تقريباً. كان ترومان قد ساعد على تمهيد الطريق بتأكيد أنّ الولايات المتّحدة ملتزمة الحفاظ على "استقلالها وسلامتها الإقليميّة" في السعوديّة. في 10 كانون الثاني/ يناير 1951، شرح دوس لريتشارد فانكهاوسر، مساعد ماكغي، تفاصيل الصفقة كاملة. بإغراء الديبلوماسيّ الشابّ بأرقام العام الماضي، من حيث إجماليّ الأرباح والمصروفات والضرائب الأميركيّة، دون أن ينسى الحقوق والإيجارات والمعدّليْن الجديديْن للضريبة السعوديّة، طالب دوس بأكثر من 110 ملايين دولار للحصّة السعوديّة من الأرباح الصافية للشركة. بمجرّد أن تُقسَّم حصّة الرّبح الصافي هذه إلى إنتاج قدرُه 538 ألف برميل في اليوم، يتم الحصول على نتيجة مناسبة للغاية. بموجب الترتيب الجديد الذي تمّ التفاوض عليه للتو، ستصل رسوم 1950، وفقاً لحسابات السيّد دوس، إلى 56 سنتاً تقريباً للبرميل الواحد، أي بزيادة قدرُها سنت واحد على العرض الذي وافق عليه السعوديّون، والذي طرحته شركة "نفط المحيط الهادئ الغربيّ" قبل عامين. سواء أكان فانكهاوسر قادراً أم لا

على متابعة عمل دوس، فقد فهمَ النقطة الأساسيّة. كتبَ في برقيّة يلخّص فيها مضمون الصّفقة بأنّها ”مُوازية لأعلى صيغة موجودة، وتبدو مُنصفة في الأساس“.[225]

225 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 1190, Truman to Ibn Saud, 31 October 1950; *FRUS*, 1951, Vol. V, p. 277, Funkhouser, memorandum of conversation, 10 January 1951; *FRUS*, 1951, Vol. V, p. 283, Acheson to Certain Diplomatic and Consular Posts, 25 January 1951.

كان اختيار فانكهاوسر لهذه الصياغة معبّراً، ذلك أنّ المظاهر كانت خدّاعة، ولم تكن الصّيغة في الحقيقة مُنصفة على الإطلاق. فعلى غرار الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، كانت ”أرامكو“ تحاول التلاعب بربحها. فالرقم الذي رست على أساسه المناصفة، وهو الرّبح الإجماليّ لها، كان منخفضاً، لأنّ الشركة باعت النفط لمالكيها الأميركيّين الأربعة بنسبة حسم كبيرة. بعدها، حصد المالكون الأرباح عندما باعوا هذا النفط للمستهلكين بسعر الصّرف. ولم يدرك السعوديّون، حتّى منتصف 1953، ما يجري – أنّهم خسروا نحو مئة مليون دولار – وضغطوا على ”أرامكو“ لتغيير الأساس الذي احتُسبت وفقه المناصفة. رضخت ”أرامكو“ للضّغط، وارتفعت بعدها عائدات السعوديّين بنسبة 50% تقريباً لتصل إلى 83 سنتاً للبرميل.

في أوائل 1951، كان كلّ ذلك رهناً بالمستقبل. فالمهمّ حينذاك كان أن تحدّد ”أرامكو“، بدعم من الحكومة الأميركيّة، عرضاً سخيّاً، ستترتّب عليه تداعيات زلزاليّة عندما رفضت شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة، المدعومة من المُساهِم الرئيسيّ في الحكومة البريطانيّة، التزامه إلى حين فوات الأوان.

11

منعطف مشؤوم

رغم اختلاف البريطانيّين والأميركيّين حول هل كانت إيران على حافة الانهيار، صدر قرار الحكومة الإيرانيّة بتأميم شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة عام 1951، في وقت كان البلد يواجه فيه مرحلة محفوفة بالمخاطر. كان إخفاء الشركة الفعّال أرباحَها يعني أنّ عائدات النفط لا تمثّل سوى جزء صغير من الدّخل القوميّ الإيرانيّ. ظلّت البلاد دولة فقيرة يغلب عليها الاقتصاد الزراعيّ. فقد كان أكثر من نصف سكّانها البالغ عددهم سبعة عشر مليون نسمة من المزارعين الفلّاحين الأمّيين الذين يكسبون عيشهم من العمل في قطع الأراضي التي يستأجرونها من ملّاك الأراضي الغائبين، وكانوا يبيعون الفائض محلّياً. تأثّرت سبُل معيشتهم على نحو سيّئ جرّاء الاحتلال خلال الحرب والتضخّم؛ أدّى التلَف الواسع للمحاصيل خلال 1949 و1950 إلى تفاقم الأمور، ما تسبب في تسريع الهجرة الجماعيّة من الرّيف إلى المدن خصوصاً طهران.

جعل غياب القيادة السياسيّة إيران غير مجهّزة لمواجهة تحدّيات التوسّع الحضريّ السريع. كان الشاه، الذي واجهه ويندِل ويلكي عندما كان في سنّ الثانية والعشرين، قد صار حينذاك في الحادية والثلاثين. لكنّه ظلّ شخصيّة غير متحمّسة، عاجزاً وفق التحليل الأميركيّ عن "تحديد هل عليه أن يسيطر أو أن يحكم، ولا يختار في النتيجة أيّاً منهما". بدعم من الجيش، كان يناور من أجل السلطة مع الزمرة الصّغيرة لملّاك الأراضي وزعماء القبائل والتجّار ورجال الدّين وضبّاط الجيش الذين كانوا يشكّلون الطبقة الحاكمة في البلاد. كان المجلس الإيرانيّ صغيراً بما فيه الكفاية لتتحكّم به الزمرة التي كان من مصلحتها الحفاظ على الوضع الراهن. في غياب أحزاب سياسيّة فعّالة، كانت السياسة الإيرانيّة تشبه دائرة من الوجوه المألوفة المتقدّمة في السنّ التي ترأست حكومات لم تستمرّ أكثر من ستّة أشهر. أوصى ضابط في جهاز المخابرات البريطانيّ برواية *Through the Looking Glass* [عبر المرآة] لأيّ شخص كان يحاول أن يفهم ما يجري في البلاد.[226]

226 *FRUS*, 1950, Vol. V, p. 512, 'The Present Crisis in Iran', n.d.

***

كان محمّد مصدّق أحد الإيرانيّين الكُثُر الذين سئموا من هذا الوضع. كان رجلاً نحيلاً، أصلع، طويل القامة، يحملك أنفه المعقوف وحركاته المتشنّجة إلى مقارنته بالطير، وكان يتحدّر من الوسط نفسه الذي كان ينتقده. كانت والدته أميرة تنتمي إلى السلالة التي حكمت البلاد طوال القرن التاسع عشر، وشغل والده في السابق منصب وزير للماليّة. لذا فعل ذلك في عهد الشاه السابق. لكن خلال هذا الوقت، أثبت نفسه كمعارض للفساد والنفوذ الأجنبيّ، لدرجة أنّه خلال الحرب، شجّعه البريطانيّون على شنّ حملة ضدّ المحاولات الروسيّة للحصول على امتياز نفطيّ في شمال البلاد.

سترتدّ هذه الخطوة على البريطانيّين عندما صاروا الهدف التالي لمصدّق، لكن من السهل معرفة السبب الذي دفعهم إلى التماس دعمه. فقد كان مصدّق خطيباً قويّاً وبارعاً دفعت نظراته وأسلوب حياته المتقشّف أحد الديبلوماسيّين البريطانيّين إلى وصفه بأنّه "أشبه بمهاتما غاندي إيرانيّ، إنّما أقلّ عقلانيّة". بحلول 1950، كان في سنّ التاسعة والستّين أو التاسعة والسبعين – يعود إليكم اختيار التاريخ الذي ترونه مناسباً – وكان يعاني من مرض مزمن أدّى إلى إصابته بإرهاق دائم وجعله عرضة للإغماء. في حادثة مشهورة، أُغمي عليه أثناء إدلائه خطاباً في المجلس، فسارع نائب آخر، وهو طبيب، إلى شقّ طريقه عبر المجموعة التي احتشدت من حوله ليفحص نبضه. وبينما كان يفعل ذلك، فتح مصدّق على ما يبدو إحدى عينيه ببطء وغمزه. قال الديبلوماسيّ الأميركيّ جورج ماكغي: "لم يكن في وسعك إلّا أن تحبّه". 227

227 Falle, *My Lucky Life*, p. 76; McGhee, *Envoy to the Middle World*, p. 390.

لا يبدو أنّ مصدّق أثار قلق المسؤولين الإنكليز والإيرانيّين في البداية، لأنّهم أساؤوا فهمه. حتّى ذلك الوقت، كانوا قد حلّوا كلّ صعوباتهم الماليّة. فقد رشوا وزراء الحكومة والمسؤولين والنوّاب وأعضاء المجلس، وربّما الشاه أيضاً، من أجل إقناعه بقبول "الاتفاقيّة التكميليّة" لعام 1949. حتّى أنّهم ندّدوا بأخصامهم عبر دفع المال للصّحف لنشر مقالات تدّعي أنّ هؤلاء الأشخاص يتقاضون رواتب من الشركة.

كان خطأ الإنكليز والإيرانيّين افتراضهم أنّ هذه التقنيّات العريقة ستهزم مصدّق أيضاً. بعد أن استلم الإيرانيّون رئاسة لجنة النفط التابعة للمجلس، وضع المسؤولون في الشركة قائمة بأسماء أعضاء الفريق البالغ عددهم ثمانية عشر، بالإضافة إلى ملاحظات عن أموالهم وولاءاتهم السياسيّة وروابطهم العائليّة. كان ذلك تمهيداً لرشوة النوّاب الثلاثة عشر في اللجنة الذين لم يكونوا أعضاء في "الجبهة الوطنيّة"، لكنّ الرشوة لم تنجح. 228

228 Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 70.

كانت مشكلة الشركة قلة اكتراث مصدّق للمال. كتب أحد المسؤولين الإيرانيّين: ”لم يكن يهتمّ بالدولارات أو السنتات أو أعداد البراميل التي تُباع في اليوم الواحد. كان يرى أنّ القضيّة الأساسيّة مرتبطة بمسألة السيادة الوطنيّة“. في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، نظّمت ”الجبهة الوطنيّة“ نقاشاً لأربعة أيّام في المجلس لفضح تقنيّات شركة النفط، وإلقاء مسؤوليّة أنشطتها الفاسدة على كاهل حكومة البلاد. كان نجاح هذا الهجوم مدوّياً، لدرجة أنّ المؤيّدين الذين كانت تعوّل عليهم الشركة صاروا متحفّظين إزاء التعبير عن وجهات نظر مؤيّدة للبريطانيّين، خوفاً من أن يثيروا بذلك اتّهامات بالفساد والخيانة بحقّهم.[229]

229 Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 75.

نتيجة لذلك، عندما طرح مصدّق بعد ذلك ”الاتفاقيّة التكميليّة“ للتصويت عليها لدى لجنة النفط في الشهر التالي رفضها زملاؤه بالإجماع رغم الجهود الإنكليزيّة–الإيرانيّة لرشوتهم. وعندما وصل قانون التصديق إلى مجلس الشورى في الأيّام الأخيرة من كانون الأول/ ديسمبر 1950، وكشف وزير الماليّة الجديد المُوالي لبريطانيا عن بعض الأرقام لدعم حجّته بالنسبة إلى ضرورة تصويت المجلس للموافقة على الصفقة، قاطعه نائب تابع للجبهة واتّهمه بأنّه عميل للإنكليز والإيرانيّين، بما أنّ شركة النفط كانت تروّج للأرقام نفسها بالضّبط في الصّحف، قائلة إنّها ستدفع المال لقاء طباعتها. على إثر هذا التبادل الكلاميّ، سحب رَزم آرا مشروع القانون الذي يقترح التصديق على الاتفاقيّة التكميليّة في اليوم نفسه. في كانون الثاني/ يناير1951، بعد أن أعلنت ”أرامكو“ توصّلها إلى عقد اتّفاق مناصفة مع الحكومة السعوديّة، توصّل مصدّق إلى الاستنتاج المنطقيّ لحجّته، فدعا إلى تأميم الشركة.

***

كان الردّ الإنكليزيّ–الإيرانيّ الأوليّ على طلب مصدّق هو لا شيء. فقد اكتفى رئيسها، السير وليام فرايزر، بالقول إنّ الشركة غير قادرة على تكبّد اتفاقيّة مناصفة، وكانت وجهة نظر الشركة التطمينيّة إنّما المضلّلة ترى أنّ دعوة السياسي الإيرانيّ الكاريزميّ كانت مجرّد مرحلة في سياسة البلد المتعرّجة. عندما طُرح سؤال على أحد كبار المديرين في الشركة، في Whitehall، عمّا فعله بالنسبة إلى ”الدعوة إلى التأميم“، أجاب بأنّه ”لم يعلّق أهمّية كبيرة عليها“.[230]

230 Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 75.

رغم أنه لا صحّة لهذا التحليل، كان الموقف المتصلّب الذي حدّده موضع ترحيب لدى إرنست بيفن الذي كان في الوقت نفسه يحاول صدّ نداءات القوميّين المصريّين لإجلاء القوّات البريطانيّة لقاعدتهم في السويس، وكان حينذاك مريضاً للغاية. بعد مراجعة الوضع في نهاية كانون الثاني/ يناير، وصف نداء مصدّق بأنّه "غير واقعيّ"، وأدان نفوذ "الجبهة الوطنيّة" بوصفه "غير مبرّر"، وقال لزملائه إنّ عليهم التزام سياستهم القائمة. بقبول وجهة نظر الشركة ومسؤوليه حول إمكانيّة إيجاد حلّ ممكن للنزاع بالمال، صرّح بأنّ عليهم الاستمرار في دعم رئيس الوزراء الإيرانيّ، علي رَزم آرا، في جهوده للحصول على موافقة المجلس على "الاتفاقيّة التكميليّة"، مُتحجّجاً بأنّه فور تحقيق ذلك، سيفرج الإنكليز والإيرانيّون عن السيولة النقديّة الموعود بها بموجب صفقة 1949. [231]

231 TNA, CAB 129/44/28, Bevin, ‘Persia’, 22 January 1951.

ما إن أعطى بيفن هذا التقييم، حتّى وقعت حادثة في طهران أجبرت كلّاً من رَزم آرا والإنكليز والإيرانيّين على مراجعة الأمور. بعد أيّام، نظّم آية الله العظمى، أبو القاسم كاشاني، اجتماعاً عامّاً لدعم التأميم أمام مسجد الشاه، وهو المسجد الرئيسيّ في سوق طهران. وفقاً لإحدى الصحف كان كاشاني، "هذا الملّا المسلم الواهن والصّغير"، يغذّي كراهيّة مرضيّة للبريطانيّين. كان والده قد قُتل في معركة ضدّهم في العراق عام 1914؛ وبصفته داعماً قويّاً للجهاد العثمانيّ، اعتقلوه بعد أن غزوا إيران في 1941. منذ ذلك الحين، استغلّ تجربته لاستمالة الهِبات من أبناء بلده الأتقياء، التي استخدمها لاحقاً لبناء شبكة واسعة من العملاء. وكان العديد من هؤلاء يعملون في البازار الذي عُقد فيه الاجتماع. دعاهم كاشاني بجماعة المُجاهدين المسلمين، ووصفهم السفير الأميركيّ بأنّهم "عصابة مدفوعة الأجر من الأشرار المحترفين"، فآية الله كان متورّطاً في جرائم قتل. [232]

232 ‘Iranian Intrigue’, *Wall Street Journal*, 4 October 1952; *FRUS*, 1952–54, Iran 1951–54, p. 126, Richards, ‘Recent Increase in Political Prestige of Ayatollah Kashani’, 20 August 1951; TNA, CAB 129/54/25, Eden, ‘Political Developments in Persia’, 5 August 1952, circulating Middleton’s letter of 28 July 1952.

كان كاشاني حليفاً ومنافساً لمصدّق، إذ كان يسعى للسيطرة على حركة التأميم؛ في نهاية المطاف، سيستغلّ البريطانيّون والأميركيّون هذا المسعى. لكن في هذا الوقت، كان كلّ من مصدّق والملّا بحاجة إلى بعضهما بعضاً. وفي حين فاز السياسيّ المُوالي بدعم إيرانيّي الطبقة الوسطى، العلمانيّين، كان آية الله الخطيب هو القادر على إثارة مشاعر الورَع. اجتذب اجتماع مسجد الشاه، في نهاية كانون الثاني/ يناير، حشداً من نحو عشرة آلاف شخص، استمعوا لمجموعة من السياسيّين والملالي في "الجبهة الوطنيّة" الداعين إلى التأميم، وفي خاتمة الاجتماع، أصدر شخص آخر هو

أيضاً برتبة آية الله فتوى تفيد بأنّ النبيّ أدان حكومة أعطت ميراث أبناء شعبها للأجانب وحوّلتهم إلى عبيد.[233]

[233] Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 74.

رأى رَزم آرا والشركة أنّ هذه الفتوى تمثّل انطلاقة جديدة مهمّة. عندما سأل رئيس الوزراء، الذي شعر بالقلق إزاء هذا التهديد شبه المبطّن، الإنكليز والإيرانيّين هل سيقدّمون اتفاقيّة مناصفة، ردّت الشركة أنّها مستعدّة للنظر في ذلك. في 23 شباط/ فبراير، أكّد السفير البريطانيّ على مضض أنّ الحكومة البريطانيّة كانت أيضاً "على استعداد للنظر في ترتيب قائم على المناصفة"، شريطة أن تقف الحكومة الإيرانيّة ضدّ التأميم.[234]

[234] Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 78.

بما أنّ الموافقة العلنيّة على هذا العرض لن تؤدّي سوى إلى تغذية الادّعاءات حول تبعيّته للشركة، فضّل رَزم آرا إبقاء عرض السفير سرّياً كي يبدو أنّه انتزعه من البريطانيّين في وقت لاحق. وبدلاً من ذلك قرّر على نحو مشؤوم التصريح بأنّ التأميم سيكون كارثيّاً، لأنّ إيران تفتقر إلى الخبرة والموارد اللازمة لتشغيل صناعتها النفطيّة على نحو مستقل، وبأنّه سيكون غير قانونيّ.

بعد أربعة أيّام من محاولة رَزم آرا عرض هذه الحجّة على لجنة النفط، قُتل بالرصاص خارج مسجد الشاه حيث صدرت الفتوى قبل بضعة أسابيع. في اليوم التالي لاغتياله، صوّتت لجنة النفط التابعة لمصدّق بالإجماع على تأميم الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، وأحالت المسألة على المجلس للتصويت. تجاهلَ النوّاب الإيرانيّون الذين برهنوا فكراً حراً غير اعتياديّ الضّغط البريطانيّ الذي مُورس عليهم كي لا يشاركوا، لعرقلة اكتمال النّصاب في الجلسة، وصوّتوا على التأميم في 15 آذار/ مارس 1951. لاحظت لجنة المخابرات في اليوم نفسه، من لندن، أنّ "الوضع في بلاد فارس اتّخذ منعطفاً مشؤوماً".[235]

[235] Goodman, *The Official History of the Joint Intelligence Committee*, p. 357.

قرّرت الحكومة البريطانيّة أنّه في حال لم ينفّذ المجلس الحاليّ ما طُلب منه يكون الوقت قد حان لحلّه وانتخاب مجلس آخر جديد. وقد اعتمدت هذه الإستراتيجيّة على تواطؤ الشاه. لكن بحلول الوقت الذي قرّروا فيه اتّباع هذا التوجّه، أثبت الدبلوماسيّ الأميركيّ جورج ماكغي أنّه غير قابل للتطبيق. حالما تلقّى أخبار تصويت المجلس على التأميم، سارع إلى طهران حيث وجد الشاه الصّغير في قصره مستلقياً على أريكة. عندما أخبره أنّه سيحصل على دعم بريطانيّ وأميركيّ في حال عارض

التأميم، قال له الشاه إنّه "لا يستطيع أن يفعل ذلك، وطلب منه ألا يطالبه بأيّ شيء. لقد كان عاجزاً حتّى عن تشكيل حكومة". بدا لماكغي "رجلاً مُحبَطاً وشبه مدمّر". كان لديبلوماسيّ بريطانيّ آخر رأي أكثر قسوة فيه: "لم يكن لديه شجاعة أخلاقيّة، وكان يستسلم بسهولة للخوف". لقد كان في الواقع يعاني من الاكتئاب.[236]

236 McGhee, *Envoy to the Middle World*, p. 327, Falle, *My Lucky Life*, p. 80 (the verdict was Middleton's).

من طهران، توجّه ماكغي مجدّداً إلى لندن لإجراء المزيد من الاجتماعات مع البريطانيّين. كان يحاول يائساً تجنّب موضوع التأميم لِما قد يثير من شبُهات لدى السعوديّين، فاقترح إنقاذ الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة للموقف بتقديم عرض إلى الإيرانيّين موازٍ لعرض "أرامكو" للسعوديّين. لكن كان من المهمّ جدّاً ألّا يكون العرض أفضل، لأنّه في حال توصّلت الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة الآن إلى تسوية أكثر سخاء مع الإيرانيّين من المؤكّد أنّ ذلك سيؤدّي إلى تجدّد الضّغوط السعوديّة على "أرامكو".

اقتصرت المشكلة على كون الاختلافات بين هيكليّات الشركات ومعاملاتها، في ظلّ أنظمة الضرائب الخاصّة بكلّ منها، تعني أنّ التنفيذ العمليّ لاقتراح ماكغي يكاد يكون مستحيلاً، خصوصاً أنّه لم يكن هناك أيّ إمكانيّة لدى الحكومة البريطانيّة لمنح الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة الإعفاء الضريبيّ الأجنبيّ نفسه الذي مكّن "أرامكو" من تقديم صفقة جديدة إلى السعوديّين بلا تكلفة، إذ كان البريطانيّون يرون شركتهم بقرة مُدرّة للمال. اعترف ماكغي بعدما فكّر مطوّلاً في هذا التحدي: "قد يكون من الأفضل ألّا نحاول توضيح المسألة المعقّدة فيما إذا المناصفة ستتمّ ما قبل، أو بعد، الضرائب في البلد الذي تتمركز فيه الشركة... لندع للشركة مهمّة الاتّفاق مع الدولة المعنيّة حول الترجمة العمليّة للمناصفة". بتعبير آخر: كان اقتراحه مجرّد هراء.[237]

237 *FRUS*, 1951, Vol. V, p. 290, Fritzlan to State Department, 26 March 1951.

مُدّعياً أنّه يؤيّد مبدأ المناصفة اقترح ماكغي إمكانيّة استعادة الإيرانيّين السيطرة على مواردهم، والدخول في اتفاقيّة يمكن للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة بموجبها الإنتاج وتقسيم الأرباح الناتجة عن ذلك مع البلاد. وبينما كان بيفن على فراش الموت، عرض الديبلوماسيّ الأميركيّ هذه الفكرة على خلَفه الوضيع في وزارة الخارجيّة، هربرت موريسون. رغم أنّ موريسون كان جديداً في الوظيفة، كان جهله واضحاً جدّاً. قال أحد الرجال: "كان إرني بيفن أيضاً يعجز عن لفظ أسماء الأماكن"، وذلك بعد أن ارتبك موريسون إزاء التلفّظ بكلمة "الفرات"، لكنّه كان على الأقلّ يعرف موقع النّهر.

سار الاجتماع على نحو سيّئ بعد أن قرّر موريسون أنّ ماكغي اختبر تأثير اقتراحه في الإيرانيّين خلال زيارته طهران. وقد أخبر وزير الخارجيّة الجديد زملاءه في الحكومة والسفارة في واشنطن، بعد ذلك، أنّ "مقاربة ماكغي لبعض مشكلاتنا في الشرق الأوسط صدمتني قليلاً، وطلبتُ منه التزام الحذر". 238

238 Thorpe, *Eden*, p. 363; McGhee, *Envoy to the Middle World*, p. 333; TNA, CAB 195/9, meeting of 5 April 1951.

لم يجرِ لقاء الغداء بين ماكغي ورئيس مجلس إدارة الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، السير ويليام فرايزر، على نحو أفضل. فعلى غرار ماكغي، كان الاسكتلنديّ مُلمّاً تماماً بالجانب التقنيّ لقطاع النفط، لكنّ التشابه كان ينتهي عند هذا الحدّ. ففي حين كان ماكغي شابّاً ودوداً، كان فرايزر قاسياً ودكتاتوريّاً. وعندما قال مسؤول بريطانيّ آخر إنّه رغم كون الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة تتمتّع بـ"كفاءة عالية من الناحية الفنية... لكنّ ذكاءها السياسيّ أشبه بذكاء وحيد قرن أعمى". لا شكّ أنّه كان يلمحّ إلى رئيس الشركة. 239

239 Falle, *My Lucky Life*, p. 79.

عمل فرايزر في مجال النفط قبل ولادة ماكغي، وكان هذا "الاسكتلنديّ من رأسه إلى أخمص قدميه"، نقلاً عن وصف أحد زملائه، ينظر إلى كلّ شيء مع أخذ ردود فعل مساهميه عليه بالاعتبار. فقد سبق لعائداتهم أن تقلّصت نتيجة سياسة حكومة حزب العمل المنحرفة التي تقضي بتقييد عمليّات توزيع الأرباح، ولعلّ فرايزر كان يسعى إلى أن يكون أكثر سخاء في حال عاد المحافظون إلى السلطة، كما كان متوقّعاً. عندما استمع لمخطّط ماكغي، تغاضى عنه بسرعة إذ تبيّن له فوراً أنّه سيأكل من الرّبح الذي يمكنه توزيعه على الحصص. قال له: "المشكلة معك، يا ماكغي، أنّك تعمل على أساس معلومات غير صحيحة. فالمناصفة شعار جيّد، إنّما لديّ شكوك حول إمكانيّة تطبيقها". 240

240 Louis, 'Britain and the Overthrow of Mosaddeq', in Gasiorowski and Byrne, eds, *Mohammad Mosaddeq and the 1953 Coup in Iran*, p. 156; McGhee, *Envoy to the Middle World*, p. 333.

لا بدّ أنّ ماكغي أدرك حقيقة ما كان يقوله فرايزر، لكنّه اعتقد أيضاً أنّ هناك حاجة ماسّة إلى عقد صفقة. لدى عودته إلى واشنطن، اطّلع على تقدير صادر عن "وكالة المخابرات المركزيّة" مفادُه أنّه في حال استمرّ الوضع على ما هو عليه، "من المحتمل أن تصير إيران تشيكوسلوفاكيا ثانية"، ولذا التقى السفير البريطانيّ مرّة أخرى. وبما أنّ إحدى العقبات التي تعترض التأميم هي أنّ

الإيرانيين لا يستطيعون تحمّل تكاليف التعويض للمساهمين الحاليّين للشركة، اقترح أن يتنازل البريطانيّون ببساطة عن هذا الحقّ مقابل نصف الأرباح. يبدو أنّ السفير الذي كان في حياته السابقة أستاذاً لماكغي في أكسفورد، امتعض إزاء رضوخ طالبه السابق للتأميم بصفته واقعاً لا مفرّ منه، وقال إنّ الحكومة البريطانيّة ستعارض ''أيّ مسار من شأنه أن يمثّل إرضاء مباشراً للضّغوط التي نشأت''. في لندن، استمرّ هيربرت موريسون، الذي وصف لاحقاً هذا الحديث بأنّه ''ليس سلساً تماماً''، بالتمسّك بالحلّ الذي يضمن سيطرة البريطانيّين على الشركة.241

241 USIME, CIA, National Intelligence Estimate: Iran's Position in the East-West Conflict, 5 April 1951; *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 33, Rountree, memorandum of conversation, 17 April 1951; TNA, CAB 129/45/39, Morrison, 'Persian Oil', 20 April 1951.

***

رغم رغبة ماكغي الكبيرة في حدوث عكس ذلك، اتّضح بحلول نيسان/ أبريل 1951 أنّ الحكومة البريطانيّة لا تتمتّع بأيّ مجال للمناورة. فالانتخابات التي جرت في شباط/ فبراير الماضي أدّت إلى انخفاض غالبيّة أعضائها إلى خمسة، كما أنّ القرارات الصّعبة التي أُجبرت على اتّخاذها هذا الربيع قبل إقرار الموازنة أشعلت حرباً أهليّة داخل الحكومة، قضَتْ على الفريق الأكبر في نهاية المطاف. ولم يكن الشعور بالانزعاج الذي بات يسيطر على الحكومة مجازيّاً. توفّي بيفن في 14 نيسان/ أبريل، وعندما سمع أتلي الأخبار كان يتعافى في المستشفى بعد عمليّة جراحيّة لقرحة في المعدة.

كان آخر ما يحتاج إليه رئيس الوزراء البريطانيّ في هذه اللحظة أزمة في السياسة الخارجيّة، لكن بدا أنّ أزمة مقلقة أخرى كانت تزمجر في الأفق. منذ طلب مصدّق في بداية العام، بدأ القوميّون في مصر يتحدّثون عن استعادة قناة السويس. كان واضحاً لأتلي أنّ الرضوخ للمطالب الإيرانيّة، بتأميم شركة النفط، من شأنه أن يرسّخ ''مبدأ خطيراً'' سيحرم الحكومة مصدراً حيويّاً للدّخل، لكنّه قد يثير أيضاً المشكلات في مصر. كان متوقّعاً من تشرشل، الذي صار حينذاك زعيم المعارضة، استغلال الأمريْن لمصلحته.242

242 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 33, Rountree, memorandum of conversation, 17 April 1951.

زوّدت الأخبار القادمة من طهران أتلي ووزير خارجيّته الجديد، هيربرت موريسون، بذريعة للصّمود. فقد نقل السفير البريطاني من العاصمة الإيرانيّة اعتقاده أنّ ''الجبهة الوطنيّة'' صارت ''متخوّفة إزاء النتائج المحتملة... لسياستهم''، وأنّها قد تقتنع بالتوصّل إلى اتّفاق. كما رأى أنّ

الإيرانيّين سيرحّبون بقيادة بريطانيا قويّة، وأنّه يجب اتّخاذ إجراء عاجل استباقاً لتحقيق محتمل من لجنة مصدّق بغية التحقّق من قابليّة تنفيذ التأميم عمليّاً.[243]

[243] TNA, CAB 129/45/39, Morrison, 'Persian Oil', 20 April 1951.

دفع هذا التقييم الحكومة البريطانيّة إلى ارتكاب خطأ جوهريّ تلقائي، أدركت بعد فوات الأوان أنه جعل الوضع غير قابل للإصلاح. ففي 27 نيسان/ أبريل، بعد أن طرح مصدّق قراراً مفصّلاً أكثر على لجنة النفط يحدّد فيه إطار التأميم، استقال رئيس الوزراء الإيرانيّ احتجاجاً. انقضّ السفير البريطانيّ بعد أن سمع أن مصدّق أدرك غير قابليّة اقتراحاته للتطبيق، على ما رأى فيه فرصة لمجاراته في خداعه. على أمل تعيين مرشّح موالٍ للبريطانيّين رئيساً جديداً للوزراء، شجّع السفير نائباً قياديّاً آخر على اقتراح مصدّق لشغل المركز. كان يراهن على رفض مصدّق فاسحاً بذلك المجال أمام رجل بريطانيا.

لكنّ مصدّق تنبّه إلى الفخّ وقبلَ التحدّي. وبعد أن وافق عليه المجلس بغالبية كبيرة، اغتنم بدوره الفرصة للحصول على موافقة عامّة على خطّته. فصرّح أنّه لن يتولّى رئاسة الوزراء إلّا في حال أيّد المجلس أيضاً قرار لجنته النفطيّة بتأميم الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة. بعد أن وافق المجلس على ذلك بالإجماع، في 29 نيسان/ أبريل 1951، صار مصدّق رئيساً للوزراء. في مجلس الوزراء، في اليوم التالي، استنكر موريسون ما حدث باعتباره "ظلماً مَهُولاً". وقد أدرك وزير النفط والطاقة حقيقة الأمر، عندما قال إنّه "بات واضحاً أنّ التقارير التي تفيد بغياب أيّ ضغوط وراء ذلك كانت خطأً".[244]

[244] TNA, CAB 195/9, meeting of 30 April 1951.

فكّر موريسون حينذاك في التحرّك العسكريّ للاستيلاء على عبادان وحقول النفط. قضت تلك الخطّة التي وضعها الجيش بإنزال قوّة من سبعين ألف رجل. ورشا ضابط في جهاز المخابرات البريطانيّ قائد الحامية في البلدة الأقرب إلى عبادان، خرمشهر، حتّى لا يُقدِم على أيّ مقاومة. في الوقت نفسه، وبينما عزم المسؤولون في السفارة البريطانيّة على الذهاب إلى الجبال لممارسة الرّماية، راحوا يتحدّثون إلى زعماء قبائل بختياري وكاشكاي التي كانت آبار النفط موجودة في أراضيها. تنبّهت "وكالة المخابرات المركزيّة" الأميركيّة إلى ذلك، وتوقعت إعلان القبائل استقلالها من جانب واحد، ما سيخلق بيئة ملائمة تسمح "بالاستمرار في استثمار النفط الإيرانيّ في ظلّ الإدارة البريطانيّة".[245]

245 *FRUS*, 1952–54, Iran 1951–1954, p. 117, CIA, 'Effects of Closing Down the Iranian Oil Industry', 11 July 1951.

"جُنّ جنون" وزير الخارجيّة الأميركيّ الجديد، دين آتشيسون، عندما علم بالخطّة البريطانيّة، وسارع إلى دعوة البريطانيّين والإيرانيّين إلى التفاوض. شكّل بيانه الذي صدر في 18 أيار/ مايو أنموذجاً للمساواة. فقد تعاطف مع القرار الإيرانيّ، وقال للبريطانيّين إنّ إيران بحاجة إلى المزيد من السيطرة على مواردها النفطيّة، وحذّر الإيرانيّين من أنّ إلغاء العقد من جانب واحد سيكون له تداعيات خطيرة.[246]

246 *FRUS*, 1952–54, Iran 1951–1954, p. 90, Memorandum for the Record, 16 May 1951.

شكّل تدخّل آتشيسون أوّل مؤشّر على أنّ الولايات المتحدة لن تنحاز إلى لندن في الخلاف، وقد أثارت نبرته امتعاض لندن؛ قال أحد السياسيّين المحافظين مُمتعضاً: "كنّا أشبه بدولتيْن من دول البلقان، تتلقّيان المواعظ في 1911 من السير إدوارد غراي". لكنّ ذلك كان التأثير المطلوب. علّق أتلي وموريسون خطّتهما للسيطرة على جنوب إيران، وقرّرا بدلاً من ذلك إحالة الخرق الإيرانيّ للعقد على "محكمة العدل الدوليّة". الأهمّ من ذلك أنّ موريسون اعترف أخيراً وعلناً أنّ الحكومة أصبحت الآن "مستعدّة للنظر في تسوية تنطوي على نوع من التأميم".[247]

247 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 75, 7 May 1951; HC Deb, 29 May 1951, Vol. 488, cc. 41–2.

تحت تأثير الضّغط الأميركيّ، قدّمت الحكومة البريطانيّة تنازلات هائلة، الأمر الذي أدّى إلى طريق مسدودة. في اجتماع في طهران مع السفراء البريطانيّين والأميركيّين بعد يومين، رفض مصدّق اقتراح التفاوض مع الحكومة البريطانيّة. وعندما سأله لاحقاً السفير الأميركيّ الذي انزعج فعلاً إزاء "الكلام العاطفيّ وغير المبرّر عامّة حول البؤس والفقر الذي تشهده بلاده، والذي تناوله رئيس الوزراء الإيراني مراراً وتكراراً"، عن كيفيّة تشغيله حقول النفط دون مساعدة بريطانيّة، سلّم مصدّق أمره للقدر وأجاب: "يا لحظّنا السيّئ. إذا انهارت الصّناعة، ولم تأتِ الأموال، وتبعَ ذلك الفوضى والشيوعيّة، ستتحمّل مسؤوليّة ذلك بالكامل".[248]

248 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, pp. 58–9, Stutesman, memorandum of conversation, 31 May 1951.

أفضت نتيجة هذا الاجتماع إلى ردّ أتلي البارد على ترومان عندما تلقّى رسالة من الرئيس بعد بضعة أيّام يدّعي فيها: بما أنّ الإيرانيّين "مستعدّون، لا، بل متلهّفون للتوصّل إلى ترتيب ما"، كان من الضروريّ "خوض المفاوضات فوراً". عندما اكتشف المسؤولون البريطانيّون أنّ نسخة من

هذه الرسالة وجدت طريقها أيضاً إلى مصدّق – من المفترض أن يكون ذلك حدث مصادفة – غضبوا جدّاً إذ تأكّدت شكوكهم حول التحيّز الأميركيّ. عندما واجه وفدٌ من شركة النفط كان قد وصل إلى طهران لإجراء محادثات مطلباً إيرانيّاً باهظاً، وعاد إلى دياره بعد عشرة أيّام خالي الوفاض، ألقوا اللوم على الرئيس.[249]

[249] Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 93.

***

في 11 حزيران/ يونيو 1951 سيطر المسؤولون الإيرانيّون على المكتب الرئيسيّ للشركة في خرمشهر بالقرب من عبادان. وعندما أصرّ الإيرانيّون بعد ذلك على أن تقدّم الناقلات التي تغادر عبادان إيصالات بالنفط الذي تأخذه – إجراء مفادُه أنّ النفط كان ملكهم وليس ملكاً للشركة – رفض المدير العامّ للشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، إريك دريك، ذلك. توقّف بعدها تحميل الناقلات في الميناء. لم يكن الإيرانيّون يملكون أيّ ناقلات خاصّة بهم، وقد أزعجهم هذا التطوّر، فاقترحوا قانوناً جديداً يجعل تخريب صناعة النفط جريمة كبرى. خوفاً على حياته هرب دريك إلى البصرة. وفي 25 حزيران/ يونيو، أصرّ أتلي على سحب الناقلات التي كانت موجودة في الميناء.

فهمَ أتلي وزملاؤه تداعيات هذه الخطوة. على حدّ تعبير هيوغ غايتسكيل: "تقضي سياستنا بدفع الفُرس إلى وضع أنفسهم في حالة من الفوضى". في غياب ناقلات للنفط، ستمتلئ صهاريج النفط في عبادان بسرعة. ما إن يفعلوا ذلك، فستضطرّ الشركة إلى الحدّ من آبارها، والتوقّف عن دفع الأجور إلى القوى العاملة المحلّية البالغ عددها ثمانين ألف شخص. عند ذلك، ستزداد أعمال الشغب، وستمنح الفوضى بريطانيا ذريعة لإرسال قوّاتها لحماية الرعايا البريطانيّين. وعندما سُئل أتلي، من مجلس الحكومة، عن النتائج التي يتوقّعها من هذه السلسلة من الأحداث، قال: "حكومة معقولة، يمكننا إبرام اتفاقيّة جديدة معها".[250]

[250] TNA, CAB 195/9/1, meeting of 25 June 1951; TNA, CAB 195/9, meeting of 2 July 1951.

كان ترومان على علم بما كانت الحكومة البريطانيّة تنوي فعله، ولذا حاول كسب الوقت بإرسال إيفريل هاريمان لمقابلة مصدّق. كان هاريمان، السفير السابق لدى لندن، خبيراً مشهوراً بحلّ الأزمات، ورغم استيائه إزاء سلوك رئيس الوزراء الإيرانيّ الخطأ، أصدر الحكم الذي كان يرغب فيه الرئيس. واختتم قائلاً بعد أسبوعين في العاصمة: "لديّ انطباع أنّه يوجد حاليّاً في طهران جوّ

مُؤاتٍ لعقد البريطانيّين تسوية مرضيّة. لديّ شكوك حول إمكانيّة تشكُّل وضع مؤاتٍ إلى هذا الحدّ مرّة أخرى". 251

251 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 112, Harriman to State Department, 24 July 1951.

لم يترك تفاؤل هاريمان أمام البريطانيّين خياراً آخر سوى إرسال وزير شابّ، هو ريتشارد ستوكس، للتحقّق من الفرصة التي رصدها هاريمان على ما يبدو. عندما التقى ستوكس مصدّق، أخبره رئيس الوزراء الإيرانيّ أن حكومته "تطلّقت من الشركة". كان ردّ الوزير البريطانيّ المحبط: "إنّها لتسوية غريبة من رجل أن يطلّق زوجته، ثمّ يحاول تجويعها إلى حدّ إرغامها على قتله". سيعرض ستوكس صفقة تمنح الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة كامل السيطرة على عمليّات النفط. وبعد مكوثه نحو ثلاثة أسابيع في البلاد، غادر بدوره طهران خالي الوفاض. أدرك أنّ إمكانيّة التوصّل إلى تسوية تفاوضيّة صارت مستحيلة. أفاد بعد عودته: "المناصفة غير مُجدية في بلاد فارس، إذ كان لديهم أسوأ قاعدة لمدة طويلة". 252

252 Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 135; TNA, CAB 195/9/1, meeting of 27 September 1951.

كانت المسألة لا تزال دون حلّ عندما دعا أتلي إلى انتخابات في أيلول/ سبتمبر. خلال ما اتّضح لاحقاً أنّه اجتماع حكومته الأخير، استعرض هو وزملاؤه الوضع للمرّة الأخيرة. بعد سماع خبر الانتخابات، أعلن مصدّق للتوّ أنّه سيطرد التقنيّين البريطانيّين العاملين في عبادان في 4 تشرين الأول/ أكتوبر، تاريخ حلّ البرلمان. أثار هذا التوقيت المتعمّد لهذا التحرّك غضب موريسون الذي كتب إلى زملائه: "مزّق الفُرس العقد دون التشاور معنا. إنّهم يطردون رجالنا، ويسرقون ممتلكاتهم الشخصيّة، وينهبون الممتلكات البريطانيّة"، وهم "يقترحون الآن طرد الموظّفين البريطانيّين". كان وزير الخارجيّة لا يزال يفضّل استخدام القوّة بعكس أتلي. فالأخير رغم إدراكه جيّداً أنّ مثل هذه الخطوة ستحظى بشعبيّة كبيرة، فإنّه كان يعلم أنّه يفتقر إلى دعم ترومان بغية اتّخاذها، وفضّل إحالة المسألة على مجلس الأمن لأنه لم يرجح نجاحها في أيّ حال. كان مدعوماً من زميله هيو دالتون، المستشار السابق الذي قيّم الوضع قائلاً: "لا نستطيع أن نستخفّ بالولايات المتّحدة التي نعتمد كثيراً على مساعداتها". 253

253 TNA, CAB 195/9/1, meeting of 27 September 1951.

بعد أن طرح السفير البريطانيّ القضيّة في الأمم المتّحدة في الأوّل من تشرين الأوّل/ أكتوبر 1951، طلب نظيره الإيرانيّ منحه الوقت الكافي لقدوم مصدّق إلى نيويورك ليشارك بالكلام.

ولاحظ السفير الأميركيّ لدى الأمم المتّحدة بعد أن استمع لكلام حليفه: ”يمنحني البريطانيّون انطباعاً بأنّهم يؤدّون الأغنية الأخيرة من مسرحيّة *Twilight of the Gods* [شفَق الآلهة] داخل مسرح تتآكله النّيران“. كان تعليق ضابط في جهاز المخابرات أكثر فظاظة، إذ قال: ”في الأيّام الحاسمة الأخيرة، لم يكن هناك أحد على رأس الدفّة“.[254]

254 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 191, Gross to Hickerson, 2 October 1951; Dorril, *MI6*, p. 562.

بدا حينذاك أنّ تغيير الحكومة بات شبه مؤكّد. فقد كان المحافظون متقدّمين بعض الشيء في استطلاعات الرأي، في حين بدا أتلي ”مُتعباً وخائب الأمل“، كما أفاد ديبلوماسيّون أميركيّون من لندن. وكان انطباعهم أنّ حزب العمل بدا ”مستعدّاً للتخلّي عن منصبه في الوقت الحاضر... لكن على أمل أن يعود... في المستقبل غير البعيد، بعد فشل المؤسّسات الفرعيّة في حلّ المشكلات الحاليّة، في جميع أنحاء العالم التي سيرِثونها من حكومة السيّد أتلي“.[255]

255 *FRUS*, 1951, Vol. IV, pp. 974–5, Perkins to Acheson, 26 September 1951.

لم يكن محمد مصدّق متأكّداً من ذلك. جاء إلى نيويورك لتمثيل بلاده في الأمم المتّحدة، وكان جورج ماكغي حريصاً على إبقائه هناك، على أمل إمكانيّة التوسّط في إيجاد حلّ سريع مع الحكومة البريطانيّة الجديدة. عندما التقى ماكغي في 28 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أن كان واضحاً أنّ المحافظين فازوا بفارق ضئيل، اعترف بأنّه ”مرتبك إلى حدّ ما“ إزاء النتيجة، لأنّه كان يخشى أن يصير تشرشل ”أكثر عناداً“ من أتلي. رغم محاولة ماكغي إقناعه بخلاف ذلك، فإنّه سيكون محقّاً تماماً.[256]

256 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 244, Walters, memorandum of conversation, 28 October 1951.

12

دور ثانويّ

عندما التقى دين آتشيسون وزير الخارجيّة البريطانيّ الجديد، أنطوني إيدن، للمرّة الأولى، على هامش اجتماع في باريس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1951، أعرب عن أمله في تحقيق انفراج في النزاع الإنكليزيّ–الإيرانيّ القائم. وبعد أن عزا قلة المرونة لدى حكومة حزب العمل إلى الضّغوط الانتخابيّة والتعب والاقتتال الداخليّ، توقّع أن تكون حكومة المحافظين الجديدة قويّة بما يكفي لتكون أكثر سخاء مع طهران. لكنّه سيصاب بخيبة.

في الواقع، لم تكن الحكومة البريطانيّة الجديدة في موقع أقوى من التي سبقتها. فقد فاز ونستون تشرشل في انتخابات الشهر الماضي مركّزاً حملته الانتخابيّة على بيان يعِد بـ"بريطانيا قويّة وحرّة"، لكنّه لم يكن حاسماً بقدر ما كان يرغب فيه. كان "العمل" قد نال في الواقع المزيد من الأصوات. فتداعيات تصويت الليبراليّين وتقلّبات النظام الانتخابيّ في المملكة المتّحدة ما منحته غالبية ضئيلة من سبعة عشر مقعداً.

بعد شهر من بلوغه السابعة والسبعين، كان تشرشل يدرك تماماً أنّ العديد من الناس – في مقدّمتهم إيدن المتلهّف لأخذ دوره – اعتقدوا أنّه متقدّم جدّاً في العمر لشغل هذا المنصب. خلال الحملة الانتخابيّة، حاول جاهداً دحض هذا الرأي. في إحدى المرّات، التهم طبقاً ضخماً من المقالي، ثمّ احتسى كأساً كبيرة من الويسكي والصّودا وأشعل سيجاراً ضخماً... كلّ ذلك في السابعة صباحاً. أثار ذلك إعجاب هارولد ماكميلان، سياسيّ "المحافظين" الواعد الذي كان يرافقه في تلك المناسبة. لكنّ ماكميلان سيقول عن رئيسه لاحقاً إنّه "موضع إعجاب، لكن مكروه عامّة".[257]

257 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 79, 11 June 1951, p. 180, 13–15 August 1952.

في الوقت الذي عاد فيه تشرشل إلى مقرّ الحكومة البريطانيّة في لندن، واجه أزمة أخرى في الشرق الأوسط. فبعد أيّام على إصدار مصدّق مرسوماً يقضي بضرورة مغادرة الموظّفين البريطانيّين عبادان في غضون أسبوع، عرضت الحكومة المصريّة على برلمانها مشروع قانون يلغي معاهدة 1936 مع بريطانيا، هذا الاتّفاق الذي منح الأخيرة الحقّ في تركيز قوّات لها على

طول قناة السويس. في اليوم التالي لصدور مشروع قانون الإلغاء، رفضت الحكومة المصريّة علناً اقتراح قيادة إنكليزيّة–أميركيّة للشرق الأوسط، الأمر الذي كان من شأنه تدويل قاعدة السويس، وتأمين ركيزة لاستمرار الوجود البريطانيّ. في اليوم نفسه، قام المصريّون بأعمال شغب في الإسماعيليّة، المدينة التي كانت تتمركز فيها قيادة الأركان العسكريّة البريطانيّة. أعلنت صحيفة مصريّة بينما كان يُطرَد البريطانيّون عنوة من عبادان: "هذا هو المثال الذي يجب أن نتّبعه في صراعنا مع البريطانيّين، فهم لا يظلمون سوى الضّعفاء. إنّها نهاية نفوذهم في الشرق الأوسط".[258]

258 *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, part 1, p. 740, Bradley, notes, 5 January 1952; Thornhill, *Road to Suez*, p. 36.

لم يكن لدى تشرشل أيّ شكّ على الإطلاق في أنّ طرد بريطانيا غير المبرّر من عبادان شجّع المصريّين على التحرّك، إذ وصف أزمة السويس المتطوّرة بأنها "الطفل اللقيط للوضع الإيرانيّ". كان يعي جيّداً أنّه يدين جزئيّاً بفوزه الذي كان محفوفاً بالمخاطر إلى اتّهاماته المتكرّرة لحزب العمل بفشله في الدفاع عن الإمبراطوريّة، ولذا لم يكن مستعدّاً لتقديم تنازلات إلى أيّ من مصر أو إيران.[259]

259 Colville, *The Fringes of Power*, p. 596; HC Deb, 7 November 1951, Vol. 493, c. 193.

كذلك الأمر لإيدن. فعندما التقى وزير الخارجيّة آتشيسون في باريس في تشرين الثاني/ نوفمبر، كان قد أنهى للتوّ مكالمة هاتفيّة مع رئيس الوزراء. بينما كان تحذير تشرشل بـ"عدم التنازل عن بوصة واحدة" لا يزال يطنّ في أذنيه، قال لوزير الخارجيّة إنّ اقتراحه – الذي يقرّ بالتأميم كأمر واقع – "غير مقبول إطلاقاً". وتابع قائلاً إنّه يجب إرسال مصدّق – الذي كان لا يزال ينتظر في نيويورك – إلى دياره خالي الوفاض، إذ في حال سقط رئيس الوزراء الإيرانيّ العظيم نتيجة لذلك هناك احتمال حقيقيّ أن تأتي بعده حكومة "أكثر قابليّة للانقياد". لم يوافقه آتشيسون الرأي، وشعر أنّ نظيره لم يكن يعي استحالة إعادة عقارب السّاعة إلى الوراء. قال لاحقاً لمستشار إيدن، إيفلين شوكبيرغ، بحدّة: "يجب أن تتعلّم العيش في العالم كما هو".[260]

260 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 280, Acheson to State Department, 10 November 1951; p. 257, Acheson, memorandum of conversation, 4 November 1951; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 27, 4 November 1951.

لم يُبدِ إيدن أيّ مؤشّر على رغبته في الأخذ بنصيحة آتشيسون. وفي لقائه التالي مع الأخير بعد ثلاثة أيام، أحضر اثنين من كبار المسؤولين من وزارة الخزانة ووزارة النفط والطاقة. بعد أن فكّك خبير النفط الاقتراح الأميركيّ، مُثبتاً أنه بلا جدوى تجاريّة، توقّع موظّف الخزانة عواقب "كارثيّة"

إذا صار معروفاً على نطاق واسع أنّ البريطانيّين كانوا يفكّرون حتّى في التفاوض على الأساس الذي اقترحه آتشيسون. كانت تعابير وجه وزير الخارجيّة تخون مشاعره. فقد سجّل ديبلوماسيّ بريطانيّ أنّه "بدا غاضباً من خبرائنا عندما شرحوا له الضرر الذي قد يطاول مصالحنا في أنحاء العالم، في حال منحَنا الفُرس فرصة للاستيلاء على منشآتنا".[261]

[261] Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 27, 4 November 1951.

لم تتّضح الأمور إلّا بعد أن أمضى آتشيسون ستّة أيّام في باريس. فلم يكن لدى أيّ من تشرشل أو إيدن نيّة لقبول تسوية تُوحي باستفادة مصدّق من أفعاله مقابل إذلال بريطانيا. كما لم يكن لديهما رغبة في رفع المقاطعة الفعّالة جدّاً للنفط الإيرانيّ، التي كانت تضع البلاد في حالة حرجة. لم يأخذ إيدن ومستشاروه بالاعتبار الحجّةَ التي طرحها وزير الخارجيّة حول أنّ الحصار يضع البلاد على حافة الانهيار، وهو وضع لا يمكن سوى لموسكو الاستفادة منه. فقد قال له أحد أعضاء الوفد البريطانيّ: "إن كان تقييمك للوضع الإيرانيّ صحيحاً، فهناك خياران: إمّا تحوُّل إيران إلى الشيوعية، وإمّا إفلاس بريطانيا. أتمنّى أن توافق على أنّ الخيار الأوّل هو الأقلّ شرّاً". كانت خيبة أمل آتشيسون واضحة. أنهى حديثه قائلاً: "الشيء الوحيد الذي أُضيف على موقف حزب العمل هو تبجُّح مؤكّد. لم يعادوا إلى مناصبهم لإتمام حلّ الإمبراطورية".[262]

[262] *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 280, Acheson to State Department, 10 November 1951, p. 257.

كان هذا التلميح إلى البيان الجريء الذي ألقاه تشرشل في قصر مانشن لعام 1942 ملائماً، ذلك أنّ رئيس الوزراء أشار فيه على نحو متكرّر إلى الحرب. شكّل وجود "أكثر من خمسين ألف قبر بريطانيّ في مصر" حجّة قويّة جدّاً لاستمرار الوجود البريطانيّ هناك، في رأيه. لم تتغيّر وصفته السحريّة للتعامل مع الأزمة التي تواجهها بريطانيا منذ عقد من الزمن. "من المهمّ جدّاً استعادة أميركا"، هذا ما كتبه بعد أيّام من عودته إلى السلطة في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو اليوم نفسه الذي وصفه فيه آتشيسون وزملاؤه بأنّه "منقطع تماماً عن عالم 1951".[263]

[263] *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, p. 1082, memorandum of a meeting between Eisenhower and Churchill, 25 June 1954; Brands, 'The Cairo-Teheran Connection', p. 443; *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 280, Acheson to State Department, 10 November 1951; p. 257.

بينما كان تشرشل غافلاً عن رأي آتشيسون فيه، وينتظر تأييد إدارة ترومان لتفكيره، كانت إستراتيجيّته بسيطة. أذعن لإيدن بتجنب الإقدام على أيّ تحرّك "حادّ أو مفاجئ". وكرّر أمام الحكومة، بعد بضعة أيّام، أنّه "ليس هناك حاجة إلى التسرّع في مصر أو بلاد فارس، فالوقت الآن

لمصلحتنا". كان يأمل أن يؤدّي تصاعد الأزمة في كلّ من إيران ومصر إلى إرغام الولايات المتّحدة على دعمه، ما سيخلق ضغطاً على حكّام البلديْن لتعيين حكومات جديدة مستعدّة للتعامل معه. كانت تلك إستراتيجيّة مُعيبة للغاية.264

264 Thornhill, *Road to Suez*, p. 43; TNA, CAB 195/10, meeting of 12 November 1951.

***

بحلول نهاية 1951، كانت فرص قبول الإيرانيّين أيّ نتيجة لا تؤدّي إلى تأميم الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة معدومة، وهذا ما كان آتشيسون يعيه تماماً. وفي مصر، كانت قائمة السياسيّين الراغبين في المخاطرة بسمعتهم بالتفاوض مع البريطانيّين قصيرة. خلال العقد الذي تلى ركن السفير البريطانيّ آنذاك، مايلز لامبسون المُرعب، دبّاباته خارج قصر عابدين، لم تتحسّن العلاقات بين البريطانيّين ومضيفيهم المصريّين المُعاندين، ولم يساعد الوضع غير المستقرّ في مصر في ذلك. بعد نهاية الحرب، أدّى انفجار الوضع إلى الكساد، والبطالة الجماعيّة التي أخفقت سلسلة من الحكومات الائتلافيّة في حلّها. وقد أدّت هزيمة مصر على يد إسرائيل في حرب 1948 إلى تعزيز الشعور بالأزمة الوطنيّة، في حين أدّى الوجود المستمرّ لعشرات الآلاف من الجنود البريطانيّين على القناة إلى تفاقم حالة غياب الأمان في مصر. كان المُستفيد الرئيسيّ من الاستياء المتصاعد إزاء الأزمة التي تواجهها البلد جماعة "الإخوان المسلمون"، هذه الحركة الإسلاميّة والمناهضة للإمبرياليّة التي نشأت قبل عقديْن من الزمن في الإسماعيليّة، المدينة التي كان فيها الانقسام بين المصريّين والبريطانيين في أوجه.

لو أنّ البريطانيّين غادروا مصر في 1949، كما كان ينوي إرنست بيفن أساساً، لتجنّبوا تحوّلهم إلى كبش فداء سهل لأزمات البلاد. لكن لأنهم لم يفعلوا ذلك، صاروا هدفاً لحركة تمرّد نظّمها "الإخوان" واستمرّت أكثر من ثمانية عشر شهراً حتّى نهاية 1951. كان جنودها المُشاة الفدائيّين الذين كانوا يغطّون أنفسهم بالشّحم ثمّ يتدحرجون في الرمال للتمويه. دربهم ضبّاط سابقون في الجيش الألمانيّ، وانضمّ إليهم شرطيّون مساعدون مصريّون كانوا قد أُرسَلوا إلى الإسماعيليّة للحفاظ على السلام بعد أعمال الشغب التي وقعت في 16 تشرين الأول/ أكتوبر. بفضل حسن اطّلاع الشرطيّين المُساعدين على ما يحدث في الداخل، ازدادت عمليّات الفدائيّين وصارت أكثر دقّة.

إنّ طبيعة قاعدة قناة السويس البريطانية، التي كانت في الواقع سلسلة من المعسكرات المنفصلة التي تغطّي مساحة 750 ميلاً مربعاً، جعلتها والقوّات المتنقّلة بين منشآتها المختلفة معرّضة بشدّة

للهجمات الفدائيّة. فالأسلاك الشائكة، والمصابيح القوسيّة، والكلاب، والألغام المُضادّة للأفراد، لم تمنع اقتحامات عدة أسبوعياً. منذ سيطر البريطانيّون على مصفاة النفط في السويس، كان ردّ حكومة ”العمّال“ على هذه الهجمات قطعاً دوريّاً لإمدادات الوقود التي كانت تعتمد عليها المخابز المصريّة، وأعمال الصرف الصحّي، والصناعات الخفيفة عبر منطقة دلتا النيل. تابع تشرشل بحماسة هذه السياسة على أمل أن يؤدّي الضّغط إلى حلّ. في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر، وجّه النداء التالي: ”اضغطوا عليهم بالزيت الأسود، دعوا درجة الحرارة ترتفع“.[265]

[265] TNA, CAB 195/10, meeting of 12 November 1951.

وقد ارتفعت فعلاً. فبعد خمسة أيّام، قُتل ضابطان من الجيش البريطانيّ عند تعرّضهما لإطلاق نار من مركز للشرطة أثناء تسوّقهما مع عائلتيهما في الإسماعيليّة. ردّت الحكومة البريطانيّة بإجلاء عائلات العسكر من المدينة. وتحت ضغط من الجنرالات لاتّخاذ إجراءات أكثر صرامة، فرضت عقوبات نفطيّة أكثر تشدّداً وأدّت إلى قطع الإمدادات لنهار كامل من أيّام الأسبوع. كان تبرير تشرشل لهذه السياسة أنّ الجنود المشاركين في مراقبة حركة المركبات يحتاجون إلى بعض الراحة، لكنّ آتشيسون كان محقّاً في اعتباره أنها تتعمّد الاستفزاز. عندما شاهد إيدن على هامش مؤتمر لوزراء الخارجيّة، في اليوم عينه، أخبر وزير الخارجيّة أنّ النهج البريطانيّ لن يحقّق أيّ نتيجة، وأنّه كان مخطئاً تماماً في تأييده.

في هذه الأثناء، استمرّت الهجمات. كان هناك قنصٌ ليليّ، وقطعٌ للأسلاك، وكمائن. وكان الجنود البريطانيّون يوقفون في الشوارع ويقتلون. وغالباً ما كان يُعثَر على جثثهم المشوّهة في قناة المياه الحلوة التي تربط النيل بمنطقة القناة. بادر البريطانيّون إلى الانتقام. وخلال الأسابيع الستّة التي أعقبت أعمال الشغب التي جرت في 16 تشرين الأول/ أكتوبر، قتل جنودهم 117 مدنيّاً مصريّاً، وجرحوا أربعمئة آخرين. وأثاروا غضباً عارماً في 5 كانون الأول/ ديسمبر جرّاء تشريدهم نحو ثلاثمئة مصريّ من منازلهم، بعدما جرفوها لتوسيع طريق كانت عرضة للكمائن.

لم ينذر البريطانيّون الحكومة المصريّة بهذه العملية، فاستدعت الأخيرة سفيرها لدى لندن احتجاجاً على ذلك. وأفاد السفير الأميركيّ بأنّ الغضب المصريّ ”صار محتدماً للغاية لدرجة أنّ حدوث انفجار حقيقيّ بات محتّماً“. وحذّر من أنّه ”لم يعد هناك عناصر من الصّحافة أو المسؤولين أو حتّى من العامّة يتناولون المسألة بعقلانيّة“.[266]

[266] *FRUS*, 1951, Vol. V, p. 431, Note 2; p. 431, Caffery to State Department, 6 December 1951.

بحلول نهاية 1951، كان الوضع في منطقة القناة مشابهاً على نحو لافت لما كان عليه الوضع في فلسطين قبل خمس سنوات. فقد صار هناك أعداد متزايدة من القوّات البريطانيّة المتورّطة في التمرّد رغم استحالة الفوز به الآن بعد أن فقدوا دعم غالبيّة السكّان المحلّيين. أقدم الجنرالان البريطانيّان الموجودان في مصر على توجيه طلب إلى لندن بمنحهما صلاحيّات تمكّنهما من احتجاز ومحاكمة ومعاقبة الفدائيّين الذين أُلقيَ القبض عليهم، لكنّ إيدن سارع إلى رفض طلبهما لأنّه أشبه بالأحكام العرفيّة المحلّية. بغضّ النظر عن حتميّة النتائج العكسيّة التي ستترتّب على عمليّات الإعدام، كما حدث في فلسطين، كان المصريّون مُلزمين الردّ بقطع إمدادات الغذاء والمياه التي تعتمد عليها القوّات البريطانيّة في منطقة القناة. واتّضح أنّه بغية أن يكون هذا القطع فعّالاً يتطلّب اقتراح الجنراليْن الحصول من الحكومة إمّا على تزويد قاعدة السويس نفسها بالإمدادات، وإما على فرض عقوبة على عملية الاستيلاء على مصر. وبما أنّ أيّاً من الخياريْن لم يكن ممكناً عمليّاً، اقترح إيدن منح القادة على الأرض صلاحيّة احتجاز المشتبه فيهم إلى أجل غير مسمّى. رغم اعترافه بأنّ قانونيّة هذا الإجراء كانت "مشبوهة"، لم يتأثّر تشرشل إزاء ذلك. فعندما طُرحت القضيّة على مجلس الوزراء، قال له رئيس الوزراء: "باشرْ بها، لا تدقّقْ كثيراً بشأن القانون".[267]

267 TNA, CAB 129/48/40, Eden, ‘Egypt’, 6 December 1951; TNA, CAB 195/10, meeting of 7 December 1951.

عقب بضعة أيّام، وبعد تناول مأدبة العشاء في مقرّ إقامة السفير البريطانيّ في باريس، أثار إيدن مسألة ما ينبغي فعله بشأن المصريّين عندما كان رئيس الوزراء حاضراً. كان الويسكي يتدفّق، ويذكر شاهد كيف وقف تشرشل عن كرسيه وتقدّم نحو إيدن وهو يشدّ على قبضة يديه، وصرخ في وزير الخارجيّة: "أخبرْهم أنّه إذا استمرّوا بوقاحتهم، سنوجّه اليهود عليهم وننزلهم إلى الحضيض الذي لن يخرجوا منه بعد ذلك".[268]

268 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 29, 16 December 1951.

صباح اليوم التالي، طلب إيدن من مكتبه صياغة تعليمات للسفير البريطانيّ في القاهرة، وطلب منه أن يتّصل بالملك فاروق ويقترح عليه استبدال حكومته بحكومة أخرى مستعدّة للتفاوض معه. ولدى استذكاره ما كانت عليه العلاقات الإنكلزيّة–المصريّة في زمن الحرب، طلب أيضاً من مبعوثه أن "يحاصر الملك على طريقة مايلز لامبسون". ليس واضحاً هل كان إيدن يريد أن يفعل السفير ذلك أم لا. لكنّ عرض هذه الرسالة على السفير الأميركيّ قبل إرسالها يُوحي بأنّ وزير الخارجية كان يأمل في تخويف الأميركيّين كي يفعلوا الأعمال القذرة عوضاً عنه. أيّاً كان الأمر، على الأرجح

أنّه بعد تلقّيه بلاغاً من الأميركيّين، لم يتخلَّ فاروق عن حكومته، بل عيّن شخصيْن أنكلوفيليّيْن مشهوريْن لإسداء المَشورة له. كان أحدهما السفير الذي انسحبت حكومته للتوّ من لندن. تحت تأثير هذه البادرة المشجّعة، صرّح إيدن بأنّ الوقت حان لمحاولة تقديم المساعدة إلى الملك.[269]

269 *FRUS*, 1951, Vol. V, p. 443, Note 2.

***

في أوائل كانون الثاني/ يناير، ذهب تشرشل وإيدن إلى واشنطن سعياً للحصول على دعم ترومان وآتشيسون لحلّ مشكلاتهم في الشرق الأوسط. قبل أن يجتمع ترومان مع تشرشل، قرأ تقييماً حادّاً ومدمّراً لرئيس الوزراء من سفيره لدى لندن، وكان يعرف ما الذي ينتظره. كان تشرشل، على حدّ قول السفير، "يتقدّم حتماً في السنّ ولم يعد قادراً على الاحتفاظ بكامل تركيزه لمدد طويلة". كما أنّه بات يعيش أكثر فأكثر في الماضي، ويتحدّث عن ظروف لم تعد موجودة. هذه التطوّرات في شخصيّته تعني أنّ هناك صعوبة أكبر في التعامل معه.[270]

270 *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, part 1, p. 721, Gifford to State Department, 28 December 1951.

تناول تشرشل وترومان وإيدن العشاء معاً في 5 كانون الثاني/ يناير 1952. سأل رئيس الوزراء آتشيسون بعد ذلك: "هل تنبّهت إلى أنّ حكومات العالم كانت مجتمعة ذلك المساء – ليس للسيطرة عليه، معاذ الله – إنّما لإنقاذه؟" لم يُسجَّل ردّ آتشيسون. من جهة أخرى، شعر إيدن ومستشاروه بالرّعب إزاء معاملة ترومان لرئيسهم. فعندما تحدّث تشرشل عن أمله أن يرسل الأميركيّون قوّات إلى السويس، وأن يقفوا جنباً إلى جنب ضدّ مصدّق، فوّض ترومان المسألة إلى آتشيسون وإيدن لمناقشتها. كتب أحد أعضاء الفريق البريطانيّ لاحقاً أنّ الرئيس كان "فظّاً جدّاً... تجاه ونستون المسكين. كان من المستحيل ألّا نعي أنّنا كنّا نلعب دوراً ثانويّاً".[271]

271 *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, p. 731, Acheson, memorandum, 8 January 1952; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 32, 5 January 1952.

لم تُفضِ المحادثات إلى نتيجة. فقد ناشد تشرشل مرّة أخرى الأميركيّين إرسال قوّات إلى منطقة القناة للمساعدة، وقال للكونغرس إنّها باتت "مسؤوليّة دوليّة، وليست وطنيّة". لكنّ ترومان وآتشيسون كانا مصمّمين على البقاء على مسافة. قال وزير الخارجية الأميركيّ: "سنكون مثل حبيبيْن يحتضنان بعضهما بعضاً في زورق على وشك عبور شلّالات نياجرا". رأى أنّه من الأفضل "أن يتوقفا عن العناق ويباشرا التجديف".[272]

272 Thornhill, *Road to Suez*, p. 55; *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, pp. 737–8, Acheson, memorandum, 8 January 1952.

كان ردّ فعل تشرشل على تشبيه آتشيسون الضّحك لا أكثر. كان يريد من البريطانيّين الاعتراف بفاروق ملكاً على السودان لاعتقاده أنّ هذا سيؤدّي إلى كسر الجمود حول محادثات قيادة الشرق الأوسط. لكنّ إيدن رفض ذلك. كان وزير الخارجيّة مُلمّاً تماماً بالبنود الأهمّ لمعاهدة 1936، لأنّه من تفاوض عليها أساساً. وبما أنّ المعاهدة تعمّدت ترك مسألة مستقبل السودان المعقّدة دون حلّ، تحجّج بأنّ فعل ما يقترحه آتشيسون سيشكّل اعترافاً ضمنيّاً بأنّ بريطانيا وافقت على إلغاء مصر للاتفاقيّة، وهو تنازل لم يكن يرغب فيه.

عاد إيدن إلى لندن قبل تشرشل، وأطلع زملاءه بصراحة على ما حدث. كتب هارولد ماكميلان بعد ذلك: "لقد كان مصدوماً جدّاً – بل مرعوباً – إزاء الطريقة التي يعاملنا بها الأميركيّون اليوم. يتصرّفون بتهذيب، يستمعون لما نقوله، لكنّهم يتّخذون قراراتهم بأنفسهم. لنتمكّن من استعادة استقلالنا الماليّ والاقتصاديّ، لا بدّ أن يستمرّ هذا الأمر".[273]

273 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 133, 17 January 1952.

***

في حين كافحت الحكومتان البريطانيّة والأميركيّة لإيجاد أرضيّة مشتركة، كانت الأزمة المصريّة تزداد عمقاً. في الإسماعيليّة، وفي 19 كانون الثاني/ يناير 1952، انفجرت قنبلة مخبّأة داخل كومة من البرتقال، ما أسفر عن مقتل جنديّيْن بريطانيّيْن وإصابة ستّة آخرين. وقد أثارت جرائم القتل هذه احتفالات مفتوحة في شوارع المدينة حيث أطلق الفدائيّون النار من أسلحتهم في الهواء. واستتبع ذلك اندلاع معركة عند قناة المياه الحلوة قُتلت خلالها راهبة أميركيّة في دير قريب.

علمت السلطات العسكريّة البريطانيّة أنّ رجال الشرطة المُساعدين كانوا يعملون سرّاً فدائيّين، وقد أقنعتهم القنبلة التي انفجرت وسط كومة البرتقال أنّ الوقت قد حان لنزع سلاحهم. بعد حصولهم على الضّوء الأخضر من لندن، أطلقوا في 25 كانون الثاني/ يناير "عمليّة النسر". بعد أن حاصرت مقرّ رجال الشرطة المساعدين في الإسماعيليّة قبل بزوغ الفجر، دعت القوّات البريطانيّة رجال الشرطة للاستسلام مُستخدمة مكبّرات الصّوت.

تعمّد البريطانيّون توقيت الهجوم نهار الجمعة – يوم الراحة لدى المسلمين – وتوقّعوا أن يكون ذلك أمراً سهلاً. لكنّ وزير الداخليّة أمرَ عبر الهاتف رجال الشرطة المُساعدين بالمقاومة. وبعد أن أرسل البريطانيّون دبّاباتهم لاقتحام البوّابة الرئيسيّة لمجمّع المصريّين، اندلعت معركة شرسة.

وخلال قرابة أربع ساعات من القتال، قُتل خمسون شرطيّاً مصريّاً وعشرة جنود بريطانيّين. بالنسبة إلى القائد العامّ البريطانيّ في الشرق الأوسط، كان ذلك بمنزلة مواجهة صادمة. واعترف قائلاً: "في حين كنّا نظنّ أنّ المصريّين جبناء وسيستسلمون عند مواجهتهم بالقوّة، تأكّدنا من أنّ الوضع لم يعد كذلك اليوم". [274]

[274] Thornhill, *Road to Suez*, p. 58.

في اليوم التالي، ردّ المصريّون بإحراق الممتلكات عمداً. بعد انتشار شائعة مفادُها أنّ وزير الداخليّة أدلى بمكالمة هاتفيّة من حمّامه وهو يدخّن سيجاره ليعلن رفض الاستسلام، خرج رجال الشرطة المُساعدون في القاهرة إلى الشوارع. وقرابة موعد الغداء، في حين كانت تظاهرتهم تنحسر، وصلت أخبار عن أنّ سلسلة من الحرائق اندلعت في الجزء الأوروبيّ من المدينة. عندما وصل المساعدون، وجدوا عصابات منظّمة تحرق العقارات والممتلكات البريطانيّة والممتلكات الأجنبيّة الأخرى، فانضمّوا إليها. كذلك فعل، في وقت لاحق من ذلك اليوم، أعضاء من "الإخوان". أُضرمت النّيران في صرحيْن للوجود البريطانيّ، فندق "شيفيرد" ونادي "تورف". وضرب الحشد العديد من أعضاء "تورف" الهاربين حتّى الموت، ورموا أجسادهم داخل المبنى ليأكلها اللهب. كما لم تبقَ الفروع المحلّية لبنك Barclays، وWH Smith، وThomas Cook، وشركة الخطوط الجويّة البريطانيّة لما وراء البحار (BOAC)، والمجلس الثقافيّ البريطانيّ، بمنأى عن انتباه المشاغبين. في "السبت الأسود"، كما أصبح معروفاً لاحقاً، قُتل تسعة بريطانيّين وستّة وعشرون آخرون من الغربيّين، ودُمّر أكثر من سبعمئة مبنى. [275]

[275] Thornhill, *Road to Suez*, p. 64.

ظنّ البريطانيّون أن فاروق شجّع أعمال الشغب، أو أنّه على الأقل لم يبذل أيّ جهد لقمعها، إذ لم يتصوّر أبداً حدوث أضرار كبيرة إلى هذا الحدّ. ما كان معروفاً ومؤكّداً أنّ الشائعات التي لا أساس لها من الصحّة، حول أنّ وحدات الجيش البريطانيّ تتحرّك غرب القناة باتّجاه القاهرة، هي التي دفعت الملك إلى التحرّك. خوفاً من إعادة احتلال بلاده من القوّات البريطانيّة أقال الملك في اليوم التالي لـ"السبت الأسود" حكومته. [276]

[276] TNA, FO 141/1453, Hamilton, minute, 13 February 1952.

كان رئيس الوزراء الجديد، علي ماهر، معروفاً بمُعاداته للبريطانيّين، لكنّ إيدن استبشر خيراً، لأنّ إنشاء حكومة جديدة يعني إجراء انتخابات. واعتقاداً منه أنّ ماهر سيودّ دخول البلاد وهو قادر

على إحراز تطوّر بشأن المعاهدة، قال وزير الخارجيّة إنّ هناك فرصة للتوصّل إلى تسوية سريعة. لكن عندما اقترح، أثناء انعقاد المجلس الحكوميّ، أنّ على الحكومة البريطانيّة أن تظهر استعدادها لسحب قوّاتها في غضون عام، انفجر تشرشل غاضباً. مارس حزب المحافظين ضغطاً كبيراً على حكومة ”العمّال“ بشأن هذه القضيّة بالتحديد، وكان ما يقترحه إيدن الآن، على حدّ قوله، ”أسوأ من عبادان“. في أعقاب أعمال الشغب التي وقعت في ”السبت الأسود“، خشيَ من سهولة تفسير عرض إيدن على أنّه استرضاء. بالنسبة إلى تشرشل، على غرار العديد من المحافظين، اكتسبت مصر أهمّية سحريّة كونها القاعدة الرئيسيّة للمواجهة البريطانيّة الوحيدة ضدّ هتلر أثناء الحرب. وبينما كان إيدن يحاول التصرّف بواقعيّة، كان رئيس الوزراء يعلم أنّ القسم الأكبر من حزبه لا يزال يدعمه. وبعد أسابيع قليلة، سيشبّه هارولد ماكميلان سرّاً الحكومة بـ”مديرين يخافون من التدهور السريع للوضع. فهم لا يجرؤون على إخبار المساهمين بالحقائق، خوفاً من القضاء على مصداقيّة الشركة والقضاء على كلّ الآمال بالتعافي“.[277]

277 TNA, CAB 195/10, meeting of 14 February 1952; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, pp. 163–4, 30 May 1952.

***

على غرار إيدن، كان آتشيسون يسعى إلى تحقيق اختراق في مصر. في حين كان يروق للبريطانيّين تصوير أنفسهم، وفق عبارة قديمة لتشرشل، أنّهم صخرة وسط عالم متزعزع، كان وزير الخارجيّة متخوّفاً من أن يتسبّب وجودهم المستمرّ في مصر في إثارة الغضب وحالة من الفوضى. بعد مدة وجيزة من ”السبت الأسود“، أرسل ضابط في ”وكالة المخابرات المركزيّة“ يُدعى كيم روزفلت إلى القاهرة لمعرفة هل يمكن إقناع الملك فاروق بتنفيذ إصلاحات بعيدة المدى وإنشاء حكومة جديدة يمكنها التفاوض على رحيل سريع لبريطانيا.

بطلب من آتشيسون، كان روزفلت قد تسلّم لأشهر رئاسة لجنة مكلّفة تحديدَ مقاربة أميركيّة جديدة للشرق الأوسط. استنتج هو وزملاؤه ضرورة اعتماد مبدأ ”تشجيع ظهور قادة كفوئين ومنفتحين نسبيّاً تجاه الغرب، ببرامج مخصّصة لهذا الغرض، بما في ذلك بذل جهد واعٍ إنما سرّي، حيث أمكن، لتحفيز مثل هؤلاء القادة المحتملين ومساعدتهم، حتّى في حال غيابهم عن السلطة“. شكّل ذلك تغيّراً هائلاً. ففي حين عقد الأميركيّون سابقاً آمالهم على الديموقراطية لتحويل المنطقة، باتوا الآن يبحثون بصورة حثيثة عن الكفاءة. أشار هذا التحوّل إلى نهج أميركيّ أكثر براغماتيّة، الأمر الذي شكّل تحدّياً للملك فاروق الذي لم يكن يجسّد أيّ قيمة.[278]

278 Lucas and Morey, ‘The Hidden “Alliance”’, p. 97.

رغم التواطؤ المتعمّد للملك في إقالة رئيس الوزراء، علي ماهر، فإنّ الرجل الذي كان الأميركيّون قد فكّروا، في يوم من الأيام، أنّه "صالح أن يتحوّل إلى ملك شابّ فعّال وتقدّمي وصاحب نفوذ"، لم يعد يبدو المنقذ المحتمل للبلاد. فبعد طلاقه من زوجته الأولى التي عجزت عن منحه وريثاً ذكراً، كان فاروق قد تزوّج قبل عام من ذلك بزوجته الثانية، ناريمان. وصلت إلى حفل زفافها مُرتدية فستاناً مطرّزاً بعشرين ألف قطعة من الماس، لتصبح ملكة بلد لم تكن توقّعات الحياة لسكّانه عند الولادة تتخطّى السادسة والثلاثين. لم يحظَ العريسان باستحسان المسلمين المصريّين العاديّين، لذهابهما إلى "شهر العسل" خلال رمضان، وبعدما أنجبت ناريمان ابناً، بعد مدة حمل قصيرة نسبيّاً، صار من الواضح أنّ الزوجين عقدا وصالهما قبل تبادل نذورهما. سرت شائعات أخرى حول الملك مفادُها أنّه عقب كابوس راوده أطلق النار على جميع الأسُود في حديقة الحيوانات في القاهرة، وأنّه أثار منافسة بين بعض الحمّالين على حفنة من النقود الذهبيّة التي أسقطها في دلو ممتلئ بسائل اتّضح أنّه حامض الكبريت، وأنّه أجبر فلّاحة تعمل في أراضيه على ممارسة الجنس مع قرد. كانت القائمة طويلة وفظيعة. لا يمكن الجزم حول صحّة هذه الأخبار. المهمّ أنّها انتشرت لأنّها بدت معقولة جدّاً، وعزّزت الاعتقاد السائد بأنّ الملك يرى نفسه فوق القانون.[279]

279 O’Sullivan, *FDR and the End of Empire*, p. 61; Grafftey-Smith, *Bright Levant*, pp. 238, 236; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 21 August 1952.

أشار ضبّاط آخرون في قسم "المخابرات المركزيّة" في الشرق الأدنى إلى مهمّة روزفلت على أنّها "عمليّة الدّاعر السّمين"، وعلى الأرجح أنّ المفاجأة لم تكن كبيرة عندما رفض الملك نصيحة روزفلت. لكنّ الجاسوس لم يعد يعتمد على فاروق، وتماشياً مع السياسة الجديدة التي ساعد على ابتكارها، وصل إلى العاصمة المصريّة وهو يفكّر في بعض القادة الأكثر كفاءة. قبل بضعة أشهر، وُضع على تواصل مع "الضبّاط الأحرار"، وهم مجموعة من ضبّاط الجيش من ذوي الرتب المتوسّطة الذين كانوا مستائين إزاء الدوّامة التي دخلتها بلادهم. بعد أن التقى روزفلت ثلاثة ممثّلين عن الحركة سرّاً في قبرص، عرض عليهم دعم بلاده، ويبدو أنّه كان له دور فعّال في ضمان التحاق ستّة منهم بخمسين ضابطاً مصريّاً دُعُوا بعد ذلك إلى الولايات المتّحدة لتلقّي التدريب. أمضى علي صبري، وهو رئيس المخابرات الجوّية المصريّة، الذي كان من المؤيّدين، ستّة أشهر في دورة استخباراتيّة في كولورادو.[280]

280 Lucas, ‘Divided We Stand’, p. 17.

في أوائل 1952، قرّر الضبّاط الأحرار جسّ النبض بتعيين جنرال شعبيّ لرئاسة ”نادي الضبّاط“ ضدّ مرشح فاروق نفسه الذي انتُخب كالعادة دون معارضة. كان محمّد نجيب لطيفاً ومهذّباً، ولكنّه لم يكن فائق الذكاء. فاز في الانتخابات. وبينما اعترف إيدن في وقت لاحق بأنّ ”الانقلاب حدث بسرعة كبيرة إلى حد لم يدرك فيه أحد ما حدث قبل صباح اليوم السابق“، كان الأميركيّون يدركون جيّداً ما الذي يختمر. في 13 تموز/ يوليو، عندما كان الملك فاروق ينفذّ ولايته الرابعة في رئاسة الوزراء في ذلك العام، أُبلغ الملحق الجوّي المساعد في السفارة الأميركيّة لدى القاهرة بأنّ الضبّاط الأحرار على وشك اتّخاذ خطوة ضدّ الحكومة. عقب أسبوع، وبعد محاولة الملك الفاشلة لإقالة نجيب، قال السفير الأميركيّ إنّ سفارته لن ”تتدخّل في السياسة الداخليّة لدولة أخرى“؛ وهو إعلان ضمنيّ بأنّ بلاده لن توقف المتمرّدين إذا صمّموا على التحرّك.281

281 Lucas and Morey, ‘The Hidden “Alliance”’, p. 19; *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 1839, Byroade to Acheson, 21 July 1952.

تحرّك الضبّاط الأحرار في الساعات الأولى من 23 تموز/ يوليو 1952، عندما احتلّ ثلاثمئة ضابط وثلاثة آلاف من رجالهم مقرّ قيادة الجيش، ومحطّة الإذاعة، وعدداً من المباني الرئيسيّة الأخرى في القاهرة، بما في ذلك مراكز الشرطة والوزارات. عند موعد الإفطار، تكلّم ضابط في الجيش يُدعى أنور السادات عبر الإذاعة ليُخبر البلاد بأنّ نجيب صار الآن القائد الأعلى، وأنّ الجيش صار بين أيدي ”رجال نثق في قدرتهم، وفي خلقهم، وفي وطنيّتهم“.282

282 Thornhill, *Road to Suez*, p. 88.

في وقت لاحق من اليوم نفسه، استذكر ”الضبّاط الأحرار“ الرجل الذي فصله الملك للتوّ ليشغل منصب رئيس للوزراء مرة أخرى. عكسَ اختيار علي ماهر قلة خبرتهم السياسيّة، لكنّ اختيار مثل هذه الشخصيّة المعروفة ساهم في منح بعض الطمأنينة لمؤسّسة البلاد، وللملك الذي لم يفلح في مناداة الأميركيّين والبريطانيّين لصدّ الانقلاب. رغم تخوّف البريطانيّين من أن يكون ”الضبّاط الأحرار“ جبهة لمنظومة أكثر تطرّفاً، في اليوم التالي للانقلاب، ذهب ديبلوماسيّ بريطانيّ كبير، هو جون هاملتون، لمقابلة نجيب بغية إطلاعه على أنّ حكومته ترى الانقلاب مسألة داخليّة، وأنّها لن تتدخّل إلّا في حال تعرّضت حياة الأجانب للخطر. بالنسبة إلى نجيب الذي وُلد وترعرع في الخرطوم التي كانت تديرها بريطانيا، كانت التجربة مألوفة جدّاً. تذكّر أثناء استنساخه ما قاله له الديبلوماسيّ البريطانيّ: ”أتعرف، يا هاملتون، هذا يذكرّني بمذاكرات الإملاء في كلّية جوردون“.283

283 Thornhill, *Road to Suez*, p. 88.

يبدو أنّ الضباط الأحرار لم يفكّروا في ما يفعلونه بشأن الملك الذي كان في الإسكندريّة. فبعد أن بلغتهم التقارير حول مطالبته البريطانيّين بالتدخّل، فكّروا لوهلة في إحالته على المحكمة العسكريّة وإطلاق النار عليه، قبل تدخّل ماهر. ذهب الأخير إلى المدينة الساحليّة في السادس والعشرين، ليخبر فاروق بأنّه مضطرّ إلى التنازل عن العرش. وقال للملك إزاء رفض الأخير هذا الخيار: ''سيّدي، لقد فات الأوان، لم يعد يسعنا فعل أيّ شيء آخر. لديك خياران فقط... هل تودّ الذهاب عن طريق الجو أو البحر؟''[284].

284 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 19 September 1952.

''في غضون سنوات قليلة، لن يبقى هناك سوى خمسة ملوك فقط في العالم''، كما تنبأ فاروق منذ مدة طويلة، ''ملك إنكلترا، والملوك الأربعة الموجودون في لعبة الورق''. بفضل الدعم السرّي لـ''الضبّاط الأحرار'' من ''وكالة المخابرات المركزيّة''، أبحر إلى إيطاليا ونُفي ذلك المساء.[285]

285 Roosevelt, 'Egypt's Inferiority Complex', p. 357.

***

لطالما تباهى البريطانيّون بأنهم صانعو الملوك في مصر، في حين كان الأميركيّون مجرّد متفرّجين. لكنّ الانقلاب أطاح بالملك. وخلال الأسابيع التالية، اضطرّ البريطانيّون إلى الاعتراف بأنّ سلطتهم انتُزعت منهم، إذ إنّ الأدوار انقلبت على نحو مفاجئ. بلغهم، عبر السفارة الأميركيّة، طلبٌ من "الضبّاط الأحرار" بتجنب بريطانيا التدخّل في الانقلاب. وبينما تمكّن وليام ليكلاند، وهو أحد الديبلوماسيّين الأميركيّين المُخضرمين، بفضل معلومات وصلَته في الوقت المناسب، من تكوين صداقات مع أحد قادة "الضبّاط الأحرار" الذي كان ضابطاً احتياطيّاً في الجيش ويُدعى جمال عبد الناصر، وقد اتّضح أنّه يحبّ المقانق وأفلام إستر ويليامز، اشتكى جاسوس بريطانيّ من أنّ رئيس المخابرات المصريّ الجديد جعله ينتظر، لأنّه كان يقابل ملحقين في الجيش الأميركيّ والقوّات الجوّية.[286]

286 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 19 September 1952.

بحلول نهاية آب/ أغسطس 1952، اشتبه ديبلوماسيّون بريطانيّون في أن يكون السفير الأميركيّ، جيفرسون كافري، يشجّع الطغمة العسكريّة على البقاء على مسافة منهم. واعترف السفير البريطانيّ بأنّه لم يكن لديه أيّ فكرة عمّا سيحدث بعد ذلك، لأنّ ''بلّورته لم تكن تعمل''. تفاقم شعور السفير

وزملائه بأنّهم مجرّد زوّار عندما أصدر آتشيسون بعد أسبوع ودون سابق إنذار بياناً رحّب فيه بـ"التطوّرات المشجّعة" في مصر، وتمنّى للحكومة الجديدة "كلّ النجاح". رأى النظام الجديد أنّ ذلك بمنزلة ضوء أخضر يسمح لهم بإلقاء القبض على ستّين شخصاً كان الكثير منهم مقرّبين من البريطانيّين. استقال علي ماهر احتجاجاً على التدخّل في اليوم التالي، ونجح نجيب في تولّيه منصب رئيس الوزراء بتحريض مفترض من السفير الأميركيّ. قال إيدن مُحتدماً من لندن: "لا يمكن لكافري أن يكون أكثر سوءاً". "يُظهر البريطانيّون مؤشّرات على شعورهم بشيء من الانزعاج لغياب علاقات عمليّة بينهم وبين الجيش المصريّ، في حين أنّ علاقاتنا به وديّة للغاية"، على حدّ ما صرّح به السفير الأميركيّ بعد بضعة أيّام.[287]

[287] MEC, Slade-Baker Papers, diary, 8 September 1952; Brands, 'The Cairo-Teheran Connection', p. 446; Lucas, 'Divided We Stand', p. 21; Lucas and Morey, 'The Hidden "Alliance"', p. 98.

في لندن، في 27 أيلول/ سبتمبر، لخّص ماكميلان الوضع. "قد يكون الفرق الأبرز والأكثر إيلاماً بين موقفنا الآن وموقفنا عندما كنّا في السلطة... هي علاقتنا مع الولايات المتّحدة. فحينذاك كنّا على قدم المساواة معها. كنا حليفاً محترماً. أمّا الآن، فيعاملنا الأميركيّون بمزيج من الشفقة والاحتقار".[288]

[288] Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 186, 27 September 1952.

13

التخطيط لإسقاط مصدّق

رغم أنّ انقلاب "الضبّاط الأحرار" في تموز/ يوليو 1952 وضع حدّاً للنفوذ البريطانيّ في مصر، فإنّه منح البريطانيّين فكرة أخرى في مكان آخر. بعد أربعة أيّام من الثورة في القاهرة، التقى ديبلوماسيّ بريطانيّ يُدعى سام فال معارضاً مشهوراً لرئيس الوزراء الإيرانيّ مصدّق في طهران. لدى عودته إلى سفارته، ذكر فال أنّ وسيطه، السيّد ضياء الطبطبائي، قد أوصى بدعم بريطانيّ لانقلاب عسكريّ. وبما أنّ البريطانيّين أخفقوا للتوّ في الإطاحة بمصدّق بالوسائل البرلمانيّة، كان فال مَيالاً إلى موافقته الرأي.

في اليوم التالي، التقى فال الرجل الذي يُفترض أنّه قادر على تحقيق ذلك، وهو صديق ضياء الضّخم وصاحب النفوذ، أسد الله رشيديان. على غرار ضياء، كان الراشيديّون حلفاء للبريطانيّين منذ عشرينيّات القرن الماضي، وهم عائلة من الوسطاء الذين كانوا أكثر ثراء ونفوذاً عندما جعلهم البريطانيّون وكلاء البيع الوحيدين التابعين لهم بعد غزو واحتلال البلاد عام 1941. عند نهاية الحرب، كانت العائلة على علاقة بالجميع: الشاه وشقيقته التوأم (التي كان يربطهم بها نوع من العلاقة الماليّة)، ورئيس البروتوكول الخاصّ به، والمحكمة، وأعضاء المجلس الذين يوالون بريطانيا. كما كانوا يمتلكون نفوذاً متجذّراً في مجتمع طهران: أوساط الحكومة والجيش والشرطة، وأوساط رجال الدين على غرار آية الله كاشاني، وأوساط الصحافة، وكما تبيّن أيضاً، للأسف، مع زعماء طبقة البلطجية التي كانت تكدح في أسواق اللحم والفاكهة والخضراوات في جنوب طهران: رجال يحملون أسماء مثل محمد المغفّل أو مهدي الجزّار أو شعبان الأبله. بحلول منتصف 1952، كانت العائلة تتقاضى مبلغاً شهريّاً من جهاز المخابرات البريطانيّ قدرُه عشرة آلاف جنيه إسترليني.

كان اسم الجنرال الذي أوصى به رشيديان للحلول مكان مصدّق مألوفاً جدّاً لفال وزملائه. بصفته قائداً لحامية محلّية خلال الحرب، كان فضل الله زاهدي مسؤولاً عن مقتل عدد من المسؤولين البريطانيّين. وعندما افترضت المخابرات حينذاك أنّه كان متواطئاً في محاولة ألمانيّة للاستيلاء على البلاد، اختطفه البريطانيّون ونفوه إلى فلسطين. يذكر مختطفه أنّه "كان رجلاً رشيقاً، يرتدي زيّاً

رسميّاً رماديّاً أنيقاً وينتعل أحذية لمّاعة"، وقد اكتشف في غرفة نومه "مجموعة من الأسلحة الآليّة الألمانيّة، وكمّية كبيرة من الملابس الداخليّة الحريريّة، وبعض الأفيون، وسجلّاً مصوّراً لبغايا أصفهان". منذ ذلك الحين، عمل زاهدي وزيراً للداخليّة في حكومة مصدّق، وكان عضواً في مجلس الشيوخ. للوهلة الأولى، بدا حينذاك مرشّحاً غير لائق وغير مرجّح. وهذا ما جعله مثالياً، كما توارد فوراً إلى ذهن فال، فمسيرته المهنيّة تجعل من الصّعب تصديق أيّ ادّعاء بأنّه كان جاسوساً بريطانيّاً. 289

289 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 186, 27 September 1952.

كان البريطانيّون يبحثون عن شخص ما ليحلّ مكان مصدّق لأكثر من عام. في البداية، كانوا يأملون أن يكون ضياء نفسه هو ذلك الرجل، إلى أن أدركوا أنّ السيّد كان موالياً علانيّة للبريطانيّين، ولم يكن لديه أدنى فرصة لبيع أيّ صفقة نفط للجمهور الإيرانيّ المشكك. ثمّ نقلوا ولاءهم إلى منافس ضياء، أحمد قوام، لكنّه أيضاً فشل فشلاً ذريعاً في ذلك الصيف. فبعد تنصيبه رئيساً للوزراء عند استقالة مصدّق عقب مشادة مع الشاه، أمرَ قوام القوّات في الشوارع بتفريق المظاهرات التي أعقبت تعيينه. بعد أن قُتل سبعة وتسعون من المتظاهرين، أُجبر على الاستقالة، ولم يكن أمام الشاه خيار آخر سوى استدعاء مصدّق الذي تُوّج فوزه في اليوم التالي عندما حكمت "محكمة العدل الدوليّة" لمصلحته في لاهاي، مُعلنة أنّها لا تتمتّع بأيّ سلطة قضائيّة في القضيّة التي أشارت إليها الحكومة البريطانيّة في 1951. 290

290 Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 235.

***

على هذه الخلفيّة، التقى سام فال ضياء، ثمّ رشيديان. رأى رئيس فال، القائم بالأعمال، السيّد جورج ميدلتون، في رسالة كتبها إلى إيدن يصف فيها الوضع غير المستقرّ في البلاد، أنّه من المُجدي ذكر اقتراح رشيديان إمكانيّة دعمهم الجنرال زاهدي. حتّى ذلك الحين، كانت المقاطعة البريطانيّة للنفط الإيرانيّ فعّالة بوضوح. قبل بضعة أيّام، عرض مصدّق التفاوض في حال قدّمت بريطانيا مساعدة ماليّة، قبل أن يسحب عرضه فجأة، وسط تقارير تفيد بأنّ عرضه أثار أعمال شغب في أنحاء البلاد. وصف ميدلتون انطباعه بأنّ "جنون العظمة (الذي كان يعاني منه مصدّق) بات يتحوّل الآن إلى حالة من انعدام التوازن العقليّ"، وقال إنّه "يبدو الآن أنّ الشيء الوحيد الذي يمنع سقوط بلاد

فارس بين أيدي الشيوعيّين هو الانقلاب". ورغم غياب "مرشّح بارز" من الجيش ليحلّ مكان مصدّق، فإنّه رأى أنّ زاهدي "قد يكون ملائماً".[291]

[291] TNA, CAB 129/54/25, Eden, 'Political Developments in Persia', 5 August 1952, circulating Middleton's letter of 28 July.

رغم أن الترحيب باقتراح ميدلتون كان متحفّظاً، فإن تأثيره كان كبيراً في إيدن. وفي 29 تموز/ يوليو، أبلغ وزير الخارجيّة مجلس الوزراء أنّه "قد يكاد يجنّ جنون" مصدّق لسحب عرضه، وأنّ كلّ الآمال بالتوصّل إلى تسوية اختفت. وبعد أن وافق على حجّة ميدلتون بأنّ حزب "توده" المدعوم من الشيوعيّة كان المستفيد الأكثر احتمالاً من الاضطرابات الإيرانيّة المُتنامية، أبلغ زملاءه أنّه سأل السفير الأميركيّ في لندن، هل من الممكن، في حال لم يتمكّنوا من "العثور على شخص آخر، دعمُ... رجل عسكريّ، كما الحال في مصر؟"؛ شعرَ بأنّ السفير "لم ينفر" من تلك الفكرة.[292]

[292] TNA, CAB 195/10, meeting of 29 July 1952.

صار إيدن أشدّ تصميماً على إيجاد "نجيب محلّي" لحلّ مشكلته في إيران بعد أن توصّل آتشيسون إلى سلسلة جديدة من المقترحات التي تهدف إلى كسر الجمود قبل انتهاء رئاسة ترومان في نهاية العام. في نهاية تمّوز/ يوليو، اقترح وزير الخارجيّة منحَ مصدّق عشرة ملايين دولار لمساعدته، واللجوء إلى التحكيم الدوليّ لتحديد مقدار التعويض الذي يجب على إيران دفعه للمساهمين في الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة، وضرورة تحسين البريطانيّين وضع إيران الماليّ أكثر عن طريق شراء النفط المحاصَر في إيران نتيجة المقاطعة بأسعار مخفّضة.[293]

[293] Rahnema, *Behind the 1953 Coup in Iran*, p. xviii.

بما أنّه من شأن ذلك إزالة الضغوط التي فرضتها مقاطعة النفط على مصدّق، عارض إيدن الأمر فوراً. لكن نظراً إلى المزاج الأميركيّ المتصلّب منذ الانقلاب المصريّ، أدرك أن آتشيسون سيفرج عن المال على أيّ حال. وبعد أن سمع أخباراً واعدة من طهران مفادُها أنّ زاهدي – الذي التقاه فال للتوّ – كان يعتقد أنّه بإمكانه الاعتماد على دعم العديد من الأعضاء المُمتعضين في جبهة مصدّق الوطنيّة، أخبر مجلس الوزراء أنّه في حين كانت مخطّطات زاهدي تتطوّر، كان يخطّط لخداع آتشيسون بإظهار رغبة في مناقشة شروط التحكيم، "رغم كونها في الأساس تكتيكاً لكسب الوقت"، وهدفُها تأجيل دفع المال للسكرتير.[294]

[294] TNA, CAB 195/10, meeting of 7 August 1952.

لكنّ آتشيسون اكتشف فوراً مخطّط إيدن. كتب: ’’القاسم المشترك الوحيد الذي يمكن أن أراه بين المذكّرة التي قدّمناها إلى الحكومة البريطانيّة وردّ السيد إيدن أنّ كليهما كُتب على الورق وبالآلة الكاتبة‘‘. 295

295 Dobson, *Anglo-American Relations in the Twentieth Century*, p. 116.

***

بحلول النصف الثاني من آب/ أغسطس، كان مصدّق يدرك وجود تآمر ضدّه، لكنّه لم يكن يعرف، على ما يبدو، من أيّ جهة تحديداً، لأنّه اتخذ بعد ذلك خطوة صبتّ مباشرة في مصلحة زاهدي. ففي 23 آب/ أغسطس، اتّخذ قراراً مستعجلاً بإحالة 136 ضابطاً عسكريّاً على التقاعد المُبكر. وقد منحهم وضعهم الجديد غير المتوقّع حقّاً واحداً هو الانضمام إلى رابطة الضبّاط المتقاعدين التي كان يرأسها زاهدي. أفاد فال بعد أسبوعين: ”رأيتُ الجنرال زاهدي اليوم، ووجدتُه مُفعماً ببهجة الربيع“. 296

296 Rahnema, *Behind the 1953 Coup in Iran*, p. 25.

لم يبقَ دور زاهدي سرّياً لمدة طويلة. ففي أواخر أيلول/ سبتمبر، التقى الجنرالُ آية الله كاشاني، الملّا المثير للاشمئزاز الذي لعب دوراً أساسيّاً في تقويض رئاسة أحمد قوام في وقت سابق من ذلك العام، والذي كان زاهدي بحاجة واضحة إلى دعمه في حال نجحت محاولته الإطاحة بمصدّق. سرعان ما تسرّبت الأخبار عن اجتماعهما. وفي 4 تشرين الأول/ أكتوبر، ذكرت صحيفة *The Wall Street Journal* أنّ زاهدي كان يحاول إقناع كاشاني وآخرين بدعمه ضدّ مصدّق. ووصفت الصّحيفة الجنرال بأنّه ’’رجل إيرانيّ قويّ وواعد‘‘، على طراز نجيب المصري. ’’حاول إجراء هذه الاقتراحات بسرّية تامة، ولكن من المعروف أنّ مصدّق كان على علم بها‘‘. 297

297 ‘Iranian Intrigue’, *Wall Street Journal*, 4 October 1952.

ساهم الكشف عن تآمر منافسيه للإطاحة به في زيادة الضّغط على مصدّق. فعدا حاجته الماسّة إلى المال، اضطرّ في أوائل آب/ أغسطس إلى استيعاب خبر انتخاب كاشاني رئيساً للمجلس. صادف أنّ السفير الأميركيّ كان معه في ذلك الوقت. نقل إلى واشنطن أنّه ’’من الواضح أنّ مصدّق كان مصدوماً للحظة، بدا أنّه نسيَ حضوري، ولم يسعَ إلى إخفاء انزعاجه واضطرابه. سقط عن سريره وأغلق عينيه. اعتقدتُ أنّه قد يفقد وعيه‘‘. ثمّ، قرابة نهاية الشهر، تلقّى رسالة مشتركة من ترومان وتشرشل تعرض عليه مبلغ عشرة ملايين دولار، ووضع حدّ لعقوبات النفط، في حال وافق على

طرح مسألة التعويضات على "محكمة العدل الدوليّة". يبدو أنّ القوى التي حاول جاهداً تقسيمها تتحالف الآن ضدّه.[298]

[298] Brands, *Inside the Cold War*, p. 267.

في 13 تشرين الأول/ أكتوبر، اتّخذ مصدّق إجراءات ضدّ معارضيه، فاعتقل جنرالاً بارزاً، وكذلك أسد الله رشيديان، وأشقّاءه، ووالدهم. لكنّ زاهدي والعديد من المعارضين الآخرين كانوا يتمتّعون بالحصانة البرلمانيّة، ولذا اتّخذوا المجلس ملاذاً لهم. لم يكن بإمكان رئيس الوزراء سوى اتّهامهم بالتواطؤ في مؤامرة للإطاحة به. بعد ذلك بثلاثة أيّام، نفّذ ما هدّد به لمدة طويلة، فقطع أخيراً العلاقات الديبلوماسيّة مع بريطانيا. مُنح ميدلتون وفال وزملاؤهم عشرة أيّام لمغادرة البلاد.

إغلاق السفارة البريطانية لدى طهران يعني أنّ البريطانيين سيعتمدون من الآن فصاعداً على الأميركيّين لإنجاح خطّتهم للإطاحة بمصدّق، لكن لم يكن هناك حينذاك أيّ مؤشر على اهتمام الأميركيّين بذلك. رغم إفادة السفير الأميركيّ في أيلول/ سبتمبر، عقب اجتماع مع رجل لم يكشف عن اسمه ومن المرجّح أن يكون زاهدي، بأنّ "التلميحات حول حدوث انقلاب، أو اللجوء إلى تكتيكات عنيفة، صارت أكثر وضوحاً"، رفض التورّط، وانتزع التزاماً من نظرائه البريطانيّين ألّا تقدم أيّ من سفاراتهم على دعم أو تشجيع أيّ انقلاب، وهو وعد سرعان ما بادر البريطانيّون إلى كسره. فبحلول تشرين الأوّل/ أكتوبر 1952، صار لـ"وكالة المخابرات المركزيّة" نظرة أكثر تفاؤلاً إزاء مخطّطات مصدّق. فقد أدركت الآن أنّ الزعيم الإيرانيّ سيبقى على قيد الحياة "أقلّه خلال الأشهر الستّة المقبلة"، وأنّه من المحتمل أن يبقى حيّاً إلى 1953، بشرط أن يتمكّن من إبعاد كاشاني. ساعد ذلك في تفسير سبب بقاء آتشيسون، حتّى نهاية رئاسة ترومان، مُلتزماً المسار الديبلوماسيّ، ومُشتكياً من غياب "كمّية كافية من الجبن" في عرض بريطانيا. كتب مستشار إيفن، إيفلين شوكبيرغ، في مذكّراته: "سئم كلانا من إلقاء آتشيسون المواعظ علينا".[299]

[299] Rahnema, *Behind the 1953 Coup in Iran*, p. 25; USIME, CIA, 'Prospects for Survival of Mossadeq Regime in Iran', 14 October 1952, and 'Probable Developments in Iran Through 1953', 13 November 1952; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 55, 20 November 1952.

***

كان ونستون تشرشل يأمل في أن ينظر خلَف ترومان إلى الوضع من منظور مختلف. في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1952، فاز دوايت أيزنهاور في الانتخابات الرئاسيّة. كان آيك شخصيّة محبوبة وشعبيّة جداً في بريطانيا، فهو الذي قاد الإنزال في النورماندي في ظلّ ظروف بالغة

الصعوبة، وتوصّل إلى إرساء علاقات متينة بين قوّاته وقوّات مونتغمري. من ناحية أخرى، لم يكن لدى إيدن أيّ أوهام أن الرئيس الجديد سيجعل حياتهم أسهل. رغم أنّه كان على غرار تشرشل معجباً بأيزنهاور، كان يدرك أنّ الجمهوريّين لا يثقون بالبريطانيّين، حتّى أكثر من الديموقراطيّين، ولكن ربّما لا أحد أكثر من الرجل الذي اختاره آيك وزيراً للخارجيّة، وهو جون فوستر دالاس. كان من شأن ذلك التعيين، كما أشار أحد الديبلوماسيّين البريطانيّين بنظرة ثاقبة في تشرين الثاني/ نوفمبر، "خلق صعوبات كبيرة بالنسبة إلينا في المستقبل القريب".[300]

300 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 47, 5 November 1952.

من المُنصف القول إنّ البريطانيّين لم يحبّذوا قطّ وزير الخارجيّة الجديد الصارم. فقد كان، على حدّ التعبير المُستهجن لكبير مستشاري إيدن في زمن الحرب أليك كادوغان، عندما التقاه للمرّة الأولى قبل عقد، "النموذج الأكثر سذاجة للأميركيّ الخطيب غير النافع... ليكن الله بعوننا!" كان إيدن نفسه يشعر بالغثيان بسبب رائحة الفم الكريهة لدالاس، ورتابته في الكلام، فيما دندن تشرشل: "دال، دالر، دالاس". حتّى أنّ آيك اعترف بأنّ اختياره قد يبدو "ضعيفاً بعض الشيء في البداية"، وبأنّه كان – هذا أمر مهمّ للغاية – "يفتقر على نحو غريب إلى القدرة على فهم كيفيّة تأثير كلماته وأسلوبه في شخصيّة أخرى". كان يعرف جيّداً ما ستكون عليه أصداء هذا التعيين في لندن، إذ كانت نبرته "شبه اعتذاريّة" عندما أكّد لإيدن أنّ دالاس سيكون وزير خارجيّته.[301]

301 Talbot, *The Devil's Chessboard*, pp. 200–3; Ferrell, ed., *The Eisenhower Diaries*, p. 237, 14 May 1953; Thornhill, *Road to Suez*, p. 122.

على أيّ حال، بدا أنّ دالاس وُلِد خصّيصاً لهذا الدور، ولا شكّ أنّه كان يطمع فيه طوال حياته. فجدُّه – الذي سُمّي فوستر تيمّناً به – كان وزيراً للخارجيّة أيضاً. كذلك كان عمُّه، روبرت لانسينغ. تفسّر الروابط العائلية سبب انضمامه إلى الوفد الأميركيّ في مؤتمر باريس للسلام عام 1919 حين كان لا يزال في الثلاثين. فكما حدث مع روزفلت، كانت باريس تجربة توجيهيّة لدالاس، وتركت لديه انطباعاً سلبيّاً للغاية عن البريطانيّين. بعد أن خاب أمله، انتقل إلى شركة المحاماة Sullivan and Cromwell، لكنّه لم يكفّ عن التفكير في السياسة الخارجيّة. عندما صار واضحاً في منتصف الحرب العالمية الثانية أنّ إدارة روزفلت بدأت تخطّط لمرحلة ما بعد الحرب، وافق على رئاسة لجنة مستقلّة تدرس أسس إرساء "سلام عادل ودائم". لا شكّ في أن دالاس كان يروّج لاقتراح اللجنة إنشاءَ حكومة عالميّة بعد الحرب عندما واجهه كادوغان. كان هذا اقتراحاً خياليّاً، لكن بعد ثلاث سنوات كان دالاس موجوداً ليشهد ولادة الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو.[302]

302 Hoopes and Brinkley, *FDR and the Creation of the UN*, p. 56.

رغم أنّ دالاس عمل لمصلحة ترومان، فإنّه كان جمهوريّاً بالفطرة. في الوقت الذي كان يشبّه فيه ماكميلان حكومة تشرشل بمجلس إدارة شركة مفلسة، ذهب دالاس إلى مقابلة أيزنهاور الذي كان حينذاك رئيساً لـ"الناتو"، في مقرّه خارج باريس، وحثّه على الترشّح للرئاسة من قبل الجمهوريّين. كان متخوّفاً من التهديد السوفياتيّ، ولذا اقترح على آيك "سياسة الجرأة" التي تقضي بصدّ الشيوعيّة بالقوة، والتهديد باستخدام الأسلحة النوويّة كملاذ أوّل من شأنه ردع التوسّعية الروسيّة وتوفير المال في الوقت نفسه.

سيقبل آيك، الذي كان يتودّد له الديموقراطيّون أيضاً، ترشيح الحزب الجمهوريّ، وسيضع فكرة دالاس في صميم حملته الانتخابيّة. سرعان ما صار يعتمد على دالاس، فوفق ما لاحظه ماكميلان في وقت لاحق "لم يكن في استطاعته فعل أيّ شيء من دونه". لكنّ رأي دالاس كان مهمّاً. فقد كان يعتقد، كما كان يفعل دائماً، أنّ القيادة الأميركيّة كانت أساسيّة لأمن العالم. أمّا البريطانيّون، فكانوا يشكّلون تهديداً و"قوة متداعية بسرعة" كان سلوكها "الخامل وغير الكفوء" يشجّع القوميّين على غرار مصدّق، ما تسبّب في خلق توتّرات سيتمكّن الشيوعيّون حينذاك من استغلالها. وفقاً لأحد مساعديه شعر وزير الخارجيّة الجديد بأنّه "لا يمكنك ببساطة الاعتماد على البريطانيّين للتصرّف بطريقة مسؤولة"، وبأنّه "لم يكن معجباً بهم". كان يرى إيدن مجرّد "داندي".[303]

303 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 22, 20 March 1957; Lucas, *Divided We Stand*, p. 37; Dulles, 'Policy for Security and Peace', p. 355.

***

مرّة أخرى تغاضى تشرشل عن هذا التفكير، فسافر إلى نيويورك في كانون الثاني/ يناير 1953 لتوديع ترومان، والأهمّ من ذلك لمقابلة أيزنهاور لأوّل مرّة منذ سنوات. قبل المغادرة، قال لمجلس الوزراء إنّ الهدف هو "بذل كلّ ما في وسعنا للحصول على مشاركة الولايات المتّحدة". كان يعتقد أنّه قادر على إنعاش العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بروزفلت خلال الحرب.[304]

304 TNA, CAB 195/11, meeting of 30 December 1952.

كتب أيزنهاور عن تشرشل في مذكّراته الحربيّة العائدة إلى 1948: "كنتُ أكنّ له الإعجاب والحبّ". واعترف أيضاً أنّ تشرشل "كان يعلم ذلك تماماً، ولم يتردّد أبداً إزاء استغلال ذلك لمحاولة دفعي إلى الاصطفاف لجهته في أيّ جدال". استناداً إلى ذلك قابل الرئيس المنتخب تشرشل ثلاث مرّات في أوائل كانون الثاني/ يناير. بدأ تشرشل بوصف الشعور الممتع الذي راوده بالجلوس "على

نوع من المنبر الأولمبيّ" مع روزفلت خلال الحرب، و"توجيه الشؤون العالميّة من هذا الموقع المتميّز". كان يأمل بوضوح أن يكون من الممكن إرساء علاقة مع آيك تلتزم الخطوط نفسها. واقترح أنّه يمكن للحليفيْن معاً معالجة قضايا السياسة الخارجيّة الأكثر إلحاحاً: مسألتَي مصر وإيران. نظراً إلى تحمُّل بريطانيا وأميركا العبء معاً تجرّأ على التصريح بأنّه "ينبغي للدول الأخرى أن تعي مدى حكمة اقتراحاتنا وأن تتبعها".305

305 Eisenhower, *Crusade in Europe*, pp. 69–70; Ferrell, ed., *The Eisenhower Diaries*, pp. 222–4, 6 January 1953.

على غرار الآخرين، فوجئ آيك بتداعي حالة تشرشل. رغم أنّ رئيس الوزراء كان "ساحراً ومثيراً للاهتمام كما كان دائماً"، كما سجّل في مذكّراته، فإنّ "ثقل السنوات صار بادياً عليه بوضوح". وكان أكثر ما يلفت الانتباه أنّه طوّر على ما يبدو "إيماناً طفوليّاً" بإمكانيّة حلّ أيّ مشكلة بالشراكة الإنكليزيّة–الأميركيّة.306

306 Ferrell, ed., *The Eisenhower Diaries*, pp. 222–3, 6 January 1953.

اعتقد آيك أنّ تشرشل كان يرتكب خطأً إستراتيجيّاً نابعاً من مجرّد تمنّيات. وكان يعتقد، على غرار دالاس، أنّه لا يُفترض بـ"القوّتين العظميَيْن الغربيّتيْن أن تبدوَا للعالم كتشابك للقوى من شأنه فرض التزام الوضع الراهن". فضلاً عن ذلك رأى بوضوح أنّ الافتراض الذي يستند إليه تشرشل، اقتراحه أن تعمل القوّتان يداً بيد، كان مُعيباً. فقد كان يعلم انطلاقاً من تجربته الخاصّة أنّ التحالف في زمن الحرب كان مترنّحاً أكثر بكثير ممّا كان رئيس الوزراء قادراً على تذكّره أو مستعدّاً للاعتراف به. لذا، كان ردّ فعله إزاء أُمنية تشرشل عقد شراكة خاصّة يتهادى: "إنّ أيّ أمل في إقامة مثل هذه العلاقة أمرٌ سخيف تماماً". تمنّى أن يتقاعد رئيس الوزراء.

كان هذا ما فكّر فيه أيزنهاور وليس ما قاله، ولذلك تابع تشرشل ضغطه غير مدرك للأمر. في اجتماع آخر في 7 كانون الثاني/ يناير، قدّم اقتراحاً. كان يخطّط للذهاب إلى واشنطن لرؤية ترومان، ومن هناك، زيارة جامايكا للتمتع قليلاً بشمس الشتاء. واستناداً إلى فكرته حول إرساء علاقة إنكليزيّة–أميركيّة خاصّة، اقترح العودة من الكاريبي إلى واشنطن بعد أسبوعين من تنصيب أيزنهاور، لعقد قمّة. تهرّب آيك من الإدلاء بإجابة مباشرة قائلاً إنّه سيذعن لنصيحة دالاس.

في اليوم نفسه بعد العشاء، أجرى دالاس زيارة غير متوقّعة إلى تشرشل في الفندق، وصبّ مياهاً باردة على فكرة رئيس الوزراء التي وصفها بـ"المؤسفة للغاية". شرح قائلاً إنّ الشعب الأميركيّ يخاف من قدرة تشرشل على "إلقاء تعويذة" على قادتهم، وإنّ الحكمة تقضي بالتروّي قليلاً قبل عقد

أيّ قمة. بعد مغادرة دالاس، شنّ تشرشل هجوماً غاضباً على ”الحزب الجمهوريّ عموماً، ودالاس خصوصاً“. وأخبر سكرتيره الخاصّ أنّه لا يريد أن يكون له ”أيّ علاقة مع دالاس“ الذي كان لا يحبّ ”وجهه الضّخم ولا يثق به“. وقد دفعه استياؤه من فشله في الحصول على موافقة آيك إلى وصف الرئيس لاحقاً بـ”الضّعيف والأحمق“.[307]

307 Colville,*The Fringes of Power*, pp. 620, 629.

في ظل غياب أيّ مؤشرات على الدّعم، سواء من ترومان في واشنطن أو أيزنهاور في نيويورك، أدرك تشرشل وإيدن أن لا خيار أمامهما سوى التفاوض مع كلّ من نجيب في مصر ومصدّق في إيران. اعترف مساعد إيدن، شوكبيرغ، في اليوم نفسه لتلقّي تشرشل الأخبار السيّئة من دالاس: ”في نهاية هذا اليوم، شعرتُ بحالة من التشاؤم الشديد بشأن التوقّعات البريطانيّة في كلّ مكان“. شهد شوكبيرغ الإطار الدوليّ الذي ساهم وزير الخارجيّة الجديد في وضعه عبر التآمر ضدّ بريطانيا. وعبّر عن قلقه إزاء ”تعارُض القانون الدوليّ وتوجُّه الرأي العامّ الدوليّ مع الأمور التي جعلت منّا أمّة عظيمة، أي أنشطتنا خارج أرضنا. سيُعيدوننا شيئاً فشيئاً إلى جزيرتنا حيث سيصيبنا الجوع“.[308]

308 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 71, 7 January 1953.

باتت تبدو آمال بريطانيا بالإطاحة بمصدّق بعيدة للغاية. وكان إحياؤها يتطلّب تغييراً في التوجّه الأميركيّ.

14

رجل الميدان

في شباط/ فبراير 1953، بعد نحو أسبوعين من تنصيب أيزنهاور، سافر وفدٌ بريطانيّ بقيادة رئيس المخابرات البريطانيّة، السير جونسون سنكلير، إلى واشنطن للقاء المدير الجديد لـ"وكالة المخابرات المركزيّة"، في محاولة لإقناعه بشنّ انقلاب على مصدّق. استمع ألِن دالاس، الشقيق الأصغر لفوستر، لسنكلير وهو يتحدّث بالتفصيل عن "عمليّة الجزمة"، الاسم الذي أطلقته "المخابرات المركزية" على الخطّة المُعدّة لإسقاط رئيس الوزراء الإيرانيّ.

كان يمكن لألِن دالاس الساحر والودود – كانت تطلق عليه زوجته التي واجهت معاناة طويلة لقب "القرش" – أن يبدو بلطافته أستاذاً جامعيّاً لولا الهواتف الثلاثة – الأسود والأبيض والأحمر – التي كانت متأهّبة على لوح جانبيّ وراء مكتبه. كما كان يعرف المنطقة التي يتحدّث عنها سنكلير. فبعد أن عمل في "مكتب الخدمات الإستراتيجيّة" في الحرب، عاد إلى شركته القانونيّة القديمة، Sulivan and Cromwell، التي كان فوستر شريكاً فيها. وفي 1949، نيابة عن اتّحاد من شركات هندسيّة، ذهب إلى طهران للقاء الشاه، والتفاوض على صفقة تنمية كان من المفترض أن تبلغ قيمتها 650 مليون دولار لو لم يرفضها المجلس في سياق السّخط الذي أثارته "الاتفاقيّة التكميليّة" في كانون الأول/ ديسمبر 1950. على عكس أخيه الأكبر، لم يكن دالاس رجلاً غنيّاً، ولذا كان فشل المشروع الذي كان من شأنه أن يدرّ عليه ثروة مؤلماً بالنسبة إليه. كان أيضاً حريصاً على رحيل مصدّق، وكان ليخصّص في نهاية المطاف مليون دولار للإطاحة به.

عدا الثأر الشخصيّ الذي كان يتوخّاه ألِن دالاس، كان هناك سبب آخر وراء رغبة الإدارة الجديدة المفاجئة في التحرّك، فمصدّق بات الآن يهدّد مصالحها على نحو مباشر بطريقة لم يلجأ إليها من قبل. حتّى تلك اللحظة، كانت "أرامكو" تستفيد جيّداً من الأزمة الإيرانيّة، فقد زادت إنتاجها كثيراً لسدّ الفجوة التي سبّبتها المقاطعة البريطانيّة للنفط الإيرانيّ. لكن قبل ذلك بأيّام، هدّد رئيس الوزراء الإيرانيّ ببيع النفط الإيرانيّ مع خصم بنسبة 50%، وهي خطوة ستكون لها آثار كارثيّة على "أرامكو" والسعوديّين في حال نفذها.

لو أنّ مصدّق أصدر هذا التهديد في وقت سابق، لكان من السهل رفضه. فحتّى كانون الأول/ ديسمبر الماضي، كان التداخل بين المقاطعة التي ينظمها البريطانيّون، والأهم من ذلك غياب ناقلات النفط، يعني أنّ إيران كانت عاجزة عن تصدير نفطها على أيّ حال. لكن في الأيّام الأخيرة لرئاسة ترومان، تخلّى آتشيسون عن المقاطعة، وسيؤدّي تدنّي كلفة استئجار الناقلات البحريّة إلى توفّر المزيد من الناقلات قريباً. كتب فوستر دالاس خلال وجود الوفد البريطانيّ في واشنطن: "بات واضحاً أنّ الوضع المستقبليّ للناقلات... سيكون جيّداً في المستقبل القريب لدرجة أنّ مصدّق سيكون قادراً على تنفيذ تهديده". بعد عودة سنكلير وزملائه إلى لندن، ذكرت "المخابرات المركزيّة" أنّ رئيس الوزراء الإيرانيّ كان على وشك إعلان إخفاق المفاوضات مع البريطانيّين، وينوي أن يطلب إذناً من المجلس لبيع نفط البلاد بأيّ ثمن يمكن الحصول عليه.[309]

309 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, pp. 662–3, Dulles to US Embassy London, 10 February 1953; USIME, CIA, ‘Mossadeq Plans to Announce End of Oil Negotiations’, 17 February 1953.

قدّم تفاقم الاضطرابات في إيران، بعد أيّام من لقاء سنكلير مع ألِن دالاس، أسباباً أخرى للتدخّل. في منتصف شباط/ فبراير، هاجمت قبيلة بختياري – القبيلة التي تزوّج منها الشاه – طابوراً من الجيش الإيرانيّ وسط حقول النفط، ما أسفر عن مقتل اثنين وأربعين جنديّاً إيرانيّاً. ألقى مصدّق اللوم على البريطانيّين والشاه وهدّد بالاستقالة، قبل أن يغيّر رأيه ويعتقل زاهدي الذي كان واضحاً أنّه يستعدّ لخلافته.

شعرَ الشاه بالقلق إزاء المنعطف الجديد للأحداث، فعرضَ مغادرة البلاد لقضاء عطلة. وقد أثار هذا الاقتراح مخاوف آية الله كاشاني؛ ليس لأنّه كان يحبّ الشاه، بل لأنّ غيابه سيمنح مصدّق فرصة لتعزيز موقعه أكثر. بعد أن حاول كاشاني وأخفق في استخدام أعضاء المجلس لإقناع الشاه بألّا يغادر، أمرَ شعبان الأبله بجمع حشد من الناس لإقفال السوق، ولنشر شائعات بأنّ الشاه قد استقال بعد تعرّضه للضّغط من مصدّق. انضمّ الباعة الغاضبون إلى الحشد السّاخط، ثمّ ساروا وحاصروا قصر الشاه لمنع الأخير من الرحيل. خاف مصدّق على حياته، ففرّ من منزله بملابس النوم.

أثار هذا الاستعراض العنيف لسلطة كاشاني انزعاج "المخابرات المركزيّة"، إذ دوماً رأت أنّه في حال استولى آية الله على السلطة، سيكون المستفيد الأكثر احتمالاً في نهاية المطاف حزب "توده" الشيوعيّ الذي سيجذب بسرعة الأشخاص الذين لا يحبّذون النهج السياسيّ لكاشاني. في اليوم التالي للمظاهرة في طهران، صرّحت الوكالة بأنّه حتّى في حال لم يحلّ آية الله مكان مصدّق

كان مرجّحاً أن يخلق التنافس بين الرجلين حالة فوضويّة يصبح فيها احتمال استيلاء الشيوعيّين على السلطة ”مرجّحاً أكثر فأكثر“.[310]

[310] *FRUS*, 1952–54, Vol. X, pp. 689–90, CIA, memorandum for the president, 1 March 1953.

بعد ثلاثة أيّام، في 4 آذار/ مارس، تحدّث ألِن دالاس عمّا حدثَ، وعن تداعياته في اجتماع ”مجلس الأمن القوميّ“. قال: ”إذا استسلمت إيران للشيوعيّين، هناك بعض الشكوك في أن تخضع المناطق الأخرى في الشرق الأوسط، التي تحتوي على نحو 60% من احتياطات النفط في العالم، للسيطرة الشيوعيّة في وقت قصير“. وعندما قال شقيقه فوستر إنّه يتوقّع بقاء مصدّق لعام أو اثنين، شعرَ أيزنهاور بالقلق. صاح الرئيس: ”لو كان لديّ خمسمئة مليار دولار يمكنني إنفاقها سرّاً، لخصّصت مئة منها لإيران فوراً“. لكن لو كانت بحوزته في تلك اللحظة، لا شكّ أنّه كان ليستخدمها لدعم مصدّق.[311]

[311] *FRUS*, 1952–54, Vol. X, pp. 693, 698, memorandum of discussion at the NSC, 4 March 1953; Wevill, *Diplomacy, Roger Makins and the Anglo-American Relationship*, p. 107.

سيتغيّر موقف أيزنهاور من مصدّق خلال الأسبوع التالي. في 8 آذار/ مارس، أصدرت ”وكالة المخابرات المركزيّة“ تقريراً آخر حول المواجهة بين مصدّق وكاشاني الذي كان قد نظّم في هذه الأثناء مقاطعة للبرلمان من مؤيّديه لمنع اكتمال النّصاب. وأوضحت الوكالة أنّه أياً كان الطرف الرابح ستكون التداعيات المترتّبة على الولايات المتّحدة خطيرة. إن فشل مصدّق في استعادة النفوذ الذي خسره واستولى كاشاني على السلطة، فستضطرّ إدارة أيزنهاور إلى التعامل مع حكومة أكثر عدائيّة حتّى. من ناحية أخرى، من المرجّح أن تدفع الأزمة مصدّق إلى التصرّف بتسلّط أكبر. إن فاز، فستتّخذ إيران ”خطوة أخرى في مسيرتها الثوريّة الحاليّة“، إذ بات ”توده“ يدعمه الآن علانيّة بعد أن اتّضح له أنّها أفضل طريقة لخدمة مصالحه. جاء التقرير بينما كانت الهستيريا المكارثيّة في واشنطن تقترب من ذروتها. وكان أيّ شخص قرأه في العاصمة، في تلك اللحظة، ليقدّر تداعياته. إن كان الشيوعيّون يدعمون مصدّق، فلا يمكن الاعتبار إطلاقاً أنّ إدارة أيزنهاور ستفعل ذلك أيضاً.[312]

[312] USIME, CIA, ‘The Iranian Situation’, 8 March 1953. USIME, CIA, ‘The Iranian Situation’, 8 March 1953.

إن كانت سمعة مصدّق في الولايات المتّحدة قد شُوّهت بسبب علاقته بـ”توده“، فإنّ تهديدات رئيس الوزراء الإيرانيّ غير المنتظمة بشأن النفط هي التي قضت عليه في نهاية المطاف. ففي وقت متأخّر من نهار 10 آذار/ مارس، تلقّى دالاس برقيّة من سفيره في طهران يقول له فيها إنّ مصدّق

أبلغه انتهاء مفاوضاته مع البريطانيّين. نصحه السفير بألّا يتعامل مع رئيس الوزراء الإيرانيّ أكثر من ذلك. في اليوم التالي، في الاجتماع التالي لـ"مجلس الأمن القوميّ"، لاحظ أيزنهاور أنّه "كان لديه شكوك حقيقيّة في ما إذا كان بإمكاننا، حتّى لو حاولنا من طرف واحد، التوصّل إلى صفقة ناجحة مع مصدّق. وشعر أنّه قد لا يكون أهلاً حتّى للورقة التي سيكتب عليها، وقد يكون لهذا النموذج آثار خطيرة في امتيازات النفط الأميركيّة في أجزاء أخرى من العالم".[313]

313 *FRUS*, 1952–54, Vol. X, p. 713, memorandum of discussion at the NSC, 10 March 1953.

بعد أيّام، أذنت وزارة الخارجيّة لـ"وكالة المخابرات المركزيّة" بـ"النظر في عمليّات من شأنها الإسهام في سقوط حكومة مصدّق"، ثم اتصّل مدير عمليّات "المخابرات المركزيّة"، فرانك ويسنر، بجهاز المخابرات البريطانيّة في لندن. أراد مناقشة تفاصيل المؤامرة.[314]

314 Wilber, *Clandestine Service History: Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952–August 1953*, p. 2.

***

بحلول الوقت الذي وصلت فيه رسالة ويسنر إلى المقر الرئيسيّ لـلمخابرات البريطانيّة في آذار/ مارس 1953، كانت قد اتّضحت نقطتان بخصوص المؤامرة: كان لها قائد وشخصيّة رئيسيّة. في شباط/ فبراير في واشنطن، اقترح سنكلير كيم روزفلت قائداً للعمليّة. واقترح روزفلت، الذي لم يكن يدرك على ما يبدو أنّ البريطانيّين كانوا على تواصل مع الجنرال منذ مدة طويلة، استبدال زاهدي بمصدّق.

لكنّ روزفلت فضّل اتّباع نهج أكثر مرونة في العمليّة التفصيليّة التي وضعها سنكلير، وفي نيسان/ أبريل، كلّف دونالد ويلبر، وهو عالم آثار كان يعمل في مكتب الخدمات الإستراتيجيّة في إيران وصار الآن مستشاراً لـ"المخابرات المركزيّة"، وضعَ خطّة أكثر مرونة. كان التحدّي، على حدّ تعبير ويلبر، يقتصر على كون "الفارسيّ غير ودود، ولا يرى أنّه من الطبيعيّ العمل مع الآخرين لتحقيق هدف مشترك". لم يباشر بالعمل حتّى منتصف أيّار/ مايو مع نورمان داربيشاير، الضّابط في المخابرات البريطانيّة، في قبرص، وهو المكان الذي انتقل إليه أعضاء محطّة المخابرات البريطانيّة في إيران بعد طردهم من الأخيرة. انتقل داربيشاير، الذي كان يتحدّث الفرنسيّة بطلاقة، من مكتب العمليّات الخاصّة إلى جهاز المخابرات البريطانيّ. رغم أنّه لم يكن من أسهل الرجال الذين يمكن التعاطي معهم، فإنّه كان يحظى بتقدير كبير من نظرائه، أقلّه لأنّه قضى

ثمانية أعوام من السنوات العشر الأخيرة في إيران. كان على اتّصال بالأسرة الراشديّة عن طريق اللاسلكي، وكان يلتقي في بعض الأحيان أسد الله في جنيف.[315]

315 Wilber, *Iran: Past and Present*, p. 90.

حتّى تلك اللحظة، لم تكن مجموعتا الجواسيس مستعدّتيْن للكشف عن معلوماتهما بعضهما لبعض. تشارك داربيشاير مع ويلبر هويّات آل الراشد، لكنّ ويلبر حجب اسمَي الرجليْن اللذين كانا يديران شبكة تنشر بروباغاندا مناهضة للشيوعيّة، وكانا من أهمّ عملاء "المخابرات المركزيّة"، وهما علي جلالي وفاروق كيفاني، رغم ادّعاء داربيشاير، في وقت لاحق، أنّه خمّن هويّتهما. بعد أن اتّفق وويلبر على أنّ ما يهمّ في السياسة الإيرانية الآن هو الشاه والمجلس والحشود الغاضبة، توصّلا إلى عمليّة استيلاء "شبه قانونيّة" على السلطة، تتطلّب حملة ترويجيّة كبيرة، ورشوة واسعة النطاق للمجلس، ومسيرة احتجاجيّة على البرلمان لإخافة نوّابه من التصويت على قرار حجب الثقة عن مصدّق، ما سيمهّد الطريق لتعيين زاهدي الذي سيكون حينذاك يروّج لمراسيم تثبت حصوله على دعم الشاه.[316]

316 Wilber, *Clandestine Service History*, p. 9.

كان التخطيط المشترك واضحاً. ولاحظ ويلبر الذي فوجئ على ما يبدو أنّه "لم يحدث أيّ احتكاك أو اختلاف واضح في الآراء أثناء المناقشات". كان داربيشاير، الذي يحسد "المخابرات المركزيّة" على معلوماتها المتفوّقة، قد تلقّى تعليمات بالسّماح لويلبر بتحديد وتيرة التحرّك. وكما علّق ويلبر في وقت لاحق: "كان البريطانيّون سعيدين للغاية بالحصول على تعاون فعّال من الوكالة، وكانوا مصمّمين على تجنب أيّ شيء قد يعرّض المشاركة الأميركيّة للخطر".[317]

317 Wilber, *Clandestine Service History*, p. 6.

من قبرص، حلّق ويلبر عبر القاهرة إلى بيروت حيث التقى روزفلت، ورئيس مركز "المخابرات المركزيّة" في طهران، روجر غويران، والخبير في الحروب شبه العسكريّة جورج كارول، الذين سيلعبون جميعاً أدواراً رئيسيّة في الأحداث التي تلت. وُضعت اللمسات الأخيرة على عمليّة Ajax، وهي التسمية الجديدة التي أطلقوها على الخطّة – تغنّياً على ما يبدو بقدرات هذا المنظّف الكاشط – في غرفة في فندق سان جورج المطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، وقد رفعوا صوت المذياع إلى أقصى حدّ اتّقاءً من المتلصّصين. عاد ويلبر وروزفلت إلى لندن حيث عرضا اقتراحهما على داربيشاير وعدد من زملائه في مقرّ المخابرات السرّية بجانب نفق سانت جيمس بارك. لم يتنبّه في

المبنى الرّطب والحقير المنظر سوى زوّاره الأميركيّين إلى علامة كُتب عليها بالأحمر: ”اكبَحْ ضيوفك“، وهو تماماً عكس ما كان يفعله جهاز المخابرات البريطانيّ في هذه الحالة. تذكّر روزفلت في وقت لاحق: ”كان البريطانيّون، بدافع رغبتهم الشديدة أكثر من فطنتهم، يؤيّدون جميعهم العمليّة“. 318

318 Roosevelt, *Countercoup*, p. 19.

لم يتبقَّ سوى ضمان الموافقة السياسيّة على Ajax التي حذّر ضبّاط المخابرات البريطانيّة من أنّها ”ستستغرق بعض الوقت“. كانت علاقتهم مع وزارة الخارجيّة، كما أدرك روزفلت لاحقاً، ”غير وثيقة وغير ودّية“، وكان من الممكن أن تواجه الخطّة مقاومة جدّية لو لم يكن رئيس الوزراء مسؤولاً حاليّاً عن السياسة الخارجيّة البريطانيّة، في حين كان إيدن يتعافى من جراحة كبرى في المرارة. كان تشرشل يستمتع بالعمليّات الدراماتيكيّة، ولم يكن يحبّ كثيراً الدبلوماسيّين الخجولين. يذكر ضابط في المخابرات البريطانيّة أنّه ”من أعطى الأوامر للمباشرة بعمليّة ’الجزمة‘“. 319

319 Wilber, *Clandestine Service History*, p. 14; Woodhouse, *Something Ventured*, p. 125.

عاد روزفلت إلى واشنطن حيث التقى في 25 حزيران/ يونيو فوستر دالاس وأخاه ألِن والسفير الأميركيّ لدى طهران، لوي هندرسون، بالإضافة إلى مسؤولين معنيّين بالمسألة. هناك تمّت الموافقة بسهولة، لأنّ التأثير الخطِر لمكارثي جعل مُعارضي الانقلاب يحبسون أنفاسهم. قال فوستر دالاس الذي اختتم الاجتماع: ”إذاً، هذا هو الوضع، فلننطلقْ“. 320

320 Roosevelt, *Countercoup*, p. 18.

بغية الضّغط على مصدّق، سرّبت الحكومة الأميركيّة رسالة خاصّة من أيزنهاور تبلّغ رئيس الوزراء الإيراني فيها أنّها لن تُقدَّم المزيد من المساعدات. أخذ هندرسون الذي غادر إلى طهران في نهاية أيار/ مايو عطلة طويلة. في الوقت نفسه، عاد روزفلت إلى بيروت تحت اسم مستعار. قاد سيّارة محمّلة بأوراق نقديّة من فئات متدنّية منطلقاً من المدينة المتوسّطية عبر دمشق وبغداد، ثمّ عبر إلى إيران في 19 تموز/ يوليو، ووصل إلى منزل رئيس مركز ”المخابرات المركزيّة“ الذي يقع في التلال خارج طهران. كلّ ما كان في استطاعته فعله هو الانتظار، بينما بدأت البروباغاندا التي كانت تموّلها ”المخابرات المركزيّة“ تفعل فعلها.

ركّزت البروباغاندا على ثلاثة مواضيع: مصدّق يفضّل ”توده“، مصدّق عدوّ الإسلام، مصدّق يُضعف الجيش ليسمح لـ”توده“ وموسكو بالسيطرة. في محاولاتهم رصد علاقة بين رئيس الوزراء

و"توده"، اتّبع الجواسيس نهجاً تقليديّاً لخّصه روزفلت قبل عقد. كتب في مقالة عن بروباغاندا الحرب الأهليّة الإنكليزيّة: "ليس من السهل أن نكره رجلاً لمبادئه في حين أنّها لا تختلف كثيراً عن مبادئنا. لِنعتبرْ، بدلاً من ذلك، أنّه عضو في حزب، وأنّ معتقداته الفرديّة يبتلعها الجسم الأكبر الذي يحتوي في الواقع على مئة وجهة نظر مختلفة، لكنّه قادر، بتبسيط حكيم للأمور، على التمثّل بالأكثر تطرّفاً من بينها".[321]

[321] Roosevelt, ‘Propaganda Techniques of the English Civil Wars’, p. 373.

***

أثناء تخطيطهما لعمليّة Ajax، وضع ويلبر وداربيشاير ثلاثة افتراضات مهمّة: سيفعل الشاه ما يريدانه بشرط أن يكون تحت قدر كافٍ من الضّغط، سيتحرّك زاهدي في حال أدرك أنّ الشاه يدعمه، سيلتحق الجيش بالشاه بدلاً من مصدّق عندما سيضطرّ إلى الاختيار بينهما. بتعبير آخر: كان كلّ شيء يعتمد على رجل معروف أنّه غير أهل للثقة على الإطلاق.

لهذا السبب، لم تتطلّب الخطّة بطولات عظيمة من الشاه، ولكنّها كانت تتوخّى ببساطة توقيعه على "فرَمانيْن" أحدهما يعيّن زاهدي رئيساً للأركان، والآخر يدعو جميع صفوف الجيش إلى دعم الرئيس لتمكينه من إزاحة مصدّق والحلول مكانه. لكنّ الشاه لم يكن شديد الحرص على زاهدي الذي كان يراه "مغامراً يفتقر إلى الحكمة والتوازن"، فأخبر الأميركيّين أنّه "من غير الحكمة معارضته مصدّق علانيّة قبل تفجير أسطورة عظمته". مع رفضه التوقيع على الفرَمان، بدأت Ajax تتداعى.[322]

[322] Brands, *Inside the Cold War*, p. 272; TNA, FO 371/82393, Rothnie, minute, 19 March 1953.

بغية حثّ الشاه على التحرّك كان داربيشاير وويلبر يعتمدان على أخته التوأم المشاكسة. كانت الأميرة أشرف، الملقّبة بالنمر الأسود، قويّة بقدر ما كان شقيقها ضعيفاً. في سياق استذكارها اللقاء مع ستالين، وصفت ارتياحها عندما وجدت أنّ الزعيم السوفياتي لم يكن ضخماً ومرعباً، بل كان "ناعماً وبديناً، والأهمّ أنّه كان صغيراً". كان موطنها الطبيعيّ باريس. حاول داربيشاير العثور عليها هناك لكنّه فشل، ثمّ تعقّبها إلى الريفييرا الفرنسيّة في 16 تموز/ يوليو. كان الجاسوس البريطانيّ يعلم أنّها تهوى لعب القمار والملابس الباهظة، ولذا عرض عليها معطفاً من المنك ورزمة من النقود في حال قدّمت المساعدة. ذكر لاحقاً كيف "أبرقت عيناها واستسلمت".[323]

[323] Roosevelt, *Countercoup*, p. 52; Dorril, *MI6*, p. 588.

لكن عندما وصلت أشرف إلى طهران، رفض شقيقها التوأم رؤيتها. رغم العودة عن موقفه بعد أربعة أيّام، فإنّ اللقاء كان عاصفاً، وأخفقت الأميرة في إقناع شقيقها بتوقيع الفرَمانات. كانت، على الأقلّ، قادرة على تسليمه رسالة تخبره بأن يتوقّع زائراً آخر هو الجنرال نورمان شوارزكوف. كان شوارزكوف قد ترأس مهمّة عسكريّة أميركيّة إلى إيران في زمن الحرب، وكان واثقاً من قدرته على إقناع الشاه بالتعاون. عندما التقيا في 1 آب/ أغسطس، أصرّ الشاه على إجراء الاجتماع حول طاولة وُضعت في منتصف قاعة الاحتفالات، لاعتقاده أنّ قصره كان عرضة للتنصّت. لم يصل شوارزكوف أيضاً إلى أيّ نتيجة.

لم يعد هناك شيء يمكن فعله سوى ذهاب روزفلت لمقابلة الشاه بنفسه. بعد أن أخبره، عبر وسيط داخل القصر، أن يتوقّع حضور شخص أميركيّ مخوّل بالتحدّث نيابة عن أيزنهاور وتشرشل، دخل روزفلت شخصيّاً إلى القصر، في وقت متأخّر من الأوّل من آب/ أغسطس، مختبئاً تحت بطانية. كان قد التقى الشاه آخر مرّة أثناء العمل على مقالته لمجلّة *Harper's Magazine*، قبل ستّ سنوات. قال له الشاه عند ظهوره: ''مساء الخير، يا سيّد روزفلت. في الحقيقة، لم أكن أتوقّع رؤيتك، لكنّ ذلك يسرّني''.324

324 Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 9.

كان الشاه على قناعة بأنّ الأميركيّين لا يزالون يدعمون مصدّق، ولذا أراد إثباتاً على دعم أيزنهاور له. كان أسد الله رشيديان، الذي كان يراه بانتظام، قد تمكّن بالفعل من تسوية خدمة إذاعة BBC الفارسيّة لتعديل تحيّتها الليليّة المعتادة التي تقول فيها ''إنّه الآن منتصف الليل في لندن''، وتضمينها كلمة ''بالضّبط''، حتّى يدرك الشاه أنّ رشيديان كان يتحدّث باسم الحكومة البريطانيّة. عن طريق المصادفة، أشار أيزنهاور إلى مخاوفه بشأن الوضع المتدهور في إيران في خطاب ألقاه في سياتل في 4 آب/ أغسطس، وادعى روزفلت أنّ هذه التعليقات تشكّل إلى حدّ كبير إشارة سرّية إلى أنّ الرئيس كان وراء العمليّة. لكنّ الشاه كان بحاجة إلى المزيد من الوقت ليقرّر.

سرّع مصدّق هذه العمليّة عن غير قصد. فرغبةً منه في صدّ مقاطعة كاشاني للمجلس، مع العلم أنّ الشاه لن يوافق على حلّ البرلمان، شجّع بعض النوّاب على الاستقالة. وعندما واجه ذلك مقاومة من أعضاء البرلمان الذين كانوا يتقاضون أجوراً من ''وكالة المخابرات المركزيّة'' أعلن أنّه سيطرح حلّ برلمان البلاد للاستفتاء. أمام صناديق الاقتراع المنفصلة للتصويت بـ''نعم'' أم ''لا''، رأى معارضو التدبير أنّه من الحكمة البقاء على الحياد. فاز مصدّق بغالبيّة ساحقة، لكنّ الخدعة

ارتدّت عليه بنتائج عكسيّة، فقد أيّدت طرح "المخابرات المركزيّة" بالنسبة إلى محاولته تسليم البلاد لحزب "توده" والسوفيات.

رغم أنه لم يكن متأكداً من أن بإمكانه الاعتماد على تصويت المجلس لتأييد زاهدي، قرّر روزفلت أنّ على الشاه الآن التوقيع على فرمان يقيل مصدّق علانيّة، وعلى فرمان آخر يعيّن زاهدي رئيساً للوزراء. لكنّ الشاه رفض ذلك. ولم يغيّر رأيه إلّا بعد لقائه رشيديان الذي أخبره أنّ روزفلت سيغادر البلاد "باشمئزاز تامّ" ما لم يتحرّك بسرعة.

إثر ارتياحهم الشديد، احتفل روزفلت وزملاؤه في مركز "وكالة المخابرات المركزيّة" بإقامة حفلة سمر. لم يخلد إلى النوم حتّى الخامسة من صباح اليوم التالي. غير أنّ الاحتفال كان سابقاً لأوانه، فقبل أن يُوضَع الفرمان، غادر الشاه فجأة إلى منتجع رامسار على ضفاف بحر قزوين. ما إن أعدّ رشيديان الوثيقتيْن في مساء 12 آب/ أغسطس، أخذهما قائد الحرس الإمبراطوريّ، نعمة الله نصيري، إلى الشاه.

كانت التحضيرات العسكريّة قد بدأت تتلاقى بعد بداية غير واعدة على الإطلاق. فمنذ أخذ زاهدي المجلس ملجأ له في أيّار/ مايو، لم يتمكّن رئيس مركز "المخابرات المركزيّة"، روجيه غويران، من مقابلته إلّا بعد أن غادر البرلمان للإقامة في منزل آمن في 21 تمّوز/ يوليو. لم يترك اللقاء أيّ تأثير في غويران. إذ بدا أنّ زاهدي "كان يفتقر، على ما يبدو، إلى الديناميّة والطاقة والخطط الملموسة"، في حين كان أفضل معارفه في الجيش، وهو عقيد يُدعى حسن أخوي، يتمتّع بـ"رغبة جامحة في تحقيق شيء ما، إنّما لم يكن لديه فكرة عن كيفيّة التحرّك".[325]

325 Wilber, *Clandestine Service History*, p. 27.

بعد أن أدرك أنّه ليس بإمكان زاهدي التعويل على دعم أيّ من الألوية الخمسة المُرابطة في طهران، استدعى غويران جورج كارول، الخبير شبه العسكريّ الذي كان في الاجتماع الذي عُقد في فندق سان جورج، في محاولة لإنقاذ العمليّة. في الخامس من آب/ أغسطس، حقّق كارول انفراجاً عندما التقى أحد معارف أخوي، العقيد زَند كريمي. كان لدى كريمي معارف في الوحدات المتمركزة كافّة في العاصمة؛ في غضون أربعة أيّام، حصل أخوي على قائمة بأربعين ضابطاً كان قادراً على عرضها على الشاه. فور عودة ناصري من رامسار مع الفرمانات الموقّعة في الثالث عشر من آب، كان قد حُدّد موعد الانقلاب لليلة الخامس عشر: يوم السبت واليوم الأوّل من أسبوع العمل.

كان التأجيل ضروريّاً، لأنّ كريمي كان بحاجة إلى الجمعة، 14 آب/ أغسطس، لتحذير هؤلاء الضبّاط الأربعين ممّا سيحدث. يبدو أنّ أحدهم أنذر مصدّق الذي كان على علم بحدوث انقلاب وشيك بحلول نهاية ذلك اليوم. نتيجة لذلك، عندما حاول ناصري إلقاء القبض على مصدّق في منزله في الحادية من صباح السادس عشر، اعتُقل هو الآخر. كان زاهدي متوتّراً جدّاً لدرجة أنّه لم يستطع تزرير زيّه الرسميّ. فساعده في ذلك ضابط في "المخابرات المركزيّة" ملقّب بـ"روكي" ستون، فيما أمسكت السيّدة ستون يد زوجة زاهدي. ما إن بات واضحاً أنّ القوّات المُوالية لمصدّق صدّت الانقلاب، تداعت معنويات المتآمرين الهشّة تماماً. سارع زاهدي إلى الاختباء، بينما فرّ الشاه في الطائرة إلى بغداد، ثمّ إلى روما. قال مصدّق عندما سُئل هل ينبغي اعتراض الطائرة وإسقاطها: "دعوها تذهب". في روما، نزل الشاه في "إكسلسيور". كان بجانبه على المنضدة ألِن دالاس الذي رتّب إقامة الشاه. قال له: "مِن بَعدكَ، يا صاحب الجلالة".[326]

326 TNA, FO 371/104569, note by Gandy, 17 August 1953; O'Connell, *King's Counsel*, p. 19; Rahnema, *Behind the 1953 Coup in Iran*, p. 99; Talbot, *The Devil's Chessboard*, p. 229.

من وجهة نظر روزفلت وزملائه، بحلول ساعات الفجر الأولى من السادس عشر، كانت هناك فعليّاً إشارات مقلقة إلى أنّ المؤامرة لم تنجح، لسبب واحد هو أنّ هواتف المدينة كانت لا تزال تعمل. لكنّه لم يُتأكّد من إخفاق الانقلاب إلى أن وصل أحد عملائهم داخل الجيش الإيرانيّ إلى السفارة بحثاً عن ملجأ. يذكر "روكي" ستون ردّ الفعل آنذاك: "انفجر البيت الآمن بالشتائم وتوجيه أصابع الاتّهام. قبل تأجّج العنف، رفع روزفلت يده، وهدّأ المجموعة، وأعلن بهدوء أنه يتحمل مسؤوليّة هذا الفشل، الأمر الذي قُوبل بتصفيق جميع الحاضرين".[327]

327 O'Connell, *King's Counsel*, p. 19.

***

لعلّ روزفلت أدرك أنّ مسيرته في "المخابرات المركزيّة" كانت على المحكّ لكنّه لم يكن من النوع الذي يقبل الاستسلام. قبل أربعة عقود، ألقى جدّه ثيودور، الذي كان روزفلت يكنّ له الكثير من الإعجاب، خطاباً مشهوراً في السوربون. قال الرئيس السابق:

> ليس المُنتقِد هو المهمّ. وليس المهمّ هو الرجل الذي يشير إلى كيفيّة تعثّر الرجل القويّ، أو إلى حيث كان يمكن للمسؤول عن تنفيذ الأمور تنفيذها أفضل. يعود الفضل إلى الرجل الموجود في الساحة، بوجهه الملطّخ بالغبار والعرق والدم. ذاك الذي يكافح ببسالة، الذي يخطئ، الذي يفشل مراراً وتكراراً، إذ لا يوجد جهدٌ من دون أخطاء وعيوب، إنّما الذي يسعى في الواقع إلى تنفيذ المهمّات. ذاك الذي يشعر بحماسة عظيمة وولاء

عظيم، الذي يبذل ذاته في خدمة قضيّة مهمّة. ذاك الذي يشهد في النهاية، في أفضل الحالات، انتصار الإنجازات المهمّة، والذي في أسوأ الأحوال إذا فشل، يفشل في حين كان يتّخذ مبادرات جريئة، فلا يكون مكانه أبداً إلى جانب تلك النفوس الباردة والخجولة التي لا تعرف النصر ولا الهزيمة.[328]

328 Roosevelt, 'Citizenship in a Republic', 23 April 1910.

بعد الثامنة بوقت قصير من صباح ذلك اليوم، توجّه روزفلت شمال المدينة للقاء زاهدي الذي كان مختبئاً مع ابنه أزدشير. على غراره، لم يستسلم أيّ منهما بالكامل؛ كانا يعتقدان أنّ مهمّتهما تقضي الآن بإقناع طهران بأنّ مصدّق هو الذي خطّط للانقلاب، بعد أن عرف بأمر الفرمانات التي تقيله وتعيّن الجنرال مكانه. وافق روزفلت، وباشر زملاؤه في مركز "المخابرات المركزيّة" نشر الإشاعة، والبدء برسالة إلى وكالة *Associated Press*، ثم بترتيب لقاء بين أزدشير ومراسل في *New York Times* يُدعى كينيت لاف، ليطلعه على الفرمان الأصليّ. توصّل عميلا "المخابرات المركزيّة"، جلالي وكيفاني، كلّ على حدة، إلى النتيجة نفسها، ونشرا في ذلك الصّباح تقريراً مفصّلاً، زاعميْن أنّ الغرض من الانقلاب كان إرغام الشاه على التنازل عن العرش.

بعدها، ارتكب مصدّق خطأ آخر صبّ في مصلحة روزفلت وزاهدي. فقد أصدر ظُهراً بياناً يعلن فيه حلّ المجلس. بعد ظهر ذلك اليوم، نشر وزير خارجيّته مقالة في الصّحيفة التي يملكها يهاجم فيها الشاه بوحشيّة. في ذلك المساء، أعلن وزير الخارجيّة أنّ الشاه فرّ إلى بغداد، وطالب بتنازله عن العرش في اجتماع عامّ عُقد خارج المجلس وبُثّ على الراديو. كان التأثير المشترك لإعلان مصدّق ومقالة الوزير وبيانه تعزيز الانطباع الذي كان يرغب زاهدي في إعطائه: حاول مصدّق الإطاحة بالشاه بعد أن طرده الأخير. ولإضفاء مزيد من الزخم، أصدرت "المخابرات المركزيّة" مئات النسخ من الفرمانات ووزعتها على الصّحف وفي الشوارع.

رغم ذلك، فإنّ الديبلوماسيّيْن الأقدميْن في السفارة الأميركيّة في طهران "فقدا الأمل". تأثّرا بموقف وكيل وزارة الخارجيّة، والتر بيدل سميث، في واشنطن، الذي حذّر في اليوم التالي ديبلوماسيّاً بريطانيّاً من أنّ "التطوّرات الأخيرة" تحتّم خلق "نظرة جديدة إلى السياسة تجاه بلاد فارس". "أعتقد أنّه سيكون من الضروريّ إقامة علاقات جيّدة مع مصدّق"، هذا ما نقله الرجل البريطانيّ قلِقاً إلى لندن. "يُرسَل تقنيّون أميركيّون. مهما كانت أخطاؤه، لم يكنّ مصدّق يكنّ أيّ حبّ للروس، وفي حال زُوّد بالمساعدات في الوقت المناسب قد يتمكّن من إحكام سيطرته على الشيوعيّة".[329]

329 Wilber, *Clandestine Service History*, p. 51; TNA, FO 371/104569, Makins to FO, 17 August 1953.

رأت ''الخارجيّة'' ذلك ''سقوطاً شائناً'' من شأنه فقط تشجيع مصدّق ''على ابتزاز الولايات المتّحدة أكثر''. كذلك فعلَ جهاز المخابرات البريطانيّ. فعندما أرسل بيدل سميث رسالة إلى روزفلت يخبره فيها بوقف العمليّة، لم يرسلها فوراً داربيشاير الموجود في قبرص والمسؤول عن جميع الاتّصالات بين واشنطن ولندن وطهران. ''في حين... كانت الثقة الظاهرة التي أبداها مركز المخابرات البريطانيّ في نيقوسيا مدعاة إلى الإعجاب الكلّي''، ذكرَ مستشار المخابرات الأميركيّة دون ويلبر بعد ذلك: ''علينا أن نتذكّر أنّه ليس لديهم ما يخسرونه''.[330]

330 TNA, FO 371/104569, unsent FO response, 18 August 1953; CIA, *Clandestine Service History*, p. 59.

لم يطّلع روزفلت على الأمر الذي أرسله بيدل سميث بفضل داربيشاير، ولذا تابع تحرّكه. كانت أولويّته تقضي بتصوير الطريقة التي يستغلّ بها ''توده'' الفراغ الذي خلّفه رحيل الشاه. بغية تحقيق ذلك كان قد طلب من جلالي وكيفاني تنظيم حشود من رجال الشرطة المحرّضين لإجراء مظاهرة كبيرة وسط المدينة. عندما رفضا، عرض عليهما خمسين ألف دولار. وعندما صمّما على الرفض، هدّد بقتلهما. لذا غيّر جلالي وكيفاني ميولهما. بحلول موعد الغداء في 17 آب/ أغسطس، أسقط مأجوروهما، الذين ضخّم أنصار ''توده'' الحقيقيّين صفوفهم، تمثاليْن لرضا شاه. وبفضل جهودهم، بدأ كبار رجال الدين حينذاك تلقّي رسائل مكتوبة بالحبر الأحمر تزعم أنها مُرسلة من ''توده''، تحذّرهم من تعليقهم قريباً على أعمدة الإنارة. عندما عقد روزفلت، مساء ذلك اليوم، مجلساً حربيّاً طويلاً مع زاهدي وابنه والراشيديّين، اتّفقوا على التحرّك بعد يومين. سيحشد الراشيديّون أتباعهم من سوق المدينة. وسيكون التاسع عشر هو يوم الحساب.

في هذه الأثناء، استمرّت الاضطرابات التي حفّزها جلالي وكيفاني. وفي الثامن عشر، هجمَ بلطجيّتهما على المتاجر في شارعيْن رئيسيّيْن ونهبوها، في حين كانوا يتصرّفون طول الوقت كأنّهم يدعمون ''توده''. اعترف روزفلت لاحقاً: ''أرعبوني''. في ذلك المساء، التقى السفير هندرسون الذي كان قد عاد للتوّ بعد غياب دام عشرة أسابيع، مع مصدّق، وحذّره بناء على نصيحة روزفلت من أنّه سيكون مُلزَماً نصح الأميركيّين مغادرة إيران في حال لم تتمكّن قوّات الأمن من حمايتهم. استدعى مصدّق الذي شعر بأنّ شرفه على المحك، قائد الشرطة، وطلب منه أن يضع حدّاً للاضطرابات. كما أمرَ أتباعه بتجنب الاحتجاج.[331]

331 Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 175.

ما عناه ذلك أنّه في صباح 19 آب/ أغسطس، في حين كان عدد من الصّحف يوزع نسخاً فوتوغرافيّة من الفرمان الذي يعيّن زاهدي، لم يكن مؤيّدو مصدّق في الشوارع. في المقابل، كان معارضوه فيها بقوّة. كانوا قد تقاضوا أموالاً من كاشاني الذي تقاضاها بدوره من "المخابرات المركزيّة" عبر الراشيديّين. كانوا حمّالين في السوق، عمّالاً، أعضاء في الأندية الرياضيّة في المدينة، همَجيّين يكسبون رزقهم من الابتزاز ويقعون دائماً في ورطات يعتمدون على الراشيديّين لإخراجهم منها. توجّهت مجموعتان مسلّحتان بالعصيّ الخشبيّة، بشكل متوازٍ شمالاً، وصولاً إلى المنحدر الذي بُنيت عليه طهران، وخرجتا من الأحياء الفقيرة جنوبي المدينة باتّجاه الأحياء الأكثر ذكاءً ورقيّاً حيث سيتم تشجيعهم على مهاجمة مكاتب الصّحف الرئيسيّة المؤيّدة لـ"توده". أعطى الرياضيّون المظاهرة نكهة كرنفاليّة. وأفاد أحد الشهود العيان أنّ الحشود ضمّت "بهلوانيّين في الهواء، ورافعي أثقال يرمون القضبان الحديديّة، ومصارعين يعرضون عضلاتهم". بعد خمس عشرة دقيقة من حلول العاشرة من صباح ذلك اليوم، كانوا قد سيطروا على الميادين الرئيسيّة في المدينة، وانضمّ إليهم جنود من الحاميات المحلّية، ورجال قبيلة بختياري الذين أتوا من الجنوب. تبيّن أنّ الدبّابات التي أُرسلت لتفريق المظاهرة كانت مليئة برجال مُوالين للشاه. حُوصروا، واستسلموا دون أيّ مقاومة.

على وقع هتافات: "لِيحيَا الشاه"، و"الموت لتوده"، وبعدها: "الموت لِمصدّق"، حرّر الحشد ناصري وسواه من الضبّاط الذين اعتُقلوا ليلة الانقلاب الفاشل من الزنزانات في مقرّ الشرطة، ثمّ استولوا على مكتب التلغراف، وهاجموا مقرّ الجيش ووزارة الشؤون الخارجيّة. وقعت إذاعة طهران بين أيدي المتظاهرين نحو الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم. قُتل مئتا شخص في معركة شرسة للاستيلاء على منزل مصدّق. لاذ الأخير بالفرار، لكنّه سلّم نفسه في اليوم التالي. بحلول ذلك الوقت، بيعت ممتلكاته في الشارع للمارّة.[332]

332 *Saturday Evening Post*, 6 November 1954, cited in Woodhouse, *Something Ventured*, p. 129.

عندما صار من الواضح أنّ الملَكيّين أحكموا سيطرتهم على الإذاعة، ذهب روزفلت إلى لقاء زاهدي الذي بثّ إعلاناً يصرّح فيه بأنّه صار الآن رئيس الوزراء، وأنّ قوّاته باتت تسيطر على المدينة. في اليوم السابق، كان روزفلت قد تلقّى أمراً من مقرّ القيادة بوقف العمليّة. واعترف لاحقاً في الرسالة، مُضيفاً أنّه يسرّه إعلان أنّ زاهدي تسلّم مركزه بأمان، وأنّ الشاه سيعود إلى دياره قريباً. أنهى الرسالة بعبارة: "المحبّة والقبلات من الفريق أجمعه". بقيَ روزفلت في المدينة مدة

كافية لمقابلة الشاه الذي عاد في الثاني والعشرين. قال الشاه: ”أنا مدين بعرشي لله، وشعبي، وجيشي، ولك!“ ورفع كأساً من الفودكا ليشرب نخبه.[333]

[333] Kinzer, *All the Shah's Men*, p. 181.

بعد أن نُقل خارج البلاد عبر الملحق البحريّ الأميركيّ، وصل روزفلت إلى لندن في 25 آب/ أغسطس. كان سنكلير، رئيس جهاز المخابرات البريطانيّ، سعيداً برؤيته، خصوصاً عندما شرح له روزفلت لاحقاً سبب وصول القليل من المعلومات إلى لندن. قال له إنه لو أنّهم أبلغوا بما كانوا يفعلونه، لاعتقدت لندن وواشنطن أنّهم مجانين، ولطلبتا منهم التوقّف فوراً. ولو أنّهم أبلغوا بالأسباب التي تبرّر اتّخاذهم إجراءً مماثلاً، ما كان لديهم الوقت الكافي للتحرّك؛ بناء على ذلك اتّبعوا المسار الثالث الذي يقضي باتّخاذ الإجراءات وتجنب الإبلاغ بأيّ شيء عمليّاً. طلب منه سنكلير تكرار هذا على كلّ شخص كان على وشك لقائه.[334]

[334] Wilber, *Clandestine Service History*, pp. 78–9.

في غضون الساعات الأربع والعشرين التالية، أخذ سنكلير روزفلت في جولة سريعة داخل مقرّ Whitehall، حيث كان يأمل بوضوح أن يستفيد جهاز المخابرات البريطانيّ من ذلك. كانت المقابلة الأخيرة لروزفلت مع رئيس الوزراء الذي أُصيب بسكتة دماغيّة قبل أسابيع وكان يتعافى منها. سيستغلّ الجاسوس الأميركيّ رمزيّة هذا اللقاء، واصفاً كيف روى قصّة الانقلاب لتشرشل الذي كان طريح الفراش، والذي لم يكد يبدو مُدركاً ما هي ”وكالة المخابرات المركزيّة“. على ما يبدو، قال له رئيس الوزراء: ”لو قُدّر لي العيش لبضع سنوات إضافيّة، لَكان أحبّ شيء على قلبي أن أخدم تحت قيادتك في هذا المشروع العظيم“. كان ذلك تعبيراً مجازيّاً لانقلاب الأدوار الذي كان يجري حينذاك.[335]

[335] Roosevelt, *Countercoup*, p. 207.

***

كان مصدّق ليصمد لو أنّه لم يهدّد بإغراق السوق بالنفط الرخيص، لأنّ الانقلاب لم يكن ليحدث من دون دعم أميركيّ. وما كان الانقلاب لينجح لو كان مصدق يتمتّع بالشعبيّة التي كانت له قبل عام، قبل أن تعطي العقوبات النفطيّة مفعولها، ولو أنّ البريطانيّين لم يشاركوا أيضاً في تعبئة الراشيديّين لدعم العملية، ثمّ منع وزارة الخارجيّة من إيقافها عندما اتّضح لهم فشلها. نتيجة لذلك أُحيل رئيس

الوزراء السابق على المحاكمة في وقت لاحق من ذلك العام. وبعد أن أُدين، قضى ما تبقّى من حياته في الإقامة الجبريّة.

بالنسبة إلى بريطانيا، كان ثمن المشاركة الأميركيّة في إسقاط مصدّق خسارة هيمنتها. ففي أعقاب مفاوضات مطوّلة عام 1954، انضمّت خمس شركات أميركيّة إلى الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة ليتشكّل منها اتّحاد جديد ترك للشركة البريطانيّة حصّة تبلغ نسبة 40%. تفادياً لضعضعة الترتيب الذي أُجري في السعوديّة، قسّم الاتّحاد الأرباح مع الإيرانيّين على أساس المناصفة. يمكن القول إنّه تحقّقت رغبة إيدن في "ألّا تحصل بلاد فارس على شروط أفضل من دول الشرق الأوسط الأخرى... وألّا يُنظر إليها على أنّها مستفيدة من أفعالها غير الصائبة". غير أنّ الانتصار كان باهظ الثمن، وكانت المؤامرة الإنكليزيّة–الأميركيّة التي حقّقت ذلك هي الاستثناء وليست القاعدة.[336]

336 Elm, *Oil, Power and Principle*, p. 277.

بعد مدة وجيزة من عودة روزفلت إلى واشنطن، أطلع الرئيس على الوضع، مُشدّداً على دوره في إنقاذ العمليّة. كتب أيزنهاور في يوميّاته التي عبّر فيها عن إعجابه بشجاعة روزفلت: "بدا ذلك كأنّه رواية رخيصة وليست حقيقة تاريخيّة. كانت الأمور التي فعلناها 'سرّية'. لو أنّه كُشف عنها علانيّة، لكنّا سنكون مُحرَجين في تلك المنطقة، لكنّ الفرص المُتاحة لنا أيضاً لفعل أي شيء مماثل في المستقبل ستختفي تقريباً بالكامل". لكن سرعان ما تسرّبت الأخبار عن تورّط "المخابرات المركزيّة"، وكما تنبأ آيك، أدّى ذلك إلى تسميم العلاقات الأميركيّة–الإيرانيّة منذ ذلك الحين.[337]

337 *FRUS*, 1952–54, Iran 1951–1954, p. 781, Editorial Note.

القسم الثالث

الهبوط في السويس 1953 - 1958

15

مسدّس هدية

في ربيع 1953، صار فوستر دالاس أول وزير خارجيّة أميركيّ يزور الشرق الأوسط؛ كانت تلك الخطوة مؤشّراً على حقبة جديدة من المشاركة الأميركيّة النشطة في المنطقة. وفي 11 أيار/ مايو، وصل إلى القاهرة والتقى رئيس وزراء مصر، محمّد نجيب، الرجل الذي ساعدته "المخابرات المركزيّة" ليحكم في العام السابق.

بدأت المحادثات بين الحكومتين المصريّة والبريطانيّة حول قاعدة السويس في أواخر الشهر السابق، وكان لدى دالاس انطباع بأنّهم على وشك التوصّل إلى اتّفاق من شأنه تحديد مواعيد سحب القوّات البريطانية، وتسليم القاعدة لمصر في المستقبل. كان وزير الخارجية – الذي يُولي الأهمّية الأساسيّة لمحاربة الشيوعيّة – حريصاً على المباشرة بمناقشة الاتفاقيّة الدفاعيّة الإقليميّة التي من شأنها منح الحكومة البريطانيّة الغطاء السياسيّ الذي كانت تحتاجه قبل أن تعلن تخلّيها عن أكبر قاعدة أجنبيّة لها. إنّ "منظّمة الدفاع عن الشرق الأوسط" التي تصوّرها، والتي ستلعب فيها الولايات المتحدة وبريطانيا أدواراً رئيسيّة، ستنظّم دول المنطقة لمواجهة التهديد السوفياتي. لكنّ نجيب كان يحمل أخباراً سيّئة.

أوضح رئيس الوزراء أنّه بغض النظر عن إخفاق المحادثات مع البريطانيّين لن يقبل الشعب المصري، الذي خذله البريطانيّون في مناسبات سابقة، أبداً منظّمة دفاعيّة كتلك التي يتصوّرها دالاس، لأنّها ستشمل البريطانيّين. قال نجيب لوزير الخارجية: "حرِّرْنا من الاحتلال البريطانيّ أولاً، ثمّ يمكننا التفاوض بنيّة حسنة". كان رئيس الوزراء، كما كان دالاس يعلم، "مجرّد واجهة". لكن في اليوم التالي، أدلى الحاكم الفعليّ للبلاد، جمال عبد الناصر، بالطرح نفسه. شرح عبد الناصر بهدوء أنّ الشعب المصريّ يرى الميثاق الذي يدافع عنه دالاس "استمراراً للاحتلال"، مُضيفاً أنّه "يجب أن يختفي النفوذ البريطانيّ تماماً".[338]

[338] *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, pp. 11–12, memorandum of conversation, 11 May 1953, p. 21, memorandum of conversation, 12 May 1953.

بعد قضاء يومين متتاليين مع قادة النظام الجديد في القاهرة، أوضح هؤلاء لدالاس مدى شراسة كراهيّتهم البريطانيّين، وجعلوه يقدّر – بطريقة لم يسبق لبرقيّة من السفارة أن فعلتها من قبل – مدى خطورة الانفجار الوشيك للوضع. كانت هجمات الفدائيّين على القاعدة البريطانيّة قد استؤنفت بعد إخفاق المحادثات، وكان البريطانيّون يلمّحون إلى احتمال اضطرارهم إلى إعادة احتلال القاهرة والإسكندريّة، والمصريّون يجيّشون القوّات لمواجهة أيّ محاولة بريطانيّة لفعل ذلك. وقد حذّره نجيب من ألّا يستبعد المزيد من الاعتداءات الشبيهة بـ"السبت الأسود". بدا الاندلاع المفاجئ لحرب جديدة في الشرق الأوسط أمراً ممكناً جدّاً.

قبل أن يسافر دالاس لحضور اجتماعه المقبل مع ابن سعود في الظهران، أرسل برقيّة إلى واشنطن ينقل فيها انطباعاته. "المراقبون هنا مقتنعون، وأشاطرهم وجهة نظرهم، بأنّ إمكانيّة نشوب أعمال عدائيّة مفتوحة في المستقبل القريب حقيقيّة، لأنّ المصريين يفضّلون السقوط كشهداء على التنازل للبريطانيّين في المحادثات". وقال: "يكاد يكون مستحيلاً المبالغة في التشديد على قوّة هذا الشعور. قد يكون الأمر مرَضيّاً لكنّه حقيقة". فوافق، وسط هذه الظروف، على ألّا يكون لمنظّمته الدفاعيّة في الشرق الأوسط أيّ فرصة.[339]

339 *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 25, Caffery to State Department, noon, 13 May 1953; p. 27, Caffery to State Department, 1 p.m. 13 May 1953.

بحلول الوقت الذي وصل فيه دالاس إلى واشنطن نهاية الشهر، كان لديه حلّ بديل. فيما كان المصريون منشغلين للغاية مع البريطانيّين لدرجة أنهم لن يكونوا مفيدين في مكافحة الشيوعيّة بفعاليّة، كان قادة تركيا وسوريا والعراق وباكستان، الذين التقاهم في وقت لاحق في جولته، يعون تماماً خطورة التهديد السوفياتي، الأمر الذي طمأنه. عند عودته إلى بلاده، في محاولة لتهدئة الوضع في مصر، قال دالاس علناً إنّ المنظّمة الدفاعيّة في الشرق الأوسط كانت "مشروعاً مستقبليّاً وليست إمكانيّة فوريّة". أخبر "مجلس الأمن القوميّ" أنّ اعتماد نهج مختلف وأقلّ رسميّة، يشمل "الحزام الشماليّ" من الدول التي كانت "تشعر بخطر الاتحاد السوفياتي المتربص بها"، مرجّح أكثر للنجاح. أمّا دور إيران في هذه السلسلة الدفاعيّة، فيساعد في تفسير سبب حرصه على الإطاحة بمصدّق.[340]

340 *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 406, Dulles to Certain Diplomatic Missions, 30 July 1953; Vol. IX, p. 395, memorandum of discussion at the NSC, 9 July 1953.

غير أنّ تخلي دالاس عن المنظّمة الدفاعيّة في الشرق الأوسط لم يكن يعني أنّ وزير الخارجيّة قد غسل يديه من النزاع الإنكليزيّ–المصريّ الطويل الأمد حول قاعدة السويس. رغم أنّ هذه القناة لم

تشكّل النواة للترتيب الجديد لـ"الحزام الشماليّ"، فإنّ دالاس يعتقد أنه لا يستطيع أن يتحمّل ترك المشكلة من دون حلّ. وكونها صارت من أبرز القضايا في العالم العربيّ، كان متأكّداً من أنه إذا سمح لها بالتفاقم، من المؤكّد أنّ الاتحاد السوفياتي سيستغلّها. كانت سياسة الولايات المتحدة تقضي أخيراً بالتخلّي عن مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط لبريطانيا. لكنّ الوزير التمس "غيابَ ثقة شديداً وكراهيّة للبريطانيين" خلال رحلته، وأصبح لديه قناعة أنّ القوّات البريطانيّة التي لا تزال متمركزة في المنطقة صارت تشكّل "عاملاً لغياب الاستقرار أكثر من كونها... عامل استقرار"، ولذا بات يعتقد أنّ الوقت قد حان للولايات المتحدة لتولّي مسؤوليّة الوضع والتخفيف عن البريطانيّين.341

341 Lucas, *Divided We Stand*, p. 26.

***

تمكّن البريطانيّون من الكشف عن زيارة دالاس إلى مصر بفضل خطأ غير عاديّ. رغم أنّ وزير الخارجيّة كان يعلم أنّ النظام يوجّه هجمات الفدائيّين، في بداية اجتماعه في 11 أيار/ مايو مع نجيب، قدّم إلى رئيس الوزراء المصري مسدّساً، هديّة من آيك. التقط أحد المصوّرين هذه اللحظة التي قال عنها الأميركيّون بخجل إنّها "كان من المفترض أن تكون سرّية"، وانتشرت صورة نجيب حاملاً السلاح في جميع أنحاء العالم. بعد ذلك، استدعى تشرشل – الذي كان مسؤولاً عن "الخارجيّة" خلال تعافي إيدن – السفير الأميركي. قال له: "كان الأمر مزعجاً بعض الشيء"، مُضيفاً أنّ "دالاس في جولته عبر العالم يبذل جهوداً مضنية ليُبدي مؤازرته أولئك الذين كانوا يحاولون طرد البريطانيّين أو إسقاطهم".342

342 Petersen, 'Anglo-American Rivalry in the Middle East', p. 76.

تجاهل دالاس شكوى تشرشل. وصاغ وزير الخارجيّة، بموافقة آيك، اقتراحاً جديداً لسفيره لدى القاهرة لإعطائه لنجيب، لكي يتمكن الأخير من إعادة إرساله إلى واشنطن، مُدركاً أنّه سيثير ردّاً إيجابيّاً. في 15 تموز/ يوليو 1953، أجاب أيزنهاور بعرض المساعدة الاقتصاديّة والمساعدة على تعزيز القوّات المسلّحة للبلاد، في حال تمكّنت مصر من التوصّل إلى اتفاق مع بريطانيا حول القاعدة. من باب التلميح إلى ما سيحدث في حال تعاون المصريّون معهم، كان تقديم الرئيس المسدّس هديّة إلى نجيب أمراً متعمّداً تماماً.343

343 Thornhill, *Road to Suez*, p. 163; *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 9, memorandum of conversation, 11 May 1953; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 231, 12 May 1953.

شكّل احتمال وجود أسلحة جديدة حافزاً كبيراً، نظراً إلى شكوى نجيب من أنّ الجيش المصريّ كان "مجهّزاً للاحتفالات الجنائزيّة فقط"، لكنّ عبد الناصر، الذي صار نائباً لرئيس الوزراء رسميّاً، كان حريصاً على إحداث اختراق، لتحويل الانتباه عن المتاعب التي يواجهها في مكان آخر. وقد أثبت "مجلس قيادة الثورة"، الذي أنشأه مع زملائه في أعقاب انقلاب العام الماضي، أنّه مجرّد متجر غير فعّال لبيع الكلام، وقد أخفق في تحقيق أيّ من الإصلاحات المحلّية التي وعد بها. كان "الضبّاط الأحرار" يعون تماماً أنّ أهمّ هذه الإصلاحات، تلك المتعلّقة بالإصلاح الزراعيّ، لم تكن قابلة للتنفيذ، لأنّه كان هناك عدد كبير جدّاً من المصريّين لتقسيم العقارات عليهم.

في الوقت نفسه، كان الاقتصاد المصريّ لا يزال في حالة من الركود، وأسعار القطن المتداعية تساهم في إثارة سخط العامّة، الأمر الذي كان "الإخوان المسلمون" يستغلّونه بنجاح. وكما أوضح زميل عبد الناصر، أنور السادات، عاقب النظام هجمات الفدائيّين على قاعدة القناة: "إن لم يحاربكم شعبنا، فإنّه سيحاربنا، ونحن نفضّل أن يحاربكم". كان عبد الناصر قلقاً من أن يخرج الوضع عن سيطرته، ولذا جعل نفسه نائب رئيس الوزراء ووزير الداخليّة في حزيران/ يونيو. وقد حظيت الصفقة التي من شأنها تسريع انسحاب بريطانيا السلميّ من السويس، ومن ثمّ تجريد "الإخوان" من شكواهم الأساسية، بقبول كبير.[344]

[344] *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 10, memorandum of conversation, 11 May 1953; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 19 January 1954.

عندما استأنف البريطانيّون والمصريّون المناقشات أواخر آب/ أغسطس، كان لديهم ثلاثة أسئلة تنتظر ردّاً. الأكثر أهمّية منها سؤالان، يتعلّق الأوّل بالظروف التي تُعيد فيها بريطانيا وحلفاؤها احتلال القاعدة، والثاني بمدّة الصفقة. مع ذلك، سرعان ما تعثّر نقاشهما حول السؤال الثالث الذي كان يقضي بمعرفة هل سيرتدي الفنّيون البريطانيّون الذين حافظوا على القاعدة قبل تسليمها الزيّ الرسميّ أم لا. أخطأ البريطانيّون بالاعتقاد أنّ المصريّين وافقوا على إمكانيّة ذلك، في حين كان عبد الناصر على يقين أنهم لم يوافقوا. عندما رفض البريطانيّون التزحزح، أواخر أيلول/ سبتمبر، "ففقدَ أعصابه وغادر غاضباً".[345]

[345] *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 2140, Caffery to State Department, 24 September 1953.

رغم كونها تبدو تافهة، أثارت مسألة الزيّ الرسميّ قضايا أكبر إنّما أكثر ضبابيّة متعلّقة بالفخر الوطنيّ والسيادة الوطنيّة التي تكمن في قلب النزاع. كان الزيّ الرسميّ، وفق التقدير الفوريّ للساسة من كلا الجانبين، هو الشعار الذي سيراه الرجل في الشارع ويُوليه اهتماماً. طالما يوجد جنود

بريطانيّون يرتدون الزيّ العسكريّ في القاعدة لا يمكن لعبد الناصر الادّعاء بوضعه حدّاً للاحتلال البريطانيّ، ولن يتمكّن تشرشل كذلك من نفي المزاعم التي تفيد بأنّه خائن، بحجّة أنّه لم يحدث أيّ تغيير كبير. كانت تراود ذهن رئيس الوزراء البريطانيّ مسألة أكثر أهمّية. نظراً إلى فقدانه الإيمان بأنّ المصريّين سيحترمون شروط الصفقة بعد إتمامها، كان دائماً مُصرّاً على أنّ ارتداء الزيّ الرسميّ من العناصر البريطانيّين في القاعدة يمثّل ضمانة حيويّة؛ يسمح ذلك بتفسير أيّ محاولة من المصريّين للتحرّش بهم على أنّها عمل حربيّ.

بعد حصولهم على طمأنة من البريطانيّين في القاهرة بشأن ألّا تُحوّل مسألة الزيّ العسكريّ "إلى قضيّة رئيسيّة"، لم يعجب الأميركيّين أنها أدت إلى انهيار المحادثات. ففي نظر سفيرهم لدى القاهرة، إنّ التركيز على "مسألة لوازم الخياطة" – بدلاً من القضيّة الإستراتيجيّة الأكثر أهمّية المتعلّقة بتوافر القاعدة في المستقبل – أثبت وجهة نظره الخاصّة بأنّ "البريطانيّين أفسدوا هذه المفاوضات منذ البداية". فور عودة إيدن إلى "الخارجيّة" بعد غياب دام ستّة أشهر، طرح عليه دالاس المشكلة في تشرين الأول/ أكتوبر، وحذّر في ما بعد نظيره من أنّه سيضطرّ قريباً إلى منح عبد الناصر المعونة العسكريّة التي وعده بها الرئيس في ذلك الصيف. وبما أنّ دالاس لمّح إلى أنّ البريطانيّين سيواجهون في وقت قريب فدائيّين مسلّحين بالأسلحة الأميركيّة، سرّب البريطانيّون هذا التهديد إلى *New York Times* على أساس أنّه سيثير قلق قرّاء الصحيفة اليهود.[346]

346 *FRUS*, 1952–54, Vol. IX, p. 2219, Dulles to Embassy in the UK, 15 July 1953; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 15 January 1954; Thornhill, *Road to Suez*, p. 173.

رغم مقاربة دالاس غير اللائقة، كان إيدن، الذي رأى إصرار تشرشل على الموضوع سخيفاً، موافقاً مع نظيره الأميركيّ على ضرورة انسحاب البريطانيّين من القاعدة بأسرع ما يمكن. لكن عندما سأله تشرشل: "ما الضمانة بأنّ المصريّين الذين خرقوا معاهدتكم عام 1936 سيحترمون أيّ اتفاق ستجريه معهم؟" لم يكن لديه إجابة. تشدّد إيدن، الذي كان يسعى بائساً لاستلام مكان تشرشل، والذي يدرك أنّ خطّ رئيس الوزراء المتشدّد كان مدعوماً من كثيرين في الحزب البرلمانيّ، في مواقفه قرابة شتاء 1953–1954. كانت تلك هي المرحلة التي بلغ فيها نفوذ مجموعة السويس أوجه، وهم أعضاء البرلمان الأربعة والأربعون الذين عارضوا بشدّة انسحاب بريطانيا من قاعدة القناة. وقد ضمن الصراع بين رئيس الوزراء المريض ووزير خارجيّته المتقلّب حول استلام عجلة القيادة في الحزب تقلُّب سياسة الحكومة بشأن مصر بين البراغماتيّة وقلة المرونة خلال هذه المدة.[347]

347 Thorpe, *Eden*, p. 420.

***

نجح ضابط "وكالة المخابرات المركزيّة" كيم روزفلت، الذي كان قد انتصر للتوّ في طهران، في كسر الجمود في القاهرة في كانون الثاني/ يناير 1954. وقال بقناعة عن عبد الناصر: "إنّه الرجل الوحيد الذي التقيتُه وترك لديّ انطباعاً بأنّه يملك القدرات اللازمة لقيادة الشرق الأدنى – ليس مصر فقط، بل أصدقاءها وجيرانها العرب عبرها – وإخراجه من البراري القاحلة"، ولذا شدّد على العلاقة مع الزعيم المصريّ بعد وقت قصير من زيارة دالاس في أيار/ مايو السابق. في 24 كانون الثاني/ يناير، وصل روزفلت إلى القاهرة. في اليوم التالي، قدّم عبد الناصر تنازلاً مهمّاً بالإشارة إلى أنّه سيسمح للبريطانيّين بإعادة احتلال قاعدة السويس في حال تعرّضت تركيا – العضو في "الناتو" – إلى أيّ هجوم. عقب ستّة أسابيع، وبعد أن أطاح بنجيب من رئاسة الوزراء، قدّم عبد الناصر عرضاً آخر إلى بريطانيا عبر روزفلت، ليعبّر عن حرصه على التوصّل إلى اتفاق سريع في حال قدّم البريطانيّون تنازلاً بشأن مسألة الزيّ العسكريّ المُثيرة للجدل.

اغتنم إيدن الفرصة للتحجّج بضرورة إعادة تسليم هذه القاعدة للمقاولين المدنيّين، وتركيز الحكومة بدلاً من ذلك على محاولة تمديد الصفقة. وافقه تشرشل الرأي على مضض. أشار دالاس إلى أنّ رئيس الوزراء اكتفى بـ"تكشيرة صغيرة للتعبير عن نفوره من الاقتراح"، في حين عبّر عن موافقته عليه. لكنّ إيدن كان يحظى بدعم رئيس لجنة الشؤون الخارجيّة في حزب المحافظين. كان تشارلز موت رادكليف عضواً ودوداً في "المحافظين"، ويحظى باحترام كبير في أوساط الحزب كافة. في ذلك الربيع، زار القاعدة وذكر أنّها في غياب السكّان المحلّيين الودودين كانت مجرّد "فيل أبيض عديم الفائدة". إذ لم يكن الجنود البالغ عددهم ثمانين ألفاً، المقيمون فيها، يحرسون القاعدة، ولا القناة؛ كانوا "تقريباً يحرسون بعضهم بعضاً". في غضون ذلك، أدّى تفجير الولايات المتحدة قنبلة هيدروجينيّة فوق جزيرة بيكيني في آذار/ مارس الماضي إلى إعطاء تشرشل ورقة التين التي كان يحتاجها، لأنّها تؤمّن حجّة عسكريّة ملزمة كي لا يركّز عدداً كبيراً من الجنود في مكان واحد. وفي 22 حزيران/ يونيو، أقرّ رئيس الوزراء أخيراً: "موقفنا في مصر غير مفيد عسكريّاً". كانت تلك اللحظة التي عدل فيها عن محاولة تخريب الصفقة.[348]

348 *FRUS*, 1952–54, Vol. VI, Part 1, p. 1024, Dulles, memorandum of dinner conversation, 12 April 1954; Mott-Radclyffe, *Foreign Body in the Eye*, pp. 214–15; TNA, CAB 195/12, meeting of 22 June 1954.

حتّى ذلك الحين، كان دالاس قد رفض بوضوح منح إيدن ما أراده: نهج مشترك من شأنه أن يوضح لعبد الناصر وجود جبهة إنكليزيّة–أميركيّة موحّدة. قال إيدن: ”الفكرة برمّتها تقضي بأن ’نخرج معاً‘ وأن يرونا معاً“، وتحديداً كان هذا السبب الذي جعل دالاس يرفض الفكرة. قال وزير الخارجيّة للرئيس إنّ أسعد يوم في حياته هو الذي ”لن نضطرّ فيه إلى تعديل سياساتنا للحفاظ على وحدة شكليّة“. واصل وزير الخارجيّة الضغوط على نظيره البريطانيّ، بالتفاوض على صفقات المساعدات العسكريّة مع العراق في نيسان/ أبريل، ومع باكستان في الشهر التالي، كأنّه أراد تذكير إيدن بأنّه لن يدع غياب التطوّر في مصر يمنعه من إقامة تحالفات مباشرة مع دول تراها بريطانيا حليفتها في المنطقة.[349]

349 Thornhill, *Road to* Suez, p. 194; Lucas, *Divided We Stand*, p. 37.

لكنّ دالاس كان بحاجة إلى دعم بريطانيّ لتحالف دفاعيّ مماثل في جنوب شرق آسيا. مقابل ذلك، وأثناء انعقاد قمّة إنكليزيّة–أميركيّة في واشنطن في نهاية حزيران/ يونيو 1954، أوضح لتشرشل وإيدن أنّه سيستخدم المساعدات الاقتصاديّة التي وعد بها أيزنهاور، نجيب، في العام السابق، لضمان احترام المصريّين ما يعنيهم من الصفقة فور إتمامها. لدى عودتهم إلى لندن، قال إيدن إنّ الأميركيّين كانوا ”مفيدين استثنائيّاً“. لكنّ آيك لم يتمكّن من منع نفسه من الإدلاء بملاحظة ساخرة حول رسالة بعثها تشرشل إلى رئيس الوزراء بعد ثلاثة أسابيع. كتب فيها يقول: ”إنّ الاستعمار، كرابط بين الشعوب، في طريقه إلى الزوال. المسألة الوحيدة المتبقّية هي مسألة الوقت والنهج“.[350]

350 TNA, CAB 195/12, meeting of 7 July 1954.

غير أنّ قمّة واشنطن مهّدت الطريق للتوصّل إلى اتّفاق سريع مع عبد الناصر. فبعد أن ترأس تشرشل الحزب البرلمانيّ، في نهاية تموز/ يوليو، توجّه أنطوني هيد، وزير الدولة للحرب، وإيفلين شوكبيرغ، مستشار إيدن، إلى القاهرة. وخلال مأدبة عشاء في ظلال الأهرامات في 26 تموز/ يوليو، قدّم الرجلان اقتراحاً إلى عبد الناصر وزملائه: سيسحب البريطانيّون قواتهم في غضون عشرين شهراً، وسيحتفظ المتعاقدون المدنيّون بالقاعدة لسبع سنوات، وفي هذه الأثناء، يمكن للبريطانيّين العودة في حال وقوع هجوم على مصر أو تركيا أو أيّ بلد يشمله الاتّفاق الأمنيّ للجامعة العربيّة؛ وهو شرطٌ أبطلته القنبلة الهيدروجينيّة لكنّه كان ضروريّاً سياسيّاً لإنقاذ الكبرياء البريطانيّ. بعد مناقشة دامت نصف ساعة، وافق المصريّون. وفي 6 آب/ أغسطس، أعرب عبد

الناصر عن أمله في أن يبرم الاتّفاق "فصلاً جديداً وأكثر سعادة في العلاقات بين بلدينا". كان من المفترض أن تتمّ الأمور بسرعة.[351]

[351] Thornhill, *Road to Suez*, p. 207.

***

إنّ تقديم أيزنهاور المسدّس هديّة إلى نجيب، ووعده في ما بعد أن تساعد الولايات المتحدة بدعم الجيش المصريّ مهّدا الطريق للتوصّل إلى اتفاق. لكن سرعان ما حُلّت المشكلات عندما أصبح واضحاً أنّ التعهّد الرئاسيّ غير قابل للتسليم. كان قانون الولايات المتحدة – بالتحديد قانون الأمن المتبادل – يتطلّب من المصريّين توقيع اتّفاق أمني مع الولايات المتحدة، وقبول وجود مستشارين عسكريّين أميركيّين للحصول على مساعدات عسكريّة. لكن بعد أن تخلّص للتو من البريطانيّين، لم يكن بإمكان عبد الناصر قبول هذه الشروط.

حتّى قبل توقيع الاتفاقيّة الإنكليزيّة–المصريّة في تشرين الأول/ أكتوبر، وتحديد موعد لمغادرة القوّات البريطانيّة في 20 تموز/ يونيو 1956، حذّر وزير الخارجيّة المصريّ السفيرَ الأميركيّ من أنّ "مجلس قيادة الثورة" لم يعد يريد أسلحة أميركيّة. حاول السفير أن يرى الجانب الإيجابيّ من الموضوع، مُجادلاً بأنّ القرار المصريّ أعفى واشنطن من التزام مخادع، لأنّ المساعدات العسكريّة لمصر – في وقت كانت فيه البلاد لا تزال في حالة حرب رسميّة مع إسرائيل – ستواجه معارضة شرسة من ائتلاف الانعزاليّين والمؤيّدين للإسرائيليّين في الكونغرس، لكنّها كانت نكسة دون أدنى شكّ.

منذ البداية، كان واضحاً أنّ المصريّين أرادوا أسلحة جديدة، وكانت "وكالة المخابرات المركزيّة" يائسة لتجنّب الاتّهامات بسوء النيّة. ومنذ وعد أيزنهاور بتقديم مساعدات اقتصاديّة، توصّل كيم روزفلت إلى خطّة لإخفاء خمسة ملايين دولار لشراء الأسلحة في إطار منحة أكبر بقيمة أربعين مليوناً لاستثمارات في البنية التحتيّة. واقترح أيضاً أن يمنح مايلز كوبلاند – الرجل الذي أغوى السوريّين بخوض معركة مسلّحة، والذي صار الآن مسؤول الاتصال المباشر للوكالة مع الزعيم المصريّ – عبد الناصر مبلغاً إضافيّاً قدره ثلاثة ملايين دولار نقداً لشراء بذلات جديدة وتأمين النقليّات. لكنّ الوفد الأميركيّ الذي ذهب إلى القاهرة في تشرين الثاني/ نوفمبر لإيصال الأخبار الجيّدة إلى عبد الناصر وصاحبه، قائد الجيش المصريّ، عبد الحكيم عامر، حظيَ باستقبال بارد إلى حدّ ما. وأظهرت قائمة الرغبات التي وضعها عامر، وتضمّنت قاذفات قنابل ودبّابات

ومدفعيّات، أنّه كان لديه توقّعات بعيدة المنال لن يحقّقها الأميركيّون أبداً، بينما أوضح عبد الناصر، وفقاً لكوبلاند، ''للمرّة الألف''، أنّه لا يستطيع قبول أيّ مساعدة قادمة على ما يبدو من واشنطن العاصمة. كما كان قلقاً للغاية لأنه في حال اكتشاف أيّ شخص الأموال التي قدمها إليه كوبلاند، سيتّهم بأنّه مأجور لدى الأميركيّين. في نهاية المطاف، أنفق المال على بناء نصب على جزيرة على النيل. على حدّ قول كوبلاند، سرعان ما سُمّي ''انتصاب روزفلت''.[352]

352 Copeland, *The Game of Nations*, pp. 176–8; Eveland, *Ropes of Sand*, p. 102.

كانت ''المخابرات المركزيّة'' عاجزة عن تزويد عبد الناصر بالسلاح. لذا، بدلاً من ذلك، أيّدت إنشاء إذاعة جديدة قويّة عُرفت بـ''صوت العرب''، مكّنت عبد الناصر من بثّ البروباغاندا عبر الشرق الأوسط، التي كانت تتخلّلها الموسيقا الشعبيّة لمطربين أمثال أم كلثوم. سأل صحافيّ بريطانيّ في حيرة من أمره أحد الفلسطينيّين: ''كيف يمكنك الاستماع لـ'صوت العرب' في حين أنّك ترى أنّ ما يقولونه غير صحيح؟''؛ ''لأنهم يبثّون ما نحبّ أن نسمعه''، جاء الردّ. مع مرور الوقت، اتّضح مدى حماقة الخطوة التي اتّخذتها ''المخابرات المركزيّة''. قال السادات في وقت لاحق عندما انتقد طبيعة برامج المحطّة: ''سنواصل التبشير بالكراهيّة''. وعندما سُئل: ''إزاء من؟'' قال: ''الغرب. سنستمرّ في ذلك إلى أن تصلحوا سياساتكم وتمنحون العرب ما يريدونه''.[353]

353 Beeston, *Looking for Trouble*, p. 19; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 8 November 1955.

مع نهاية 1954، تمكّن فوستر دالاس، عبر السمسرة للاتفاقيّة الإنكليزيّة–المصريّة، من إزالة مصدر واحد للتوتّر قد يستغلّه السوفيات. لكن، بمنح وعد بتقديم الأسلحة بشروط لا يمكن لعبد الناصر قبولها، أدخل مصدر توتّر آخر. كانت مصر تريد أسلحة حديثة، وكان دالاس يعلم أنّه في حال لم تزوّدها الولايات المتحدة بها، قد يكون هناك خطر بأن يفعل الروس ذلك. إضافة إلى مشكلات وزير الخارجيّة كان إيدن يحاول استعادة المبادرة في الشرق الأوسط.

16

حلف بغداد

بينما كان دالاس ينسّق أقسام الخطّة التي وضعها للطبقة الشماليّة، كان البريطانيّون يشعرون بقلق متزايد. فبعد توقيع المعاهدة التركيّة–الباكستانيّة في 2 نيسان/ أبريل 1954، وإعلان الحكومة الأميركيّة تقديم مساعدات عسكريّة إلى العراق وباكستان بعد أسابيع، أدركوا أنّه ليس لديهم وقت يخسرونه إذا أرادوا المحافظة على أيّ نوع من النفوذ في المنطقة. أقرّ أحد وزراء الخارجيّة أنه في حال لم يتمّ ذلك، "قد يعتقد العراقيّون وغيرهم أنّنا نترك للأميركيّين مهمّة إدارة ذلك الجزء من العالم".[354]

354 TNA, CAB 129/68/31, Lloyd, 'Future Defence Arrangements with Iraq', 31 May 1954.

بعد الانسحاب من فلسطين في 1948، ومع رحيل القوّات البريطانيّة من السويس الذي تقرّر إجراؤه في حزيران/ يونيو 1956، كان الأردن والعراق الدولتين الوحيدتين اللتين احتفظ فيهما البريطانيّون بوجود لهم شمال الشرق الأوسط. عندما راجع إيدن انعكاسات إستراتيجيّة دالاس بالنسبة إلى "الحزام الشماليّ"، قال إنّه على بريطانيا تعزيز موقعها في كلّ دولة لمقاومة الانتهاك الأميركيّ لنفوذها.

كانت المشكلة في أنّ الوجود العسكريّ البريطانيّ في كلا البلدين لم يكن يحظى بتأييد شعبيّ، ويراهن على دعم النخب. وافقت معاهدة 1930 على حقوق بريطانيا الأساسيّة في الشيبة والحبّانية في العراق. لكن كان من المقرّر أن تنتهي صلاحيّتها بعد انسحاب البريطانيّين من قاعدة السويس. وقد أدّت محاولة تجديدها قبل مغادرة البريطانيّين فلسطين إلى اندلاع أعمال شغب في بغداد سقطت ضحيّتها جثث أُلقيت في نهر دجلة. كان البريطانيّون أكثر حظّاً في الأردن. لكنّ المعاهدة البريطانيّة الأردنيّة لعام 1948 ألزمتهم تقديم المساعدة إلى الأردن في حال تعرّضه للهجوم. ومع تصاعد التوتّرات على طول الحدود المُتنازَع عليها مع إسرائيل في الضفّة الغربية، طلب الأردنيّون المساعدة. وفي حين مكّن ذلك البريطانيّين من نشر المزيد من القوّات في الأردن خلسة، فإنّه هدّد بإدخالهم في حرب لم يبتغوا خوضها. إذا كان العراق والأردن سيضطلعان بالأدوار التي تصوّرها

إيدن، فإنّ بريطانيا ستحتاج إلى قاعدة جديدة لموقعها في العراق، وإلى اتفاقيّة سلام عربيّة–إسرائيليّة تقلّص خطر احتمال محاربتها الإسرائيليّين نيابة عن الأردنيّين.

بحلول آب/ أغسطس 1954، أدرك جهاز المخابرات البريطانيّ أنّ عبد الناصر كان مهتمّاً أيضاً باتفاقيّة سلام، ووافق كلّ من إيدن ودالاس في كانون الأول/ ديسمبر على محاولة التوصّل إلى مبادرة سلام بين مصر وإسرائيل أُطلق عليها اسم Alpha. وبينما كان دافع إيدن من وراء ذلك إزالة أيّ تهديد لإستراتيجيّته الجديدة في المنطقة، كان مسعى دالاس محلّياً ومناهضاً للسوفيات. فقد أراد حلّ قضيّة سيحاول الروس استغلالها، وهذا ما منح اللوبي الإسرائيليّ المُوالي لإسرائيل نفوذاً غير مرغوب فيه في السياسة الأميركيّة، وخدم إلى حدّ كبير مصلحة خصومه في الحزب الديموقراطيّ. في الوقت نفسه، أتاحت عودة الناجي الكبير في السياسة العراقيّة، نوري السعيد، إلى السلطة في بغداد، للبريطانيّين، فرصة تعزيز موقعهم في العراق.[355]

355 وصف عبد الناصر صفقته مع سليد بايكر الذي كان يعمل في جهاز المخابرات البريطاني.
MEC, Slade-Baker Papers, diary, 31 July 1954.

رأى نوري أنّ الموافقة على خطّة "الحزام الشماليّ"، التي وضعها دالاس، وسيلة لاستعادة مكانة عبد الناصر الذي كان منذ اتّفاقه مع البريطانيّين حول قاعدة السويس في طريقه للحصول على مكانة البطل في العالم العربيّ. بعد توقيع المعاهدة التركيّة–الباكستانيّة في نيسان/ أبريل 1954، عبّر نوري للحكومة البريطانيّة عن أمله الخاصّ في إبرام معاهدة مع الباكستانيّين، سيدخل فيها بعد ذلك سوريا ولبنان، ثم يترك "المصريّين خارجاً وسط البرد". وقد سمحت له عودته إلى رئاسة الوزراء، ذلك الصيف، بتقصّي هذا الهدف.[356]

356 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 224, 15 July 1954.

بالنسبة إلى نوري، من محاسن الانضمام إلى "الحزام الشماليّ" بهدف المضيّ بطموحاته العربيّة القديمة هو أنّه سيكون من الصعب على عبد الناصر منعه دون تعريض علاقته الخاصّة مع الولايات المتحدة للخطر. عندما التقى عبد الناصر في أيلول/ سبتمبر 1954، أخبره الزعيم المصريّ أنّه لن يعارض انضمام العراق إلى المعاهدة التركيّة–الباكستانيّة، لكنّه لن يشارك فيها بسبب المعارضة المحتملة لـ"الإخوان المسلمون". لذلك، في تشرين الثاني/ نوفمبر، توجّه نوري إلى إسطنبول لمعرفة هل بإمكانه إبرام صفقة مع زعيم تركيا، عدنان مندريس، الذي شعر أنّ قرار بريطانيا التخلّي عن قاعدة السويس سيجعله عرضة للخطر. رغم أنّ الرجلين لم يوافقا على أيّ شيء في تلك المناسبة، ردّ مندريس في كانون الثاني/ يناير 1955 الزيارة إلى بغداد. وبينما كان

هناك، أقنع نوري بالتوقيع على بلاغ أعلن فيه كلا الرجلين رغبتهما في توقيع اتّفاق دفاعيّ ثنائيّ سيكون مفتوحاً أمام دول أخرى للانضمام إليه أيضاً.

رأى إيدن الآن أنّ الفرصة سانحة. فبعد أن عارض منذ مدة طويلة "الحزام الشماليّ"، التي شعر أنّها "استفزازيّة" تجاه السوفيات، أدرك أنّه إذا ارتبطت بريطانيا بالتحرّك التركيّ–العراقيّ، قد يحرز تقدّماً على دالاس الذي لن يتمكّن من فعل الشيء نفسه دون إزعاج الإسرائيليّين. بعد يومين من التوقيع على الميثاق، بعث رسالة إلى نوري يرحّب بخطوته، ويشير إلى أنّ بريطانيا ترغب في الانضمام إليه. على غرار نوري، اعتقد إيدن أنّ عبد الناصر لن يعارض هذه الخطوة. ففي منتصف كانون الأول/ ديسمبر، تلقّت "الخارجيّة" تقريراً من القاهرة يورد بالتفصيل التعليقات غير الرسميّة التي أدلى بها الزعيم المصريّ خلال مقابلة مع "وكالة الأنباء العربيّة"، وهي محطّة إخباريّة مقرُّها في القاهرة، كانت تشكّل على ما يبدو جبهة لـجهاز المخابرات البريطانيّ. قال فيها عبد الناصر إنّه رغم غياب حماسته لخطط نوري، "لن تثير مصر أيّ اعتراض في حال أصرّ العراق على المضيّ قدماً". رغم أنها لم تدعم تحرّك العراق في جامعة الدول العربيّة، لن تهاجم الصحافة المصريّة العراق. هكذا رحّب إيدن بالأخبار القادمة من بغداد.[357]

357 TNA, CAB 129/65/4, Eden, 'United States Project to Associate Military Aid to Pakistan with Middle East Defence', 5 January 1954; Sanjian, 'The Formulation of the Baghdad Pact', p. 240.

من جانب آخر، ردّ عبد الناصر بغضب شديد رغم كلّ ما قاله في السابق. في محاولة لوقف التوقيع على الاتفاقيّة، شنّت الصحافة المصريّة التي تسيطر عليها الحكومة هجوماً فوريّاً وعنيفاً على نوري. واستناداً إلى حقيقة تحالفه مع تركيا، التي تقيم علاقات طبيعيّة مع تلّ أبيب، أعلنت إذاعة "صوت العرب" أنّه "حليف لحليف إسرائيل"، في برامج كانت تُبثّ عبر الشرق الأوسط. دعا عبد الناصر إلى اجتماع عاجل للجامعة العربيّة في القاهرة. مع ذلك، ادّعى نوري المرَض ورفض الحضور. في غيابه، تحوّلت القمّة إلى مهزلة عندما قال ممثّلو عدد من الدول الأخرى إنّهم غير راغبين في بدء المناقشات، ما اضطرّ عبد الناصر بعد ذلك إلى التخلّي عن قرار يُلزم أعضاء الجامعة رفض الانضمام إلى الاتفاقيّة عندما رفضت سوريا ولبنان تأييدها. رغم تمكّن المصريّين في ما بعد من منع السوريّين من اتّباع خطى نوري، عبر تسريب تسجيل سرّي لوزير الخارجيّة السوريّ في المؤتمر، ما أدّى إلى انهيار الحكومة السوريّة، اتخذ عبد الناصر في هذه الأثناء خطوة متهوّرة وغير حكيمة تهدّد بسحب مصر من الاتفاق الأمنيّ للجامعة العربيّة في حال وقع العراق على المعاهدة.

عندما أُتيحت الفرصة لجعل عبد الناصر يبدو معزولاً في حال نفّذ تهديده، أو غبيّاً تماماً إن لم يفعل ذلك، لم يتردّد نوري. وعندما أصرّ على اتفاقيّته، اضطرّ عبد الناصر إلى ابتلاع كلماته. بعد ذلك، سيلوم رئيس الوزراء المصريّ نوري على تعرّضه للإذلال. وصف جاسوس بريطانيّ، كان يعرف عبد الناصر جيّداً، كراهيّته للعراق بأنّها "شبه مرَضية". وفي محادثة بعد عام، أشار إلى اللحظات التي كان فيها عبد الناصر "لا يستطيع حتّى أن يتلفّظ باسم نوري".358

358 Seale, *The Struggle for Syria*, p. 217; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 18 March 1955, 2 February 1956.

وصفت التقييمات الأولى لعبد الناصر رجلاً تثير مصافحته شعوراً بالثقة والحيويّة، وتشير محادثته الهادئة والصّريحة والمبهجة في أحيان كثيرة إلى دهاء أثار حيرة الدبلوماسيّين الغربيّين. كشفت أحداث أوائل 1955 عن جانب خفيّ آخر لرئيس الوزراء المصريّ هو أنّه كان رجلاً ذا ضمير صاحٍ، ويشعر بالإهانة بسهولة. خلال المدة الفاصلة بين الإعلان والتوقيع على الصفقة التركيّة–العراقيّة، اعترف عبد الناصر أنّ بلاده تعاني من "عقدة نقص"، لكنّه قد يكون بذلك يصف أيضاً نفسه. إنّه ابن ساعي بريد القرية، ولم ينسَ أبداً كيف كان أصحاب الأراضي المحلّيون الأثرياء يتحدّثون إلى والده. وفق أمير سعوديّ، كانت تجربته في مرحلة الطفولة المفتاح لفهم الزعيم المصريّ. قال: "كان ذلك يرتبط، جزئيّاً على الأقلّ، بسلوكه وعدوانيّته في السّعي إلى بسط الهيمنة المصريّة على منطقة واسعة".359

359 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 2 February 1956; Hart, *Saudi Arabia and the United States*, pp. 235–6.

***

وسط هذه الظروف غير الواعدة، اجتمع إيدن مع عبد الناصر لتناول العشاء في السفارة البريطانيّة لدى القاهرة في 20 شباط/ فبراير 1955. وكان وزير الخارجيّة البريطاني قد اتّفق مع دالاس على توقّفه في مصر في طريقه إلى قمّة ستنعقد في بانكوك من أجل التباحث في موضوع خطّة السلام، Alpha. لكنّ اللقاء بدأ على نحو سيّئ عندما سأل إيدن، وهو يرتدي زيّ العشاء، عبد الناصر الذي كان يرتدي الزيّ العسكريّ، هل هذه المرّة الأولى التي يدخل فيها المبنى. اعترف عبد الناصر أنّها كانت المرّة الأولى. على حدّ قول رئيس الوزراء المصريّ، كان لافتاً رؤية المكان الذي كان يُحكم بلده منه. أضاف إيدن: "ليس يحكم، بل يوجّه بالأحرى".360

360 Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, p. 75.

رغم أنّه يبدو أنّ الرجلين ناقشا مبادرة السلام لبعض الوقت، فإنّ الاتفاقيّة التي كان نوري قد عقدها للتوّ مع منديرس التركيّ طغت على محادثتهما. قال عبد الناصر إنّه يوافق على الفكرة الإستراتيجيّة التي ينطوي عليها الاتفاق، لكنّها لم تعجبه لأنّها ضربٌ من ''الهيمنة الأجنبيّة''. وتابع قائلاً إنّه في اجتماع الجامعة العربيّة الأخير، أطلعه وزير الخارجية العراقيّ على معارضته الشخصيّة هذه الصفقة، وعلى اضطرار حكومته إلى المضيّ قدماً بها نتيجة الضغوط البريطانيّة. إيدن، الذي كان في حالة فوران بعد أن عرف للتوّ أنه سيصير رئيس الوزراء قريباً لأنّ تشرشل كان على وشك الاستقالة، لم يُقدِم على أيّ خطوة لتبديد الانطباع بأنّ ديبلوماسيّيه شاركوا كثيراً في المفاوضات حول الاتفاقيّة التركيّة–العراقيّة. فدعا عبد الناصر إلى تعليق الحكم على الصفقة إلى أن يطّلع على بنودها: ''قد لا يكون هناك اعتراض على هذا الأمر كما يتصوّرون الآن''. واقترح ''ألّا يتعامل المصريّون مع هذه الاتفاقيّة على أنها جريمة''.

''لا''، أجاب عبد الناصر ضاحكاً، ''لكنّها كذلك''.[361]

361 TNA, FO 371/115493, Stevenson to FO, ‘Discussion between the Secretary of State and Egyptian Leaders’, 21 February 1955; Lucas, *Divided We Stand*, p. 41.

شكّل ذلك عموماً أداءً عالياً وغير معهود من إيدن، وعرضاً أوّليّاً غير مستساغ لما سيحدث بعد أن يعبر عتبة مقرّ الحكومة البريطانيّة. رغم إبلاغه لندن بحماسة أنّ الاجتماع سارَ على ما يُرام، فإنّ كلّ ما فعله هو زعزعة ثقة رئيس الوزراء المصريّ. بعد ذلك، هتفَ عبد الناصر إزاء لباس مضيفه البريطانيّ مقارنة بلباسه: ''يا للأناقة! بدا الأمر كأنّنا متسوّلون وهُم أمراء!''.[362]

362 Heikal, *Cutting the Lion’s Tail*, p. 77.

كان الأسوأ في انتظار عبد الناصر. فبعد أربعة أيّام من توقيع المعاهدة التركيّة–العراقيّة، في 28 شباط/ فبراير، هاجمت القوّات الإسرائيليّة غزّة، ما أسفر عن مقتل ثمانية وثلاثين شخصاً. كان الهجوم بمنزلة ردّ فعل متعمّد على إعدام مصر عدداً من العملاء الإسرائيليّين في وقت سابق من هذا الشهر، لكنّه ساهم في الكشف عن الضعف العسكريّ المصريّ، في الوقت الذي كان يعاني فيه عبد الناصر من تداعيات الانتكاسة في بغداد.

رغم ربط إيدن اعتراض عبد الناصر على الاتفاقيّة التركيّة–العراقيّة بـ''الغيرة... وبرغبة محبطة لقيادة العالم العربيّ''، لم يكن في مزاج يسمح له بمنح عبد الناصر أيّ تنازل. وفي طريق عودته إلى لندن من قمّة بانكوك، توقّف في بغداد حيث عرض عليه نوري مسوّدة الاتفاقيّة الإنكليزيّة–العراقيّة التي أنهت معاهدة 1930، واستبدلت بها إطاراً للتعاون العسكريّ الكامل. في 15 آذار/ مارس،

نُوقش هذا الاقتراح في مجلس الوزراء. أعلن إيدن: ''هذا هو الوقت المناسب للمضيّ قدماً''، واصفاً الترتيب الجديد بأنّه يضمن ''صلاحيّات قويّة لنا رغم كونه مناسباً للاستهلاك العراقيّ''.[363]

[363] Thornhill, *Road to Suez*, p. 209; TNA, CAB 195/13, meeting of 15 March 1955.

ناقش دالاس هذه الأمور مع إيدن على هامش ''قمّة بانكوك''. يبدو أنّه أدرك متأخّراً ما كان نظيره البريطانيّ يحاول تحقيقه. وعند عودته إلى واشنطن، أخبر مستشاريه عن قلقه من ألّا يؤدّي إصرار إيدن على مساعدة نوري، في ضمّ سوريا والأردن ولبنان إلى ميثاقه، إلى ''عزل عبد الناصر وإغاظته أكثر'' فحسب، بل إلى إلحاق الضرر أيضاً بالعلاقات الأميركيّة مع الإسرائيليّين الذين سيخافون من تعرّضهم للمحاصرة. خوفاً من أن تكون ''المملكة المتحدة قد استحوذت على الكرة في ملعب السياسة الشماليّة، وأن تهرب بها في اتّجاه سيكون له... تداعيات مؤسفة'' طلب من الدبيلوماسيّين البريطانيّين نقلَ قلقه إلى إيدن في لندن.[364]

[364] *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, p. 118, memorandum of conversation, 24 March 1955.

لكنّ وزير الخارجيّة لم يكن راغباً في التراجع. أجاب واشنطن قائلاً: ''ليس حكيماً أن نحاول مساعدة عبد الناصر على حساب إضعاف دعمنا الاتفاقيّة التركيّة–العراقيّة. هدفُنا المُعلَن هو جعلُ الاتفاقيّة الأساس لنظام دفاع فعّال في الشرق الأوسط. إذا حُقّق ذلك، سيكون الانضمام السوريّ واللبنانيّ والأردنيّ ضروريّاً في نهاية المطاف''. بعد أحد عشر يوماً، في 4 نيسان/ أبريل 1955، انضمّت بريطانيا إلى ما سيُعرف بـ''حلف بغداد''. وبعد أن انتظر إيدن مدة طويلة جدّاً، صار رئيساً للوزراء في اليوم التالي.[365]

[365] Ashton, ‘The Hijacking of a Pact’, p. 132.

***

قادت الحماسة الأميركيّة بريطانيا إلى الانضمام إلى "حلف بغداد"، والتهديد الذي مثّله ذلك على عبد الناصر ذكّرَ رئيس الوزراء المصريّ بافتقاره إلى الأسلحة الحديثة. تعثّرت المحادثات مع حكومة الولايات المتحدة حول المساعدات العسكريّة بسبب الظروف المُصاحِبة لها، وكان البريطانيّون متردّدين إزاء الإفراج عن الأسلحة التي كانت مصر قد اشترتها، لأنّهم لم يرغبوا في الإخلال بالتوازن العسكريّ مع إسرائيل. في هذه الأثناء، تسلّم الإسرائيليّون دبّابات جديدة، ومدفعيّة، ورادارات، ومقاتلات نفّاثة من الفرنسيّين. أثار هذا التفاوت المتزايد غضب عبد الناصر. في أحد الأيام، في القاهرة، وبينما كان يتحدّث إلى مايلز كوبلاند من "وكالة المخابرات المركزيّة"،

كانت الطائرات الإسرائيليّة تحلّق بكثافة فوق المدينة. قال عبد الناصر غاضباً: "عليّ الجلوس هنا وتحمُّل ذلك، في حين أنّ حكومتكم لا ترغب في إعطائي الأسلحة". عندما أخبره كوبلاند أنّ وزارة الخارجيّة تمنع البنتاغون من تزويده بالسلاح، ارتأى عبد الناصر أنّ التودّد شبه العلنيّ إلى موسكو قد يساعد على كسر الجمود في واشنطن.[366]

366 Wilford, *America's Great Game*, pp. 192–93; Tuhami to Nasser, 18 June 1955, http://digitalarchive.wilsoncenter.org/document/112263

منذ عامين، كان عبد الناصر يحاول استمالة الروس إلى هذه اللعبة من دون تحقيق أيّ نجاح، لأنّ الروس قد خمّنوا ما كان يخطّط له. لكن في أيار/ مايو 1955، أي بعد شهر من توقيع "حلف بغداد"، أرغم السفير السوفياتي على تقديم السلاح الروسيّ مقابل القطن والأرزّ المصريّ. بعد قبوله هذا العرض، ذهب الزعيم المصريّ لرؤية السفير الأميركيّ الجديد، هانك بايرود. قال له بنبرة مسرحيّة: "إنّها المرّة الأخيرة التي سأطلب فيها أسلحة من الولايات المتحدة. إن لم أحصل عليها منكم، فأنا أعلم من أين يمكنني الحصول عليها، وسأطلب من السوفيات تزويدي بها".[367]

367 Lucas, *Divided We Stand*, p. 48.

حدّد حسن التهامي، وهو مساعد عبد الناصر، الإستراتيجيّة: كان الهدف الحفاظ على الحرّية المصريّة بتشجيع القوى العظمى على خوض المعركة ضدّها. لكن في الواقع، كانت فكرة إمكانيّة الاختيار من عبد الناصر بين أميركا وروسيا مجرّد وهم. فمن ناحية، لم يكن في إمكانه قبول الأسلحة الأميركيّة بسهولة دون الإضرار بمؤهّلاته المُناهضة للإمبرياليّة. من ناحية أخرى، بدأ الأميركيّون يفقدون صبرهم إزاء رغبته عن مباشرة المحادثات حول السلام. في اجتماع 9 حزيران/ يونيو، اتّهمه بايرود بـ"زعزعة الوضع في جميع أنحاء الشرق الأوسط". حاول عبد الناصر الردّ على انقلاب نوري الدبلوماسيّ بتشكيل تحالف مع السوريّين والسعوديّين، لكنّ السفير أبلغه، بعبارات لا لبس فيها، أنّه إذا كان يعتقد أنّ هذا الترتيب يضعه في موقع أقوى للمساومة، فإنّه "مُخطئ جدّاً".[368]

368 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, p. 237, Byroade to State Department, 9 June 1955.

نتيجة لذلك، عندما اقترح السفير السوفياتيّ على عبد الناصر إمكانيّة زيارة ديمتري تشيبيلوف، رئيس تحرير صحيفة *Pravda* إلى القاهرة، لإجراء مناقشات حول موضوع الأسلحة، وافق عبد الناصر. فالتقى تشيبيلوف الزعيم المصريّ عشيّة الذكرى السنويّة الرابعة لانقلاب "الضبّاط الأحرار"، وعرض عليه مئتي دبّابة ومئة طائرة مقاتلة وقاذفات قنابل يمكن لمصر تسديد ثمنها

بالقطن على مدى ثلاثين عاماً. بضمانه هذا العرض، حاول عبد الناصر جاهداً مواجهة الأميركيّين. كان بايرود قد ترك الفرصة سانحة لإمكانيّة شراء مصر أسلحة أميركيّة الصنع. في منتصف آب/ أغسطس، أخبره عبد الناصر أنّ المصريّين لا يمكنهم فعل ذلك إلا إذا سُمح لهم بالدفع بعملتهم الخاصّة، مع أنّه كان يعلم أنّ ذلك سيُقابَل بالرفض، ولكن هدفه كان وضع الأميركيّين في موقف يرغمهم على رفض عرضه. في وقت سابق من اليوم نفسه، كان بايرود قد اطّلع على تفاصيل عرض تشيبيلوف.

على غرار السوفيات، شعر فوستر دالاس بأنّه قد يكون عرضة للتلاعب، وفي البداية، أخبر أخاه الأصغر أنه لا يعرف "مدى جدّية المقترحات الروسيّة بالنسبة إلى مصر". لكن سواء أكانت تلك المقترحات جدّية أم لا، في حال تسرّبت أخبار عرضها على عبد الناصر، كان من المرجّح أن يبادر رئيس الوزراء الإسرائيليّ المنتخب حديثاً، ديفيد بن غوريون، إلى اتّخاذ إجراء أحاديّ الجانب، إذ كان معروفاً جدّاً بإيمانه باستخدام القوّة. عندئذ، سيواجه دالاس ضغطاً لا يقاوم من اللوبي الإسرائيليّ في واشنطن لدعم تلّ أبيب، الأمر الذي من شأنه القضاء على إمكانيّة طرح نفسه كوسيط نزيه في أيّ محادثات سلام. وهكذا، أرجأ خطابه الذي كان سيعلن فيه تفاصيل خطّة السلام قبل أسبوعين حتّى 26 آب/ أغسطس.[369]

[369] Lucas, *Divided We Stand*, p. 52.

غير أنّ الخطاب جاء بعد فوات الأوان. ففي 22 آب/ أغسطس، قبل أربعة أيّام من خطاب دالاس، غزت القوّات الإسرائيليّة قطاع غزة. بعد ثلاثة أيام، ورغم الجهود الأخيرة التي بذلها بايرود، ردّ المصريّون بسلسلة من الغارات الفدائيّة التي وصلت إلى ضواحي تلّ أبيب وقتلت أحد عشر إسرائيليّاً. وردّت إسرائيل بهجوم على غزة، ما أسفر عن مقتل ستة وثلاثين مصريّاً. هكذا، ماتت مبادرة Alpha للسلام التي وضعها دالاس في مهدها.

***

وضعَ غزو إسرائيل لغزة عبد الناصر تحت المزيد من الضغوط، لكنّه مكّنه من تبرير صفقة السلاح مع الروس. في 19 أيلول/ سبتمبر، ذكرت "المخابرات المركزيّة" أنّه بدا "مرجّحاً" قبول المصريّين العرض الروسيّ الذي "قيل أنّه مُحرِج بعض الشيء من حيث الحجم". بعد يومين من ذلك، أكّد بايرود إتمام صفقة. واعترف عبد الناصر بعد ذلك بقليل بإمدادهم من الروس بدبّابات "ستالين". وقال: "علينا تغيير أسمائها".[370]

370 Lucas, *Divided We Stand*, p. 52; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 5 November 1955.

وصلت الأنباء إلى الولايات المتحدة حيث كان وزراء خارجيّة العالم مجتمعين في نيويورك من أجل افتتاح ''الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة''، وهكذا استطاع دالاس مواجهة وزير الخارجيّة السوفياتيّ، فياتشيسلاف مولوتوف، مباشرة. وحين حاول مولوتوف تصوير الأمر كمجرّد صفقة تجاريّة خالية من أيّ تداعيات سياسيّة، لم يقتنع دالاس بذلك. في لندن، وافق هارولد ماكميلان الذي عيّنه إيدن وزيراً للخارجيّة. كتب في مذكّراته: ''إنّه إنجاز خطير ومثير للقلق بالنسبة إلى الروس، ويجب وضع حدّ له بطريقة ما''.371

371 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 480, 22 September 1955.

رأى دالاس أنّ أمل ماكميلان غير واقعيّ. فقد كان العرض الروسيّ، على حدّ تعبير أحد أعضاء هيئة الأركان المشتركة، بمنزلة مقبّلات ''رخيصة جدّاً''. كان يعتقد أنّ الجيش سيطيح بعبد الناصر في حال عاد إلى الصفقة، وكان يعي أنّ بايرود تجادل مع الزعيم المصريّ في الأسبوع السابق، ولذا قرّر إرسال كيم روزفلت – المدافع الرئيسيّ عن عبد الناصر في واشنطن – إلى القاهرة، في محاولة للحدّ من الأضرار.372

372 USIME, Joint Chiefs of Staff, 'Comparative Cost of US Equipment to Egypt as opposed to the Cost of USSR Equipment', 5 October 1955.

اجتمع روزفلت وكوبلاند مع عبد الناصر ثلاث ساعات ونصف في منزله في 26 أيلول/ سبتمبر، وخلال ذلك الوقت، وافق عبد الناصر على إصدار بيان بحسن نياته واستعداده للتباحث مع دالاس حول السبل لتهدئة التوتّرات العربيّة–الإسرائيليّة. لكنّ جلسة الصياغة تعطّلت لاحقاً بسبب خبر قدوم السفير البريطاني الجديد لزيارة الزعيم المصريّ. وبما أنّ دالاس لم يخبر ماكميلان بزيارة روزفلت، قرّر الأميركيّان الذهاب والاختباء في الطابق العلويّ. قبل أن يفعلا ذلك، نصحا عبد الناصر أن يخبر زائره البريطانيّ بأنّ الأسلحة جاءت من تشيكوسلوفاكيا وليس من الاتحاد السوفياتيّ مباشرة، لتبدو الصفقة أقلّ إثارة للسخط. قال كوبلاند، مازحاً، إنّه كان ليكون من الممتع مشاهدة ردّ فعل السفير البريطانيّ لو نزلا إلى الطابق السفليّ، وقاطعاهما قائلَيْن: ''عفواً جمال، لم يعد لدينا صودا''.373

373 Copeland, *The Game of Nations*, p. 134.

بعد الاجتماع، نقل الجواسيس محادثتهم إلى واشنطن، مُطالبين بتأكيد من دالاس أنّ ''الإدلاء بالبيان المقترح قد يكون مفيداً بعض الشيء''. وأقرّوا بأنّهم ''لا يزالون غير مرتاحين إلى حدّ ما''،

إذ إنّ عبد الناصر يأخذ كلامهم على محمل الجد فقط لِما قد يسبّبه قراره من مشكلات في الولايات المتحدة، وليس نتيجة لتغيير في موقفه. لكنّهم كانوا مصرّين على أنّ عبد الناصر لا يزال ”أفضل ما لدينا، إن لم يكن أملنا الوحيد هنا“.[374]

374 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, pp. 520–21, State Department to Mission, UN, 27 September 1955.

***

لم يكن دالاس متأكّداً. فقبل ذلك بيوم، كان قد عقد أوّل سلسلة من المحادثات المهمّة للغاية مع وزير الخارجيّة البريطانيّ، هارولد ماكميلان، الذي جاء إلى نيويورك لحضور ”الجمعيّة العامّة“. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يلتقي فيها الرجلان، ويبدو أنّهما اتّفقا فوراً، وانزلقا في مؤامرة سهلة وُضع حدٌّ لها بعد بضعة أسابيع، عندما أخبر دالاس ماكميلان بحماسة أنّ عليهما المباشرة معاً بـ”إصلاح مُضادّ“ سيدحضون به ”الافتراءات التي تطاول الحضارات الغربيّة القديمة، ويصرّحون بأنّ ’الاستعمار‘ تهمة زائفة؛ ويثبتون الفائدة الهائلة التي قدّمتها الإمبراطوريّة البريطانيّة ولا تزال؛ واستمالة الدول الشابّة إلى جهتنا“.[375]

375 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 507, 13 November 1955.

في نيويورك، راود الرجلين شعور موحّد بالغضب. ففي حين كان ماكميلان غاضباً من أنّ الفنّيين السوفيات سيعملون عبر المطارات التي بناها البريطانيّون، كان دالاس مُستاءً إزاء نكران عبد الناصر للجميل. وفقاً لمستشار ماكميلان، شوكبيرغ، الذي كان حاضراً أيضاً: ”كانا يشعران باستياء متزايد“.[376]

376 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 281, 26 September 1955.

تساءل ماكميلان وهو يفكّر بصوت عالٍ: ”هل يمكننا جعل الحياة مستحيلة على عبد الناصر، والتوصّل في نهاية المطاف إلى إسقاطه بممارسة أنواع الضغوط؟“ كان دالاس يفكّر على المنوال نفسه. وبعد بضعة أيّام، سأل ماكميلان: ”هل لدينا ما يكفي من القوّات لإعادة احتلال مصر؟“[377].

377 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 489, 2 October 1955.

”ليس في السويس. ولكن يمكن ذلك من قبرص دون شك“، كما أقرّ ماكميلان. إنّ الدرس الذي استخلصه من المحادثة هو أنّ دالاس لم يكن يعارض فكرة العمل العسكريّ.

كان كلا الرجلين يقدّر المخاطر. كانت سمعة دالاس نفسها على المحكّ بعد أن أشاد سهواً بعبد الناصر، مُعتبراً إيّاه ”جورج واشنطن الشرق الأوسط“، أثناء زيارته القاهرة قبل عامين. قال: ”في

الولايات المتحدة، لن نستطيع عرض هذه القضيّة بصورة جيّدة. ستكون هزيمة كبرى''. وبناء على ذلك أخبر روزفلت في القاهرة أنّه لا يعتقد أنّ البيان المقترح سيكون مفيداً على الإطلاق، وأنّه ''لا ينبغي تشجيع عبد الناصر على الاعتقاد بأنّه سيكون كذلك''. من جهته، كان ماكميلان يعلم أنّه عند انتشار أخبار شراء عبد الناصر الأسلحة، ستتبجّح مجموعة السويس بأنّها كانت محقّة طوال الوقت.[378]

378 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, p. 519, memorandum of conversation, 26 September 1955; p. 526, Dulles to State Department, 27 September 1955.

عندما اقترح ماكميلان التخلّي عن اتفاقيّة قاعدة السويس وسحب القوّات، أبدى دالاس اهتماماً كبيراً بذلك. لكنّ وزير الخارجيّة الأميركيّ لم يرغب في اتّخاذ ''أيّ خطوة تهديديّة أو عنيفة''، بينما كانوا ينتظرون رؤية ما اشتراه عبد الناصر فعليّاً. اعترف أنها ''ليست سياسة جذّابة جدّاً''، قائلاً إنّه اقترحها فقط ''لغياب بديل أفضل''. كما كان من الصعب للغاية انتقاد عبد الناصر إزاء ترحيب الغرب أيضاً بخروتشوف، واحتمال تحقيق انفراج.[379]

379 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, p. 543, memorandum of conversation, 3 October 1955.

بعد عودته جوّاً إلى لندن، أطلع ماكميلان زملاءه على الأزمة في اجتماع للحكومة في 4 تشرين الأول/ أكتوبر. وأوضح أنّ الأسلحة التي يقدّمها الروس بالية، لكنّ قرار تقديمها يشير إلى أنّ موسكو قد قرّرت الآن ''الاصطياد بنشاط في مياه الشرق الأوسط''، ولعلّها قدّمت عرضاً إلى السعوديّين أيضاً.[380]

380 TNA, CAB 195/14, meeting of 4 October 1955.

تجاهل إيدن الدور الذي لعبه سعيُه إلى التحالف مع نوري في هذه القضيّة، وحمّل الأميركيّين مسؤوليّة الكارثة. قال لزملائه: ''إنّ السيد دالاس هو الذي بدأ كلّ هذا، وإن أدخل نفسه في المتاعب، فليس لنا أن نساعده''. بعد تلخيص ماكميلان الوضع في اجتماع الحكومة في 4 تشرين الأول/ أكتوبر، دعا إيدن إلى إجراء مراجعة جذريّة لسياسة الشرق الأوسط، ثمّ شنّ هجوماً لم يُسبَق له مثيل على الأميركيّين، قائلاً إنّهم ''لطالما كانوا على خطأ في الشرق الأوسط''، جاهلين وغير منتظمين. حدّد محضر الاجتماع الاستنتاج المنطقيّ، إنّما المشؤوم، الذي استنبطه من هذا: ''لا ينبغي لنا، إذاً، أن نسمح لأنفسنا بأن نكون مقيّدين أكثر من اللازم، بالإحجام عن التحرّك في غياب موافقة ومساندة أميركيّة كاملة''.[381]

381 Lucas, *Divided We Stand*, p. 53; TNA, CAB 195/14, meeting of 4 October 1955; TNA, CAB 128/29/34, meeting of 4 October 1955.

خلال العام التالي، سيمارس ما وعظ به، إذ باشر بعد أيّام التحرّك في منطقة البريمي النائية شرق الجزيرة العربيّة.

17

تجاوُز

بحلول بداية تشرين الأول/ أكتوبر 1955، كان النزاع حول ملكيّة البريمي، الواحة التي تقع على حدود الربع الخالي في جنوب الجزيرة العربيّة، على وشك الدخول في عامه السابع، بعد أن بدا أنّه في المدة الأخيرة يميل إلى مصلحة السعوديّة. بعد التدخّلات المتكرّرة للمستكشف ويلفريد ثيسيجر في المنطقة التي كان يراها ابن سعود تابعة له، في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1949، طالب الملك بالمنطقة الواقعة جنوب غرب البريمي. رغم رفض البريطانيّين هذا المطلب، بصفتهم حُماةً لحكّام قطر وأبو ظبي، أرسل الملك السعوديّ في آب/ أغسطس 1952 مسؤولاً يُدعى تركي بن عطيشان ليحتلّ البريمي نفسها. نتيجة الموقع الإستراتيجيّ للواحة، وضع هذا التحرّك جنوب شرق الجزيرة العربية بأكمله على المحكّ.

كان البريطانيّون، الذين كانوا مضطربين حينذاك نتيجة إقصائهم عقب انقلاب "الضبّاط الأحرار" في مصر، قد واجهوا وصول ابن عطيشان إلى البريمي برعونة. ودفع قرارهم إرسال طائرات لشنّ غارة على الواحة وتشجيع سلطان عمان على إرسال قوّة لإخراج الفريق السعودي، ابن سعود، إلى التهديد بإحالة النزاع على مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. لم يكن البريطانيّون متأكّدين ممّا إذا كانوا قادرين على الاعتماد على الدعم الأميركي في حال فعل الملك مثل هذه الخطوة، ولذا وافقوا على اتفاقيّة هدنة تركت سلطان عمان في حيرة من أمره. كما قال تشرشل معتذراً نوعاً ما في سياق محادثة له مع شيخ البحرين في العام التالي: "نحاول ألّا نتخلّى أبداً عن أصدقائنا... ما لم نضطرّ إلى ذلك".[382]

382 'Michael Weir', *Daily Telegraph*, 14 August 2006.

لدى وفاة ابن سعود في تشرين الثاني/ نوفمبر 1953، استلم ابنه سعود العرش، ما وفّر الفرصة التي لطالما تجادل الديبلوماسيّون البريطانيّون حول ضرورة انتظار حكومتهم لها. بعد الكثير من المساومات، اتّفقوا مع السعوديّين في تموز/ يوليو 1954 على إخضاع نزاع البريمي للمحاكمة الدوليّة. سيعرض الطرفان قضيّتيهما على محكمة من خمسة رجال، تضمّ مرشّحاً بريطانيّاً وآخر

سعوديّاً وثلاثة آخرين من دول محايدة. في هذه الأثناء، كان مفترضاً أن تحافظ مفارز القوّات البريطانيّة والسعوديّة على السلام في الواحة.

في غضون ذلك، نمت المخاطر على نحو كبير بعد اكتشاف النفط في محيط أبو ظبي. ونتيجة لذلك، تجاهل الجانبان اتفاقيّة الهدنة. فشجّع البريطانيّون سلطنة عمان على إنفاق الأموال لدعم القبائل الرئيسيّة في المنطقة. وفي أواخر 1954، أخفق السعوديّون في مسعاهم للإطاحة بالشيخ شخبوط من أبو ظبي. وشملت الفرقة التي أرسلوها إلى البريمي ضابط مخابرات يُدعى عبد الله قريشي، كان على اتّصال مباشر بمستشار الملك سعود للسياسة الخارجيّة، يوسف ياسين، واشترى الشيوخ الأكثر نفوذاً في الواحة. في آب/ أغسطس 1955، تواصل قريشي مع شقيق شخبوط الذي كان يقيم في الواحة وعرض عليه مبلغ أربعمئة مليون روبية، أي ما يعادل ثلاثين مليون جنيه إسترليني، لتبديل موقفه. كان من المقرّر أن يتمّ التحكيم في جنيف في أيلول/ سبتمبر، وبينما رشّح السعوديّون ياسين ليشارك في المحكمة، اقترح البريطانيّون بسذاجة ديبلوماسيّاً لائقاً كان قد تقاعد مؤخراً هو السير ريدر بولارد. وانضمّ إلى هذين الرجلين تشارلز دي فيشر، القاضي السابق في المحكمة الدوليّة، الذي سيكون أيضاً رئيس المحكمة، ووزير خارجيّة كوبا السابق، وعلمانيٌّ باكستانيّ يُدعى محمود حسن أخّر بداية الإجراءات لتوقّفه في مكّة لزيارة الأماكن المقدّسة.

كان البريطانيّون يدركون أنّ السعوديّين حاولوا رشوة زايد وساورتهم شكوك – صائبة – حول رشوتهم لمحمود حسن أثناء توقّفه في مكّة، لكنّهم كانوا يأملون في الفوز بالتحكيم عن طريق فضح المخالفات السعوديّة. بناء على ذلك أبلغوا المدّعي العام السابق في نورمبرغ، السير هارتلي شوكروس، بتمثيل شيخ أبو ظبي وسلطان عمان. وبانتظار وصول حسن، أخبر شوكروس أعضاء المحكمة الأربعة الباقين أنّه سيُدلي بادّعاءات خطيرة بشأن السعوديّين عندما وصل حسن وبُوشِر أخيراً بالإجراءات. عندما بدأت المحاكمة، في الحادي عشر، اتّهم المحامي البريطانيّ السعوديّة بمحاولة شراء ولاء الشيوخ في الواحة عبر ممارسة الرشوة على نطاق واسع. لكنّ حججه، وشهادات شهوده، بمن فيهم الشيخ زايد، وعدم مصداقيّة رواية قريشي، فشلت جميعها في التأثير في فيشر والأعضاء الآخرين المُحايدين في اللجنة. وفي 15 أيلول/ سبتمبر، بعد أن رفعت الجلسة لإجراء المشاورات، حذّر بولارد البريطانيّين من أنّ ياسين وحسن يؤثّران من خلف الأبواب المغلقة في زملائهم بسبب إصرارهم على أنهم يفهمون الشريعة الإسلاميّة والثقافة العربيّة على نحو أفضل. وقالوا إنّ ما وصفته بريطانيا بالرشوة كان مجرّد ممارسة للكرَم العربيّ. ونظراً إلى ما آلت إليه

الأمور أشار الديبلوماسيّ المخضرم إلى أنّ المحاكمة على وشك التوصّل إلى نتيجة. كتب مسؤول بريطانيّ في وقت لاحق عنها أنّها "كان من الممكن أن تكون كارثيّة علينا".[383]

383 TNA, DO 35/6313, Samuel, 'Buraimi', 30 September 1955.

في الوقت المناسب، حقّقت المخابرات البريطانيّة خرقاً في اليوم التالي، وأثبتت – ربّما عن طريق اعتراض البرقيّات الديبلوماسيّة الباكستانيّة وتفكيك رموزها – أنّ العضو الباكستانيّ في المحكمة، حسن، تقاضى المال مرّتين من السعوديّين، وهذا أمر لم يعلن. عرض الوفد البريطانيّ في جنيف الدليل على بولارد الذي أطلع فيشر فوراً على نيّته الاستقالة. لم يكن قادراً على الإبلاغ عن السبب الحقيقيّ الذي دفعه إلى ذلك، تفادياً لتعريض مصدره للخطر. لم يكن بإمكان بولارد سوى إلقاء اللوم على سلوك ياسين وعلى "الأمور البغضية الأخرى" التي لاحظها. علّق فيشر المحاكمة في السادس عشر.

ارتأى البريطانيّون ضرورة إطلاع فيشر على القصّة الكاملة، لكنّهم لم يرغبوا في الكشف عن كيفيّة حصولهم عليها، فأرسلوا ضابطاً من جهاز المخابرات البريطانيّ ادّعى أنّه مدير تنفيذيّ لشركة نفطيّة، لمقابلة حسن. استقال فيشر عندما عُرض عليه بعد ذلك بمدة وجيزة نسخة عن المحادثة التي تلت، والتي سجّلها الجاسوس، واعترف خلالها حسن بأنّه حصل على قرض قيمته ستمئة جنيه إسترليني من السعوديّين. في 4 تشرين الأول/ أكتوبر – اليوم نفسه الذي طالب فيه إيدن الحكومة بإعادة التفكير في سياسة الشرق الأوسط – أعلنت الحكومة تأييدها قرار بولارد الاستقالة من المحكمة، بعد "تأكيد شكوك حكومة صاحبة الجلالة بشأن المحاولات السعوديّة للعبث بنزاهة المحكمة من وراء ظهر الرئيس"؛ صيغت الكلمات على نحو يُمكِن عبره إرسال إشارة واضحة إلى الرياض وحسن.[384]

384 Breakdown of Arbitration over Buraimi', *The Times*, 17 September 1955; TNA, DO 35/6313, 'The Buraimi Dispute', 4 October 1955.

***

أخرج العمل البريطانيّ السرّي المحكمة عن مسارها، لكنّه لم يضع حدّاً نهائيّاً لها، لأنّ الاتّفاق الذي أسّس لها ينصّ على استبدال أيّ من الأعضاء في حال استقالتهم. عرضت وزارة الخارجيّة على ماكميلان ملخّصاً بالخيارات المُتاحة. فإمّا أن تتابع الحكومة البريطانيّة الإجراءات فور إعادة تشكيل المحكمة، وإما أن تتراجع عن اتّفاق المحاكمة بالخروج من المحكمة. في حين أنّ الاستمرار

قد يتجّنب أو يؤجّل الخلاف الدوليّ، فإنّ اللجنة الجديدة ستكون عرضة للتأثّر بالضغوط السعوديّة كسابقتها، وستبدو المشاركة البريطانيّة بمنزلة موافقة على الرشوة. وعندما سيكون التحكيم الصادر، على نحو شبه حتميّ، مناهضاً للبريطانيّين، سيكون التداعي المحلّي للثقة بأهمّية الحماية البريطانيّة عميقاً. أوصى المسؤولون التابعون لماكميلان بمواجهة المشكلة مباشرة. وصرّحوا بأنّه يفترض على الحكومة "إعلان إنهاء الاتفاقيّة نتيجة الأعمال السعوديّة، وإعادة احتلال المنطقة، والاستعداد للدفاع عنها ديبلوماسيّاً وعسكريّاً". 385

385 TNA, DO 35/6313, Samuel, ‘Buraimi’, 30 September 1955.

كان البريطانيّون يعلمون أنّ السعوديّين لم يكونوا ليحتلّوا البريمي في 1952 لولا دعم "أرامكو". وكانوا قد وافقوا على الهدنة لأنّهم لم يكونوا واثقين من أنّهم سيحظون بالدعم الأميركيّ في حال نفذ ابن سعود تهديده بإحالة المسألة إلى مجلس الأمن.

تزامن انهيار التحكيم مع اكتشاف بيع الأسلحة السوفياتيّة لعبد الناصر، ولم يناقش مجلس الوزراء خياراته رسميّاً حتّى 20 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد النظر في تقرير صادر عن "الخارجيّة"، حول نفط الشرق الأوسط، يحذّر من انزلاق المنطقة من قبضة بريطانيا "بسبب القوى القوميّة المحلّية، ولأنّ أعداءنا يبذلون جهداً أكبر ممّا نفعله". على هذه الخلفيّة المقلقة، فضّل ماكميلان إبلاغ الأميركيّين بأنهم سيُوقفون المحاكمة، ثمّ التغلّب على وحدة الشرطة السعوديّة دون سابق إنذار للحدّ من احتمال وقوع إصابات. لكنّ إيدن لم يكن واثقا كلياً أن واشنطن لن تحذر السعوديّين من ذلك. وقال إنّه يفضّل "إعادة احتلال المنطقة المُتنازَع عليها أوّلاً، وتقديم تفسير بعد ذلك". وافقه مجلس الوزراء الرأي، وبعد أن توصّل رؤساء الأركان إلى خطّة، وافقوا على "عمليّة بونابرت" بعد يومين، "على أمل نجاحها"، كما كتب وزير الخارجيّة في مذكّراته. 386

386 TNA, CAB 129/78/2, Macmillan, ‘Middle East Oil’, 13 October 1955; TNA, CAB 128/29/35, Cabinet, conclusions, 18 October 1955; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 493, 20 October 1955.

قبل بزوغ الفجر في 26 تشرين الأول/ أكتوبر، خرجت مجموعتان من قوّات السلطان العمانيّة المتصالحة – قوّة عربيّة يقودها البريطانيّون – من المعسكر إلى المنطقة المحايدة، وفاجؤوا الشرطة السعوديّة بينما كانوا يتوضّؤون قبل صلاة الفجر. سيطر البريطانيّون على الواحة بعد معركة شرسة مع رجال القبائل المُوالين للشيوخ الذين اشتراهم السعوديّون، ومواجهة عنيفة بين قائد الكتيبة السعوديّة وضابط بريطانيّ حول صندوق لتوزيع المال. اتّضح أنّ الصندوق يحتوي على ما قيمته

ربع مليون روبية من الجنيهات، ورزمة من الأوراق التجريميّة التي أظهرت أنّ قريشي كان يكذب تحت القسم في جنيف، وأنّ ياسين كان على علم بما كان يفعله. شعر البريطانيّون أنّ ذلك يبرّر قرارهم التخلّي عن التحكيم.

هدّد السعوديّون مجدّداً بالذهاب إلى مجلس الأمن لكنّهم لم يفعلوا. والأفضل من ذلك، بالنسبة إلى ما يتعلّق بالبريطانيّين، هو ردّ الفعل الأميركيّ الذي بقيَ قيد الكتمان، لِما صار يُعرف بـ"حادثة البريمي". فعندما نقل ماكميلان الخبر إلى دالاس شخصيّاً، في وقت لاحق من اليوم نفسه، على هامش اجتماع لـ"الناتو" في باريس، ادّعى أنّه لم يقدّم أيّ إنذار مسبق حتّى يتمكّن نظيره من إنكار أيّ تواطؤ. يبدو أنّ دالاس لم يوافق على هذا التفسير غير المقنع. سجّل مستشار ماكميلان، إيفلين شوكبيرغ، أنّ وزير الخارجيّة "لم يعجبه الخبر، لكنّه لم يكن منزعجاً بشأنه".387

387 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 293, 26 October 1955.

***

بالغ رئيس الوزراء العراقيّ نوري سعيد عندما زعم أنّ السعوديّين أنفقوا مئة مليون جنيه إسترليني سنويّاً على الرشوة والتآمر، لكن الرقم كان ضخماً بالتأكيد. رغم غياب الشفافيّة في الموارد الماليّة للسعوديّة، فإنّ عائداتها النفطيّة ارتفعت منذ مفاوضات المناصفة في 1950، وبلغت نحو مئة مليون جنيه إسترليني في 1955. باقتراض كمّيات كبيرة من المال، صار لدى السعوديّين قدرة أكبر على الإنفاق. لكن لم يكن واضحاً إلى أين يذهب المال. حُدّدت النفقات في ميزانيّة نادرة، نُشرت في آب/ أغسطس 1955، لم يُحتسب فيها سوى نصف دخل البلد، وخُصّصت فيها مبالغ تحت عناوين غامضة مثل "الإعانات القبَليّة" و"المنح الخيريّة" التي كان من الممكن أن تصرف كيفما كان. كلّ ما يمكن تأكيده أنّه في حين بلغت ميزانيّة بريطانيا للشرق الأوسط خمسة عشر مليون جنيه إسترليني (42 مليون دولار)، كان لدى السعوديّين – على حدّ تعبير "وكالة المخابرات المركزيّة" – "أموال لا تأكلها النيران مخصّصة للإنفاق".388

388 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 508, 20 November 1955;

'Aramco, disputed by British and Arab Interests, Courts Favor in Saudi Arabia and Gains Profits', *Wall Street Journal*, 28 June 1956,

قدرت الحصة السعودية من أرباح "أرامكو" بـ270 مليون دولار

Vassiliev, in his *History of Saudi Arabia*,

الرقم المطروح أعلى بكثير: 348 مليون دولار

Philby, ‘The Scandal of Arabia – II’, *Sunday Times*, 30 October 1955; TNA, CAB 129/78/2, Macmillan, ‘Middle East Oil’, 14 October 1955; CIA, ‘Saudi Arabia: A Disruptive Force in Western-Arab Relations’, 18 January 1956.

شكّلت هذه المشكلة محور الاجتماع الأوّل للجنة "حلف بغداد" الذي عُقد في العاصمة العراقيّة في تشرين الثاني/ نوفمبر. فور وصول ماكميلان، فاتحه نوري عن قلقه إزاء تطوّر الوضع في سوريا. في وقت سابق من ذلك العام، ساعد المصريّون والسعوديّون عميلهم القديم شكري القوتلي للفوز في الانتخابات الرئاسيّة. ويبدو الآن أنّ القوتلي يحاول ردّ الجميل لرعاته بالتهديد بقطع أنابيب النفط من العراق إن لم تدفع شركة "نفط العراق" رسوم عبور أعلى لسوريا. قال نوري لماكميلان إنّه مقتنع أنّ سوريا تعمل لدى السعوديّين.[389]

389 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 508, 20 November 1955.

توافق المندوبون على أن البلد الآخر الذي يستهدفه السعوديّون بصورة حثيثة هو الأردن. بعد اغتيال الملك عبد الله في القدس عام 1951، تمكّن طلال بن عبد الله من اعتلاء العرش، لكنّه كان يعاني من مرض عقليّ، وتنازل عنه بعد عامين لابنه حسين البالغ سبعة عشر عاماً. بينما أمضى طلال بقيّة حياته داخل مصحّ، بقيت زوجته الفاتنة، الملكة زين، قوّة لا يُستهان بها في السياسة الأردنيّة. وبعد أن تأكّد للسعوديّين أنّها كانت، على غرارهم، مُعادية للغاية لطموحات الفرع العراقيّ من العائلة، راحوا يموّلون أسلوب حياتها المترف. شعر العراقيّون أنّ "كمّية كبيرة جدّاً من المال الملَكيّ كانت تُنفق على التسوّق".[390]

390 TNA, FO 371/115954, Turton, memorandum, 12 October 1955.

عاد ماكميلان إلى لندن عبر بيروت حيث سمع قصّة مشابهة من الرئيس اللبناني الذي اشتكى أنّ رئيس وزرائه قد أخذ عشرة آلاف جنيه إسترليني من السعوديّين، وتوسّل وزير الخارجيّة البريطاني ألّا يضغط كثيراً بشأن عضويّة "حلف بغداد". بعد عودته إلى لندن، أطلع مجلس الوزراء عمّا حدث، وكتب رسالة إلى إيدن يحدّثه فيها عن انطباعاته، ويحذّره من أنّه "إذا لم نتمكّن من إدخال الأردن الآن في حلف بغداد، سيخرج عن سيطرتنا"، لأنّ البلد، على غرار جيرانه، كان عرضة "للتقويض والإفساد السريع بالمال". كان واثقاً أنّ حسين سيقبل الدعوة، شرط أن تكون مصحوبة بالتهديد؛ إن لم يفعل، ستتوقّف بريطانيا عن دفع المبلغ السنويّ بقيمة اثني عشر مليون جنيه إسترليني المخصّص لتمويل الفيلق العربيّ، الأمر الذي سيترك بلاده بلا حماية في وجه الغزو الإسرائيليّ. وتابع ماكميلان قائلاً إنّ الأهمّ من ذلك هو ضرورة اتّخاذ إجراءات لمنع عائدات النفط السعوديّة من تقويض الدول العربيّة، وإفساح المجال أمام الشيوعيّة. على بريطانيا التعامل مباشرة

مع شركات النفط إن كان أيزنهاور غير راغب أو قادر على اتّخاذ إجراءات للحؤول دون صرف الأموال الأميركيّة على التخريب. ”بدلاً من ذلك، قد تكون مسألة التحرّك الإنكليزيّ–الأميركيّ مخصّصة لإغضاب الملك سعود وإزالة هذه الآفة“.391

391 Yeşilbursa, *The Baghdad Pact*, pp. 143–4.

كان إيدن يخاف من أن يؤدّي انضمام الأردن إلى الحلف إلى زيادة خطر إقحام بريطانيا في حرب مع إسرائيل. وبعد أن أقنعته حجّة ماكميلان بأنّ تهديد الأردن بات يفوق هذا الخطر، غيّر رأيه. في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر، وافق ماكميلان على فكرة شوكبيرغ أن يذهب رئيس هيئة الأركان العامّة، السير جيرالد تِمبلر، إلى عمان لإقناع الملك حسين بالتوقيع على الاتفاقيّة، عبر عرض خمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني سنويّاً، إذا لزم الأمر ذلك. انطلق تِمبلر إلى الأردن بعد ستّة أيّام، قبل وقت قصير من وصول رسالة من دالاس يطلب فيها من لندن ”الانتظار قليلاً“ قبل محاولة تأمين العضويّة الأردنيّة في الحلف. واعترف شوكبيرغ قائلاً: ”إنّها مجازفة كبيرة، فهناك أعداد كبيرة من المصريّين تُناهز عدد الذباب في عمان، الذين يحاولون منع الملك من الانضمام إلى الاتفاقيّة، وعلينا التغلّب عليهم الآن قبل فوات الأوان“.392

392 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIV, p. 821, Dulles to Macmillan, 5 December 1955; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 307, 2 December 1955.

بعد أن قال تِمبلر مرّة للّورد مونتباتن: ”ديكي، أنت مُلتوٍ لدرجة أنّك إذا ابتلعت مسماراً ستتغوّط لولباً“، لا شكّ أنّ اختياره مبعوثاً كان خياراً جريئاً للغاية. كان الجنرال الأوّل لبريطانيا الذي وُصف بأنّه ”رجل يعيش على أعصابه“ و”يحقّق مبتغاه“ بفضل ”سرعة تفكيره وذكائه وشجاعته“ رجلاً أيرلنديّاً صنع اسمه بشنّ تمرّد ناجح ضدّ الشيوعيين في مالايا. كان صوته الخشن وتطلّعه من فوق نظّاراته، واستخدام عصاته الأنيقة ”كسيف الماتادور“، يثير إرباك مرؤوسيه. يتذكّر أحدهم أنّه ”كان يبدو كجنرال خطير“، مُضيفاً أنّ ”استجوابه لي بدأ بضربة من عصاه في أسفل بطني. لم تكن هذه الحركة محبّبة“.393

393 '"A Modern Major General": General Sir Gerald Templer, Chief of the Imperial General Staff', in Kelly and Gorst, eds, *Whitehall and the Suez Crisis*, p. 32; Horne, *But What Do You Actually Do?*, pp. 44–5;

French, *The British Way in Counter-Insurgency*, p. 1.

أخفقت مهمّة تِمبلر إخفاقاً ذريعاً. رغم حرص الملك حسين على الانضمام إلى الحلف، فإنّ الجنرال البريطانيّ أراد التأكّد من أنّ الملك يحظى بتأييد حكومته، وهذا ما لم يحدث. شهد الأردن،

الذي كان خاضعاً في السابق لسيطرة ثلاث قبائل، تحوّلاً ناتجاً عن ضمّ الملك عبد الله الضفّة الغربيّة، وتدفّق اللاجئين خلال حرب 1948. بات الفلسطينيّون الذين حمّلوا البريطانيّين مسؤولية نكبتهم يشكّلون غالبيّة السكّان، وقد استغلّ المصريون ذلك. تبجّح عبد الناصر قائلاً: "بإمكاننا أن نفعل ما نريده في الأردن بفضل موقفنا المُعادي لإسرائيل".[394]

394 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 13 January 1956.

بحلول موعد زيارة تِمبلر، اضطرّ حسين إلى تعيين حكومة تعكس الانقسام في المجتمع الأردنيّ. في أعقاب زيارة جاءت في الوقت المناسب لصديق عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، أصرّ الأعضاء الأربعة في مجلس الوزراء على إحالة المسألة إلى القاهرة قبل اتّخاذ أيّ قرار. في 11 كانون الأول/ ديسمبر، لخّص ماكميلان البرقيّات التي كان يتلقّاها من تِمبلر: "إنّه يسعى جاهداً إلى إدخال الأردن في 'حلف بغداد'، لكنّه لم يتوصّل إلى أيّ نتيجة. إما أن يكون الوزراء خانعين وإما أنهم تلقوا الرشوة من السعوديين. يصف رئيس الوزراء بالجبان". عندما استقال الوزراء الفلسطينيّون الأربعة فجأة، لم يكن لدى رئيس الوزراء أيّ خيار سوى تقديم استقالته. في اليوم التالي، وجد تِمبلر نفسه خالي الوفاض.[395]

395 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 516, 11 December 1955.

لم يبق تِمبلر في عمان أكثر من أسبوع، ولكنّ آثار الصدمة الناتجة عن زيارته تردّدت لشهر إضافيّ. عيّن الملك حسين رجلاً من إحدى القبائل الثلاث التي تقع أقصى الجنوب، يُدعى هزاع المجالي، رئيساً للوزراء. كانت مهمّة المجالي تقضي بضمّ الأردن إلى الحلف. لكن بحلول ذلك الوقت، كانت إذاعة عبد الناصر المدعومة من "وكالة المخابرات المركزيّة"، "صوت العرب"، تشنّ هجوماً عنيفاً. توقّفت هجماتها المستمرّة على "حلف بغداد"، وفي 17 كانون الأول/ ديسمبر، اندلعت أعمال الشغب في الضفّة الغربيّة، وكذلك في عمان ومدينتين أخريين في الجانب الشرقيّ من الأردن. في ظل وجود عدد غير كافٍ من رجال الشرطة، أرسل المجالي الفيلق العربيّ لقمع الاحتجاجات. مات ما لا يقلّ عن خمسة عشر شخصاً. زعم السعوديّون الذين سعوا إلى زيادة الوضع سوءاً أنّ العدد أكثر من ذلك بكثير. أيّاً كان عدد القتلى خدم استخدام القوّات التي تقودها بريطانيا لفرض الأمن مصلحة المروّجين للبروباغاندا المصريّة. وبعد إمضائه خمسة أيّام فقط في منصبه، أُرغم المجالي أيضاً على الاستقالة.

عيّن حسين خليفة له، وحُلّ البرلمان، على أمل تحويل الانتخابات العامّة إلى استفتاء حول العضويّة في "حلف بغداد". في ظلّ الظروف الراهنة، كانت تلك مجازفة هائلة. ومنحه صدور حكم عن المحكمة العليا بأنه لا شرعيّة لقرار الملك حلّ البرلمان، فرصة للتراجع. لكنّ الأنباء التي أفادت بإلغائه الانتخابات أثارت المزيد من أعمال الشغب، وعند اختراق حشد لإحدى الوزارات، استدعت الحكومة مرّة أخرى الفيلق الذي استخدم هذه المرّة الغاز المسيّل للدموع بدلاً من الجولات الميدانية لتفريق الحشد. لم يستتبّ الأمن ـ نوعاً ما ـ إلّا بعد تعيين رئيس وزراء آخر أعلن أنه لن يسعى إلى الانضمام إلى الحلف. لكنّ السياسة الأردنيّة تغيّرت إلى الأبد. التقى وفد فلسطينيّ قادم من مدينة نابلس في الضفّة بالحسين، وقال له: "يا جلالة الملك، هناك مثل عربيّ مأثور يقول إنّ الناس يتبعون دين الملك. اليوم تغيّرت الأمور. الآن نقول إنّ الملك يجب أن يتبع دين الناس".[396]

396 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 13 January 1956.

تأكّدت الشكوك البريطانيّة حول تنظيم السعوديّين أعمال الشغب أكثر فأكثر بعد أيّام قليلة عندما وصلت معلومات استخباريّة إلى لندن مفادُها أنّ قوّة سعوديّة قوامُها ثلاثة آلاف رجل كانت تتحرّك نحو الحدود الأردنيّة. في ذلك الوقت، كانت شعبيّة إيدن التي بلغت نطاقاً ضخماً في السابق قد تبخّرت. كان رئيس الوزراء يتعرّض للانتقاد من جميع الأطراف بسبب افتقاره إلى حسّ القيادة، فأجرى تعديلات على حكومته، ونقل ماكميلان إلى وزارة الخزانة مُستبدلاً به وزير خارجيّة شابّاً، سيلوين لويد. في الوقت نفسه، قرّر إرسال كتيبتين من قوّات المظلّيين إلى قبرص، ووحدات سلاح الجوّ الملَكيّ البريطانيّ المتمركزة في الحبّانية في العراق إلى عمان. حذّر لويد السعوديّين، في حال نفذوا أيّ هجوم، من إرسال قوّات بريطانيّة لدعم الأردن. اعترف ماكميلان في اليوم التالي: "خسرنا الجولة الأولى، لكن اللعبة لم تنتهِ بعد، وعلينا أن نفوز بها". وقال إنّ المخاطر كبيرة للغاية، و"لا تقلّ أهمّية عن الصمود الاقتصاديّ لبريطانيا، لأنّه في حال خسرنا في الشرق الأوسط، سنفقد النفط. وإذا فقدنا النفط، لن نتمكّن من العيش".[397]

397 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 525, 12 January 1956.

أضاف نقلُ السعوديّين إلى الحدود الأردنيّة في الشاحنات التي قدّمتها "أرامكو" نكهة لاذعة على المحادثات الإنكليزيّة–الأميركيّة حول الشرق الأوسط في نهاية كانون الثاني/ يناير 1956. بطلب من إيدن بعد ذكر صحيفة بيت المحافظين، *Spectator*، "وجود نقص كبير في السلطة عند القمّة"، أُجريت مفاوضات وسط توتّرات متنامية بين الحليفين بشأن سياسة الشرق الأوسط. أثار خطاب إيدن

المؤيّد للعرب الذي ألقاه في قصر مانشن في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي غضب الإسرائيليّين، وأزعج دالاس الذي كان يرى على الأرجح أنّ عواقب فشل بريطانيا إزاء العمل بنصيحته، ألّا يدفع الأردنيّين إلى دخول "حلف بغداد"، أمراً متوقّعاً تماماً. من ناحية أخرى، أثار تردّد دالاس في الضّغط على "أرامكو" غضب البريطانيّين. اعتقاداً منه أنّه بإمكان الأميركيّين بذل جهد أكبر أطلعت الحكومة في كانون الثاني/ يناير الصحافة أنّه عند وصول إيدن إلى واشنطن سيتناول مسألة النشاطات التي يمارسها السعوديّون، والتي كانت تعتمد على "الأموال المستمدّة من شركة النفط الأميركيّة، أرامكو". صدرت مقالة أخرى في *Sunday Times* في الأسبوع التالي تتّهم السعوديّين مباشرة باستخدام إتاوات "أرامكو" لإثارة أعمال شغب مناهضة لبريطانيا في عمان.[398]

398 'British Assessment of Middle East', *Observer*, 8 January 1956.

كشفت المحادثات الأوّلية بين مسؤولي الجانبين عن وجود شرخ بينهما حول ما ينبغي فعله بشأن السعوديّة. ألمح البريطانيّون، الذين كانوا يدركون أنّه من مصلحة "وكالة المخابرات المركزيّة" تقسيم المملكة، إلى تغيير النظام، في حين أراد الأميركيّون من حليفتهم العودة إلى التحكيم لأسباب ليس أقلّها خشيتهم من أن تؤدّي الحجّة إلى عرقلة التمديد السلِس للاتفاقيّة حول قاعدة الظهران التي انتهت صلاحيّتها في وقت لاحق من ذلك العام. لكن عند وصول إيدن إلى واشنطن في 30 كانون الثاني/ يناير 1956، وجد أنّ الأجواء قد تحسّنت على نحو ملحوظ. فكان أيزنهاور قد أرسل صديقاً قديماً، هو روبرت أندرسون، إلى الشرق الأوسط للتحدّث إلى المصريّين والإسرائيليّين بشأن السلام، لكنّ أندرسون لم يحقّق تقدّماً كبيراً. كان دالاس يعي حقيقة أنّ اقتراح عبد الناصر الأخير – حول استعداده لإجراء محادثات سلام مع الإسرائيليّين في غضون ستّة أشهر – سيؤدّي إلى زجّ أيّ محادثات في الحملة الانتخابيّة الرئاسيّة. بدأ وزير الخارجيّة يدرس بوضوح خيار التحرّك ضدّ عبد الناصر، والتعامل مع السوريّين في الوقت عينه. وعندما انضمّ أيزنهاور الذي كان يتعافى من سكتة دماغيّة، إلى إيدن ودالاس لمناقشة مسألة البريمي، كان أكثر تعاطفاً مع وجهة النظر البريطانيّة للسعوديّين ممّا كان عليه أيّ من دالاس أو مستشاري "الخارجيّة". قال آيك متأمّلاً: "يجب إيجاد طريقة ما لكسر الجمود، والتغلّب على المستشارين الأشرار الذين يحيطون بالملك"، مُعرباً عن تقديره لتجنب البريطانيّين العودة إلى المحاكمة بموجب الشروط نفسها. كان إيدن قادراً على تقبّل الرغبة الأميركيّة في إجراء محادثات مباشرة مع السعوديّين. غادر واشنطن في 3 شباط/ فبراير بسرور قائلاً: "إنّه أفضل اجتماع أجريناه في واشنطن على الإطلاق".[399]

399 TNA, FO 115/4547, Gardener, letter, 27 January 1956; *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 567, memorandum of conversation, 30 January 1956; TNA, FO 115/4547, minute of the meeting of 30 January 1956; Lucas, *Divided We Stand*, p. 90.

كشفت المحادثات عن معلومة مفيدة أوحت إلى البريطانيّين طريقة للمضيّ قدماً، كانت تتعلّق تحديداً بطريقة جمع السعوديّين أموالهم. على عكس الانطباعات البريطانيّة بأنّ الملك كان يعتمد على "أرامكو" لإعطائه مبالغ أكبر من أيّ وقت مضى مقابل المبالغ المستقبليّة، أوضح الأميركيّون أنّ السعوديّين كانوا في الواقع يقترضون من البنوك الأميركيّة استناداً على "تفويضات ضريبيّة مسبقة" تسمح للبنوك بتحصيل الأموال التي تدين بها "أرامكو" للسعوديّين بصفة ضرائب مباشرة من الشركة. كانت هذه الطريقة المبتذلة تعفي المصرفيّين من التعامل مع السعوديّين، لكنّها كانت تعتمد على ثقتهم الدائمة باستمرار النظام الملَكيّ السعوديّ، والدولة التي قرّر البريطانيّون الآن محاولة تقويضها.400

400 TNA, FO 115/4547.

بعد أربعة أيّام من إخبار إيدن للحكومة، لدى عودته إلى لندن، أنّه وافق أيزنهاور على ضرورة محاولة تحويل الإنفاقات السعوديّة نحو "الطرق والمستشفيات وغيرها"، كتب صحافيّ بريطانيّ مشهور عن هذا الموضوع بالضبط. عملَ سيفتون ديلمر، كبير المراسلين الأجانب في صحيفة *Daily Express*، في مكتب العمليّات الخاصّة خلال الحرب، حيث كان ينشر بروباغاندا سوداء ورماديّة تهدف إلى تقويض المعنويّات الألمانيّة. في رسالة من بيروت عقب زيارة إلى السعوديّة، أبلغ ديلمر بمشاعر الغضب إزاء غياب الطرق والمدارس والمستشفيات، والانتقاد المتزايد لمستشاري سعود، السوريّين والفلسطينيين. كان على رأس المنتقدين شقيق الملك فيصل نفسه، الذي تمّ حثّه أخيراً، خلال زيارة إلى القاهرة، على الإطاحة بأخيه، وفقاً لمزاعم ديلمر. وأنهى رسالته بالقول إنّ التحرّك الحازم من سعود "سيمكّن من تجنّب خطر نشوب تمرّديْن: ذاك الذي يحاول السعوديّون نشره في الأردن والعراق، وذلك الذي سيتسبّبون فيه داخل ديارهم، في السعوديّة".401

401 TNA, CAB 195/14, meeting of 9 February 1956; 'Palace Brains Trust Angers Desert Rebels', *Daily Express*, 13 February 1956.

***

جاء الهجوم البريطانيّ المُضادّ متأخّراً جدّاً لإنقاذ مسؤوله الرئيسيّ في المنطقة، قائد الفيلق العربيّ، غلوب باشا. كان السير جون غلوب، الذي كان محارباً عريقاً خلال الحرب العالميّة الأولى، أشبه ببطل في بريطانيا، لكنّه لم يتآلف أبداً مع الملك حسين. أخذ على عاتقه أن يكون بمنزلة عرّاب

باللباس الكاكيّ للملك، وكان قبل أربع سنوات قد أخذ الشاب البالغ ستّة عشر عاماً لإمضاء يوم في الخارج في حديقة باترسي، حيث فوجئ باكتشاف أنّ الأمير المراهق "لم يكن يرغب أن يشارك في رحلات التسلية أو أن يقصد السكّة الحديديّة ذات المناظر الخلّابة". أصبحت العلاقة متوتّرة بينهما منذ ذلك الحين.402

402 Glubb, *A Soldier with the Arabs*, p. 300.

في ما يخصّ حسين، لم تكن المشكلة الحقيقيّة أنّ غلوب كان عجوزاً متغطرساً، بل أنّه كان صاحب نفوذ كبير، إذ لم يكن الباشا معروفاً بـ"ملك الأردن غير المتوّج" بلا سبب. كان غلوب يستمدّ نفوذه من السيطرة على المال، فقد حصل على دعم بقيمة اثني عشر مليون جنيه إسترليني دفعها البريطانيّون للحفاظ على الفيلق العربيّ، وأنفقها كما أراد. في شرق الأردن القديم، ساهم تجنيده الشباب المتعطلين عن العمل من أسر البدو في منحه شعبيّة كبيرة؛ لكن لجهة غرب الأردن كانت الصورة مختلفة تماماً. فقد كان موقفه الدفاعيّ الصارم في مواجهة الغارات الإسرائيليّة على الحدود مثيراً للجدل، وتحجّجت المعارضة بأنّ البلاد لن تكون حرّة فعليّاً حتّى يُطرَد منها. كان حسين مدركاً لهذه المخاوف، وطلب من غلوب تعريب الفيلق كلياً، وعندما واربَ غلوب إزاء طلبه، ازداد انزعاجه.403

403 Asseily and Asfahani, eds, *A Face in the Crowd*, 30/11 'The Situation in Jordan', n.d., 33/11, 'Report from Amman', 11 March 1956.

في النتيجة، كان موقف غلوب هشّاً حتّى قبل زيارة تِمبلر، لكن تورّط الفيلق العربيّ في قمع أعمال الشغب التي أعقبت ذلك جعله غير قابل للاستمرار. كان الباشا، بكلّ بساطة، هدفاً كبيراً جدّاً لـ"صوت العرب" التي نشرت شائعات غير صحيحة إنّما معقولة جداً حول أنّه كان على وشك شنّ انقلاب. في الأوّل من آذار/ مارس، أي بعد يوم على تقديمه إلى الحسين قائمة بأسماء الضبّاط العرب الذين يُشتبه بولائهم القومي والذين يرغب في إقالتهم، أقاله الملك بدلاً منهم. سألت زوجته لدى وصوله إلى المنزل في وقت مبكر بعد العمل: "هل جرت الأمور على ما يرام اليوم في المكتب؟" أجابها غلوب: "يا عزيزتي، لقد طردني الملك. سنغادر الأردن في السابعة من صباح الغد... ولن نعود إليها أبداً".404

404 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 6 March 1956; Beeston, *Looking for Trouble*, p. 21.

بينما كان غلوب الغاضب يربط إقالته بـ"ملك شابّ يرغب في إدارة عرضه الخاصّ"، سرعان ما توصّل سيلوين لويد، الذي كان في القاهرة في ذلك الوقت في جولة في المنطقة، وإيدن، إلى

الاستنتاج بأنّ العقل المدبّر للانقلاب هو عبد الناصر، وأنّه اختار توقيته لإحداث أقصى قدر من الذلّ، في حين أنّ الرئيس المصري فوجئ في الواقع مثلهم. بحلول 3 آذار/ مارس – اليوم الذي نشرت فيه الصحف الخبر – كان إيدن قد صار "مناهضاً لدوداً لعبد الناصر" الذي شبّهه بموسوليني، على حدّ ما سجّله مستشاره إيفلين شوكبيرغ.[405]

405 TNA, CAB 195/14, meeting of 5 March 1956; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 341, 3 March 1956.

عندما ذهب لويد إلى البحرين، وتعرّض والمُقيم السياسيّ لوابل من الصراخ من مجموعة من الغوغاء الغاضبين، اشتمّ حزب العمل المعارض رائحة الدماء، ودعا إلى مناقشة سياسة الحكومة في الشرق الأوسط. بغية تهدئة مخاوف الملك حسين، كان إيدن يحاول من وراء الكواليس إيجاد ترتيب للعراقيّين ليحلّوا مكان الضبّاط البريطانيّين الذين جُنّدوا للفيلق. ولكن عندما دار النقاش في 7 آذار/ مارس، كان الوقت مبكراً جدّاً لتحديد هل ستنجح هذه الخطّة المتفائلة أم لا. عندما أنهى رئيس الوزراء النقاش الدائر مع الحكومة، اضطرّ إلى الاعتراف بأنّه لم يكن في وضع يسمح له بالإفصاح عن سياسة الحكومة في الأردن، وذلك بعد أسبوع تقريباً من إقالة غلوب. لم يكن لديه أيّ سبب جوهري ليقدّمه، ولذا لجأ إلى الإساءة الشخصيّة بدلاً من ذلك، مُتّهماً زعيم المعارضة، هيو غايتسكيل، بأنّه الناطق بلسان موسكو.

كان بإمكان شوكبيرغ الجالس على منبر المسؤولين، إلى جانب كرسيّ الرئيس، متابعة كلّ ما يجري. كتب فوراً بعد الاجتماع أنّ إيدن بدا "مضعضعاً تماماً"، واصفاً رئيسه القديم بأنّه كان يبدو "عدوانيّاً، واستفزازيّاً، وغير موضوعي وضعيفاً في الوقت نفسه". حتّى أنّ كلاريسا، زوجة إيدن الوفيّة، وصفت أداء زوجها بأنّه "كارثيّ". لكن ما جرحَ مشاعر رئيس الوزراء فعليّاً هو الهجمات العامّة التي تلقّاها من الصحافة في اليوم التالي.[406]

406 TNA, CAB 195/14, meeting of 5 March 1956; Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 341, 3 March 1956.

أظهر النقاش أنّه بعد أحد عشر شهراً تقريباً من تولّيه رئاسة الوزراء، كان إيدن محاصراً تماماً، وقد شكّل ذلك نقطة تحوّل لرئيس الوزراء. ففي حين أنّ تهديد المال السعودي هو الذي دفع ماكميلان في الواقع إلى الضّغط من أجل توسيع حلف بغداد، ما خلق ضغوطات في الأردن أجبرت الملك على إقالة غلوب، كان إيدن مقتنعاً بأنّ عبد الناصر هو العقل المدبّر لإقالة باشا. وكان يخشى

من أن يكون الزعيم المصريّ عدوّاً له أيضاً. ”إمّا هو وإمّا نحن، لا تنسَ ذلك“، هذا ما قاله لشوكبيرغ بعد بضعة أيّام.[407]

[407] Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 346, 12 March 1956.

مع ذلك، كان لدى إيدن كلّ الأسباب التي تدفعه إلى الشعور بالثقة بأنّه سيفوز بعمليّة الثأر هذه. ذلك أنّه ظهرت، من الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، علامات تحوُّل جذريّ في التفكير الأميركيّ أيضاً. سجّل شوكبيرغ في مذكّراته في اليوم التالي للمناقشة: ”اليوم، فقدنا، نحن والأميركيّين، أيّ أمل يرتجى من عبد الناصر، وبدأنا نبحث عن وسائل لتدميره“.[408]

[408] Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 345, 8 March 1956.

18

التخلّص من عبد الناصر

في 6 آذار/ مارس 1956، عشيّة أداء إيدن الكارثيّ في مجلس العموم، عاد مبعوث الرئيس أيزنهاور، روبرت أندرسون، من القاهرة إلى الشرق الأوسط، حاملاً بعض الأخبار السيّئة. فقبل ذلك بيوم، بعد لقاء مع عبد الناصر، استبقى رئيس الوزراء المصريّ كيم روزفلت. "ما الذي قاله السيد أندرسون؟" سأل ضابط "وكالة المخابرات المركزيّة" إذ كان غير قادر على فهم لكنة أندرسون التكساسيّة. أوضح له روزفلت: "أعتقد أنّه يفترض أنك وافقت على مقابلة بن غوريون لحلّ جميع خلافاتك".

"لا يمكنني فعل ذلك أبداً"، قال عبد الناصر، "سأتعرّض للاغتيال". وأصرّ عليه قائلاً: "اذهبْ وأوقفْه. لا تدعْه يرسل هذه البرقيّة!" في اجتماع آخر مع أندرسون في ذلك اليوم، حدّد موقفه على نحو أكثر وضوحاً. فخوفه من التعرّض للقتل يعني أنّه عدا رفضه الاجتماع مع بن غوريون، لن يصرّح أيضاً بتأييده اتّفاق سلام مع إسرائيل.[409]

409 Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 100.

كان ذلك مهمّاً، لأنّ الأميركيين افترضوا أنّ عبد الناصر سيفعل ذلك. فقد كانت جهودهم المستمرّة لتعزيز مكانته، في مواجهة المعارضة البريطانيّة المتصاعدة، تستند إلى الاعتقاد بأنّ العالم العربيّ لن يقبل اتّفاق سلام مع إسرائيل إلّا إذا صدر الاقتراح عن عبد الناصر شخصيّاً. في 6 آذار/ مارس، صار من الواضح أنه كان هناك سوء فهم أو أنّ رئيس الوزراء المصريّ قرّر أخيراً، وفق اعتقاد أندرسون، الاعتراف بأنّه لا يعتزم فعل ما أراده الأميركيّون، لأنه كان يخشى إثارة ردّ فعل عنيف في العالم العربيّ. واختتم الأميركيّ حديثه قائلاً: "أعتقد أنه لا جدوى من أيّ محادثات إضافيّة".[410]

410 *FRUS*, 1955–57, Vol. XV, p. 307, Anderson to Dulles, 6 March 1956.

وافق أيزنهاور على أنّ خطّة Alpha للسلام انتهت. كتب بعد يومين: "وصلنا إلى نقطة بدا فيها أنّ مصر، في عهد عبد الناصر، لن تتّخذ أيّ خطوة على الإطلاق للقاء الإسرائيليّين في محاولة لتسوية الخلافات المعلّقة". حدّد دالاس، الذي كان حينذاك في كراتشي مع لويد لحضور مؤتمر،

المعنى الضمنيّ لذلك، فقد نقل وزير الخارجيّة البريطانيّة عن نظيره الأميركيّ قوله إنّه ‘‘ما لم يفعل عبد الناصر شيئاً في الوقت القريب، فسيتعيّن علينا ’التخلّي‘ عنه‘‘.[411]

[411] Ferrell, ed., *The Eisenhower Diaries*, p. 318, 8 March 1956; Lucas and Morey, ‘The Hidden “Alliance”’, p. 103.

كانت هذه البرقيّة ذات أهمّية حاسمة، لأنّ إيدن قرأ ‘‘التخلّي‘‘ بمعنى أنّ الإدارة تفكّر في التخلّص من عبد الناصر، وهذا ما كان يريده. في النتيجة، كانت تنطوي البرقية على السبب الأساسيّ لأزمة السويس.

***

كان رئيس الوزراء ومجموعة داخليّة من المسؤولين يفكّرون في إحداث انقلاب، منذ تلقّيهم معلومات في أواخر العام الماضي بأنّ عبد الناصر وعدَ أيضاً بتأميم الاقتصاد المصريّ مقابل الأسلحة السوفياتيّة التي تسلّمها. اكتسبت مناقشاتهم زخماً جديداً في آذار/ مارس، بعد أن أبلغ السفير البريطانيّ لدى القاهرة بمزيد من المعلومات السرّية عن تخطيط عبد الناصر لخوض حرب مع إسرائيل، على الأرجح بمجرّد مغادرة آخر القوّات البريطانيّة لقاعدة السويس في حزيران/ يونيو. كان هذا احتمالاً مثيراً للقلق، لأنّ بريطانيا، إلى جانب الولايات المتحدة وفرنسا، التزمت بموجب الإعلان الثلاثيّ لعام 1950 ضمان الحدود الفعليّة بين إسرائيل وجيرانها، التي أرستها الهدنة في 1949. فإن وقع هجوم من مصر، فستضطرّ بريطانيا إلى الدفاع عن إسرائيل ضدّ حلفائها العرب السابقين. وصف إيدن احتمال الاضطرار إلى الوقوف إلى جانب إسرائيل بـ‘‘المروّع‘‘، لأنّه سيدمّر التحالفات الباقية لبريطانيا في العالم العربيّ؛ كانت تلك عمليّة حسابيّة لافتة قياساً بما سيحدث في وقت لاحق من ذلك العام.[412]

[412] TNA, CAB 195/14, meeting of 21 March 1956.

بما أنّ لويد كان في طريق عودته من كراتشي، كان وزيره المبتدئ أنطوني نوتينغ هو الذي صاغ المذكّرة التي وضعت خطّة لعزل عبد الناصر دوليّاً، وتقويضه داخلياً. ولعزل الزعيم المصريّ، اقترح نوتينغ دعماً إضافيّاً لحلفاء بريطانيا في ‘‘حلف بغداد‘‘، ما أدّى إلى تقريب الأنظمة الملَكيّة الهاشميّة في العراق والأردن بعضها من بعض، والسعي إلى ‘‘إعادة ترتيب الأمور‘‘ في سوريا، وفصل السعودية عن مصر. ولجعل الحياة صعبة على عبد الناصر في الداخل، سيشجّع البريطانيّون

السودانيّين على إثارة المشكلات بشأن مياه النيل، والتراجع عن عرضهم تمويل تكاليف بناء سدّ أسوان، وتشجيع خصومه على الإطاحة به.

عندما اطّلع إيدن على محاولات نوتينغ، لم يعجبه الأمر. تتبّع مكان صاحب البلاغ وصولاً إلى سافوي، واتّصل بالفندق، وطلب مكالمة وزيره عبر الهاتف. عندما رفع نوتينغ السمّاعة، قال له: ”هذا أنا. ما كلّ هذا الكلام الفارغ الذي أرسلته؟ لا أوافق على كلمة واحدة منه“. عندما قال نوتينغ إنّه عملَ بموجب تقريره، لم يكن إيدن راضياً. ”لكن ما كلّ هذا الهراء حول عزل عبد الناصر أو ’تحييده‘، كما تسمّيه؟ أريد قتله، ألا يمكنك أن تفهم ذلك؟“[413].

413 Nutting, *No End of a Lesson*, p. 34.

في الأساس، قال ناتينغ إن إيدن أخبره أنه يريد القضاء على عبد الناصر؛ بعد وفاة إيدن، قال إن إيدن استخدم كلمة ”قتله“.

في 21 آذار/ مارس، أخبر لويد العائد من كراتشي الحكومة أنّ هناك حاجة إلى اتّباع سياسة جديدة تجاه عبد الناصر. وأوضح أنّه عرض صفقة على القائد المصريّ في القاهرة: إن وضعت مصر حدّاً للبروباغاندا المُعادية لبريطانيا، فلن تضغط الأخيرة لتوسيع ”حلف بغداد“. وتابع قائلاً إنّه منذ ذلك الحين أظهر الهجوم، الذي شنّته إذاعة ”صوت العرب“ على موقع بريطانيا في مستعمرتها العربيّة الجنوبيّة في عدن ودول الخليج، أنّ عبد الناصر قد رفض عرضه. صرّح وزير الخارجيّة قبل الاطّلاع على عناصر خطّة نوتينغ التي تضمّنت ”البحث عن نظام بديل“: ”إذاً، علينا به، سيكون خصماً رائعاً“. لا بدّ أنّ كلّ الجالسين على الطاولة المستديرة كانوا يعرفون ما يعنيه هذا. ذلك أنّه بعد إقرار إيدن بسخرية أنّ الخيارات قد ناقشتها ”مجموعة أصغر“، أعلن وزير آخر، اللورد ساليسبري، أنّه يدعم السياسة الجديدة. قال: ”احذفه... وودّعْه“، مُضيفاً: ”من المؤسف أنّنا لم نقرّر اتّخاذ هذا التوّجه من قبل“.[414]

414 TNA, CAB 195/14 meeting of 21 March 1956.

***

في هذه الأثناء، كان دالاس في واشنطن يصوغ خطّته الخاصّة التي أطلق عليها اسم Omega بعد إخفاق مبادرة Alpha. كان جزء كبير منها يعكس التفكير البريطانيّ، لكنّها كانت تختلف تماماً في جانب مهمّ منها. فعلى عكس ما افترضه إيدن، بـ”التخلّي“ عن عبد الناصر، لم يكن دالاس يعني الإطاحة به. ما كان يدور في باله بالأحرى هو نقل الدعم الأميركيّ إلى زعيم دولة عربيّة أخرى، في حال لم يتحسّن سلوك عبد الناصر بسرعة. سيجد عبد الناصر نفسه مهمّشاً.

يبدو أنّ تلك كانت فكرة أيزنهاور. أُعجب الرئيس برواية أندرسون حول كيفيّة سعي عبد الناصر إلى قيادة العالم العربيّ عن طريق تزعم الموقف المعارض لإسرائيل، ثمّ بالمعلومات السرّية الإضافيّة التي زوّده بها إيدن، والتي زعمت أنّ رئيس الوزراء المصريّ كان يخطّط للإطاحة بالممالك الهاشميّة والليبية والسعوديّة في نهاية المطاف، ولذا اقترح على وزارة الخارجيّة "المباشرة في خلق شخص آخر" لعرقلة مخطّطات عبد الناصر. قال آيك: "خياري الشخصيّ للمنافس هو الملك سعود". 415

415 Ferrell, ed., *The Eisenhower Diaries*, p. 323, 28 March 1956.

صار ذلك أشبه بفكرة محورية. فعلى غرار فرانكلين روزفلت من قبله، أعرب آيك عن أمله في أن يصير الملك السعوديّ "القائد الروحيّ" للعالم العربيّ. كانت المشكلة أنّ هذه الرؤية تضع الولايات المتحدة على مسار تصادميّ مع نظرائها البريطانيّين، وقد صارت هذه الحقيقة واضحة عندما وصل اثنان من جواسيسهم إلى لندن لإجراء محادثات مع جهاز المخابرات البريطانيّ.

كان لكلّ من جايمس إيشلبيرغر وبيل إيفلند خبرة كبيرة في الشرق الأوسط. خدمَ إيشلبيرغر في القاهرة بصفته أوّل رئيس لمحطّة "المخابرات المركزيّة الأميركيّة" بعد انقلاب "الضبّاط الأحرار". حدث أوّل لقاء له مع إيفلند الذي كان يعمل حينذاك في مجلس مراقبة العمليّات، الذي يدير العمليّات السرية لـ"مجلس الأمن القومي"، عند وصول الأخير إلى القاهرة أواخر 1954 موكلاً بمهمّة منحوسة للتحقّق من مطالب النظام الجديد بشأن الأسلحة. على عكس معظم أقرانه الذين جاؤوا من الساحل الشرقيّ، أتى إيفلند من مدينة سبوكين للتعدين في ولاية واشنطن، وكان مدركاً جدّاً لأصوله المتواضعة ومصمّماً على إخفائها. لدى نزوله عن متن الطائرة في القاهرة، مُرتدياً بذلة من ثلاث قطع وقبّعة هومبورغيّة النوع، حدّق إيشلبيرغر فيه مندهشاً، وصفّر قائلاً: "يا إلهي! إنّه يرتدي زيّاً فاخراً". 416

416 Wilford, *America's Great Game*, p. 220.

من المحتمل أن يكون إيفلند قد أثار سخرية زملائه، لكن كونه كان يتكلّم العربية بطلاقة كان أكثر كفاءة منهم بكثير. عندما شهدت السياسة السوريّة مجدّداً، بعد مرور عام، حالة من الاضطراب، كان هو الرجل الذي أرسله كيم روزفلت إلى سوريا لدعم ضبّاط "المخابرات المركزيّة" الذين كانوا يحاولون وقف الانجراف المُقلِق للبلاد إلى أحضان الروس. بما أنّ تغيير النظام في سوريا كان

وارداً في خطط كلّ من نوتينغ ودالاس، كان جليّاً أنّ إيفلند هو الرجل المناسب للانضمام إلى إيشلبيرغر في مهمّته في لندن.

جاء الرجلان بدعوة من سيلوين لويد الذي اعترف في اجتماع مجلس الوزراء في 21 آذار/ مارس أنّ الحكومة البريطانيّة لا تستطيع الإطاحة بعبد الناصر وحدها، وستحتاج إلى دعم فوستر دالاس وآيك لفعل ذلك. كما كانت الحال مع مصدّق قبل أربع سنوات، واعتقاداً منه أنّ السبيل لتحقيق ذلك هو إقناع ألِن دالاس أوّلاً، سعى وزير الخارجيّة إلى إقناع الأميركيّين مرّة أخرى، بالتلميح إلى أنّ "المخابرات المركزيّة" وجهاز المخابرات البريطانيّ قد يتوصّلان إلى تقييم مشترك للمعلومات المخابراتيّة المتوفّرة.

في 31 آذار/ مارس، وصل إيفلند وإيشلبيرغر إلى مقرّ المخابرات البريطانيّة في وستمنستر للقاء جورج يونغ، مدير عمليّات الشرق الأوسط التابع لجهاز المخابرات. كان سكوت صاحب الشعر الأحمر و"الرجل الكبير، العنيف المظهر"، وفق وصف إيفلند له، أحد "بارونات اللصوص" الذين كانوا يديرون جهاز المخابرات. جُنّد في المخابرات البريطانيّة بعد الحرب، وكان قد صنع اسمه كرئيس مغامر لمركز فيينا قبل أن يكون شاهداً على أعمال الشغب نهار "السبت الأسود" في القاهرة في كانون الثاني/ يناير 1952. علّق لاحقاً باقتضاب: "عندما اشتعلت مباني المجلس البريطانيّ، كانت الرائحة أشبه برائحة البخور التي تدخل خياشيم الله". وقال: "لم يكن هناك صوت أكثر سلاسة للأذن العربيّة من صوت تحطّم الزجاج".[417]

[417] Eveland, *Ropes of Sand*, p. 169; Cavendish, *Inside Intelligence*, p. 195; Dorril, *MI6*, p. 569.

عرض يونغ نظرة قِسمه إلى الوضع. كانت سوريا والسعوديّة ومصر تهدّد جميعها بقاء بريطانيا، ولكن بما أنّه لم يكن من الممكن معالجة مشكلة عبد الناصر فوراً، كانت سوريا الأولويّة. وبما أنّ الإطاحة بالرئيس القوتلي وحكومته ستثير، بلا شكّ، ردّ فعل سعوديّاً مُعادياً، لأنّ القوتلي كان أحد عملاء الرياض، فإنّ التغيير الدائم في سوريا يتطلّب أيضاً الإطاحة بالملك سعود واستبدال ملك هاشميّ به. أخيراً سيتعامل البريطانيّون مع عبد الناصر الذي ادّعى يونغ أنّه متواطئ على نحو وثيق مع الروس.

لم يعرف إيفلند وإيشلبيرغر ما الذي سيفعلانه بعرض يونغ. بالعودة إلى فندق كونوت في مايفير (لم يوفر إيفلند أيّ مصاريف عندما كان دافع الضرائب الأميركيّ يدفع الفاتورة)، اتّفقا على أنّ ما

سمعاه للتوّ كان مجرّد "جنون" هدفه في رأيهما استفزازهما للكشف عن تفاصيل ما يخطّطان له للإطاحة بحكومة سوريا.[418]

[418] Eveland, *Ropes of Sand*, p. 170.

قال يونغ ذات مرة: "إنّ المهارة الاحترافيّة للتجسّس هي استغلال الضعف الإنسانيّ". إذا كان الأمر كذلك، فقد كان إيفلند جاسوساً أفضل منه. بعد أن لاحظ أنّ ضعف الجاسوس البريطانيّ يكمن في رغبته في إثبات خطأ الآخرين، ادّعى الأميركيّون أنّ تجربته الأخيرة في سوريا تعني أنّه كان يعرف النتيجة أفضل من يونغ.[419]

[419] Young, *Who Is my Liege?*, p. 31.

لم يتمكّن يونغ من مقاومة غريزته التي دفعته إلى تصحيح معلومات إيفلند، ما دفعه إلى الكشف عن الخطّة البريطانيّة. فأوضح أنّ الحوادث على الحدود التركيّة، والتحريض العراقيّ للقبائل الصحراويّة السوريّة، والأنشطة التخريبيّة التي يمارسها حزب "الشعب" السوريّ المتمركز في لبنان، ستخلق حالة فوضى داخل سوريا، ما سيعطي العراقيّين ذريعة للتدخّل. في اليوم التالي، استخرج إيفلند التفصيل المهم الأخير من يونغ، بتعليقه على مدى اعتماد خطّته على العراقيّين. وتابع قائلاً إنّ اعتقادهم بإمكانيّة التخلّص من عبد الناصر مجرّد أمنية. مرّة أخرى لم يتمكّن يونغ من مقاومة الإغراء، فهزّ برأسه وأخبر إيفلند أنّه نسيَ "المختونين" – التسمية الازدرائيّة التي كان يستخدمها للدلالة على الإسرائيليّين – الذين كانوا سيشنّون عمليّات خاصّة ضدّ أهداف عسكريّة مصريّة، ويهاجمون غزّة ومناطق أخرى على طول الحدود. في مساء ذلك اليوم، بينما كان يونغ يرمقهما بنظرات تهديديّة من الخلف، أرسل إيفلند وإيشلبيرغر برقيّة عاجلة إلى واشنطن لتحذير أِلن دالاس من أنّ "خططنا للتوصّل إلى تسوية سلميّة في المنطقة صارت الآن في مأزق حقيقيّ".[420]

[420] Eveland, *Ropes of Sand*, p. 171.

كان من المقرّر أن يسافر أِلن دالاس إلى لندن مع كيم روزفلت لإجراء المزيد من المناقشات. كان يدرك أنّه إن فعل ذلك، فقد يبدو أنّه يؤيّد الإستراتيجيّة البريطانيّة، ولذا ألغى رحلته بحجّة التعرّض إلى هجمة حادة من التهاب المفاصل. ذهب روزفلت إلى لندن بمفرده. وللتخفيف من روع البريطانيّين، وافق على الحاجة إلى إجراء تغيير للحكومة في سوريا، لكنّه رفض خططهم لإزالة الملك سعود وعبد الناصر. على عكس ما حدث في طهران عام 1953، لاحظ بحذر شديد أنّه لم يكن هناك رجل آخر ليجمع المصريّين حوله. حصل لويد على رسالة مفادُها أنّ "المخابرات

المركزيّة" كانت "مشكّكة أكثر من البريطانيين على ما يبدو... حول إمكانيّة تنفيذ العمليّة". ولذا أخفقت محاولته إقناع الأميركيّين بدعم الخطّة البريطانيّة.421

421 Wilford, *America's Great Game*, p. 224.

***

لم يكن إيفلند وإيشلبيرغر مقتنعين بأنّ أداء روزفلت سيمنع جهاز المخابرات البريطانيّ من الاستمرار بالتحرّك منفرداً، ولذا استلما زمام الأمور بنفسيهما. فأرسل إيشلبيرغر رسالة إلى عبد الناصر في القاهرة يحذّره فيها من أنّ البريطانيّين "مصمّمون على الانقلاب عليه كما فعلوا مع مصدّق". في غضون ذلك، عاد إيفلند إلى بيروت. في 3 أيار/ مايو، كان يحتسي كأساً في فندق سان جورج مع مراسل صحيفة *New York Times*، عندما علم بصدور مقالة في *Daily Telegraph* في ذلك اليوم، تفيد بأنّ السوريّين أبرموا صفقة أسلحة كبيرة مع التشيك قبل نحو ستّة أسابيع. تذكّر إيفلند اعتقاد زملائه في "المخابرات المركزيّة" بأنّ مراسل الصحيفة كان على الأرجح عميلاً متواطئاً مع جهاز المخابرات البريطانيّ، ولذا ساورته شكوك في أن تكون المقالة مُفبرَكة عمداً لتمهيد الطريق لشنّ عمل عسكريّ وشيك في البلاد، وقد شعر بأنّ رؤساءه في واشنطن لم يكونوا يُولون ذلك أهمّية كافية.422

422 Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, p. 118.

عرف إيفلند أنّ ألِن دالاس يقرأ *New York Times* كلّ صباح وهو في طريقه إلى العمل. لذلك، كان الأمر يستحقّ تزويد مراسلها في بيروت ببعض المعلومات. بما أنّه عاد للتوّ من رحلة عبر سوريا، كان قادراً على إخبار الصحافيّ قطعاً أنّه لم يرَ أيّ دليل على الإطلاق على وجود الدبّابات المئتين والعربات المدرّعة التي زعمت الصحيفة البريطانيّة أنّ السوريّين قد اشتروها للتوّ. عنونت الصحيفة المذكورة في اليوم التالي: "شكوك حول الصفقة السوريّة".

كان ألِن دالاس قلقاً من ألا تكون خطط بريطانيا "واقعيّة بالكامل أو قادرة على تحقيق النتائج المرجوّة"، فاستدعى إيفلند إلى واشنطن في أواخر أيار/ مايو. هناك، عبّر الجاسوس عن قلقه من أن يكون البريطانيّون "يورّطوننا في عمليّة غير مدروسة جيّداً، وقد لا يتمكّن المحافظون السوريّون من تحمّلها". لذا، أمر دالاس مسؤوليه بإخبار بريطانيا والعراق بأنّ الولايات المتحدة تعارض أيّ إجراء سرّي في سوريا، فيما عاد إيفلند إلى سوريا لتقييم الطريقة الأفضل لتنفيذ الانقلاب.423

423 Eveland, *Ropes of Sand*, p. 181; Wilford, *America's Great Game*, p. 224.

صارت مهمّة إيفلند محصورة في اختيار أيّ من المرشّحين المحتملين يمكن للولايات المتحدة دعمه: الديكتاتور السوريّ السابق أديب الشيشكلي أم وزير الخارجية السابق ميخائيل إليان. في طريق عودته من رحلته الاستطلاعيّة في شمال سوريا، رصد ضابط "المخابرات الأميركيّة" الشيشكلي الذي كان يُفترض أن يكون في المنفى في إسبانيا، في بلدة في سهل البقاع شرقي لبنان. كان يعمل الآن مع العراقيّين، و"الشعب" السوريّ الذي كان يؤيّد الاتّحاد بين سوريا والعراق. هذا ما جعل إيفلند يتساءل بحقّ هل البريطانيّون متورّطون معه أيضاً. كان إليان صديقاً جيّداً للوصيّ العراقيّ، عبد الإله، لكن إيفلند رآه لمدة كافية ليشعر بأنّ المراهنة عليه هي الخيار الأضمن. كان وزير الخارجيّة السابق، وهو مسيحيّ من حلب، يتوقّع ألّا تستمر الحكومة الحاليّة طويلاً، وكان يتوقّع أن تكون خليفتها خاضعة لسيطرة اليمين، وأن تضمّ رجلين يقوم على تعيينهما. فأبلغ إيفلند واشنطن بعد أن اطمأن إلى الأمر أنّه من الأفضل الانتظار.

وفقاً لما تنبّأ به إليان، انهارت الحكومة، لكنّ اليمينيّين لم يتمكّنوا من تشكيل حكومة بمفردهم. استمرّت رحلة سوريا اليساريّة عندما مَنحت حكومة ائتلافيّة جديدة وزارتين رئيسيّتين – الشؤون الخارجيّة والاقتصاد – لـ"حزب البعث القوميّ الاشتراكيّ" الذي بدأ يحظى بشعبيّة متزايدة بعد أن تعرّض للتهميش خلال عهد الشيشكلي. عندما دُعيَ الوزيران البعثيّان إلى الاتّحاد مع مصر، ودعاهما وزير الخارجية السوفياتي إلى الزيارة، اضطرّ الأميركيّون إلى إعادة النظر في فكرة الانقلاب. سارع كيم روزفلت وابن عمه إليان، الذي عمل أيضاً مع "المخابرات المركزيّة"، إلى دمشق للقاء إليان وتقديم المساعدة التي يحتاجها. تذكّر إيفلند شعور السعادة الذي غمر إليان عندما سمع بقدوم روزفلت. قال: "لطالما كان معجباً بفرانكلين ديلانو روزفلت، وإنّ مقابلة أبنائه ستكون مناسبة لعيش لحظة تاريخيّة عظيمة". يذكر إيفلند بأنّه "تغاضى عن هذا التعليق" لأنّ الحقيقة ستكون مخيّبة للآمال.[424]

[424] Eveland, *Ropes of Sand*, p. 189.

وصل كيم وآرتشي روزفلت إلى بيروت في الأول من تموز/ يوليو، وتوجّها إلى دمشق عبر الجبال. سبق لهما أن خاضا هذه الرحلة للمرّة الأولى عندما ادّعى كيم في 1947 بأنّه صحافيّ، ثمّ مرّة ثانية عندما توجّه في سيّارة محمّلة بالأوراق النقديّة إلى طهران في 1953. في البداية، التقيا رئيس أركان الجيش الذي كان يُفترض أن يشكّل السلطة الحقيقيّة في السياسة السوريّة، لكنّهما اكتشفا أنّه مخيّب للآمال. غير أنّ الاجتماع مع إليان جرى على نحو أفضل بكثير. ردّاً على سؤال

حول ما يحتاج إليه لمنع الشيوعيّين من الاستيلاء على البلاد، قال إليان إنّه يحتاج إلى دعم من بعض كبار الضبّاط العسكريّين، والمحطّتين الإذاعيّتين في دمشق وحلب، وما يكفي من المال لشراء الصحف التي كانت تعمل حينذاك لحساب مصر أو السعوديّة. يتذكّر إيفلند أنّ ما أراد روزفلت معرفته أكثر من أيّ شيء آخر هو هل يمكن تحقيق ذلك بدعم من الأميركيّين فقط. ”لا شكّ“، أجاب إليان. لكن عندما أُقيل رئيس الأركان فجأة، بعد أيّام قليلة، اشتبه إليان في أن يكون قد هُرّب وغادر دمشق إلى بيروت التي تؤمّن له أماناً نسبيّاً.425

425 Eveland, *Ropes of Sand*, p. 190.

كان الهدف الأوسع لمهمّة روزفلت الشرق–أوسطية يقضي بالمباشرة بعمليّة عزل عبد الناصر. من دمشق، ذهب النسيبان إلى عمّان، حيث التقيا في 16 تموز/ يوليو حسين، ملك الأردن. قبل شهر، قاد الملك سيّارته Mercedes الفضّية إلى بيروت للمشاركة في سباق السيّارات في الجبال. في وقت انتشرت فيه شائعات مفادُها أنّ المصريّين والسعوديّين كانوا يخطّطون لإسقاطه، انتهز الفرصة للقاء إيفلند والمطالبة بالحصول على أسلحة. جاء آل روزفلت الآن لرؤية الملك، وإحراز تقدّم بوضع اللمسات الأخيرة على الدفعة الشهريّة التي كان يتركها رئيس محطّة ”المخابرات المركزيّة الأميركيّة“ وراءه في ظرف أبيض، بلا تعليق، عند لقائه الملك نهاية كلّ شهر. من المُفاجئ أنّه أُبلغ بوصول آل روزفلت إلى عمان في *New York Times*. سواء أكان ذلك متعمّداً أم لا، فإنّه وجّه رسالة واضحة إلى لندن مفادُها أنّ الولايات المتحدة باتت تدعم حسين. جرّد هذا الدعم بريطانيا من أيّ ذريعة أخرى لاتّخاذ إجراءات من جانب واحد في سوريا.426

426 ‘US to Reshuffle Envoys to Bolster Role in Mideast’, *New York Times*, 16 July 1956.

***

”يجب توجيه جهودنا نحو فصل السعوديّين عن المصريّين و... نحو جعل السعوديّين يدركون أنّ مصلحتهم معنا، وليست مع المصريّين والروس“، هذا ما كتبه أيزنهاور في آذار/ مارس. في غياب أيّ دعاية إضافيّة، سافر آل روزفلت من عمان للقاء الملك سعود في الرياض، وتنفيذ هذه المرحلة من خطّة آيك.427

427 F errell, ed., *The Eisenhower Diaries*, p. 318, 8 March 1956.

وفي منتصف تموز/ يوليو 1956، التقى آل روزفلت سعود لتحذيره من أنّ المصريّين كانوا يحاولون تدميره، بالتآمر مع أخيه غير الشقيق فيصل.428

428 TNA, AIR 19/0163, Mclean, ‘Notes on Conversation with King Saud, Riyadh’, 22 October 1962; Vitalis, *America's Kingdom*, p. 164; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 6 March 1955, 3 July 1956.

نتيجة لاستحالة تجاهل سعود لما يجري، صارت مهمة روزفلت سهلة. في أيار/ مايو 1955، فكّك مؤيّدوه مؤامرة للإطاحة به، خطّط لها ضبّاط معظمهم من المصريّين المدرّبين. رغم ذلك، وبعد اتفاق توسّط له فيصل، أرسل المصريّون مستشارين عسكريّين لتدريب الجيش السعوديّ في وقت لاحق من ذلك العام. كان السفير الأميركيّ متأكّداً أنّ هدف المصريين "إضفاء الطابع المصريّ على الجيش تحت غطاء المعاهدة المصريّة–السعوديّة، ووضع الجيش تحت سيطرتهم بالكامل ليتمكّنوا من طرد سعود متى أرادوا".429

429 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 28 June 1956.

كانت تداعيات تفاقم النفوذ المصريّ في المملكة واضحة للغاية. فعندما زار عبد الناصر جدّة في وقت سابق من ذلك العام، استقبله السكّان المحلّيون وهم يهتفون: "عبد الناصر، منقذ الإسلام"، "لا إله إلا الله وعبد الناصر حبيب الله". أثارت هذه الحماسة قلق سعود الذي كان يخشى أن يكون "صار من أتباع عبد الناصر، في ما يتعلّق بالسياسة العربيّة، في حين كان يوماً ما زعيماً". ثمّ في حزيران/ يونيو، أثناء زيارة مقرّ "أرامكو" في الظهران، واجه الملك مظاهرة من العمّال السعوديّين الذين حفّزتهم، على حدّ اعتقاد "المخابرات المركزيّة"، البروباغاندا المصريّة. بعد تعرّضه لهذه الإهانة، أصدر سعود عقب أيّام مرسوماً ينصّ على محاكمة أيّ شخص يحرّض على الشركة أو ينظّم إضرابات بالسجن سنتين.430

430 Asseily and Asfahani, eds, *A Face in the Crowd*, p. 157, 131/13,‘Report on Development of Arab political activities in Lebanon in relation to the opposition to and support of the Turkish Alliance’, n.d.

بغضّ النظر عمّا قاله له آل روزفلت، يبدو أنّه كان فعّالاً. فقد قاوم سعود الضّغط الذي مارسه عليه عبد الناصر للاعتراف بالصّين الشيوعيّة كما سبق لمصر أن فعلت في أيار/ مايو. وفي غضون أسابيع، سيطرد البعثة العسكريّة المصريّة من بلاده. وبعد ذلك بمدة قصيرة، سيكفّ عن محاولة تقويض المملكات الهاشميّة في العراق والأردن، بعد أن أدرك أنّ هذا النشاط سيؤدّي إلى نتائج عكسيّة. سأل في خطاب بليغ أدلاه في 1957: "في حال سقوط ملك سيتبعه الثاني، وإلى متى سأستمرّ بعد ذلك؟".431

431 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 10 February 1957.

***

بحلول الوقت الذي عاد فيه آل روزفلت إلى واشنطن، كانت المرحلة الأخيرة من خطّة عزل عبد الناصر على وشك أن تتمّ. أعرب دالاس ولويد عن أسفهما للعرض الذي قدّماه منذ البداية خلال عيد الميلاد السابق للمساعدة في تمويل بناء سدّ جديد في أسوان. لم يكن الأمر مستحبّاً على المستوى المحلّي فحسب، بل أدّى أيضاً إلى مطالبة المصريّين موسكو بالقسم الباقي من الأموال، ما سيزيد احتمال توقيع عقد بناء السدّ مع الروس، وهي النتيجة نفسها التي كان العرض الإنكليزيّ–الأميركيّ يتوخّى إحباطها في المقام الأوّل. مع ذلك، كان البريطانيّون على وجه الخصوص يتردّدون إزاء سحب العرض خوفاً من أن يؤدّي ذلك إلى إثارة ردود فعل انتقاميّة.[432]

432 TNA, CAB 129/82/34, Lloyd, ‘Egypt’, 20 July 1956.

بحلول منتصف تموز/ يوليو، كان من الواضح أنّ الأمور وصلت إلى حدّ فاصل، سواء أأحبّ البريطانيّون ذلك أم لا. في 16 تموز/ يوليو، وصلت أنباء غير مرحّب بها من الولايات المتحدة مفادُها أنّ مجلس الشيوخ ينوي في غضون أربعة أيام تمرير مشروع تعديل قانون المساعدات الخارجيّة للعام التالي على لجنة التخصيصات، ما سيمنحه فعليّاً القدرة على الاعتراض على الحصّة الأميركيّة من قرض أسوان. في السابع عشر من الشهر، ذهب القائد الجمهوريّ في مجلس الشيوخ إلى رؤية دالاس، وحذّره من ”تحمّل تبعات تحرّكه“ في حال مضت الإدارة في العرض. لم يكن لدى دالاس رغبة في التخلّي عن إدارة السياسة الخارجيّة لمصلحة مجلس الشيوخ، فارتجل تصريحاً قال فيه: ”قرّرنا للتوّ إخبار المصريّين أنّنا لن نفعل ذلك“.[433]

433 Lucas, *Divided We Stand,* p. 136.

وجد دالاس ميزة أخرى في التخلّي عن القرض فجأة: فعل ذلك من شأنه القضاء على الروس. فإمّا أن يضطرّوا إلى أن يحذوا حذوه، وإما أن يُوقفوا جهودهم الرامية إلى تعزيز نفوذهم في مصر، أو يتعيّن عليهم دفع الفاتورة بأكملها، وهي خطوة يمكن للولايات المتحدة استغلالها بفضل البروباغاندا في الكتلة الشرقيّة. حاول دالاس عبر الهاتف شرح التوجه الذي كان يفكر فيه لشقيقه الأصغر: ”لن تحصل على الخبز لأنّك تتعرّض للضغط لبناء سدّ“. في صباح التاسع عشر، بعد أن عرض هذه الحجّة على أيزنهاور وحصل على موافقة الرئيس، استدعى السفير البريطانيّ ليبلغه القرار. عندما أجاب السفير، الذي بدا عاجزاً عن تقبّل إطلاعه على الأمر الواقع، أنّ حكومته ”تفضّل أن تمدّد اللعبة وألّا تعرب عن رفض نهائيّ“، ردّ دالاس بأنّه يودّ ذلك أيضاً، لكنّ ”ظروف

الكونغرس“ حالت دون ذلك. بعد الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم مباشرة، استدعى وزير الخارجيّة السفير المصريّ لإطلاعه على الأخبار السيّئة. عندما سمع إيدن ما حدث، قال كما نُقل: ”أتمنّى أنّه لم يفعل ذلك بهذه الطريقة المُفاجئة“.[434]

434 *FRUS*, 1955–57, Vol. XV, p. 867, memorandum of a telephone conversation, 19 July 1956; Kyle, *Suez*, p. 129; Lucas, *Divided We Stand*, p. 137.

أخبر دالاس شقيقه لاحقاً أنّ الديبلوماسيّ المصريّ ”تماسك على نحو مدهش“. وكذلك فعل عبد الناصر. في القاهرة، في 21 تموز/ يوليو، اليوم التالي لامتثال الحكومة البريطانيّة وتصريحها برفضها المساعدة في تمويل المشروع، اتّصل مراسل صحيفة *Sunday Times* برئيس الوزراء المصري للتحقّق من الشائعات السارية حول استيائه الشديد، ملمّحاً إلى أنّها ”أخبار فظيعة“.[435]

435 *FRUS*, 1955–57, Vol. XV, p. 873, memorandum of telephone conversation, 19 July 1956; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 21 July 1956.

أجاب عبد الناصر بتهكّم: ”ليست فظيعة“، قائلاً إنّه توقّع ذلك. ”الأمور ليست سيّئة بقدر ما تبدو عليه“. ولم يلمّح إلى ما سيفعله بعد ذلك.

19

أشبه بأذُن جينكينز[436]

[436] إشارة الى أذن القبطان البريطاني روبرت جينكينز التي اقتُطعت وشكّلت ذريعة للحرب التي عُرفت بأذن جينكينز، بين بريطانيا وإسبانيا، واستمرت من 1739 إلى 1748. (م.)

رغم الشجاعة التي أثبتها عبر الهاتف، كان عبد الناصر يعرف أنّ خسارة القرض الإنكليزيّ–الأميركيّ كارثة. فقد كانت وعوده للشعب المصريّ مرتبطةً بأسوان سواء أكان ذلك من أجل الكهرباء والريّ التي سيوفرهما السدّ الجديد، أم المساحات الشاسعة من الأراضي التي يمكن استصلاحها وزراعتها بمجرّد استثمار النيل. لكن ها هو المشروع قد نُسف. فعدا سَحب الأميركيّين والبريطانيّين تمويلهم، كذلك فعل الروس الذين هربوا من الفخّ الذي حاول دالاس إعداده لهم. والسبب الذي أعطاه وزير الخارجيّة الأميركيّ علانيّة لتغيير رأيه – أنّ مصر ستتنازع من أجل تسديد القرض – كان بمنزلة تذكير مُهين بوضع مصر كدولة من العالم الثالث. كان عبد الناصر بحاجة إلى خلق شيء لإلهاء الرأي العام وبسرعة. ولفرط شعوره باليأس، قرّر تأميم "شركة قناة السويس" رغم اعتقاده أنّه من المرجّح أن تثير هذه الخطوة ردّ فعل عسكريّاً.

أُنشئت هذه الشركة في 1858 لبناء القناة ثمّ إدارتها بموجب تنازل كان سينتهي في 1968 لولا تدخّل عبد الناصر. رغم ميل مديريها إلى زيادة تعقيد عمليّاتها، فإنّها كانت أداة مفيدة، إذ كانت تفرض رسوماً على كلّ عبور مقابل تزويد كلّ سفينة بقبطان لإرشادها. ومع أنّها كانت مسجّلة في مصر، فقد كانت ملكيّة أجنبيّة. في 1875، انضمّت الحكومة البريطانيّة إلى الفرنسيّين البرجوازيّين الذين اشتروا الأسهم في البداية، ما سلب الحاكم المصريّ، إسماعيل باشا، الذي كان يعاني من ضائقة ماليّة، حصّته. عكس هذا الاستثمار اعترافاً بريطانيّاً بأنّ القناة صارت "حلقة في سلسلة الدفاع الإمبراطوريّ"، و"بابنا الخلفيّ إلى الشرق"، كما قال إيدن نفسه في خطاب ألقاه عام 1929. وتابع: "لا ينبغي أن يكون أيّ منا راضياً عن تسليم حماية هذا الشريان الحيويّ، الوريد الوداجيّ، للإمبراطوريّة البريطانيّة، لحسن نيّة الشعب المصريّ".[437]

[437] Thorpe, *Eden*, p. 101.

كانت الصحافة المصريّة قد ناقشت فكرة تأميم القناة بعد استيلاء مصدّق على شركة النفط الإنكليزيّة–الإيرانيّة في 1951، لكنّ وجود بريطانيا المستمرّ على القناة منع الحكومات المصريّة المتعاقبة من متابعتها. لكن بحلول منتصف تموز/ يونيو 1956، كانت الشركة ضعيفة رغم أنّها كانت لا توازي سوى حجم صغير من الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة. بعد أيّام من مغادرة آخر الجنود البريطانيّين مصر في 13 تموز/ يونيو، سجّلت إيرادات قياسيّة قدرها 97 مليون دولار.[438]

438 'Suez Canal Company', *The Times*, 18 June 1956.

كانت تلك القيمة تساوي مئة مليون دولار تقريباً؛ إنّه الرقم الذي عرضه عبد الناصر حين أعلن في خطاب ألقاه في الإسكندريّة في 26 تموز/ يوليو 1956 أنّه سيدفع تكاليف السدّ من أرباح القناة التي كان يؤممها. أعلن: "اليوم، وباسم الشعب، أتولّى إدارة الشركة. الليلة، ستصبح شركتنا المصريّة بإدارة المصريّين. المصريّين!" ثمّ وعد بالتعويض لمُساهمي الشركة بسعر إغلاق اليوم السابق، وصرّح بأنّ مبلغ مئة مليون دولار في السنة الذي ستحقّقه مصر يعني أنّ البلاد لم تعد بحاجة إلى مساعدة ماليّة أجنبيّة على الإطلاق.[439]

439 Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 28.

كانت الحقيقة مختلفة إلى حدّ ما. فما لم يذكره عبد الناصر في خطابه هو أنّ مئة مليون دولار تمثّل الربح الإجماليّ للشركة، في حين كان المبلغ الصافيّ الذي دفعته الشركة لمساهميها بعد اقتطاع إيجار الأراضي والمصاريف الكبيرة والمساهمة في التحسينات المستقبليّة ثلاثين مليوناً فقط. كان هذا كلّ ما ستكسبه مصر فعليّاً سنويّاً بوضع يدها على القناة.

مع ذلك، كان عبد الناصر مُقنعاً بعد ظهر ذلك اليوم، لكن قلّة قليلة من الناس قدّرت التبايُن فوراً. علّق أحد المراسلين البريطانيّين في مصر: "رغم أنّ هذا الإجراء قد يكون موضع إدانة من الحكومة، فإنّه خطوة جريئة ومُبدعة للغاية، ولا بدّ أن تؤدّي إلى زيادة شعبيّته ومكانته بين الدول العربيّة". كان الصحافيّ شبه مُحِقّ، فقد تنبّأ بأنّ بلاده لن تفعل شيئاً حيال ذلك، وأنّ عبد الناصر "سينجو بفعلته".[440]

440 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 26 July 1956.

***

في لندن، لم يسمع أنطوني إيدن الخبر إلّا بعد انتهاء حفل العشاء الذي أقامه في مقرّ الحكومة البريطانيّة للملك الشابّ فيصل الثاني وعمّه عبد الإله ورئيس الوزراء نوري سعيد، بعد الانتهاء

من زيارة رسميّة أجراها الملك. نصح نوري إيدن قائلاً: "اضربْه! اضربْه بقوّة واضربْه الآن". وتابع قائلاً إنّه إن لم يفعل ذلك، فسيفوت الأوان. "إن تغاضيتَ عنه، فسيقضي علينا جميعاً".[441]

441 Horne, *Macmillan*, Vol. I, p. 395.

حينذاك، كان مرض إيدن المُضني قد عاوده، ودخل رئيس الوزراء في دوّامة دوائية من المحفزات والمثبطات التي وُصفت له لمحاربة آلامه وآثارها الجانبيّة وتداخلاتها، ومن بين تلك الآثار الأرق والقلق والإفراط في الثقة وجنون العظمة. بعد هذه المرحلة من المستحيل أن نحدّد بالضبط مدى تأثيرها في صحّة تفكيره، لكن يبدو من العدل الافتراض أنها لم تخفّف قناعته بأنّ عبد الناصر كان يحاول تدميره. كان إيدن يعلم أيضاً أنّ إغلاق القناة سيكون كارثيّاً على الاقتصاد البريطانيّ لأنّ ثلثي النفط البريطاني كان يصل عبرها.[442]

442 Owen, *In Sickness and in Power*, p. 121.

تصادم الخوف والحقيقة في خيال إيدن، فاستنتج بسرعة أنّ عليه التعامل مع عبد الناصر قبل خنق الأخير بريطانيا. أعاد إيفون كيركباتريك، السكرتير الدائم في وزارة الخارجيّة وصاحب الطباع الناريّة، رئيس الوزراء إلى رشده لمصلحة السفير البريطانيّ لدى واشنطن. كتب يقول: "إن لم نبادر إلى التحرّك، في حين يعمل عبد الناصر على تعزيز موقفه ويسيطر تدريجيّاً على الدول التي تحتوي على النفط، فبإمكانه تدميرنا، وهو عازم على ذلك وفقاً لمعلوماتنا". إذا تمكّن عبد الناصر من حرمان بريطانيا نفط الشرق الأوسط المسعّر لـ"عام أو عامين"، فستستنفد بريطانيا احتياطاتها من الذهب بشراء النفط بالدولار. فور نفاد الذهب، سيعجز دائنو البلد الإسترلينيون عن تحويل ائتمانهم إلى الدولار. ستنهار منطقة الجنيه الإسترليني، ومعها القوّة الشرائيّة لبريطانيا في الخارج، وقدرتها على تمويل سلطتها الدفاعيّة. أنهى كيركباتريك كلامه بالقول: "البلد الذي لا يستطيع ضمان الدفاع الذاتيّ ينتهي أمره".[443]

443 Lane, 'The Past as Matrix: Sir Ivone Kirkpatrick, Permanent Under-Secretary for Foreign Affairs', in Kelly and Gorst, eds, *Whitehall and the Suez Crisis*, p. 209.

اختتم إيدن المأدبة، واستدعى رؤساء الأركان والسفير الفرنسيّ والقائم بالأعمال الأميركيّ إلى مقرّ الحكومة في داونِنغ ستريت. هناك، انضمّ إليهم وزراء الحكومة الأربعة الآخرون إلى مأدبة العشاء، لحضور اجتماع استمرّ حتّى ساعة متأخّرة من الليل. استناداً إلى ما قاله أحد مستشاري إيدن ذات مرّة، حول أنّ النبيذ في وقت الغداء يجعل رئيس الوزراء "منشرحاً جدّاً"، فلم تكن هذه الظروف مثالية لإجراء تقييم واضح للأسباب التي دفعت عبد الناصر إلى القيام بما فعله، وتحديد

أفضل طريقة للردّ. لمّح المسؤول الأميركيّ، في التقرير الذي أرسله إلى دياره في الخامسة صباحاً من السابع والعشرين، إلى جوّ الانشراح الذي كان سائداً بعد تناول الطعام. ارتسم لدى البريطانيين "نظرة شديدة الخطورة عن الوضع، وعُبّر عن مشاعر قويّة للغاية، خصوصاً من إيدن، مفادُها أنّه لا يجب السماح لعبد الناصر بتحقيق مراده".[444]

444 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 178, 26 April 1954; Lucas, *Divided We Stand*, p. 142.

في هذا الصدد، عرض رؤساء الأركان أخباراً غير مرحّب بها. فمنذ مغادرة آخر القوّات البريطانيّة السويس قبل ستّة أسابيع صارت القوّات الأقرب متمركزة الآن في قبرص. لكنّها كانت مجهّزة لمحاربة التمرّد الذي طال أمدُه في الجزيرة وليس لعمليّة برمائيّة، وهي حقيقة تأكّد منها عبد الناصر بعناية عبر جواسيسه قبل إعلان استيلائه على القناة. رغم اقتراح سيّد البحار الأول، مونتباتن، تنفيذ إنزال لمارينز البحريّة الملَكيّة للاستيلاء على بورسعيد، اعترف أنّه سيكون من الصعب الحفاظ عليها هناك. فسيتطلّب إجراء عمليّة عسكريّة شاملة ستّة أسابيع على الأقلّ. وبذلك، لن يكون من الممكن اتّباع نصيحة نوري الغريبة.

عندما اجتمعت الحكومة في الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، أوضح إيدن أنّه قد يتّخذ إجراءً عسكريّاً لإزاحة عبد الناصر، وأنّه عليهم الاستعداد لهذا الاحتمال. في هذه المناسبة، قال لزملائه إنّه يعتقد أنّه "كما حدث في المرّات السابقة، ستحذو الولايات المتحدة حذونا إذا أخذنا المبادرة". وأعلن أنّ الهدف من الخطّة العسكريّة يجب أن يكون "القضاء على عبد الناصر".[445]

445 TNA, CAB 195/15, meeting of 27 July 1956.

في نهاية المطاف، ستمر الخطّة العسكريّة التي عُرفت بعملية Musketeer بثلاث مراحل، وكما الحال في الغالب، انتهى بها الأمر تقريباً من حيث بدأت. فبعد أن منحت حملة القصف الجويّ التفوّق للقوّات الإنكليزيّة–الفرنسيّة، ستكون هناك مرحلة ثانية من النشاط الدعائيّ المكثّف، وأخيراً الهبوط في بورسعيد حيث تتمكّن القوّات الإنكليزيّة–الفرنسيّة من التقدّم باتّجاه الجنوب للسيطرة على القناة.

بعد الاجتماع، كتب إيدن إلى أيزنهاور ليخبره أنّهم "لا يستطيعون السماح لعبد الناصر بالسيطرة على القناة بهذه الطريقة"، وأنّه على استعداد لاستخدام القوّة، إذا لزم الأمر، لمنع النفوذ البريطانيّ في جميع أنحاء الشرق الأوسط من أن "يُدمَّر نهائياً". ولإقناع آيك بالتحرّك، قال إنّ التهديد المباشر يطاول إمدادات النفط في أوروبا الغربيّة، وفي هذه الحالة قد تحتاج بريطانيا ودول أخرى إلى نفط النصف الشرقيّ للكرة الأرضيّة. أمّا المضمون غير المعلن لتصريحه، فهو أنّ مثل هذا الطلب

سيؤدّي إلى نقصٍ غير محبّذ في الوقود داخل الولايات المتحدة خلال التحضير للانتخابات الرئاسيّة في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر، مثلما حدث على الساحل الشرقيّ في 1943. [446]

446 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 9, Eden to Eisenhower, 27 July 1956.

طلب إيدن من أيزنهاور إرسال دالاس لإجراء محادثات عاجلة في لندن. لكنّ الأخير كان في أميركا الجنوبيّة، وبادر الرئيس، الذي تأثّر بلقائه مع ألِن دالاس ووكيل وزارة الخارجيّة، هربرت هوفر، اللذين اعتبرا تصرّف عبد الناصر يائساً وليس خبيثاً، إلى إرسال روبرت مورفي، الديبلوماسيّ الذي كان يعمل على نحو وثيق مع ماكميلان شمالي أفريقيا خلال الحرب.

وصل مورفي إلى لندن في 29 تموز/ يوليو لإجراء محادثات مع لويد ووزير الخارجيّة الفرنسيّ كريستيان بينو، ليجد أنّ كلا الرجلين يدفعان باتجاه المباشرة فوراً في الاستعدادات للحرب، لأنّه قد يكون من الضروريّ التحرّك قريباً. كان هذا اللقاء مقلقاً، لكنّ المحادثات مع ماكميلان وإيدن في الثلاثين من الشهر هي التي هزّت المبعوث الأميركيّ حقّاً. قال له ماكميلان إنّه لو اضطرّ الشعب البريطانيّ إلى المشاركة في القتال، فإنّهم "يفضّلون ذلك في هذه القضيّة بدلاً من أن يتحوّلوا إلى هولندا أخرى". أبرق مورفي إلى دالاس في الثانية من صباح اليوم التالي لإبلاغه بالمحادثات. كان الرجلان قد أخبراه أنّهما عازمان على إقالة عبد الناصر، وأنّ قوّة استكشافيّة بريطانيّة ستكون جاهزة لهذا الغرض في غضون الأسابيع الستّة التالية. "إنْ وقفنا معهم من البداية، فستكون احتمالات اندلاع حرب عالميّة ثالثة أقلّ بكثير منه إنْ تأخّرنا". [447]

447 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 61–2, Murphy to Dulles and Hoover, 31 July 1956.

كان أيزنهاور منزعجاً بدلاً من أن يخاف من سلوك ماكميلان المتكلّف. وبفضل تقييم من "وكالة المخابرات المركزيّة" مفادُه أنّه من غير المرجّح أن يعطّل عبد الناصر عمليّات القناة على المدى القصير، في حين أنّ الغزو البريطانيّ سيفعل ذلك بالتأكيد، كتب رسالة إلى رئيس الوزراء وطلب من دالاس تسليمها باليد. وقد حذّر فيها نظيره البريطانيّ من "التهوّر بمجرّد التفكير في استخدام القوّة العسكريّة في هذه المرحلة"، وأصرّ على ضرورة عقد مؤتمر للدول الأكثر تضرّراً أوّلاً. [448]

448 CIA, Intelligence Estimate, ‘Nasser and the Middle East Situation’, 31 July 1956; *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 70, Eisenhower to Eden, 31 July 1956.

أخذ دالاس رسالة آيك معه إلى لندن، لكنّه نسف فوراً مضمونها الذي لا يتحمّل المساومة. فقد أخبر إيدن ولويد، في 1 آب/ أغسطس، أنّ الرئيس أملاها على عجل، ولم يتسنَّ له الوقت الكافي لوضع اللمسات الأخيرة عليها. بما أنّ البريطانيين كانوا يرون أنّ دالاس وليس آيك هو المسؤول

عن السياسة الخارجيّة للولايات المتحدة، تجاهل إيدن ولويد الرسالة واعتبرا أنّ تصريحات دالاس هي التي تمثّل الموقف الأميركيّ.

مع ذلك، كما الحال دائماً، لم يكن تحديد رأي دالاس مهمّة سهلة. فبينما وافق وزير الخارجيّة، الكثير الكلام، على ضرورة منع عبد الناصر من ''تحقيق مبتغاه''، قال إنّه يجب إيجاد طريقة لجعل الزعيم المصريّ ''يتقيأ'' ما استولى عليه للتوّ، مكرّراً تحذير الرئيس. وأضاف أنّ اللجوء إلى التحرّك العسكريّ ''من دون الدعم المعنويّ من الولايات المتحدة، على الأقلّ، سيشكّل ''كارثة كبيرة''. فضلاً عن ذلك خاطر البريطانيّون بالتورّط في حرب العصابات التي سترسل روسيا المتطوّعين لإثارتها. بدا الأمر كأنّ دالاس يرفض التحرّك العسكريّ، في حين أنّه كان، في الوقت نفسه، يُومئ برأسه إيجاباً.[449]

449 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 98–9, memorandum of conversation, 1 August 1956.

مثلما طوّع إيدن استخدام دالاس، قبل بضعة أشهر، لعبارة ''التخلّص منه'' لرغبته الخاصّة، استنتج هو ولويد الآن من الاستخدام المتعمّد والمتكرّر لوزير الخارجيّة كلمة ''التقيؤ'' أنّ دالاس مستعدّ لممارسة الإكراه، واستشهد لويد بها عندما قدّم تقريراً إلى الحكومة في ذلك المساء. وأبلغ زملاءه أنّ دالاس يريد تقديم ''المساعدة والدعم''. ''علينا دفع عبد الناصر إلى 'التقيؤ'''، لم يكن واضحاً ما عناه دالاس بهذه الكلمة، لكن من المؤكّد أنّه كان يريد التأجيل.[450]

450 TNA, CAB 195/15 meeting of 1 August 1956.

استخدم دالاس كلمة ''التقيؤ'' في اجتماع مع آيزنهاور في 31 تموز/ يوليو، ومرة أخرى في لقائه مع لويد قبل الغداء مع إيدن في 1 آب/ أغسطس.

(*FRUS*, 1955–57, Vol. XVI pp. 64, 95).

مع ذلك، وبناءً على تفسيره معنى ''التقيؤ''، وافق إيدن على اقتراح الوزير الذي قُدّم خلال مأدبة الغداء في 1 آب/ أغسطس حول ضرورة عقد مؤتمر للدول المعنيّة، شرط أن يتمّ ذلك بسرعة وألّا تتمّ الموافقة على ما فعله عبد الناصر. لكنّه كان مصمّماً على ألّا يقع في الفخّ كما حدث له بعد طرد غلوب، وأراد إعلان الإجراء عند مناقشة مجلس العموم الأزمة في اليوم التالي. لكنّ دالاس لن يدع إيدن يفعل ذلك. لقد اعتقد أنّه في حال أعلن رئيس الوزراء عقد المؤتمر في جلسة البرلمان، ثمّ واجه أسئلة حول ما سيفعله في حال فشل، من المحتمل أن يقول إنّ بريطانيا ستلجأ إلى القوّة. لذا، راهن على الوقت. فبينما كان إيدن ينصّ خطابه في صباح اليوم التالي، أطال دالاس النقاش المُتزامن مع

لويد وبينو ليحول دون التوصّل إلى أيّ قرار نهائي قبل انتقال رئيس الوزراء إلى الغرفة بعد ظهر ذلك اليوم. قال إيدن متذمّراً بعد اكتشافه ما كان يحدث: ”مشكلة فوستر أنّه ليس مستقيماً“.[451]

451 Kyle, *Suez*, p. 163.

ما إن أنهى إيدن خطابه، أخفى دالاس خلافاته مع لويد وبينو للتمكّن من إصدار البيان الذي يعلن افتتاح المؤتمر في لندن في السادس عشر، في ذلك المساء. غادر دالاس إلى واشنطن، راضياً عمّا أنجزه. كتب إلى أيزنهاور وهو في طريقه لركوب الطائرة: ”أعتقد أنّنا أحدثنا ثغرة مهمّة لإنقاذ هذا الوضع الخطير، وبينما لا يزال الخطر موجوداً، قد نكون نجحنا في إبعاده وصرنا قادرين على التحكّم به أفضل“.[452]

452 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 119, Note 3.

مقارنةً بآذار/ مارس كان الحكم الذي صدر في الصحف في اليوم التالي، بشأن خطاب إيدن، إيجابيّاً. فقد ذُكر دخول إيدن القاعة على صوت الهتافات قبل المضيّ قدماً لتشريح حسابات عبد الناصر، ومقارنة التصريحات المطمئنة التي أدلى بها عبد الناصر حول وضع الشركة مع إجراءاته اللاحقة. قال رئيس الوزراء للمجلس: ”نُسفت هذه التعهّدات الآن. لا يمكن لأحد أن يثق أبداً بكلمة رجل يفعل ذلك“. بعد أن أثار الشكوك حول مصداقيّة عبد الناصر وقدرته على تشغيل القناة في المستقبل إن كانوا سيحتاجون إلى جميع إيراداتها لدفع تكاليف بناء سدّ أسوان، قال إنّه لا يمكن تسليم القناة إلّا لسلطة دوليّة. ثمّ اختتم حديثه قائلاً: ”علينا الإصرار على ذلك؛ هذا هو الهدف الذي نتفاوض من أجله حاليّاً مع القوى الأخرى التي تشعر بقلق كبير“. وتابع: ”لن نقبل أقلّ من ذلك“.[453]

453 HC Deb, 2 August 1956, Vol. 557, cc. 1603, 1608.

لكنّ حجّة إيدن كانت تعاني من نقطة ضعف: لم يفعل عبد الناصر حتّى الآن أيّ أمر غير قانونيّ. فمنذ خطاب 26 تموز/ يوليو، كان الأخير حريصاً على السماح باستمرار عمليّات القناة دون انقطاع. كان يعلم أنّه كلّما مرّ الوقت، كان من الصّعب على بريطانيا وفرنسا التحرّك العسكريّ، ولذا سمح للسفن من جميع الدول بعبور القناة دون عائق، رغم رفض كثيرين دفع أيّ أموال للحكومة المصريّة. هكذا، في حين ذكرت الصّحف أنّ السيّد باتلن منع أيّ مصريّ من المشاركة في مسابقة السباحة السنويّة عبر القناة، وأن جنديّاً في وحدات العمليّات الخاصّة البريطانيّة الهنديّة متسلّحاً بحبل قد سحب سارية البثّ الحيّ عن سطح سفارة مصر لدى لندن، أظهرت استطلاعات

الرأي أنّ غالبيّة البريطانيّين يعارضون التحرّك العسكريّ ضدّ عبد الناصر، حتّى لو رفض قبول الرقابة الأجنبيّة على القناة. في غضون أيّام، ولمجاراة الجوّ العامّ، حدث انعطاف حادّ في موقف حزب العمل المعارض الذي ذهب زعيمه غايتسكيل أبعد من إيدن في النقاش، بتشبيه سلوك عبد الناصر بسلوك هتلر وموسوليني، ما ترك رئيسَ الوزراء وحيداً.454

454 Channel Race Ban on Egyptians', *The Times*, 3 August 1956; 'One Man's War Breaks Out in Mayfair', *Daily Express*, 3 August 1956.

كتب ماكميلان في 9 آب/ أغسطس: ''نحتاج إلى 'ذريعة حرب'... أشبه بأذن جينكينز''. رغم ادّعاء عبد الناصر عثوره على احتياطات الشركة من الذهب، فإنّ إيدن كان يأمل في أن تؤدّي الضغوط الماليّة إلى خلق ذريعة. رغم أنّ سياسة عبد الناصر الحذرة كانت حكيمة، لكنّها أدّت إلى إيرادات تقارب ثلث ما كان ينبغي أن تكون، وكان إيدن يعتقد أنّ ذلك لم يكن مُستداماً. فإمّا أن يبقى عبد الناصر مكتوف اليدين ويعرّض نفسه لسخرية البروباغاندا الإذاعيّة البريطانيّة حول انعدام قيمة ثروته الجديدة، وإمّا أن يرفض السماح بمرور السفن غير مدفوعة الأجر، ما يشكّل ذريعة للتحرّك. لا شكّ أنّ أسباب التفاؤل البريطانيّ تزايدت عندما قال عبد الحكيم عامر، قائد الجيش المصريّ، للصحافيّ البريطانيّ ولعميل جهاز المخابرات البريطانيّ جون سليد بيكر، في الثاني والعشرين: ''لا تقلقوا. النصر لكم!''.455

455 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 586, 9 August 1956; TNA, CAB 195/15, meeting of 14 August 1956; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 22 August 1956. Slade-Baker's connection to MI6 is clear from his diary entries of 28 August and 12 September 1952.

بينما كان إيدن ينتظر ريثما يشعر عبد الناصر بالضّغط، علّق دالاس آماله على الآليّة الديبلوماسيّة التي استمرّت، كما كان ينوي، حتّى آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر. افتُتح مؤتمر لندن في 16 آب/ أغسطس، وانتهى بعد أسبوع. صرّح إيدن غاضباً بعد اكتشافه أنّ وفداً من ممثّليه الذين يحملون اقتراحاً لإحكام السيطرة الدوليّة على القناة لن يصلوا إلى القاهرة قبل الحادي والثلاثين من الشهر: ''آه! يا لهذه التأجيلات! كلّ يوم تأجيل يشكّل مكسباً لعبد الناصر وخسارة لنا''.456

456 Lucas, *Divided We Stand*, p. 180.

لم يتّضح أنّ المؤتمر قد أخفق إلى حين نهاية الأسبوع الأوّل من أيلول/ سبتمبر، بعد أن رفض عبد الناصر الاقتراح. لم يكن ذلك مهمّاً، فقد أعلن أيزنهاور ببراعة أنّه عازم على ''عدم التخلّي'' عن السعي لإيجاد حلّ سلميّ، ''حتّى لو واجهنا عقبات أخرى''. بحلول ذلك الوقت، كان دالاس قد وضع خطّة أخرى لكسب الوقت بغية إرجاء التهديد البريطانيّ المحتمل بإصدار قرار يدين مصر

أمام مجلس الأمن. قضت الأخيرة بإنشاء رابطة مؤقّتة لمستخدمي القناة من شأنها تموين قائدي السفن، وتقاضي رسوم العبور خلال النزاع. أُطلق عليها اسم SCUA بعد الإشارة إلى أنّ الاسم المختصر الأصليّ، CASCU، شبيه بالكلمة البرتغاليّة التي تعني الخصية، والكلمة الفرنسيّة التي تعني حرفياً "ألماً في المؤخّرة". 457

457 Lucas, *Divided We Stand*, p. 186.

لا شكّ أنّ إيدن كان يأمل في أن يراها عبد الناصر "ألماً في المؤخّرة". فبالنسبة إلى رئيس الوزراء البريطانيّ، كانت الميزة الوحيدة لاقتراح دالاس الأخير أنّه قد يؤدّي في النهاية إلى تحريك الأمور. حتّى الآن، كان يشعر بإحباط شديد إزاء واشنطن. فقد رأى الأميركيّون أنّ التحرّك العسكريّ البريطانيّ ضدّ عبد الناصر يثير جلبة في جميع أنحاء العالم العربيّ، وقد ردّ بحدّة على اقتراح أيزنهاور مُعتبراً أنّ قعقعة السيوف البريطانيّة لا تساهم سوى في تعزيز موقع عبد الناصر المحلّي، وذلك في رسالة يشبّه فيها سلوك عبد الناصر بسلوك هتلر. وخلص فيها إلى ما يلي:

> يمكنني أن أؤكد لكم أنّنا ندرك المخاوف والمخاطر التي تواجه التدخّل العسكري. ولكن إذا كان تقييمنا للموقف صحيحاً، وإذا كان البديل الوحيد هو السماح لخطط عبد الناصر بالتطوّر بهدوء إلى أن تُحتجَز هذه البلاد وكلّ أوروبا الغربيّة رهينة لوضع مصر نفسها بتصرّف روسيا، يبدو لنا أنّ واجبنا واضح. لقد قدنا أوروبا مرّات عدة في كفاحها من أجل الحرّية. سيشكّل إذعاننا للتلاشي تدريجيّاً نهاية شائنة لتاريخنا العريق. 458

458 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 402–3, Eden to Eisenhower, 6 September 1956.

صُدم آيك لدى قراءته خاتمة رسالة إيدن التي رآها شبيهة بأسلوب تشرشل، وخشيَ دالاس أن يكون البريطانيّون يستعدّون لإراقة الدماء والعرق والدموع. بينما أخبر آيك إيدن أنّه كان "يجعل عبد الناصر شخصيّة أكثر أهمّية ممّا هو عليه"، طمأن دالاس السفير البريطانيّ إلى أنّ الرئيس لم يستبعد استخدام القوّة. أبلغ السفير لندن: "في ما بيننا، نحن قادرون على إسقاط عبد الناصر، وكانت الإدارة الأميركيّة مصرّة تماماً على ضرورة حدوث هذا". ردّاً على الضغط البريطانيّ – بما أنّه كان من المقرّر أن يعاود البرلمان اجتماعه في الثاني عشر – وافق أيضاً على السماح لإيدن بإعلان تشكيل جمعيّة مُستخدمي القناة. سيشمل هذا الإعلان التفصيل المهم حول تقاضي SCUA رسوم العبور، الأمر الذي سيؤدّي، على حدّ اعتقاد إيدن، إلى إسقاط عبد الناصر. رغم مخاوف لويد، قرّر إيدن العمل بخطّة دالاس. كان ماكميلان مؤيّداً، وأخبر زملاءه في الحكومة أنّها "مناورة لوضعنا في موقع جيّد يخوّلنا استخدام القوّة". 459

459 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 402–3, Eden to Eisenhower, 6 September 1956.

لكن عندما أعلن إيدن إنشاء جمعيّة مُستخدمي القناة في 12 أيلول/ سبتمبر، كشف خصومه في حزب العمل فوراً الهدف منها. فقد صاح أحد النوّاب اليساريّين: ”إنّه استفزاز متعمّد!“؛ دعا زملاؤه رئيس الوزراء إلى الاستقالة. سارع إيدن إلى التحرّك، وأصدر تهديداً. إن لم تتعاون الحكومة المصريّة، أو حاولت التدخّل في أنشطة الجمعيّة، فستكون الحكومة وغيرها من الجهات المشاركة في الخطّة الجديدة حرّة في اتّخاذ خطوات ”عبر الأمم المتحدة أو بوسائل أخرى لتأكيد حقوقها“. قرّرت الحكومة طرح بيان إيدن للتصويت على الثقة في اليوم التالي.[460]

460 HC Deb, 12 September 1956, Vol. 558, c. 11.

أثار تهديد إيدن بلبلة في صفوف ”العمل“ وقلَقاً في واشنطن. في البداية، رفض المتحدّث باسم ”الخارجية“ القول هل ستشارك حكومة الولايات المتحدة في المبادرة، وأشار إلى أنّ دالاس لم يطّلع على نسخة مسبقة لخطاب إيدن، في حين أنّه فعل ذلك في الواقع. بعد أن سمع دالاس بانتشار شائعات في لندن مفادُها أنّه هو الذي نصّ الخطّة، قرّر عقد مؤتمر في صباح اليوم التالي لينأى بنفسه عن إيدن. من غير المُفاجئ أنّه لدى مقابلته للصّحافة سُئل عمّا سيفعله إذا قاومت مصر الخطّة. قال أوّلاً إنّ الولايات المتحدة ستعيد توجيه الشحن حول الخليج. وأكّد في وقت لاحق: ”لا نعتزم شقّ طريقنا بالقوّة“. بتعبير آخر: لم تكن SCUA تشكّل أيّ خطر.[461]

461 Kyle, *Suez*, p. 246. Kyle, *Suez*, p. 246.

وصلت تقارير عن تعليقات دالاس غير المفيدة إلى لندن قبل قطع النصف الأوّل من اجتماع مناقشة الثقة الذي استمرّ ثماني ساعات في البرلمان بقليل، ما منح غايتسكيل وقتاً لدمجها في كلمته الختاميّة في ذلك المساء. باستخدامه قول دالاس، ”لا نعتزم شقّ طريقنا بالقوّة“، مراراً وتكراراً، دعا إيدن إلى استخدام العبارة نفسها عندما أنهى المناقشة. تملّص إيدن من هذا التحدّي، ولكن عندما ضُغط عليه، اكتفى بالقول إنّه على ”توافق تام مع حكومة الولايات المتحدة بشأن ما يجب فعله“؛ أثار تهرّبه صيحات تطالبه بالإجابة، وكان الضّغط الذي تعرّض له رئيس الوزراء في اللحظات الختاميّة لخطابه كبيراً، لدرجة أقرّ فيها أنّه إن رفض المصريّون التاعون، باستثناء وقوع حالة طارئة، فستنقل الحكومة المسألة إلى مجلس الأمن، وقد أثار هذا التعهّد هتافات النصر في صفوف حزب العمل المعارضة، إذ إنّه يجنّب، على ما يبدو، احتمال الحرب.[462]

462 HC Deb, 13 September 1956, Vol. 558, c. 304.

لكن قبل أن تلجأ الحكومة البريطانيّة إلى الأمم المتحدة، كان لديها تكتيك واحد آخر. عندما غادر آخر مرشدي السفن الأوروبيّين القناة، حيث كانوا يعملون تحت الضّغط منذ استولى المصريّون على القناة، خطّط البريطانيّون لاختبار مرشدي السفن المصريّين الذين حلّوا مكانهم بوضعهم في حالة من الضّغط الشديد، وذلك بحشد خمسين سفينة عند مداخل القناة، ومطالبتها بالمرور في آن واحد. بدأت عمليّة Up–Pile، كما أسماها البريطانيّون، بتفاؤل، في 14 أيلول/ سبتمبر.

لكنّ مرشدي السفن المصريّين أثبتوا قدرتهم التامّة على إدارة القناة. وفي 15 أيلول/ سبتمبر، أعلن عبد الناصر إخفاق المحاولة البريطانيّة. عندما التقى الصّحافيّ البريطانيّ والجاسوس جون سليد بايكر بعد يومين، كان متحمّساً جدّاً. وردّاً على سؤال حول إن كان سيُوقف سفينة بريطانيّة تمرّ عبر القناة تحت رعاية SCUA أجاب أنّه لن يفعل ذلك، لكنّه توقّع في نهاية المطاف حادثة ستتسبّب في سدّ القناة، وستكون الجمعيّة مسؤولة عنها. وتابع قائلاً إنّه في حال أيّ غزو من البريطانيّين كان مستعدّاً لخوض حرب عصابات واسعة النطاق. وكشف أنّ خلايا المقاومة جاهزة تماماً في جميع أنحاء الدلتا، وأنّ مصر وضعت خططاً تشمل المنطقة برمتها "لتدمير كلّ ما يمكن تدميره، وإلحاق أكبر قدر ممكن من الضرر بالمصالح البريطانيّة في أقصر وقت ممكن". نقل سليد بايكر هذه المعلومات مباشرة إلى السفير البريطانيّ لدى القاهرة.[463]

463 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 15 September 1956.

بحلول النصف الثاني من أيلول/ سبتمبر، كانت الحكومة البريطانيّة في حالة من الفوضى. فقد أخفقت جميع محاولاتها دفع عبد الناصر إلى التحرّك، ما حرمها الأسباب لخوض الحرب. لكنّ احتمال نشوب نزاع وشيك يعني أنّها كانت ستستنزف الأموال من احتياطاتها، بينما يسحب المستثمرون الأجانب أموالهم من بريطانيا. كان الدّعم داخل الحكومة والحزب البرلمانيّ والبلد للتحرّك العسكريّ قد بدأ يتلاشى، ويبدو أنّ جهود إيدن المتكرّرة لإقناع أيزنهاور بأنّ عبد الناصر بات يمثّل تهديداً وجوديّاً لم يكن لها أيّ تأثير على الإطلاق. في نهاية أيلول/ سبتمبر، عبّر إيدن عن مخاوفه لتشرشل الذي كان قد تجنّب إصدار أيّ تصريحات علنيّة بشأن قناة السويس. وكتب لسلفه: "لستُ سعيداً جدّاً بالمنحى الذي تتّخذه الأمور. يؤكّد لي فوستر أنّ الولايات المتحدة عازمة على التعامل مع عبد الناصر مثلنا، لكنّني أخشى أن يكون حذِراً بشأن السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر".

كان إيدن بحاجة ماسّة إلى تحقيق خرق ما من شأنه أن يوفّر له في الوقت نفسه ذريعة للحرب، ويضمن الموافقة الأميركيّة. وقد توصّل إليه قبل ثلاثة أسابيع من موعد الانتخابات في الولايات المتحدة.

20

حسابات غير صحيحة في السويس

تذكر وزير الخارجية، أنطوني نوتينغ، في وقت لاحق أنّ نهار الأحد 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1956 كان "يوماً خريفياً عظيماً، مشمساً ولطيفاً". كان قد وصل إلى مقرّ إقامة رئيس الوزراء في تشيكرز في الريف شمال غرب لندن، لإحضار التقرير الذي قدّمه سيلوين لويد في الليلة السابقة من الأمم المتحدة إلى أنطوني إيدن. كانت الأخبار مختلطة. فرغم موافقة مجلس الأمن بالإجماع على الجزء الأوّل من قرار إنكليزيّ–فرنسيّ يتألّف من جزأين، بشأن تشغيل القناة في المستقبل، قضى الروس بعد ذلك على SCUA باستخدام حقّ النقض (الفيتو) على الجزء الثاني الذي من شأنه منح رابطة المستخدمين الحقّ بتحصيل الرسوم المستحقّة على أعضائها وإجبار المصريّين على التعاون معها. أمّا السؤال الذي طُرح حينذاك، فكان يقضي بتحديد ما الذي يجب فعله في المرحلة التالية.[464]

[464] Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 138.

لم يكن نوتينغ الزائر الوحيد الذي اتّصل بإيدن في ذلك اليوم. فألبرت غازييه، القائم بأعمال المدير في الحكومة الفرنسيّة أثناء وجود بينو في نيويورك، وموريس شال من هيئة الأركان العامّة الفرنسيّة، حضرا أيضاً إلى تشيكرز. كان الفرنسيّون متلهّفين لمهاجمة عبد الناصر، ولذا كانوا يشعرون باستياء متزايد إزاء إصرار إيدن على استنفاد جميع الخيارات الديبلوماسيّة أوّلاً، للحفاظ على وحدة حزبه. ورأوا أنّهم توصّلوا إلى طريقة لإجبار البريطانيّين على اتّخاذ إجراء: طريقة تعتمد على معرفة بريطانيا بعلاقة فرنسا التآمريّة مع إسرائيل، التي بدأت منذ عقد، عندما أمّن الفرنسيّون الأسلحة والمال لـ"الإرغون" وعصابة "شتيرن" من أجل تسريع نهاية الانتداب البريطانيّ في فلسطين.[465]

[465] Barr, *A Line in the Sand*, pp. 286–93, 336–48.

بدأ غازييه الحديث بالقول إنّهم جاؤوا للتعبير عن مخاوف إسرائيل بشأن التوتّرات على الحدود مع الأردن، التي كان يُعتقد بحقّ أنّ إيدن يشاركهم إيّاها. منذ إقالة غلوب، سمح رئيس أركان الجيش

الأردنيّ الجديد، علي أبو نوار، للمصريّين باستخدام بلاده قاعدة لهجمات الفدائيّين. وأدّى مقتل سبعة جنود إسرائيليّين في القدس، في أيلول/ سبتمبر، إلى تزايد عمليّات الثأر، ما دفع الحسين إلى طلب المساعدة العسكريّة من العراقيّين، ثمّ من البريطانيّين بعد هجوم إسرائيليّ مكثّف في 10 تشرين الأول/ أكتوبر أسفر عن مقتل أكثر من مئة شخص. عندما وافق إيدن فوراً على التدخّل إلى جانب العراقيّين لمحاولة منعهم من نشر قوّات في الأردن، وإعطاء أسباب للإسرائيليّين لزيادة الوضع سوءاً، غيّر الفرنسيّ الموضوع فجأة. فسأل: ماذا لو هاجمت إسرائيل مصر؟

قال إيدن بشكل أوتوماتيكي إنّ بريطانيا كانت مضطرّة، بموجب الاتفاقيّة الثلاثيّة، إلى الدفاع عن الحدود الحاليّة، وأثار هذا الردّ شكوك غازييه. ردّ قائلاً إنّه من المؤكّد أنّ إيدن لن يتدخّل لحماية عبد الناصر. اعترف إيدن أنّ ذلك غير مرجّح، ثمّ توجّه إلى نوتينغ وسأله: "ألم يذكر اتّفاقك شيئاً حول عدم إلزامنا إرسال قوّات في حال تعرّضت مصر لهجوم من إسرائيل؟" بما أنّ نوتينغ هو الذي وقّع اتفاقيّة الإخلاء في 1954 مع عبد الناصر، أجاب بأنّ الاتّفاق يذكر ذلك، لكنّه أضاف أنّ الصّفقة لم تلغِ الالتزام الذي تعهّدته بريطانيا في الإعلان الثلاثيّ. بدا إيدن مستاءً للحظة قبل أن يعمد غازييه إلى عرض معلومات مفاجئة مفادُها أنّ عبد الناصر صرّح مؤخراً بأنّ الاتفاقيّة الثلاثيّة لا تنطبق على مصر. هتف إيدن: "إذاً، سيتيح لنا ذلك الخروج من الشرك. يبدو أنّنا غير ملزَمين منع الإسرائيليّين من مهاجمة المصريّين". [466]

466 Lucas, *Divided We Stand*, p. 227; Shlaim, 'The Protocol of Sevres', p. 512.

لم يكن الفرنسيّون يخطّطون للوقوف على الحياد فقط. فقد طلب غازييه من سكرتير إيدن التوقّف عن تدوين الملاحظات، وتوجّه إلى شال الذي حدّد الخطّة التي كانوا يفكّرون فيها. سوف يشجّعون الإسرائيليّين على مهاجمة مصر، وعند هذه النقطة ستأمر بريطانيا وفرنسا كلا الطرفين بالانسحاب من القناة، وسترسلان قوّات "لفصل المقاتلين" وتولّي إدارة الممرّ المائيّ. قال إيدن إنّه سيفكر في الأمر، وسيعطي الردّ للفرنسيّين الثلاثاء. فوجئ الفرنسيّان بأنّ هذه الفكرة لم تراوده من قبل. [467]

467 Kyle, *Suez*, p. 296.

في الواقع، فكّر البريطانيّون في استخدام الإسرائيليّين للتعامل مع المصريّين لكنّهم لم يُولوا هذه الفكرة أهمّية كبيرة حتّى الآن. بعد تناوله العشاء في السفارة البريطانيّة لدى باريس في نهاية 1951، أثار تشرشل الذي كان قد أسرف في الشرب إمكانيّة حمل إسرائيل على فعل عمل بريطانيا القذر في مصر. لكنّ هذه الخطوة كانت تتعارض مع حدس إيدن. وعندما دعا ماكميلان مرّة أخرى إلى

التحالف مع إسرائيل لإقالة عبد الناصر في آب/ أغسطس 1956، على أساس أنّ الإسرائيليّين سيسعون إلى الاستفادة من الموقف مهما فعلت بريطانيا، رفض إيدن تعميم تقريره، وحذّر مكتب الخارجيّة من هذا المخطّط. أورد الأخير أنّه بما أنّ المصريين كانوا على يقين بتصوير التحرّك الإنكليزيّ–الفرنسيّ أنّه "مؤامرة إمبرياليّة تُحاك مع إسرائيل"، على الحكومة أن تفعل كلّ ما في وسعها "لإبقاء إسرائيل خارج النزاع". في كلّ مناسبة، كانت الحجّة المضادّة الرئيسيّة هي الضّرر الذي سيحدثه مثل هذا التحالف على حلفاء بريطانيا في العالم العربيّ، خصوصاً نوري في العراق. لكنّ نوري نفسه، أثناء زيارته لندن في تموز/ يوليو، اقترح تشجيع الإسرائيليّين على مهاجمة مصر، ومنذ ذلك الحين حتّى بداية تشرين الأول/ أكتوبر، بدأت التحفّظات البريطانيّة بالتلاشي.[468]

468 Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 134; Onslow, 'Unreconstructed Nationalists and a Minor Gunboat Operation', p. 81.

خلال تلك المدة، نمت المخاطر كثيراً لدرجة أنّ خطّة كتلك التي طرحها موريس شال لم تعد واردة. فقد فشلت للتوّ ثلاثة أشهر من الجهود الديبلوماسيّة، لكنّ الأميركيّين كانوا لا يزالون معارضين للتحرّك العسكري بقدر ما كانوا عليه من قبل. والجهود البريطانيّة الرامية إلى حثّ عبد الناصر على تحرّك من شأنه أن يعطي أسباباً للحرب أخفقت. كما تشير أحدث المعلومات الاستخباريّة إلى أنّ الزعيم المصريّ كان يحاول الإطاحة بملِكَي ليبيا والعراق، وهما دولتان كان لبريطانيا فيهما قواعد عسكرية، وإلى أنّه كان يخزّن الأسلحة السوفياتيّة في سوريا.

من المثير للقلق أنّ الأردن صار على ما يبدو على شفير الهاوية. فالانتخابات ستقام هناك في غضون أسبوع. وقد بدا من المحتّم لإيدن أنّ القوميّين سينتصرون، وأنّ البلاد ستصير تابعة لمصر. لا شكّ أنّ عبد الناصر لعبَ ببراعة هناك حتّى الآن. فبإثارة حوادث على طول الحدود الإسرائيليّة، حرّض عدوّه اللدود ومنافسه العربيّ الرئيسيّ بعضهما ضدّ بعض، وكذلك صرف انتباه البريطانيّين الذين اضطرّوا، بحكم المعاهدة الإنكليزيّة–الأردنيّة، إلى تقديم المساعدة إلى بلد لم يعد بإمكانهم الاعتماد عليه كحليف.

بعد أن أخبرهم رؤساء الأركان أنّهم يستطيعون محاربة عبد الناصر أو الإسرائيليّين، ولكن ليس الاثنين في الوقت نفسه، استغلّ إيدن التنديد بالمعاهدة الأردنيّة من جانب واحد، مع إدراكه أنّ ذلك سيكون بمنزلة هديّة لمروّجي البروباغاندا المصريّة الذين يبدون مصمّمين على تقويض الثقة ببريطانيا. من ناحية أخرى، ستساهم إعادة تأليب إسرائيل على عبد الناصر، وفق تصوّر الفرنسيّين،

في إنقاذه من الفخّ: بمجرّد أن تقاتل إسرائيل مصر، سيزول الخطر المتمثّل في اضطرار بريطانيا إلى خوض حرب في الأردن، وسيتمكّن إيدن من تركيز كلّ جهوده للقضاء على عبد الناصر.[469]

469 TNA, CAB 195/15 meeting of 18 October 1956.

أخيراً نجحت الخطّة الفرنسيّة في حلّ المشكلة التي كان إيدن يتصارع معها لأشهر – كيف سيكون ردّ فعل الولايات المتحدة على العمل العسكريّ البريطانيّ – بالتغاضي الكامل عنها. فإن هاجم الإسرائيليّون، بدلاً من البريطانيّين، عبد الناصر في اللحظات الأخيرة من حملة الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة، فهل من الممكن أن يتجرّأ أيزنهاور على الاعتراض، نظراً إلى قوّة اللوبي اليهوديّ التي غالباً ما يأتي دالاس على ذكرها؟ لم يكن ليفعل ذلك في رأي ماكميلان الذي زار واشنطن للتوّ. أثناء وجوده هناك، تذكّر دالاس خدمة قدّمها إلى البريطانيّين قبل الانتخابات التي جرت عندهم منذ عام، وتساءل هل ”لا يستطيعون فعل شيء في المقابل، ولجم الأمور إلى حين حلول السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر؟“[470].

470 Lucas, *Divided We Stand*, p. 208.

بعد عودته إلى لندن، أعلن ماكميلان: ”أنا أعرف آيك. لن يحرّك ساكناً“[471].

471 Kyle, *Suez*, p. 256. Kyle, *Suez*, p. 256.

***

قدّمت الخطّة الفرنسيّة ذريعة للتدخّل سيجد الأميركيّون صعوبة في معارضتها. بدافع اليأس والانتهازيّة، قبض عليها إيدن بكلتا يديه. وبعد أن ودّع الفرنسيّين، اتّصل هاتفيّاً بلويد في نيويورك وأمره بالعودة فوراً. استقلّ لويد الطائرة ليلاً، ووصلَ صباح 16 تشرين الأول/ أكتوبر ليجد إيدن ونوتينغ والعديد من الأشخاص في خضمّ مناقشة الاقتراح الفرنسيّ. لم يرق ذلك للويد، ولكنّه صار لاحقاً، كما أورد أحد المسؤولين، "متحمّساً جدّاً إزاء الموافقة على أيّ طرح". وخلال الغداء أرغمه إيدن على الموافقة. بعد ظهر ذلك اليوم، سافر الرجلان إلى باريس حيث التقيا بينيو ورئيس الوزراء الفرنسيّ غي موليه. سأل الأخير: إن هاجمت إسرائيل مصر، فهل سيتدخّل البريطانيّون. أجابه إيدن بأنّهم سيفعلون.[472]

472 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 317, 5 January 1956.

إثر عودتهما إلى لندن، قدّم لويد وإيدن تقريراً إلى مجلس الوزراء في 18 تشرين الأول/ أكتوبر. وبعد أن تحدّثا عن أملهما في إحياء المحادثات مع المصريّين، تناول لويد الوضع غير المستقرّ في

الأردن. فقد أوردت آخر الأخبار أنّ الأردنيّين سحبوا، تحت الضّغط المصريّ، دعوتهم للعراقيّين إلى إرسال قوّات. حدّد إيدن المعضلة: إزاء احتمال "ذهاب الأردن إلى مصر في نهاية هذا الأسبوع"، يمكنهم البقاء مكتوفي الأيدي، أو تقديم المَشورة إلى العراق لإرسال قوّات، بغضّ النظر عن ذلك، رغم خطورة تسبُّبه في شنّ هجوم إسرائيليّ. "هذا هو السبب الرئيسيّ لذهابنا إلى باريس"، كما زعمَ إيدن. "حاولنا التأكيد في باريس أنّه في حال تحرّكت إسرائيل، لن تتحرّك ضدّ الأردن بل مصر". وتابع: "إذا فعلت إسرائيل ذلك، أوضحنا لها عبر الفرنسيّين... أنّنا لن نكون مُلزمين إزاء مصر".[473]

[473] TNA, CAB 195/15, meeting of 18 October 1956.

كما هو متوقّع، فاز القوميّون في الانتخابات الأردنيّة في 21 تشرين الأول/ أكتوبر. في اليوم التالي، عاد لويد إلى باريس لإجراء المزيد من المناقشات مع الفرنسيّين والإسرائيليّين، من دون إيدن الذي كان يريد الحفاظ على نظافة يديه. بعد أن أخبر لويد زملاءه في وزارة الخارجيّة أنّه كان مصاباً بالزكام، وصل إلى فيلّا في ضاحية سيفر المترفة في تمام الرابعة عصراً. هناك وجد بينو، وكذلك رئيس الوزراء الإسرائيليّ المتشدد، ديفيد بن غوريون، والجنرال موشيه دايان الذي فقد إحدى عينيه وهو يقاتل مع البريطانيّين ضدّ الفرنسيّين في 1941. بدا عليهم أنّهم كانوا يتحادثون منذ وقت.

***

لم يكن لويد يتوقّع أبداً أن يكون وزيراً للخارجية. "أعتقد أنّ هناك خطأ ما"، قال لتشرشل، كما يُشاع، عندما عيّنه الرجل العظيم للمرّة الأولى وزيراً للخارجيّة في 1951. وتابع: "لا أتحدّث أيّ لغة أجنبية. باستثناء مدة الحرب، لم أزرْ أيّ بلد أجنبيّ. أنا لا أحبّ الأجانب".[474]

[474] Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 46.

قال له تشرشل: "أيّها الشاب، تبدو لي جميعها مزايا إيجابيّة".

لم يجرِ اجتماع سيفر على ما يُرام. شعرَ بن غوريون بأنّ لويد كان متحفّظاً، في حين شعر لويد أنّ بن غوريون كان متعجرفاً. سرعان ما اختلفا. فقد أراد بن غوريون من الدول الثلاث جميعها الهجوم في وقت واحد، في حين أصرّ لويد، بهدف الإيهام بأنّ بريطانيا وفرنسا تتدخّلان فقط لفضّ النزاع، على انضمام الدولتين الأوروبيّتين بعد يومين من الهجوم، لكنّ بن غوريون كان يخشى أن تكون تلّ أبيب قد تحوّلت في غضون ذلك إلى ركام. وبما أنّ سلاح الجوّ الملكيّ البريطانيّ كان

الوحيد الذي يملك القاذفات الثقيلة الكفيلة بتعطيل مدارج مصر، وسيشكّل الاستخدام المبكر لها اعترافاً بالتواطؤ، وصل الاجتماع إلى طريق مسدود.

عاد لويد إلى لندن في تلك الليلة، وأخبر نوتينغ عندما وصل إلى ''الخارجيّة'' في صباح اليوم التالي أنّه لا يبدو أنّ الخطة الفرنسيّة ستؤجَّل. كما أبلغ إيدن مجلس الوزراء، على نحو غير مباشر، في الصّباح نفسه، ''يبدو الآن أنّ إسرائيل لن تهاجم''. وأثار احتمال تحرّك الفرنسيّين ''بمفردهم، أو حتّى مع إسرائيل''، ومطالبتهم باستخدام القواعد البريطانيّة في قبرص.[475]

475 TNA, CAB 195/15, meeting of 23 October 1956.

قلّل إيدن ولويد من شأن حذاقة الفرنسيّين. ففي حين كانوا يتناقشون في الأمر في لندن، عرض بينو في سيفر على المقاتلين في القواعد الفرنسيّة في إسرائيل حراسة الساحل الإسرائيليّ. وافق بن غوريون الذي اطمأنّ إلى هذا العرض على شنّ هجوم من شأنه منح لندن وباريس أسُساً للتدخّل بعد ثلاثين ساعة. سافر بينو إلى لندن في ذلك المساء. بعد تناول العشاء مع لويد وإجراء محادثات مع إيدن، وافق البريطانيّون على إرسال مبعوث إلى سيفر للمحاولة ثانيةً.

وقعتْ هذه المهمّة على عاتق رئيس ''لجنة المخابرات المشتركة''، باتريك دين، الذي زجّه إيدن في المؤامرة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وأُعطي تعليمات للذهاب إلى سيفر. لدى وصوله، أُوكل إليه إخبار الآخرين أنّ البريطانيين لن يشاركوا إلّا في حال غزا الإسرائيليّون مصر وشكّلوا تهديداً على القناة. بحلول الوقت الذي وصل فيه دين إلى الفيلّا، كان بينو قد عاد من لندن لإبلاغ أنّ إيدن كان أكثر ودّاً من لويد، وأنّ رئيس الوزراء وافق على الخطوط العريضة للخطّة. كذلك وافق بن غوريون على عرض رئيس الوزراء الفرنسيّ بشأن قوّات الدفاع الجوّي. كان لا يزال مرتاباً جدّاً بشأن البريطانيّين، ولذا اقترح – قبل وصول دين – صياغة خطّة بينو بطريقة تمكّن ممثّلي الدول الثلاث من التوقيع عليها.

عندما عُرض على دين فور وصوله ''بروتوكول سيفر'' الذي أعدّه المسؤولون الفرنسيّون والإسرائيليّون الذين كانوا منشغلين في مطبخ الفيلّا، شعر أنّ ليس لديه خيار آخر سوى التوقيع. بعد أن عاد إلى لندن في تلك الليلة وأخبر إيدن بما فعله، شعر رئيس الوزراء بالرّعب وأعاده إلى باريس في اليوم التالي لمحاولة استرجاع النسخ الفرنسيّة والإسرائيليّة. لكنّ مسعاه كان بلا جدوى. فبعد احتجازه في غرفة في مقرّ الحكومة الفرنسيّة لساعات غادر خالي الوفاض.

في 25 تشرين الأول/ أكتوبر، بينما كان دين يحاول استعادة النسخ التائهة للبروتوكول في باريس، أطلع إيدن مجلس الوزراء على ما حدث. شرح هذا الرجل "المشرق العينين والمفعم بالحياة"، وفقاً لأحد الحاضرين في الغرفة، أنّه "بات واضحاً" أنّ الإسرائيليّين يستعدّون لمهاجمة مصر. ثمّ طلب من زملائه التفكير: هل سيكون التدخّل الإنكليزيّ–الفرنسيّ ضرورياً في حال اندلعت الحرب في المنطقة. بما أنّ الفرنسيّين كانوا يؤيّدون بشدّة التدخّل، ويتّخذون إجراءات بمفردهم أو "بالاشتراك مع إسرائيل" في حال تجنب بريطانيا التدخّل، قال إنّه يفضّل شخصيّاً إصدار بريطانيا وفرنسا معاً تحذيراً نهائيّاً يدعو كلا الطرفين للانسحاب عشرة أميال من القناة. ورجّح أن "تمتثل إسرائيل لمثل هذا الطلب أيضاً". ثمّ تابع: "في حال امتثلت مصر أيضاً، سيشكّل ذلك ضربة قاضية على نفوذ المقدّم عبد الناصر. وفي حال لم تمتثل، سيكون هناك مبرّر كافٍ لشنّ تحرّك عسكريّ إنكليزيّ–فرنسيّ ضدّ مصر من أجل حماية القناة".476

476 Heath, *The Course of my Life*, p. 169; TNA, CAB 128/30/74, Cabinet, 74th Conclusions, 25 October 1956.

قال إيدن: "يجب أن نواجه خطر اتّهامنا بالتواطؤ مع إسرائيل. لكن هذه التهمة كانت ستوجّه ضدّنا في أيّ حال". ورد في محضر الاجتماع أنّه "أُعرب عن بعض الشكوك"، لكن لم يُحدّد ممَّن. كان المشكّكون قلقين إزاء الإساءة التي قد يسبّبها التحرّك البريطانيّ للأميركيّين، وأن تخدم المطالبة بالتراجع عشرة أميال على نحو غير معلن مصلحة الإسرائيليّين، وأن تكون بريطانيا تنتهك الإعلان الثلاثيّ، وأن يكون تحرّك الشرطة الإنكليزيّة–الفرنسيّة يفتقر إلى تفويض من الأمم المتحدة. رغم ذلك، وافق مجلس الوزراء على الخطّة.477

477 TNA, CAB 138/30/74, Cabinet, 74th Conclusions, 25 October 1956.

في هذا الوقت تقريباً، انضمّ مسؤولون بريطانيّون لم تُكشف هويّتهم إلى علي ماهر، رئيس الوزراء المصريّ السابق، الذي كان حينذاك في بيروت. سألوه هل هو مستعدّ لتشكيل حكومة في حال الانهيار المفاجئ لعبد الناصر؟ قال إنّه مستعدّ لذلك.478

478 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 23 January 1957.

***

بعد الانتخابات الأردنيّة مباشرة، قال الملك حسين إنّه عازم على محاربة إسرائيل، وفي 24 تشرين الأول/ أكتوبر، وصلت أخبار حول موافقة مصر والأردن وسوريا على إجراء تحالف عسكريّ

تخضع فيه قوّاتها لقيادة مصريّة. بحلول السادس والعشرين من الشهر نفسه، علم دالاس أنّ الإسرائيليّين يستعدّون للتحرّك لكن الغاية من ذلك لم تكن واضحة. بما أنّ السفارة البريطانية اكتفت بصمت مريب، نقل الخبر إلى وينثروب ألدريتش، السفير في لندن، وسأل مبعوثه هل بإمكانه العثور على أيّ دليل يدعم شكوكه حول أنّ الفرنسيّين، وربّما البريطانيّين، كانوا متواطئين مع ما كان يخطّط له الإسرائيليون.

أخبر ألدريتش دالاس أنّه كان سيلتقي لويد لتناول العشاء مساء الثامن والعشرين، وأنّه بعدها سيكون قادراً على التحقيق بغية الحصول على معلومات. في غضون ذلك، استنتجت لجنة المراقبة التابعة لـ"وكالة المخابرات المركزيّة" أنّ نطاق الاستعدادات الإسرائيليّة والتزام بريطانيا المعروف بالدفاع عن الأردن يعنيان أنّ الهدف الأكثر احتمالاً لهجوم إسرائيلي متوقّع "في المستقبل القريب جداً" كان في الواقع مصر. في وقت لاحق من اليوم نفسه، أصدرت تقريراً آخر أشارت فيه إلى أنّ ثماني عشرة طائرة فرنسيّة للنقل الجوّي وصلت للتوّ إلى قبرص، ما يعني أنّ البريطانيّين والفرنسيّين باتوا قادرين على نقل نحو ثلاثة آلاف رجل.[479]

479 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 798, Special Watch Report, 28 October 1956.

ردّاً على الأسئلة التي طرحها ألدريتش خلال العشاء، لجأ لويد إلى اللعب على المصطلحات، وقال إنّه يشعر أيضاً بالقلق إزاء التعبئة الإسرائيليّة. ورغم أنّ التقارير البريطانيّة أشارت أيضاً إلى أنّ الإسرائيليّين كانوا يحرّكون قوّات جنوباً وليس شرقاً، كان "يميل إلى الاعتقاد" بأنّ الأردن كان الهدف الحقيقيّ، وهذا ما يبرّر بالطبع إرسال بريطانيا السفن من مالطا صبيحة اليوم السابق. "لم يكن يرغب في الاعتقاد" بأنّ الإسرائيليّين سيهاجمون مصر، وقال إنّ محادثاته مع الفرنسيّين لم تمنحه "أيّ سبب للاعتقاد" بأنّ الفرنسيّين يشجّعون الإسرائيليّين على ذلك. وقد صدّقه ألدريتش بحماقة.[480]

480 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 818, Aldrich to State Department, 29 October 1956.

في الموعد التالي للغداء، أبلغ السفير الأميركيّ واشنطن أنّه رغم أنّ لويد أخبره "أنه يودّ لو أنّ شيئاً ما يحدث لعبد الناصر، فإنّ قلقه إزاء عواقب المبادرة الإسرائيليّة كان مقنعاً بما فيه الكفاية لأستنتج أنّ أيّ تواطؤ بريطانيّ مع هذه الخطوة أمرٌ غير محتمل. كما أنّني اعتقدتُ حينذاك أنّ شكوكه في أن يجد الفرنسيّون أنّ مصلحتهم تقضي بتحفيز المشاريع الإسرائيليّة حقيقيّة". بعد

ساعتين من إرسال ألدريتش هذه الرسالة، هبط المظلّيون الإسرائيليّون بالقرب من ممرّ ميتلا، على بعد 45 ميلاً شرق مدينة السويس، عند المدخل الجنوبيّ للقناة. كانت الحرب قد بدأت.[481]

481 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 818, Aldrich to State Department, 29 October 1956.

***

على عكس ألدريتش، كشف دالاس ما تنطوي عليه تعليقات لويد المراوِغة. وبعد وقت قصير من هبوط المظلّيين الإسرائيليّين، لكن قبل وصول أخبار الغزو إلى العالم الخارجيّ، أرسل برقيّة أخرى هذه المرّة إلى سفيره لدى باريس. في الليلة السابقة، كان قد تمكّن أخيراً من التحدّث إلى كبار الديبلوماسيّين الفرنسيّين والبريطانيّين في واشنطن. وقال لأيزنهاور عبر الهاتف إنّ "جهلهم" بتحرّك السفن الحربيّة الفرنسيّة باتّجاه شرق البحر المتوسط "يكاد أن يكون إشارة على شعورهم بتأنيب الضمير".[482]

482 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 807, memorandum of a telephone conversation, 28 October 1956.

عندما أعطاه دالاس الأرقام التي تثبت وجود التعزيزات الإنكليزيّة–الفرنسيّة في قبرص، أجاب أيزنهاور: "لا أستطيع أن أصدّق أنّ بريطانيا ستنجرّ إلى هذا".[483]

483 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 807, memorandum of a telephone conversation, 28 October 1956.

لكن بحلول الوقت الذي شنّ فيه الإسرائيليّون هجومهم، ارتأى دالاس تورّط البريطانيّين. قال لسفير الولايات المتحدة لدى باريس إنّ "أجزاء من الأدلّة تتراكم" حول أنّ الفرنسيّين، باطّلاع ربّما من البريطانيّين، يعملون عن كثب مع الإسرائيليّين لإثارة حرب مع مصر ستعمد فرنسا وبريطانيا إلى التدخّل فيها.[484]

484 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 815–16, Dulles to Embassy in France, 29 October 1956.

مضى دالاس في تحذير رجله في باريس ممّا سيحدث بعد ذلك بعبارات أكثر وضوحاً من تلك التي استخدمها في الحديث مع البريطانيّين. "كما تعلم، إنّنا، أنا والرئيس، على قناعة عميقة بأنّه إن سمح الفرنسيّون والبريطانيّون لأنفسهم بالانجرار إلى حرب عربيّة شاملة، فسيكونون قد تورّطوا في أمر سيعجزون عن وضع حدّ له"، الأمر الذي سيؤدّي إلى تفاقم مشاعر الكراهيّة إزاء الغرب التي سيستغلّها الروس، والتي ستضعف النظام الاقتصاديّ في كلا البلدين وسائر أنحاء أوروبا الغربيّة. كونهم الذين باشروا الحرب، "من غير المرجّح" أن تقدم الولايات المتحدة على مساعدتهم. من اللافت أنّ دالاس تنبّه إلى أنّ حسابات الحليفين المفترضين للولايات المتحدة ترتكز على "أهمّية

التأثير اليهوديّ هنا، لدرجة ضمان تعاطف الولايات المتحدة مع الخطوط العريضة لهذه العمليّات‘‘. وأنهى بالقول إنّه في حال كانوا يراهنون على ذلك، ’’حساباتهم غير صائبة‘‘.

***

في صباح اليوم التالي في لندن، أبلغت ”لجنة المخابرات المشتركة“ التابعة للحكومة رؤساء الأركان بأنّ الولايات المتحدة ستتّخذ ”موقفاً حياديّاً تماماً تجاه العمليّات“. ولكن بحلول العاشرة، كان من الواضح أنّ تقييمها كان غير صحيح كليّاً. فعندما اجتمعت حكومة إيدن في ذلك الصباح، صرّح لويد بأنّه سبق له أن أُبلغ من السفير الأميركيّ بأنّ حكومة الولايات المتحدة ستطلب قريباً من مجلس الأمن النظر في قرار يدين إسرائيل بتهمة الاعتداء. قال لويد إنّه تحجّج بأنّ مثل هذه الخطوة ستكون عرضة للنقد، كون إسرائيل تتصرّف من منطلق الدفاع عن النفس، لكن من اللافت أنّ ألدريتش لم يتأثّر بذلك. عندما علم في وقت لاحق من ذلك اليوم أنّ إيدن وموليه أصدرا تحذيرهما الأخير الذي يدعو الجانبيْن إلى الانسحاب لمسافة عشرة أميال من القناة، أبلغ وزارة الخارجيّة أنّ ”العواقب ستكون وخيمة“.485

485 Hennessy, *The Prime Minister*, p. 236; Lane, ‘The Past as Matrix’, in Kelly and Gorst, eds, *Whitehall and the Suez Crisis*, p. 213.

إن كانت الأدلّة المتوفّرة لدى الرأي العام، والمعلومات المخابراتيّة، بالإضافة إلى حدسه الشخصيّ، قد جعلت دالاس متأكّداً إلى حدّ ما من أنّ البريطانيّين والفرنسيّين كانوا يتواطؤون مع الإسرائيليّين، فالتحيّز الضمنيّ للتحذير الإنكليزيّ–الفرنسيّ أزال ما تبقّى من شكّ لديه. منذ أصدر إيدن ومولیه هذا التحذير، في وقت كان فيه مركز المعركة لا يزال على مسافة مئة ميل تقريباً إلى الشرق، كانوا يهدّدون فعليّاً أيّ تقدّم إضافيّ لإسرائيل نحو مصر. عندما سمع شوكبيرغ، الذي كان قد غادر مكتب الخارجيّة قبل أشهر بسبب التوتّر، الطلب الذي أذيع على الراديو، ’’أُصيب بالذهول‘‘. كان يعلم أنّه سيدمّر بضربة قاتلة مصداقيّة بريطانيا في العالم العربي – هذا المكسب الذي ناضل إيدن طويلاً للحفاظ عليه – فاستنتج قائلاً: ’’نعتقد أنّ إيدن فقد صوابه‘‘. شاركَه آخرون هذا الرأي، فقد قال أحد مستشاريه: ’’وجد عبد الناصر أنّ الوضع برمّته غير منطقيّ على الإطلاق. لقد كان في الحقيقة ضرباً من الجنون‘‘.486

486 Shuckburgh, *Descent to Suez*, p. 362, 1 November 1956; Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 215.

كتب أيزنهاور رسالة إنشائيّة إلى إيدن خالية من أيّ مؤشّر على المودّة. بدأها بنبرة تهديدة: "أودّ أن أطلب مساعدتكم في توضيح ما يحدث بالضبط بيننا وبين حلفائنا الأوروبيّين، خصوصاً بيننا وبين الفرنسيّين وحضرتكم". وتابع الرئيس قائلاً إنّ الأميركيّين كانوا يعلمون أنّ الفرنسيّين أمّنوا معدّات أكثر بكثير ممّا سمحوا به، وأنّ حركة الاتصالات بين باريس وتل أبيب ازدادت بعد ذلك، ما يشير إلى أنّ فرنسا وإسرائيل يعملان معاً. وبعد أن اتّصلوا ليلة أمس بالسفير البريطاني لدى الأمم المتحدة، بيرسون ديكسون، قال: "فوجئنا عندما اكتشفنا أنّه غير متعاطف على الإطلاق، فقد أشار بصراحة إلى أنّ حكومته لن توافق على أيّ إجراء يُتّخذ ضدّ إسرائيل". وتحجّج ديكسن بأنّ الإعلان الثلاثيّ الذي يلزم بريطانيا الدفاع عن الحدود الحاليّة صار خارج الزمن. اقترح آيك أنّه سواء أكان الأمر كذلك أم لا، يفترض القانون، عند التخلّي عن مثل هذا الاتفاق من أحد الموقّعين عليه، "إخطار الموقّعين الآخرين بذلك". 487

487 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 849, Eisenhower to Eden, 30 October 1956.

قادَ غضبُ أيزنهاور ودالاس إزاء التحذير الإنكليزيّ–الفرنسيّ إلى طرحهما المسألة بقوّة في مجلس الأمن. لكنّ مشروع قرارهما، الذي دعا إلى وقف إطلاق النار وانسحاب الإسرائيليّين والذي حثّ جميع الأعضاء على تجنّب التهديد أو استخدام القوة قُوبل بالرفض من فرنسا وبريطانيا. ودعا العضو اليوغوسلافيّ في المجلس إلى قرار جديد يدعو إلى جلسة طارئة للجمعيّة العامّة. اتُّخذ هذا الخيار للوقاية تحديداً من الاعتراض الذي حدث للتوّ في المجلس. فرغم تصويت بريطانيا وفرنسا ضدّ هذا القرار، لم تتمكّنا من استخدام حقّ النقض إزاءه. هذا يعني أنّ سلوكهما سيخضع الآن لتدقيق الجمعيّة العامّة خلال يومين.

***

عنونت صحيفة *Daily Mail* في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو اليوم الذي تجتمع فيه الجمعيّة العامّة، "بريطانيا تخوض الحرب". فبين ليلة وضحاها، وللمرّة الثانية في ذلك الصباح، هاجم المفجّرون البريطانيّون تسعة مطارات مصريّة رغم أنّهم أجهضوا غارة على هدفهم الرئيسيّ، القاعدة الجويّة الغربية، بعد أن اكتشفوا أنّها تقع بالقرب من الطريق التي كان يستخدمها المواطنون الأميركيّون للهرب نحو الإسكندريّة. مع ذلك، عندما رفض إيدن، في ذلك الصباح، التصريح أمام مجلس العموم هل البلاد في حالة حرب، كان ردّ الفعل من صفوف حزب العمل قويّاً لدرجة أنّ الرئيس اضطرّ إلى تعليق الجلسة نصف ساعة لتهدئة الجوّ.

نتيجة فارق التوقيت تمكّن سفير مصر لدى الأمم المتحدة من الاقتباس من ردّ غايتسكيل على إيدن، في كلمته التي ألقاها ذلك المساء في مناقشة ''الجمعيّة العامّة'' في نيويورك. بعد أن حاول ديكسون الدفاع عن موقف الحكومة البريطانيّة، استلم دالاس الكلام. دعا القرار الذي اقترحه إلى وقف فوريّ لإطلاق النار، ووقفِ حركة نقل القوّات العسكريّة والأسلحة إلى المنطقة، وسحبِ جميع القوّات إلى ما وراء خطوط الهدنة التي وُضعت عام 1949. وافقوا عليه بغالبيّة ستّين صوتاً مقابل خمسة. كانت أستراليا ونيوزيلندا الوحيدتين اللتين صوّتتا لمصلحة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، في حين امتنعت ستّة بلدان أخرى عن التصويت. إحداها كندا التي كان رئيس وزرائها، ليستر بيرسون، ممثّلاً عن بلاده في لجنة الأمم المتحدة الخاصّة بفلسطين في 1947. واقترح إنشاء وإرسال قوّة طوارئ تابعة للأمم المتحدة للحفاظ على السلام.

وصلت أخبار التصويت الذي جرى في وقت متأخّر من الليل في نيويورك إلى لندن بحلول الفجر في 2 تشرين الأول/ نوفمبر. في مجلس العموم، سأل غايتسكيل إيدن هل سيلتزم قرار الجمعيّة العامّة. حاول إيدن كسب الوقت بقوله إنّه يريد قراءته أوّلاً وسيجيب في اليوم التالي.

حينذاك، كان المصريّون قد شرعوا في التراجع، وصار الإسرائيليّون على مقربة من القناة. كان المفجّرون البريطانيّون قد دمّروا إذاعة القاهرة، ما سمح لإذاعة ''صوت بريطانيا'' بالبثّ على تردّدها واستهداف المصريّين ببروباغاندا دامية. في اجتماعين لمجلس الوزراء عُقدا بعد ظهر ذلك اليوم، رأى إيدن أنّ الوضع العسكريّ ''مُرضٍ للغاية''، وأنّ على الحكومتين البريطانيّة والفرنسيّة استغلال سرعة التقدّم الإسرائيلي لتبرير إنزال قوات في أقرب وقت ممكن، ثم تسليم المنطقة بعد ذلك لقوّة الأمم المتحدة. كانت تلك هي السياسة التي أعلنها أمام مجلس العموم في اليوم التالي، على وقع صرخات الاحتجاج التي تصاعدت من صفوف حزب العمل متّهمة إيّاه بـ''المجرم''.[488]

488 TNA, CAB 195/15, meeting of 2 November 1956, at 4.30 p.m.

تطلّب إصرار إيدن اتّخاذ إجراء سريع لاستخدام المظليين، لأنّ قوّة الغزو الرئيسيّة الإنكليزيّة–الفرنسيّة كانت لا تزال في طريقها قادمة من البحر. لكنّ ذلك تسبّب في مأزق. فالوضع الذي كان يحاول إيدن استغلاله جاء نتيجة انسحاب المصريّين إلى القناة لتفادي التعرّض لحصار على الضفّة الشرقيّة للقناة بسبب التقدّم الإسرائيليّ. هذا يعني أنّه كان يوجد في منطقة بورسعيد – المكان الذي سيهبط فيه المظليون – أعداد كبيرة من القوّات المصريّة التي كانت جاهزة للقتال، كما أظهر الاستطلاع الجوّي. يمكن للبريطانيّين الهبوط بسرعة في المظلّات، مع العلم أنّ هذه القوّات المزوّدة

بأسلحة خفيفة ستواجه معارضة شرسة، أو يمكنهم قصف المواقع الجديدة للمصريّين لجعل الهبوط أسهل، وهي خطوة قد تستغرق وقتاً، وقد تجعل تصريح إيدن على التلفزيون، في مساء ذلك اليوم الذي قال فيه "لطالما كنتُ رجل سلام"، موضع سخرية. مع ذلك، توجّه وزير الدفاع، أنطوني هيد، إلى المقرّ البريطانيّ في قبرص للنظر في ما يمكن فعله.[489]

489 Von Tunzelmann, *Blood and Sand*, p. 297.

عاد هيد إلى لندن في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر حاملاً أخباراً منحت مجلس الوزراء أملاً في إمكانيّة هبوط القوّات البريطانيّة دون معارضة. فعلى حدّ قوله، بدا أنّ المصريّين ينسحبون من بورسعيد. وعبّر عن شعوره بأنّ "العالم سيرضى بالأمر الواقع إذا نُفّذ بدقّة". وفي الرسائل السرّية التي كانت تبعثها "وكالة المخابرات المركزيّة" إلى لندن، أُشير إلى الأمر عينه.

إزاء المظاهرة المناهضة للحرب التي نشبت في الشوارع في الخارج، راجع مجلس الوزراء في ذلك المساء الخيارات المطروحة: إنزال المظلّيين فوراً، أو الانتظار أربعاً وعشرين ساعة لمحاولة الحصول على موافقة الأمم المتحدة على العمليّة، أو التخلّي نهائيّاً عنها. يظهر محضر الاجتماع أنّ الآراء كانت منقسمة. فقد آثر إيدن التحرّك، في حين خشيَ لويد أن تفرض الأمم المتحدة عقوبات نفطيّة إذا مضوا قدماً في ذلك. أمّا سالزبري الذي كان ذات يوم من دعاة الحرب، فبات يعتقد أنّه من غير الوارد أن تقبل مصر وإسرائيل دورهما في حفظ السلام، وأنّ مهمهتما في النتيجة انتهت. في الواقع، ساعدت الأخبار التي تفيد برفض الحكومة الإسرائيليّة شروط وقف إطلاق النار في تبسيط القرار. في النهاية، اكتفى إيدن من النقاش، ووجد أنّ الغالبيّة تؤيد اتّخاذ إجراءات فوريّة: سيُصار إلى المضيّ قدماً بعمليّة إنزال المظلّيين. يبدو أنّ لورد لخّص المزاج السائد في جلسة الحكومة قائلاً: "قد نتمكّن من الإفلات بذلك، إن كان ممكناً فعله دون تكبّد خسائر فادحة".[490]

490 CAB 195/15, meeting of 4 November 1956.

انطلق 668 مظلّياً بعد السابعة صباحاً بالتوقيت المحلّي. قُتل واحد منهم أثناء الهبوط، وأُصيب آخر، كما أُصيب اثنا عشر أثناء القتال لتأمين المدرج الذي هبطوا فيه. من هناك، كان أمامهم خمسة كيلومترات للوصول إلى بورسعيد. رغم أنّ القوّة الرئيسيّة المنقولة بحراً كانت متمركزة في عرض الشاطئ، فإنّ مقاومة المصريّين كانت قويّة بما يكفي لردع أيّ تغيير في اللحظة الأخيرة على الخطّة. ستجري عمليّة الهبوط الرئيسيّة فجر اليوم التالي. في الوقت نفسه، هبطت القوّات الفرنسيّة الخاصّة جنوب بورسعيد. كانت مهمّتها الاستيلاء على الجسور التي تربط الميناء بالبرّ، وعزل

المدينة. وقد نجحوا في إجبار القائد المصريّ على المطالبة بوقف إطلاق النار عن طريق قطع إمدادات المياه العذبة إلى الميناء.

وصل خبرُ هذا التطوّر إلى لندن خلال نقاش برلمانيّ آخر عُقد للتباحث في الوضع. كان لويد على المنبر يحاول تفادي سلسلة من الأسئلة المحرجة منذ الكشف عن إلقاء البريطانيّين منشورات في منطقة الدلتا يهدّدون فيها بشنّ غارات في حال واجهوا مقاومة من المصريّين. وقف إيدن ليتدخّل، وذكر أنّه تلقّى للتوّ رسالة سريعة من الجبهة. قرأ: ''إنّ الحاكم والقائد العسكريّ في بورسعيد يناقشان الآن شروط الاستسلام مع العميد بتلر. أُعطي الأمر بوقف إطلاق النار''، ما أثار هتافات تأييد من مقاعد الحكومة. لدى عودته إلى شارع داوننغ، استدعى رئيس الوزراء رؤساء الأركان، وعانقَ المارشال الجوّي. قال لهم: ''أيّها القادة الأعزّاء، كم أنا ممتنّ لكم! لقد كنتم رائعين! جرت الأمور على أفضل حال''. لكن الشعور بالانتصار لن يدوم طويلاً.[491]

491 HC Deb, 5 November 1956, Vol. 558, c. 1966; Kyle, *Suez*, p. 452.

في وقت سابق من ذلك اليوم، كان إيدن على علم بأنّ إنزال المظلّيين قد بدأ، فكتب إلى أيزنهاور رسالة يبرّر فيها أفعاله، ويشرح له مخططه. كانت رسالة غريبة، تعبّر في الوقت نفسه عن اعتداد وثقة ورضى بالنفس بأسلوب اعترافيّ، تدعو الرئيس، في حال ''الرفض... على الأقل إلى تفهُّم القرارات الرهيبة التي اضطررنا إلى اتّخاذها''.[492]

492 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, pp. 985–6, Eden to Eisenhower, 5 November 1956.

''أنا أعلم أنّ فوستر ظنّ أنّه بإمكاننا إطالة اللعبة أكثر''، وفق اعتراف إيدن، ''لكنّني مقتنع بأنّه لو سمحنا للأشياء بالانجراف، ستنتقل الأمور من سيّئ إلى أسوأ. سيتحوّل عبد الناصر إلى أشبه بموسوليني مسلم، وسيسقِطُ أصدقاءنا في العراق والأردن والسعوديّة وحتّى إيران تدريجيّاً. كانت جهوده ستنتشر غرباً، وكانت ليبيا وشمال أفريقيا ستخضعان لسيطرته''. رغم إعراب إيدن عن استعداده لتسليم زمام الأمور لقوّة دوليّة في أقرب وقت، فإنّ تداعيات هذا الافتراض كانت واضحة. كان مصمّماً على إقالة عبد الناصر أوّلاً.

كان ردّ فعل أيزنهاور الأوّل على الرسالة متفائلاً. لم يكن إيدن يواجه فقط إدانة شبه إجماعيّة من الأمم المتحدة، ولكنّ السوريّين خرّبوا أيضاً خطّ أنابيب IPC، وأغلق عبد الناصر قناة السويس. كانت مجرّد مسألة وقت قبل أن يضطرّ رئيس الوزراء إلى الرضوخ عندما واجه، نتيجة تصرّفاته، مشكلة النقص في النفط نفسها التي كان يخشى أن يخطّط لها عبد الناصر ذات يوم. ولكن بعد أن

صاغ الرئيس ردّاً ودوداً بصورة لافتة، يحثّ فيه إيدن على وقف عمليّات الهبوط، ويعبّر فيه عن تطلّعه إلى تجديد التعاون فور انتهاء الأزمة الحاليّة، وصلت رسالة من رئيس الوزراء السوفياتيّ نيكولاي بولكانين في موسكو. سعياً منه إلى تحويل الانتباه عن القمع المتزامن والدمويّ الذي تمارسه بلاده على الانتفاضة الهنغاريّة، اقترح على الدولتين العظميين المسلحتين نوويّاً اتّخاذ إجراءات لاستعادة السلام في الشرق الأوسط. بعد مدة وجيزة، وصلت أنباء تفيد بأنّ وقف إطلاق النار في بورسعيد باء بالفشل.

رفض أيزنهاور فوراً رسالة بولكانين لاعتبارها تكتيكاً هدفه تشتيت الانتباه، وقد خُطّط له أيضاً لإثارة خلاف بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيّين المهمّشين. لكنّ الروس كتبوا أيضاً رسالة إلى إيدن لمّحوا فيها بلا مواربة إلى أنّ بريطانيا قد تواجه هجوماً بالصواريخ الباليستيّة، وشعرَ آيك بالقلق من أن يكون "السوفيات خائفين وغاضبين" بعد بودابست، وأنّه لا شيء أكثر خطورة من دكتاتوريّة في هذه الحالة الذهنيّة. خوفاً من أن يستخدم الروس القتال المستمرّ في بورسعيد كذريعة للتدخّل قرّر ألا يوجّه رسالته إلى إيدن.[493]

493 *FRUS*, 1955–57, Vol. XVI, p. 1001, memorandum of a conference with the president, 5 November 1956.

وصلت رسالة بولكانين إلى لندن نحو الثانية من صباح 6 تشرين الثاني/ نوفمبر، وفي الثامنة والنصف اتّصل إيدن بديكسون، السفير البريطانيّ لدى الأمم المتحدة. أخبره ديكسون أنّه جاء للتوّ من جلسة طارئة دعا إليها الروس. كان يعتقد أنّ هدف روسيا "التوصّل إلى وضع يمكّنهم من القول إنهم حاولوا التماس مساعدة الأمم المتحدة وفشلوا، ولذا صار من حقّهم بعض التحرّكات المستقلّة". لا بدّ أنّ ذلك بدا مألوفاً إلى حدّ ما لإيدن. فرغم أنه لم يعتقد أنّ الروس سيهاجمون بريطانيا، فإنّه كان يخشى أن تكون الرسالة "تغطية على تحرّك عسكري"... على الأرجح في سوريا، وفي أسوأ الأحوال ضدّ القوّة البريطانيّة في مصر.[494]

494 Thorpe, *Eden*, p. 529.

الأهمّ من ذلك بكثير أنّ ديكسون حذّر من أنّ الأميركيّين يصيغون قرارهم الخاصّ الذي يدعو إلى فرض عقوبات اقتصاديّة على بريطانيا وفرنسا. من هناك، وصلت الأمور إلى نهايتها بسرعة. فقبل بضعة أيّام، اقترح لويد أنّ إحدى الوسائل لمواجهة العقوبات النفطيّة، في حال فُرضت، تقضي بـ"احتلال الكويت وقطر" – مُنتجَي النفط اللذين لم يكونا عضوين في الأمم المتحدة – لكن هذه الخطّة الجنونيّة لم تُستتبَع. في مجلس الوزراء، صباح 6 تشرين الثاني/ نوفمبر، لخّص ماكميلان –

الذي بدا كأنّه تحوّل بين ليلة وضحاها من صقر بنيّ إلى حمامة بيضاء – الوضع المالي الذي كان يتدهور بسرعة نتيجة بيع تجّار العملة عملاتهم الإسترلينية. ولأسباب لا تزال غامضة، بالغ في تقدير الخسارة بنسبة ثلاثة أضعاف، مدّعياً أنّ مئة مليون جنيه إسترليني استُنزفت من احتياطات البلاد في الأسبوع الأوّل من تشرين الثاني/ نوفمبر، في حين كان الرقم الحقيقيّ في الواقع أقرب إلى ثلاثين مليوناً. لكنّ زملاءه لم يعرفوا ذلك، ووافقوا على رسالته السوداوية التي تفيد بأنّه إذا استمرّت الاحتياطات في الانخفاض بهذا المعدّل، ستكون الخزانات فارغة بعد عيد الميلاد. لم تكن الموارد الماليّة في البلاد قويّة بما يكفي لتحمُّل العزلة الدولية. كما اعترف ماكميلان، في وقت لاحق وبلهجة حزينة، بأنّ أزمة السويس لم تغيّر الوضع الاقتصاديّ المحفوف بالمخاطر في بريطانيا، لكنّها كشفت عنه. في ذلك المساء، أعلن إيدن أنّ بريطانيا أمرت قوّاتها بوقف إطلاق النار في منتصف الليل. وكان وزير الدفاع أنطوني هيد من بين الأشخاص الذين أُصيبوا بخيبة أمل. قال العميد السابق: ’’كان الأمر يشبه المرور بمرحلة المداعبات التمهيديّة كلّها دون بلوغ النشوة!‘‘[495].

495 TNA, CAB 128/30, Cabinet, conclusions, 2 November 1956, 4.30 p.m. meeting; CAB 195/16, meeting of 8 January 1957; Horne, *Macmillan*, p. 441.

***

فاز آيك في انتخابات 6 تشرين الثاني/ نوفمبر. وعندما تلقّى بعد أيّام رسالة من ماكميلان، يطلب فيها ”ورقة تين لتغطية عرينا“، كان رحب الصدر. فقد عرف الرئيس ماكميلان منذ الأيّام التي أمضياها معاً في شمال أفريقيا في الحرب، ولذا اتّصل هاتفيّاً بسفيره لدى لندن: ”هل يمكنك الاتّصال بهم بصورة غير رسميّة، وأن تؤكد لهم اهتمامنا وتعاطفنا، وأنّه بمجرد حدوث الأشياء التي نتوقّعها، نحن مستعدّون لتقديم ’الكثير من أوراق التين‘؟“ بمجرد أن غادر إيدن في عطلة طويلة، وأبلغ لويد مجلس العموم في 3 كانون الأول/ ديسمبر بأنّ القوات البريطانيّة ستنسحب ”دون تأخير“، كانت هذه المساعدة ستصل بسرعة. سُمح حينذاك لبريطانيا بالاستفادة من صندوق النقد الدوليّ، وتنازلت حكومة الولايات المتحدة عن مدفوعات الفوائد التي كانت تستحقّها على قرض بريطانيا العائد إلى 1946. ووصل النفط الأميركيّ إلى حدّ التعويض عن النقص الناجم عن تخريب خطّ IPC في سوريا وإغلاق قناة السويس.[496]

496 Thorpe, *Eden*, p. 538; Lucas, *Divided We Stand*, p. 311.

ألقى ماكميلان، الذي سيخلف إيدن رئيساً للوزراء، باللوم على سلفه في كلّ شيء، رغم أنّه دفعه إلى الكارثة. فأخبر دالاس: "شخصيّاً لست راضياً أبداً عن الطريقة التي عُولجت بها هذه المسألة، وعن توقيتها، لكنّ إيدن أخذ هذا الأمر بالكامل على عاتقه... لم يكن لديّ خيار حقيقيّ سوى دعم إيدن". كان أكثر صدقاً أمام زملائه في مجلس الوزراء، فقد قال لهم: "لقد دعوتُ بحزم، لكن بسرعة، إلى اتّخاذ إجراء ضدّ مصر"، حيث قال أيضاً إنّه ليس لديهم خيار آخر سوى قبول المطالب غير المُستساغة التي قدّمها إليهم آيك. "فشلنا في ذلك. ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟"[497].

497 Smith, *Ending Empire in the Middle East*, p. 65; TNA, CAB 195/16, meeting of 28 November 1956.

21

انقلابات فاشلة

كانت المؤامرة الإنكليزيّة–الأميركيّة للإطاحة بالحكومة السوريّة أحد إرهاصات أزمة السويس؛ كان سيؤدّي إنعاشها إلى استهلاك كبير للطاقة الأميركيّة على مدى الأشهر الاثني عشر التي تلت.

كان البريطانيّون والأميركيّون يخطّطون لشنّ انقلابهم في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1956، لكن عندما سمعوا أنّ الرئيس السوريّ شكري القوتلي سيزور موسكو نهاية الشهر، أرجؤوا الموعد ليتمّ ذلك في غيابه. ثمّ، بعد تغيير آخر في توجّهاتهم، أجّلوه مرّة أخرى إلى حين عودته إلى دمشق، ما أدّى إلى دفعه إلى ما بعد تاريخ الغزو الإسرائيليّ لسيناء. رغم أنّ رئيس المخابرات السوريّة الحذق، عبد الحميد سرّاج، كان يعلم أيضاً بما يُخطّط له، فإنّ هذا التأخير هو الذي تسبّب في إحباط المحاولة الانقلابيّة.

غضبَ الرأس المدبّر الذي ألقت "وكالة المخابرات المركزيّة" بثقلها عليه، وهو وزير الخارجيّة السوري السابق ميخائيل إليان، عندما سمع عن الغزو الإسرائيليّ لمصر. "كيف أمكنك أن تطلب منّا الإطاحة بحكومتنا في اللحظة نفسها التي شنّت فيها إسرائيل حرباً مع دولة عربيّة؟" سأل ضابط المخابرات الأميركيّ بيل إيفلند، الذي كان يطرح على نفسه السؤال عينه. كان المسؤولون يتشاركون شكوك إيفيلاند حول الدوافع البريطانيّة لدعم الانقلاب. وعندما تباحث كلّ من فوستر وألِن دالاس، في اليوم نفسه في واشنطن، حول هل ينبغي المضيّ قدماً بالانقلاب، أخبر ألِن شقيقه أنّ لديه "شكوكاً إزاء أبناء عمومتنا، وإذا كانوا يريدون شيئاً ما... علينا أن ننظر إليه بجدّية". مع أنّ كلا الرجلين شعر بأنّه سيكون من "الجيّد وجود حكومة مُعادية للشيوعيّة في سوريا"، فإنّهما اتّفقا مع عملائهما على الأرض أنّه سيكون "من الخطأ محاولة إلغائه".[498]

498 Eveland, *Ropes of Sand*, p. 227; Lucas and Morey, 'The Hidden "Alliance"', p. 112; Little, 'Cold War and Covert Action', p. 67.

رغم مقاومة إدارة أيزنهاور الضّغوط البريطانيّة المتزايدة عليها لشنّ الانقلاب خلال تشرين الثاني/ نوفمبر، فإنّ الوضع في سوريا كان يعنيهم. ففي أعقاب الانقلاب الفاشل، طلب البعثيّون

القوميّون الاشتراكيّون بنجاح إجراء عمليّة تطهير لخصومهم اليمينيّين، ما عزّز قبضتهم على الحكومة. شجعهم الشيوعيّون السوريّون الذين بدا أنّ نفوذهم يتزايد. وتساءل الديبلوماسيّون الأميركيّون هل أبرم القوتلي صفقة عسكريّة أثناء وجوده في موسكو. أثناء أزمة السويس، أمرَ رئيس الولايات المتحدة بإجراء استطلاع لسوريا على ارتفاعات عالية، لمعرفة هل ينقل الاتحاد السوفياتي الطائرات داخل البلاد. رغم أنّ هذا لم يظهر شيئاً غير مرغوب فيه، فإنّ البريطانيّين أمروا بإجراء استطلاعهم الجوّي الخاصّ، وصرّح لويد في اجتماع لـ"الناتو"، في كانون الأول/ ديسمبر، بأنّه يبدو أنّ السوفيات يخزنون الدبّابات والمدفعيّات في سوريا. أعلن آيك في 12 كانون الأول/ ديسمبر أنّه "لا ينوي الوقوف مكتوف الأيدي لرؤية الجناح الجنوبيّ لـ'الناتو' ينهار تماماً عبر اختراق الشيوعيّين للشرق الأوسط وانتصارهم".

في خطاب ألقاه أمام الكونغرس بعد أقلّ من شهر، في 5 كانون الثاني/ يناير 1957، طلب أيزنهاور منحه السلطة لتحويل مئتي مليون دولار من ميزانيّة عقد الأمن المتبادل ليتمكن من الإنفاق بحرّية أكبر على المساعدات الاقتصاديّة والعسكريّة في الشرق الأوسط. كان الأمر الأكثر إثارة للجدل مطالبته أيضاً بمنحه الضوء الأخضر لإلزام القوّات المسلّحة الدفاعَ عن أيّ بلد يواجه "عدواناً مسلّحاً علنيّاً من أيّ دولة خاضعة للشيوعيّة الدوليّة". رغم أنّ هذا كان يمثّل توسّعاً كبيراً للصلاحيّات الرئاسيّة، فإنّ الكونغرس وافق على الإجراءين، وتحوّلت "عقيدة أيزنهاور" إلى قانون في 9 آذار/ مارس. بعد بضعة أسابيع، انضمّت الولايات المتحدة أيضاً إلى اللجنة العسكريّة لـ"حلف بغداد"، وذلك هيّأ الساحة لمحاولة أميركيّة أخرى للإطاحة بالحكومة في سوريا.[499]

499 Hahn, 'Securing the Middle East', p. 39.

***

الرجل الذي كان بأمسّ الحاجة إلى المال من مبلغ مئتي مليون دولار الذي كان بحوزة آيك هو الجار الجنوبيّ لسوريا، حسين، ملك الأردن. بعد مدة وجيزة من انتهاء أزمة السويس، أعلن رئيس وزرائه القوميّ، سليمان النابلسي، أنّه يعتزم إلغاء معاهدة البلاد لعام 1948 مع بريطانيا، والتخلّي عن المساعدة الماليّة بقيمة اثني عشر مليون جنيه إسترليني المرافقة لها. بدا الأمر كأنّ النابلسي "أطلق النار على سانتا كلوز"، قال السفير البريطانيّ ممازحاً. ولم يبذل رئيس الوزراء البريطانيّ الجديد هارولد ماكميلان، الذي قرّر أنّ وجود بلاده في الأردن مسؤوليّة مكلفة جدّاً وغير فعالة، أيّ جهد للوقوف في طريقه، ما حفّز عبد الناصر على الإسراع لاستغلال هذه الفجوة.

بدعوة سعود والملك حسين ورئيس الوزراء السوريّ إلى القاهرة، توسّط الزعيم المصريّ لصفقة من شأنها سدّ الثغرة في ميزانيّة الأردن. وفي 19 كانون الثاني/ يناير 1957، وقّع الرجال الأربعة على "اتفاقيّة التضامن العربيّ" التي خصّت الأردن بمبلغ سنويّ قيمته أربعون مليون دولار على مدى السنوات العشر المقبلة – المبلغ الذي ستخسره البلاد جراء التخلّي عن المعاهدة – بنسبة تضمن أن تدفع مصر وسوريا للأردن قيمة أكبر ممّا يدفعه سعود.[500]

[500] Johnston, *The Brink of Jordan*, p. 80.

قبل يومين من مباشرة السفير البريطانيّ المحادثات التي تطالب بإنهاء المعاهدة، وجّه حسين طلباً شبه مباشر للحصول على مساعدة أميركيّة. في 2 شباط/ فبراير، حذّر الملك النابلسي علناً من الأخطار التي تلحقها الشيوعيّة بالقوميّة العربيّة، وكان تفسير رئيس وزرائه لهذه المحاضرة صائباً، إذ رآها تصويتاً لحجب الثقة. في وقت لاحق، كتب السفير البريطانيّ أنه بحلول منتصف الشهر، كان يعتقد أنّ النابلسي على اتّصال مباشر بالحكومة السوفياتيّة التي كانت، ربّما عن طريق الابتزاز، "قادرة على التأثير فيه كثيراً".[501]

[501] Johnston, *The Brink of Jordan*, p. 54.

في نهاية آذار/ مارس، حذّر السفير الأميركيّ حكومته من أنّه "لا شكّ لديه" في أنّ النابلسي كان "عازماً على تدمير الأردن بشكله الحالي، وإسقاط الملك لمصلحة اتّحاد فيديراليّ مع سوريا ومصر لا يزال غير محدّد المعالم". ظلّت برقيّته منقوصة جزئيّاً لكنّها لمّحت إلى أنّ المعلومات المخابراتيّة حول المؤامرة السوريّة ستُقدَّم قريباً إلى الحسين، على الأرجح عبر كيم روزفلت الذي قضى مدة كبيرة في الأردن خلال آذار/ مارس. أيّاً كانت المعلومات توقّع السفير الأميركيّ أن تحفّز الملك على استبدال النابلسي. وأضاف أنّ "احتمالات حدوث انقلاب من نوع 'الانقلاب على القصر'، في المستقبل القريب، تزداد أكثر فأكثر". وكان هذا التنبّؤ دلالة على قدرة غريبة على التبصّر، أو على الأرجح نتيجة حصوله على معلومات داخليّة.[502]

[502] *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII p. 89, Mallory to State Department, 29 March 1957; Wilford, *America's Great Game*, p. 267.

وفقاً لما قاله ضابط "المخابرات المركزيّة" مايلز كوبلاند، ادّعى عبد الناصر لاحقاً أنّ كيم روزفلت أعطى كلّاً من النابلسي وقائد الجيش، علي أبو نوّار، معلومات مغلوطة أقنعتهما بأنّهما يستطيعان شنّ انقلاب ناجح ضدّ الملك. الأكيد هو أنّ الأزمة التي استمرّت لشهر بدأت في 3 نيسان/ أبريل عندما أعلن النابلسي، من دون إخطار الملك مسبقاً، أنّ الأردن سيفتح علاقات ديبلوماسيّة مع

موسكو. بعد أربعة أيّام، قدّم إلى الملك قائمة بأسماء المسؤولين في المحكمة، الذين يريد إزالتهم. كان الحسين مدركاً للشعبيّة التي كان يتمتّع بها النابلسي، ولذلك لم يكن لديه خيار آخر سوى الموافقة. في اليوم التالي، توجّهت سيّارات مدرّعة تابعة للجيش الأردني كانت متمركزة شمال عمان في الزرقاء إلى العاصمة، وحاصرت قصر الملكة زين، واستولت على النقاط الرئيسيّة في جميع أنحاء المدينة. عندما استدعاه الملك، ادّعى نوّار أنّها كانت عمليّة أمنيّة روتينيّة، ووافق على سحب المركبات في اليوم التالي. رأى السفير البريطانيّ أنها "محاولة غير مكتملة" للضغط على الحسين.[503]

503 Wilford, *America's Great Game*, p. 267; Shlaim, *Lion of Jordan*, p. 131.

لم يعد الحسين يثق بنوّار الذي راح يقلّد مصافحة عبد الناصر منذ عودته من رحلة إلى القاهرة في العام السابق. لكنّه عرف أيضاً أنّ نوّار حصل على دعم محدود من الوحدات البدويّة المحافظة جدّاً في الجيش، التي ظلّت مُوالية له. بحلول الوقت الذي دعا فيه النابلسي إلى إرسال المزيد من الرجال في العاشر من الشهر، كان الحسين واثقاً أنّ الجيش والشرطة كانوا وراءه، والأميركيّون أيضاً على الأرجح. فوجّه رسالة إلى رئيس الوزراء يطالبه فيها باستقالته وحكومته. وفقاً لحسابات النابلسي كان بإمكانه إحباط محاولات الحسين لتشكيل حكومة جديدة، ولذا قبلَ التحدّي. في اليوم التالي، عقد الوزراء المقالون مؤتمراً في الفندق الذي كانت تقيم فيه جميع الصحف الأجنبيّة. كان كيم فيلبي، الذي كان حينئذ المراسل الأجنبيّ لصحيفتَي *Econimist* و*Observer*، حاضراً. وذكر أنّ وزراء النابلسي كانوا "مبتهجين"، وأنّه من المتوقّع "عودتهم إلى السلطة في أقلّ من 48 ساعة".[504]

504 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 11 April 1957.

لكن، لم يكن هذا ما حدث. فبعد مرور ما يزيد على 48 ساعة بقليل، في مساء الثالث عشر من الشهر، سمع الجنود البدو المتمركزون في معسكر بالقرب من الزرقاء شائعة تفيد بأنّ الملك قد قُتل. عصوا أمر الخروج للمشاركة في تمرين ليليّ في الصّحراء – اشتبهوا في أنه خدعة لإبعادهم عن الطريق – وذهبوا إلى الزرقاء حيث باشروا الاقتتال مع الوحدة الأخرى المتمركزة هناك، التي تضمّ رجالاً من مدن كمدينة السلط التي يتحدّر منها نوّار. عندما وصلت أنباء هذا الاضطراب إلى الحسين في عمان، استدعى نوّار الذي اعترف بأنّ الوضع خارج عن إرادته، ووافق على مضض على مرافقة الملك إلى الزرقاء. في الطريق، صادفوا البدو الذين تمكّن الحسين من تهدئتهم، لكن ليس قبل أن يتّهموا نوّار بالخيانة. توسّل نوّار، الذي كان يرتجف لا إراديّاً، الحسين للسماح له بالعودة إلى

عمان، فوافق الأخير. قال له: ”أنتَ ضعيف، وأنا لا أهاجم أبداً رجلاً ضعيفاً. لن أسمح بقتلك“. يبدو من المحتمل جدّاً أن يكون الحسين قد أثار الشائعات، ومن ثمّ الحادثة قصداً، ليتمكّن من وضع حدّ لنوّار. ما عزّز تلك الشكوك اكتشاف نسختيْن من علَم الجمهوريّة الأردنيّة العتيدة في مكتب نوّار. على حدّ تعبير السفير البريطانيّ، ”أثبت نوّار أنّه لا يزال متآمراً هاوياً، فيما كان الملك يشق طريقه نحو الاحتراف“.[505]

[505] MEC, Slade-Baker Papers, diary, 23, 30 April 1957; Johnston, *The Brink of Jordan*, p. 67.

لم تنتهِ هذه الأزمة بعد. عندما ظهرت بوادر شنّ غزو إسرائيليّ في أواخر 1956، أرسل كلّ من سوريا والسعودية قوّات إلى الأردن حيث مكثت هناك. في اليوم التالي لإسقاط الحسين جنراله الأعلى رتبة، وصلَ خبرٌ مفاده أنّ ثلاثة آلاف جنديّ سوريّ باشروا التحرّك جنوباً باتّجاه عمان. أرسل الحسين قوّات الشمال لمنعهم، وناشد رئيس سوريا لسحبهم. في هذه اللحظة، هبّ سعود لمساعدة الحسين، فقدّم فوراً قسطاً من المساعدة السنويّة المخصّصة له، التي تبلغ خمسة ملايين جنيه إسترليني، ووضع لواءيه اللذين كانا متمركزيْن في وادي الأردن، تحت القيادة الأردنيّة. انسحب السوريّون، لكن الحسين وضع حدّاً للأزمة عندما قرّر في 25 نيسان/ أبريل وضع حدّ لتجربة البلاد القصيرة مع الديموقراطيّة، واختيار حكومة من المؤيّدين الموثوق بهم، الذين سيحكمون في المستقبل بموجب مرسوم. أظهر الأميركيّون موافقتهم بتخصيص عشرين مليون دولار من أموال ”عقيدة أيزنهاور“ للأردن. نُقل عن أيزنهاور قوله: ”لا شكّ أنّ الملك الشابّ أثبت شجاعته. لندعه يأتي إلينا في يوم من الأيّام“.[506]

[506] *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 109, Editorial Note.

حفّزت الأحداث في الأردن رغبة إدارة أيزنهاور في تغيير النظام في دمشق إلى حيث هرب نوّار من ورطته بعد أن أقاله الملك حسين. في سوريا، كان اليمين موصوماً بتورّطه أو بارتباطه بمحاولة الانقلاب في العام السابق. أمّا اليسار، فكان مستفيداً، وبحلول ربيع 1957 كان يحكم البلاد أربعة رجال فقط: وزير الدفاع اليساريّ وملّاك الأراضي خالد العظم، وزعيم ”حزب البعث القوميّ الاشتراكيّ“ أكرم الحوراني، وخالد بكداش الكرديّ الذي كان يسيطر على الحزب الشيوعيّ السوري، وعبد الحميد سرّاج، رئيس المخابرات السوريّة الذي ذاع صيته بعد أن كشف مؤامرة 1956، وكان يُقال عنه: ”لا يمكن لنملة أن تتحرّك دون أن يعرف بها السرّاج“. كان ولاء السرّاج

مثيراً للجدل. فقد لاحظ أحد زوّاره أنّه كان يعلّق صورة لعبد الناصر في مكتبه. لم يكن هنالك من شبيه للقوتلي، رئيس سوريا، في أيّ مكان في العالم.[507]

[507] Seale, *The Struggle for Syria*, pp. 281, 319.

***

في نيسان/ أبريل 1957، عندما كان كيم روزفلت في الأردن، حاول ابن عمّه آرتشي مرّة أخرى شنّ انقلاب في سوريا، مُعاوِداً استخدام ميخائيل إليان والملحق العسكريّ العراقيّ في بيروت، اللذين تورّطا جدّاً في المؤامرة التي خُطّط لها في العام السابق. يشير توقيت الانقلاب إلى أنّه صُمّمَ وفقاً لتكتيك الكمّاشة، ليتزامن مع تحرّك الملك حسين ضدّ النابلسي ونوّار. أياً كان، لم يفضِ إلى نتيجة.

إزاء اطّلاعه على ”أدلّة دامغة“ على أنّ المصريّين والسوريّين كانوا يجرون عمليّات سرّية ضدّ الأردن، وأنّ المصريّين كانوا يحاولون اغتيال حسين، أدرك مدير ”وكالة المخابرات المركزيّة“ الأميركيّة ألِن دالاس أنّه لا يستطيع أن يترك المسألة تطول. قال لشقيقه في 7 أيار/ مايو: ”علينا مباشرة مخطّط جديد لشنّ انقلاب في سوريا“. وأصرّ قائلاً إنّ الوضع ”ليس ميؤوساً منه“.[508]

[508] Rathmell, *Secret War in the Middle East*, p. 138.

إنّ المعلومات المخابراتيّة حول أنّ الروس كانوا يبنون منشآت للدفاع الجوّي على حدود سوريا، ويأملون في استخدام البلاد كقاعدة لشنّ هجمات جويّة على تركيا والعراق، زادت الضّغوط من أجل التحرّك. كذلك فعلَ تقرير مفاده أنّ الروس أعطوا السرّاج خمسين مليون دولار للتدخّل في الانتخابات اللبنانيّة التي جرت في تموز/ يوليو من ذلك العام. ثمّ أطلق القوتلي على الولايات المتحدة لقب ”العدوّ العلنيّ“.[509]

[509] Asseily and Asfahani, eds, *A Face in the Crowd*, 144/12, report dated 30 May 1957; Rathmell, *Secret War in the Middle East*, p. 136.

بلغ الوضع ذروته عندما وقّع وزير الدفاع السوريّ خالد العظم، في 6 آب/ أغسطس، اتّفاقاً حول المساعدات الاقتصاديّة والتقنيّة مع الاتحاد السوفياتي خلال زيارة أجراها إلى موسكو. بموجب الاتفاق الذي كانت شروطه في البداية غامضة، وافق الروس على توفير خبرة تقنيّة في مجال البنية التحتيّة، ومنح حكومة دمشق قرضاً ميسّراً بقيمة نصف مليار دولار، قابلاً للتسديد على اثني عشر عاماً بمعدّل 2.5%، في وقت كانت فيه الدول الغربيّة تمنح قروضاً بنسبة 7% فقط لمدّة أقصاها

ثلاث سنوات. ''يبدو أنّ القادة السوريّين يميلون أكثر إلى القبول الأعمى بالنفوذ السوفياتي أكثر من أيّ بلد آخر في المنطقة''، كما لاحظ زملاء إيفلند في ''مجلس مراقبة العمليّات'' في واشنطن، الذي أضاف وجود دليل على أنّ السوفيات ''يحوّلون سوريا إلى نقطة محوريّة لتوزيع الأسلحة وغيرها من الأنشطة، بدلاً من مصر''.510

510 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 6 August 1957; Little, 'Cold War and Covert Action', p. 70.

تمكّن ''مجلس مراقبة العمليّات'' من تنفيذ عمليّات سرّية لمصلحة ''مجلس الأمن القوميّ''، وأشارت اهتماماته إلى أنّه كان يُخطَّط بالفعل لمحاولة انقلاب أخرى. ففي غضون يومين، وافقت واشنطن على عمليّة بقيادة روكي ستون، الرجل الذي ساعد فضل الله زاهدي المتوتّر على تزرير زيّه العسكريّ يوم الانقلاب الإيرانيّ. بعد محاولته وفشله مرّتين إلى جانب إليان، أرادت ''المخابرات المركزيّة''، بهدف التغيير، أن تعيد هذه المرّة أديب الشيشكلي إلى السلطة. لكنّ محادثات ستون مع ضبّاط الجيش السوريّ المنشقّين الشباب سرعان ما عادت إلى السرّاج الذي تمكّن من إقناع ''المخابرات المركزيّة'' بإرسال أحد قادة المؤامرة إلى دمشق حيث تعرّفوا إليه. في 12 آب/ أغسطس، أعلن رئيس المخابرات السوريّة أنّه كشف مؤامرة تورّط فيها ديبلوماسيّون أميركيّون، فطرد اثنين وستّين من زملائه في اليوم التالي. بعد خمسة أيّام، طهّرت الحكومة الجيش من ضبّاطه اليمنيّين المتبقّين، وأقالت رئيس الأركان المُوالي للغرب واستبدلت به عفيف البزري الذي لعب في وقت سابق من مسيرته المهنيّة دوراً في محاولة انقلاب فاشلة مدعومة من النازيّين ضدّ الهاشميّين في بغداد عام 1941. فوراً وصفت الصّحافة البريطانيّة والأميركيّة البزري بالشيوعيّ. وفي اليوم التالي لإعلان ستون وزملائه أشخاصاً غير مرغوب فيهم، قرّرت ''الخارجيّة'' أنّه يمكن تصنيف سوريا الآن ''دولة تابعة للسوفيات''.511

511 Rathmell, *Secret War in the Middle East*, p. 137.

بمراجعة هذه الأحداث، كشف دالاس عن ''نمط خطير وكلاسيكيّ''. أوّلاً عرض السوفيات المساعدة. ثمّ استخدموا هذه المساعدة لتشجيع المناصرين، أمثال البزري، على استلام مواقع في السلطة. في النهاية، ستقع البلاد تحت السيطرة الشيوعيّة، وتصير دولة تابعة للسوفيات وموجّهة من موسكو. نتيجة ذلك أصبحت أحداث الأشهر السابقة أكثر وضوحاً وترتيباً ممّا كانت عليه في واقع الحال، واعترف دالاس أنّ وجهة نظر سفيره في سوريا أخذت منحىً أقل نمطية. اعترف الوزير

قائلاً: ''لا نعرف بعد إلى أيّ مدى وصلت سوريا''، لكنّه كان على يقين أنّ ''الأحداث التي جرت مؤشّرٌ على الخطر''.[512]

[512] *FRUS*, 1955–57, XIII, p. 642, Dulles to Eisenhower, 20 August 1957.

تأثّر أيزنهاور بحماسة وزير خارجيّته، فعقد اجتماعاً في اليوم التالي للتباحث حول ''إجراء جذريّ إلى حدّ ما''، من شأنه معالجة الوضع. تقرّر خلال الاجتماع تشجيع جيران تركيا وسوريا والعرب على بذل جهود جديدة لتغيير الحكومة في دمشق. وإن اندلعت الحرب، فستزوّدهم الولايات المتحدة بالأسلحة. في ذلك المساء، وجّه دالاس رسالة إلى سيلوين لويد في لندن. كتب فيها: ''على أمل تصحيح الأمور من الداخل''، حان الوقت ''للتفكير في الخارج... ربّما علينا الاستعداد للمخاطرة بجدية كي نتجنّب المزيد من المخاطر والتهديدات لاحقاً''. لكن هذا النداء أثار ردّاً غير متوقّع في لندن.[513]

[513] Little, 'Cold War and Covert Action', p. 72; *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 648, Dulles to Lloyd, 21 August 1957.

على العموم، مقارنةً بإيدن، كان ماكميلان رجلاً أكثر هدوءاً، وفي ظلّ قيادته الأكثر حذراً، خلال الأشهر التسعة منذ أزمة السويس، حدث انعكاس غريب للأدوار. فخلال أزمة السويس، لحظ سفير بريطانيا لدى واشنطن آنذاك: ''نحن نضغط من أجل التحرّك الفوريّ، بينما يفضّل الأميركيّون التحرّك بهدوء وحذر شديد وإجراء الكثير من التشاورات. هذا بعكس ما يفترض أن تكون عليه أطباعنا''. والآن يبدو أنّ النظام الطبيعيّ قد أعاد فرض نفسه. فبينما كان دالاس متحمّساً لإجراء تحرّك منسّق، كان ماكميلان متردّداً. كان ذلك أشبه بـ''سويس في الاتّجاه المعاكس''، كتب في مذكّراته. ''إن لم يكن الأمر جادّاً (وغير مُرضٍ فعليّاً)، فسيكون مدعاة للضّحك''.[514]

[514] Goodman, *The Official History of the Joint Intelligence Committee*, p. 396; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 55, 27 August 1957.

صار السبب الذي دفع ماكميلان إلى الحذر واضحاً في أوّل اجتماع لمجلس الوزراء بعد العطلة الصيفيّة: أمنُ إمدادات النفط البريطانيّة. فقد كان خطّ أنابيب IPC الذي خرّبه السوريّون أثناء أزمة السويس، والذي عاد إلى العمل الآن، ينقل خمسة وعشرين مليون طن من النفط عبر سوريا سنويّاً؛ كان مشروع ''تابلاين'' ينقل اثني عشر مليون طنّ إضافيّاً. كان رئيس الوزراء قلقاً من التداعيات التي قد تترتّب على حدوث اضطراب آخر يؤدّي إلى تقنين الوقود، ولذا أقرّ بأنّه لا يريد من بريطانيا أو أميركا اتّخاذ أيّ إجراء من شأنه استفزاز سوريا ودفعها إلى قطع الأنابيب... ''إلّا إذا

كان ذلك يسرّع آليّة الوصول إلى حلّ دائم. إن كانت الولايات المتحدة مستعدّة لخوض أزمة سويس جديدة، فسندعمها. لكنّنا لا نريدها أن تخيفهم فقط. كانت المعضلة التي يواجهها ماكميلان تقضي بتحديد مدى انخراطهم". كما كتب في مذكّراته، كان الخيار هو إمّا "الوقوف على الخطوط الجانبيّة والتشجيع، وإمّا لعب دور أساسيّ"[515].

515 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, pp. 57–8, 7 September 1957.

في غضون ذلك، أرسل دالاس شخصاً آخر متمرّساً بانقلاب مصدّق هو السفير السابق لدى طهران لوي هندرسون، في مهمّة إلى الشرق الأوسط لمقابلة الديبلوماسيّين الأميركيّين ومسؤولي "المخابرات المركزيّة" وجهاً لوجه، وحشد الدّعم من الحكومات التركيّة واللبنانيّة والعراقيّة والأردنيّة. فأكّد هندرسون لدى عودته، قبل أن يقدّم تقريراً أكثر اكتمالاً إلى أيزنهاور ودالاس في البيت الأبيض، أنّ "الوضع خطير للغاية". ثلاث مشكلات واجهت الرجال الثلاثة: أوّلها انقسام جيران سوريا بشأن ما عليهم فعله، والثانية التي ستزيد المشكلة سوءاً أنّ إسرائيل قد تتّخذ إجراءات من جانب واحد، وفي هذه الحال، ستقف الدول العربيّة حتماً إلى جانب سوريا، وأخيراً معرفة ما سيكون عليه ردّ زعيم السوفيات، نيكيتا خروتشوف، كونه قد بدأ يصدر أصواتاً تهديديّة.

لم تضطرّ واشنطن إلى الانتظار مطوّلاً. ففي 10 أيلول/ سبتمبر، كشف وزير الخارجيّة السوفياتيّ المتحفّظ عادة، أندري غروميكو، أنّ تركيا كانت تحشد قوّات على طول حدودها الجنوبيّة، وحذّر من إمكانيّة تحوّل الصراع المحلّي إلى حرب عالميّة. وصف ألِن دالاس تدخُّل غروميكو بأنّه "قد يكون الهجوم الأكثر مرارة على الإطلاق الذي يشنّه مسؤول سوفياتيّ على الولايات المتحدة". وفي ذلك المساء، حاول شقيقه الأكبر تخفيف حدّة التوتّر قليلاً بالقول إنّه لا يعتقد بوجود حاجة إلى القوّات الأميركيّة في المنطقة.[516]

516 Kirk, ‘The Syrian Crisis of 1957’, p. 60; *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 702, memorandum of NSC discussion, 12 September 1957.

في 13 أيلول/ سبتمبر، أصدر فريق عمل إنكليزيّ–أميركيّ، تمركزَ في واشنطن قبل أسبوع للنظر في الخيارات المُتاحة، تقريراً أوّليّاً. بعد أن اتّفق مع دالاس على أنّ قوّة خارجيّة هي الوحيدة القادرة على تغيير الموقف بسرعة، وضع خطّة لتشجيع الاضطرابات داخل سوريا والحوادث الحدوديّة وعمليّات مشاغلة (False Flag) في البلدان المجاورة، من شأنها أن تمنح جيران سوريا أسباباً للتدخّل، فضلاً عن التخريب والتنكيد واغتيال السرّاج والبزري وبكداش. عندما وُقّع على هذه

"الخطّة المفضّلة" في الثامن عشر، اتّفق الجانبان على أنّه سيكون من الأفضل إقناع الدول العربيّة بالتحرّك، واللجوء إلى تدخّل تركيا – القوّة الإمبرياليّة القديمة في المنطقة – كملاذ أخير فقط.

مرّة أخرى، لم تحقّق الخطّة أيّ نتيجة. كان الأتراك ينتظرون بصبر نافد على طول الحدود السوريّة. فأثار السوريّون التعاطف العربيّ بنجاح بالإشارة إلى التهديد التركيّ. تدخّل العراقيّون – الذين كانوا قلقين أيضاً إزاء النزعة التوسّعية العثمانيّة الجديدة – وتبعَهم الملك سعود وعبد الناصر وخروتشوف. وفي 25 أيلول/ سبتمبر، زار الملك سعود دمشق، وحاول أن يلعب دور الوسيط. وردَ في تقرير مخابراتيّ أنّ ما دفعه إلى ذلك قلقه من أن يؤدّي نجاح أميركا في تحقيق انقلاب مدوٍّ في دمشق إلى تنفيذ مخطّط "الهلال الخصيب" الذي لطالما كان يخشاه، ووالده من قبله. بعد ذلك، أنزل عبد الناصر في تحرّك مفاجئ اثني عشر ألف جنديّ مصريّ في اللاذقية على الساحل السوريّ لمساعدة السوريّين على صدّ هجوم تركيّ مُحتمَل. أخيراً في اليوم التالي، حذّر خروتشوف الأحزاب الاشتراكيّة في أوروبا من أنّهم يواجهون خطراً كبيراً عبر انقيادهم إلى حرب على سوريا. رأى دالاس أنّ خروتشوف كان "فظّاً وانفعاليّاً بدلاً من أن يكون متيقّظاً ودقيقاً في حساباته"، وكان يعتقد أنّه "رجل خطير للغاية ليكون رئيس دولة". نتيجة لذلك لم يكن مستعدّاً لمباركة العمل العسكريّ التركيّ. وكان لماكميلان الرأي نفسه. "في الوقت الحاليّ، نحن مضطرّون إلى اتّباع سياسة احتوائيّة تجاه سوريا، وذلك لفقدان خيار أفضل".[517]

517 Asseily and Asfahani, eds, *A Face in the Crowd*, p. 143, 173/12, 'The Situation in Syria'; TNA, CAB 195/16, meeting of 8 October 1957.

طوال الأزمة حافظ الأميركيّون على وجود ديبلوماسيّ محدود في دمشق، وفي 16 تشرين الأول/ أكتوبر، استعرض القائم بالأعمال في الولايات المتحدة الوضع في برقيّة غير اعتيادية إلى حدّ ما. إزاء إخفاق سياسة الولايات المتحدة تجاه سوريا، سأل: "ما البدائل المُتاحَة لدينا؟ استخدام القوّة أمرٌ مرفوض، والتحرّكات السرّية لن تنجح. إن مجرد اتّباع خطّ متشدّد من الغرب من شأنه أن يدفع سوريا إلى التقرّب من الكتلة السوفياتيّة. لسوء الحظ، لا أرى أيّ بديل مُرضٍ سوى ترك مهمّة معالجة المشكلة للملك سعود وغيره من العرب المعتدلين". وخلص إلى القول: "أفضل ما يمكن أن نأمله من سوريا، على المدى الطويل، هو الحياد الحقيقيّ".[518]

518 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 718, Strong to Rountree, 16 October 1957. *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 718, Strong to Rountree, 16 October 1957.

22

عام الثورات

بعد ثمانية أسابيع من اعتراف الأميركيّين بفشلهم في سوريا، وصل عرض للمساعدة من جهة غير متوقّعة. في 11 أيلول/ ديسمبر 1957، نقل السفير الأميركيّ لدى القاهرة أنّ صحافيّاً مصريّاً أخبره أنّ عبد الناصر مقتنع بالمعلومات التي قدّمتها الولايات المتحدة، حول أنّ رئيس الأركان السوريّ الجديد، عفيف البزري، كان شيوعيّاً، وشعر بالفعل أنّه "يجب فعل شيء حيال ذلك". وتابع السفير قائلاً إنّ عبد الناصر "يطلب منّا فقط أن نرفع أيدينا عن سوريا لمدّة أقصاها ثلاثة أشهر، خصوصاً ألاّ نفعل أي شيء من شأنه أن يؤدّي، على نحو غير مقصود، إلى جعل البزري وبكداش وخالد العظم أبطالاً".[519]

519 *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 745, Hare to State Department, 11 December 1957.

كان الصحافيّ أحد المقرّبين المعروفين من عبد الناصر، وبما أنّ ما قاله مرتبط بالتقارير الأميركيّة من دمشق حول دعم المصريّين لـ"البعث" ضدّ الشيوعيّين، ارتأى السفير الأميركيّ أنّ هذه المبادرة قد تكون حقيقيّة، فقابلها بترحيب حارّ. قال لواشنطن إنّه "من الممكن أن تكون مصر، رغم أنّها مسؤولة إلى حدّ كبير عن الفوضى الحاليّة في سوريا، مستعدّة الآن لبذل جهود جدّية لإنقاذ الوضع". ردّ دالاس في اليوم التالي ليقول إنّه سيرحّب بأيّ عمل يهدف إلى إعاقة الخرق الشيوعيّ لسوريا. نظراً إلى إخفاق جميع الجهود الأميركيّة للتدخّل الحاسم في سياسة البلاد لم يكن هناك وفقاً للحسابات المرجّحة لعبد الناصر أيّ شيء آخر يمكن أن يقوله.

ما كان يخطّط له عبد الناصر صار واضحاً في الشهر التالي عندما وصل في 12 كانون الثاني/ يناير 1958 وفدٌ من أربعة عشر ضابطاً عسكريّاً سوريّاً إلى القاهرة بقيادة البزري نفسه لمقابلته. كانوا قد سئموا من الفوضى التي اجتاحت بلادهم، ولذا توسّلوه خلق وحدة سياسيّة بين مصر وسوريا وبالشروط التي يريدها؛ تفيد الشائعات بأنّهم قالوا لهم إنّهم سيسعون إلى التحالف مع روسيا إن لم يوافق.[520]

520 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 12 February 1958.

وفقاً لـ"المخابرات المركزيّة" قال عبد الناصر بعد ذلك إنّه فوجئ باقتراح البزري، لكنّه من الصّعب تصديق ذلك. فقد كانت كلّ الأنظار موجّهة نحو سوريا منذ شهور، وشجّع سفير عبد الناصر لدى دمشق منذ مدة طويلة الدعوات البعثيّة للاتّحاد مع مصر. ارتفع صوت هذه الحملة مع تزايد مخاوف البعثيّين من التدخّل الروسيّ والأميركيّ في بلادهم. من المؤكّد أنّ عبد الناصر حدّد شرطيْن للوفد السوريّ: حكم سوريا من القاهرة وحلّ برلمانها وأحزابها السياسية، وإخضاع الجيش للقيادة المصريّة وإحجامه عن لعب أيّ دور آخر في السياسة الوطنيّة. بحلول 20 كانون الثاني/ يناير، توصّل والبزري إلى اتّفاق؛ لخّص الجنرال السوريّ لدى عودته إلى دمشق الخيارات، وعرضها على المشكّكين في الحكومة. قال لهم: "هناك طريقان مفتوحان أمامكم: الأولى تقود إلى المزّة (السجن السياسيّ الذي يقع خارج دمشق)، والأخرى إلى القاهرة". تبيّن أنّ الخيار الذي أخذه البزري أوصله إلى طريق مسدود. ففي غضون ثمانية أسابيع، أقاله عبد الناصر.[521]

521 Eveland, *Ropes of Sand*, p. 271; Seale, *The Struggle for Syria*, p. 323.

في 1 شباط/ فبراير، أُنشأت الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. تراجعت الليرة السوريّة نتيجة تحويل المستثمرين أموالهم إلى عملات أخرى، كما هبطت أسعار الأراضي والأسهم. خلال الاحتفال الذي أقيم في القاهرة، دسّ رئيس سوريا شكري القوتلي ملاحظة حذرة. من المفترض أنّه قال لعبد الناصر: "حصلت على أمّة من السياسيين. 50% يؤمنون أنّهم قادة وطنيّون، و25% أنّهم أنبياء، و10% على الأقلّ يرون أنفسهم آلهة".[522]

522 Yapp, *The Near East Since the First World War*, p. 104.

تشير الصور التي التُقطت في ذلك اليوم إلى أنّ عبد الناصر كان متحمّساً أكثر من القوتلي بشأن ولادة الاتّحاد الجديد الذي يمثّل ذروة قوّته. في مكان آخر، أثارت ولادة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة مشاعر مختلطة. ففي حين عمّ الابتهاج الشارع العربيّ حيث كان الناس يأملون أن يكون هذا نذيراً للوحدة العربيّة التي حلموا بها دوماً، أثارت الأخبار الذعر في أذهان وقصور حكّام الدول المجاورة لسوريا، أي لبنان والأردن والعراق، حينما حاولوا استيعاب تداعيات الأمور عندما سيصير عبد الناصر جارهم القريب. فقد خشيَ وزير الخارجيّة اللبنانيّ أن ينادي أنصار عبد الناصر في بلده بالانضمام إلى الاتّحاد، وأدرك حسين، ملك الأردن، أنّ هذا النداء سيستميل الفئة الكبيرة من السكّان الفلسطينيّين الموجودة في بلاده، وتساءل وليّ العهد العراقيّ عبد الإله عمّا قد يفعله عبد الناصر الآن

بعد أن سيطر على أنابيب "نفط العراق". ستُظهر الأحداث الصاخبة التي وقعت عام 1958 أنّ القلق الشديد الذي انتاب الرجال الثلاثة كان في مكانه.

***

بدعوة من الملك حسين، في 11 شباط/ فبراير، وصل فيصل، ملك العراق، ومستشاروه إلى عمّان على متن طائرة لإجراء محادثات. كان فارق السنّ بين الملكيْن ستّة أشهر، ولذا اتّفقا جيّداً بعضهما مع بعض، لكنَ أسرتيْهما، على حدّ التعبير الديبلوماسيّ للسفير البريطانيّ لدى عمّان، "لم تكونا على علاقة طيبة". في العام السابق، تداعت تلك العلاقة على نحو لافت، والسبب الأساسيّ لهذا الخصام كان المال. فقد لاحظ السفير البريطانيّ أنه في حين كانت بدلات فيصل تُصنّع له في شارع سافيل، كان الملك حسين يتعامل مع خيّاط في شارع السلط في عمّان. لم يكن الأردنيّون يحبّون "أبناء عمومتهم الأثرياء البخلاء". [523]

523 Johnston, *The Brink of Jordan*, p. 88.

كان الملك حسين بحاجة ماسّة إلى المال العراقيّ. فالمصريّون والسوريّون لم يلتزموا أبداً الوعد الذي قطعوه في "اتّفاقية التضامن العربيّ" للعام الماضي بتقديم سبعة ملايين جنيه إسترليني سنويّاً، وهذا أمر لم يفاجئ أحداً على الإطلاق. ثمّ أخبر الملكُ سعود، الملكَ حسين، في كانون الثاني/ يناير، أنّه لم يعد قادراً أيضاً على تكبّد مدفوعاته السنويّة بقيمة خمسة ملايين. في مواجهة التحدّي المتزامن المتمثّل في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، والفجوة الماليّة بقيمة اثني عشر مليوناً في ميزانيته، اقترح حسين على ابن عمّه الأكثر ثراء اتّحاداً يتّسم بنظام ملَكيّ تناوُبيّ. عندما رفض فيصل النظر في ذلك، عرض الحسين التنحّي لمصلحة فيصل. بعد أن توصّلا إلى اتّفاق يبقى بموجبه كلّ رجل ملِكاً على بلده، أعلن الملِكان بعد ثلاثة أيّام إنشاء "الاتّحاد العربيّ" الذي سيكون فيصل ملِكاً عليه. أقرّ سفير الأردن لدى بغداد أنّ "أيّ اتّحاد أفضل من لا شيء". لكن في الضفّة الغربيّة، اختلف رعايا الحسين الفلسطينيّون. وفقاً لتقرير وزارة الخارجيّة، كان معظمهم "مقتنعين بأنّهم في الاتّحاد الخطأ". [524]

524 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 13 February 1958; Yaqub, *Containing Arab Nationalism*, p. 194.

تلقّى الملك سعود دعوة للانضمام إلى "الاتحاد العربيّ الهاشميّ" لكنّه رفضها. رغم تخوّفه، على غرار العراقيّين، من أن يكون عبد الناصر قادراً على تشغيل وتوقيف خطّ الأنابيب، رأى أنّه وجد

فكرة أفضل. بحلول منتصف شباط/ فبراير، كان يقول لأي كان: "توقّعْ أخباراً رائعة من سوريا قريباً". وفي 3 آذار/ مارس، أخبر أحد مسؤوليه السفير الأميركيّ لدى الرياض أنّ "ثورة عسكريّة ناجحة" كانت على وشك الحدوث في دمشق.525

525 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 15 February 1958.

نتيجة الضرر الذي ألحقه السوريون بالأميركيّين في العام السابق شدّد الأميركيون على توخّي الحذر، لكن سعود تجاهلهم. في 5 آذار/ مارس، أعلن عبد الناصر في أوّل زيارة له إلى دمشق أنّه اتصل أخيراً مبعوث من سعود بالسرّاج – رئيس المخابرات السوريّة – ودفع له قرابة مليوني جنيه إسترليني لشنّ انقلاب مضادّ على الاتحاد مع مصر، ووعده أيضاً بمليونين أخريين إذا اغتال عبد الناصر أثناء زيارته. في مؤتمر صحافيّ عُقد بعد ذلك بوقت قصير، وزّع السرّاج نسخاً من الشيكات الثلاثة التي حصل عليها والتي سُحبت من البنك العربيّ في الرياض. نُشرت صور الشيكات في الصحف المصريّة في اليوم التالي. وفقاً لكيم فيلبي، الذي زار الرياض بعد ذلك بمدة وجيزة، اعترف مدير البنك أنّ الأموال أودعها أحد المسؤولين التابعين لسعود.526

526 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 28 March 1958.

في واشنطن، أُصيب مدير "المخابرات المركزيّة"، دالاس، باليأس. "حاولنا تحذير سعود، لكن دون جدوى، إنّه يقع في فخّ نُصب له". شكّلت هذه المؤامرة نكسة كبيرة لواشنطن، لأنّها لعنت الأميركيّين نتيجة ترابط الأمور بعضها ببعض، وقادت فيصل، الأخ غير الشقيق لسعود والمؤيّد لمصر، إلى الاستيلاء على معظم الصلاحيّات المتبقّية للملك، واتّخاذ مسار حياديّ بجدّ.527

527 Yaqub, *Containing Arab Nationalism*, p. 197; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 27 April 1959.

***

إن كان سعود هو الضحيّة الأولى للجمهوريّة العربيّة المتحدة، كان الأميركيّون والبريطانيّون يخشون أن يكون الرئيس اللبنانيّ كميل شمعون هو التالي. فشمعون الذي يشغل منصبه منذ 1952 اتّخذ موقفاً مُوالياً لأميركا علناً، الأمر الذي خلق له، رغم الترحيب به في واشنطن، الكثير من الأعداء في الداخل حيث تعارض مع الالتزام بعدم الانحياز الذي كان أساس سياسات البلاد منذ الاستقلال في 1943. كان يريد أن يترشّح للرئاسة مرّة أخرى. لم يكن طموحه بالسهولة التي كان ليبدو عليها.

كان الدستور اللبنانيّ بالشكل الذي هو عليه يمنع الرئيس من شغل منصب الرئاسة لولايتيْن متتاليتيْن؛ سيكون شمعون أوّلاً بحاجة إلى موافقة البرلمان لتعديل نصّ الدستور قبل حلّ الهيئة التشريعيّة في أيار/ مايو إذا أراد أن يرشّح نفسه في ذلك الصيف. من الناحية النظريّة، كونه يتمتّع بغالبية برلمانيّة كبيرة، كان من المفترض أن يكون الأمر سهلاً. ولكن في الأشهر الثمانية التي تلت الانتخابات البرلمانية، تفاقمت المشاعر المناهضة للغرب. بحلول آذار/ مارس 1958، كان شمعون في وضع هشّ، ولم يكن يحظى بتأييد شعبيّ. فضلاً عن ذلك، كان كثير من اللبنانيّين المسلمين يرون أن الدستور تشوبه العيوب (لأنّه يُمَأسس الهيمنة المسيحيّة في بلد صارت غالبيّة سكّانه من المسلمين)، ولذا كان التعامل معه علناً وفقاً لموضة خدمة المصالح الذاتيّة، فيما أخفقوا في معالجة أوجه القصور العميقة فيه، التي قد تحمل بذور انفجار. وقال معارضو شمعون الغاضبون إنّه كان يخاطر بالتسبّب في حرب أهليّة.

أدركت حكومة الولايات المتحدة أنّ شمعون صار عبئاً، وطلبت منه أن يتقاعد. في 5 آذار/ مارس، اجتمع السفير الأميركيّ مع الرئيس للتباحث في خلَفه المحتمل. اتّبع شمعون ’’عمليّة حذف المرشّحين المحتملين كافّة الذين شطبهم من القائمة فرداً فرداً‘‘، قبل أن يتوصّل إلى استنتاج مفاده أنّ ’’السياسيّ الوحيد الذي يمكنه قيادة البلاد وتقييم سياساته الخارجيّة الحاليّة كان هو بذاته‘‘، وهذا ما أبلغه السفير لواشنطن. في الشهر التالي، غيّر شمعون رأيه، وبدأ يرى أنّ رئيس أركان الجيش، فؤاد شهاب، قد يكون خياراً مقبولاً. بحلول أيار/ مايو، عاوده التفكير في أنّه الوحيد القادر على شغل المنصب.[528]

528 Yaqub, *Containing Arab Nationalism*, p. 209.

لكن قبل أن يعلن شمعون ترشيحه انفجرت حرب أهليّة في البلاد في أعقاب مقتل صحافيّ مسيحيّ مؤيّد لعبد الناصر في 8 أيار/ مايو، فدعا خصوم شمعون – بمن فيهم القادة السنّة، وكمال جنبلاط، والزعماء المسيحيّون – إلى استقالة الرئيس وإضراب عامّ. في طرابلس، خلال ثلاثة أيّام من الاشتباكات العنيفة، أشعل المتظاهرون النار في مكتبة مركز المعلومات التابع للولايات المتحدة. وفي الثاني عشر من الشهر، انتشر العنف في بيروت نفسها. وفي اليوم التالي، هاجم جنبلاط القصر الرئاسيّ جنوب شرق العاصمة رغم أنّ شمعون لم يكن موجوداً هناك في ذلك الوقت. بعد أن رفض فؤاد شهاب اتّخاذ إجراء ضدّ المتمرّدين خوفاً من انشقاق جيشه في حال فعل ذلك، حذّر شمعون الحكومتيْن الأميركيّة والبريطانيّة من إمكانيّة مطالبته بالمساعدة العسكريّة.

وضعَ تحذير شمعون الأميركيّين على وجه الخصوص أمام معضلة. على حدّ قول دالاس، يهدّد إرسال القوّات بخلق "موجة من المشاعر المُعادية للغرب في العالم العربيّ" قد تؤدّي إلى إزالة ما تبقّى من الحكومات المؤيّدة للغرب، وتخريب خطوط الأنابيب التي تمرّ عبر سوريا، ومن ثمّ إلى أزمة نفطيّة كبيرة أخرى للغرب. مع ذلك، إنّ العجز عن فعل أيّ شيء سيُظهر رغبة الولايات المتحدة عن الوقوف إلى جانب حلفائها، وهذا تقصير ستستغلّه موسكو بالتأكيد.[529]

529 *FRUS*, 1958–60, Vol. XI, p. 47, memorandum of conversation, 13 May 1958.

في لندن، تباحث ماكميلان وزملاؤه الوضعَ في اليوم نفسه. بعد أن حذّر لويد من أنّه "ما لم نوقف هذا الانجراف، سيتم امتصاص لبنان في الجمهورية العربيّة المتحدة"، وافق مجلس الوزراء على انضمامه إلى الولايات المتحدة لإخبار شمعون أنّه في حال طلب المساعدة، سيحصل عليها. خشيَ ماكميلان، الذي دوّن ما حدث في اجتماع مجلس الوزراء في مذكّراته في تلك الليلة، أن "يأتي دور" العراق بعد لبنان. بدا هذا التعليق في غاية الدقّة عندما أُطيح، بعد ثمانية أسابيع بالضبط، بالهاشميّين وجلّاديهم، بطريقة دمويّة.[530]

530 TNA, CAB 195/17, meeting of 13 May 1958; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 116, 13 May 1958.

***

لطالما أثار غياب المساواة في العراق قلق البريطانيّين الذين شجعوا الملك ومستشاريه على توزيع ثروتهم النفطيّة على نطاق أوسع. وهكذا في 1950، صرّح نوري بإنشاء مجلس لتنمية العراق. تنبّأ وزير الداخلية بما ستكون نتائجه بعد أربع سنوات، فقال لأحد زائريه إنّه "خلال خمس أو ستّ سنوات، سيتغيّر وجه البلاد ولن يعود أحد يتحدّث عن الشيوعيّة. إذا عدتَ إلينا في زيارة أخرى، سترى ذلك بنفسك". ولكن شغف نوري بالمشاريع الكبرى على حساب الأقلّ أهمّية شجّع المجلس على تبديد أمواله على مشاريع تافهة، في حين كان إصلاح البنية التحتيّة الحاليّة أكثر فعّالية من حيث التكلفة، وكان الإسكان أولويّة ملحة.

شكّل إحكام نوري قبضته على مجلس الإدارة وإخفاقه في إحداث أيّ تأثير أعراضاً لوهن أشدّ حدّة. بحلول كانون الأول/ ديسمبر 1956، أبلغ ضابط في جهاز المخابرات البريطانيّ، يُدعى مايكل إيونيد، بسماعه "شكاوى مريرة من الشباب، بين نحو ثلاثين وأربعينشاباً، من أنّ نوري لم يخدم الجيل العتيد على الإطلاق، بل أبقى كلّ شيء لنفسه، ولم يبنِ هيكليّة الحكومة والبرلمان، ولم يحاول

حتّى تفعيل الانتخابات كما فعلت البلدان الناشئة الأخرى". وتذمّروا لأنّه "ليس هناك منفذ للنقاش"، و"لا وسيلة لمشاركة الشباب". خلال زيارة عميل جهاز المخابرات البريطانيّ، جون سليد بايكر في العام التالي، سمع القصّة نفسها بالضّبط من شخص عراقيّ يعرفه، قال له إنّ مشاعر الغضب انتقلت الآن إلى الجيش. في غضون ذلك، كان المثقّفون ينادون بـ"الإصلاح الجذريّ". عندما سأله سليد بايكر عن معنى هذه العبارة بالضّبط، أوضح له الرجل أنّ "المسألة لا تقضي فقط بتشذيب بعض الأغصان وتقطيع قدر معيّن من الحطب الميّت"، بل بـ"قطع الشجرة من جذورها".531

531 Ionides, *Divide and Lose*, p. 189; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 7 October 1957.

في 1957، قبل مدة وجيزة من تولّي نوري منصب رئيس الوزراء مرّة أخرى، وللمرّة الثامنة والأخيرة كما اتّضح لاحقاً، أُرسل سام فال – الذي ساعد في تنظيم عمليّة الإطاحة بمصدّق في إيران – إلى العراق. كان نوري يناهز السبعين، وكانت الحكومة البريطانيّة تدرك على مضض أنّه لم يكن هناك شخص قادر على الحلول مكانه في حال رحيله. قبل التوجّه إلى بغداد، تذكّر أنّ رئيسه في لندن طرح عليه هذا السؤال: "ما نريد أن نعرفه يا سام هو: ماذا بعد نوري؟".532

532 Falle, *My Lucky Life*, p. 108.

بعد أن جاب البلاد بأكملها عقب وقت قصير من وصوله، كتب فال في تقريره أنّ المؤشّرات لم تكن مطمئنة. فقد أخبره بعض معارفه في بغداد الذين ورثهم عن سلفه، خلال العشاء، أنّ استقلال بلادهم كان عاراً لأنّ الحكومات المتعاقبة كانت تتلقّى الأوامر من البريطانيّين. تذكّر أنّ "انتقادهم النظام العراقيّ، ولا سيّما وليّ العهد ونوري، كما قالوا، كان عنيفاً". كانت قوة شعورهم مفاجئة للغاية نظراً إلى أنّها كانت المرّة الأولى التي يلتقونه فيها، ولم يكن نوري حتّى في الحكومة حينذاك. كان الوضع خارج بغداد سيّئاً بالقدر نفسه، لكن بطريقة مختلفة. في الكوت التي تقع أسفل النّهر، اكتشف فال وجود فلّاحين يعملون في ظروف إقطاعيّة، و"هم لا يكادون قادرين على تأمين لقمة العيش". لدى عودته إلى السفارة، لخّص المشكلات الرئيسيّة التي تواجهها البلاد بـ"الملّاك المفترسين والزراعة غير الفعّالة".533

533 Falle, *My Lucky Life*, pp. 106–7, 118–19.

من القاهرة، أجّجت إذاعة "صوت العرب" مشاعر الاستياء. بحلول الوقت الذي أصبح فيه نوري رئيساً للوزراء، في 3 آذار/ مارس 1958، تفاقم القلق بشأن الوضع في البلاد. قال إيونيد بعد ثلاثة

أيّام: ''تشعر الطبقات الحاكمة هنا بقلق متزايد إزاء الفجوة الموجودة بين الحكومة والشعب، ومدى سيطرة عبد الناصر على مخيّلته''.534

534 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 6 March 1958.

لم يكن السفير البريطانيّ، مايكل رايت، غافلاً عمّا كان يجري، لكنّه قلّل من أهمّيته. كان يعيش حياة معزولة في منزل مخبّأ خلف أسوار عالية، وبعد نحو أربع سنوات في منصبه بات يعتمد بشدّة على نوري للحصول على معلومات. عندما طمأنه نوري إلى أنّ قوّاته الأمنيّة كشفت بالفعل أربع مؤامرات في ذلك العام، وأنّ الجيش مُوالٍ للنظام الملَكيّ، كان لدى رايت ميلٌ إلى تصديقه؛ في النهاية، كان نوري الناجي الأبرز، وكان الناس يتوقّعون انهيار الدولة العراقيّة منذ سنوات، ولم يحدث ذلك أبداً. لذا، عندما أثار فال خوفه من نشوب ثورة، لم يعر رايت الأمر اهتماماً كبيراً. وأخبر الصبيّ الجديد ألّا يعلّق أهمّية كبيرة على آراء ''الطبقة الوسطى الساخطة''. كما حذّره من الاختلاط بالمعارضة في حال كان ذلك مُسيئاً إلى علاقته مع نوري. ''تشعر السفارة أنّه ما دام نوري يشغل المنصب كلّ شيء يسير على ما يرام، وما من حاجة إلى أكثر من ذلك''، هذا ما قاله أحد منافسي نوري. وقد طمأنت وجهة نظر السفيرِ سيلوين لويد في لندن. فخلال أحد اجتماعات مجلس الوزراء، أقرّ وزير الخارجيّة بأنّ الحكومة العراقيّة تمرّ ''بأزمة عصبيّة حادّة''، لكنّه قال إنّ ''كمّيات من المساعدات القصيرة المدى'' قادرة على حلّ كلّ شيء. لكن هذه المرة تبيّن أنّ رايت كان مخطئاً.535

535 Falle, *My Lucky Life*, p. 113; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 13 March 1958; TNA, CAB 195/17, meeting of 18 March 1958.

في الواقع، ربّما كان الأوان قد فات لاستخدام المال بغض النظر عن المبلغ اللازم لإنقاذ الوضع. ردّاً على الاستفزاز المتكرّر من نوري الذي سافر إلى لندن في حزيران/ يونيو وطلب في إحدى المقابلات المساعدة الإنكليزيّة–الأميركيّة لإسقاط الحكومة السوريّة، كان عبد الناصر يبذل قصارى جهده لتدمير ''الاتّحاد العربيّ الهاشميّ''. في الأردن، قُبض على ضابط متدرّب شابّ يُدعى أحمد يوسف الحياري بتهمة التخطيط لقتل حسين وعمّه. أثناء التحقيق، كشف أنّ الجمهوريّة العربيّة المتّحدة كانت تخطّط لشنّ انقلابات متزامنة في الأردن والعراق في منتصف تموز/ يوليو.

في الوقت نفسه، كشف الأميركيّون عن أدلّة تفيد بوجود مؤامرة قيد التدبير. في أيار/ مايو، أرسل ''مكتب التحقيقات الفيدراليّ'' إلى ''وكالة المخابرات المركزيّة'' شريطاً سُجّلت عليه مكالمة هاتفيّة بين الملحقيْن العسكريّيْن الأردنيّ والمصريّ في واشنطن تفيد بأنّ الأردني كان قائد مؤامرة ضدّ الملك حسين. عندما اعترضت ''المخابرات المركزيّة'' في نهاية حزيران/ يونيو رسالة إذاعيّة من

سوريا إلى المتآمرين الأردنيّين تطلب منهم شنّ الانقلاب، حذّرت الملك الذي أمر بإلقاء القبض على أربعين من ضبّاط الجيش الأردنيّ.

كان الحسين مدركاً للأهمّية المحتملة لاعتراف الحياري، ولذا دعا ابن عمّه فيصل في بغداد، وطلب منه إرسال مبعوث موثوق به إلى عمان ليتمكّن من إطلاعه على التهديد. في 10 تموز/ يوليو، جاء قائد الجيش العراقيّ، الجنرال عارف، لرؤيته. عندما حذّره الحسين حول ما كان يعرفه، رفض عارف أخذ الأمر بالاعتبار. أجابه قائلاً: "يا صاحب الجلالة، أقدّر كلّ مشكلاتكم، لكنّني أؤكّد لكم أنّ الجيش العراقيّ مبنيّ على التقاليد... إنّه لم يواجه المشكلات – أو التغييرات – التي واجهت جيشكم، يا سيّدي، في السنوات القليلة الماضية. ينبغي لنا أن نشعر بالقلق حيال الأردن، يا صاحب الجلالة. ينطبق هذا الانقلاب على بلدكم، ونحن قلقون عليك. أتوسّل إليكم أن تلزموا الحذر". [536]

536 Shlaim, *Lion of Jordan*, p. 158.

من باب المفارقة أنّ حسين هو الذي ضمنَ مصير ابن عمّه. وقد شعر بالقلق عندما رفض المتآمرون المعتقلون التكلّم، فطلب من فيصل إرسال قوّات إلى الأردن لتعزيز جيشه في حال اجتيحت سوريا. ردّاً على ذلك قال نوري إنّه قرّر تكليف أحد جنوده المفضّلين، عبد الكريم قاسم، قيادة لواء عراقيّ إلى المفرق بالقرب من الحدود السوريّة.

بما أنّ قوة قاسم كانت تتمركز في بعقوبة، شرق بغداد، كانت مرغمة على المرور عبر العاصمة في طريقها إلى المفرق. رغم ادّعاءات الجنرال عارف حول إخلاص الجيش، كانت أوامره الصّارمة بمنع الجنود من حمل ذخائرهم معهم أثناء مرورهم عبر العاصمة تشير إلى العكس. لكن في هذه المناسبة، تجاهلوا هذا التوجيه. وبعد أن عبرت قوّة قاسم نهر دجلة في ليل 13–14 تموز/ يوليو، تفرّقت للاستيلاء على محطة الإذاعة والسكك الحديديّة والمباني الحكوميّة الرئيسيّة، ولاجتياح القصر الملكيّ. عندما خرج فيصل وعبد الإله من المبنى لمحاولة التوصّل إلى اتّفاق مع المهاجمين، قُتلا بالرصاص. ثمّ اقتحم المتمرّدون القصر وقتلوا بقيّة أعضاء العائلة المالكة. ثمّ رُبطت جثّة عبد الإله المقطوعة الرأس من القدميْن بسيّارة، وجُرّت في الشوارع. في اليوم التالي، عُثر على نوري الذي فرّ من منزله متنكّراً بزيّ امرأة، وقُتل.

لأنهم القوّة الكامنة وراء العرش، كان البريطانيّون أيضاً عرضة للاستهداف. في حين كان يقود سيّارته إلى السفارة صباح وقوع الانقلاب، وجد فال نفسه مُحاطاً بحشد غاضب كبير راح يدقّ على سطح سيارته. قال: "هذا لا ينذر بالخير"، لكنه كان محظوظاً لظهور عريف عراقي في سيّارة

جيب، فرّق الحشد طالباً من الناس العودة إلى منازلهم فوراً. وعندما أوقفوا أحد زملاء فال وسألوه عن جنسيّته، أجاب بأنه أيرلنديّ. أجابوه: "أنت محظوظ. نحن اليوم بصدد قتل جميع الإنكليز!" تعرّضت السفارة لهجوم، وقُتل مراقب الحسابات الذي كان ضابطاً مرموقاً سابقاً في الجيش، إذ أخطأ مثيرو الشغب ظانين أنّه رايت. لم تفهم زوجة رايت المتكلّفة خطورة الموقف، فقد نُقل عنها بعد ذلك: "آه، ما زلتُ أحبّ العراقيّين خاصّتي".[537]

[537] Falle, *My Lucky Life*, p. 141; Beeston, *Looking for Trouble*, p. 52.

هذه الأخبار – الأسوأ منها الصّور– التي وصلت من بغداد أثارت القلق في بيروت وعمان. بعد أن قدّم شمعون طلباً رسميّاً إلى الولايات المتحدة للحصول على المساعدة، عقد ماكميلان اجتماعاً لحكومته في بداية المساء لمناقشة ما قد يفعلونه. رغم أنّه شعر بوضوح أنّ نداء شمعون يقدّم "فرصة ذهبيّة لكبح لجام عبد الناصر، وتنظيف الوضع في الشرق الأوسط عموماً"، فإنّ زملاءه كانوا أكثر حذراً. وفي حين لم يكن أيّ منهم على استعداد لفعل أيّ شيء، لأنّ ذلك من شأنه حصراً تعزيز الانطباع بأن لا علاقة لبريطانيا بما يحدث، خافوا أن يؤدّي الهبوط الأميركيّ في لبنان إلى زيادة احتمال تدخّلهم في الأردن، وأن يضطرّوا إلى إعادة الأمور إلى نصابها عندما يتّضح أنّ اهتمام الولايات المتحدة قصير الأمد. على حدّ تعبير ماكميلان، لم يرغب "في البقاء جالساً في هذا المكان الرخيص والمبتذل".[538]

[538] TNA, CAB 195/17, meeting of 14 July 1958 at 7.30 p.m.; Ovendale, 'Great Britain and the Anglo-American Invasion', p. 291.

في محاولة لإرغام الولايات المتحدة على الاعتراف بأنّ التدخّل في لبنان سيؤدّي إلى تداعيات إقليميّة، أرسل ماكميلان برقيّة إلى أيزنهاور يسأله فيها عن القوّات التي سيكون مستعدّاً لإشراكها في عمليّة بريطانيّة لدعم حسين. ولكن عندما تحدّث الرجلان عبر الهاتف في وقت لاحق من ذلك المساء، تفادى أيزنهاور التطرّق إلى هذه المسألة، لأنّه كان يتساءل حقّاً، هو ومستشاروه، هل الدافع الحقيقيّ لماكميلان هو استخدام الأردن كقاعدة لشنّ ثورة مضادّة في العراق.

بدلاً من ذلك علم ماكميلان من الرئيس أنّ القوّات الأميركيّة ستهبط قريباً في لبنان وحده. أجاب رئيس الوزراء: "أنت تشنّ حرب سويس عليّ"، الأمر الذي أضحك أيزنهاور. كان التصميم الأميركيّ الواضح على اتّخاذ إجراء أحاديّ ودون مساعدة، كما قال وزير الداخليّة راب بتلر عندما عاود مجلس الوزراء الاجتماع بعد ذلك، بمنزلة "ضربة قويّة تهدّد مكانتنا".[539]

[539] Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 134, 14 July 1958; TNA, CAB 195/17, meeting of 14 July 1958 at 11 p.m

حطّ الأميركيّون في بيروت في اليوم التالي. يذكر صحافيّ بريطاني كان قد لمح الأسطول السادس للولايات المتحدة في الأفق فركض إلى الشاطئ للمشاهدة عن كثب:

وصلنا في الوقت المناسب لمشاهدة الدبّابات البرمائيّة تعبر الأمواج وتتوقّف على الشاطئ حيث بدأت تحرّك أبراجها المسلّحة بشكل دائريّ. وتبعهم مشاة البحريّة المخيفون... الذين قفزوا في الأمواج من طائرة الهبوط. كانوا محمّلين بالرشّاشات وقذائف الهاون وقاذفات اللهب، وراحوا يردّدون بصوت خافت: ''عذراً يا سيّدتي''، بينما كانوا يتقدّمون وسط النساء المتمدّدات على الشاطئ بملابسهنّ البحريّة، وكان صبية الشاطئ اللبنانيّ يحاولون بيعهم المشروبات الغازيّة والبوظة.540

540 Beeston, *Looking for Trouble*, p. 48.

عندما طلب الملك حسين في اليوم نفسه المساعدة من ماكميلان، في حال ''اضطرّ الأمر إلى المحافظة على سلامة واستقلال الأردن''، أدرك البريطانيّون أنّهم باتوا في مأزق، وهذا تحديداً ما كانوا يخشونه. بلغ ماكميلان نداء آخر من الملك في البرلمان في مساء اليوم التالي، بعد أن اختتم نقاشاً حول أحداث اليوميْن السابقيْن. فعقد اجتماعاً آخر لمجلس الوزراء، إنّما هذه المرّة في مكتبه في البرلمان خلف منبر رئيس البرلمان. خلال الاجتماع الذي استمرّ حتّى وقت متأخّر من الليل، حدّد ماكميلان المخاطر العسكريّة المترتّبة على إرسال قوّة مسلّحة خفيفة من المظليّين التي قد تواجه معارضة أردنيّة خطيرة، والتي تعتمد إعادة إمدادها على موافقة إسرائيل. كان ''مصمّماً على تجنب الخطأ الذي ارتكبه أنطوني''، ولذا سأل كلاًّ من زملائه عن رأيهم. قرابة الثالثة صباحاً من 17 تموز/ يوليو، قرّر مجلس الوزراء إرسال المظلّيين لإظهار دعمهم لحسين. غادرت كتيبتان من فوج المظلّيين، مع مدفعيّات خفيفة وستّ طائرات مقاتلة، قبرص إلى عمان بعد ذلك بوقت قصير. وتم إطلاع حسين على ''معلومات سرّية'' عن التخطيط لمؤامرة ستقع في وقت لاحق من ذلك الصباح من أجل منح البريطانيّين أسباباً للتدخّل.541

541 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 135, 16 July 1958.

كما روى ماكميلان، كادت العمليّة أن تسفر عن ''كارثة فظيعة'' كان من الممكن أن تتسبّب في سقوط الحكومة. فرغم تأكيد ''الخارجيّة'' له أنّ الإسرائيليّين لن يمنعوا القوّات البريطانيّة المحمولة جوّاً من عبور مجالها الجوّي، فإنه عندما حاول سلاح الجوّ الملكيّ فعل ذلك في وقت مبكر من 17 تموز/ يوليو، أمرَهم الإسرائيليّون بالهبوط. قرّرت الطائرة القائدة التي تقلّ المظلّيين تجاهل الأمر، ووصلت بأمان إلى الحدود الأردنيّة، لكنّ الطائرات المرافقة لها عادت أدراجها لتفادي خطر

التعرّض للإسقاط. أُصيب القادة البريطانيّون في قبرص بالذّعر عندما أمر ماكميلان بوقف العمليّة بينما كانوا ينتظرون ردّاً من الإسرائيليّين.

في هذه الأثناء، كان ماكميلان يشعر بقلق شديد. ”ماذا سأقول أمام المجلس؟ يجب أن أعلن الحقائق عند الساعة 30.3 كحدّ أقصى. ولكن ما هي الحقائق؟ على ما يبدو، لا أحد يعلم“، هذا ما كتبه لاحقاً وهو يتذكّر كيف أمضى الصّباح محاولاً إخفاء ”قلقه الشديد“. لكن من بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كان يُطلِع غايتسكيل على أسباب ضرورة التدخّل بين عشيّة وضحاها، وضع أحد المساعدين بين يديه ورقة كانت موضع ترحيب شديد، كُتب عليها فقط: ”الحكومة الإسرائيليّة وافقت“. 542

542 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 136, 17 July 1958.

رغم هذا الردّ الإيجابيّ، سيتغيّر موقف إسرائيل من تحليق الطائرات مراراً وتكراراً في الأيّام القليلة المقبلة. فداخل البلاد انقسمت حكومتها الائتلافيّة حول هل الأفضل مساعدة الملك حسين على البقاء، أو التواطؤ مع جيران الأردن الآخرين في تفكيك الدولة التي لم تكن قادرة تقريباً على الصّمود. ومع استمرار شدة الأخذ والرد، أعطت الحكومة إذناً بتحليق الطائرات، ثمّ سحبته مرات عدّة. وقد زاد هذا التردّد تصميم ماكميلان على سحب القوّة البريطانيّة بأسرع ما يمكن، خصوصاً بعدما اضطرّ، رغم أنه لم يكن مقتنعاً بذلك، إلى إرسال المزيد من القوّات في آب/ أغسطس لتأمين خطّ اتّصال بديل للمظلّيين، بين عمان، وميناء العقبة، منفذ الأردن الوحيد إلى البحر.

مع أنّ الأميركيّين ساعدوا في كسر الجمود مع تلّ أبيب بتشغيل المطار الجوّي بأنفسهم، فإنّ رفضهم المستمرّ إرسال قوّات للانضمام إلى الكتيبة البريطانيّة في عمان عزّز رغبة ماكميلان في الخروج بسرعة. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى انتخاب رئيس أركان الجيش اللبنانيّ، فؤاد شهاب، خلَفاً لشمعون في منصب الرئاسة، في 31 تموز/ يوليو. رغم المؤشّرات كافّة على أنّ الأميركيّين جعلوا الوضع في لبنان مستقرّاً، أعرب ماكميلان أمام زملائه في 12 آب/ أغسطس عن أمله في تسليم المهمّة للأمم المتحدة. في 21 آب/ أغسطس، صدر قرار بالإجماع عن الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة يدعو جميع الدول العربيّة إلى احترام السلامة الإقليميّة لبعضها بعضاً، وبرعاية جامعة الدول العربية. وقد أمّن هذا القرار الغطاء اللازم لإعطاء البريطانيّين أسباباً كافية للمغادرة.

قبل اتّخاذ ماكميلان قراراً بالتراجع، كان هناك شيء واحد عليه فعله. كان الملك حسين يعتمد على العراق لسدّ الفجوة في موارده الماليّة. ولم يغرقه قتل أبناء عمومته ومستشاريهم في الحزن

فحسب، بل وضعه أمام أزمة ماليّة أخرى. فإلى أن تُحلّ مسألة التمويل المستقبليّ للأردن، كان ماكميلان يعلم أنّ المملكة لن تكون مستقرّة. لكن بحلول نهاية آب/ أغسطس، سُوّيت هذه المسألة. فقد وافقت الولايات المتحدة على منح الأردن خمسين مليون دولار لإنقاذ المملكة حتّى نيسان/ أبريل التالي، الأمر الذي مكّن حسين من تجنيد لواءين إضافيّيْن من البدو من شأنهما قلب التوازن في الجيش لمصلحته على نحو حاسم.

***

خرج ماكميلان سالماً من أزمة كان يعي جيّداً أنه كان من الممكن أن تدمّر سمعته بسهولة. بالنسبة إلى البريطانيّين، شهد 1958 نهاية حقبة. فقد أدّى انهيار النظام الهاشميّ في العراق، المتوقّع منذ مدة طويلة والمؤجّل لمدة طويلة، إلى إزالة آخر حليف قويّ لبريطانيا في شمال الشرق الأوسط، ووجّه ضربة قاسية إلى النفوذ البريطانيّ في هذا الجزء من المنطقة. فضلاً عن ذلك لم يكن هناك شيء يمكن للبريطانيّين فعله حيال ذلك. إنّ بريطانيا التي فقدت فلسطين، ثمّ مصر، تفقد الآن الأردن والعراق. من الآن فصاعداً، انتقلت مصالحها الأساسيّة إلى جهة الجنوب على طول شواطئ شبه الجزيرة العربيّة. عاد البريطانيّون إلى حيث بدؤوا.

القسم الرابع

التشبّث 1957 - 1967

23

المتمرّدون على الجبل

بدأ اهتمام بريطانيا الإمبراطوريّ بالشرق الأوسط كما سينتهي في نهاية المطاف في جنوب شرق الجزيرة العربيّة. في 1798، بعد غزو نابليون مصر، حصل البريطانيّون على وعد من سلطان مسقط بأنّه سيدعمهم بدلاً من الفرنسيّين. ثمّ، بعد سلسلة من الحملات البحريّة التي كان هدفها ضمان أمن المداخل البحريّة إلى الهند، فرضوا في 1820 هدنة على شيوخ ساحل الخليج ترغمهم على التوقّف عن أعمال القرصنة. وسيطلق البريطانيون على مشيخات الخليج لقب الساحل المتهادن في ما بعد.

بعد ذلك بقليل، أقنع البريطانيّون شيوخ الساحل المتهادن بالتخلّي عن تجارة الرقيق التي كانت تشكّل مجال أعمالهم الرئيسيّ، ثمّ في مواجهة التوسّعيّة التركيّة أقنعوهم بالتنازل عن السيطرة على علاقاتهم الخارجيّة مقابل اعتراف بريطانيا وحمايتها. توصّلت شبكة من العملاء والضبّاط السياسيّين البريطانيّين إلى تنظيم العلاقات، وسرعان ما وجدوا أنفسهم يتعاملون مع مشكلات الشيوخ الأكثر تعقيداً. كتب الوكيل السياسيّ السابق في دبي عن الدور الذي كان مُوكلاً إليه في 1964: "يحكم في نزاعات الصّيد، ويتفاوض حول التعويضات الماليّة لأهالي القتلى، ويراقب الحدود ويحرر العبيد، ويرأس مجلس الشيوخ، ويعفي، ويعفو، ويسترضي، ويدقّق، ويدين، ويعيّن، ويحكم فعليّاً ضمن نطاق واسع إنّما غير محدّد". لعب البريطانيّون دوراً مشابهاً في مسقط وعمان، حيث توسّطوا في 1920 لـ"اتفاقية السيب" بين السلطان ومنافسه الإمام، التي حقّقت لمدة وجيزة السلام في جنوب الجزيرة العربية.[543]

543 Parris and Bryson, *Parting Shots*, p. 330.

إن كان تهديد فرنسا للهند ضروريّاً لجذب البريطانيّين إلى الخليج، فإنّ الحركة الألمانيّة، *Drang Nach Osten*، دفعتهم إلى اتّخاذ الخطوة التي ستجعلهم مصمّمين على التمسّك بموقعهم هناك. عام 1899، في أعقاب الشائعات التي تفيد بأنّ خطّ السكك الحديديّة الذي يصل برلين ببغداد قد ينتهي في الكويت، عرضت الحكومة البريطانيّة على حاكم هذه المنطقة المغيّبة، مبارك الصباح، ألف جنيه

إسترليني مقابل تنازله عن حقوقه، للدخول في أيّ مفاوضات مع قوّة أجنبيّة أخرى أو توقيع عقد إيجار أراضٍ معها. بعد اندلاع الحرب في 1914، عُرضت عليه عباءة الحماية البريطانيّة. اعترف مسؤول بريطانيّ: "نحن لا نريد الكويت، لكنّنا لا نريد أن يحصل عليها أيّ شخص آخر". توصّلوا إلى تلك الحسابات اللئيمة لحظة اكتشاف النفط في البلاد، على عمق ضحل وبالقرب من الساحل؛ إنّها توليفة وصفها السفير الأميركيّ لدى الرياض بـ"حلم رجل النفط".[544]

544 Mangold, *What the British Did*, p. 29; Hart, *Saudi Arabia and the United States*, p. 75.

استهلّ حفيد مبارك باكورة ضخّ النفط بتعبئة أوّل ناقلة للنفط الخام في حزيران/ يونيو 1946. عندما أمّم مصدّق صناعة النفط في بلاده بعد خمس سنوات، حوّلت الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة – التي كانت تملك نصف شركة "نفط الكويت" – تركيزها نحو الإمارة. وبحلول 1957، كانت الكويت تنتج نصف نفط بريطانيا. وقد صارت في نظر البريطانيّين الدولة الأكثر أهمّية في الشرق الأوسط. على القدر نفسه من الأهمّية، صار حاكم الكويت، الذي قُدّر دخله بـ25.1 مليون جنيه إسترليني في الأسبوع، أكبر مستثمر منفرد في لندن. إحدى كبرى المخاوف التي راودت الحكومة البريطانيّة أن يحوّل حاكم الكويت احتياطاته من الجنيه الإسترليني إلى الدولار. أمّا الخوف الثاني، فكان التهديد الذي يهيمن على موقع الكويت المميّز في الخليج من عبد الناصر. بحلول 1957، كان البريطانيّون يدركون على مضض أنّ مصر كانت تشجّع المعارضة الداخليّة المتفاقمة للحكّام في الكويت والبحرين، معارضة كانوا يتوقّعون أن يتم استدعاؤها في النهاية، بصفتهم حماة لكلا الرجلين، للمساعدة على سحقها. حتّى ذلك الحين، كان حكّام المشيخات الأفقر في الخليج هم الأقوى بلا منازع. لكن بعد ذلك اندلعت ثورة في عُمان الداخليّة في تموز/ يوليو 1957، بينما كان وزير الخارجيّة البريطانيّ سيلوين لويد يفكّر هل يساهم الخمول المتقن، أو التشجيع اللطيف للإصلاح، في تمديد موقع بريطانيا المنطوي على مفارقة تاريخية في الخليج.[545]

545 Morris, *Sultan in Oman*, p. 10.

***

مباشرة بعد حادثة البريمي عام 1955، ذهب سلطان مسقط في رحلة بالسيّارة لتأكيد مطلبه بالحصول على عمان الداخليّة، لكن نتائج تقدّمه الملكيّ لم تدم طويلاً. فرغم استيلاء قوّاته على نزوى – عاصمة منافسه الداخليّ، الإمام – دون إطلاق رصاصة، انسحب الإمام ببساطة إلى قريته وفرّ أخوه الأصغر الطموح طالب إلى السعوديّة حيث حصل على المساعدة من الملك سعود

وعبد الناصر، لتجنيد وتدريب جيش قوامه خمسئمة جنديّ من العمانيّين الساخطين. في حزيران/ يونيو 1957، نزل طالب ومقاتلوه من المراكب الشراعيّة على طول الساحل الشرقيّ والغربيّ لمسقط، وتمركزوا في قراهم الأصليّة داخل البلاد. في هذه الأثناء، عاد الإمام إلى نزوى ورفع رايته فوق برج الحصن الذي يشرف على المدينة.

بما أنّ بريطانيا كانت تعتمد أكثر فأكثر على النفط الكويتيّ، اكتسبت عمان أهمّية إستراتيجيّة جديدة لأنّها كانت تسيطر على مدخل الخليج. بعد أن طلب السلطان مساعدة بريطانيا، ناقش ماكميلان الأمر في مجلس الوزراء في 18 تموز/ يوليو. كان هو وزملاؤه يدركون تماماً أنّ الفشل في الدفاع عن أيّ من الدول قد يدفع شيوخها إلى التماس حماية الولايات المتحدة. وكما لاحظ وزير الدفاع دنكان سانديز، خلال اجتماع مجلس الوزراء، ''كلّ هؤلاء الحكّام ينتظرون لمعرفة إن كنّا سنؤيّدهم أم نخذلهم''.[546]

546 TNA, CAB 195/16, meeting of 18 July 1957.

كان ماكميلان مقتنعاً بأنّ تعاطف ''أرامكو'' ووزارة الخارجيّة سيكون لجهة المتمرّدين إذا أعلنوا الاستقلال، ولذا كان مصمّماً على القضاء على التمرّد في مهده. قال إنّ أفضل طريقة لذلك الهجوم المباشر على قلعة الإمام في نزوى، رغم أنّ مثل هذا الإجراء قد يثير ''استهجاناً من السعوديّين ومصر وربّما من الولايات المتحدة''. وافقه زملاؤه الرأي. في ذلك اليوم، نفّذوا هجوماً جوّياً على الحصون التي كانت بين أيدي المتمرّدين؛ كان لويد قلقاً بشأن الانتقاد الدوليّ، ولذا أصرّ على ضرورة استخدام ''الصواريخ لا القنابل''. في 24 و25 تموز/ يوليو، شنّت الطائرات البريطانيّة الهجوم لكنّ الصواريخ انفجرت دون إحداث أي أذى في البرج الكبير لحصن نزوى. عندما التحقت قوّات السلطان بالهجوم الجوّي، أسقطها المتمرّدون.[547]

547 TNA, CAB 195/16, meeting of 18 July 1957.

لزيادة الوضع تعقيداً، غضب الأميركيّون ممّا فعله البريطانيّون. رغم توجيه ماكميلان رسالة إلى أيزنهاور في اليوم التالي لاجتماع مجلس الوزراء (الجمعة) لتحذيره من الهجوم بالصّواريخ، فإنّ الرئيس لم يتلقّ الرسالة إلّا يوم الإثنين التالي. حينذاك، بدأ الصحافيّون البريطانيّون الادّعاء أنّ المتمرّدين يتمتّعون بدعم ''أرامكو''، وأنّهم يستخدمون أسلحة أميركيّة الصنع زوّدهم بها السعوديّون؛ اضطرّ لويد الذي شعر أنّ واشنطن ''هادئة على نحو مثير للريبة'' إلى التهرّب من هذه المزاعم عندما استُدعي إلى مجلس العموم للإدلاء ببيان في اليوم نفسه. عندما اطّلع دالاس على

تغطية الصّحافة البريطانيّة، افترض، ربّما بصورة محقّة، أنّ المزاعم مستوحاة من جهات رسميّة، فبادر إلى شنّ هجوم مضادّ.

بعد أن رفض متحدّث باسم وزارة الخارجيّة المزاعم بشأن ”أرامكو“، ووصفها بـ”الهراء“ قائلاً إنّه لم يكن هناك أيّ ”دليل“ على استخدام أسلحة أميركيّة، وجّه آيك ردّاً شديد اللهجة إلى ماكميلان، الذي رغم أنه لم ينكر الشائعات، شجّع رئيس الوزراء على قمعها. في الوقت نفسه، حذّر دالاس البريطانيّين من أنّ المشكلة الأساسيّة هي النزاع بشأن البريمي، الذي لم يُحلّ بعد.[548]

[548] TNA, CAB 195/16, meeting of 23 July 1957; 'US–British Rift Denied', *Washington Post*, 24 July 1957.

بعد ذلك، أدخل ماكميلان ولويد أنفسهما في مأزق أكبر. فبعد أن وعد وزير الخارجية دالاس بأنّه ”من المُحال استخدام القوّات البريطانيّة هناك“، غيّرت الحكومة البريطانيّة موقفها فجأة. مع ذلك، في اجتماع آخر مع دالاس في 31 تموز/ يوليو، لم يتمكّن ماكميلان أو لويد من الإقرار بأنّه أُرسلت القوّات البريطانية للتحرّك. كان انزعاج دالاس مبرّراً عند اكتشافه ذلك، بوسائل أخرى، بعد ذلك بوقت قصير، واكتفى بالامتناع عن التصويت عندما طرحت جامعة الدول العربيّة سلوك بريطانيا أمام الأمم المتحدة.[549]

[549] *FRUS*, 1955–57, Vol. XIII, p. 233, Editorial Note.

لوضع حدّ للانتفاضة، اضطرّ البريطانيّون إلى إرسال فصيلة من المشاة وقوّة من السيّارات المدرّعة. رغم بلوغ الحرارة 44 درجة مئوية في الظلّ، تمكّنت هذه القوّة بحلول منتصف آب/ أغسطس من وضع نزوى بين أيدي السلطان. لكنّ الإمام وأخاه طالب لاذا بالفرار مرّة أخرى.

كتب ماكميلان في مذكّراته أنّ العمليّة العسكريّة ”نُفّذتْ ببراعة“، لكنّ معالجتها من الناحيتيْن الديبلوماسيّة والسياسيّة لم تكن مُرضية. فإلى جانب الأميركيّين، برهنت الصّحافة البريطانيّة أيضاً مواقف عدائيّة. فقد غضب مراسلوها لمنعهم من الوصول إلى الخطوط الأماميّة في عمان، وبقوا خلال العمليّة في البحرين حيث تم تزويدهم بمعلومات مغلوطة من المُقيم السياسيّ البريطانيّ.[550]

[550] Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 54, 13 August 1957.

في سلسلة من الافتتاحيّات، انتقدت صحيفة *The Times* معالجة الحكومة البريطانيّة للانتفاضة، بحجّة أنّ إيمانها غير المبرّر بفعّالية القوّة الجوّية أدّى إلى خلق موقف أرغمها بعد ذلك على إنزال قوّات على الأرض، وقد انتقدت إذاعة عبد الناصر، ”صوت العرب“، هذه العمليّة بلا رحمة. خلصت مقالتان في نهاية الحملة إلى أنّ السلطان بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد من أجل شعبه،

وأنّ بريطانيا تعرّض مصالحها في مشيخات الخليج المتطوّرة للخطر بدعم رجل رجعيّ كهذا. خلصت المقالة الثانية إلى أنّ "الدرس الأساسيّ للمغامرة العمانيّة هو بالتأكيد ضرورة تجنب تكرارها".[551]

551 'Britain's Burden in Arabia', *The Times*, 22 August 1957.

***

كانت المشكلة في حتميّة متابعة التحرّك العسكريّ. فقد هرب الإمام وأخوه طالب من نزوى شمالاً إلى الجبل الأخضر الذي يفصل السهول الساحليّة في مسقط عن المناطق النائية في عمان، حيث انضمّ إليهما حاكم الجبل العصاميّ (كما ورد في بطاقاته المهنيّة) سليمان بن حمير الذي اعتقد أنّ الأخويْن قد يساعدانه على تحقيق أهدافه الانشقاقيّة.[552]

552 'New Ideas on the Tide of Oil', *The Times*, 21 August 1957.

كان الجبل يشكّل من جهة حصناً طبيعيّاً، ومن جهة أخرى عالماً نائياً محميّاً من جميع الجوانب بمنحدرات بزاوية 45 درجة، تخترقتها في بعض الأماكن الوديان العموديّة العميقة التي تروي هضبة عالية بارتفاع ستة آلاف قدم ومُحاطة بدورها بقمم أعلى. خلقَ المناخ المعتدل والمياه الجارية على مدار السنة، وفقاً للمعايير العمانيّة، جنّة حقيقيّة على الهضبة. فمحاصيل الفاكهة والحبوب كانت تنمو بوفرة هناك. كان الجبل الذي احتلّه آخر مرة الفرس في القرن الثالث عشر يحتفظ بسمعة غامضة. روى ثيسيجر: "أخبرني أحد عرب الجبل ذات مرّة أنّه في الشتاء يتحوّل المطر أحياناً إلى مسحوق أبيض ناعم مثل الملح".[553]

553 Thesiger, *Arabian Sands*, pp. 316–17.

بما أنّ البريطانيّين سحبوا جميع قوّاتهم تقريباً، بعد أن أظهرت الولايات المتحدة رغبتها عن دعمهم أمام الأمم المتحدة، اضطرّت قوّات السلطان إلى التعامل مع الوضع بمفردها. في البداية، أجرت محاولة غير مُجدية لمحاصرة الجبل. لكن نتيجة افتقارها إلى الأعداد اللازمة لذلك بمفردها، اعتمدت على رجال القبائل المحلّيين الذين كانوا متعاطفين فعليّاً مع المتمرّدين. ونتيجة لذلك لم يكن الطوق فعّالاً تماماً، وظلّ دفقُ المتطوّعين والأسلحة يجد طريقه إلى الجبل.

بحلول نهاية 1957، فاق عددهم عدد قوّات السلطان التي اضطرّت إلى اتّخاذ موقع دفاعيّ. أُرغموا على التزام قواعدهم ليلاً بسبب نيران القنّاصة، وكانوا يمضون النّهارات وهم يحاولون فتح الطريق بين مسقط وفهود، وهو موقع من التلال على شكل قبّة رصدَها ثيسيجر قبل ثماني سنوات،

حيث كانت شركة النفط تنقّب عن النفط. في أوائل 1958، وفقاً لأحد الضبّاط البريطانيّين الذين قادوا قوّة السلطان، صارت الألغام الأميركيّة الصّنع تشكّل تهديداً كبيراً، لدرجة أنّ "كلّ جهودنا الجسديّة والفكريّة كانت مركّزة على هذا الخطر". في الأيّام السيّئة، كانوا يفقدون شاحنتيْن أو ثلاثاً يوميّاً. لجأ البريطانيّون إلى وضع أكياس الرمل على أرضيّات سيّاراتهم في محاولة لامتصاص الانفجار.[554]

554 Allfree, *Warlords of Oman*, p. 98.

***

شهد نائب وزير الحرب، جوليان آميري، على إحباط الضبّاط البريطانيّين عندما أجرى زيارة خاطفة إلى مسقط في كانون الثاني/ يناير 1958، وقرّر أنّ الحلّ يقضي بتعزيز جيش السلطان. كان الرجل الذي استنجد به هو زميله القديم في أيّام الحرب، ديفيد سمايلي. عرف الرجلان بعضهما بعضاً منذ الحرب عندما هبط كلاهما بالمظلّات في ألبانيا ضمن فرقة العمليّات الخاصّة. كان سمايلي، الذي قُلّد شريطةً إضافيةً على وسام الصّليب العسكريّ الذي تم تقليده إياه في وقت سابق بسبب تفجيره "الجسر الثالث كبراً في ألبانيا" خلال تلك المهمة، محظوظاً للبقاء على قيد الحياة في مهمّة لاحقة في الشرق الأقصى، عندما احترقت الحقيبة الحراريّة التي كان يستخدمها لحمل أوراق سرّية جدّاً، قبل الأوان، وتسبّبت له في حروق قويّة. منذ ذلك الحين، عمل مع جهاز الأمن البريطانيّ في محاولة لتخريب النظام الشيوعيّ الذي سيطر على ألبانيا بعد الحرب، قبل أن يقود فوج الفرسان القديم، الزرق، ويعمل ملحقاً عسكريّاً في السفارة البريطانية لدى ستوكهولم. ولم يتلقَّ مكالمة من آميري إلّا عندما شارف تعيينه على نهايته في أوائل 1958. [555]

555 Bailey, *The Wildest Province*, p. 252.

يتذكّر سمايلي المحادثة بوضوح. سأله صديقه القديم هل يريد الذهاب إلى مسقط لقيادة جيش السلطان؟ عندما تساءل هل هو الرجل المناسب لهذا المنصب – كونه لم يكن يتحدّث العربية بتاتاً ولم يعمل قطّ في الشرق الأوسط – طمأنه آميري. تذكّر سمايلي قوله له: "لعلّني اكتسبتُ خبرة فعّالة في حرب العصابات أكثر من أيّ ضابط آخر في الجيش تقريباً، ولذلك سأكون مناسباً تماماً لقيادة القوّات التي شاركت في حرب العصابات". لم يتمكّن من مقاومة هذا العرض، فسافر إلى الشرق الأوسط في نيسان/ أبريل من ذلك العام.[556]

556 MEC, Smiley Papers, Smiley, letter, 5 December 1959.

بعد أن أمضى خمس ليالٍ مع المُقيم السياسيّ البريطانيّ، برنارد باروز، ذهب إلى مسقط لتسلّم وظيفته في مقرّ قوّات السلطان المسلّحة، المعروف ببيت الفلج، وهو حصن مطليّ باللون الأبيض وذو شرفات وقد رُفع عليه علَم السلطان القرمزيّ. رغم أنّ مكان إقامة باروز كان أشبه بـ"تقليد مروّع لطراز هارلو وكرولي الهندسيّ"، في رأي أحد الزوار، فإنّه يتميّز على الأقلّ بتوفّر التكييف الهوائيّ فيه. فقد كان بيت الفلج أشبه بفرن مقارنة به. وفق المثل الفارسيّ القديم، الذي استشهد به أحد زملاء سمايلي، "الخاطئ الذي يذهب إلى مسقط يكوّن فكرة عمّا ينتظره في الآخرة". 557

557 Mott-Radclyffe, *Foreign Body in the Eye*, p. 232; Smiley, *Arabian Assignment*, p. 18.

بعد إمضائه بضعة أيّام في مقرّه الجديد، عاد سمايلي إلى مسقط للقاء السلطان. كان يرتدي عباءة سوداء مصبوغة بالذهب، وعمامة من اللون الأرجوانيّ والأخضر والذهبيّ، ويضع خنجراً معقوفاً مرصّعاً بالجواهر في منتصف حزامه وتفوح من لحيته التي يكتسيها الشيب رائحة البخور. كان سعيد بن تيمور، الذي وصفه ماكميلان بأنّه "ولد كبير جيد" لاستعداده لمواجهة السعوديّين، قد ورث العرش وهو في الثانية والعشرين بعد أن تنازل والده عنه، تاركاً البلاد وسط أزمة ماليّة. كان معروفاً عن والده أنّه قال وهو في طريقه إلى المنفى: "الآن وقد صار سعيد في السجن، صرتُ حرّاً". 558

558 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. I, p. 448, 14 July 1955; Morton, *Buraimi*, p. 37.

اعترف برنارد بوروز، المُقيم السياسيّ، بأنّ بريطانيا مسؤولة جزئيّاً عن مشكلات السلطان. فالأمر لم يقتصر على تقويض البريطانيّين هيبته عندما منعوه من محاولة استعادة البريمي بمفرده في 1952، لكنّهم شجّعوه على التمادي والسماح لشركة "نفط العراق" بالبحث عن النفط في المناطق الداخليّة. لكنّ الخطّة البريطانيّة – القائلة إنّ اكتشاف النفط سيؤمّن عائدات للسلطان، يمكنه إنفاقها بعد ذلك على الأمن والتنمية، ما سيجعل رعاياه أكثر سعادة – كان يشوبها عيبٌ صغير لكن مهمّ؛ إنّ تلال فهود التي تشبه القبّة، والتي رصدها ثيسيجر لأوّل مرة خلال رحلاته قبل عقد، لم يكن قد أُخرج منها أيّ نفط. تركوا السلطان يراقب المناطق النائية بميزانيّة محدودة.

عندما وصل سمايلي إلى البلاد في نيسان/ أبريل، كان الجوّ حارّاً جدّاً لشنّ حملات عسكريّة جدّية. لذلك، قرّر أن يقضي المدة التي تسبق إجازته الصيفيّة في جولة مسافتها سبعمئة ميل حول الجبل الأخضر حيث يتمركز المتمرّدون. ما إن دخلت قافلته الممرّ الرئيسيّ عبر الجبال، حتّى اصطدمتْ عربة الكشّافة الرئيسيّة بلغم، ففقدت عجلة هوت بشكل خطير بالقرب من سيّارة Land

Rover الخاصّة بسمايلي. علّق لاحقاً: ''بعد أن أمضيتُ جزءاً كبيراً من مسيرتي المهنيّة في زرع الألغام وتعليم الآخرين كيفيّة زرعها على طرقات الأعداء، كان من الصّعب الآن أن أجد نفسي لجهة الطرف المتلقّي''. فبعض التدابير، مثل تغريم أو حرق القرى التي وُجدت فيها الألغام، أو إجبار 'التميمات' – إشارة إلى السكّان المحلّيين – على الجلوس على غطاء محرّك السيّارة، وهو تكتيك استخدمه البريطانيّون في فلسطين بين الحربيْن، صارت غير أخلاقية. كان منعُ الأميركيّين من تزويد الرّياض بالألغام ليكون أكثر فعّالية في المقام الأول. قال سمايلي: ''أعلم أنّنا حاولنا، لكنّ الأميركيّين لم يكونوا متعاطفين على الإطلاق. ردّوا بالقول إنّهم زوّدوا السعوديّة بالألغام بموجب برنامج المساعدات العسكريّة، ولم يكن من مهمّاتهم معرفة كيفيّة استخدام السعوديّين لها''.[559]

559 Smiley, *Arabian Assignment*, pp. 49–50.

زار سمايلي نزوى ومخيّم التنقيب عن النفط قبل أن يعود أدراجه ويتّجه نحو الشمال الغربيّ من الجهة الجنوبيّة للجبل لزيارة البريمي، حيث التباين بين ثروات الناس الذين يعيشون في قرى السلطان والشيخ شخبوط ملحوظ بقوّة. ثمّ عاد إلى الجانب الشماليّ من الجبل، وتوجّه من هناك إلى صُحار الموجودة على الساحل.

في صحار، سمع أخباراً عن تطوّر مهمّ. لقد تمكّنت شاحنة قادمة من السعوديّة، تقلّ شحنة من المدافع الرشّاشة ومدافع الهاون والذخيرة، فضلاً عن أربعين متطوّعاً، من عبور الحدود. افترض سمايلي أن يكون لها علاقة بالجبل، ولذا قرّر مطاردتها. لكنّ الدوريّة التي كان يقودها صعوداً عند أحد الوديان على الجانب الشماليّ من الجبل انتهت نهاية مأساوية. ''كنّا قد قطعنا نحو خمسة أميال صعوداً عندما وقع انفجار ورائي وسمعتُ صرخات وتأوّهات الجرحى''.[560] كانت سيّارة Land Rover الموجودة خلف سمايلي مباشرة قد ارتطمت بلغم، وكان ركّابها الأربعة ممدّدين وسط حطام سيّارتهم ''محترقين بشدّة ومغطّين بالدماء''. لم يكن هناك من شيء يمكن فعله سوى إلغاء المطاردة.

560 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 65.

بينما كان سمايلي في طريقه إلى أسفل الجبل، باتّجاه الساحل وبيت الفلج الأبيض الحار، أدرك أنّ هناك طريقة واحدة لاستعادة السيطرة. ''قرّرتُ أن يكون هدفنا الأوّل تأمين موطئ قدم لنا، بطريقة أو بأخرى، على تلك الهضبة التي يمكننا منها مضايقة الثوّار''. إن استطاع الفرس إدارتها قبل ثمانمئة سنة، ''باستطاعتنا فعل ذلك أيضاً''. لكنّه كان يعلم أنّه سيحتاج إلى قوّات أكبر وأفضل لذلك، وسيتعيّن عليه الذهاب إلى لندن لإقناع الحكومة بإرسالهم.[561]

561 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 66.

أُرجئت عودة سمايلي إلى بريطانيا بسبب انقلاب تموز/ يوليو في العراق، ولم يظهر من جديد في مقرّ الحكومة في Whitehall إلّا قرابة 11 آب/ أغسطس. هناك، وجد أنّ وزارة الخارجيّة كانت حذرة للغاية إزاء تكرار المشكلة التي طرأت العام الماضي في الأمم المتحدة. تذكّر قائلاً: ”إنّ اقتراح إمكانيّة التزام القوّات البريطانيّة النظاميّة مرّة أخرى العملَ في سلطنة عمان أوقف شَعر رؤوسهم المصفف بعناية“.[562]

562 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 68.

تلقّى سمايلي ترحيباً أكثر حفاوة في المكتب الحربيّ، حيث التقى آميري ووزير الحرب، كريستوفر سومز. وقد توافق تحذيره – ”خلال ستّة أشهر ستكون هناك انتفاضة كبرى وستتحرّك البلاد بأكملها ضدّنا“ – مع برقيّة كانت قد وصلت للتوّ من نائب مارشال القوّات الجويّة، موريس هيث، قائد القوّات البريطانيّة في شبه الجزيرة العربية. شعرَ هيث أيضاً أنّ الحملة الحاليّة ضدّ المتمردين على الجبل كانت غير فعّالة. طلب إذناً لشنّ عمليّة للاستيلاء على الجبل. نتيجة لذلك، استدعى سومز هيث من عدن، وانضمّت سلطنة عمان إلى الأردن، وشكّل ذلك أحد البنديْن المُدرجَيْن على جدول أعمال اجتماع لجنة الدفاع التابعة لمجلس الوزراء في 19 آب/ أغسطس، عندما صادف غياب المُعارِض الأكثر ترجيحاً للتحرّك العسكريّ، وزير الخارجيّة سلوين لويد.[563]

563 MEC, Smiley Papers, Smiley to Amery, August 1958.

بعد أن حدّد هيث خطّة لشنّ عمليّة خاطفة تُنقَل خلالها القوّات بالمظلّات أو بالمروحيّة إلى الجبل، بعد قصف جوّي لأسبوع من المفترض أن ينتهي قبل أن تصل الصّحافة إلى المكان، وافق رئيس الوزراء وزملاؤه على البدء بالاستعدادات السرّية لشنّ عمليّة برّية. لكنّ ماكميلان أيضاً كان قلقاً بشأن ردّ الفعل الدوليّ المحتمل. ما لم يقلب السلطان صفحة جديدة، فلن تكتسب بريطانيا شيئاً لتعويض الأضرار السياسيّة التي ستنجم عن اللجوء إلى القوّة. بما أنّ أقرب وقت ممكن لإجراء العمليّة كان في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر، قال إنّه سيُرجئ اتّخاذ قرار بشأن المضيّ قدُماً أم لا حتّى أواخر أيلول/ سبتمبر.

شارك لويد ماكميلان شكوكه كما كان متوقّعاً. كان حاضراً عندما اجتمعت لجنة الدفاع مرّة أخرى في أيلول/ سبتمبر، وحذّر من أنّه سيكون من غير الحكمة إطلاق عمليّة هيث في تشرين الثاني/ نوفمبر، لأنّ ذلك سيتزامن مع انعقاد الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة. كان يفضّل إنفاق الأموال المخصّصة للعمليّة على التنمية ومحاولة التوصّل إلى تسوية سياسيّة بدلاً من ذلك. عاود لويد

هجومه عندما اجتمعت اللجنة مرّة أخرى في 3 تشرين الأول/ أكتوبر، بحجة أنّ الحكومة البريطانيّة، بما أنّه سيكون من المستحيل إخفاء التحضير للهجوم الذي كان من المحتمل أن يسرّبه "الأميركيّون (خاصّة)" إلى الصّحافة، ستتعرّض لضغوط شديدة في الأمم المتحدة للتخلّي عن خطتها. إذا أصرت الحكومة على المضي بغضّ النظر عن ذلك، ستسمح العمليّة في أفضل الأحوال بكسب الوقت. أمّا في أسوأ الأحوال، فقد يتسبّب ذلك في ردّ فعل عنيف في الكويت والبحرين، وهما دولتا الخليج اللتان صار لهما أهمّية كبرى بحكم احتياطاتهما النفطيّة. كان تحفّظ لويد حاسماً، وفي ذلك اليوم وافقت اللجنة على إلغاء العمليّة. لكنّ المشكلة الأساسيّة ظلّت قائمة. ففي عمان، كان التمرّد يكتسب زخماً كبيراً، وكانت قوّات السلطان عاجزة عن سحقه بمفردها.[564]

564 TNA, CAB 131/20, Lloyd, 'Muscat and Oman', 1 October 1958.

رفض المكتب الحربيّ الهزيمة، ولذا اقترح بديلاً للحدّ من مخاوف الديبلوماسيّين من جرّ بريطانيا مرّة أخرى إلى الأمم المتحدة. سيُنقل سربٌ من القوّات الجوّية الخاصّة، التي كانت آنذاك تقاتل الإرهابيّين الشيوعيّين في مالايا، سرّاً إلى عمان، حيث سيتسلّقون الجبل ويعثرون على "قادة المتمرّدين ويقتلونهم". في الأسبوع الأخير من تشرين الأول/ أكتوبر، سافر الضابط القائد للفيلق 22 للقوّات الجوّية الخاصّة إلى مسقط لإجراء عمليّة انسحابيّة. كان طوني دين درامند قد حطّ بالمظلة في أليجار خلال الحرب، وتمكّن من تفادي القبض عليه بعد ذلك بالاختباء داخل خزانة لأسبوعين في منزل يعجّ بالألمان، إلى أن تمكّن أخيراً من الهرب. لفت الرجل انتباه سمايلي الذي رآه "من نوع الرجال الذين تشكّل الصّعوبات والعقبات تحدّياً بالنسبة إليهم لا رادعاً".[565]

565 TNA, CAB 131/20, Report by the Working Party on Oman Policy, 7 November 1958, Annex A, 'Outline Concept of Special Operations in Oman'; Smiley, *Arabian Assignment*, p. 70.

كانت هناك أسباب وجيهة وراء حرص دين درامند على المشاركة. فقبل شهر، سمع أنّه ستُستدعى القوّات الجوّية الخاصّة قريباً إلى المملكة المتحدة حيث قد يتم حلّها، كونها كانت جيّدة في حرب الغابات فقط، وذلك في سياق السعي إلى تخفيض ميزانية الدفاع. انتهز الفرصة ليبرهن أنّ رجاله قادرون على العمل في مكان آخر. وقد أيّده سمايلي قائلاً: "هناك احتمال كبير أن يتمكّنوا من قتل طالب". وفي 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، وافقت لجنة الدفاع على شنّ "عمليّة خاصّة". استفاد البريطانيّون من الشائعات التي تفيد بأنّ المتمرّدين ضاقوا ذرعاً، فبدؤوا يتواصلون سرّاً مع قادتهم دون علم من السلطان. إن لم تحقّق المحادثات أيّ شيء بحلول 15 كانون الأول/ ديسمبر، فستتدخّل

القوّات الجويّة الخاصة. منطقيّاً ما إن يُقتل قادة المتمرّدين، سيصير السلطان في وضع أفضل لفرض التسوية.[566]

[566] MEC, Smiley Papers, Smiley, letter, 28 October 1958.

وصل الرجال الثمانون التابعون لسرب د من الفيلق 22 التابع للقوّات الجويّة الخاصّة إلى عمان في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر، وانقسموا إلى مجموعتيْن تألّفت كلّ منهما من فرقتيْن. باشرت إحدى المجموعات إجراء استطلاع للجناح الجنوبيّ للجبل بعد أسبوع، فكانت تتحرّك ليلاً وتراقب نهاراً. فقدتْ إحدى الدوريّات رجلاً فوراً عندما وقف الأخير الذي كان معتاداً طبيعة الغابة قبالة الأفق وأُصيب برصاص قنّاص. كانت المجموعة الأخرى أكثر حظّاً. بعد أن حدّدت مجموعة واسعة من الكهوف على قمّة الهضبة، استَدْعتْ طائرات سلاح الجوّ الملكيّ البريطانيّ لشنّ غارات جوّية في 1 كانون الأول/ ديسمبر، ما أسفر عن مقتل رجل تبيّن أنّه ابن عمّ طالب.

حاولت المجموعة الأخرى استغلال خرق قام به أحد ضبّاط سمايلي في وقت سابق من هذا الشهر، عندما اكتشف أنّ الممر القديم الذي حفره الفرس صعوداً لجهة الجانب الشماليّ للجبل لم يكن محميّاً. لم يدركوا السبب في تركه بلا حراسة إلى أن وصلت القوّات الجويّة الخاصّة إلى أعلى الطريق. بين القمّة التي تؤدّي إليها الطريق والهضبة الرئيسيّة، كان هناك سلسلة من التلال الوعرة والضيّقة الممتدّة على مسافة ميل تقريباً، يحيط بها من الطرفيْن قمّتان مخروطيّتا الشكل. أطلق عليهما هؤلاء الرجال فوراً اسم ''سابرينا'' تيمّناً بعارضة الأزياء التي حققت شهرة كبيرة عندما أمّنت على صدرها ''ضدّ الانكماش'' في ''لويدز لندن'' في العام السابق. تسلّقت القوّات الجوّية الخاصّة القمّتيْن بالحبال، وخاضت معركة شبه دامية في الظلام مع المتمرّدين الذين صرخوا عليهم: ''هيّا يا جوني!'' قبل انسحابهم على طول الممرّ الذي يصل القمّتيْن إلى قاعدتهم.[567]

[567] MEC, Graham Papers, Deane-Drummond, '22 Special Air Service Operations in Muscat & Oman 1958/59', n.d.

بعد حادثة الوفاة الأولى، لم تتكبّد القوّات الجوّية الخاصّة أيّ خسائر أخرى لكنّها كانت تحارب باستمرار. وبحلول منتصف كانون الأول/ ديسمبر، بات واضحاً لهم ولضبّاط بريطانيّين آخرين على الأرض أنّهم بحاجة إلى تعزيز. سمع دين درامند، الذي كان قد عاد بحلول ذلك الوقت إلى مالايا، بالوضع العصيب الذي يقاسيه رجاله، فناشد المكتب الحربيّ السماح لسرب ثانٍ من القوّات الخاصّة بالانضمام إلى الأوّل. بما أنّ الأول لم يستقطب أيّ دعاية على الإطلاق – الأمر الوحيد الذي كانت تتخوّف منه ''الخارجية'' –، وافقت لجنة الدفاع على الطلب في 19 كانون الأول/

ديسمبر شريطة انسحاب جميع القوّات بحلول نيسان/ أبريل، إذ كان من المقرّر مناقشة مسائل الشرق الأوسط في الأمم المتحدة في هذا الوقت. وصل دين درامند إلى مسقط عند رأس السنة. التحق به سربٌ من القوّات الجوّية الخاصّة بعد أحد عشر يوماً. بحلول ذلك الوقت، كان قد وضع خطة للهجوم على الجبل فوراً بعد اكتمال القمر في 24 كانون الثاني/ يناير 1959.

أشارت المعلومات المخابراتيّة المتوفّرة إلى أنّ طالب كان قلقاً للغاية من أن يهاجم البريطانيّون، من الطريق الفارسيّة عند أعلى الجبل، أو طريق الوادي التي تمتدّ من قرية تنوف عند الجانب الجنوبيّ للجبل. أراد دين درامند تغذية هذه الشكوك باستعراض النشاط العسكريّ في كلتا المنطقتين، في حين أنّ الهجوم الحقيقيّ سيكون من وراء هضبة صخريّة في وادي كمة الذي يقع أكثر لجهة الشرق، وقريباً من القرى الموجودة على الهضبة حيث من المحتمل أن يكون مقرّ طالب وشقيقه الإمام وسليمان بن حمير في هذا المكان. فور وصول القوّات الجوّية الخاصّة إلى القمة، ستؤازرها قوّات سمايلي وتُمدّها بالمؤن الغذائيّة عن طريق الإنزال الجوّي، الأمر الذي سيمكّنها من المضيّ لتحقيق هدفها بالقضاء على طالب. وللمساعدة في إقناع طالب بتعزيز محاربيه في "سابرينا" وعلى رأس وادي تنوف، جمعَ البريطانيّون أيضاً أصحاب الحمير المحلّيين، وجعلوهم يقسمون بالحفاظ على السرّية، وهدّدوهم بالموت، ثمّ سألوهم عن كيفيّة تأمين مياه الشرب للحيوانات في وادي تنوف، مع العلم أنّ هذا الاستجواب سيصل قريباً إلى آذان طالب.

بسبب سوء الأحوال الجوّية، لم يبدأ الهجوم حتى وقت متأخّر من يوم 26 كانون الثاني/ يناير. استغرق الأمر تسع ساعات ونصف لوصول القوّات الجويّة الخاصّة إلى الهضبة، ولم تواجه أيّ معارضة تقريباً على طول الطريق، رغم وفاة رجلَيْن لاحقاً بعد أن تسبّبت رصاصة طائشة في تفجير قنبلة من نوع Energa كانت معلّقة على ظهر أحد الجنود. في هذه الأثناء، اعتقد رجال القبائل أنّ الإنزال الجويّ للمؤن هو هبوط للمظلّيين، فاستسلموا. تقدّمت القوّات الجويّة الخاصّة إلى القرية الأولى، سيق، حيث عرض عليهم رجال القبائل إرشادهم إلى مكان إقامة سليمان بن حمير. كان الحريق لا يزال مشتعلاً في الكهف عندما وصل سمايلي. في حين لم يكن هناك إشارة إلى وجود الشيخ ولا طالب أو شقيقه، كان هناك نحو ألف رسالة تضمّنت عرضاً مفصّلاً لشبكة المتمرّدين في جميع أنحاء السلطنة.

تتبّع مالكولم دينيسون، الضابط الداهية التابع لسمايلي والمتدرّب في جهاز المخابرات البريطانيّ، الخارجين عن القانون الثلاثة إلى منزل في الشرقيّة، عند التلال التي تقع جنوب مسقط مباشرة،

وذلك بعد نحو أسبوعين. لكنّ التحرّك السابق لأوانه من زميل آخر لسمايلي كان يحلم بأن يكون له الفضل بالقبض عليهم فضحَ اللعبة، وهرب ثلاثتهم بالقارب إلى السعوديّة.

تجنّبت عمليّة الجبل الأخضر الدعاية التي سبق أن أحبطت العمليّات البريطانيّة السابقة، ومنحت السلطان بضع سنوات إضافيّة. لكن وفقاً للمعايير الصّارمة التي حدّدتها القوّات الجويّة الخاصّة لنفسها شكّل الأمر فشلاً ذريعاً بكلّ ما للكلمة من معنى. لم تنجح القوّات الجويّة الخاصّة في قتل سليمان أو الإمام اللذين صُوّرا في الإسكندريّة في وقت لاحق من ذلك العام يتصافحان مع عبد الناصر. رغم أنّ التمرّد خسر زخمه بعد هربهم، فإنّ حملة زرع الألغام، التي كان طالب يديرها من بُعد، استمرّت بلا هوادة. سيكون الحلّ النهائيّ للأزمة سياسيّاً، كما اعترف لويد بعد أن درس الخيارات المُتاحة أمام بريطانيا في منتصف 1957. كان الأمر يتطّلب من البريطانيّين إقامة علاقات أفضل مع السعوديّين، وهذا ما حدث، ويتطلّب من السلطان إدراك مزايا التنمية، وهذا ما لم يفعله. نتيجة لذلك اضطرّ البريطانيّون إلى لعب دور أساسيّ في الإطاحة به في 1970. وفعل ذلك العقداء البريطانيّون وليس العرب في النهاية.

24

العراق والكويت

في سياق تقييم الخيارات المتاحة لبريطانيا في الخليج، في تموز/ يونيو 1957، اعترف وزير الخارجيّة سيلوين لويد بأنّ هيمنة البلاد على المشيخات، وتأمين إمداداتها النفطيّة من الكويت، يعتمدان إلى حدّ كبير على العراق. فطالما يبقى العراق ودوداً، يفضّل أن تكون مشيخات الخليج تحت الحماية البريطانيّة وليس في عهدة النفوذ السعوديّ. وتابع مُفترضاً أنّ "الانهيار في العراق سيخلق حتماً وضعاً بالغ الخطورة على الحال". وعندما أطاح عبد الكريم قاسم بالهاشميّين بعد عام، أُرغمت الحكومة البريطانيّة على مواجهة هذا الوضع.568

568 TNA, CAB 129/87/38, Lloyd, 'Persian Gulf', 7 June 1957.

لطالما أصرّ العراق على ما وصفه السفير البريطاني بـ"المطالبة الغامضة" بالكويت. في الأشهر التي سبقت انقلاب تموز/ يوليو 1958 في بغداد، مارس الهاشميّون ضغطاً شديداً على جارتهم للانضمام إلى اتّحادهم العربيّ السيّئ الطالع، وبعد أن استولى عبد الكريم قاسم على السلطة، توقّع الكثير من الكويتيّين أن يشنّ عمليّة غزو فور تعزيز موقعه. لكنّ قاسم لم ينجح في ذلك، وسرعان ما تنحّى مع شريكه في المؤامرة، عبد السلام عارف، الذي أراد أن تنضمّ العراق إلى الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. في أيلول/ سبتمبر ذاك، أطاح بعارف، لكنّه صار مرتهناً أكثر للحزب الشيوعيّ العراقيّ.569

569 TNA, CAB 129/87/38, Lloyd, 'Persian Gulf', 7 June 1957, Annex I.

كان ردّ فعل البريطانيّين والأميركيّين مختلفاً إزاء هذا التطوّر. ففي حين باشر الأميركيّون، بتشجيع من عبد الناصر، التفكير في طريقة لإزالة قاسم، كان البريطانيّون أكثر تفاؤلاً. رغم اعترافهم الفوريّ بأنّ حكومة قاسم لم تكن "حكومة أخلاقية"، فإنّهم ما إن ارتأوا أنّه لا يشكّل أيّ خطر مباشر على الكويت ولم يكن في قبضة عبد الناصر، اكتفوا بالانتظار لمعرفة ما الذي سيحدث.570

570 TNA, CAB 195/17, meeting of 31 July 1958.

هذه التحليلات المتضاربة للوضع ستحرّض البريطانيّين والأميركيّين بعضهم ضدّ بعض في العراق خلال القسم الأكبر من العام المقبل. ففي خريف 1958، تلقّى البريطانيّون معلومات عن مؤامرة للإطاحة بقاسم. بعد أن أخبروا الأميركيّين أنّهم شعروا بضرورة إخبار الديكتاتور بفحوى هذه المعلومات، يبدو أنّهم فعلوا ذلك. انزعج الأميركيّون – الذين كانوا يعرفون بالتأكيد بأمر المؤامرة وربّما كانوا يشجّعونها فعليّاً – من مسار التحرّك البريطاني. رغم أنّ السفير البريطاني الجديد، همفري تريفليان، سيزعم في وقت لاحق أنّه سيكون "من الغباء من قبلنا التورّط في أيّ مؤامرة محلّية"، سواء بتشجيعها أو بتحذير قاسم منها، فإنّ ذلك لم يكن إنكاراً، ويبدو أنّه ذهب لتحذير رئيس الوزراء العراقي من مؤامرة أخرى لقتله بعد ذلك بوقت قصير. أربك إصرار بريطانيا الغريب على حماية قاسم الجانب الأميركيّ. فوضع ريتشارد نيكسون، نائب الرئيس آيك، الإصبع على الجرح، عندما تساءل بصوت عالٍ هل يرى البريطانيّون "عبد الناصر خطراً أكبر من الشيوعيّين في الشرق الأدنى". جاء الردّ فوراً بأنّهم يعتقدون ذلك.[571]

571 كان العقل المدبر للانقلاب هو رشيد علي الكيلاني. بحلول ذلك الوقت، كانت المخابرات المركزية الأميركية قد أرست علاقات وثيقة مع ضباط المخابرات الألمانية النازية الذين شجعوا كيلاني على محاولة الإطاحة بالحكومة في العراق عام 1941.

Trevelyan, *Public and Private*, p. 44; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 24 February 1959; *FRUS*, 1958–60, Vol. XII, p. 445, memorandum of discussion at the NSC, 30 April 1959.

في أوائل آذار/ مارس 1959، اندلعت ثورة في الموصل بالفعل. بدعم جزئيّ من عبد الناصر، كان من المفترض أن تكون إحدى الانتفاضات التي كانت ستنشب في وقت متزامن في جميع أنحاء البلاد، والتي كان من المفترض أن تشكل تحدياً حقيقياً لقاسم، لو أنّها اندلعت حقاً. لكنّها لم تحدث، وتمكّنت القوّات الكرديّة المُوالية للديكتاتور العراقيّ من قمع الثورة في المدينة الشمالية المضطربة بعد أربعة أيّام، وقُتل بحلول ذلك الوقت قرابة ثلاثة آلاف شخص. هذه الثورة، وتوقيع العراق لاحقاً على اتفاقيّة اقتصاديّة مع موسكو، والانسحاب من "حلف بغداد"، غذّت المخاوف إزاء الاتّجاه الذي تسير نحوه البلاد.

في أواخر حزيران/ يونيو، ورد في صحيفة مصريّة أنه تم الكشف عن مؤامرة أخرى تورّط فيها هذه المرّة مساعد قاسم نفسه. رغم نفي العراقيّين هذه القصّة، فإنّ قاسم لم يتمكّن من إخفاء بوادر جنون العظمة المتنامية التي بدأت تظهر عليه. فقد بدأ يخرج في وقت متأخّر من الليل أو الصباح الباكر للاطّلاع على سير الأمور بنفسه. وصارت وزارة الدفاع "المكان الوحيد الذي تجرّأ على العيش فيه"، وفقاً لما قاله تريفليان، لكنّ أحد زوّار المبنى ذكر أنّه حتّى هناك كانت علاقات قاسم مع أتباعه متوتّرة بوضوح. ثمّ، في مؤتمر صحافيّ في أوائل تموز/ يوليو، فقدَ صوابه وصرخ في وجه

أحد المراسلين. في وقت لاحق من اليوم نفسه، خلال حفل أعدّه لاستقبال ميليشيا كان قد أنشأها أخيراً لكنّه جرّدها من سلاحها، طالب رجال الميليشيا باستعادة أسلحتهم، فردّ عليهم قائلاً: ”لم آتِ إلى هنا لأستمع لكم؛ أتيت لأحدّثكم“.572

572 Trevelyan, *Public and Private*, p. 45; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 10 July 1959.

في تموز/ يوليو 1959، شنّ قاسم حملة على الشيوعيّين للثأر من مجزرة ارتُكبت في كركوك. كان الأميركيّون مسرورين لهذا التحوّل الذي شهدته الأحداث، لكنّ البريطانيّين كانوا يشعرون بالقلق، إذ رأوا أنّ قاسم كان يعزل نفسه. ازدادت هذه المخاوف عندما أمرَ قاسم فجأة بعد بضعة أسابيع بإعدام الأشخاص المُدانين في المحاكمات الصُّوريّة التي نُظّمت بعد سقوط النظام القديم. قاومَ قاسم الضّغط الذي مارسه عليه الشيوعيّون لتنفيذ أحكام الإعدام منذ ذلك الحين، وأضحت هذه القضيّة أشبه بحالة مقياسيّة في أوساط المحلّلين والمغتربين الغربيّين: كان وقفُ عمليّات الإعدام مؤشّراً إيجابيّاً على القوّة.

كان أحد الأشخاص الذين شُنقوا صديقاً مقرّباً من البريطانيّين، وهو وزير الداخليّة السابق للبلاد سعيد قزاز. قبل يومين فقط، كانت زوجته قد تلقّت تطميناً من قاسم أنه لن يعدم زوجها. تريفليان، الذي وصف قزاز بأنّه ”رجل يتميّز بشجاعة لافتة“ نظراً إلى الطريقة التي دافع فيها عن نفسه أثناء محاكمته، شعرَ بالذّعر، فعمليّات الإعدام حملته على تغيير كامل للسياسة المتّبعة تجاه قاسم. كتب إلى لندن بعد خمسة أيّام: ”لا ينبغي لنا الآن أن نتعمّد اتّخاذ إجراءات لمساعدته على البقاء في السلطة. الوضع غير مستقرّ أبداً بالنسبة إلى ذلك، وهو شخصيّة غير مستقرّة على الإطلاق بالنسبة إلينا، ولذا لسنا متأكّدين من أنّ احتفاظه بالسلطة سيكون ذا منفعة“.573

573 Trevelyan, *Public and Private*, p. 45; Worrall, ‘Coping with the Coup d’Etat’, p. 189.

بينما كان الديبلوماسيّون الأجانب لا يزالون يسعون جاهدين إلى تفسير التغيير المفاجئ لموقف قاسم، حاولت مجموعة من البعثيّين في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1959، تتضمّن ناشطاً شابّاً يدعى صدّام حسين، اغتيال رئيس الوزراء العراقيّ في الشارع الرئيسيّ في بغداد وفشلت، حيث أطلقت ثمانين رصاصة على سيّارته، أُصيب بثلاث منها في الذراع والكتف. يتذكّر تريفليان أنّ ”إهمال البعثيّين في الحادثة يرقى إلى الجريمة“. وكنتيجة لإطلاق النار الدائريّ الذي نظّموه، ”تسبّبت رصاصة دخلت من أحد جانبي السيارة في قتل أحد رجال العصابة الذين كانوا يقفون على الجانب

الآخر. كان يوجد في كتاب الجيب الخاصّ به لائحة بأسماء المتآمرين". هكذا، في حين لاذ صدّام بالفرار، اعتُقل العديد من شركائه وحُكم عليهم بالإعدام.[574]

[574] Trevelyan, *Public and Private*, p. 46.

لكن هذه المرّة خفّف قاسم أحكام الإعدام. اشتبه تريفليان أنّ السبب كان وجود بعض الشيوعيّين أيضاً ضمن المحكومين بالإعدام. إزاء دعوة موسكو إلى الرأفة بهم، لم يكن من الممكن أن يشنق قاسم البعثيّين ويعفو عن الشيوعيّين. من ناحية أخرى، قد يتسبّب شنق مجموعتَي المحكومين في شرخ لا يمكن إصلاحه مع الشيوعيّين، في حين أنّه لا يزال – كما أدرك حينذاك – بحاجة إلى دعمهم. احتفل قاسم إثر مغادرته المستشفى بعد شهرين بإلقاء خطاب دام ستّ ساعات حمّل فيه البعثيّين مسؤوليّة محاولة قتله.

لطالما قيل أنّ قاسم كان يعيش "داخل سحابة صغيرة ورديّة اللون على ارتفاع ثلاثة أقدام عن الأرض"، وقد بدأت الشكوك تساور تريفليان ومستشاره الشرقيّ سام فال بشأن صحّته العقليّة منذ أول لقاء لهما به، وكان السبب الأساسيّ الذي دفعهما إلى ذلك هو عيناه الغريبتان. في طريقهما إلى اللقاء، كان السفير البريطاني يغنّي دائماً: "ها نحن ذاهبون إلى لقاء الساحر أوز، الساحر أوز الرائع!" لكنّ سلوك قاسم صار أكثر إثارة للقلق بعد محاولة الاغتيال. أشار تريفليان إلى أنّه كان يعرض القميص الملطّخ بالدماء، الذي كان يرتديه في ذلك اليوم، في خزانة ذات واجهة زجاجيّة "بجانب ساعة الوقواق"، في قاعة وزارة الدفاع حيث كان يلتقي الزوّار. تحدّث عن بناء نصب بشكل قبّة مصنوعة من الزجاج المضادّ للرصاص لحماية سيّارته التي تشبه المصفاة من كثرة الثقوب فيها. أعلن قائلاً: "أنا أعلى من الميول والتوجّهات"؛ دائماً ما يكون ذلك نذير شؤم. استنتج فال في نهاية 1959 أنّ الديكتاتور العراقيّ "يعتقد حقّاً أنّه يتمتّع بحماية إلهيّة". لم يكن البريطانيّون وحدهم المنزعجين من سلوك قاسم الذي بات من الصّعب أكثر فأكثر التنبّؤ به. كذلك كان أمير الكويت.[575]

[575] MEC, Slade-Baker Papers, diary, 24 February 1959; Trevelyan, *Public and Private*, pp. 42, 46; Falle, *My Lucky Life*, p. 145; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 19 December 1959.

***

بينما جعلت طفرة النفط في الكويت من الأمير أحد أغنى الرجال في العالم، فإنّ الكويتيّين العاديّين اضطرّوا إلى التماشي مع سلبيّاتها. فقد تسبّبت كتلة العمّال المهاجرين، التي كانت صناعة النفط

بحاجة إليها، في الاكتظاظ والتضخّم والمرض. في محاولة لنزع فتيل الضّغوط السياسيّة المتصاعدة، بعد مدة وجيزة من اتحاد مصر وسوريا لتشكيل الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، أحيى الأمير في شباط/ فبراير 1958 نظام المُستشارين الذي كان قد تخلّى عنه قبل أربع سنوات. لكنّه رفض السماح بإجراء انتخابات مباشرة، وبدلاً من ذلك شكّل مجموعة تتألف من خمسمئة هيئة انتخابية.

ليس مستغرباً أن يكون قبول الأمير الديموقراطيّة مبادرة غير كافية. لاحظ مندوب مبيعات بريطانيّ، ذهب إلى السينما في مدينة الكويت في الشهر التالي، أنّ الجمهور كان يتابع فيلماً عن رعاة البقر دون أيّ تفاعل. لكن عندما استتبع الفيلم نشرة إخباريّة مصرية تُظهر آخر مآثر عبد الناصر، "اجتاح المكان موجة عارمة من الهتاف والصّراخ". وفي شباط/ فبراير 1959، تحوّل اجتماع للأندية الشبابية في البلاد، أُقيم للاحتفال بالذكرى السنويّة الأولى للجمهوريّة العربيّة المتّحدة، إلى تجمّع حاشد لدعم الزعيم المصريّ، خرج بعد ذلك عن السيطرة. بعد أن فضّت الشرطة التجمّع، وحظرت السلطات أربعة من الأندية، لاحظ رجل بريطانيّ يعمل لدى شركة "نفط الكويت" أنّ ردّ الفعل كان "عنيفاً جدّاً". ورأى أنّ السلطات قد تفلت من هذا التحرّك مرّة أو مرّتين، إنّما ليس إلى أجل غير مسمى. صار "انفجار الوضع أمراً محتوماً عاجلاً أم آجلاً ".[576]

576 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 16 February 1959; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 17 February 1959; MEC, Slade-Baker Papers, diary, 14 March 1958.

أُضيف إلى قائمة مخاوف الأمير المتزايدة احتمال أن يشنّ قاسم عمليّة غزو على بلاده. ولذا اتّخذ في أيار/ مايو 1959 خطوة غير مسبوقة بدعوته المُقيم البريطانيّ السياسيّ إلى الحضور لرؤيته. في الاجتماع الذي تلى ذلك، أعرب الأمير عن أمله في أن تتعاون بريطانيا والكويت معاً حول كيفيّة مواجهة مثل هذا التهديد. لم يجرِ التخطّط لأيّ شيء، لكن يبدو أنّ الحاكم أراد ببساطة الاطمئنان بشأن دعم البريطانيّين له. وفي لندن، كان المكتب الحربيّ يفكّر في الاحتمال نفسه. استجابةً لطلبه تنبأت "لجنة المخابرات المشتركة" بإمكانيّة حشد العراقيّين قوة تضمّ لواءين وليس أكثر من سبعين دبّابة. كما حذّرت "المخابرات المشتركة" بصورة أساسية – بسبب النتائج المترتّبة على التخطيط البريطانيّ للدفاع عن الكويت – من أنّه رغم أنّ الحكومة البريطانيّة قد تتوقع "تحذيراً خلال مهلة لا تقلّ عن أربعة أيّام" من لحظة تحشيد القوات في منطقة البصرة، فإنّ "إمكانية أن يكون هناك إنذار فعليّ بالغزو ضئيلة أو معدومة"، لأنّ البصرة قريبة جدّاً من الكويت. خلق هذا التحدّي ما أسماه ماكميلان "المعضلة المعتادة. هل ينبغي لنا التوجه إلى هناك الآن؟ إن فعلنا ذلك، فسيكون الأمر

بمنزلة ’عدوان‘. أم هل يتوجب علينا التريث؟ إن فعلنا ذلك، فمن المحتمل أن نكون قد تأخرنا جدّاً‘‘.577

577 Mobley, ‘Gauging the Iraqi Threat’, p. 21; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 137, 18 July 1958.

فرض هذا الخيار نفسه مجدّداً وفجأة في منتصف 1961. فبعد الضّغط الكويتيّ، في 19 حزيران/ يونيو 1961، تبادل البريطانيّون والكويتيّون المذكّرات، وألغوا معاهدة 1899 وصفة الكويت كدولة خاضعة للرّعاية البريطانيّة. توقّعاً لردّ الفعل العراقيّ المحتمل شملت المذكّرات موافقة على تقديم بريطانيا مساعدة عسكريّة في حال طلب الأمير ذلك.

رحّب قاسم بنهاية الحكم البريطانيّ لكن الأسوأ أنه لم يذكر استقلال الكويت. ثمّ، بعد ستّة أيّام، في خطاب، أعلن أنّ الكويت جزء لا يتجزّأ من العراق، وعيّن الأمير قائمقاماً عليها (الحاكم المحلّي، التابع لحاكم محافظة البصرة). في بغداد، وجد تريفليان نفسه أمام مهمّة حيويّة لا يُحسد عليها: محاولة معرفة هل سيشنّ قاسم هجوماً بالفعل.

***

أُطلق على خطّة بريطانيا للدفاع عن الكويت ضدّ أي غزو عراقيّ اسم عمليّة Vantage، وحُدّدت بموجب القيود السياسيّة للكويت والموارد العسكريّة المحدودة لبريطانيا، لأنّ الأميركيّين كانوا على استعداد للمشاركة فيها سرّاً فقط. كان المناخ السياسيّ العدائيّ في الكويت قويّاً لدرجة أنّ الأمير لن يطلب المساعدة البريطانيّة إلاّ إن اضطرّ إلى ذلك. فطلبُ المساعدة من الجيش البريطانيّ يعني أنّهم عاجزون عن إبقاء القوّات في حالة جهوزيّة في المناطق المجاورة. لذلك، اعتمدت Vantage على تنبؤ ”لجنة المخابرات المشتركة“ بتلقّي البريطانيّين تحذيراً في غضون أربعة أيّام من نيات العراق، وبأنّ الأمير سيتحرّك بسرعة كافية للتمكّن من إنزال القوّات البريطانيّة بأعداد كافية في الوقت المناسب لردع العراقيّين من عبور الحدود الكويتيّة التي تقع على بُعد أربعين ميلاً فقط من البصرة.

قبل ذلك ببضع سنوات، كان البريطانيّون ليلجؤوا إلى المراقبة عن ارتفاع عالٍ للتأكّد من مصادر جهاز المخابرات البريطانيّ داخل الجيش العراقيّ. لكن بما أنّ خروتشوف هدّد بالانتقام عقب حادثة إسقاط طائرة الاستطلاع U2، كانت الحكومة البريطانيّة متردّدة إزاء السماح بعمليّة الاستطلاع

الفوتوغرافيّ في أجواء العراق، أقلّه في حين كانت نيات قاسم لا تزال غير واضحة. لذلك، كان هناك تعويل كبير على العنصر البشريّ، وخصوصاً على تريفليان.

كان تريفليان يدرك تمام الإدراك أنّ المسيرة المهنيّة لسلَفه في بغداد، رايت، لم تتعافَ أبداً من فشله في التنبّؤ بحادثة الإطاحة الدمويّة بالهاشميّين. لقد أُنهي تعيينه السابق في مصر بسبب أزمة السويس، ولعلّه يتساءل هل إقامته في بغداد على وشك الوصول إلى نهايتها أيضاً. لحماية نفسه، في اليوم التالي لخطاب قاسم، حذّر لندن أنّه بينما كان هناك إمكانيّة من أن يستطيع وموظّفوه رؤية القوّات العراقيّة تتحرّك من شمال البلاد باتّجاه البصرة، فإنّه من غير المرجّح أن يتمكّن من إعطاء لندن أيّ تحذير في حال نشر العراقيّون قوّات متمركزة أساساً جنوب بغداد. لهذا السبب بالتحديد، فكّر جهاز المخابرات البريطانيّ ذات مرّة في إرسال ويلفرد ثيسيجر إلى المستنقعات جنوبي العراق (حيث أمضى وقتاً في أوائل الخمسينيّات)، لاستمالة القبائل عبر تزويدها بالأدوية المُضادّة للملاريا، وتحويلها إلى كشّافة يمكنهم التحذير من أيّ تحرّك للقوّات العراقيّة جنوباً. لكن هذه الفكرة لم تُستكمَل.

من الواضح أنّه كان هناك نقاش داخل السفارة حول احتمال وقوع هجوم. فبينما رأى جهاز المخابرات البريطانيّ أنّ إعلان قاسم مجرّد بروباغاندا، لأنّه لم تُحرّك لا القوّات الجويّة ولا قوّة الدبّابات الرئيسيّة (رغم أنّ النقل بالسكك الحديديّة كان متوفّراً لنقلها جنوباً)، فإنّ الملحق العسكريّ لم يوافق على ذلك. إذ كان يعتقد أنّ الخطوة الأكثر احتمالاً من العراقيّين ستكون "تحرّكاً سريعاً من البصرة" يشمل قوّة أصغر بكثير ممّا توقّعته لجنة الاستخبارات المشتركة، ما سيمكّنهم من الاحتفاظ بعنصر المفاجأة.[578]

578 Bower, *The Perfect English Spy*, p. 237.

في مذكّراته، ادّعى تريفليان في وقت لاحق أنّ الملحق العسكريّ حقّق انفراجاً خلال حفلة سمر اقترب خلالها من مسؤول كبير في السكك الحديديّة العراقيّة كان قد أسرف كثيراً في الشرب، وسأله: "لماذا سمحتَ باستخدام مقطوراتك لنقل الدبّابات؟"

أجابه المسؤول الذي لم يكن في كامل وعيه: "نعم، أنا غاضب جداً. لقد رتّبوا ذلك مع مرؤوسيّ دون إخباري بذلك".[579]

579 Trevelyan, *The Middle East in Revolution*, p. 188.

إنّها حادثة مضحكة، ومن الممكن جدّاً أن تكون قد حدثت فعلاً. لكن يبدو من المحتمل أن يكون قد تم الحصول على معلومات أكثر دقّة من مصدر مختلف. تحتوي المحفوظات التي رُفعت عنها السرّية على دلائل موجودة في ملفّات تعود إلى أوائل 1962، حول وجود جاسوس جيّد للملحق العسكريّ، وهو ضابط أركان، داخل فوج الدبّابات الأوّل في العراق. إلى جانب إعادة سرده حكاية الحفل، اعترف تريفليان في وقت لاحق: ”بدأنا نحصل على معلومات موثوقة مفادُها أنّ أوّل فوج للدبّابات كان ينتقل إلى البصرة“. في وقت مبكر من 29 حزيران/ يونيو، أخبر تريفليان لندن أنّه بات يعتقد أنّ قاسم يخطّط فعليّاً للهجوم بقوّة خفيفة قد تدخل الكويت بحلول 1 تموز/ يوليو. كان هذا أسرع بكثير ممّا تصورته ”اللجنة المشتركة“. ونقل اللورد هوم ذلك إلى مجلس الوزراء في ذلك الصباح. فأقرّ في رسالة موجّهة إلى واشنطن بأنّ الأدلّة ”لا تزال ضعيفة إلى حدّ ما لكنّها تشير بوضوح إلى استعداد قاسم لتعزيز قوّاته قرب البصرة بفوج من الدبّابات“.[580]

580 TNA, FO 371/164266, Baghdad to Foreign Office, 20 January 1962; CAB 131/25, Cabinet Defence Committee, minutes, 29 June 1961; Winger, ‘Twilight on the British Gulf’, p. 666.

تسبّبت برقيّة تريفليان في إثارة الذّعر. فأقربُ وقت يمكن للبريطانيّين فيه إنزال قوّات في الكويت هو نهاية 1 تموز/ يوليو تقريباً. حينذاك، يكون العراقيّون قد صاروا في مدينة الكويت. وبما أنّ أمير الكويت لم يطلب المساعدة بعد، أرسل إليه هوم المعلومات نفسها في ذلك اليوم في محاولة لتشجيعه. لم يتلقَّ أيّ جواب من الكويت، فأرسل رسالة أخرى في وقت مبكر من الجمعة 30 حزيران / يونيو. بحلول الوقت الذي اجتمع فيه مجلس الوزراء في منتصف النهار، كان قد حصل على جواب إيجابيّ. بعد ظهر ذلك اليوم، قرّر ماكميلان إرسال خمسمئة جنديّ من مشاة البحريّة الملكيّة على متن هليكوبتر من السفينة الملكيّة Bulwark.

بحلول صباح الإثنين، 3 تموز/ يوليو، لم يكن الهجوم العراقيّ قد تمّ بعد. عندما خاطب ماكميلان الحكومة في صباح ذلك اليوم، ذكّر زملاءه بنبرة دفاعيّة، أنّه عندما اتّخذوا قرار إرسال القوّات، كانت هناك ”مؤشّرات على أنّ العراقيّين قد بادروا إلى التحرّك“. وكتبرير إضافيّ لهذه الخطوة، أضاف أنّهم كانوا يعتقدون أنّ العراقيّين كانوا يخطّطون لانقلاب في 12 تموز/ يوليو. وقال إنّ المهمّة أُنجزت، لكن ”كيفيّة التنصّل منها مسألة أخرى“.[581]

581 TNA, CAB 195/19, meeting of 3 July 1961.

ما إن اتّضح أنّ قاسم لن يهاجم، وجد ماكميلان نفسه فوراً عرضةً لضغوط دوليّة لسحب القوّة التي أرسلها، ليس أقلّها من الأميركيّين الذين اعتقدوا أنّ البريطانيّين وقعوا في فخّ وضعَه قاسم

ليبرهن أنّ الكويت لم تكن مستقلّة على الإطلاق. كما تساءلوا هل المعلومات المخابراتيّة التي شاركتهم لندن إيّاها كان لها أيّ أساس من الصحّة.

في أيّ حال، لم تكن بريطانيا الدولة الوحيدة التي كانت تشعر بالقلق إزاء مزاجيّة قاسم المتفاقمة، وقد جاءت المساعدة في النهاية من جامعة الدول العربيّة التي سرعان ما قبلت الكويت ضمن صفوفها، وأرسلت بعدها قوّة سمحت للبريطانيّين بتحرير أنفسهم. أدرك ماكميلان أنّ الحظ قد سانده بالنجاة من هذا المأزق. وقد اعترف لوزير الخزانة، السير نورمان بروك، بعد بضعة أسابيع: "كانت سياستنا مسألة قصيرة المدى. ما نفعله هو إخراج النفط من هذه المناطق ما دام سكانها لا يزالون بدائيّين إلى حدّ ما... يجب ألّا ننظر إلى الكويت كالتزام طويل الأجل".[582]

582 Bower, *The Perfect English Spy*, p. 238.

سرعان ما اتّضح أنّ التهديد على الكويت قد يتكرّر. ففي نهاية 1961، صدرت تقارير أخرى تفيد بأنّ قاسم كان يخطّط للغزو. ومرّة أخرى تناهت شائعات إلى مسامع البريطانيّين في إحدى الحفلات تفيد هذه المرّة بأنّ المظلّيين العراقيّين كانوا ينتشرون جنوباً. ومرّة أخرى لم تسفر الشائعات عن شيء. أكّد الملحق العسكريّ التركيّ للبريطانيّين أنّ تصريحات قاسم كانت مجرّد غيمة من الدخان هدفُها صرف انتباه الناس عن دولة العراق التي كانت ذات يوم مصدّراً أساسياً للقمح، ولكن بعد الاستصلاح البدائي للأراضي والجفاف، صارت الآن في موضع إذلال لاضطرارها إلى شراء الحبوب والأرزّ. حينذاك، كان قاسم يقاتل أيضاً انتفاضة كرديّة في الشمال. كان بنفسه كرديّاً، ولذا لم يكن يثق أبداً بأبناء عرقه، لدرجة أنّه أزال الضبّاط الأكراد وضبّاط الصفّ من القوّات التي تقاتل الانتفاضة، لكن ليس قبل فرار بعضهم والتحاقهم بالمتمرّدين.

اتّهم قاسم شركة "نفط العراق" بدعم الانتفاضة الكرديّة لتبرير اتّخاذ موقف أكثر صرامة ضدّها. بعد انهيار المحادثات بين حكومته والشركة، أصدر قاسم في كانون الأول/ ديسمبر 1961 القانون العامّ رقم 80، الذي استعادت بموجبه الحكومة العراقيّة الحقوق على أراضٍ معيّنة من الشركة أهمّها جنوبي البلاد.

زوّد تحرّك قاسم العنيف ضدّ الشركة منتقدي السياسة الأميركيّة في العراق بالذخيرة، على أساس أنّ اثنتيْن من شركات النفط الأميركيّة الكبرى تملكان ما يقارب ربع IPC. حينذاك، كان جون ف. كينيدي رئيساً. وبينما صرّح خبراء في وزارة الخارجيّة بأنه من الأفضل أن يتركوا قاسم وشأنه،

اتّخذ مستشار الأمن القوميّ لدى كينيدي، ماكجورج بوندي، ونائبه روبرت كومر، وجهة نظر مختلفة. فأقنعاه بالضّغط على ''الخارجيّة'' للنظر في تغيير النظام.

كانت ''المخابرات المركزيّة'' تعمل على تحقيق هذا الهدف على نحو متقطّع منذ 1960، وهو العام الذي أُنشئت فيه ''لجنة الصحّة العراقيّة البديلة''. طرحت هذه التركيبة، ذات التسمية المزعجة، فكرة إرسال منديل إلى قاسم ''يحتوي على نوع معيّن من المواد تضايق الشخص الذي يستلمه''. لم يستلمه قاسم طبعاً، وليس واضحاً إن كان قد أُرسل أساساً.[583]

583 Wolfe-Hunnicutt, 'The End of the Concessionary Regime', p. 51.

في الوقت نفسه، خطر لـ''المخابرات المركزيّة'' أن تحاول مساعدة خصوم النظام داخل العراق والمنفيّين الذين غادروا البلاد للإطاحة بقاسم. في شباط/ فبراير 1960، تدّخل في المسألة ضابطا ''المخابرات المركزيّة'' السابقان مايلز كوبلاند وجيمس إيشلبيرغر اللذان كانا قد استقرا حينذاك كخبيريْن استشاريّيْن في بيروت. وفي رسالة، قد تكون كُتبت إلى رئيس ''المخابرات المركزيّة'' في لبنان، صرّحا بأنّ ''لا أحد من الشخصيّات المهمّة في العراق يعتقد بوجود أيّ فرصة لوقف الشيوعيّين عن طريق تحريك العناصر غير الشيوعيّة في الداخل''. قالت مصادرهما إنّ الفرصة الحقيقيّة الوحيدة للإطاحة بقاسم ستكون بالتدخّل الخارجي. بصفتهما حليفين قديميْن لعبد الناصر، لمّحا إلى أنّ الزعيم المصريّ والمنفيّين البعثيّين الذين يأويهم هم الأكثر قابليّة للنجاح في تحقيق ذلك. كان أحد هؤلاء صدّام حسين البالغ 26 عاماً.[584]

584 Wolfe-Hunnicutt, 'The End of the Concessionary Regime', pp. 49–50.

بما أنّ القسم الأكبر من جيشه كان يحارب الانتفاضة شمالي البلاد، كان قاسم عرضةً للخطر. وفي 8 شباط/ فبراير 1963، نفّذ الضبّاط البعثيون انقلاباً في بغداد. تذكّر تريفليان كيف قاطع التلفزيون العراقيّ في اليوم التالي حلقة الرسوم المتحركّة ''القط فيليكس'' لعرض لقطات مصوّرة لقاسم وهو يجلس على كرسيّ في مكتبه في القصر مُحاطاً بالضبّاط المتمرّدين. كان وليام لايكلاند – الرجل الذي أقام علاقات صداقة مع عبد الناصر قبل سنوات – يعمل الآن في السفارة الأميركيّة لدى بغداد. وقد شاهد أيضاً اللقطات المصوّرة. بعد سنوات، تذكّر كيف أدار المتمرّدون رأس قاسم، ''لنتمكّن من رؤية المكان الذي اخترقت فيه الرّصاصة صدغه كي لا يشكّ أحد في موته''. تلى هذا الفاصل القصير برنامج باللغة الإنكليزيّة عن فن العناية بالحدائق.[585]

585 Lakeland Oral History Interview (Seeley G. Mudd Manuscript Library, Princeton), p. 43.

قال كومر للرئيس كينيدي في واشنطن عندما بدأت تتّضح تفاصيل ما حدث: ”رغم أنّ الوقت مبكر، يبدو أنّ الثورة العراقيّة قد نجحت. لا شكّ أنّ هذا مكسبٌ صافٍ لمصلحتنا“. سيدّعي أحد البعثيّين البارزين لاحقاً أنّ لايكلاند كان على اتّصال مع المتآمرين، وكان يُعتقد على نطاق واسع أنّ ”المخابرات المركزيّة“ الأميركية والمخابرات المصريّة زودتا الحكومة الجديدة بعد ذلك بلوائح بأسماء الشيوعيّين العراقيّين. طبعاً أعقب مقتل قاسم عمليّة تطهير قُتل فيها آلاف الأشخاص. كان وزير الداخليّة العراقيّ الجديد صريحاً حين اعترف لاحقاً: ”وصلنا إلى السلطة عبر قطار وكالة المخابرات المركزيّة“.[586]

586 *FRUS*, 1961–1963, Vol. XVIII, p. 343, note 1; Aburish, *A Brutal Friendship*, p. 140.

25

صندوق باندورا

لم تكن بريطانيا لتتمكن من إرسال القوّات إلى الكويت ضمن مهلة وجيزة لولا وجودها الطويل الأمد في الرّكن المقابل لشبه الجزيرة العربيّة، في عدن. هناك، بين كتلتيْن من الصّخور البركانيّة السوداء، كان يوجد أفضل ميناء في المياه العميقة في المنطقة، وقد استولى عليه البريطانيّون في 1839. رغم الحرارة المرتفعة جدّاً وشكله غير الجذّاب، اكتسب الميناء أهمّية إستراتيجيّة إضافيّة عقب افتتاح قناة السويس. ثمّ استفاد كثيراً من الأزمات التي عصفت ببريطانيا في أمكنة أخرى من الشرق الأوسط خلال الخمسينيّات. بعد أن تعلّمتْ درساً من أزمة النفط الإيرانيّة، قرّرت الشركة الإنكليزيّة–الإيرانيّة بناء مصفاة جديدة على رأس الخليج الغربيّ، لمعالجة النفط الخام الذي كانت تستخرجه من الكويت. في 1954، زارت الملكة إليزابيث الثانية الموقع ووضعت حجر الأساس للمنشأة.

هذا الموقع الإستراتيجيّ لعدن، عند نقطة التقاء الجزيرة العربيّة والقرن الأفريقي، جعل منها القاعدة الجديدة الجليّة للقيادة البريطانيّة للشرق الأوسط بعد الانسحاب من السويس في 1956. في السنوات الثلاث التالية، ازداد عدد القوّات البريطانيّة المتمركزة في المستعمرة أربعة أضعاف. وقد جذب التسوّق المُعفى من الرسوم الجمركيّة السيّاح المارّين من هناك. بحلول 1962، صار ما كان في السابق مجرّد قرية تضمّ مئتي منزل من الطين الميناء الثاني أو الثالث الأكثر ازدحاماً في العالم، الذي يطلّ عليه تمثال للملكة فيكتوريا ويرتفع وسطه برج ساعة على طراز Big Ben. لم تكن عدن مجرّد مفتاح لإستراتيجيّة بريطانيا في الشرق الأوسط. فعلى حدّ تعبير دنكان سانديز في تشرين الثاني/ نوفمبر ذاك، شكّل ذلك "نقطة انطلاق حيويّة" في طريق إنشاء قاعدة بريطانيا في الشرق الأقصى، في سنغافورة. كانت المستعمرة قد صارت جزءاً لا يتجزّأ من طرح بريطانيا لنفسها كقوّة عالميّة. وما إن تورّطت الولايات المتحدة في فيتنام، حتّى أصبح الأميركيّون أنفسهم حريصين على تشبّث البريطانيّين بها.[587]

[587] Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 5; HC Deb, 13 November 1962, Vol. 667, c. 247.

في السنوات التي تلت الاستيلاء على الميناء، حاول البريطانيّون إنشاء منطقة عازلة بتوفير الحماية للسلاطين الذين يحكمون المناطق النائية الواقعة لجهة الشمال مباشرة، وجمعها بموافقة هؤلاء ضمن محميّات شرقيّة وغربيّة. رغم بذلهم قصارى جهدهم، لم يتمكّنوا من عزل الميناء عن خطاب عبد الناصر الناريّ. كانت عدن ومصفاتها الجديدة خاصّة تعتمدان على عشرات الآلاف من العمّال المهاجرين الذين يأتون من المحميّات، واليمن التي تقع شمالاً. كان المهاجرون اليمنيّون يقيمون في ظروف فقيرة، وكانوا محرومين أيّ حقوق ديموقراطية، ولذا انتظموا بحلول 1956 ضمن نقابة عمّالية فعّالة روّجت لها "صوت العرب".

في البداية، قلّل المسؤولون البريطانيّون أهمّية الحركة القوميّة التي كانت تتطور جنباً إلى جنب مع النقابة، واصفين قادتها بأنّهم "منحرفون أخلاقياً، أشخاص ساخطون... فاشلون، غير كفوئين... إلخ". لكنّ تأثيرها كان كبيراً لدرجة أنّ حاكم عدن البريطانيّ صرّح بحلول 1958 أنّ أفضل طريقة للحفاظ على أيّ وجود بريطانيّ في المنطقة هي تخفيف قوّة القوميّين، بدمج المستعمرة والمحميّات الأكثر ودّاً في دولة جديدة يمكن لبريطانيا بعد ذلك أن توقّع معها على معاهدة تصون حقوقها المتعلقة بالقاعدة. لكن في لندن استخدم ماكميلان في البداية حقّ النقض ضدّ هذه الفكرة. فقد كان على قناعة بأنّ سكّان هذا البلد الجديد "سيبيعون حرّيتهم لمصر فقط" عند الاستقلال، وأيّده لويد الذي كان يعتقد أنّ عدن كانت "الهدف التالي لعبد الناصر". 588

588 MEC, Slade-Baker Papers, diary, 5 June 1956; TNA, CAB 195/17, meetings of 14, 15 April 1958.

***

في الحقيقة، كانت أولويّة عبد الناصر هي اليمن المجاورة. في الماضي، كانت المرتفعات الوعرة في اليمن بأهمية الجبل الأخضر في سلطنة عمان، إنّما على مستوى وطنيّ. لم تُستعمَر بنجاح، ولذا كان يحكمها منذ القرن التاسع إمام من الزيديّين، وهم القبائل الشيعيّة المتمركزة شمالي وشرقي البلاد. رغم أنّ الزيديّين كانوا أقلّية فقيرة جداً ولا تكاد تكون متعلّمة، كان الإمام سيّداً على الغالبية السنّية الأكثر ازدهاراً، وهي الغالبية الشافعيّة التي كانت تقيم في البلدات الجنوبيّة، كونه كان معترفاً به عموماً كخليفة لمحمّد، وكان في النتيجة معصوماً من الخطأ. في سياق الوضع الراهن، شكّل ذلك قفزة قياسيّة في الإيمان. ذلك أنّ أحمد، الإمام الخامس والستّين، كان طاغية سميناً، جاحظ العينين، مهووساً بالجنس، "استدعى ذات مرّة أسرته ليشهدوا ويحتفلوا بالانتصاب الذي أنجزه" بعد أن تناول مجموعة من الأدوية الهرمونيّة. ولكنّ الرأي القائل إنّ تحدّي الإمام كان

أقرب إلى عصيان الله نفسه لم يكن حقيقة مطلقة، وقد قدّر عبد الناصر هذا الأمر. جاء الدليل على ذلك بثلاث رصاصات مغروزة في جسم الزعيم اليمنيّ، شكّلت ذكرى مزعجة لمحاولة اغتياله عام 1961، التي جعلته يعاني حالة من الألم شبه الدائم.[589]

589 'New Wind in an Old Quarter?', *The Times*, 21 September 1962; Beeston, *Looking for Trouble*, p. 41.

بحلول ذلك الوقت، كان عبد الناصر يحاول التخلّص من أحمد منذ نحو أربع سنوات تقريباً. في 1958، قابل بدر، ابن الإمام، في دمشق وعرض عليه مساعدته على الإطاحة بوالده. وافق بدر، الذي كان يتنافس مع عمّه، حسن، على استلام الإمامة، لكنّه لم يتمكّن من تنفيذ الانقلاب. في هذه الأثناء، أدرك أحمد أنّه ضعيف، وانضمّ إلى الجمهوريّة العربيّة المتّحدة في محاولة للدّفاع عن نفسه في وجه عبد الناصر. ولكن عندما انفصلت سوريا عن الجمهوريّة العربيّة المتّحدة في 1961، لم يتمكّن من مقاومة مهاجمته عبد الناصر. سأل أحمد الزعيم المصريّ: "لماذا تلوّث الجوّ بمظالمك؟" فاستجاب الأخير بإنهاء الوحدة.[590]

590 Adams Schmidt, *Yemen*, p. 45.

كان انفصال سوريا ضربة قويّة لصورة عبد الناصر، ولم ينسَ الأخير الضّربة التي وجّهها إليه أحمد. فضاعفَ جهوده لزعزعة استقرار اليمن خلال 1962. ودعا مرّة أخرى بدر لإزالة والده المريض، لكنّ بدر رفض ذلك قائلاً إنّ الرجل العجوز بات يشكّ في تحرّكاته ويراقبها. إنّ محاولة الانقلاب المنفصلة التي تمّت في الربيع، والإضراب، والمظاهرات الطلّابيّة التي نُظّمت، أخفقت جميعها في إسقاط الإمام. وعندما توفّي أحمد بسلام في فراشه، في 19 أيلول/ سبتمبر، رغم كلّ التوقعات، كان شقيقه حسن في المنفى. هكذا انتُخب بدر الإمام السادس والستّين في سنّ الخامسة والثلاثين.

كان بدر على علم بعدد من المؤامرات التي كانت معدّة لقتله لكنّه كان متردّداً إزاء اتّخاذ أي إجراء، فولعُه الشهير بمشروب البراندي الجنوب–أفريقيّ الرخيص لم يجعله محبوباً لدى الأكثر تقوى بين رعاياه، وكان يفضّل ألّا يصنع لنفسه أيّ أعداء إضافيّين. بعد أسبوع من انتخابه، في 26 أيلول/ سبتمبر، حاول أحد حرّاسه الشخصيّين إطلاق النار عليه. يتذكّر بدر أنّه سُمع صوت "طقطقة وشجار"، وهو يدين ببقائه لاستعصاء بندقيّة الرجل. وبعد أن أبلغه الملحق العسكريّ المصريّ بالتخطيط لمؤامرة أخرى، دعا العميد عبد الله السلال، الذي كان على ما يبدو موضع ثقة، إلى جلب قوّاته إلى صنعاء لحماية القصر الملكيّ. انقلب السلال ضدّه، ووجد بدر نفسه في تلك الليلة عرضة

لهجوم من مسافة قريبة. في البداية، أمسك بمدفع رشّاش وأطلق ردّاً، قبل أن يفكّر مليّاً في الأمر ويفرّ هارباً إلى الجبال. في اليوم التالي، سمع على الراديو أنّه تأسّست جمهوريّة، وأنه مات تحت أنقاض قصره. لكنّ الحظّ لم يحالف غيره من أعضاء النظام القديم. فقد قُبض عليهم، وقُتلوا رمياً بالرصاص دون محاكمة، وتُركت "جثثهم في العراء طعاماً للكلاب والطيور الجائعة"، كما اتّضح لاحقاً. 591

591 TNA, AIR 19/1063, McLean, 'Report on Visit to the Yemen, 4 December – 16 December 1962', n.d.; TNA, AIR 19/1063, Report of Visit to the Yemen 27–30 October 1962 by Lt Col Neil McLean.

رغم أنّ الانقلاب كان يحمل بصماته في كلّ مكان، فإنّ توقيته بدا غير مناسب أبداً لعبد الناصر. ففي تلك المرحلة، كان يحاول تهميش منافسه غير الجدير إنّما الشعبيّ، قائد القوّات المسلّحة المصريّة، عبد الحكيم عامر. لكنّ عامر، الذي أدرك ما الذي كان على وشك الحدوث، استقال قبل أن يتمكّن عبد الناصر من مطاردته، ثمّ اختفى قبل ستّة أيّام من وقوع الانقلاب في اليمن. وسط شعور عامّ بـ"ضرورة فعل شيء ما" لمساعدة النظام الجديد في صنعاء، لكن وسط الاختلاف حول ما يجب عمله بالضّبط، رأى عبد الناصر الانقلاب اختباراً لقيادته. فبادر إلى إرسال طائرة محمّلة بعدد من المنفيّين اليمنيّين، والذّهب، والبنادق، وجهاز إرسال لاسلكيّ، وسربٍ من الطائرات تحميها مجموعة كوماندوز، لمساعدة اليمنيّين. كما طلب من موسكو طائرة نقل من نوع Antonov قادرة على التحرّك وسط الظروف البدائيّة في اليمن، ليتمكّن من إرسال المزيد من القوّات والإمدادات.

وافق الروس فوراً على طلب عبد الناصر، وفي 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1962، حذا الاتّحاد السوفياتي حذو مصر في الاعتراف بالجمهوريّة العربيّة اليمنيّة الجديدة. في غضون أيّام قليلة، بدأ وصول التعزيزات المصريّة الأولى. اشتكى عبد الناصر في 1967 قائلاً: "أرسلتُ شركة إلى اليمن، واضطررتُ إلى تعزيزها بسبعين ألف جنديّ". بعد ذلك، سيُطلق على اليمن اسم "فيتنامِي". 592

592 Ferris, *Nasser's Gamble*, p. 24.

***

لم تشكّل اليمن أولويّة على الإطلاق في البيت الأبيض الذي تورّط في أزمة الصواريخ الكوبيّة وفي فيتنام. اعترف جون ف. كينيدي: "أنا لا أعلم حتّى أين تقع"، عندما ناقش وماكميلان مسألة البلاد لأوّل مرّة في تشرين الثاني/ نوفمبر. لكنّ الأخبار الواردة من صنعاء لم تكن موضع ترحيب في

واشنطن، لأنّ الرئيس كان يحاول تسوية الخلافات مع عبد الناصر، في أعقاب تقرير المخابرات الوطنيّة الذي وصف الوضع العامّ لـ"الأنظمة المحافظة والمتحالفة مع الغرب" في الشرق الأوسط بـ"البائس". بعد انفصال سوريا عن الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، حاولت الإدارة إغراء عبد الناصر بالابتعاد عن الروس مقابل الوعد بمساعدته. كانوا يأملون، على حدّ قول مبعوث كينيدي، تشيستر بولز، أن يعمد عبد الناصر إلى "التخلّي عن الميكروفون مقابل الجرّافة". بعبارة أخرى: أن يركّز جهوده على تطوير بلده[593].

[593] Bass, *Support Any Friend*, pp. 100, 77, 89.

واجهت إدارة كينيدي مشكلة مألوفة. ففي حين ألقى الزعيم المصري بثقله على النظام الجمهوريّ الجديد في صنعاء، ذهبَ الزعيم الفعليّ للملَكيّين، حسن، عمّ بدر، إلى رؤية البريطانيّين وحسين، ملك الأردن، والملك سعود، الذين بدوا مستعدّين لمنحه دعمهم. رغم تفكير الأميركيّين في الاعتراف بالحكومة الجديدة، من المرجّح ألّا يفعل حلفاؤهم ذلك. وقد علّق نائب مستشار الأمن القوميّ، بوب كومر، قائلاً: "إذا وقفنا إلى الجهة البريطانيّة–الأردنيّة–السعوديّة، سنقضي على علاقتنا الجديدة مع عبد الناصر. وإذا وقفنا إلى جهة الجانب الآخر، سنفتح صندوق باندورا". كان الخوف الأكبر لدى الأميركيّين هو أن تمنح رغبة الملكين سعود وحسين في دعم الملكيّين ذخيرة للعديد من خصومهم في الداخل[594].

[594] *FRUS*, 1961–63, Vol. XVIII, p. 177, Komer to Talbot, 12 October 1962.

بناء على نصيحة كومر أرجأت الإدارة اعترافها على أمل أن تُحلّ المشكلة من تلقاء نفسها. واقترح نائب مستشار الأمن القوميّ إمكانيّة إحراز عبد الناصر والجمهوريّين تقدّماً سريعاً، بما فيه الكفاية، كي يدرك السعوديّون أنّ المقاومة غير مُجدية. "دعونا ننتظر ريثما يصير واضحاً لكلّ من سعود وحسين أنّهما يخسران، كي لا يحمّلا مسؤوليّة ذلك على اعتراف الولايات المتحدة".

كان شقيق الملك سعود، وليّ العهد، الأمير فيصل، في الولايات المتحدة عند الانقلاب، ولم يشارك كومر تحليله على الإطلاق. فقد كان فيصل قلقاً من أن تكون السعوديّة الهدف التالي لعبد الناصر بعد اليمن. في اجتماع مع الرئيس كينيدي، صرّح بأنّ الجمهوريّين لن ينجحوا دون دعم من القاهرة وموسكو. وأثار فيصل الشكوك علانيّة حول ادّعاء كينيدي أنّه قادر على توجيه عبد الناصر بسبب اعتماد مصر على المساعدات الغذائيّة الأميركيّة، وتابع مؤكّداً شكوك الأميركيّين حول أنّ بلاده ستساعد الزعيم الملكيّ حسن. "لم يطمئنّ على الإطلاق" من لقائه مع كينيدي، ولذا غادر

الولايات المتحدة بعد بضعة أيّام. لكن قبل أن يفعل ذلك، حصل على تطمين من الديبلوماسيّين البريطانيّين في الأمم المتحدة في نيويورك إلى أنّه حتى لو لم يكن جون كينيدي يشاركه مخاوفه، فإنّ هارولد ماكميلان من الجانب الآخر من المحيط الأطلسيّ يشاركه إيّاها.[595]

595 Hart, *Saudi Arabia and the United States*, p. 115.

***

كانت نظرة ماكميلان إلى الانقلاب اليمنيّ مختلفة تماماً عن كينيدي، لأنّه كان يمثّل تهديداً مباشراً للمصالح البريطانيّة. كان الأئمّة المتعاقبون على اليمن يطالبون بجنوب الجزيرة العربيّة، وعدن، وقدّر ماكميلان فوراً تشجيع عبد الناصر النظام الجديد في صنعاء على الشيء نفسه. قال للملكة إليزابيث: "نحن قلقون للغاية بشأن الوضع في اليمن. لقد تمكّنّا حتّى الآن من الحفاظ على مكانتنا في الخليج على نحو يفوق آمالنا... لكنّ الكثير من الأمور رهنٌ بعدن، وفي حال أُخرجنا منها أو واجهنا مشكلات ثوريّة خطيرة قد تجرّد القاعدة من أهمّيتها، سيختفي نفوذنا في الخليج بالكامل".[596]

596 Taylor Fain, 'John F. Kennedy and Harold Macmillan', p. 109.

كان السبب الرئيسيّ وراء قلق ماكميلان مرتبطاً بحدوث الانقلاب في وقت كانت تمرّ فيه علاقة بريطانيا بعدن بمرحلة حرجة. بعد أن عارض في الماضي تحويل المستعمرة والمحميّات التي تقع شمالها إلى اتّحاد لجنوب شبه الجزيرة العربيّة، غيّر رئيس الوزراء أخيراً رأيه، بعد أن شهد الدور الذي لعبته قاعدة عدن العسكريّة خلال أزمة الكويت عام 1961. وفي صيف 1962، قرّرت الحكومة البريطانيّة متابعة الاندماج، ومن باب المصادفة الغريبة، صوّت المجلس التشريعيّ في عدن لمصلحة الإجراء في اليوم نفسه الذي حدث فيه الانقلاب في صنعاء.

للوهلة الأولى، كان التصويت يعني أنّ الاندماج سيتمّ، لكن الواقع أبعد ما يكون عن ذلك. فلقد أسّس البريطانيّون المجلس قبل ثلاث سنوات لمنح المستعمرة شكلاً ديموقراطيّاً، وبحكم تكوينه، كانت موافقته حتميّة. أثار النقاش أعمال شغب في شوارع عدن – أدّت إلى وفاة رجل – وعندما طُرحت القضيّة على التصويت بعد نقاش دام يومين ونصف حظيَ الإجراء بتأييد ثلاثة فقط من النوّاب العدنيّين، في حين كان السبعة الآخرون قد خرجوا من الغرفة. بعبارة أخرى: كان ذلك من أكثر الموافقات هشاشة.

لم يتبقَّ سوى ستّة أشهر قبل دخول الاندماج حيّز التنفيذ، وقد أدرك ماكميلان وزملاؤه أنّ الأحداث في اليمن تعرقل خطّتهم بسهولة. لكنّهم بذلوا جهداً كبيراً للاتّفاق على ما يجب فعله بعد ذلك. فرئيس الوزراء نفسه كان متردّداً. ورغم قوله مشتكياً: "يبدو في أحيان كثيرة أنّنا ندعم أنظمة مستبدّة ورجعيّة، ونعرقل قيام حكومة حديثة وأكثر ديموقراطيّة"، تبيّن أن حدسه قد ساقه باتجاه الملكيّين رغم إدراكه أنّ نجاحهم غير محتمل. اعترف على انفراد بأنّه "تم تذكيره بنزاع بوني برينس تشارلي في اسكتلندا عام 1745؛ كان سكّان المرتفعات أكثر جاذبيّة، لكن كان معروفاً أنّ سكّان المناطق المنخفضة سيفوزون في النهاية".[597]

597 Clark, *Yemen*, p. 91; Bower, *The Perfect English Spy*, p. 248.

عندما ناقش مجلس الوزراء مسألة الاعتراف، صرّح وزير الخارجيّة اللورد هوم بأنّه لم يكن لديهم الكثير من الخيارات. فرفض الاعتراف بالنظام الجديد سيؤدّي إلى استعداء عبد الناصر، في الوقت الذي كان فيه خصومه الملكيّون مثيرين للاشمئزاز لدرجة أنّ الدّعم الفعّال لهم سيكون، كما اضطرّ ماكميلان إلى الاعتراف به، "بغيضاً سياسيّاً". عقب الأنباء عن عقبات أخرى في وجه مطالب الملكيّين واليمنيّين، تمنعهم من التدخّل في عدن، وافق مجلس الوزراء في 23 تشرين الأول/ أكتوبر (منتصف أزمة الصواريخ الكوبيّة) على الاعتراف بالحكومة الجديدة في صنعاء "من حيث المبدأ". لكنّه لم يحدّد تاريخاً واضحاً لفعل ذلك.[598]

598 TNA, CAB 128/36, 59th Conclusions, 9 October 1962; TNA, CAB 128/36, 61st Conclusions, 23 October 1962.

كان هناك سبب مهمّ لهذا الغموض. فقبل يوم واحد، التقى ماكميلان حاكم عدن، تشارلز جونستون، ودعاة مجلس الوزراء الرئيسيّين المؤيّدين والمعارضين للاعتراف بالنظام الجديد، اللورد هوم، دنكان سانديز الذي كان قد صار حينذاك وزير المستعمرات. رغم اتفاقهم جميعاً على أنّه من غير المرجّح أن يتمكّن الملكيّون من الإطاحة بالحكومة الجديدة، فإنّ جونستون ناشد بكسب المزيد من الوقت. أراد أن يُمنح حسن وبدر فرصة أخيرة لقلب الطاولة، ليبرهن لسلاطين الاتّحاد أنّ بريطانيا بذلت قصارى جهدها لمساعدة الملكيّين قبل رضوخ الحكومة البريطانيّة للأمر المحتّم واعترافها بالنظام الجديد. علّق ماكميلان في مذكّراته قائلاً: "يبدو أنّ أسبوعاً، تقريباً، هو المهلة التي سُمح بها".[599]

599 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 509, 22 October 1962.

منح الأسبوع أيضاً متّسعاً من الوقت لوضع مخطّط آخر تغاضى عنه ماكميلان ضمنيّاً. فبعد مدة وجيزة من الانقلاب، التقى صهره جوليان آميري – وزير الطيران حينذاك – الملك حسين في الأردن في فندق كلاريدجز بلندن. قال له الأخير بإصرار: ”لا تدعْ حكومتك تعترف بالجمهوريّين فإن الملكيّين أقوياء“. اتّفق الرجلان على ضرورة ذهاب أحد رفقاء آميري القدامى في مجلس العمليّات الخاصّة، بيلي ماكلين، العضو المحافظ في البرلمان الذي يمثّل مدينة إينفيرنيس، في مهمّة إلى البلاد. ستقضي مهمّته هذه بكتابة تقرير شاهد عيان، لإظهار مدى صغر مساحة البلاد التي كان يحكمها السلال، في وقت كانت فيه كلّ من وزارة الخارجيّة ووكالة المخابرات البريطانيّة عاجزتين عن توفير معلومات مستجدّة حول ما يجري. عرضَ حسين بسخاء أمواله التي يتقاضاها من ”وكالة المخابرات المركزيّة“ الأميركيّة مقابل تقرير ماكلين.[600]

600 Bower, *The Perfect English Spy*, pp. 244–5.

ماكلين، الذي وصفه أحد أصدقائه بأنه ”مثال على اندفاع وشجاعة الفرسان“، أضاف حزاماً أحمر على زيّ جيشه عندما كان يعمل إلى جانب آميري في ألبانيا خلال الحرب؛ وقد صار الرجلان صديقين منذ ذلك الحين. انتُخب عضواً في البرلمان نهاية 1954، لكنّه شهد انخفاض الغالبيّة المؤيّدة له في انتخابات 1955، ثمّ بدأ يعتقد أنّ القوميّين الاسكتلنديّين في دائرته الانتخابية كانوا يتآمرون على قتله؛ شخّص طبيب نفسيّ إصابته بجنون العظمة بسبب الإفراط في شرب الخمر. وكانت النتيجة أنّه لم يُلقِ خطابه الأوّل إلّا في آذار/ مارس 1956، في سياق النقاش الذي أعقب الإطاحة بغلوب الذي كان له وقع الكارثة على إيدن، والذي شكّل اللحظة التي أصبح فيها رئيس الوزراء مصمّماً على التخلّص من عبد الناصر. أنهى ماكلين خطابه بمثل عربيّ لتحذير الحكومة من عدم التحرّك: ”ابكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال“. يبدو أنّ إيدن لم يكلّمه بعد ذلك بتاتاً.[601]

601 Fielding, *One Man in his Time*, p. xii; HC Deb, 7 March 1956, Vol. 549, c. 2146.

حمّل ماكلين عبد الناصر مسؤوليّة إقالة غلوب. خلال 1956، استغلّ هو وآميري صداقتهما مع زوغ، ملك ألبانيا المنفيّ، الذي كان مقرّباً من الملك فاروق، للنظر في ما لو كان من الممكن إعادة فرد من عائلة فاروق إلى العرش في مصر، عبر إثارة انقلاب من الضبّاط الساخطين في الجيش المصريّ. ما إن تأكّد جهاز المخابرات البريطانيّ من أنّ قتل عبد الناصر سيجعل منه شهيداً، شجّع الجهاز هذا المشروع، وقضى النائبان فصل الصّيف يتنقّلان من اجتماع إلى آخر بوزارة الخارجيّة

وبجورج يونغ من جهاز المخابرات، وبحزب الوفد والأعضاء المنفيّين من جماعة "الإخوان المسلمون" إلى جنيف والرّيفييرا الفرنسيّة، إلى حيث انتقل زوغ. لم تصل مؤامرة استعادة الحكم، كما صارت معروفة لاحقاً، إلى أيّ نتيجة؛ والإخفاق الذي أعقبها جعل آمري وماكلين أكثر إصراراً على الانتقام من عبد الناصر.

كان هناك سبب آخر لجعل هذا الوقت من خريف 1962 مناسباً لماكلين للابتعاد عن لندن. ففي الساعات الأولى من 12 تشرين الأول/ أكتوبر، أوقفته الشرطة للاشتباه به لقيادة سيّارته وهو ثمل. قال إنّه زار ثلاثة أندية في سانت جيمس. احتسى في الأوّل عصير الفودكا والطماطم، وفي الثاني مشروب الرّم بالليمون. وخلال العشاء، تناول "كأساً، أو ربّما كأسين، من النبيذ"، وكأس بورت. في الثالث، احتسى "ربّما ثلاثة أو أربعة أكواب من البورت". ثمّ عاد إلى النادي الأوّل، حيث تناول كوبيْن من الكوميل. عندما وصل إلى سيّارته ليعود إلى المنزل في الثانية ونصف صباحاً، تذكّر أنّه كان "على ما يرام، لكن متعباً بعض الشيء". عند بعض الأضواء الحمر، اقترب منه رجال الشرطة الذين أخبروه أنّهم شاهدوه للتوّ وهو يميل بسيّارته لتفادي الارتطام ببعض الأعمدة، وقالوا له إنّه كاد أن يصطدم بسيّارة تسير في الاتجاه المعاكس. عندما أنكر ماكلين ذلك، اعتقلوه واتّهموه بالسّكر لدرجة لا تخوّله القيادة. في الأيّام التي سبقت قياس تنفّسه، تمت المواجهة بين تصريح رجال الشرطة وماكلين عندما رُفعت القضيّة إلى المحكمة في 16 كانون الثاني/ يناير التالي.[602]

602 'MP Not Guilty on Drinking Charge', *Guardian*, 16 January 1963.

بعد عشرة أيّام من اعتقاله، وجد آنذاك ماكلين نفسه وسط مناخ الرّياض الأكثر دفئاً وجفافاً، إلى حدّ ما، حيث قابل الملك سعود. كان السعوديّون مضطربين إزاء انشقاق قباطنة عدد من الطائرات المحمّلة بالأسلحة التي أرسلوها إلى الملكيّين عنهم، والتحاقهم بالمصريّين. كانت القوّة الجويّة السعوديّة قد هبطت أرضاً، واستدعى الملك قوّة قبَليّة قوامُها عشرون ألف جنديّ تُعرف بالجيش الأبيض، لأنّه لم يعد يثق بجيشه. أخبر سعود ماكلين وهو جالس على عرش مغطّى بجلد نمر أنّه مقتنع بأنّ تدخّل مصر يشكّل المرحلة الأولى من مؤامرة أوسع بكثير شارك فيها الروس أيضاً. كان هدفها تشويش السعوديّة، ومحميّة عدن، ومشيخات الخليج، ثمّ الأردن وسوريا. كان الملك حريصاً على استعادة العلاقات الديبلوماسيّة التي قُطعت بعد أزمة السويس. كتب في رسالته أنّ "المملكة العربيّة السعوديّة تقف إلى جانب بريطانيا". كانت هذه بداية لتقارب مهمّ ومربح للغاية بالنسبة إلى مصنّعي الأسلحة البريطانيّين.[603]

603 TNA, AIR 19/1063, Report of Visit to the Yemen 27–30 October 1962 by Lt Col Neil McLean.

من الرياض، سافر ماكلين إلى عدن حيث وضعته السلطات على متن طائرة متّجهة إلى إمارة بيحان، المحطّة الأماميّة الشماليّة في "اتّحاد الجنوب العربي"، التي تقع على الحدود مع اليمن. بعد عبوره الحدود بسيّارة Land Rover، توجّه شمالاً وهو يتبع طريق البخور القديمة على طول الضواحي الغربيّة للربع الخالي، عبر مدن حريب ومأرب والجوف التي كانت في ما مضى مدناً عظيمة، وصولاً إلى نجران في السعودية. كتب لاحقاً: "خلال رحلتي كلها، لا أتذكّر رؤية يمنيّ واحد فوق سنّ العاشرة لم يكن يحمل بندقيّة وجعبة مليئة بالذخيرة كان معلّقاً فيها خنجر كبير ملتوٍ وذو مقبض فضّي أو نحاسيّ". رغم أنه لم يتأثّر بانضباط أو تدريب رجال القبائل الذين استقبلوه بإطلاق مئات الطلقات الناريّة في الهواء، لم يكن لديه أدنى شكّ في أنّ معنويّاتهم كانت ممتازة.[604]

604 TNA, AIR 19/1063, Report of Visit to the Yemen 27–30 October 1962 by Lt Col Neil McLean.

بعد اجتماع آخر مع الملك سعود في الرياض، توجّه ماكلين إلى عمان لرؤية الملك حسين. ومن الأردن، عاد أدراجه إلى دياره. أكّد التقرير، الذي كتبه عند وصوله إلى لندن، الحجّة التي وضعها آميري: كان السلال يواجه مقاومة شرسة من القبائل الداعمة للملكيّة في جزء كبير من البلاد. بما أنّ العديد من الصحافيّين نشروا بعد ذلك مقالات بناءً على زياراتهم إلى صنعاء الخاضعة للنظام، في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر، صرّح ماكلين بوجهات نظره علانيّة. بدأت افتتاحيّة مقالته، التي صدرت في صحيفة *Daily Telegraph*، على نحو لافت: "عدا قتل أربعة طيّارين روس قرب مأرب، والجنود المصريّين الأسرى، كنتُ أوّل أجنبيّ مع القوّات التي تدعم الإمام في جبال المملكة الإسلاميّة العائدة إلى القرون الوسطى في اليمن". انتشرت المقالة على نطاق واسع، ففي كانون الأول/ ديسمبر ذاك، تلقّى ماكلين بطاقة من عبد الناصر ينقل إليه فيها رئيس الوزراء المصري "أطيب تمنّياته للعام الجديد".[605]

605 ‘With the Loyalists in the Yemen’, by Neil McLean, *Daily Telegraph*, 6 November 1962; Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 35.

احتوى تقرير ماكلين ومقالته في *Telegraph* على تفصيل إضافيّ واحد ساعد في انتفاء الحجّة ضدّ اعتراف بريطانيا بالنظام الجمهوريّ الجديد في اليمن. فخلال الرحلة التي أجراها النائب البريطاني عبر البلاد، عرّفه رجال القبائل إلى مظلّيّ مصريّ أسير. زعزع الأخير الادّعاء اليمنيّ الرسميّ بعدم تدخّل الحكومة الجديدة في سياسات عدن، الأمر الذي كان أساسيّاً للحجّة التي وضعتها وزارة الخارجيّة للاعتراف بالنظام الجديد، وذلك بقوله لماكلين إنّ عبد الناصر أبلغ وحدته بأنّهم "سيُرسَلون إلى اليمن لمحاربة البريطانيّين". في اجتماع لمجلس الوزراء، في وقت لاحق من اليوم

نفسه، كان هوم غامضاً على نحو ملحوظ أكثر بكثير ممّا كان عليه في السابق. صرّح ماكميلان بأنّ هناك ''قضيّة مهمّة'' تحتّم تأخير الاعتراف، أقلّه إلى ما بعد النقاش البرلمانيّ لاندماج المستعمرة والمحميّة، المقرّر إجراؤه في غضون أسبوع.[606]

606 TNA, AIR 19/1063, Report of Visit to the Yemen 27–30 October 1962 by Lt Col Neil McLean; TNA, CAB 128/36, 66th Conclusions, 6 November 1962.

***

في حين شرع ماكميلان في المماطلة، حاول الأميركيّون التوصّل إلى حلّ وسطيّ قد يُرضي عبد الناصر والسعوديّين في وقت واحد. لذا، فور انتهاء أزمة الصواريخ الكوبيّة، بعث كينيدي رسالة إلى وليّ العهد، الأمير فيصل في الرياض، لإخباره أنّه سينشر رسالة تؤكّد الدّعم الأميركيّ للسعوديّة استعداداً للاعتراف بالحكومة الجديدة في صنعاء.

قبل أن تصل رسالة كينيدي إلى الرياض، تمّ التراجع عنها بسبب الأحداث الميدانيّة التي شُوهدت في اليمن. فبينما كان ماكلين في البلاد، هاجم الملكيّون المواقع الجمهوريّة في الشمال. وفي 2 تشرين الثاني/ نوفمبر – في اليوم نفسه الذي كتب فيه كينيدي رسالته إلى فيصل – شنّت القوّات الجمهوريّة اليمنيّة والمصريّة هجوماً انتقاميّاً. خلال هذه الهجمات المضادّة، قصفت الطائرات المصريّة الأراضي السعوديّة.

تراجع الأميركيّون جرّاء هذه النكسة. لكنّهم قدّروا أهمية إلقاء عبد الناصر قوّاته في اليمن بسبب صراعه مع عامر في الداخل. بما أنّ مستقبل الزعيم المصريّ كان يعتمد بالكامل على نتيجة الصّراع، حاولوا أن يسهّلوا له طريق الفرار. وفي منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، اقترح سفيرهم لدى الرياض أنّ السعوديّين قد يتوقّفون عن مساعدة الملكيّين مقابل التزام من عبد الناصر التوقّفَ عن مساعدة اليمنيّين. عندما رفض وليّ العهد، الأمير فيصل، بغضب هذا الاقتراح الأحاديّ الجانب، وضربه بعنف هو ورسالة الرئيس كينيدي على مكتبه أمام السفير الأميركيّ، قرّرت إدارة كينيدي المضيّ قدماً بالاعتراف، بصرف النظر عن ذلك. أعرب بوب كومر عن أمله في أن تؤدّي هذه الخطوة إلى إعادة السعوديّين إلى رشدهم، وإقناعهم ''بالتخلّي عن حربهم غير المُجدية في اليمن، خشية أن يسقطوا بدورهم''. في 19 كانون الأول/ ديسمبر، اعترفت حكومة الولايات المتّحدة بالنظام الجمهوريّ اليمنيّ بحجّة أنّها كانت تحاول إنقاذ الملكين سعود وحسين من نفسيهما.[607]

607 *FRUS*, 1961–63, Vol. XVIII, p. 238, Komer to Kennedy, 21 November 1962.

في الجهة الأخرى للمحيط الأطلسيّ، عاد ماكلين للتوّ من زيارة أخرى إلى اليمن. التقى هو وآمري بماكميلان في مقرّ الحكومة البريطانيّة في داونِنغ ستريت، في اليوم نفسه الذي اعترفت فيه واشنطن بالجمهوريّة اليمنيّة. خلال زيارته، التقى ماكلين الإمام بدر، وأخبر رئيس الوزراء بالدّهشة التي شعر بها إزاء الولاء الذي كان يتمتّع به الأخير رغم سمعته الصّاخبة وإزاء الكراهيّة العميقة التي يشعر بها رجال القبائل إزاء المصريّين، والتي لم يشهد لها مثيلاً في ألبانيا. وقال إنّ الوضع في البلاد يرجّح الملكيّين، وإنّه "يجب منح الحدّ الأقصى الممكن من الدّعم للإمام الآن". وصل ماكلين مسلّحاً بخريطة تُظهر كيف حاصر الملكيّون صنعاء، وقائمة احتياجات شملت خمسين ألف بندقيّة وعشرة ملايين طلقة، وأجهزة راديو، وأموالاً، وألغاماً، وقنابل مولوتوف، وأسلحة رشّاشة، وخمسين خبيراً يمكنهم تدريب رجال القبائل على استخدامها. كما سلّم رسالة باليد موجّهة إلى رئيس الوزراء من الإمام الجديد، بدر، وردَ فيها: "أنا أطلب مساعدتكم، سياسيّاً وعسكريّاً، وجعل هذه المساعدة فعّالة بالوسيلة التي تفضّلونها، سرّاً أو علانيّة". كان ماكميلان مقتنعاً. ذكر آميري لاحقاً أنّها "كانت إحدى نقاط التحوّل القليلة في التاريخ، التي شهدتُها". وقد فوّض والد زوجته مسؤوليّة الأمر إليه. بعد ذلك، عندما طُرحت اليمن على جدول أعمال مجلس الوزراء، كان آميري حاضراً دائماً للمناقشة.[608]

[608] TNA, AIR 19/1063, 'Report on Visit to the Yemen, 4 December–16 December 1962'; Bower, *The Perfect English Spy*, p. 247.

وُزّع تقرير ماكلين على مجلس الوزراء في الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير 1963، قبل أيّام قليلة من صدور حكم على مؤلّفه بأنّه غير مذنب بشأن قيادته السيّارة في حالة الثمالة. وفّر هذا التقرير مادّة دسمة لمذكّرة نصّها سكرتير مجلس الوزراء، حدّدتْ، ثمّ فكّكت، الحجج التي طرحتها وزارة الخارجيّة للاعتراف بالحكومة الجمهوريّة الجديدة في صنعاء. رغم استمرار النزاع بين "الخارجيّة" والمكتب الاستعماريّ حول القضيّة، لم تُناقَش المسألة الشائكة في مجلس الوزراء مرّة أخرى. وفي منتصف شباط/ فبراير، حلّ اليمنيون المشكلة بقطع العلاقات الديبلوماسيّة مع لندن. وصف ماكميلان وزير الخارجيّة، اللورد هوم، بأنّه "انزعج نوعاً ما" إزاء هذا التطوّر؛ من ناحية أخرى، كان وزير المستعمرات دنكان سانديز "منتصراً". اعترف ماكميلان سرّاً أنّه كان "أفضل شيء يمكن فعله على المدى القصير".[609]

[609] TNA, CAB 129/112, 'The Yemen', 10 January 1963; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 541, 17 February 1963.

واصل كينيدي الضّغط على ماكميلان للاعتراف بالجمهوريّة اليمنيّة. لكنّ التصريحات الاستفزازيّة التي أدلى بها عبد الناصر والسلال، وهجوم القوّات اليمنيّة والمصريّة على المواقع البريطانيّة على طول الحدود الجنوبيّة للاتّحاد، والإسقاط الجويّ الأرعن للأسلحة من المصريّين لتسليح المنشقّين داخل السعوديّة، سرعان ما أقنعت رئيس الوزراء البريطانيّ أنّه اتّخذ القرار الصّحيح. كما رأى أنّ استعداد إدارة كينيدي لمنح الثقة لعبد الناصر كان ينمّ عن سذاجة تامّة. ”تتكوّن إدارة كينيدي من رجال جدد: أذكياء للغاية، إنّما جاهلون للغاية“، هذا ما قاله لزملائه الذين وافقوه الرأي. كتب ماكميلان في مذكّراته، في اليوم نفسه الذي عقد فيه جون كينيدي اجتماعاً في واشنطن لمحاولة إيجاد طريقة جديدة لإقناع السعوديّين بالانسحاب، ”إن استبدلت باسم عبد الناصر اسم هتلر، فسيبدو لك كلّ شيء مألوفاً“.[610]

610 TNA, CAB 195/22, meeting of 3 January 1963; Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 538.

الآن بعد أن صار هناك نحو ثلاثين ألف جنديّ مصريّ في اليمن، ومنذ الإنزال الجويّ للأسلحة في السعوديّة، عاودت إدارة كينيدي التفكير في موقفها. كتب ماكميلان أنّ ”ما يثير السخرية أنّ الأميركيّين الذين تلقوا التهديد الذي تعرّض له إيدن والاتّحاد (مجرّد مستعمرة قديمة!) بعقلانيّة صاروا الآن متحمّسين للغاية، وقلقين للغاية، بشأن ذهاب عبد الناصر إلى السعوديّة، وبشأن المصالح النفطيّة الأميركيّة الضّخمة الموجودة على المحكّ“. في حين كانت واشنطن لا تزال حريصة على تثبيط عزيمة السعوديّين والأردنيّين على الانخراط في الحرب، كانت الإدارة سعيدة بالقدر نفسه إزاء تحرّك البريطانيين.[611]

611 Catterall, ed., *The Macmillan Diaries*, Vol. II, p. 544, 7 March 1963.

خشيَ ماكميلان أن يكون عليهم بذلُ القليل من الجهد الإضافي على ما كانوا يبذلونه لمساعدة الملكيّين. لكنّ الآخرين كانوا أكثر تفاؤلاً. تشارك ماكلين وحلفاؤه، الأميركيّين، تحليلهم أنّ عبد الناصر كان محاصراً في اليمن. لكن بدلاً من محاولة ”إنقاذ عبد الناصر من عواقب مغامرته“، كما كان ليفعل الأميركيّون على حدّ اعتقادهم، كان هؤلاء الرجعيّون البريطانيّون مصمّمين الآن على استغلال مأزقه في محاولة لتدميره.[612]

612 Bower, *The Perfect English Spy*, pp. 246–7.

26

الحرب السرّية

بعد العشاء في وقت متأخّر من الليل في نيسان/ أبريل 1963، رنّ الهاتف في منزل جيم جونسون في تشيلسي. كان جونسون قد صار وكيل التأمين لدى لويدز. وكان براين فرانكس، الرجل الذي يتحدّث على الطرف الآخر من الخطّ، صديقاً قديماً. حتّى كانون الأول/ ديسمبر الماضي، تولّى جونسون قيادة الفوج 21 التّابع للقوّات الجويّة الخاصّة – الفوج الإقليميّ. كان فرانكس، هذا الشخص شبه الأسطوريّ الذي قاد أحد فوجَي القوّات العربيّة في الحرب، قد صار حينذاك قائد الفيلق. سأل فرانكس: "هل يمكنني المجيء واحتساء كأس من البراندي؟" أجابه جونسون وقد شعر بالفضول: "بالطبع".[613]

[613] Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 12.

عندما ظهر فرانكس بعد ذلك بقليل، أوضح له أنّه جاء مباشرة من اجتماع في ناديه مع وزير الخارجيّة اللورد هوم، وجوليان آميري، وبيلي ماكلين، ومؤسّس القوّات الجويّة الخاصّة ديفيد ستيرلينغ. كان ماكلين وستيرلينغ قد عادا للتوّ من مهمّتيْن منفصلتيْن جنوبي الجزيرة العربيّة، حيث بدت الأخبار قاتمة في الظاهر.

كي يكون في الموقع الأقوى استعداداً لمبادرة سلام أخرى بقيادة الولايات المتحدة، نشر عبد الناصر ذاك الربيع المزيد من القوّات في اليمن، وشنّ هجوماً. خلال ما عُرف بـ"هجوم رمضان"، استولت القوّات المصريّة على المدن الشرقية، مأرب وحريب والجوف من الملكيّين، وهي المدن نفسها التي مرّ ماكلين عبرها في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي. بعد تحرّكات ديبلوماسيّة بين القاهرة والرّياض، كان الوسيط الأميركيّ الذي يُدعى إلسورث بانكر، قد أعلن للتوّ توصّله إلى اتّفاق بين المصريّين والسعوديّين، إذ يبدأ المصريّون الانسحاب التدريجيّ، بينما يضع السعوديّون حدّاً لدعمهم للملكيّين. كما ستخضع منطقة منزوعة السلاح بعرض أربعين كلم على طول الحدود السعوديّة–اليمنيّة لمراقبة الأمم المتّحدة، وقد وافق الرئيس كينيدي، على مضض، على إرسال سرب من الطائرات المقاتلة إلى السعوديّة، لردع المصريّين عن شنّ المزيد من الغارات على الجانب

السعوديّ من الحدود. في أعقاب أزمة الصّواريخ الكوبيّة، أثار هذا الانتشار توتّر الرئيس. نُقل عنه قوله: "إن كنّا سندخل إلى هناك ونحن نطلق النّار على القاذفات المصريّة، أريد أن أعرف بذلك قبل أن نطلق النار". ليغضِبَ السعوديين، أعلن عبد الناصر سحب قوّاته، ووصف هذه الخطوة بالانتصار.[614]

[614] Bass, *Support Any Friend*, p. 101.

لكنّ فرانكس كان قد سمع للتوّ قصّة مختلفة من ماكلين الذي عاد إلى لندن في 18 نيسان/ أبريل. وحثّ جونسون على ألّا يصدّق أيّ خبر يقرؤه في الصّحف. قال له النائب المستقل: "لا تصدّق الأميركيّين بالنسبة إلى اليمن. إنّهم لا يفقهون شيئاً بشأن الشرق الأوسط. المقاومة تحت راية الإمام رائعة".[615]

[615] Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 12.

أرسل ماكلين بلاغاً بأنّه بينما تخلّى الملك حسين، إلى حدّ كبير، عن الملكيّين عقب ضغوط أميركيّة شديدة، لم يكن لدى وليّ العهد السعوديّ، الأمير فيصل، أيّ خطة لاتّباعها، رغم شعوره بالإحباط جرّاء الخمول البريطانيّ حتى الآن. كان وضع اليمنيّين داخل اليمن نفسها على حاله. لكنّهم نتيجة تعرّضهم للهجوم اليوميّ من قاذفات القنابل المصريّة والروسيّة، وحاجتهم اليائسة إلى الأسلحة والذخيرة، كانوا يخشون أن يضطرّوا إلى الانسحاب من خولان، المنطقة الجبلية التي تقع مباشرة شرق صنعاء، والتي كانوا يراقبون منها الطريق المؤدّية إلى مأرب، تلك الطريق التي كان المصريّون يسلكونها لإعادة التموّن عن طريق الجوّ. إذا تخلّى الملكيّون عن هذا الموقع الإستراتيجيّ، سيتمكّن المصريّون من السيطرة على الطريق. حينذاك، عدا إمكانيّة تزويد مأرب بسهولة أكبر، سيتمكّنون من تعزيز قبضتهم على شرق البلاد، ما سيعطّل خطوط الإمدادات الخاصّة بالملكيّين التي كانت لا تزال مفتوحة حينذاك. وصل ماكلين إلى خولان على ظهر جمل، ومرّ على مسافة خمسة أميال من مأرب، ولذا تمكّن من الاطّلاع على الوضع بنفسه.

إن كانت خولان هي مفتاح النصر، بدا بدوره أنّ مفتاحها هو مهبط الطائرات الذي تُشنّ منه الغارات الجويّة المصريّة والروسيّة. كان هذا الموضوع الذي أتى فرانكس لرؤية جونسون بشأنه. سأله: "هل ترغب في الدخول إلى هناك، وحرق كلّ هذه الطائرات؟".[616]

[616] Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 12.

”في الحقيقة، نعم“، أجاب جونسون، ”ليس لديّ ما أفعله في الأيّام القليلة المقبلة. قد أذهب إلى هناك“.

***

أنشأ ديفيد ستيرلينغ الجهاز الجويّ الخاصّ قبل اثنين وعشرين عاماً لإجراء عمليّات من النوع الذي يتوخّاه فرانك وجونسون تحديداً. قبل عام من ظهور ويلكي في القاهرة، قبل معركة العلمين الحاسمة، في وقت كانت فيه حرب الصّحراء شمالي أفريقيا لا تزال تتنقّل ذهاباً وإياباً على طول ساحل البحر الأبيض المتوسّط، أنشأ ستيرلينغ قوّة لمهاجمة مطارات دول المحور بعيداً عن خطوط العدوّ.

كان الغرض من زيارة ستيرلينغ إلى الشرق الأوسط هو معرفة هل يمكن تكرار الخدعة نفسها في اليمن. غادر لندن في 12 نيسان/ أبريل إلى عدن، متجنّباً الجمارك بمغادرة المطار عبر فجوة في السياج المحيط. العادة، وليس الضرورة، هي التي أوضحت طريقة خروجه، لأنّ مضيفه لم يكن سوى حاكم عدن، تشارلز جونستون، الذي تشارك وإيّاه شقّة فوضويّة في القاهرة أثناء الحرب.

استقبل جونستون ستيرلينغ في منزل الحكومة، ثمّ استأذنه للخلود إلى النوم في وقت مبكر بدافع التعب. قد يكون انسحابه ديبلوماسيّاً، لأنّه أعطى ستيرلينغ فرصة ليسأل مساعد جونستون، طوني بويل، هل بإمكانه المساعدة في عمليّة حسّاسة صُدّق عليها على أعلى مستويات الحكومة البريطانيّة. في المرحلة الأولى، ستشمل النقل السرّي لأعضاء سابقين في فوجه القديم، عبر مطار عدن باتّجاه اليمن، بلا وثائق. وافق بويل فوراً.

من عدن، سافر ستيرلينغ إلى البحرين حيث التقى رفيقاً قديماً له من زمن الحرب في الصّحراء، يُدعى جوني كوبر. في 1943، قبض الألمان على الرجليْن، ولكن في حين أمضى ستيرلينغ المدة المتبقّية من الحرب في الأسر، تمكّن كوبر من الفرار. ”كنّا متخصّصين في الطائرات الألمانيّة على الأرض. نعبر خطوطهم، نقصد مطاراً في الليل. نقتل خفيراً... ثمّ نثبت القنابل القلميّة على أكبر عدد ممكن من الطائرات“، هذا ما قاله لصحافيّ أميركيّ وهو يشعر بالبهجة بعد أن نجا من رحلة استغرقت أربعة أيّام عبر الصّحراء للوصول إلى الخطّ الأماميّ للحلفاء. وتابع قائلاً إنّ القوّات الجويّة كانت مسؤولة عن تحطيم المئات من طائرات العدو ”قبل تنفيذ جيري تلك المناورة في المطار“. كان كوبر قد قاد أحد السربيْن إلى الجبل الأخضر، وبعد إرغامه على التقاعد من القوّات المسلّحة بسبب سنّه، انضمّ إلى جيش السلطان في عمان. كان كوبر أصغر المجنّدين في قوّة

ستيرلينغ. الآن وقد صار في الأربعينات، التحق فوراً بخطّة قائده السابق. في أوائل حزيران/ يونيو، وصل إلى لندن للقاء جيم جونسون الذي تمكّن، بالتواطؤ مع عقيد الفوج 22 من القوّات الجويّة الخاصّة، من تجنيد متطوّعين آخرين.617

617 Macintyre, *SAS*, pp. 185–6.

لم يمضِ كوبر مدة طويلة في لندن. في 5 حزيران/ يونيو، بعد أشهر من التنبؤات، انفجرت الفضيحة الجنسيّة التي ستدمّر حكومة ماكميلان، عندما أصدر وزير الحرب جون بروفومو بياناً اعترف فيه بأنّه كان يكذب عندما ادّعى أنّه "لم يكن هناك أيّ سلوك سيّئ على الإطلاق" في "تعرّفه" إلى مومس عبر الهاتف تُدعى كريستين كيلر، واستقال من منصبه الوزاريّ ومقعده البرلمانيّ. نتيجة هذه الأخبار اتّصل دنكان سانديز بستيرلينغ ليطلب منه إيقاف العمليّة. كانت تحيط بسانديز شائعات واسعة النطاق لكنها غير صحيحة، وتفيد بأنّه "الرجل المقطوع الرأس" الذي التُقط في صورة بولارويد وهو يمارس الجنس مع دوقة أرغيل؛ لا يريد أن يتسبّب في المزيد من المتاعب لماكميلان الذي بدا الآن كأنّه كان متواطئاً مع بروفومو، أو ساذج بصورة مخيفة.618

618 HC Deb 22 March 1963, Vol. 674, c. 810.

نقلَ ستيرلينغ الأمر إلى جونسون الذي قرّر تجاهله. حجزَ كوبر والمتطوّعين الآخرين رحلات ليليّة إلى عدن. مسار كوبر أوصله إلى طرابلس التي فرّ عبرها بعد أن كاد يُقبض عليه. فعند تسجيل الوصول لرحلة الربط في المطار الليبي، انفتحت حقائبه فجأة ووقعت منها لفائف من المتفجّرات ملفوفة في ورقة. وبينما كان حرّاس الأمن يساعدونه على إعادة إدخال أغراضه إلى حقيبته، فسّر لهم كوبر سبب الرائحة المنبعثة بادّعائه أنّه بائع صلصة مكسّرات جوّال. لدى وصوله إلى عدن، تعرّف رجل من السكّان المحلّيين إليه وإلى زملائه من الطائرة، ونقلهم في سيّارة Dakota قديمة إلى بيحان والحدود. سلكوا الطريق نفسها التي عبرها ماكلين قبل شهرين لعبور غرب مأرب التي كانت تحت السيطرة المصريّة، فكانوا يركبون الجمال ليلاً ويرتاحون نهاراً، إلى أن وصلوا إلى معسكر عبد الله بن حسن في خولان.

كان عبد الله بن حسن، المنافس السابق لابن بدر على الإمامة، أحد القادة الملكيّين القلائل الذين أثاروا إعجاب ماكلين خلال زياراته اليمن. كان شابّاً قصيراً ووسيماً، ذا ابتسامة عريضة، يعتمر عمامة بيضاء، ويتدلّى أسفل حزامه خنجر. تلقّى عبد الله علومه في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وعمل في وفد اليمن إلى الأمم المتحدة. بالإضافة إلى ذكائه الواضح، كان شجاعاً أيضاً. فعندما

حلّقت القاذفات في الأجواء، "لم يتّخذ أيّ خطوة للاحتماء ولم تظهر عليه أيّ علامة خوف"، كما لحظَ ماكلين. تسبّب عبد الله في مقتل نحو خمسمئة مصريّ في الشهريْن الأوّليْن من الحرب، لكنّه كان يفتقر إلى الأسلحة والذخائر والأموال ليدفع لتابعيه، ولذا كان ماكلين حريصاً على ضمان حصوله على بعض الأسلحة التي أرسلها البريطانيّون إلى اليمن في ربيع ذلك العام.[619]

619 TNA, AIR 19/1063, McLean, 'Report on Visit to the Yemen, 4 December – 16 December 1962'.

من المفترض أن يكون كوبر قد وصل إلى معسكر عبد الله بحلول 10 حزيران/ يونيو تقريباً. وسرعان ما أدرك أنّ حملة التخريب كانت "حلماً بعيداً"، إذ أبلغه ستيرلينغ أنّ "حرباً ضروساً في طور الإعداد" في المنطقة التي كان عليه عبورها للوصول إلى مهبط الطائرات. بدلاً من ذلك كرّس وقته لتزويد رجال القبائل ببعض التدريبات الأساسيّة في فنّ إطلاق النار والمناورة، وكيفيّة استخدام الأسلحة الرشّاشة من نوع Bren التي حصلوا عليها للتوّ. كان الخولانيّون طيّبين، مضيافين، مهذّبين ومرحين، أشبه بأولاد "يهوون البنادق والسكاكين"، كما ذكر شخص آخر من المرتزقة. على غرار عبد الله، كانوا جميعاً يعلّقون الخناجر على أحزمتهم التي كانوا يسمّونها "السلاح الأبيض" بسبب شفراتها الفولاذيّة، والتي كانوا يسحبونها في المرحلة الأخيرة من الهجوم. شاهد زائر بريطانيّ آخر رجلاً علّق سكين طاولة ذات مقبض من العاج، ومقصّاً، وقلم حبر في حزامه إلى جانب الخنجر الذي يلازمهم دائماً. نظراً إلى المعدّلات المتدنّية للتعليم في البلاد، من المرجّح أن يكون القلم، على عكس السيف، للعرض فقط.[620]

620 Hart-Davis, *The War That Never Was*, pp. 55, 50, 64; TNA, AIR 19/1063, McLean, 'Report on Visit to the Yemen, 4 December–16 December 1962'.

لإيقاع المصريّين في الفخّ في خولان، أمرَ كوبر رجال القبائل بزرع ألغام على الطريق التي تقع على الجانب الآخر من الوادي، الذي كان يصعد إلى المنطقة الجبلية قبل أن ينفصل إلى أخدوديْن. عند مفترق الطريق، وضع علامة سرّية على موقع نُصب فيه كمين، ووُضع فوقه ثلاث مجموعات من المسلّحين. "نحو التاسعة صباحاً، دخل المصريّون الوادي بزخم كبير، برفقة كتيبة من المظلّيين في المقدّمة، وقوّة من الدبّابات من طراز t–34 والمدفعيّات الخفيفة من الخلف"، كما ذكر لاحقاً. توقّفت الدبّابات والمدفعيّة في منتصف الطريق، تقريباً فوق الوادي، لكنّ جنود المشاة تابعوا طريقهم. "عندما بلغ العدوّ العلامات التي وضعناها، فتح رجالنا نيران رشاشاتهم المدمرة، وقضوا على قوّات المشاة التي كانت تتقدّم في صفوف متلاصقة كأوتاد خشبيّة. اندلعت حالة من الذّعر في

الصفوف الخلفيّة، ثمّ بدأت دبّاباتهم تطلق النار، لكنّ قذائفها لم تكن تنفجر بين صفوفنا إنّما في صفوف رجالهم. كما انضمّت المدفعيّة الخفيفة إلى القتال، وكانت معظم الإصابات، التي تلقوها خلال تبادل النيران الذي استمرّ عشر دقائق، من بنادقهم". أحصى كوبر خمساً وثمانين جثّة مصريّة بعد تبادل إطلاق النار. كانت تلك المواجهة الأولى ضمن سلسلة من المواجهات الدمويّة الأخرى التي رُتّبت قبل عودة كوبر إلى لندن في خريف ذلك العام لعرض تقرير سريع عن الوضع على ستيرلينغ وجونسون.[621]

621 Walker, *Aden Insurgency*, p. 57.

بعد أيّام قليلة من وصول كوبر إلى اليمن من الجنوب، دخل رجل آخر البلاد من الشمال. كان بحوزة ديفيد سمايلي توكيل من جوليان آميري يصرّح فيه بأنّه مراسل صحيفة *Daily Telegraph*، لكنّ تجربته الصحافيّة السابقة الوحيدة كانت كمفتّش لدليل Good Food Guide في اسكتلندا، وهي الوظيفة التي شغلها لدى تقاعده من جيش السلطان العمانيّ. في أيار/ مايو 1963، تلقّى مكالمة من صديق قديم. سأله بيلي ماكلين: "ديفيد، ما رأيك أن تأتي معي إلى اليمن؟" لم تكن اسكتلندا في الستينيّات معروفة بمطبخها، ولم يضطرّ ماكلين إلى تكرار السؤال على سمايلي. تذكّر لاحقاً: "تناولتُ وجبات سيّئة أكثر ممّا هي جيّدة، واعتقدتُ أنّه من المؤسف أن تطهو دولة معروفة بأنّها تنتج أفضل اللحوم والأسماك في العالم بهذه الفظاعة". مع ذلك، كانت تجربته في اليمن مفيدة، حيث كان يقتات من فاكهة الأناناس المعلّبة فقط.[622]

622 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 104.

كان يُفترض بمحضر سمايلي أن يقدّم تقريراً إلى أعدائه السابقين، السعوديّين، عمّا كان يحدث شمالي اليمن. كان الغرض من هذا التقرير ذا شقّين: تحديد كيفيّة تحسين الملكيّين تكتيكاتهم، وتقديم دليل على أنّ عبد الناصر يبدّل مواقع قوّاته بدلاً من سحبها، وهذا أمرٌ يمكن للسعوديّين طرحه لاحقاً أمام السفير الأميركيّ. كان هناك سبب آخر يجعل سمايلي الشخص المثاليّ لهذا المنصب. فقد أعلن الأمين العام للأمم المتحدة، يو ثانت، للتوّ، أنّ بعثة الأمم المتحدة للمراقبة في اليمن، المفترض أن تراقب الاتفاقيّة التي توسّط لها بانكر، ستكون بقيادة جنرال سويدي يُدعى كارل فون هورن. كان الأخير صديقاً مقرّباً من سمايلي الذي كان ينوي استخدام هذه الصّداقة للضّغط على الأمم المتحدة للإقرار بأن المصريّين لا يحترمون الصّفقة.

غادر ماكلين وسمايلي إلى لندن في اليوم نفسه لوصول فون هورن إلى صنعاء. في جدّة، رأى سمايلي في بهو فندقه وجهاً يبدو مألوفاً. كان هذا طالب، شقيق إمام عمان، أحد الرجال الثلاثة الذين أمضى سمايلي أشهراً في 1959 وهو يحاول قتلهم. حذّر ماكلين سمايلي من التعريف عن نفسه، لكن بعد ذلك بوقت قصير، استُدعي إلى لندن للتصويت في نقاش دعت إليه المعارضة العمّالية حول قضيّة بروفومو. نتيجة لذلك دخل سمايلي اليمن بعد بضعة أيّام من تلقاء نفسه. قبل أيّام قليلة، قصفت القاذفات الروسيّة التي كانت متمركزة في أسوان بلدة جيزان الحدوديّة السعوديّة. بات واضحاً لسمايلي، وهو يعبر الحدود، أنّه يدخل منطقة حربيّة. "كانت القذائف تهبط بين حين وآخر على بعد خمسين أو مئة ياردة لإبعادنا. من الشمال الغربيّ، كانت تصلنا أصوات البنادق والقنابل ونيران القنابل، والسماء مضاءة بمشاعل المظلّات وأضواء المتفجّرات القويّة". [623]

623 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 124.

بعد أن قابل الإمام في الكهف الذي تضاعف حجمه مع اتّساع مقرّه في قارة واستكمل جولة أخرى على مواقع الملكيّين جنوباً في الجبال التي تشكّل العمود الفقريّ للبلاد، عاد سمايلي إلى قارة. في حزيران/ يونيو، كانت القاذفات المصريّة قد بدأت استخدام القنابل الغازيّة، واقترح الإمام على سمايلي وهو في طريقه خارج البلاد لإبلاغ السعوديّين المرور عبر قرية مجاورة تعرّضت للضرب تُدعى الكومة من أجل التحقيق في ذلك. صوّر سمايلي قروح وبثور الأطفال والحيوانات الذين تعرّضوا للغاز، واستخرج بعض أغلفة القنابل من إحدى الحفر. كتب لاحقاً: "كانت رائحة زهرة الغرنوق تفوح بقوة، وشعرتُ فجأة بدوخة وكاد أن يُغمى عليّ. لم يكن هناك أدنى شكّ حول استخدام قنابل غازيّة". [624]

624 Smiley, *Arabian Assignment*, p. 150.

لكن السؤال هو أيّ نوع من الغاز استُخدم هناك؟ سارع سمايلي إلى جدّة مع أغلفة القنابل التي جمعَها، والتي سلّم بعضها لجون كريستي، رئيس مركز جهاز المخابرات البريطانيّ الجديد في المدينة. أراد أيضاً تقديم عيّنة إلى فون هورن، لكنّ الضابط السويديّ كان قد تسلم تعليمات من الأمم المتحدة تقضي بألّا يجري أيّ اتصال معه، ولذلك اضطرّ سمايلي إلى تسليمها لأحد مرؤوسيه.

في غضون ذلك، تلقّى صحافيّ حقيقيّ في *Daily Telegraph* يُدعى ديك بيستون، وكان أيضاً في اليمن في ذلك الوقت، بلاغاً بأنّه يجب عليه أيضاً زيارة الكومة. نُشرت مقالته في 8 تموز/ يوليو. قال فيها إنّ شيخ القرية أخبره أنّ القنبلة انفجرت وظهرت سحابة من الدخان البنّي "رائحتها

قذرة". بعد ذلك بمدة وجيزة، صار سكّان قريته يبصقون دماً. مات سبعة منهم. بما أنّ مصر كانت تعتمد على الكتلة الشرقيّة للحصول على جميع إمداداتها العسكريّة، توقع بيستون أنّ القنبلة صُنعت في تشيكوسلوفاكيا أو روسيا. أثارت الحكومة البريطانيّة القضيّة أمام الأمم المتحدة في اليوم التالي.[625]

[625] Adams Schmidt, *Yemen*, p. 258.

يؤكّد الادّعاء البريطانيّ بأنّ مصر كانت تستخدم أسلحة كيميائيّة في اليمن ادّعاء مماثلاً عرضه الإسرائيليّون على انفراد في نيسان/ أبريل. وبعد ثلاثة أيّام من نشر مقالة بيستون، تحدّث السفير الأميركيّ لدى القاهرة مع عبد الناصر. في البداية، هاجم عبد الناصر *Telegraph*، ووصفها بالمنحازة، وادّعى أنّ القنبلة المعنيّة لم تحتوِ على غاز سامّ بل النابالم؛ كان يأمل أن يثني ردّه الأميركيّين عن متابعة تقصّي الأمر لأنهم كانوا يستخدمون النابالم أيضاً في فيتنام. لكن بالنظر إلى تقارير شهود العيان عن الحادث، أصرّ السفير قائلاً إنّ التقرير الذي تلقّاه يشير إلى أنّ القنبلة تحتوي على شيء "من الفوسفور وصولاً إلى غاز الخردل". ثمّ اعترف عبد الناصر بأنّه استُخدمت "قنبلة" لكنّه "لم يكن يعرف المحتوى الكيميائيّ الدقيق لها". وأضاف قائلاً إنه يُفترض أن يكون هذا المحتوى "بسيطاً نسبيّاً" لأنّ خبرة مصر في هذا المجال كانت محدودة. وحثّه السفير على تجنب استخدامها مرّة أخرى. تجاهل عبد الناصر هذه النصيحة كالعادة.[626]

[626] *FRUS*, 1961–63, Vol. XVIII, p. 640; Badeau to State Department, 11 July 1963.

عاد سمايلي إلى بريطانيا مُعتقداً أنه وجد قضية يمكن استخدامها ضدّ عبد الناصر لدى انعقاد الجمعيّة العامة للأمم المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر. لكن من اللافت أنّه لم يكن لدى الحكومة البريطانيّة رغبة في متابعة الأمر. حلّل مختبر الحرب الكيميائيّة والبيولوجيّة الخاصّ به، في بورتون، الغلاف الذي سلّمه سمايلي لجهاز المخابرات البريطانيّ. عثر على آثار للغاز المسيّل للدموع، لكنه استنتج أنّه "من غير المحتمل" أن تحتوي القنبلة على غاز سامّ، الأمر الذي يتعارض بغرابة مع تقارير شهود العيان، وما تقصّته "وكالة المخابرات المركزيّة" الأميركيّة عن برنامج الأسلحة الكيميائيّة المصري. بما أنّ تفويض بعثة الأمم المتحدة للمراقبة في اليمن لم يسمح لها بزيارة مواقع الملكيّين، وبما أنّ المصريّين كانوا يعيقون تحقيقاتها في سائر أنحاء البلاد، لم تتمكّن البعثة من التوصّل إلى نتيجة. أدرك فون هورن أنّه كان يضيّع وقته، واستقال في أيلول/ سبتمبر. في

الأمم المتحدة، كان الديبلوماسيّون البريطانيّون والأميركيّون سعيدين جدّاً بدفن المسألة، لأنّهم اعتقدوا أنّ متابعتها ستقوّض جهودهم المُوازية لحمل عبد الناصر على التراجع.

***

بعد تقرير سمايلي والانتقادات حول عمليّة الملكيّين، أعاد البريطانيّون تنظيم صفوفهم في الخريف. في اجتماع عُقد في عدن في أيلول/ سبتمبر، وضع ستيرلينغ وطوني بويل اللمسات الأخيرة على تشكيلة جديدة سيترأس فيها كوبر، الذي كان على وشك العودة إلى اليمن، "قوّة الاتّصال الميدانيّة البريطانيّة". وبصفته، سينضمّ كوبر إلى عبد الله بن حسن، الملك الشابّ في خولان، بينما ينتشر زملاؤه في جميع أنحاء البلاد. سيحاولون معاً تنسيق أنشطة الملكيّين عبر تواصل لاسلكي أفضل. كانت لديهم أفكار طموحة حول إلقاء الأسلحة من الجوّ داخل البلاد. في غضون ذلك، ستتوجّه الطلبات على الإمدادات عبر طوني بويل في عدن. أشار ضابط في جهاز المخابرات البريطانيّ إلى رئيسه: "الجميع ينهبون. حتّى الحاكم المحلّي لولاية عدن". ولكن شكوك ضبّاط المخابرات البريطانيّة لم تلقَ جواباً، بالنسبة إلى صحّة العمليّة، عندما كانت الجهود البريطانيّة المخابراتيّة مدعومة من رئيس الوزراء الجديد.627

627 Bower, *The Perfect English Spy*, p. 248.

في 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1963، صار أليك دوغلاس هوم خلفاً لهارولد ماكميلان، رئيساً للوزراء. اضطرّ ماكميلان إلى الاستقالة بسبب سوء حالته الصحّية، ودُمّرت سمعته بسبب قضيّة بروفومو. كان دوغلاس هوم، الذي شبّهه ماكميلان جيّداً بـ"الفولاذ المطليّ بطلاء الخشب"، قد نادى في وقت سابق بالاعتراف بحكومة صنعاء الجمهورية، لكنّه بات الآن يشعر بالقلق إزاء استغلال السوفيات لإنهاء الاستعمار في أفريقيا. رأى العمليّة اليمنيّة وسيلة لمحاربة الضّغوط التي من شأنها إرغام بريطانيا في نهاية المطاف على الانسحاب من عدن، ولذا عبّر عن استعداده لاستغلال سمعته المُستقيمة لحمايتها. عندما سأله كينيدي مباشرة هل تدعم بريطانيا الملكيّين في اليمن، كذب قائلاً: "نحن لا نقدّم إليهم شيئاً".628

628 Aldrich and Cormac, *The Black Door*, p. 244; Mawby, 'The Clandestine Defence of Empire', p. 119.

هذا هو الجواب الذي أراده كينيدي رغم أنّه لم يكن صحيحاً، لأنّه كان يأمل في حثّ عبد الناصر على احترام مسؤوليّاته التي يُمليها اتّفاق فكّ الارتباط، وهو أمر تقاعس عنه الزعيم المصريّ

بوضوح. في اليوم التالي لتولّي دوغلاس هوم منصب رئيس الوزراء، أرسل كينيدي إلى عبد الناصر رسالة قاسية اللهجة يتّهمه فيها بالفشل في احترام ما تُملي عليه الصّفقة التي توسّط لها بانكر. تابع كينيدي قائلاً: ”نحن واثقون أنّ حكومة المملكة المتحدة والحكومة السعوديّة تفيان بضماناتهما لنا ألّا يقدما المساعدة إلى الملكيّين“. لقد أخطأ بالوثوق بكلام دوغلاس.629

629 *FRUS*, 1961–63, Vol. XVIII, p. 752, Rusk to Badeau, message from Kennedy to Nasser, 19 October 1963.

قاوم عبد الناصر هذه الضّغوط، وخلال شهر أدرك كينيدي أنّ دوغلاس هوم خدعه. تقول إحدى الروايات إنّ الرئيس اتّصل فوراً برئيس الوزراء عبر الخطّ الهاتفي المشفّر الذي يربط البيت الأبيض بمقرّ الحكومة البريطانيّة، واتّهمه فعلاً بالكذب لتصريحه بأنّ المخابرات الأميركيّة كانت تعلم أنّ البريطانيّين يدعمون الملكيّين رسميّاً. أجاب دوغلاس هوم بأنّه سيجري التحقيقات اللازمة ووعد بمعاودة الاتّصال بالرئيس بعد يومين، في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر. لم يتّصل أبداً لأنّ الثاني والعشرين كان اليوم الذي اغتيل فيه كينيدي في دالاس. يبدو مرجّحاً أنّ التلميح تمّ بطريقة ديبلوماسيّة. في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، نقل السفير البريطانيّ لدى واشنطن أنّ كينيدي شعر أنّ صورته في اليمن على المحك – لأنّ سياسته التي تقضي بتقديم المساعدات إلى عبد الناصر تتعرّض الآن لهجوم شديد في الكونغرس – وأنّه من الضروريّ لجم شريف بيحان (الذي يتحوّل الدّعم البريطاني عبر أراضيه). ما إن خلف ليندون جونسون كينيدي في الرئاسة، عاد وزير الخارجية، دين راسك، إلى الهجوم. في الثالث من أيلول/ ديسمبر، أخبر السفير في لندن أنّه سيكون من المفيد جدّاً أن ”ينظّف البريطانيّون الأجواء“ بـ”بذل جهد أكبر للحدّ من نشاطات شريف بيحان المتفلّتة“. قال راسك للسفير على انفراد: ”ما زلنا غير مقتنعين بأنّ سلطات عدن تبذل قصارى جهدها في هذا الصدد“.630

630 *FRUS*, 1961–63, Vol. XVIII, p. 822, Rusk to London Embassy, 3 December 1963.

لم يهتم دوغلاس هوم بأيّ شيء من هذا لأنّه كان يرى أنّ حماية عدن أكثر أهمّية. بعد أحد عشر يوماً من حصول كينيا على استقلالها في 12 كانون الأول/ ديسمبر، تحدّث عبد الناصر في بور سعيد قائلاً: ”لا يمكننا قبول... أن تواصل بريطانيا استعمار جزء من الأمّة العربيّة... في حين أنّها تخلّت عن مستعمراتها الأخرى“، مُضيفاً أنّه سيبذل قصارى جهده لطرد البريطانيّين من عدن. في خولان، ردّ جوني كوبر بعد ثلاثة أيّام بهجوم بقذائف الهاون على معسكر مصريّ يحرس الطريق بين صنعاء ومأرب. كما أفاد، ”دبّ ذعرٌ كبير“ نتيجة القصف الذي أدّى إلى مقتل سبعة عشر

مصريّاً. بحلول آذار/ مارس من العام التالي، كان قد قُتل بحسب تقدير ماكلين نحو ثمانية آلاف جنديّ مصريّ. كما أنّ الحرب كلّفت عبد الناصر وفقاً لتقديراته نحو خمسمئة ألف دولار يوميّاً.[631]

631 Ferris, *Nasser's Gamble*, p. 220; Hart-Davis, *The War That Never Was*, pp. 125, 160.

***

في ذلك الوقت، كان الإسرائيليّون يبذلون ما في وسعهم لزيادة معدّل الإصابات في مصر. منذ 1956، عندما رفض إيدن التعامل مع الإسرائيليّين مباشرة، تحسّنت العلاقات بين إسرائيل وبريطانيا كثيراً. ممّا لا شكّ فيه، أسهم في تحسين هذه العلاقات إقدام بريطانيا على بيع المياه الثقيلة خفيةً للإسرائيليّين في 1958، وهو مكوّن سيساعدهم في صناعة قنبلة نوويّة ستدفع الولايات المتحدة بدورها إلى تزويد تلّ أبيب بالأسلحة التقليديّة، في محاولة لضمان تجنبهم استخدام السلاح النووي. عندما أثار ماكلين إمكانيّة التعاون مع تلّ أبيب خلال 1963، وُضع على اتّصال مع دان حيرام، الملحق العسكريّ الإسرائيليّ في لندن. سافر سمايلي في خريف ذلك العام إلى إسرائيل لمناقشة احتمال مساعدة الإسرائيليّين في إنزال الإمدادات إلى الملكيّين. كان الإسرائيليّون قد رصدوا طائرة Boeing من نوع Stratocruiser لهذا النوع من المهمّات فقط، ووافقوا على ذلك عن طيب خاطر.

في خولان، عثر كوبر على قطعة أرض مستوية يمكن استخدامها كمنطقة للهبوط، وأبلغ لندن بموقعها عبر عدن. تذكّر بوضوح وصول الشّحنة الأولى في ربيع 1964. "كتم الإسرائيليّون المحرّكات، وكان صوتها هادئاً للغاية... وصلت الطائرة الضّخمة للإنزال الفعليّ، وأثناء مرورها هبط ستون مظليّاً من الخلف. كان إنزالاً ممتازاً فعليّاً، وفي غاية الحرفيّة". شعر عبد الله بن حسن ببهجة كبيرة، في حين أُصيب كوبر بذهول شديد. كتب لاحقاً: "أُخفيَ مصدر هذه الأسلحة ببراعة. تمت إزالة جميع الأرقام التسلسلية. كان المظلّيون من أصل إيطاليّ، حتّى أنّ نشارة الخشب المستخدمة في التعبئة كانت مستوردة من قبرص. إن محلّل المخابرات الأكثر خبرة لم يكن ليكشف ذلك دون عناء".[632]

632 Jones, 'Where the State Feared to Tread', p. 731.

نجحت الجهود التي بذلها الإسرائيليّون في إخفاء تورّطهم. أمّا جهود البريطانيّين، فلم تنجح بالقدر نفسه. فقد شجّع تراجع الشعبيّة لحكومة المحافظين، والخلاف الداخلي حول تحديد مدى تورّط بريطانيا في اليمن، على حدوث تسريبات. في 18 شباط/ فبراير 1964، سأل أحد النواب العمّاليين

دوغلاس هوم هل كان على علم بوجود نسخ عن إيصالات تصدير عشرين ألف بندقية من نوع Lee إلى اليمن خلال 1963. أجابه دوغلاس هوم دون أن يجيب عن السؤال تحديداً: "أعرف جيّداً أنّه لم تصدّر أيّ بنادق إلى اليمن". بعد بضعة أيّام، قال مدير الشركة البريطانية المعنيّة، روبرت تيرب، إنه لبّى طلب سعودي بالتعاقد جزئياً مع شركة بلجيكيّة اشترت كمّية من البنادق كانت الحكومة البلجيكيّة قد اشترتها من البريطانيّين في وقت سابق. بموجب شروط ترخيص التصديرات، شُحنت هذه الكمّية بعد أن صرّح السعوديّون بأنهم لن يعيدوا تصدير الأسلحة. ادّعى تيرب بناء على هذا الترتيب البيزنطيّ المتعمّد: "لم تكن البنادق متّجهة إلى اليمن، وهي لا تزال على حدّ علمنا قيد الاستخدام لدى القوّات العربيّة السعوديّة".[633]

633 HC Deb, 18 February 1964, Vol. 689, c. 1024; ‘Firm Denies Yemen Arms Deal’, *The Times*, 25 February 1964.

كان واضحاً للصّحافيين الذين غطّوا النزاع أنّ رجال القبائل كانوا في أحيان كثيرة مجهّزين ببنادق بريطانيّة، وكانوا مدركين تماماً للوجود البريطانيّ في اليمن حتّى لو كانوا ملزمين ألّا يبلّغوا ذلك. في آذار/ مارس، استدعى وزير الخارجيّة الأميركيّة السفير البريطاني ليشاركه قلقه بشأن التقارير الجديدة التي تفيد بوجود مرتزقة بريطانيّين في معسكرات الملكيّين. ادّعى السفير أنّ حكومته تحاول "عرقلة هذا المشروع الخاصّ الذي كان عمليّة هواة لا أكثر، لأنّهم أدركوا أنّ التسرّب من الاتحاد تسبّب في ردود انتقاميّة". كان يعلم أنّ هذا كلّه مجرّد هراء، ولذا عندما نقل الحديث إلى لندن، طلب اتّخاذ "إجراءات قويّة" فوراً لوقف التدخّل البريطانيّ في الحرب، "تفادياً لتغذية الشكوك الأميركيّة بشأن دوافعنا".[634]

634 Smith, *Ending Empire in the Middle East*, p. 107; Hart-Davis, *The War That Never Was*, p. 131.

كان المصريّون يدركون جيّداً أنّ البريطانيّين يزوّدون الملكيّين بالأسلحة. في 13 آذار/ مارس، قصفت الطائرات المصريّة اثنين من المعسكرات الموجودة ضمن "اتّحاد الجنوب العربي"، ما أسفر عن مقتل الإبل وحرق الخيام. وضعت الحادثة الحكومة البريطانيّة في موقف حرج. من المؤكّد أنّ الانتقام سيضعها في موقف صعب أمام الأمم المتحدة، ولكن عدم فعل أي شيء سيثير حتماً غضب الاتّحاد، إذ حذّر المفوّض السامي البريطانيّ (الذي بات يُعرف بالحاكم منذ اندماج عدن والاتحاد) من أن يتسبّب الفشل في حماية قبائل بيحان في حثّ الأخيرة على الانشقاق لجهة المعسكر اليمنيّ.

في البداية، عمل راب بتلر بنصيحة مسؤوليه، وقرّر الاكتفاء بالاحتجاج لدى صنعاء. لكنّ حالة "الغضب واليأس" في عدن إزاء هذا الرّد الضعيف دفعته مع زملائه إلى اتّخاذ قرار بضرورة الردّ على عمليّات التحليق الجويّ اللاحقة بعنف. بعد ذلك، وُضعت هذه السياسة على المحكّ عندما نقل المفوّض السامي، في 27 آذار/ مارس، أنّ طائرة هليكوبتر مصريّة رشقت موقعاً عسكريّاً في بيحان. كان السابع والعشرون يوم الجمعة، ووصلت الأنباء إلى لندن قرابة "موعد احتساء الشاي"، ما يعني على الأرجح أنّ المسؤولين الذين طالبوا بالاعتدال لم يكونوا حاضرين عندما وافق دوغلاس هوم وبتلر وسانديز ووزير الدفاع بيتر ثورنيكروفت على الانتقام، خلال مكالمة هاتفيّة أُجريت في ذلك المساء. اختير حصن حريب، الذي كان محتلّاً من المصريّين، هدفاً للهجوم. لاقى عشرة أشخاص حتفهم وأصيب آخرون عندما قصفت طائرة بريطانيّة الحصن في اليوم التالي.[635]

635 TNA, FO 371/174629, T.F. Brenchley, 'Yemen: The Harib Incident', 14 April 1964.

نظراً إلى موافقتهم على تنفيذ هذه العمليّة الانتقاميّة، وافق دوغلاس هوم وزملاؤه على مواجهة استهجان الأمم المتحدة. لكنّهم حسبوا أنّ الأميركيّين سيضطرّون إلى دعمهم، لأنّه – على حدّ تعبير سانديز – ستواجه واشنطن عاجلاً أم آجلاً معضلة مماثلة، سواء في كوبا أو فيتنام، وستحتاج إلى دعم لندن.

كان حدس ساندرز في مكانه. فعندما وضع العرب على الطاولة قراراً يهاجم البريطانيّين في الأمم المتحدة بعد بضعة أيّام، اتّصل الممثّل الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، الذي كان حينذاك أدلاي ستيفنسون، براسك، وأخبره أنّه في حال فشلت الولايات المتحدة في تأييد قرار يدين تحرّك بريطانيا، "لن يحترم أحد موقف الولايات المتحدة الأخلاقيّ بعد الآن". لكنّ راسك خالفه الرأي. وكما توقعه سانديز أن يفعل، قال إنّه في حال صوّتت الولايات المتحدة ضدّ البريطانيّين، "سيؤدّي ذلك إلى تقويض العناصر المتّزنة والمعتدلة في لندن، ويجعل من الصّعب الحصول على مساعدة بريطانيّة في أمور أخرى".[636]

636 *FRUS*, 1964–68, Vol. XX I, p. 624, Bundy to Johnson, 9 April 1964.

راود ليندون جونسون، خليفة كينيدي في منصب الرئاسة، الشعور نفسه. بعد أن قرّر تصعيد التورّط الأميركيّ في فيتنام، كان مسروراً إزاء إشراك البريطانيّين في جزء من الاحتجاجات الدولية التي كان ليواجهها بمفرده لولا ذلك. قبل بضعة أيّام، طمأن دوغلاس هوم إلى أنّه سيدعم الوجود المستمرّ لبريطانيا في عدن، وأدرك الأميركيّون أنّ ذلك يشكّل المفتاح الأساسيّ لأمن الخليج.

وشارك راسك رأيه في أنّ التصويت أتاح فرصة للإشارة إلى عبد الناصر بأنّ الأميركيّين ضاقوا ذرعاً به. لذلك، عندما طُرح القرار للتصويت في نيويورك، امتنع ستيفنسون، بناء على تعليمات من واشنطن، عن التصويت. لكنّ جونسون حذّر دوغلاس هوم بعد ذلك قائلاً: ”بشأن الأسس الموضوعيّة، سيكون من الصّعب عليّ اتّخاذ القرار عينه مرّة أخرى“.637

637 *FRUS*, 1964–68, Vol. XX I, No. 330, Johnson to Douglas-Home, 12 April 1964.

أعادت موجة الغضب التي أثارها القصف على حصن حريب إحياء شهيّة دوغلاس هوم إزاء الأساليب السرّية. وتساءل: ”هل استنفدنا كلّ الاحتمالات المُتاحة لنا في ما يتعلّق بالإجراءات المنسوبة وغير المنسوبة“، فأصدر أمراً بمراجعة السياسة البريطانيّة في اليمن. أراد بتلر، الذي شعر بالقلق إزاء الجولة الصّعبة التي أجراها ديبلوماسيّوه في نيويورك، أن يحدّ الدعم المخصّص لرجال القبائل الحدوديّين؛ في المقابل، شكّل سانديز قائمة طويلة من الإجراءات الهادفة إلى تصعيد الحرب، وشملت تخريب المنشآت العسكريّة المصريّة، واغتيال ضبّاط المخابرات المصريّة في اليمن. لم تتم الموافقة على أيّ من هذه الإجراءات، ولكن تماشياً مع رغبة دوغلاس هوم في ”جعل الحياة غير محمولة“ بالنسبة إلى عبد الناصر، ضاعفت الحكومة جهودها لمساعدة الملكيّين خلال صيف 1964. 638

638 Smith, *Ending Empire in the Middle East*, p. 108.

في نهاية نيسان/ أبريل، ذهب بتلر إلى واشنطن لمقابلة راسك. بعد أن أخبره علانيّة أنّ الحكومة البريطانيّة ليست مستعدّة للسماح لليمن أن ينجو بما كان يفعله، وأنّه سيدعم الملكيّين سراً عبر السعوديّة، طلبَ من وزير الخارجيّة مساعدتهم في إجبار عبد الناصر على مغادرة اليمن، لكنّ راسك رفض اتّخاذ هذه الخطوة. في ”مجلس الأمن القوميّ“، صرّح بوب كومر أنّ الجهود البريطانيّة لإخراج عبد الناصر من اليمن جعلته أكثر تصميماً على التمسّك بها. نقل أنّ ”بتلر يقول إنّهم سيبقون سرّاً، لكنّ هذا مستحيل في الشرق الأوسط (كما نعلم). فالقضيّة بأكملها ستتسرّب قريباً، بينما تتبادل القاهرة مع لندن الاتّهامات بالتخريب“.639

639 *FRUS*, 1964–68, Vol. XX I, p. 633, Komer to Bundy, 28 April 1964.

هذا ما اتّضح جلياً. ففي أوائل أيار/ مايو، أخبر عبد الناصر السفير الأميركيّ لدى القاهرة أنّ لديه ”أدلّة موثوقة ومقنعة تماماً“ على أنّ البريطانيّين كانوا يزوّدون الملكيّين بالأسلحة والأموال والمشورة عبر الحدود الفيدرالية. جاء هذا الدليل في رسائل عُرضتْ ثمّ نُشرتْ في الشّهر نفسه في

صحيفة **الأهرام** المصريّة. في البداية، اعتقدت الصّحافة البريطانيّة أنّ التقرير المصريّ كان مجرّد بروباغاندا، ولم يتّضح أنّ الحال لم تكن كذلك إلّا بعد أن أجرى فريق *Sunday Times Insight* تحقيقاً أشمل. في 5 تموز/ يوليو 1964، طبعت الصّحيفة نسخاً من خمس رسائل حصل عليها المصريّون، بما في ذلك رسالة موجّهة إلى كوبر من مصرفه، واثنتان من طوني بويل ذُكرت فيهما المظلّات ومناطق الهبوط، وأخرى توجّه فيها "عبد الله" (الاسم الحربي لكوبر) إلى مستلمها بـ"التهاني على عمليّة زرع الألغام (هكذا)". ربّما المسيرة العسكريّة اللاحقة لكاتبها، بيتر دو لا بيلبير، لم تكن متوهّجة بقدر ما كان إمضاؤه واضحاً.[640]

640 *FRUS*, 1964–68, Vol. XX I, p. 638, Badeau to State Department, 8 May 1964; 'The Story Behind These Five Captured Letters', *Sunday Times*, 5 July 1964.

هكذا انتهت حرب بريطانيا السرّية في اليمن. بعد أن تم التعرّض لهم في الصّحافة، وتيتّموا في مقرّ Whitehall عندما فاز حزب العمل بالانتخابات العامّة في تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام، استمرّ المرتزقة بالقتال حتّى 1967، وساهموا خلال تلك المدة في إنزال خسائر بعبد الناصر بلغت نحو عشرين ألف قتيل. لكنّ غطاءهم دُمّر، ولم يعد هناك حاجة كبيرة إليهم. وبعد أن اتّضح جليّاً مَن الذي كان الرأس المدبّر لمعارضة المصريّين في اليمن، تمكّن عبد الناصر من مواجهة هذا التهديد. ففي نيسان/ أبريل 1964، خلال زيارة مفاجئة إلى صنعاء، تعهّد علناً بـ"الردّ على العدوان بالقوّة"، وطرد بريطانيا من شبه الجزيرة العربيّة. رغم أنّه سيكون انتصاراً مكلفاً، فإنّ السنوات الثلاث المقبلة شهدت على تنفيذه ذلك.[641]

641 Surprise Visit to Yemen by President Nasser', *The Times*, 24 April 1964.

27

النهاية

في يوم عيد الميلاد عام 1964، زار المفتّش فضلي خليل، من شرطة عدن، سوق القات في كريتر، إحدى أحياء الميناء. لعب القات دوراً استثنائيّاً في اقتصاد جنوب الجزيرة العربيّة. على غرار جيرانهم اليمنيّين، كان العديد من رجال عدن يمضغون الورقة الخضراء المخدّرة بعض الشيء، بدءاً من بعد الغداء حتّى بداية المساء. كانت تجارة القات تدرّ 5.2 مليون جنيه إسترليني سنويّاً، في وقت كانت فيه ميزانيّة حكومة عدن السنويّة تبلغ ضعف هذا المبلغ. وقد ساعد ذلك في تفسير سبب رفع الحظر عن القات بعد أن كان قد حُظر في الماضي ليخضع لضريبة قاسية بدلاً من ذلك. كان الحظر والضريبة دليليْن على أنّ تجّاره كانوا يعرفون جيداً الشبكات الإجراميّة التي يستخدمها الإرهابيّون لتهريب الأسلحة إلى الميناء. وهذا ما دفع خليل إلى زيارة السوق.[642]

642 Little, *South Arabia*, pp. 69, 125.

لم يكن الإرهاب الذي شهدته السلطات حتّى الآن في عدن يتصف بالفعالية. فقد فجّر أحد المتمرّدين قدميه عند سحبه الدبّوس من قنبلته اليدويّة وإلقائه بدلاً من القنبلة على هدفه. لكن الحملة اتّخذت منعطفاً أكثر بشاعة. فقبل يوم من ذلك فقط، وقع هجوم بقنبلة يدويّة على احتفال للأطفال بمناسبة عيد الميلاد أُقيم في قاعدة خور مكسر الجويّة؛ قُتلت ابنة الضابط الطبّي الأوّل لقيادة الشرق الأوسط البالغة ستّة عشر عاماً. لم يكن فضلي خليل يعلم أنّه كان على وشك أن يصير الضحيّة التالية للإرهابيّين. قبل أن يترجّل من سيّارته للذهاب إلى السوق، أبطأت سيّارة أخرى سرعتها وكانت تسير إلى جانبه. جرى إطلاق نار كثيف بالرشّاشات وانفجرت قنبلة دخانيّة. لاذ المهاجمون المجهولون بالفرار، في حين لقيَ خليل حتفه.[643]

643 Clark, *Yemen*, p. 83.

***

مرّت عشرة أشهر منذ أعلن عبد الناصر عزمه على طرد البريطانيّين من عدن، لكنّ الاحترافيّة في تنفيذ العنف الذي كانت تشهده الحياة اليوميّة في الميناء تشير إلى أنّه كان يخطّط لحملته لمدة أطول. ففي صيف 1962، ساعد الأمين العامّ لمؤتمر النقابات العمّالية في عدن، عبد الله الأصنج، على تأسيس "حزب الشعب الاشتراكيّ" لإثارة البلبلة في المجال الصناعيّ. عقب عام، وبعد أن لحظ ظهور مؤشّرات اعتدال غير مرحّب بها لدى ربيبه، خلق عبد الناصر منافساً له، هو "جبهة التحرير الوطنيّ" التي خُطّط لإطلاقها من مدينة تعز اليمنيّة على يد "رجل صغير ممتلئ، يخفي مظهره طبيعته الثوريّة"، يُدعى قحطان الشعبي.[644]

644 Little, *South Arabia*, p. 182.

أُنشئت "جبهة التحرير الوطنيّ" على شكل تنظيم خيطي لضمان أمنها، تماماً مثل حركة "الضبّاط الأحرار" في مصر، ودرّبت مجنّديها على حرب العصابات وأعمال التخريب البسيطة، مثل تعطيل وحدات تكييف الهواء في المكاتب الحكوميّة، وسكب السكّر أو التراب في خزّانات وقود سيّارات المسؤولين البريطانيّين، وسرعان ما اخترقت الحكومة المحلّية لجنوب شبه الجزيرة العربيّة. وفي حين تركّزت أنشطة "حزب الشعب الاشتراكي" على عدن، كان نشاط "التحرير الوطنيّ" أوسع نطاقاً. وكانت تهدف في نهاية المطاف إلى تقويض فرص نجاح الاتّحاد، عبر تحريض رجال القبائل والعدنيّين بعضَهم على بعض. بحلول خريف ذلك العام، اندلعت انتفاضة بإدارة "التحرير الوطنيّة" في ردفان، وهي منطقة برّية مرتفعة تقع شمال عدن، كانت تمرّ عبرها الطريق الرئيسيّة المؤدّية إلى اليمن. أخطأ البريطانيّون في تفسير الانتفاضة على أنها مجرّد اضطرابات قبليّة.[645]

645 Clark, *Yemen*, p. 83.

كان الشعبيّ يضيّق على الأصنج، فردّ الأخير بمحاولة تنظيم "حدث مدوٍّ". بصفته موظّفاً سابقاً في "شركة عدن للخطوط الجويّة"، أقنع زميلاً سابقاً له كان لا يزال يعمل لدى شركة الطيران بمحاولة قتل المفوّض السامي البريطانيّ، السير كينيدي تريفاسكيس، أثناء توجّهه إلى بلاده لمناقشة مستقبل اتّحاد الجنوب العربي. في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1963، أُلقيت قنبلة يدويّة على تريفاسكيس في المبنى الرئيسي للمطار. توفّيت امرأة فوراً، وأُصيب عشرون آخرون. نجا المفوّض السامي لكنّ نائبه جورج هندرسون لم يحالفه الحظ؛ أُصيب بشظيّة أثناء محاولته حماية رئيسه، وتوفّي في المستشفى بعد سبعة عشر يوماً. أعلن تريفاسكيس فوراً حالة الطوارئ، لكنّ القرار الذي

اتّخذه باستخدام سلطته لجمع أكثر من مئة عنصر من النقابيّين والقوميّين قُوبل على نحو سيّئ في لندن. إزاء التلميح إلى أنّه "يتصرّف بطريقة عنيفة جدّاً"، أصرّ على أنّ "الإجراءات الجذريّة في البداية هي أفضل طريقة لمنع الوضع من التدهور، ولمنع عامة الناس وأصدقائنا الأضعف من الانتقال إلى الجانب الآخر". 646

646 French, *The British Way in Counter-Insurgency*, p. 58.

لم يردع ردّ فعل لندن تريفاسكيس. اقترح هذا المؤيّد المتحمّس للحرب في اليمن أساليب مماثلة للتعامل مع تهديد الإرهاب في جنوب الجزيرة العربيّة. بعد ثمانية أيّام من محاولة اغتياله، أطلع رئيسه دنكان سانديز على خطّته "إحداثَ اصطدام بين شرطة الأمن العامّ و"اتّحاد الجنوب العربي"، من شأنه حثّهم على تصفية بعضهم بعضاً". فإشارته إلى "الجنوب العربي" – المنظّمة القوميّة الأصليّة التي سيطر عليها "الاشتراكي" منذ مدة طويلة – وجهله الظاهر بوجود الجبهة الوطنيّة الليبراليّة، لهما الكثير من الدلالات؛ عارض مكتب الاستخبارات البريطانية في لندن حماسته لتنفيذ اغتيالات تستهدف الإرهابيّين الرئيسيّين، فقد كان خبراؤهم يعلمون أنّ مكافحة الإرهاب بالإرهاب لن تنجح ما لم تكن جزءاً من إستراتيجيّة سياسيّة أكبر. لذا لم يحصل تريفاسكيس إلّا في آذار/ مارس من العام التالي على إذن بإنفاق خمسة عشر ألف جنيه إسترليني للعمل على "اختراق منظّماتهم، وإخضاع شخصيّاتهم الرئيسيّة، وتحفيز الخصومة والغيرة بينهم، وتشجيع الخلافات وخلق مجموعات منشقّة، ومضايقتهم عموماً، مثلاً بقمع الاجتماعات العامّة". 647

647 Andrew, *The Defence of the Realm*, p. 474.

في غضون ذلك، حاول البريطانيّون إعادة سلطة الحكومة في ردفان. في كانون الثاني/ يناير، شنّت القوّات البريطانيّة والجيش الفيدراليّ عمليّة "كسّارة البندق"، وهي عرضٌ للقوّة كان لها تأثير ضئيل جداً. بعد تفجير أكثر من عشر مركبات على طول الطريق الممتدّة من عدن إلى المقاطعة التي كانت تشهد اضطرابات في ربيع ذلك العام، قرّر البريطانيّون ممارسة التكسير على نطاق أوسع. لم يدركوا أنّ الانتفاضة كانت بقيادة "جبهة التحرير الوطنيّ"، ولذا كانوا يأملون في إمكانيّة التصدّي لها بضربة قاضية، بطرد المنشقّين من حوض دانابا الخصب الذي يقع في التلال، وتدمير المحاصيل هناك لمنع استخدام الوادي كقاعدة للعمليّات. لكنّ الافتقار إلى معلومات استخباراتيّة كافية قوّض الحملة منذ البداية.

قبل أن تتمكّن القوّة البريطانيّة من إحراق أرض حوض دانابا، كان عليها أوّلاً الاستيلاء على التلال المحيطة بها. عندما اتُّخذ قرار بإنزال مئة وعشرين رجلاً من فوج المظلّيين لذلك، ضغط بيتر دو لا بيليير، وهو ضابط في القوّات الجويّة البريطانيّة الخاصة خدم في حملة الجبل الأخضر ثمّ خلف طوني بويل في عدن، من أجل إدخال وحدته الخاصّة أوّلاً لإيجاد منطقة للهبوط، في حين كان من المفيد أكثر استخدامها لجمع المعلومات المخابراتيّة. اختار دو لا بيليير أحد قادته الذي يُدعى روبن إدواردز لقيادة ثمانية رجال في العمليّة؛ نُقلوا جوّاً إلى التلال في نهاية نيسان/ أبريل. خلال أربع وعشرين ساعة، وجدوا أنفسهم في ورطة كبيرة.

بعد أن تعرّض جندي الإشارة، نيك واربورتون، للتسمّم الغذائيّ، اضطرّت الدوريّة إلى التخلّي عن بحثها عن منطقة الهبوط والانتظار طوال النهار داخل معبر صخريّ على أحد المنحدرات بانتظار حلول الظلام ليتسنّى لهم الفرار. هناك اكتشفهم أحد رعاة الماعز فأطلقوا النار عليه، لكن تسنّى له تنبيه امرأة ركضت إلى أسفل المنحدر لتحذير القرية القريبة من الخطر. في غضون عشر دقائق، كانت القوّات الجويّة البريطانيّة الخاصة تتعرّض للهجوم، وأطلقت نداء إلى دو لا بيليير تطلب منه استدعاء الطائرات السريعة التي كانت مجهّزة للإقلاع في مطار خور مكسر. ساعدت الغارات الجويّة على تخفيف الضّغط، لكن عند حلول الليل ورحيل الدوريّة، كان كلّ من واربورتون وإدواردز قد لقيا حتفيهما. ظهر رأساهما على أحد المرتفعات في تعز، مقرّ الجبهة في اليمن، لكن لم يُعثَر على جثّتيهما المقطوعتي الرأس إلّا بعد أسابيع. استمرّت حملة ردفان حتّى نهاية حزيران/ يونيو، لكنّها لم تكن حاسمة لأنّ "التحرير الوطنيّ" انسحبت ببساطة إلى ملجئها على الجانب الآخر من الحدود اليمنيّة.

خلال الأيام الأخيرة لحكومة المحافظين، عقد سانديز ذاك الصّيف المؤتمر الدستوريّ الذي تأجّل بعد محاولة اغتيال تريفاسكيس. عندما طلب مندوبو "اتّحاد الجنوب العربي" تحديد تاريخ للاستقلال لا يتجاوز 1968، واقترحوا التوصّل إلى اتّفاق دفاعيّ مع بريطانيا يمكّنها من الاحتفاظ بقاعدة عدن، أعلن سانديز أنّ حكومة صاحبة الجلالة موافقة تماماً.

كانت تلك الصّيغة القديمة – تقايض بريطانيا الاستقلال لقاء قاعدة عسكرية –، وكان معارضو المحافظين في حزب العمل يرون أنّ البلد في وضع لا يسمح له بتكبّدها. بعد أن أحرز "العمل" فوزاً ضيقاً في الداخل بحصوله على غالبية بفارق أربعة أصوات في الانتخابات العامّة، التي أُجريت في تشرين الأول/ أكتوبر 1964، كان "الوضع الاقتصاديّ" هو البند المشؤوم الأوّل على جدول أعمال الحكومة عندما اجتمعت للمرّة الأولى في 18 تشرين الأول/ أكتوبر. أخبر رئيس

الوزراء الجديد هارولد ويلسون زملاءه أنّ الوضع الماليّ للبلاد ”أسوأ من المتوقّع“، قبل أن يعطي الكلام لوزير الدولة الجديد للشؤون الاقتصاديّة، جورج براون، الذي قدم وصفاً عن حجم العجز في ميزان المدفوعات الذي ورثه ”العمل“. لا يمكن فعل الكثير على المدى القصير، كما أقرّ براون، لكن في حال أرادت الحكومة الحفاظ على نفقات الرعاية الاجتماعيّة التي كانت عزيزة على مؤيّديها، ستحتاج إلى إجراء تخفيضات كبيرة في أماكن أخرى. طُلب من وزير الدفاع الجديد، دينيس هيلي، اقتطاع 16% من ميزانيّة وزارته. سيُضحّى بالإمبراطوريّة من أجل الرعاية الحكومية.[648]

648 TNA, CAB 195/24, meeting of 18 October 1964.

رغم ادّعاء ويلسون وزملائه عكس ذلك في العلن، فإنّ عدن قد كانت نصب أعينهم منذ البداية. أصرّ ويلسون بعد بضعة أسابيع: ”يجب فعل شيء ما لمعادلة الأعباء التي نتكبّدها في شرق السويس نيابة عن الآخرين“. ما قصده أنّه ينبغي لشيوخ الخليج تكبّد تكاليف الدّفاع عن أنفسهم. لكنّ المهمّة كانت أصعب ممّا بدت. أوضح هيلي لاحقاً: ”كانت هذه القواعد ضروريّة بسبب التزاماتنا السياسيّة: مسؤوليّتنا التي تقضي بالدفاع عن الأقاليم التابعة لنا، أو التزاماتنا بموجب المعاهدات تجاه دول أخرى ذات سيادة. لا نستطيع التخلّي عنها إلى أن تصير مستعمراتنا مستقلّة أو حتى إعادة التفاوض حول معاهداتنا مع حلفائنا“.[649]

649 TNA, CAB 195/24, meeting of 26 November 1964; Healey, *The Time of my Life*, pp. 278–9.

للمباشرة بتحرير بريطانيا من التزاماتها السياسيّة، زار وزير المستعمرات الجديدة، آرثر غرينوود، عدن في تشرين الثاني/ نوفمبر، عقب بداية الهجمات في الميناء. بعد سلسلة من المحادثات، أعلن الوزير الفيدراليّ ووزير عدن، اللذان تحدّث إليهما معاً، رغبتهما في إنشاء ”دولة ذات سيادة موحّدة على أساس ديموقراطيّ سليم“، وسيتابعونها في مؤتمر آخر من المقرّر عقدُه في آذار/ مارس من العام التالي. كانت هذه محاولة لتهدئة مخاوف العدنيّين من الصّلاحيّات التي قد يحصل عليها شيوخ القبائل في دولة فيدراليّة. عندما قال تريفاسكيس، الذي كان مصمّم الخطّة الفيدراليّة، إنّه لا يستطيع قبول قرار الرحيل الجديد، دفعه غرينوود إلى التقاعد المبكر.[650]

650 Little, *South Arabia*, p. 115.

كان تريفاسكيس يشعر بنفور إزاء السياسة الجديدة لأن فرص نجاحها تعتمد على الرجل الذي حاول قتل المفوّض السامي قبل عام، وهو زعيم ”حزب الشعب الاشتراكيّ“، الأصنج. بصفته أميناً

عامّاً لـ"مجلس اتّحاد عدن النقابيّ"، كان للأصنج علاقات سابقة مع "العمل" عندما كان الأخير في المعارضة. عندما وافق على التخلّي عن طموحه توحيدَ "الاتّحاد" مع اليمن، راود غرينوود وزملاءه، الذين لم يدركوا أنّ تأثير "الشعب الاشتراكيّ" كان محصوراً إلى حدٍّ كبير في عدن، أملٌ ساذج في أن يتمكّن النقابيّ العدنيّ من تسويق خطّتهم.

أمِلَ الأصنج في استخدام علاقته بالبريطانيّين لمساعدته على توحيد الحركة القوميّة تحت قيادته، لكنّ هذه الإستراتيجيّة تعثّرت بسرعة. فرغم أنّ الأعضاء الرئيسيّين في جامعة الدول العربيّة كانوا مؤيّدين له، فإنّ عبد الناصر ورئيس اليمن، السلال، لم يكونا كذلك. هكذا رفضت "جبهة التحرير الوطنيّ" قبول قيادة الأصنج. وتعرّضت مصداقيّته لضربة أخرى عندما صار من الواضح أنّ استعداده للتحدّث إلى البريطانيّين لم يمنحه أيّ نفوذ. عندما حاول والحكومة الفيدراليّة الإصرار على دعوة ثلاث ولايات في المحميّة الشرقيّة الأكثر ثراء للمشاركة في مؤتمر لندن لمناقشة أمور الدولة المستقبليّة، عارض البريطانيّون ذلك. كانوا يخشون أن يُعيد أيّ مشارك جديد فتحَ القضايا التي سُوّيت. وخسر الأصنج الفاسد والضعيف مركزه أميناً عامّاً لـ"اتّحاد عدن" في منتصف 1965 بفضل المناورة التي نفّذتها "جبهة التحرير" وراء الكواليس.

كانت "التحرير" تحرز تقدّماً مستمرّاً. فبالتزامن مع خوضها معركة سياسيّة مع الأصنج وحزبه الاشتراكيّ، كانت تحاول تدمير قدرة بريطانيا المحدودة أساساً على مواجهة ممارساتها الإرهابيّة، ولم يكن مقتل المفتّش خليل في سوق القات في كريتر سوى بداية هذه الحملة. فقد استهدفت الجبهة الضبّاط العرب في الفرع الخاصّ، إذ اختطفتهم وقتلتهم، ثمّ ألقت جثثهم المخروقة بالرصاص في منطقة كريتر والشيخ عثمان في عدن، وقد أُرفِقت برسائل تصرّح أنّ "جبهة التحرير الوطنيّ أعدمتهم". كانت هذه التكتيكات فعّالة على نحو مخيف. فبحلول حزيران/ يونيو 1965، أقرّت المفوّضيّة العليا بأنّ "فرع عدن الخاصّ لم يكن يضمّ حاليّاً أيّ عنصر عربيّ تقريباً، وسيستغرق وقتاً طويلاً لإعادة تأسيسه على أساس عربيّ حتّى لو كان هناك بعض العرب يخدمون فيه. من غير المرجّح حدوث ذلك في المستقبل المنظور". بدلاً من ذلك اقتصر البريطانيّون على الاعتماد على مجنّدين أجانب لا يتقنون العربيّة.[651]

651 Walker, *Aden Insurgency*, p. 141; French, *The British Way in Counter-Insurgency*, p. 25.

رغم الأدلّة المتزايدة التي تفيد بعكس ذلك، تمكّن البريطانيّون من إقناع أنفسهم بأنّ الانتقال السلس للسلطة بحلول 1968 قد يكون ممكناً. لكنّ عمليّتَي قتل بارزتين أجبرتاهم على مواجهة الواقع. كان

السيّد آرثر تشارلز، رئيس الهيئة التشريعيّة في عدن، يمارس رياضة التنس أيام الأربعاء. بينما كان متوجّهاً إلى سيّارته بعد انتهاء المباراة في 1 أيلول/ سبتمبر 1965، ناداه رجل عربيّ، وعندما ردّ عليه تشارلز، أطلق عليه الأخير الرصاص. بعد ثلاثة أيام، قُتل نائب رئيس فرع عدن الخاصّ، هاري باري، أثناء قيادته سيّارته إلى العمل، وتحديداً أثناء توقّفه عند مفترق طرق بالقرب من مكتبه.

كان هناك تخوّف كبير من الانتقام لدرجة أنّه لم يتجرّأ أيّ عضو في المجلس التشريعيّ على إدانة مقتل تشارلز علانيّة. أصدر المفوّض السامي حينذاك، السير ريتشارد تورنبول، أمراً بحظر التجوّل فوراً. والتزاماً بأوامر لندن علّق الدستور؛ هذا يعني حلّ المجلس وممارسة المفوّض السامي صلاحيّات الحكم المباشر.

شكّل تعليق تورنبول الدستور في 25 أيلول/ سبتمبر 1965 نقطة تحوّل. فقد كان تصويتاً بحجب الثقة في نظام الحكم. عندئذ انتقل العبء إلى كاهل البريطانيّين. وبغية إعادة بناء الثقة، ليتمكّنوا من استعادة الحكم الذاتيّ وتجنّب الخروج من المستعمرة على نحو فوضويّ جدّاً، كان عليهم أوّلاً هزم الإرهابيين.

كانت هناك القليل من المؤشّرات التي تدلّ على أنّ البريطانيّين كانوا على مستوى هذا التحدّي. فاعتماد الميناء على التدفّق اليوميّ لنحو ستين ألف عامل جعل من الصّعب إجراء تحقيقات في الأرجاء. وكانت الإجراءات الأمنية داخل المدينة متساهلةً. لاحظَ ضابط فرع خاصّ، لديه خبرة طويلة في الإرهاب المناهض للاستعمار، أثناء زيارة إلى عدن: "الوجه الأبيض والابتسامة كافيان لفتح أبواب كثيرة في عدن". كان هناك صراع داخليّ بين مختلف الوكالات. في هذه الأثناء، كانت حملة الاغتيالات المنظمة والمدمّرة التي شنّتها "التحرير الوطنيّ" ناجحة. وما إن صار واضحاً أنّ التعاون مع البريطانيّين قد يعرّض الشخص المعنيّ لخطر القتل بعنف، تدنت جودة العمل الاستخباراتي، التي كانت تعتمد عليها مكافحة الإرهاب الناجحة.[652]

652 French, *The British Way in Counter-Insurgency*, p. 26.

أخيراً لم يكن هناك أيّ دليل على التزام الحكومة البريطانيّة في لندن، بل على العكس تماماً. كان دينيس هيلي قد أجرى للتوّ زيارة عابرة إلى كلّ من عدن والاتّحاد، وتشكّلت لديه قناعة بأنّ المشروع بأكمله غير عمليّ. كتب لاحقاً: "لدى العودة إلى الضجيج والرائحة الكريهة للأحياء الفقيرة المزدحمة في عدن، كان من المستحيل التخيّل أنّ علاقتها بالمشايخ قد تستمرّ"، مُقرّاً بأنّه

تأخّر في إدراك ذلك. وجد تورنبول متشائماً، إذ قال له المفوّض السامي: ’’عندما ستغرق الإمبراطوريّة البريطانيّة تحت أمواج التاريخ، ستترك وراءها نصبيْن فقط: أحدهما هو لعبة كرة القدم، والآخر هو عبارة ’اللعنة‘‘‘.653

653 Healey, *The Time of my Life*, pp. 282, 283.

***

أدّت الجهود الأميركيّة من أجل إحباط انسحاب بريطانيا والخلاف بين وزراء ويلسون في لندن إلى تأجيل اتّخاذ قرار نهائيّ بشأن عدن حتّى كانون الأول/ ديسمبر 1965. في حين كانت الولايات المتّحدة تستنزف نفسها في الحرب في فيتنام، رأت إدارة جونسون أنّ الجلبة حول اضطرار بريطانيا إلى الانسحاب من عدن وسنغافورة غير مفيدة أبداً. وعندما زار وزير الخزانة، جيم كالاهان، واشنطن في الصّيف، للمطالبة بأموال من شأنها المساعدة على تفادي تعرّض الجنيه الإسترليني لأزمة أخرى، حذّره وزير الدفاع الأميركيّ، روبرت ماكنامارا، من أنّ أيّ تخفيض بريطانيّ للنفقات "بين عدن وهونغ كونغ" سيرغم الولايات المتحدة على إعادة النظر في "جميع جوانب علاقاتها مع المملكة المتّحدة". بل ذهب مستشار الأمن القوميّ لدى جونسون إلى أبعد من ذلك، فاقترح ربط الوعد بتقديم الدّعم الماليّ بانخراط بريطانيّ في فيتنام. وقال لأحد مستشاري هارولد ويلسون إنّ "كتيبة واحدة ستساوي ملياراً". لكن في نهاية المطاف، كان البريطانيّون رغم ضعفهم الممسكين بزمام الأمور. إن إدراك ويلسون حقيقة أن جونسون سيدعم الباوند، لأنّ أيّ تخفيض من قيمة الجنيه الإسترليني سيلحق الضرر بالمصدّرين الأميركيّين، مكّنه من الإصرار على أنّه "لا توجد صلة واضحة" بين الجهود الأميركيّة لتعزيز الجنيه، واتّباع نهج مشترك للسياسة الخارجيّة. وقال إنّه لن يرسل قوّات إلى فيتنام مقابل الدّعم الأميركيّ للباوند.654

654 *FRUS*, 1964–68, Vol. XII, No. 250, Bundy to Johnson, 10 September 1965; Pham, *Ending ‘East of Suez’*, p. 38.

لم تساهم معاملة ماكنامارا لكالاهان في تحسين العلاقات الإنكليزيّة–الأميركيّة. اشتكى جورج براون من معاملة بريطانيا ’’كجمهوريّة للموز‘‘، في حين صُدم هيلي إزاء التغيير المفاجئ لموقف الأميركيّين الذي رآه مثيراً للسخرية. كتب في وقت لاحق جدّاً: ’’بعد أن حاولت الولايات المتّحدة لثلاثين عاماً إخراج بريطانيا من آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا، ها هي تحاول الآن بشدّة إبقاءنا

فيها؛ خلال حرب فيتنام، لم تكن تريد أن تكون الدولة الوحيدة التي تقتل الأشخاص الملوّنين على أراضيهم".[655]

[655] Healey, *The Time of my Life*, p. 281.

كان كلّ من براون وهيلي مصمّمين على مغادرة القاعدة في أقرب وقت، لإدراكهما أنّ عدن، على غرار فلسطين ومصر قبلها، صارت الآن "التزاماً أكثر منها مِلكيّة". لكنّ وزارة الخارجيّة اعتمدت وجهة نظر مختلفة. فقد كانت تشعر بالقلق، على نحو مبرّر، من أن يكون للإعلان المفاجئ للانسحاب تأثير كارثيّ في العلاقات مع السعوديّة وإيران. حتّى أنّه قد يؤدّي إلى نشوب حرب بين إيران والعراق والسعوديّة على دول الخليج الغنيّة والضعيفة. عندما اتّضح أنّ عبد الناصر كان يبحث بوضوح عن طريق للهرب من اليمن، صار هناك حجّة أخرى للمحافظة على البقاء. هكذا، عندما ناقش مجلس الوزراء أخيراً السياسة الخارجيّة، اعترف وزير الخارجيّة مايكل ستيوارت بأنّ الوضع غير مبرّر، لكنّه يتصوّر "انسحاباً تدريجيّاً ومنظّماً من الشرق الأوسط". تماشياً مع رغبة ويلسون في "موازنة العبء" التي عبّر عنها في العام السابق، قال ستيوارت إنّ موظفيه حقّقوا بعض التقدّم بتعزيز التعاون بين حكّام الخليج لتمكينهم من الاعتماد أكثر على مواردهم الخاصّة.[656]

[656] Smith, *Ending Empire in the Middle East*, p. 113; TNA, CAB 128/39, CC (65) 49th Conclusions, 23 September 1965; Pham, *Ending 'East of Suez'*, p. 39.

لم يكن "الانسحاب التدريجيّ والمنظّم" الذي اقترحه ستيوارت سريعاً بما فيه الكفاية بالنسبة إلى هيلي. في 12 و13 تشرين الأول/ أكتوبر، نشرت صحيفة *Times* مقالتيْن لمراسلها الدفاعيّ حول دور بريطانيا في الشرق الأوسط، تعكسان تفكير وزير الدفاع. كانت الأولى، بعنوان "السنوات الضائعة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة"، قد أعادت النظر في أهمّية قاعدة عدن وضرورة تمركز جميع القوّات هناك لحمايتها، متحجّجة بأنّ التسوية السياسيّة المرضية – التي من المفترض أن تكون الحكومة متمسّكة بها –غير قابلة للتنفيذ. أمّا المقالة الثانية، فأوردت أنّه يمكن تقليص الوجود البريطانيّ في الخليج، لأنّ دوره كان مجرّد رادع من شأنه منع الدول الأكبر من امتصاص الدول الأصغر، وفي النتيجة الحفاظ على عدد كبير من الدول المستقلّة، الأمر الذي يساهم في الحفاظ على أسعار تنافسيّة للنفط.[657]

[657] 'Wasted Years in South Arabia', *The Times*, 12 October 1965.

***

في واشنطن، كانت وزارة الخارجيّة مدركة المسار الذي تتّخذه الأمور، وكانت تشتبه في أن تكون الجمعيّة العامّة المقبلة للأمم المتّحدة هي الفرصة الأخيرة للبريطانيّين. توقّع ديبلوماسيّون أميركيّون أن يدين وفدُ عدن تعليق الحكومة البريطانيّة الدستور، ويطالب بتصفية القاعدة فوراً. ومع اعتراف نظرائهم البريطانيّين بأنّه "ليس لديهم خطط محدّدة لحلّ أزمة عدن باستثناء الأمل في أن يمكّنهم تعليق الدستور من استعادة النظام والسيطرة على الوضع"، قرّر المسؤولون في الولايات المتّحدة فعل ما في وسعهم لدعم حليفتهم في الأمم المتحدة، لأنّ "أيّ انسحاب سريع من منطقة عدن، في هذا الوقت، سيخلق حالة من الفوضى في جنوب الجزيرة العربيّة تضرّ بالمصالح الغربيّة العامة". لكنّ الدّعم الأميركيّ أخفق في وضع حدّ لاقتراح يفرض رقابة على البريطانيّين، كان قد صُوّت عليه بغالبيّة ساحقة في الجمعيّة العامّة في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر.[658]

658 *FRUS*, 1964–68, Vol. XX I, p. 152, circular airgram from State Department to certain posts, 15 October 1965.

في لندن، بعد يوم واحد من التصويت في الأمم المتحدة، خلصت لجنة السياسة الخارجيّة والدفاع التابعة لمجلس الوزراء إلى أنّ القاعدة لم تكن تستحقّ عناء الاحتفاظ بها، ونقل ويلسون الأخبار السيّئة إلى الرئيس جونسون شخصيّاً عندما زار واشنطن في كانون الأول/ ديسمبر. بادر رئيس الوزراء، الذي كان قد ألمح في تموز/ يوليو إلى أنّ بريطانيا ستتشبّث بشرق السويس بينما كانت الولايات المتحدة تخوض حرب فيتنام، إلى إخبار جونسون بأنّ عدن ''لا يمكن اعتبارها قاعدة على المدى الطويل''، ولكنّه خفّف وطأة الخبر مُضيفاً أنّ البريطانيّين سيحافظون على وجودهم في الخليج. لعلّ جونسون أدرك فوراً أنّ معارضي حرب فيتنام سيسارعون إلى استغلال قرار ويلسون، لكنّه في النهاية كان عاجزاً عن فعل أيّ شيء حيال ذلك. وكما قال وزير الخزانة هنري فاولر إنّ إرغام بريطانيا على الوفاء بالتزامات لم ترغب في تقديمها سيكلّف الولايات المتحدة المزيد من الأموال. ''لا مصلحة لنا بحليف ضعيف في شرق السويس، ولا في أوروبا، ولا في المجموعة الماليّة الدوليّة، ولا في أيّ مكان آخر''.[659]

659 *FRUS*, 1964–68, Vol. XII, p. 511, memorandum: 'visit of Prime Minister Wilson', n.d.; *FRUS*, 1964–68, Vol. XII, p. 542, Fowler to Johnson, 18 July 1966.

بعد ذلك، نقلت الحكومة البريطانيّة الخبر إلى المجلس الفيدراليّ الأعلى في شباط/ فبراير 1966، قبل وقت قصير من نشر ''وثيقة الدفاع البيضاء'' في الثاني والعشرين. شكّل وقعُ الأنباء التي تفيد بأنّ البريطانيّين سيخلون المستعمرة بحلول 1968 صدمة عنيفة لأصحاب المتاجر، وسائقي سيّارات

الأجرة، والمسؤولين المحلّيين الذين تعتمد سبلُ عيشهم على الوجود البريطانيّ. كان عبد الناصر قد التزم الانسحاب من اليمن، لكن عند سماعه الخبر غيّر رأيه. في خطاب ألقاه في جامعة القاهرة، حاول كسب بعض الوقت معلناً أنه لن يسحب قوّاته إلى حين تشكيل حكومة انتقاليّة في اليمن. وتساءل: ''هل يجب أن نستسلم لفيصل أو يجب أن نبقى في اليمن عشر سنوات؟ أقول إنّنا سنبقى فيه عشرين سنة''. 660

660 Ferris, *Nasser's Gamble*, p. 250.

***

بتحديد مهلة نهائيّة لوجودهم في البلاد، قد يكون البريطانيّون يأملون في تحسين الوضع. في الواقع، زاد إعلانهم الأمور سوءاً. في كانون الثاني/ يناير 1966، حقّق الأصنج ما كان يأمل فيه منذ مدة طويلة: تحالف بين "حزب الشعب الاشتراكيّ" وجبهة قحطان الشعبيّ للتحرير الوطني، يُطلق عليه اسم "جبهة تحرير جنوب اليمن". بدعم من عبد الناصر، ستستخدم "جبهة التحرير" العنف لطرد البريطانيّين. لم يستمرّ التحالف سوى لكانون الأول/ ديسمبر. فبعد مغادرة البريطانيّين، انقلب الأصنج والشعبيّ على بعضهما بعضاً، بعد أن أدركا أنّهما خصمان في السباق على قيادة الدولة المستقلّة حديثاً.

كان البريطانيّون يأملون في أن يكونوا مجرّد متفرّجين في هذه الحرب الداخلية، تماماً كما كانت الحال في فلسطين قبل عشرين عاماً. لكن هذا لم يحدث أيضاً. فقد استمرّت الهجمات بالقنابل وإطلاق النار. وفي نهاية شباط/ فبراير 1967، أقنعت ''التحرير الوطنيّ'' خادماً شابّاً يعمل لدى ضابط مخابرات بريطانيّ، يُدعى طوني إنغولدو، بزرع قنبلة في خزانة للكتب في شقّة إنغولدو حيث كانت ستُقام حفلة سمر. انفجرت القنبلة في التاسعة من مساء ذلك اليوم، في حين كانت السهرة في أوجها، ما أسفر عن مقتل امرأتين يعمل زوجاهما أيضاً في المخابرات. أوضح أحد ممثّلي ''التحرير الوطنيّ'' سبب العنف للديبلوماسيّ البريطانيّ المخضرم سام فال الذي أُرسل في نيسان/ أبريل 1967 في مهمّة للتحدّث مباشرة مع الإرهابيّين ومعرفة هل بالإمكان التوصّل إلى اتّفاق لوقف العنف. أوضح له الرجل: ''إذا عقدنا صفقة معكم، ستعلن جبهة الحرّية (جبهة تحرير جنوب اليمن) أنّنا أزلام الإمبرياليّين، وأنّهم الممثّلون الحقيقيّون الوحيدون عن جنوب شبه الجزيرة العربيّة. لا يجب أن يكون هناك أدنى شكّ لدى أيّ شخص أنّ الجبهة القوميّة (''التحرير الوطنيّ'') قد حرّرت

جنوب الجزيرة العربيّة بقوّة السلاح، ودون مساعدة جبهة الحرّية أو المصريّين أو أيّ شخص آخر".[661]

661 Falle, *My Lucky Life*, p. 170.

في أيار/ مايو، تم تعيين السفير السابق في مصر والعراق همفري تريفليان، الذي استُدعي من التقاعد لشغل وظيفة واحدة وللمرة الأخيرة، خلفاً لتورنبول. لدى وصوله، كان الأمن سيّئاً للغاية لدرجة أنّه نُقل بالطائرة من مطار خور مكسر إلى منزله الجديد ذي الاسم المغلوط: مقرّ الحكومة. كانت وظيفته تقضي بمحاولة استعادة السلام والنظام في جنوب الجزيرة العربيّة قبل مغادرة البريطانيّين. لدى وصوله إلى مقرّ الحكومة، دعا جميع الأطراف إلى التحدّث إليه. "ما نودّ تحقيقه هو حكومة انتقاليّة مركزيّة واسعة النطاق تمثّل جنوب شبه الجزيرة العربيّة". كان هدف تريفليان من إصدار هذا البيان وضع "التحرير الوطنيّ" و"جبهة تحرير جنوب اليمن" أمام مسؤوليتهما، فقد سجّل الصّحافيّ البريطانيّ توم ليتل: "إن كانوا لا يرغبون في الحكومة الفيدراليّة الحاليّة، فعليهم المشاركة والمساعدة في تغييرها بالتوافق".[662]

662 Little, *South Arabia*, p. 168.

سرعان ما ازدادت مهمّة تريفليان صعوبة بعد أن صرّحت إذاعة القاهرة، خلال حرب الأيّام الستّة، أنّ بريطانيا تدعم الإسرائيليّين سرّاً. ولكن إن لم يغادر هو وزملاؤه جنوب شبه الجزيرة العربيّة وهي تشتعل وسط ألسنة اللهب لدى مغادرتهم، فعليه مواجهة الوضع غير القانونيّ الذي خلقته المجموعتان الإرهابيّتان، والذي زاد قوّتهما. كتب ليتل عند عودته إلى لندن: "صار التحقيق في عمليّات السطو على المصارف التي يموّل الإرهابيّون بها عمليّاتهم مستحيلاً. الناس يسيرون في الشوارع دون رؤية أو سماع شيء، والأهمّ من دون قول أيّ شيء. معظم المحامين والقضاة العدنيّين لن يحضروا إلى المحاكم".[663]

663 'Aden Struggle Over Who Will Succeed the British', *The Times*, 21 June 1967.

حينذاك كان جورج براون قد حلّ مكان ستيوارت وزيراً للخارجيّة. في 20 حزيران/ يونيو 1967، أعلن أنّ الحكومة البريطانيّة ستقدّم تسعة ملايين جنيه إسترليني لمساعدة الحكومة الجديدة، وأسلحة أكثر حداثة بما في ذلك بنادق ذاتيّة التلقيم لاستخدامها بدلاً من بنادق Enfield–Lee القديمة، وسيّارات مدرّعة، ومدفعيّات ميدانيّة، وطائرات Hunter. ستنشر بريطانيا قوّات بحريّة في المنطقة المجاورة، وقاذفات قنابل من نوع V في جزيرة مصيرة قبالة الساحل العمانيّ. وقال

أيضاً إنّه سيتم تعليق المحاكمة أمام هيئة محلّفين، بينما سيوضع حدّ للحظر المفروض على "التحرير الوطنيّ" لأنه كان عائقاً أمام إجراء مفاوضات فعّالة.

سرعان ما تبدّد الانطباع بأنّ الحكومة البريطانيّة تسيطر على الوضع بسبب الأحداث التي وقعت في عدن في اليوم نفسه. فقد تمرّد الجيش هناك بعد أن اشتكى أربعة عقداء من تأثير العلاقات القبليّة في الترقية. لم تعد الحكومة الفيدراليّة تثق برجالها، ولذا دعت القوّات البريطانيّة إلى سحق التمرّد، وهذا ما فعلته، لكن الثمن كان باهظاً مع سقوط سبعة عشر قتيلاً واثنين وعشرين جريحاً. عندما وصلت أخبار الاصطدامات إلى ثكنات الشرطة المسلّحة في كريتر، سارعت الأخيرة إلى التسلّح. كان من المفترض أن يذهب مساعد مفوّض الشرطة ليحاول تهدئتهم لكنّه كان سرّاً شخصيّة بارزة في "التحرير الوطنيّ"، وقد يكون ساهم في إذكاء التوتّرات. من المؤكّد أنّه بحلول الوقت الذي وصلت فيه دوريّة للجيش البريطانيّ لتقييم الوضع، وجدت المتاجر مغلقة، والشوارع مهجورة، والحواجز مجرّدة من التجهيزات. سرعان ما قُضيَ على البريطانيّين إثر تبادل لإطلاق النار. نقل طيّار مروحيّة جالَ فوق المكان أنّه رأى "سيّارتَي Land Rover وجثثاً في كلّ مكان". ثمّ تحطّم كاحله وركبتاه برصاص الكلاشينكوف الذي أُطلق عليه من البرّ، وأُرغم على الهبوط. يتذكّر العقيد كولن ميتشل، قائد الكتيبة الأولى من فوج المشاة التابع للجيش البريطاني (The Argyll and Sutherland Highlanders) وأحد الرجليْن اللذيْن كُلّفا مهمّة تحديد هويّة الجثث المشوّهة: "كانت كريتر في أيدي العدو".[664]

[664] Walker, *Aden Insurgency*, p. 248; Mitchell, *Having Been a Soldier*, p. 13.

كان "ميتش المجنون"، وهو اللقب الذي سيُطلق قريباً على كولن ميتشل، رجلاً غضوباً. كان جنديّاً محترفاً يبلغ 42 عاماً، وقاتل في إيطاليا وكوريا، ولديه خبرة واسعة في مكافحة التمرّد من الجولات التي خاضها في فلسطين وقبرص وكينيا، حيث توصّل إلى استنتاج مفادُه أنّ "الاستخدام الخاضع للرقابة لأساليب قاسية دون وحشيّة يمكن أن يقي من فقدان الأرواح". كان غاضباً إزاء تقاعس السلطات العليا عن إرسال بعثة إنقاذ إلى كريتر، وقد حمّل مسؤوليّة ذلك على ثقافة "تتغلّب فيها النفعيّة السياسيّة... على الحكمة العسكريّة".[665]

[665] Mitchell, *Having Been a Soldier*, pp. 115, 1.

كان ميتشل قد بدأ للتوّ جولته، وكان يستعدّ لاستعادة كريتر في أقرب وقت ممكن. لكنّ تريفليان كان أقلّ حماسة بكثير. إذ كان يرى ميتشل "قائد كتيبة من الدرجة الأولى"، ولكن ليس أكثر من

ذلك، وكان يخشى من أن تتسبّب تكتيكات القبضة الحديدية التي يقترحها الاسكتلنديّ في خسائر فادحة في صفوف قوّات الشرطة، ما قد يؤدي إلى تمرّد آخر. كان على تريفليان أن يفكّر أيضاً وسط تلك الظروف في سلامة مئة شخص تقريباً من المسؤولين والمستشارين البريطانيّين. كان قد باشر مسؤولون آخرون التفاوض مع "التحرير الوطنيّ" عبر مساعد مفوّض الشرطة، على أمل التوصّل إلى نتيجة سلميّة، وأراد تريفليان وقيادة الشرق الأوسط معرفة هل ستنجح هذه الأساليب.[666]

666 Trevelyan, *Public and Private*, p. 73.

سرعان ما صار واضحاً أنّه ليس لدى الإرهابيّين رغبة خاصّة في وضع حدّ لهذا الموقف. فعدا تناحرهم على السلطة، شكّل الاستيلاء على إحدى المناطق الرئيسيّة للمستعمرة البريطانيّة طريقة مفيدة لحفظ ماء الوجه بعد أسبوعين من نكسة العرب في حرب الأيّام الستّة.

لم يكن العرب الوحيدين الذين كانوا بحاجة إلى حفظ ماء الوجه، ووافق كلّ من تريفليان والقائد العامّ للقوّات البريطانيّة على خطّة ميتشل لاستعادة المنطقة. في مساء 3 تموز/ يوليو، في حين كان عازف المزمار يعزف لحن الهجوم الخاص بالفوج، عاود رجال أرغيل دخول كريتر. كان ميتشل قد أرسل بلاغاً إلى الصّحافة، وشدّد على الاختلاف في الرأي الموجود بينه وبين كبار الضبّاط.

لدى وصوله إلى كريتر، فرض ميتشل ما أسماه "قانون أرغيل". قال لأحد الصحافيّين: "إنّهم يعلمون أنّه في حال باشروا ارتكاب أعمال الشغب، سنفجّر رؤوسهم اللعينة". إنّ الحقيقة المظلمة لما بدا أنّه مجرّد تبجّج كلاميّ صارت جليّة في ما بعد. وحصل الجنود بقيادة ميتشيل على شارة Robertson's Jam Golliwog لقاء كلّ عربيّ قتلوه.[667]

667 'Lt Col CC "Mad Mitch" Mitchell', *Daily Telegraph*, 24 July 1996; French, *The British Way in Counter-Insurgency*, p. 151.

تعرّض ميتشل للتوبيخ في الوقت المناسب وكُبح جماحه. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تُستأنف الهجمات بالقنابل اليدويّة والأسلحة الناريّة، التي استهدفت سكّان أرغيل على وجه الخصوص. أُطلقت قذائف الهاون على مقرّ المفوّض السامي. ولم تفضِ جهود تريفليان للتوسّط في اتّفاق سياسيّ إلى أيّ نتيجة. خارج عدن، بدأ الاتّحاد ينهار عندما استولت "جبهة التحرير" على السلطة في خمس من ولاياته السبع عشرة في آب/ أغسطس؛ كلّ ما تمكّن البريطانيّون من فعله هو ترتيب عمليّة فرار السلاطين وأُسرهم إلى المنفى.

غادر تريفليان في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر، وودّعته الفرقة العسكريّة على لحن أغنيةFings Ain't Wot they Used t'Be. غادرت القوّات البريطانيّة الأخيرة في اليوم التالي، اليوم نفسه

الذي غادرت فيه قوّات عبد الناصر المتبقّية في اليمن.

كتب تريفليان بعد بضع سنوات وهو يعاود التفكير في الإرث الذي تركه البريطانيّون وراءهم: ”كلّ ما أمكننا قوله، في ذلك الوقت، هو أنّه كان يمكن للأمور أن تكون أسوأ بكثير“.

> في النهاية، نشأت دولة عربيّة أخرى صغيرة مستقلّة، فقيرة إلى أقصى الحدود، كان مكتوباً عليها، على الأرجح، مواجهة مراحل من العنف والتمرّد. كان وجود البريطانيّين خفيفاً فيها، وكان سيختفي قريباً، باستثناء الثكنات الكبرى والمطار والكنائس المهجورة وعدد قليل من علامات الاتّجاه التي طُمست، وتشير إلى مواقع معاهد الجيش والقوّات البحريّة والجويّة أو الفوضى التي خلّفتها الرقابة. لم تدرّ مدة احتلالنا للبلاد إلّا بمنفعة مؤقّتة عليها رغم النيات الحسنة والجهود والتضحيات التي بذلها الإنكليز المتفانون. أيّاً كانت مكامن الخطأ والصواب في الطريقة التي غادرنا بها، وبغضّ النظر عمّن سيأتي بعدنا، حان وقت مغادرتنا. وإن كان محتّماً علينا الذهاب، فمن الأفضل ألّا نصرّ على البقاء.[668]

668 Trevelyan, *Public and Private*, p. 75.

الخاتمة

بينما قضت هزيمة مصر، خلال حرب الأيّام الستّة، على سمعة عبد الناصر، فإنّ إغلاق قناة السويس وحظر النفط العربيّ وضعا بريطانيا تحت ضغوط ماليّة شديدة مرّة أخرى. على مدى السنوات الثلاث التي تلت، تكبّدت البلاد 175 مليون جنيه إسترليني نتيجة الحاجة إلى شراء النفط المقوّم بالدولار، وهو مبلغ يفوق إمكاناتها. فقد دفع الغضب والخوف من فرض الحكومة ضوابط على رأس المال المستثمرينَ العرب إلى سحب المقدار نفسه من المصارف البريطانيّة. لم يكن هارولد ويلسون يحبّ أبداً تخفيض قيمة العملة لاعتقاده أنّ هذا ما أساء إلى مصداقيّة حكومة حزب العمل الأخيرة. لكن بحلول خريف 1967، لم يعد لديه خيار. وفي 19 تشرين الثاني/ نوفمبر – قبل عشرة أيّام من انسحاب القوّات الأخيرة من عدن – خفّضت الحكومة قيمة الجنيه بأربعين سنتاً، واستقال المستشار جيم كالاهان.

لم يكن تخفيض قيمة العملة كافياً. سيكون من الضروريّ إجراء المزيد من التخفيضات على النفقات العامّة، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة، وفق استطلاعات الرأي، تستنزف دعم الشعب. كانت الحكومة تفكّر فعليّاً في الانسحاب من الخليج بحلول 1975؛ في 4 كانون الثاني/ يناير 1968، وافق ويلسون ووزراؤه على إرجاء موعد المغادرة إلى 1971.

صار الآن وزير الخارجيّة، جورج براون، أمام مهمّة لا يُحسد عليها، تتمثّل في نقل هذه الأخبار إلى الأميركيّين، فغادر إلى واشنطن من دون أي أوهام بخصوص كيفية تلقي قرار الحكومة. حينذاك كان الرئيس جونسون، الذي لا يزال يخطّط للترشّح لولاية ثانية في الانتخابات المرتقبة في تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام، يعدّ خطابه السنوي حول وضع البلاد، وكان السفير الأميركي لدى لندن قد سبق وحذّر براون من أن "الكشف عن أنّه قد تمّ التخلي عنّا، في خضمّ تدخّلنا في فيتنام، من حكومة يُفترض أن تكون أكبر حلفائنا، برئاسة رئيس للوزراء أعلن مراراً وتكراراً أنّه 'رجل من شرق السويس' ليس بالأمر الحكيم، كما أنّه استفزازيّ وغير مقبول إطلاقاً".[669]

669 Smith, *Ending Empire in the Middle East*, p. 119.

عندما قابل براون العميد راسك في 11 كانون الثاني/ يناير، كان الأخير يعلم أساساً ما جاء براون ليقوله، لأنّ دينيس هيلي، الذي انزعج من كيفيّة معالجة ويلسون للمسألة، عرض بهدوء على ديبلوماسيّ أميركيّ في لندن روايته عن اجتماع مجلس الوزراء في 4 كانون الثاني/ يناير. لكنّ

براون عرض الأمر كأنّ تغيير الموقف لا يزال ممكناً. رغم أنّ راسك أخبره أنّه يشتمّ "رائحة الأمر الواقع المريرة"، فإنّه طلب منه نقل مخاوفه العميقة إلى ويلسون. وفقاً لرواية وزارة الخارجيّة عن الاجتماع، نُقل أنّه "شعر بالخوف الشديد" و"تخوّف خاصّة" من نيات الحكومة البريطانيّة. نقل براون عن راسك قوله لدى وصوله إلى لندن: "بربّكم، تصرّفوا كبريطانيّين".[670]

[670] TNA, CAB 128/43, CC (67) 6th Conclusions, 12 January 1968; *FRUS*, 1964–68, Vol. XII, p. 604, memorandum of conversation, 1 January 1968.

لم تُفضِ المناشدة إلى أيّ نتيجة. في 12 كانون الثاني/ يناير 1968، بعد أن نقل براون خلاصة محادثته مع راسك، قرّر ويلسون وزملاؤه ألا يغيّروا المسار المتّبع. ورد في محضر الاجتماع:

> حان الوقت لوضع حدّ حاسم لسياساتنا السابقة. لا يُفترض بنا، بعد الآن، اعتماد سياسات معيّنة لمجرّد أنّ الولايات المتحدة ترغب منّا في تبنّي قراراتها، خوفاً من العواقب الاقتصاديّة في حال لم نفعل ذلك. كانت صداقة الولايات المتحدة مهمّة بالنسبة إلينا، لكنّنا دفعنا في أحيان كثيرة ثمناً باهظاً لها. يواجه البلدان صعوبات في ميزان المدفوعات. والولايات المتحدة تتعامل معها باعتماد سياسة تستند أساساً على المصلحة الذاتيّة. لا يمكنها الاشتكاء إن فعلنا الشيء نفسه.[671]

[671] TNA, CAB 128/43, CC (67) 6th Conclusions, 12 January 1968.

***

قبل مغادرة البريطانيّين، كان من المفترض إيجاد حلّ لبعض المسائل العالقة. رغم أنّ انتشار الشيوعيّة في الشرق الأوسط كان مرتقباً منذ مدة طويلة، فإنّ ذلك لم يتحقّق إلّا في 1968، عندما أسفرت الحرب القصيرة التي أعقبت خروج بريطانيا من عدن عن إنشاء الدولة الماركسيّة الأولى والوحيدة في المنطقة: جمهوريّة جنوب اليمن الشعبيّة. مع أنّ المستشارين الروس والصينيّين والكوبيّين الذين سرعان ما حلّوا مكان البريطانيّين لم يحرزوا أيّ تقدم في اليمن، فإنّ تأثيرهم كان ملحوظاً في منطقة ظفار المعزولة المجاورة التي تقع في عُمان الغربيّة.

بينما شهد جنوب اليمن تحسّناً اقتصاديّاً سريعاً نتيجة تدفّق الأموال الروسيّة، لم تشهد ظفار المجاورة ذلك. فقد كانت منطقة جبليّة تتعرّض للرّياح الموسميّة، ولعواصف شديدة خلال جزء من السنة، وكانت مكاناً خصباً إنّما فقيراً بصورة استثنائية حتّى بالنسبة إلى المعايير المتدنّية لعُمان، وكان يسكنها الرعاة الذين كانوا يطعمون ماشيتهم السمك المجفّف. كتبَ جنديّ بريطاني: "كانوا رجالاً يقظين، وعدوانيّين، وسريعي البديهة، ويتميّزون بقدرة كبيرة على المحاججة". نشأتْ فيها حركة استقلال كانت مدعومة في البداية من السعوديّين – "جبهة تحرير ظفار" – منذ منتصف

ستّينيّات القرن الماضي، وكادت أن تنجح في اغتيال السلطان عام 1966. أُرغم السلطان على الانسحاب إلى قصره في صلالة، وأدار بعد ذلك أعمال الحكومة وحملته ضدّ الحداثة مع أعوانه عن طريق الهاتف اللاسلكيّ. كا قد بدأ استلام جزء من إيرادات النفط التي بدأت تتدفّق أخيراً في 1967، لكنّه رفض تقاسم الثروة بحجّة أنّه من المهمّ بناء احتياطات ماليّة أوّلاً. بالتزامن مع ذلك، تداعت شعبيّة البريطانيّين أكثر فأكثر.[672]

672 Akehurst, *We Won a War*, p. 8.

منح تأسيس جنوب اليمن الشيوعيّ المجاور في 1967 حركة التمرّد الظفاري زخماً جديداً لكن شريراً. فقد وفّر جنوب اليمن ملاذاً آمناً للمتمرّدين. وحظر المستشارون الصينيّون ومن بعدهم الروس الصّلاة، ولقّنوهم الفكر الماركسيّ، وأمّنوا الأسلحة والتدريبات لحرب العصابات. بحلول 1969، سيطر الظفاريّون على المرتفعات المطلّة على الساحل، وألحقوا سلسلة من الهزائم بقوّات السلطان، وسيطروا بصورة محكمة على الطريق التي تربط صلالة بمسقط وحقول النفط في الشمال. وتجسيداً لهدفهم الأسمى أعادوا تسمية أنفسهم ״الجبهة الشعبيّة لتحرير الخليج العربيّ״.

مع اقتراب انتهاء المهلة المحددة عام1971، وبما أنّهم وعدوا الأميركيّين بضمانهم عمليّة نقل منظّمة للسلطة، أُجبر البريطانيّون على التدخّل. بعد اختيارهم قابوس، ابن السلطان، كبديل مناسب – كان قد تدرّب في ساندهيرست ثمّ حصل على خبرة في العمل مع مجلس مقاطعة بيدفوردشير – شجّعوه على الإطاحة بوالده، وهذا ما فعله في 23 تموز/ يوليو 1970.

اليوم، تقول وزارة الخارجيّة إن ملفّها الذي يحمل عنوان ״عمان: سياسات عام 1970״ قد فُقد بطريقة ما. لكنّ المحاولة البريطانية لإنكار أيّ تورّط في عمليّة الإطاحة بالسلطان نُسفت جرّاء اكتشاف مذكّرة مكتوبة قبل ساعات من الانقلاب، تحدّد ترتيبات سفر السلطان فور الإطاحة به. أمضى السلطان – الذي أطلق النّار على قدمه أثناء محاولته الدفاع عن نفسه – ما تبقّى من حياته في جناح في فندق دورشِستر في بارك لين بلندن. وقيل أنّه كلما أتى أحد على ذكر عُمان أمامه، كان يقهقه بصوت عالٍ. أجرى ابنه قابوس تعديلاً جذريّاً في البلاد، وبقي في السلطة حتى وفاته في 2020.[673]

673 The missing file is FO 1016/795.

قبل بضعة أسابيع، كان هارولد ويلسون قد خسر في الانتخابات العامّة؛ وترك خلَفُه إدوارد هيث الباب مفتوحاً أمام احتمال إلغاء حكومة المحافظين قرار ״العمل״ الانسحابَ من الخليج. كان يعتمد

ذلك، إلى حدّ كبير، على موقف شاه إيران، الرجل الذي رفضه البريطانيّون يوماً لأنه غير حاسم وغير أهل للثقة، ولكنّه كان يساعد العمانيّين على خوض انتفاضتهم في ظفار، وقد أظهر أخيراً اهتماماً بشراء عدد كبير من الدبّابات البريطانيّة.

مع رحيل بريطانيا، وجد الشاه فرصة سانحة للتشديد على مطالبة بلده الطويلة الأمد بالبحرين، وبعدد من الجزر المُتنازَع عليها في الخليج. عندما قابله وزير الخارجيّة في حكومة هيث، رئيس الوزراء السابق أليك دوغلاس هوم، كان من الواضح أنّه لن يكون من السّهل إقناع الحاكم الإيرانيّ بتغيير رأيه. في تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام، قبل مغادرتهم الخليج، وافق البريطانيّون على الاستيلاء الإيرانيّ على ما سمّاه أحدهم "صخرة وبضعة ثعابين وثلاثة هنود ومنارة".[674]

674 Buchan, *Days of God*, p. 167.

بقيت سمعة بريطانيا راسخة في جنوب الجزيرة العربيّة مع مرور الزمن. وبقيت عمان – أقدم حليف لبريطانيا في المنطقة – أقوى حلفائها. أعادت التجربة الفظيعة التي أعقبت الاستعمار في اليمن المجاورة إحياء بعض الذكريات الورديّة من حقبة ما قبل 1967. عندما زرتها بعد أربعين سنة، في ربيع 2006، سألني رجل هل يرغب البريطانيّون في العودة. ما زلتُ غير متأكّد إن كان يمزح أم لا.

لائحة الاختصارات المستخدمة في الهوامش

CAC – Churchill Archives Centre, Cambridge

FRUS – Foreign Relations of the United States

HC Deb – House of Commons, Debates

IOR – India Office Records, London

JTA – Jewish Telegraphic Agency

MEC – Middle East Centre Archive, Oxford

SHAT – Service Historique de l’Armée de Terre, Paris

TNA – The National Archives, London

USIME – US Intelligence on the Middle East

يمكن الاطلاع على الأرشيفات والمصادر على الإنترنت.

المراجع

1- مصادر الأرشيف

Churchill College, Cambridge

Amery, L.

India Office Records, London

L/ PS Series files (India Office: Political and Secret Department Records 1756–*c*. 1950)

R/ 15 Series files (Gulf States: Records of the Bushire, Bahrain, Kuwait, Muscat and Trucial States Agencies 1763–1951)

Middle East Centre Archives, Oxford

Crossman, R.

Deane–Drummond, A.

Graham, J.

Paxton, J.

Philby, H.

Slade–Baker, J.

Smiley, D.

National Archives, London

Files from series:

AIR 19 (Air Ministry: Private Office Papers)

CAB 66 (Cabinet: Second World War Memoranda)

CAB 67 (Second World War Memoranda)

CAB 110 (War Cabinet and Cabinet Office: Joint American Secretariat: Correspondence and Papers)

CAB 128 (Cabinet Post–War Conclusions)

CAB 129 (Cabinet Post–War Memoranda)

CAB 131 (Cabinet: Defence Committee: Minutes and Papers)

CAB 134 (Cabinet: Miscellaneous Committees: Minutes and Papers)

CAB 195 (Cabinet Secretary's Notebooks)

CAB 301 (Cabinet Office: Cabinet Secretary's Miscellaneous Papers, 1936–1952)

CO 537 (Colonial Office: Confidential General and Confidential Original Correspondence)

CO 733 (Colonial Office: Palestine Original Correspondence)

CO 967 (Colonial Office: Private Office Papers)

DO 35 (Dominions Office and Commonwealth Relations Office: Original Correspondence)

FO 115 (Foreign Office: Embassy and Consulates: United States: General Correspondence)

FO 141 (Foreign Office: Embassy and Consulates: Egypt: General Correspondence)

FO 248 (Foreign Office: Embassy and Consulates: Iran: General Correspondence)

FO 371 (Foreign Office: Political Departments: General Correspondence)

FO 800 (Foreign Office, Private Offices, Various Ministers' and Officials' Papers)

FO 898 (Political Warfare Executive and Foreign Office: Political Intelligence Department: Papers)

FO 921 (War Cabinet: Office of the Minister of State Resident in the Middle East: Registered Files)

FO 1093 (Permanent Under–Secretary's Department: Registered and Unregistered Papers)

HS 3 (Special Operations Executive: Africa and Middle East Group: Registered Files)

KV 3 (Security Service: Subject Files)

PRE M 4 (Prime Minister's Office: Confidential Correspondence and Papers)

PRE M 11 (Prime Minister's Office: Correspondence and Papers, 1951–1964)

T 220 (Treasury: Imperial and Foreign Division: Registered Files)

2– المصادر والأرشيفات عبر الإنترنت

Aid, Matthew M., ed., US Intelligence on the Middle East 1945–2009, http://primarysources.brillonline.com/browse/us–intelligence–onthe–middle–east

Eddy, W., *FDR meets Ibn Saud*, http://susris.com/wp–content/uploads/2014/02/100222–fdr–abdulaziz–eddy.pdf

Foreign Relations of the United States, Volumes covering 1941–1971, https://history.state.gov/historicaldocuments

Lakeland, W., interview (Seeley G. Mudd Manuscript Library, Princeton), http://models.street–artists.org/wp–content/uploads2010/07/Lakeland–interview–final.pdf

Stutesman, J., oral history interview, http://www.adst.org/OH %20TO Cs/Stutesman,%20John%20H.toc.pdf

Reports by H. Tuhami for Nasser: http://digitalarchive.wilsoncenter.org/document/112263; http://digitalarchive.wilsoncenter.org/document/112262

Wilber, D., *Clandestine Service History: Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952–August 1953*, March 1954, https://nsarchive2.gwu.edu/NSAEBB/ciacase/Clandestine%20Service%20History.pdf

3– كتب وأطروحات ومقالات

Abdelrehim, N, ‘Oil Nationalisation and Managerial Disclosure: The Case of Anglo–Iranian Oil Company, 1933–1951’, PhD thesis, University of York 2010

Aburish, S., *The St George Hotel Bar*, London 1989

Adams Schmidt, D., *Yemen: The Unknown War*, London 1968

Akehurst, J., *We Won a War: The Campaign in Oman, 1965–75*, Wilton 1982

Aldrich, R., *The Hidden Hand: Britain, America and Cold War Secret Intelligence*, London 2002

Aldrich, R., ‘Policing the Past: Official History, Secrecy and British Intelligence Since 1945’, *The English Historical Review*, Vol. 119, No. 483 (September 2004), pp. 922–53

Aldrich, R., and Cormac, R., *The Black Door: Secret Intelligence and 10 Downing Street*, London 2016

Allfree, P., *Warlords of Oman*, London 1967

Anderson, I., *Aramco, the United States, and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Oil Policy, 1933–1950*, Princeton 1980

Anderson, P., '"Summer Madness": The Crisis in Syria, August–October 1957', *British Journal of Middle Eastern Studies*, Vol. 22, No. 1/ 2 (1995), pp. 21–42

Andrew, C., *The Defence of the Realm: The Authorized History of MI5*, London 2009

Ashton, N., 'The Hijacking of a Pact: The Formation of the Baghdad Pact and Anglo–American Tensions in the Middle East, 1955–58', *Review of International Studies*, Vol. 19, No. 2 (April 1993), pp. 123–37

Ashton, N., 'A Microcosm of Decline: British Loss of Nerve and Military Intervention in Jordan and Kuwait, 1958 and 1961', *The Historical Journal*, Vol. 40, No. 4 (December 1997), pp. 1069–83

Asseily, Y., and Asfahani, A., eds, *A Face in the Crowd: A Selection from Emir Farid Chehab's Private Archives*, London 2007

Bailey, R., *The Wildest Province: SOE in the Land of the Eagle*, London 2008

Baram, P., *The Department of State in the Middle East 1919–1945*, Univ. of Pennsylvania Press 1978

Barger, T., 'Middle Eastern Oil Since the Second World War', *Annals of the American Academy of Political and Social Science*, Vol. 401, America and the Middle East (May 1972), pp. 31–44

Barr, J., *A Line in the Sand*, London 2011

Bass, W., *Support Any Friend*, New York 2003

Beeston, R., *Looking for Trouble: The Life and Times of a Foreign Correspondent*, London 1997

Beschloss, M., *Kennedy and Roosevelt: The Uneasy Alliance*, New York *c*. 1980

Bew, J., *Citizen Clem: A Biography of Attlee*, London 2016

Blackwell, S., 'A Desert Squall: Anglo–American Planning for Military Intervention in Iraq, July 1958–August 1959', *Middle Eastern Studies*, Vol. 35, No. 3 (July 1999), pp. 1–18

Bower, T., *The Perfect English Spy*: *Sir Dick White and the Secret War, 1935–90*, London 1995

Bradshaw, T., 'History Invented: The British–Transjordanian "Collusion" Revisited', *Middle Eastern Studies*, Vol. 43, No. 1 (January 2007), pp. 21–43

Brands, H. W., 'The Cairo–Teheran Connection in Anglo–American Rivalry in the Middle East, 1951–53', *International History Review*, Vol. 11, No. 3 (August 1989), pp. 434–56

Brands, H. W., *Inside the Cold War: Loy Henderson and the Rise of the American Empire, 1918–1961*, New York 1991

Brecher, F., 'US Secretary of State George C. Marshall's Losing Battles against President Harry S. Truman's Palestine Policy, January–June 1948', *Middle Eastern Studies*, Vol. 48, No. 2 (March 2012), pp. 227–47

Brinkley D., and Facey–Crowther, D., eds, *The Atlantic Charter*, Basingstoke 1994

Buchan, J., *Days of God*, London 2012

Burrows, B., *Footnotes in the Sand*, Salisbury 1990

Catterall, P., ed., *The Macmillan Diaries*, Vols I and II, London 2003, 2011

Cavendish, A., *Inside Intelligence*, London 1997

Cesarani, D., *Major Farran's Hat: Murder, Scandal and Britain's War against Jewish Terrorism 1945–48*, London 2009

Chamoun, C., *Crise au Moyen Orient*, Paris 1963

Charmley, J., 'Churchill and the American Alliance', *Transactions of the Royal Historical Society*, Sixth Series, Vol. 11 (2001), pp. 353–71

Churchill, W. S., *The World Crisis 1911–1914*, London 1923

Churchill, W. S., 'Europe's Plea to Roosevelt', *Evening Standard*, 10 December 1937

Churchill, W. S., *Great Contemporaries*, London 1939

Churchill, W. S., *The Second World War*, Vols. I–VI, London 1948–54

Citino, N., 'Internationalist Oilmen, the Middle East, and the Remaking of American Liberalism, 1945–1953', *Business History Review*, Vol. 84, No. 2 (Summer 2010), pp. 227–51

Clark, V., *Yemen: Dancing on the Heads of Snakes*, New Haven 2010

Cohen, M., 'The British White Paper on Palestine, May 1939. Part II: The Testing of a Policy, 1942–1945', *The Historical Journal*, Vol. 19, No. 3 (September 1976), pp. 727–57

Cohen, M., 'American Influence on British Policy in the Middle East during World War Two: First Attempts at Coordinating Allied Policy on Palestine', *American Jewish Historical Quarterly*, Vol. 67, No. 1 (September 1977), pp. 50–70

Cohen, M. 'The Genesis of the Anglo–American Committee on Palestine, November 1945: A Case Study in the Assertion of American Hegemony', *Historical Journal*, Vol. 22, No. 1 (March 1979), pp. 185–207

Colville, J., *The Fringes of Power: Downing Street Diaries, 1939–1955*, London 1985

Conway, E., *The Summit*, London 2014

Cooper, A., *Cairo in the War, 1939–45*, London 1989

Copeland, M., *The Game of Nations*, New York 1969

Corera, G., *The Art of Betrayal*, London 2011

Cowles, G., *Mike Looks Back*, New York 1985

Crossman, R., *Palestine Mission*, London 1947

Crum, B. C., *Behind the Silken Curtain: A Personal Account of Anglo–American Diplomacy in Palestine and the Middle East*, New York 1947

Davidson, L., 'Truman the Politician and the Establishment of Israel', *Journal of Palestine Studies*, Vol. 39, No. 4 (Summer 2010), pp. 28–42

Davis, S., 'Keeping the Americans in Line? Britain, the United States and Saudi Arabia, 1939–45: Inter–Allied Rivalry in the Middle East Revisited', *Diplomacy & Statecraft*, Vol. 8, No. 1 (March 1997), pp. 96–136

de Moraes Ruehsen, M., 'Operation "Ajax" Revisited: Iran, 1953', *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 3 (July 1993), pp. 467–86

Deane–Drummond, A., *Arrows of Fortune*, London 1992

Dilks, D., ed., *The Diaries of Sir Alexander Cadogan, 1938–45*, London 1971

Dobson, A., *Anglo–American Relations in the Twentieth Century*, London 1995

Dockter, W., *Churchill and the Islamic World*: *Orientalism, Empire and Diplomacy in the Middle East*, London 2014

Dodge, B., 'American Educational and Missionary Efforts in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries', *Annals of the American Academy of*

Political and Social Science, Vol. 401, America and the Middle East (May 1972), pp. 15–22

Doran, M., *Ike's Gamble: America's Rise to Dominance in the Middle* East, New York 2016

Dorril, S., *MI6: Fifty Years of Special Operations*, London 2000

Dulles, J. F., 'Policy for Security and Peace', *Foreign Affairs*, Vol. 32, No. 3 (April 1954), pp. 353–64

Easter, D., 'Spying on Nasser: British Signals Intelligence in Middle East Crises and Conflicts, 1956–67', *Intelligence and National Security*, Vol. 28, No. 6 (2013), pp. 824–44

Eden, A., *Another World 1897–1917*, London 1976

Eisenhower, D., *Crusade in Europe*, New York 1948

Elm, M., *Oil, Power and Principle*, Syracuse 1994

Evans, T. E., ed., *The Killearn Diaries, 1934–1946: The Diplomatic and Personal Record of Lord Killearn (Sir Miles Lampson), High Commissioner and Ambassador, Egypt*, London 1972

Eveland, W., *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East*, New York 1980

Evensen, B., 'Truman, Palestine and the Cold War', *Middle Eastern Studies*, Vol. 28, No. 1 (January 1992), pp. 120–56

Falle, S., *My Lucky Life*, Lewes 1996

Ferrell, R., ed., *The Eisenhower Diaries*, New York 1981

Ferris, J., *Nasser's Gamble*, Princeton 2013

Field, J., 'Trade, Skills and Sympathy: The First Century and a Half of Commerce with the Near East', *Annals of the American Academy of*

Political and Social Science, Vol. 401, ‘America and the Middle East’ (May, 1972), pp. 1–14

Fielding, X., *One Man in his Time: The Life of Lieutenant–Colonel NLD (‘Billy’) McLean, DSO*, London 1990

French, D., ‘Duncan Sandys and the Projection of British Power after Suez’, *Diplomacy & Statecraft*, Vol. 24, No. 1 (March 2013), pp. 41–58

French, D., *The British Way in Counter–Insurgency, 1945–1967*, Oxford 2011

Gandy, C., ‘A Mission to Yemen: August 1962–January 1963’, *British Journal of Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 2 (1998), pp. 247–74

Gasiorowski, M., and Byrne, M., eds, *Mohammad Mosaddeq and the 1953 Coup in Iran*, Syracuse 2004

Gibson, J., *Jacko: Where Are You Now? A Life of Robert Jackson, Master of Humanitarian Relief; The Man Who Saved Malta*, Richmond 2006.

Gilbert, M., *Churchill and America*, London 2005

Glubb, J., *A Soldier with the Arabs*, London 1957

Goodman, M., *The Official History of the Joint Intelligence Committee*, Vol. I, London 2014

Gorst, A., and Lucas, W. S., ‘The Other Collusion: Operation Straggle and Anglo–American Intervention in Syria, 1955–56’, *Intelligence and National Security*, Vol. 4, No. 3 (1989), pp. 576–95

Grafftey–Smith, L., *Bright Levant*, London 1970

Grob–Fitzgibbon, B., *Imperial Endgame*, Basingstoke 2011

Hahn, P., ‘Securing the Middle East: The Eisenhower Doctrine of 1957’, *Presidential Studies Quarterly*, Vol. 36, No. 1 (March 2006), pp. 38–47

Harbutt, F., ‘Churchill, Hopkins, and the ”Other“ Americans: An Alternative Perspective on Anglo–American Relations, 1941–1945’, *International History Review*, Vol. 8, No. 2 (May 1986), pp. 236–62

Hardy, R., *The Poisoned Well: Empire and its Legacy in the Middle East*, London 2016

Hare, R., ‘The Great Divide: World War II’, *Annals of the American Academy of Political and Social Science*, Vol. 401, America and the Middle East (May 1972), pp. 23–30

Hare, P., *Diplomatic Chronicles of the Middle East: A Biography of Ambassador Raymond A. Hare*, Lanham 1993

Haron, M., ‘The British Decision to Give the Palestine Question to the United Nations’, *Middle Eastern Studies*, Vol. 17, No. 2 (April 1981), pp. 241–8

Harris, K., *Attlee*, London 1982

Hart, P., *Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership*, Bloomington 1998

Hart–Davis, D., *The War That Never Was*, London 2011

Harvey, J., ed., *The War Diaries of Oliver Harvey*, London 1978

Hassall, C., *Edward Marsh, patron of the arts*, London 1959

Healey, D., *The Time of my Life*, London 1989

Heath, E., *The Course of my Life: My Autobiography*, London 1998

Hecht, B., *A Child of the Century*, New York 1955

Heikal, M., *Cutting the Lion’s Tail: Suez through Egyptian Eyes*, London 1988

Hennessy, P., *The Prime Minister: The Office and its Holders Since 1945*, London 2000

Hinchcliffe, P., *Without Glory in Arabia*, London 2006

Hinds, M. ‘Anglo–American Relations in Saudi Arabia, 1941–1945: A Study of a Trying Relationship’, PhD thesis, London School of Economics 2012

Hoffman, B., *Anonymous Soldiers: The Struggle for Israel 1917–1947*, New York 2015

Hoopes, T., and Brinkley, D., *FDR and the Creation of the UN*, New Haven and London 1997

Horne, A., *Macmillan: The Official Biography*, Vol. I, London 1989

Horne, A., *But What Do You Actually Do?*, London 2011

Hudson, M., ‘To Play the Hegemon: Fifty Years of US Policy toward the Middle East’, *Middle East Journal*, Vol. 50, No. 3 (Summer 1996), pp. 329–43

Innes, N., *Minister in Oman*, Cambridge 1987

Ionides, M., *Divide and Lose*, London 1960

James, L., *Churchill and Empire*, London 2013

Johnston, C., *The Brink of Jordan*, London 1972

Jones, C. ‘“Where the State Feared to Tread”: Britain, Britons, Covert Action and the Yemen Civil War, 1962–64’, *Intelligence and National Security*, Vol. 21, No. 5 (2006), pp. 717–37

Jones, C., ‘Military Intelligence, Tribes, and Britain’s War in Dhofar, 1970–1976’, *Middle East Journal*, Vol. 65, No. 4 (Autumn 2011), pp. 557–74

Jones, M., ‘The “Preferred Plan”: The Anglo–American Working Group Report on Covert Action in Syria, 1957, *Intelligence and National Security*, Vol. 19, No. 3 (2004), pp. 401–15

Kelly S., and Gorst, A., eds, *Whitehall and the Suez Crisis*, London 2000

Kinzer, S., *All the Shah’s Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror*, New York 2003

Kirk, G., ‘The Syrian Crisis of 1957 – Fact and Fiction’, *International Affairs*, Vol. 36, No. 1 (January 1960), pp. 58–61

Kyle, K., *Suez*, New York 1991

Landis, J., ‘Restoring World Trade’, *Proceedings of the Academy of Political Science*, Vol. 21, No. 3 (May 1945), pp. 175–82

Landis, J., ‘Anglo–American Co–Operation in the Middle East’, *Annals of the American Academy of Political and Social Science*, Vol. 240, Our Muddled World (July 1945), pp. 64–72

Lesch, D., ‘When the Relationship Went Sour: Syria and the Eisenhower Administration’, *Presidential Studies Quarterly*, Vol. 28, No. 1, Wheeling and Dealing in the White House (Winter 1998), pp. 92–107

Levey, Z., ‘Britain’s Middle East Strategy, 1950–52: General Brian Robertson and the “Small” Arab States’, *Middle Eastern Studies*, Vol. 40, No. 2 (March 2004), pp. 58–79

Little, D., ‘Cold War and Covert Action: The United States and Syria, 1945–1958’, *The Middle East Journal* (Winter 1990), Vol. 44, No. 1, pp. 51–75

Little, D., ‘Pipeline Politics: America, TAPLINE and the Arabs’, *Business History Review*, Vol. 64, No. 2 (Summer 1992), pp. 255–85

Little, T., *South Arabia: Arena of Conflict*, London 1968

Louis, W. R., *The British Empire in the Middle East, 1945–51*, Oxford 1984

Louis, W. R., and Shlaim, A., eds, *The 1967 Arab–Israeli War: Origins and Consequences*, Cambridge 2012

Lucas, I., 'The Middle East and the Cold War', *Cambridge Review of International Affairs*, Vol. 7, No. 1 (1993), pp. 12–20

Lucas, I., *A Road to Damascus: Mainly Diplomatic Memoirs from the Middle East*, London 1997

Lucas, S., 'Divided We Stand: The Suez Crisis of 1956 and the Anglo–American "Alliance"', PhD thesis, LSE 1991

Lucas, S., *Divided We Stand: Britain, the US and the Suez Crisis*, London 1991

Lucas S., and Morey, A., 'The Hidden "Alliance": The CIA and MI6 Before and After Suez', *Intelligence and National Security*, Vol. 15, No. 2 (2000), pp. 95–120

McGhee, G., *Envoy to the Middle World*, New York 1983

Macintyre, B., *SAS: Rogue Heroes: The Authorized Wartime History*, London 2016

Maclean, F., *Eastern Approaches*, London 1991

Magnes, J., 'Toward Peace in Palestine', *Foreign Affairs*, Vol. 21, No. 2 (January 1943), pp. 239–49

Mangold, P., 'Britain and the Defence of Kuwait, 1956–71', *The RUSI Journal*, Vol. 120, No. 3 (1975), pp. 44–8

Mangold, P., *What the British Did*, London 2016

Marsh, S., 'The Special Relationship and the Anglo–Iranian Oil Crisis, 1950–4', *Review of International Studies*, Vol. 24, No. 4 (October 1998), pp. 529–44

Marsh, S., ‘HMG, AIOC and the Anglo–Iranian Oil Crisis’, *Diplomacy & Statecraft*, Vol. 12, No. 4 (December 2001), pp. 143–74

Mawby, S., ‘The Clandestine Defence of Empire: British Special Operations in Yemen 1951–64’, *Intelligence and National Security* (2002), Vol. 17, No. 3, pp. 105–30

Meacham, J., *Franklin and Winston: An Intimate Portrait of an Epic Friendship*, New York 2003

Mead, W. R., ‘The New Israel and the Old: Why Gentile Americans Back the Jewish State’, *Foreign Affairs*, Vol. 87, No. 4 (July–August 2008), pp. 28–46

Medoff, R., *Militant Zionism in America: The Rise and Impact of the Jabotinsky Movement, 1926–1948*, Tuscaloosa 2002

Mejcher, M., ‘Saudi Arabia’s “Vital Link to the West”: Some Political, Strategic and Tribal Aspects of the Transarabian Pipeline (TAP) in the Stage of Planning 1942–1950’, *Middle Eastern Studies*, Vol. 18, No. 4 (October 1982), pp. 359–77

Mitchell, C., *Having Been a Soldier*, London 1969

Mobley, R., ‘Gauging the Iraqi Threat to Kuwait in the 1960s’, *Studies in Intelligence*, Fall/ Winter 2001, pp. 19–31

Moe, R., *Roosevelt’s Second Act: The Election of 1940 and the Politics of War*, New York 2013

Morris, J., *Sultan in Oman*, London 1957

Morton, H. V., *Atlantic Meeting*, London 1944

Morton, M. Q., *Buraimi: The Struggle for Power, Influence and Oil in Arabia*, London 2013

Mott–Radclyffe, C., *Foreign Body in the Eye: A Memoir of the Foreign Service Old and New*, London 1975

Nachmani, A., '"It is a Matter of Getting the Mixture Right": Britain's Post–War Relations with America in the Middle East', *Journal of Contemporary History*, Vol. 18, No. 1 (January 1983), pp. 117–40

Neal, S., *Dark Horse: A Biography of Wendell C. Willkie*, New York 1984

Nutting, A., *No End of a Lesson: The Story of Suez*, London 1967

O'Connell, J., *King's Counsel*, New York 2011

Onslow, S., 'Unreconstructed Nationalists and a Minor Gunboat Operation: Julian Amery, Neil McLean and the Suez Crisis', *Contemporary British History*, Vol. 20, No. 1 (March 2006), pp. 73–99

Oren, M., *Power, Faith and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present*, New York 2007

O'Sullivan, C., *FDR and the End of Empire: The Origins of American Power in the Middle East*, Basingstoke 2012

Ottolenghi, M., 'Harry Truman's Recognition of Israel', *Historical Journal*, Vol. 47, No. 4 (December 2004), pp. 963–88

Ovendale, R., 'The Palestine Policy of the British Labour Government, 1945– 46', *International Affairs*, Vol. 55, No. 3 (July 1979), pp. 73–93

Ovendale, R., 'Great Britain and the Anglo–American Invasion of Jordan and Lebanon in 1958', *International History Review*, Vol. 16, No. 2 (May 1994), pp. 284–303

Owen, D., *In Sickness and in Power*, London 2008

Pappé, I., 'Overt Conflict to Tacit Alliance: Anglo–Israeli Relations 1948–51', *Middle Eastern Studies*, Vol. 26, No. 4 (October 1990), pp. 561–81

Pappé, I., 'Sir Alec Kirkbride and the Anglo–Transjordanian Alliance, 1945–50', in Zametica, J., ed., *British Officials and British Foreign Policy, 1945–50*, Leicester 1990

Parris, M., and Bryson, A., *Parting Shots*, London 2010

Pearson, I., 'The Syrian Crisis of 1957, the Anglo–American "Special Relationship", and the 1958 Landings in Jordan and Lebanon', *Middle Eastern Studies*, Vol. 43, No. 1 (2007), pp. 45–64

Penkower, M., 'Eleanor Roosevelt and the Plight of World Jewry', *Jewish Social Studies*, Vol. 49, No. 2 (Spring 1987), pp. 125–36

Petersen, T. T., 'Anglo–American Rivalry in the Middle East: The Struggle for the Buraimi Oasis, 1952–1957', *International History Review*, Vol. 14, No. 1 (February 1992), pp. 71–91

Petersen, T. T., 'Transfer of Power in the Middle East', *International History Review*, Vol. 19, No. 4 (November 1997), pp. 852–65

Pham, P., *Ending 'East of Suez': The British Decision to Withdraw from Malaysia and Singapore, 1964–68*, Oxford 2001

Podeh, E., *The Decline of Arab Unity: The Rise and Fall of the United Arab Republic*, Brighton 2015

Porath, Y., 'Nuri al–Sa'id's Arab Unity Programme', *Middle Eastern Studies*, Vol. 20, No. 4 (October 1984), pp. 76–98

Rahnema, A., *Behind the 1953 Coup in Iran*, Cambridge 2015

Randall, S. J., 'Harold Ickes and United States Foreign Petroleum Policy Planning, 1939–1945', *Business History Review*, Vol. 57, No. 3 (Autumn 1983), pp. 367–87

Rathmell, A., *Secret War in the Middle East*, new edn, London 2014

Rhodes James, R., *Chips: The Diaries of Sir Henry Channon*, London 1967

Ritchie, D. A., *James M. Landis: Dean of the Regulators*, Cambridge, MA 1980

Roberts, A., *Masters and Commanders*, London 2008

Roosevelt, T., ‘The Man in the Arena’, Speech at the Sorbonne, France 1910

Roosevelt, K., ‘Propaganda Techniques of the English Civil Wars and the Propaganda Psychosis of Today’, *Pacific Historical Review*, Vol. 12, No. 4 (December 1943), pp. 369–79

Roosevelt, K., ‘The Arabs Live There Too’, *Harper’s Magazine*, October 1946, pp. 289–94

Roosevelt, K., ‘Egypt’s Inferiority Complex’, *Harper’s Magazine*, 1 October 1947, pp. 357–64

Roosevelt, K., ‘The Partition of Palestine: A Lesson in Pressure Politics’, *Middle East Journal*, Vol. 2, No. 1 (January 1948), pp. 1–16

Roosevelt, K., ‘Triple Play for the Middle East’, *Harper’s Magazine*, April 1948, pp. 359–69

Roosevelt, K., ‘The Middle East and the Prospect for World Government’, *Annals of the American Academy of Political and Social Science*, Vol. 264 (July 1949), pp. 52–7

Roosevelt, K., *Arabs, Oil and History*, London 1949

Roosevelt, K., *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran*, New York 1979

Rose, N., *‘A Senseless Squalid War’: Voices from Palestine 1945–1948*, London 2009

Rubin, B., ‘Anglo–American Relations in Saudi Arabia, 1941–45’, *Journal of Contemporary History*, Vol. 14, No. 2 (April 1979), pp. 253–67

Rubin, B., *The Great Powers in the Middle East 1941–1947*, London 1980

Sanjian, A., ‘The Formulation of the Baghdad Pact’, *Middle Eastern Studies*, Vol. 33, No. 2 (April 1997), pp. 226–66

Seale, P., *The Struggle for Syria*, London 1965

Segev, T., *One Palestine, complete: Jews and Arabs under the British mandate*, London 2000

Shlaim, A., 'The Protocol of Sevres, 1956: Anatomy of a War Plot', *International Affairs*, Vol. 73, No. 3 (July 1997), pp. 509–30

Shlaim, A., *Lion of Jordan*, London 2007

Shuckburgh, E., *Descent to Suez: Diaries 1951–56*, London 1986

Slonim, S., 'Origins of the 1950 Tripartite Declaration on the Middle East', *Middle Eastern Studies*, Vol. 23, No. 2 (April 1987), pp. 135–49

Smiley, D., *Arabian Assignment*, London 1975

Smith, S., *Ending Empire in the Middle East*: *Britain, the United States and Post–war Decolonisation*, London 2012

Sweet Escott, B., *Baker Street Irregular*, London 1965

Tal, L., 'Britain and the Jordan Crisis of 1958', *Middle Eastern Studies*, Vol. 31, No. 1 (January 1995), pp. 39–57

Talbot, D., *The Devil's Chessboard: Allen Dulles, the CIA and the Rise of America's Secret Government*, London 2016

Talhamy, Y., 'American Protestant Missionary Activity among the Nusayris (Alawis) in Syria in the Nineteenth Century', *Middle Eastern Studies*, Vol. 47, No. 2 (2011), pp. 215–36

Taylor Fain, W., '"Unfortunate Arabia": The United States, Great Britain and Yemen, 1955–63', *Diplomacy & Statecraft*, Vol. 12, No. 2 (June 2001), pp. 125–52

Taylor Fain, W., 'John F. Kennedy and Harold Macmillan: Managing the "Special Relationship" in the Persian Gulf Region, 1961–63', *Middle Eastern Studies*, Vol. 38, No. 4 (October 2002), pp. 95–122

Thesiger, W., ‘A New Journey in Southern Arabia’, *The Geographical Journal*, Vol. 108, No. 4/ 6 (October–December 1946), pp. 129–45

Thesiger, W., ‘Across the Empty Quarter’, *The Geographical Journal*, Vol. 111, No. 1/ 3 (January– March 1948), pp. 1–19

Thesiger, W., ‘A Further Journey Across the Empty Quarter’, *Geographical Journal*, Vol. 113 (January–June 1949), pp. 21–44

Thesiger, W., ‘Desert Borderlands of Oman’, *The Geographical Journal*, Vol. 116, No. 4/ 6 (October–December 1950), pp. 137–68

Thesiger, W., ‘Buraimi Oasis’, *Illustrated London News*, 3 July 1954

Thesiger, W., *Arabian Sands*, London 1991

Thomas, J., *The Diplomatic Game*, n.d.

Thornhill, M., *Road to Suez: The Battle of the Canal Zone*, Stroud 2006

Thorpe, D. R., *Eden: The Life and Times of Anthony Eden, First Earl of Avon, 1897–1977*, London 2003

Trevelyan, H., *The Middle East in Revolution*, London 1970

Trevelyan, H., *Public and Private*, London 1980

Truman, H., *Memoirs,* Vols I and II, London 1955 and 1956

Twitchell, K., *Saudi Arabia: With an Account of the Development of Its Natural Resources*, Princeton 1958

Tydor Baumel, J., ‘The IZL Delegation in the USA 1939–1948: Anatomy of an Ethnic Interest/ Protest Group’, *Jewish History*, Vol. 9, No. 1 (Spring 1995), pp. 79–89

Vassiliev, A., *The History of Saudi Arabia*, London 1998

Vitalis, R., *America’s Kingdom*, London 2009

Von Tunzelmann, A., *Blood and Sand*, London 2016

Wagner, S., 'Britain and the Jewish Underground, 1944–46: Intelligence, Policy and Resistance', MA thesis, University of Calgary 2010

Walker, J., *Aden Insurgency: The Savage War in Yemen 1962–67*, Barnsley 2011

Walton, C., *Empire of Secrets: British Intelligence, The Cold War, and the Twilight of Empire*, London 2013

Wevill, R., *Diplomacy, Roger Makins and the Anglo–American Relationship*, Farnham 2014

Wilber, D., *Iran: Past and Present*, Princeton 1958

Wilford, H., *America's Great Game*, New York 2013

Willkie, W., *One World*, London 1943

Wilmington, M. W., *The Middle East Supply Centre*, Albany 1971

Winger, G., 'Twilight on the British Gulf: The 1961 Kuwait Crisis and the Evolution of American Strategic Thinking in the Persian Gulf', *Diplomacy & Statecraft*, Vol. 24, No. 4 (2012), pp. 660–78

Wolfe–Hunnicutt, B., 'The End of the Concessionary Regime: Oil and American Power in Iraq, 1958–72', PhD thesis, Stanford University 2011

Woodhouse, C. M., *Something Ventured*, London 1982

Woodward, L., *British Foreign Policy in the Second World* War, Vols I–V, London 1970–76

Worrall, R., '"Coping with the Coup d'Etat": British Policy towards Post–Revolutionary Iraq, 1958–63', *Contemporary British History*, Vol. 21, No. 2, pp. 173–99

Wright, D., 'Ten Years in Iran – Some Highlights', *Asian Affairs*, Vol. 22, No. 3 (1991), pp. 259–71

Yapp, M., *The Near East Since the First World War*, London 1996

Yaqub, S., *Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and the Middle East*, Chapel Hill 2004

Yergin, D., *The Prize*, New York 2003

Yeşilbursa, B., 'The American Concept of the "Northern Tier" Defence Project and the Signing of the Turco–Pakistani Agreement, 1953–54', *Middle Eastern Studies*, Vol. 37, No. 3 (July 2001), pp. 59–110

Yeşilbursa, B., *The Baghdad Pact: Anglo–American Defence Policies in the Middle East 1950–1959*, London 2005

Young, G. K., *Who Is my Liege?*, London 1972

Zadka, S., 'Between Jerusalem and Hollywood: The Propaganda Campaign in the USA on Behalf of the Palestinian Jewish Insurgency in 1940s', *Revue Européenne des Etudes Hébraïques*, No. 3 (1998), pp. 66–82

حول الكتاب

نبذة

عقب الانتصار عام 1945، ظلّت بريطانيا مهيمنة على الشرق الأوسط، لكنّ الدوافع وراء رغبتها في السيطرة كانت تتغيّر. عَجِز البريطانيّون عن مواجهة القوميّة العربيّة واليهوديّة، ولذا رحلوا في غضون عقد. لكن هذه ليست القصّة الكاملة. فما سرّع خروج بريطانيا في نهاية المطاف كان الموقف المتصلّب للولايات المتّحدة التي كانت مصمّمة على الحلول مكان البريطانيّين في الشرق الأوسط.

لم يستسلم البريطانيّون بلباقة لهذا الهجوم. فباستخدام سجلّات رُفعت عنها السرّية حديثاً ومذكّرات منسيّة منذ أمد بعيد، ينسف جايمس بار التفسير التقليديّ لتلك المرحلة التاريخيّة في الشرق الأوسط.

قيل في الكتاب

* «كتابٌ مدهش» The Times
* «أسلوب جميل وبحث عميق» The Guardian

عن المؤلف

جايمس بار مؤرّخ وكاتب بريطاني متخصّص بشؤون الشرق الأوسط. تخرّج في جامعة أكسفورد. كتب في صحيفتي Daily Telegraph وCity. صدر له عن دار الساقي: «الصحراء تشتعل: لورانس العرب وأسرار الحرب البريطانية في الجزيرة العربية»، و«خطّ في الرمال».